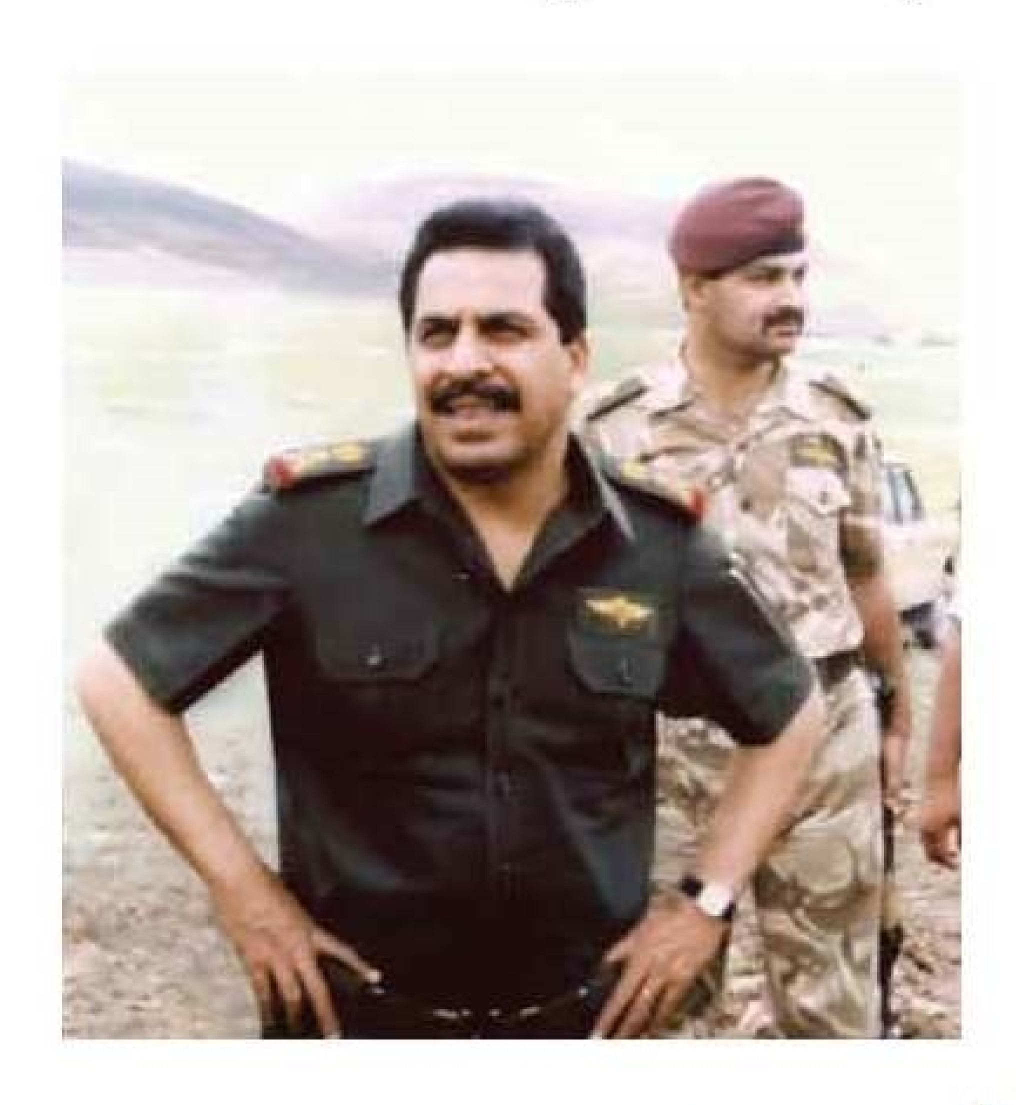
مذكرات وشهادات

نزار عبد الكريم فيصل الخزرجي

الحرب العراقية - الإيرانية ١٩٨٠-١٩٨٨

مذكرات مقاتل





المركز العربي للأبحاث و دراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies



قرطبة للنشر **الرقمي**

الحرب العراقية - الإيرانية

١٩٨٠ - ١٩٨٨ مذكرات مقاتل

نزار عبد الكريم فيصل الخزرجي

دراسات

السياسات ودراسة للأبحاث العربي المركز إعداد – النشر أثناء الفهرسة
فيصل الكريم عبد نزار ،الخزرجي
الكريم عبد نزار / مقاتل مذكرات :1980-1988 ،الإيرانية - العراقية الحرب
.القصاب الستار عبد الوهاب عبد ومراجعة تقديم الخزرجي؛ فيصل
(وشهادات مذكرات) - .سم 24 ؛ خرائط ،.ايض : .ص 638
ISBN "Paper version": 978-9953-0-2904-7
عبد الوهاب عبد ،القصاب .أ .1980-1988 ،العراقية - الإيرانية الحرب .1
.السلسلة .ج .العنوان .ب الستار
955.0542

بالإنكليزية العنوان

The Iraq-Iran War

1980-1988

Memoirs of a Fighter

by General (General Staff) Nizar Abdulkareem Faysal Al-Khazraji

Introduced and Revised by

Abdulwahab Abdulsattar Al-Qassab

الناشر

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
ARAB CENTER FOR RESEARCH & POLICY STUDIES



66 منطقة ـ 826 :رقم شارع
قطر ـ الدوحة ـ 10277 :ب .ص ،الدفنة ـ الدبلوماسية المنطقة
00974 - 44831651 :فاكس 00974 ـ 44199777 :هاتف
174 الصيفي بناية ـ تقلا سليم شارع ـ شهاب فؤاد الجنرال جادة

لبنان ـ 1107 2180 بيروت ـ الصلح رياض ـ 11 ـ 4965 :ب .ص
00961 ـ 1 991837 ـ 8 ـ 9 :هاتف
beirutoffice@dohainstitute.org :الإلكتروني البريد
www.dohainstitute.org :الإلكتروني الموقع

الأولى الطبعة
2014 الثاني/يناير كانون ،بيروت



الفهرس

إهداء

إلى شهداء قواتنا المسلّحة العراقية ورجالها البواسل، وإلى ذكرى والدي العميد عبد الكريم فيصل الخزرجي، وعمي اللواء الركن إبراهيم فيصل الأنصاري رئيس أركان الجيش العراقي الأسبق اللذين غرزا فيَّ روح الجندية، أهدي مذكراتي هذه احترامًا ووفاءً.

الفريق الأول الركن

نزار الخزرجي

رئيس أركان الجيش العراقي الأسبق

تعريـف سلسلة «مذكرات وشهادات»

لعلّ إشكالية العلاقة بين الذاكرة والتاريخ كمفهوميْن علمييْن جرى اشتقاقهما وتطويرهما معرفيًا في مسار قفزات علوم التاريخ والاجتماع والأنثروبولوجيا وعلم النفس، هي من أغنى الإشكاليات، وربما أعقدها، في مضمار العلاقة بين حقول المعارف الإنسانية ومناهج وطرائق إنتاجها الهادفة إلى تقصير المسافة أو تجسيرها بين «الذاتي» الذي تزخر به الذاكرة، و«الموضوعي» الذي يسعى إليه البحث، ولا سيما البحث التاريخي، أو يفترضه.

منذ أن اكتشف علم النفس، وخصوصًا التحليل النفسي، حقولًا غير مرئية في السلوك الإنساني للفرد ودوره، ومنذ أن اكتشفت الأنثروبولوجيا حقولًا غير منصوص عنها في التاريخ المكتوب بشأن الجماعات والشعوب والأقوام، دخل علم التاريخ عالم التعقيد ومراتب التحليل والتركيب، وما عاد التاريخُ التاريخَ الذي تعبّر عن «حوادثه» الوثائق الرسمية أو السجلات الإدارية أو المراسلات الدبلوماسية فحسب؛ فعلى الرغم من أهمية هذه أو تلك، اكتسبت الشهادات والسِّيَر المعبّر عنها بالرواية الشفوية أو المكتوبة في المذكرات أهمية خاصة تكمن في وظيفة الشهادات الآيلة إلى ردم الهوة بين ما هو «مكتوب» على قاعدة الوثائق الرسمية من جهة، وما هو كامن أو قابع في ذاكرة مشاهد أو شاهدٍ عاش الحادث أو الحالة أو الموقف، من جهة أخرى. هذا ما نسمّيه «التاريخ المعيش»؛ التاريخ المعبّر عن معاناة أو صبر أو مغامرة أو اقتحام، أو عن تجاوز صعوبات أو عوائق.

ربما يكون هذا كله أو بعضه قد عاشه إنسان فاعل ضمنًا في التاريخ، أكان كاتـبًا كتب، أم رجل أعمال بنى، أم صناعيًا أنتج، أم سياسيًا مارس العمل السياسي، أم عسكريًا قاتل، أم مناضلًا ناضل. وشهادات هؤلاء تهمّ علوم التاريخ والاجتماع والسياسة والنفس الاجتماعي... تهمّ المعرفة الإنسانية عمومًا، كمصدر أو مرجع، أو أقله كنافذة مطلة على حقيقة ما من زاوية ما، أولى أو ثانية أو ثالثة.

إذًا، هي شهادات تهمّ المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، باعتباره مركزًا منتجًا لمعرفة تتوخّى مقاربة الواقع من جميع زواياه ومن خلال كل معايشيه.

لهذا، يرغب المركز العربي في نشر مذكرات السياسيين والاقتصاديين

والمفكرين والعلماء والمناضلين والعسكريين، ومعها أيضًا مذكرات وشهادات من أهملهم «التاريخ الرسمي» من جميع الفئات المقصية في المجتمعات العربية. فهؤلاء يؤرخون للتجربة الشخصية في معاناتهم الواقع وفهمهم له. وبهذا المعنى تصبح المذكرات رواية صاحبها، لكنها أيضًا صورة واقع في مرآته وكما يراها، وهذا ما يعطيها دورًا وظيفيًا معرفيًا بما هي معرفة الآخر أو معرفةٌ من زاوية أخرى.

ولمّا كانت المذكرات هي رواية صاحبها، فإن المسؤولية تقع على من يكتبها، ولا يتحمّل المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات والعاملون فيه أي مسؤولية معنوية أو قانونية عمّا يرد في ثنايا المذكرات من مواقف أو معلومات أو استنتاجات أو ألفاظ أو عبارات، مهما يبلغ الخلاف فيها أو عليها. وعلى كل حال، فإن الحقيقة العلمية لا تكمن في هذا الكتاب أو ذاك، ولا لدى هذا المؤرخ أو ذاك، ولا لدى هذا الراوي أو ذاك، بل هي عملية تراكمية وتواصلية ونقدية مفتوحة تتغذى على الإضافات الدائمة والاكتشافات التي لا تتوقف، وعلى كل جديد يظهر فيساهم في تفكيك العُقَد المحبوكة بين صور الذاكرة المعرّضة للإلغاء أو للنسيان أو الزيادة أو التشويه من جهة، وبين البحث التاريخي الذي يتوخّى في الأصل التفكيك والتحليل من جهة ثانية.

بناءً عليه، يرحّب المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات بالمذكرات والسِّيَر واليوميات مهما تكن ميول كتّابها، ما دامت تلتزم الصدقية الذاتية في التعبير عن الرواية، وما دامت تلبّي حمية المعرفة وتساعد على ردم الهوة بين الذاتي والموضوعي، أي بين الذاكرة والتاريخ، وعلى تصحيح ما يقع بينهما من التباس أو شطط.

* * *

من خلال هذا المنظور، يضع المركز العربي للأبحاث بين يديّ القارئ كتاب الفريق الركن نزار عبد الكريم فيصل الخزرجي الحرب العراقية - الإيرانية: مذكرات مقاتل 1980 - 1988. والكتاب كناية عن مذكّرات ترتقي إلى مرتبة وثيقة تاريخية مهمة، يرى المركز أن من واجبه أن يضعها بين أيدي الباحثين والمؤرخين والقرّاء المهتمين.

يتألف الكتاب من ثمانية عشر فصلًا، يروي فيها الخزرجي صورته التكوينية والتاريخية والسياسية التي زجت به في العسكرية العراقية، وترقّيه

في مراتبها وصولًا إلى تولّي رئاسة هيئة الأركان. ويروي فيها الخزرجي أول مرة ما يمكن اعتباره رواية عراقية عن حرب الثماني سنوات العراقية - الإيرانية، متوقفًا بشكل خاص ومفصّل عند الفترة الممتدة من الاشتباكات الحدودية في 4 أيلول/سبتمبر 1980 ولغاية 8 آب/أغسطس 1988، بما فيها مرحلة الاحتلال الإيراني للفاو، وهي المرحلة الفاصلة في تاريخ الحرب؛ ففيها أشرف الخزرجي على وضع العمليات الاستراتيجية الخمس الكبرى التي قلبت موازين الحرب، وتولّى قيادتها.

تستمد هذه الرواية أهميتها من شخصية راويها ومكانته ودوره كواحد من أبرز الشخصيات العسكريّة العربيّة ورموزها ونماذجها في تاريخ الجيوش العربية، ومن حرصه على أن يقدّمها بعين التاريخ، ورؤية الاحتمالات، ومن كونها تمثّل أول رواية من نوعها تتسم بخصائص ما يمكن تسميته رواية عراقية للحرب. والمذكرات هذه تهمّ جميع المعنيين بتاريخ العسكرية العربية عمومًا والعسكرية العراقية خصوصًا، والمهتمين بشكل خاص، من مؤرخين واستراتيجيين ودارسين بمختلف جوانب اختصاصاتهم في التاريخ العسكري أو السياسي أو الجيوسياسي العام لهذه الحرب ولهذه المنطقة من العالم.

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

قائمة الأشكال والخرائط والصور

الأشكال

الخرائـط

(5 - 1) خريطة العــراق

(7 - 2) الحرب العراقية - الإيرانية: ساحة العمليات

(10 - 1) خريطة العراق، تبيِّن تنوّع تضاريسه الطبيعية

(18 - 1) خريطة شمال العراق

الصـور

(1 - 1) الزعيم عبد الكريم قاسم يقلدني جناح المظليئ

(2 - 1) في كلية الأركان 1966

(2 - 2) طالب في كلية الأركان

(2 - 3) اللواء الأنصاري مع الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ويظهر في الصورة المشير محمد فوزي

(3 - 1) مع فاضل البراك في ألمانيا الغربية عشية الحرب العراقية - الإيرانية

(5 - 1) مع الرئيس صدام حسين في أحد اللقاءات

(7 - 1) الفريق الخزرجي في ثياب المظليين

(8 - 1) في قاطع الفيلق الأول 1986

(10 - 1) في مقرّ الفيلق الأول في كركوك

(10 - 2) من المعركـة

(13 - 1) مع نائب القائد العام، 17 تموز/يوليو 1987 أمام نصب الشهيد يوم استلام مهمتي كرئيسٍ لأركان الجيش

(13 - 2) ليلة تحرير الفاو، 16 - 17 نيسان/أبريل 1988

(14 - 1) مؤتمر تحليل معركة الفاو بعد التحرير

(17 - 1) مؤتمر تحليل معركة الفاو في قاعة قصر المؤتمرات مع الفريق الأول الركن عدنان خير الله ونائب القائد العام ووزير الدفاع، عند تحليل معارك التحرير الكبرى 1988/1989.

(17 - 2) اللقطة الأخيرة بعد انتهاء الحرب العراقية - الإيرانية بالنصر المؤزر، وتجمع القائد العام وقادة الفيالق وأعضاء القيادة العامة، آب/أغسطس 1988

(17 - 3) مع الرئيس بمناسبة ذكرى يوم الجيش في 6 كانون الثاني/يناير 1989

تقديــم

خاض الجيش العراقي اعتبارًا من الرابع من أيلول/سبتمبر 1980 حتى الثامن من آب/أغسطس 1988 حربًا ضروسًا لم يُسجَّل لها مثيل في حروب العرب لا قبلها ولا بعدها. كانت فعلًا أطول وأعنف حروب العرب في القرن العشرين. تحدّث عنها كثيرون بأنها حرب عبثية زجّ الرئيس العراقي صدام حسين جيشه وشعبه ووطنه فيها من دون قضية تبرِّرها، وهذا تجنٍ كبيرٌ على الواقع، وقراءة خاطئة لماجريات الحوادث، وتجنٍ ونكران لتضحيات عظيمة قدّمها هذا الجيش دفاعًا عن قضية حقيقية، هي ردّ عدوان إيراني مخطّطٍ له ليس ضدّ العراق فحسب، بل ضد الوطن العربي عمومًا، ومشرقه وخليجه والجزيرة العربية على وجه التخصيص. ولعل التضليل والتشويش اللذين رافقا عملية توثيق هذه الحرب كانا من جانب دوائر صعب عليها الاعتراف بأداءٍ متميِّزٍ لقوات مسلحة عربية قاتلت بحرَفية عالية بزّت بها قوات تعدّ نفسها الأرفع مستوى على صعيد الأداء المهني العسكري، ولم تكن دوائر البنتاغون بعيدةً عن هذا التوصيف، على الرغم من أن محلِّلين استراتيجيين أميركيين اعترفوا في كتبهم التحليلية بأهم الإنجازات التي حققتها القوات المسلحة العراقية إبان هذه الحرب. وفي هذا الشأن، وضع ستيفن بليتيير (Stephen C. Pelletiere) والمقدَّم دوغلاس جونسون (Douglas Johnson) كتابهما المهم الدروس المستنبطة من الحرب العراقية - الإيرانية، الجزء الأول، الصادر عن قوة المارينز تحت رقم (FMPRP 3-203) الذي يُعدُّ من أفضل التحاليل التي أجريت لأداء القوات المسلحة العراقية في هذه الحرب، وأكثرها موضوعية وحيادية، إذ إنها أُعدَّت لغاية محددة هي قتال القوات العراقية في الكويت، الأمر الذي تطلّب نقل صورة حقيقية لمستوى أداء هذه القوات كي تتخذ المارينز وسائل مواجهتها. يقول المؤلّفان في خلاصة الكتاب ما يلي: «خرج العراق من هذه الحرب باعتباره قوة إقليمية عظمى، على الرغم من أن هذا لم يكن الهدف الأساس المدبر الذي خيضت هذه الحرب من أجله. إذ لم يقم العراق بتدابير مدبرة لتحويل وضعه الاستراتيجي، أو لفرض هيمنته على المنطقة. لكنّ العراق حصل على وضع القوة الإقليمية العظمى من خلال سلسلةٍ من الخطوات التصعيدية التي اتّخذها لكبح جماح الجهاد الأصولي الإسلامي الإيراني. إذ نجح القادة العراقيون في تعبئة شعبٍ متنوّع وتقوية القوات المسلحة، وفي

جعل العراق يأخذ المبادأة وإنهاء الحرب» [1] .

لا يهدف هذا التقديم إلى تقريظ الكتاب والإشادة به، وإن كان يستحق ذلك، بل إلى إثبات صدقية منطلقاته والحقائق التي سطّرها مؤلفه بين دفتيه في تعامله مع موضوعٍ حساسٍ ودقيقٍ مثل الحرب العراقية - الإيرانية. واستندتُ بالدرجة الأولى إلى كثيرٍ مما كُتب عن هذه الحرب من خبراء متعددين، تولّوا تحليلها من وجهات النظر كلها، العسكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، وسأعرض بعض هذه المصادر لاحقًا، كما أن معايشتي هذه الحرب اعتبارًا من اندلاعها حتى خاتمتها في أماكن مميّزة، في البحرية عند اندلاعها (أيلول/سبتمبر 1980 - تشرين الأول/أكتوبر 1983) عضوًا في هيئة الركن البحرية، ثم في رئاسة الأركان العامة للقوات المسلحة حتى خاتمتها (تشرين الأول/أكتوبر 1983 - آب/أغسطس 1988)، عضوًا في هيئة الركن، ولمدة خمس سنوات جعلتني أشهد مختلف تقلبات صفحاتها، فساهمت من خلال عملي في المتابعة والتنفيذ في الاطلاع على ماجرياتها حيثما استدعت أحوال وظيفتي ذلك. وهنا بودي أن أشير إلى أني عملت بقيادة أربعة رؤساء أركان هم على التوالي: الفريق الأول الركن عبد الجبار شنشل، والفريق الأول الركن عبد الجواد ذنون، والفريق الأول الركن سعد الدين عزيز، والفريق الأول الركن نزار عبد الكريم فيصل الخزرجيّ كاتب هذه المذكرات، ثم ولفترة وجيزة بإمرة الفريق الأول الركن حسين رشيد الذي شهدت فترة تولّيه منصبه كارثة «عاصفة الصحراء» العدوانية.

من هنا أوردت في هذا التقديم ما نُمي إلى علمي من تطوّرات طوال هذه المدة، ومنها تصويبات لما ذهب إليه بعض الباحثين العرب والأجانب مما تقتضيه الأمانة العلمية وأمانة المؤرخ اللتان أتاحتهما لي دراسة الدكتوراه في التاريخ العسكري من معارف في السنة التحضيرية.

مؤلف هذا الكتاب بطل حقيقي من أبطال الأمة، وقائد عسكري فذ امتلك حرَفية فن الحرب، والعلم العسكري، بأعلى مستوى، وتمكَّن بمعونة هيئة ركن كفيّة ومُنتقاة، من أن يحسم هذه الحرب التي أراد أعداء العراق والأمة أن تطول لتُنهك البلدين المتصارعين، كي تبقى في هذه المنطقة من العالم قوة واحدة ووحيدة هي الكيان الصهيوني. كان الفريق الخزرجيّ قد عاش تجربة الحرب العراقية - الإيرانية المريرة منذ بدايتها، حيث كان قائدًا لفرقة المشاة السابعة (فرقة جبلية)، ولذلك سُحبت من مواقعها في مرحلة الحرب الأولى إلى قاطع كيلان غرب في قاطع العمليات الأوسط شرق بغداد. ومن خلال معايشته هذه الحرب وتعرّفه إلى نجاحاتها وإخفاقاتها

لاحظ في وقتٍ مبكرٍ النفق المظلم الذي أُعدّ لينزلق فيه العراق؛ ويتورّط بحرب استنزافٍ طويلةٍ تدفع باتجاه هدفين: تحييد قدرة العراق الفائقة باعتبارها عاملًا حاسمًا في المواجهة مع العدو الإسرائيلي من جهة، ثم ترك الحرب لتأخذ ضريبتها الباهظة من البلدين المتحاربين اللذين كان احتواؤهما وإنهاكهما هدفًا هو الآخر يصب في مصلحة ذلك الكيان العدواني.

عاش الخزرجيّ هذه المعاناة وهو يشهد العديد من زملائه وأحبائه وتلامذته من الضباط تُسفك دماؤهم دفاعًا عن وطنهم، الأمر الذي جعل استشهادهم خسارةً نوعية لجيش عُرفت عنه حرَفيته العالية، فظل يفكر ويتحسب في محاولة منه لإيجاد إجابة عن الكيفية التي تُحسم بها هذه الحرب لمصلحة العراق، بحيث يخرج منها منتصرًا، ضامنًا ردعًا واضحًا لأعدائه يردعهم عن التعرض لأمنه في المستقبل. عرّف الخزرجيّ العدو بثلاثة مستويات، عدو تاريخي هو الكيان الصهيوني، وعدو مصلحي إمبريالي، وعدو مباشر ينطلق عداؤه للعراق من منطلقات غيبية لا تنفع معها لغة حسن الجوار والمصالح، بل القوة الرادعة وحدها.

حاول الفريق الخزرجيّ أن يطبّق أفكاره في نقل نوعية الجندي المقاتل من جندي تقليدي يتلقى الأوامر وينفِّذها غريزيًّا، إلى جندي مقاتلٍ يتلقى الأوامر ويتفهمها وينفِّذ، والفرق بين الحالين كبير. صحيح أن المطلوب من الجندي في القتال أن ينفِّذ ولا يناقش، لكن هذا هو حال الجندي المقاتل التقليدي الذي ينفِّذ ما يؤمر به، أما جنود النخبة فشيءٌ آخر بالتأكيد، جنود يتفهمون واجبهم ويدركون أبعاده، ويقاتلون. وكان الخزرجيّ دائمًا قائدًا لجنود النخبة، فهو إن لم يجدهم في التشكيل الذي أوكل إليه قيادته، يصنعهم قطعًا. فعل هذا عندما كان آمرًا لفوجٍ مظليّ، ولواء قوات خاصة، ولواء مشاة جبلي، ثم قائد فرقة، وقائد فيلق حتى تسنُّمه منصب رئاسة الأركان العامة للقوات المسلحة العراقية (رئاسة أركان الجيش). كان يحوِّل قواته دائمًا إلى قوات نخبة متمرّسة في القتال، عارفة بالمهارات اللازمة لخوضه، مدركة تداعيات نتائجه. وسيجد القارئ في تضاعيف هذه المذكرات مواقف حقيقية تشهد بأن الجندي الذي يقاتل تحت قيادة الخزرجي هو جندي نخبوي فعلًا، وليس أصدق على هذه الحالة من معارك تل عنتر في الجولان التي أوردها الخزرجيّ جزءًا من ذكرياته.

في محطة مهمة من مراحل قيادته وبعد بضع سنوات من اندلاع الحرب العراقية - الإيرانية وتحوّلها إلى حرب استنزاف، وتأثيرها المتوقع في تماسك الرباط والنسيج المجتمعي في العراق، دوَّن بنصيحةٍ من ضباطه أفكاره

موجزةً وأرسلها إلى القائد العام للقوات المسلحة رئيس الجمهورية، صدام حسين. كانت خلاصة تلك الأفكار هي تحويل الجيش العراقي بمجمله إلى جيش نخبة، وعندئذ سيكون النصر محسومًا. وللإجابة عن تساؤلات قد تُثار عن كيفية اتصال المرؤوس بالرئيس الأعلى متجاوزًا التراتبية المرجعية العسكرية، نقول إن مخاطبة الأعلى وظيفيًّا تكون متى شاء المرؤوس على أن يرفع طلبه عبر ما يسمى في العسكرية العراقية بـ «سلسلة المراجع»، لكن المجال مفتوحٌ لمخاطبة الرئيس القائد العام، بصفة المرؤوس مواطنًا عراقيًا، في أي وقت وعندما يرى (المواطن) أن من واجبه إبلاغ أمر لشخص الرئيس، وكانت استعلامات القصر الجمهوري وهواتف الرئيس المباشرة مفتوحةً للمواطنين وكثيرًا ما كان يجيبهم بنفسه. هذا هو حق وواقع مُعاش يعرفه العراقيون الذين عايشوا المرحلة جيدًا.

أُتيحت للفريق الخزرجيّ فرصة لاحقة ليتداول مذكرته تلك مع الرئيس بعد أن عُيِّن رئيسًا لأركان الجيش، وطلب الرئيس المذكرة ودرسها وأقرّها. عندئذٍ تعهّد الفريق الخزرجيّ للرئيس بأنه سينهي الحرب في غضون عام من تسلمه المسؤولية، وقبول الرئيس تصوراته عن تحويل القوات المسلحة العراقية إلى قوات مقاتلة مهنية تجيد حرَفية القتال بضوابطه، وهو ما حققه فعلًا بانتهاء عمليات «محمد رسول الله» التي أعادت الهدوء إلى المنطقة الشمالية بعد انتهاء تحرير الأراضي العراقية التي كان يحتلّها الإيرانيون، وانتهاء الحرب.

بدأ المؤلف مذكراته هذه بإلقاء ضوءٍ على سيرة حياته منذ طفولته ويفاعته، لتكون مدخلًا لما سيعالجه في هذا الكتاب المهم. انطلق من طفولته حيث ولد في بيت عسكري، فوالده ضابط تخرّج في الكلية العسكرية العراقية في دورتها الأولى، وكان هنالك صفٌّ لأبناء شيوخ العشائر قُبل فيه باعتباره نجل أحد شيوخ عشائر الخزرج العربية في لواء (محافظة) ديالى. وترعرع في هذا البيت وعاش طفولته المبكرة وصباه في كنف والده يرافقه إلى معسكره صباحًا ويعود معه بعد انتهاء يوم العمل. وبدا مأخوذًا بهذه الحياة العسكرية التي تنتظم فيها الساعات والأيام، فلكلِّ وقتٍ فاعلية مؤشِّرة، حتى النوم له وقت معلوم والاستيقاظ كذلك. يجري هذا كله بإشارات ومواعيد، حيث هناك بوق صباحي للإيقاظ، وآخر للتجمع في ساحة العرض الصباحي، وبوق للمباشرة بالتدريب ... وللغداء والعشاء والنوم. كان منظر والده ممتطيًا جواده متبوعًا بحارسه في ذهابه صباحًا وأوبته من وحدته مساء يؤثِّر فيه كثيرًا، ويدعوه كي يتعجّل أيامه ليصبح هو الآخر

عسكريًا مثل أبيه.

كان لاندلاع الحرب العالمية الثانية ومعارك العلمين وكورسك وستالينغراد وثورة مايس (أيار/مايو) 1941 في العراق، وما حصل بنتيجتها من قتال الجيش العراقي البريطانيين ومحاصرتهم في الحبانية، حين كان والده آمرًا أحد أفواج الحصار، ثم أسره وترحيله إلى مقرّ قيادة الشرق الأوسط البريطانية في مصر، واعتقاله في معسكر الهاكستيب المصري، أثرٌ مهمٌّ في بناء شخصيته، ما جعل العسكرية تغدو جزءًا من حياته، واندفع يقرأ عن رومل وغودريان وفون رونشتيد، الجنرالات الألمان المشهود لهم، وعن مونتغمري وأوكنلك ومارشال، الجنرالات البريطانيين، مع ميل نفسي واضح إلى الجنرالات الألمان في ما يبدو تعبيرًا عن جذوةٍ قوميةٍ عربية وقّادةٍ بين جوانحه، وانتقامًا ممن أسروا أباه.

هنا أيضًا يُضاف عنصر مهم آخر ساعد في بناء شخصيته، وهو تخرُّج عمه الأثير لديه إبراهيم فيصل الأنصاريّ ضابطًا في الجيش العراقي، فكان يصحبه معه إلى مدرسة المشاة حيث كان مدرّسًا، وقد يفَعَ وقارب سن الشباب وهو ما حسم اختياره العسكرية مسلكًا ومهنة كان يريد مع نفسه أن يكون متميِّزًا فيها ... وكان له ما أراد.

دافعٌ آخر جعل من شخصيته مميّزة هو انتماؤه إلى عائلة عروبية المنبت، تفتخر بأصولها، وتعتز بانتمائها إلى قبائل الأنصار الذين ناصروا الرسول في دعوته. بهذا كانت العروبة التي هي في واقعها وعاء الإسلام أمرًا بنيويًا في أنفس أبناء هذه الأرومة الطيبة، وما قتال أبيه للبريطانيين وأسرهم له، ثم إحالته على التقاعد عندما أصبح برتبة عميد من جانب عبد الكريم قاسم إبان الهجمة الشعوبية على الجيش، إلا عوامل أسّست لانتمائه المبكر إلى حزب البعث العربي الاشتراكي، وقد يكون هو هنا من أوائل البعثيين العسكريين المنتمين، إذ تعرّف إلى فكر الحزب كما يبيِّن في مذكراته وهو لمّا يزلْ طالبًا في الكلية العسكرية ووجد في نفسه ميلًا فطريًّا إليه، لأنه يلبي آماله وطموحاته في أن يجد أمته وقد أخذت مكانها المحترم بين الأمم. هكذا ناضل وتدرّج في هذا الحزب مؤيدًا ونصيرًا وعضوًا، ثم عضوَ قيادةٍ بتسلسلاتها المعروفة في حزب البعث العربي الاشتراكي؛ في الفرقة والشعبة، ثم الفرع، وبعد ذلك عضو مكتب، إذ أصبح عضوًا في المكتب العسكري للحزب في نهاية عقد الثمانينيات من القرن المنصرم.

نشأت هنا ثنائية فريدة بين قائد عسكري وقائد حزبي يمتلكان الشخصية نفسها. ونشأت هنا أيضًا سمة نادرة بين دافعين يتنازعان، سقط العديد من

المسؤولين الحزبيين في الأنظمة الثورية في امتحانها، أما هو فسنجد عنده الموازنة بالغة الحساسية بين هذا وذاك، بين الخزرجيّ الآمر/القائد والرفيق الخزرجيّ أمين سرّ الفرقة أو الشعبة أو عضو المكتب [2] .

سرد لنا الفريق الخزرجيّ محطات من حياته بصفته ضابطًا بعثيًا والنزاع النفسي الذي عاشه عندما أقدمت سلطة 17 تموز البعثية على اعتقال عمه الأثير لديه اللواء الركن إبراهيم فيصل الأنصاريّ، رئيس أركان الجيش إبان حكم الرئيس الراحل عبد الرحمن محمد عارف، بتهمةٍ كاذبة ملفقة، بعد أن كان رجال السلطة قد أولوه ثقتهم قبل يوم واحد فقط بإعادته إلى هذا المنصب، فإذ بهم يحيلونه على التقاعد يوم 17 تموز/يوليو 1968 وهو في زيارة رسمية إلى القاهرة. كانت هذه هي المناسبة التي جعلته يتعرف إلى الرئيس القائد صدام حسين عن قرب، ويطرح قضية اعتقال عمّه بجرأة وصراحة البعثي من دون أن يتردد أو يتراجع. ومن صراحة طرحه التي انتبه إليها النائب، نجح الخزرجيّ في أن يحوز ثقته بالأفكار التي كان يعرضها عندما تستدعي الأحوال ذلك. واستمرت المعرفة والثقة اللتان أولاهما الفريق الخزرجيّ كل ولاء وإخلاص منذ تعرف إلى الرفيق صدام حسين، ودامتا طوال الحرب العراقية - الإيرانية التي شهد نصفها الثاني تقدُّمَه في المناصب القيادية حتى تولّى منصب قائد الفيلق الأول المسؤول عن شمال القُطر بعد تولّيه منصب مدير الحركات العسكرية لفترة وجيزة، ثم معاون رئيس أركان الجيش للعمليات. وكان وزير الدفاع قد كلّفه بمنصب أمين السرّ العام لوزارة الدفاع (وكيل الوزارة) نقلًا من قيادة الفرقة السابعة، إلّا أن روح المقاتل لديه جعلته لا يستمر طويلًا في المناصب الإدارية التي سرعان ما كان يغادرها إلى مناصب قيادية في القتال. نقترب هنا من الحياة الداخلية للأركان العامة العراقية في مرحلة شهدت نكسة للجهد العسكري العراقي عندما نجحت القوات الإيرانية في احتلال الفاو في عام 1986. وكنت شاهدًا على الدور البنّاء والبارز للفريق الخزرجيّ في قيادته دائرة العمليات المسؤولة عن التخطيط العملياتي للجهد الميداني من خلال عملي وتواجدي في رئاسة الأركان العامة للقوات المسلحة مستشارًا بحريًا ومسؤولًا عن ملف التسليح.

كان شيء من الصراع الخفي يدور بين مدرستين في الفكر العسكري: المدرسة التقليدية التي سادت في المراحل الأولى للحرب، وهي مدرسة تشرّبت الخبرة البريطانية المستقاة من الحرب العالمية الثانية، وكانت تميل إلى الدفاع، وتتحسب من العمليات التعرضية، وهي تقليدية في تعاملها مع

القواعد والأسس والسياقات التي تعمل عليها القوات المسلحة، وهي صارمة في إطاعة أمر المافوق [3] . ومع أن كل ذلك أمر محمود وجيد، إلا أن مدرسة أخرى نشأت تحمل فكرًا تعرّضيًّا حداثيًّا نهل من العلم العسكري الحديث سعيًا إلى إيجاد التوليفة الأفضل لموارد القتال، بمحاولة مطابقة قدرات الفرد وقدرات السلاح ونوعية الأرض والتضاريس، كي تأتي بنتائج باهرة. هذه المدرسة التي نجد بوادرها في المهارات التعبوية والعملياتية التي طبّقها عمّه اللواء الركن إبراهيم فيصل الأنصاريّ عندما قاد الفرقة الثانية لقمع العصيان في شمال القطر. وتبلورت هذه المهارات في شخصية الفريق الخزرجيّ بعد أن استفاد من حضوره مؤتمرات عمّه ولقاءاته بضباطه قبل المعارك التي كانت مندلعة في قاطع مسؤوليته وبعدها. وبعد ذلك صقلها ونفّذها بالتدريب المتواصل على القطعات التي قادها في شمال الوطن في ما بعد، عندما تولّى مسؤوليات قيادية هناك اعتبارًا من قيادته عمله آمرًا في القوات الخاصة، ثم انتقاله إلى قيادة اللواء الخامس ذي المجد المؤثل في معارك فلسطين 1948 الذي دعي بسببه بـ «اللواء العالي»، ثم تدرّجه في قيادة الفرقة السابعة والفيلق الأول.

الجندي والسلاح والأرض، ثلاثةُ أركانٍ لمثلثٍ، لو تم تفعيله لعاد بأعظم النتائج على ماجريات الحرب بصفحاتها المختلفة ومعاركها الشاملة والمجتزأة، فهذا التطابق يتحوّل إلى ما يشبه العلاقة ذات البعد السيمانطيقي التي تؤدي فيها الذاكرة والهوية والبيولوجيا والنفسية، فضلًا عن المهارة وقوة الحدس، دورًا بالغًا في بناء الموقف التعبوي والعملياتي والسوقي (الاستراتيجي) [4] . بدأت السمات الأولى لهذه النظرية في القتال الذي خاضه الخزرجيّ ووحدته في الجولان بصفته آمرًا لفوج قوات خاصة التحق تلبيةً لنداء الوطن، على الرغم من أنه كان يعاني جرحًا لم يلتئم بعد عملية جراحية. ولاحظنا أنه في هذا الموقف وبعد أن وصل إلى الخطوط الأمامية للقتال، درس الأرض ووضع خطة لغارة على مواقع العدو الصهيوني في تل عنتر وتل المال لإرباك ترتيباته الدفاعية قبل أن يستقر على الأرض وينجح في ترصينها. كانت هذه العملية تطبيقًا مثاليًا بين قدرات الجندي والسلاح وما تقدّمه الأرض من مزايا، وما يجب على القائد أخذ حيطته منه وهو ينفّذ عملياته عليها. تطورت هذه الملَكَة لدى الخزرجيّ في أيامه المقبلة بعد أن نجح ليس في الغارة على مواقع العدو في الجولان فحسب، بل في سحب وحدته التي أكملت انفتاحها القتالي خلف خطوط العدو ووصلت إلى تنفيذ صولتها عليه قبل أن تصدر القيادة السورية أمرها بوقف إطلاق النار

وقطع التماس مع العدو.

يعلم العسكريون أن صفحة الانسحاب واحدة من أعقد صفحات القتال، وأن دقة التوقيت هي الأمر القاطع في نجاح العملية أو فشلها؛ فكيف ونحن هنا أمام وحدة منفتحة خلف خطوط العدو كان سيُقدّر لها أن تُلحق به خسائر جسيمة بعد أن تخلّلت من خلال خطوطه من دون أن يحسّ بها. فكيف إذًا ستُسحب القوة وهي على وشك التنفيذ. تظهر لنا عملية الانسحاب المنظّم والمسيطر عليه، درجة الانضباط العالية التي نمّاها التدريب، حيث إن النار لم تكن قد فُتحت بعد، والقوات امتثلت لأمر آمرها وانسحبت من خلال خطوط العدو بكل هدوء وبدقة ووصلت إلى مثاباتها المقرّرة سالمة.

عند قيادته وحداته في أحوال الحروب الجبلية، طبّق الخزرجيّ أساسيات التدريب العنيف والدقيق كلها على أفراد قوّته، وابتكر في أحوال الحروب الجبلية تطبيقاتٍ آتت أُكُلها من نجاحاتٍ شهد له بها قادته بالتتابع، ما جعل خبرته في الحروب الجبلية متميِّزةً لا تُجارى، وهذا يضع على عاتقه مهمة كتابتها وتركها خبرةً للأجيال المقبلة من العسكريين العرب.

لعلّ من المحطات المهمة في هذه الحقبة أنه عندما كان قائدًا للفرقة السابعة في السليمانية، وهي مدينة تكمن فيها المشاعر القومية الكردية في أعماق النفس البشرية، وتُعدُّ حاضنةً لها، وتنظر بغير ودٍّ إلى السلطة المركزية وقواتها المسلحة إلى درجة العداء، بادر هنا إلى تجربة غير مسبوقة في احتواء تطلّعات الشباب ومحاولة تلبيتها، فافتتح مركزًا لتدريب المظليين جعله متاحًا لكلِّ الأكراد في المحافظة، واستجاب الشباب الأكراد من الجنسين وانضووا إلى التدريبات التي ساهم هو فيها شخصيًّا، بل وقفز من الجو بمظلته في أول قفزة تدريبية لهؤلاء الشباب الذين اعتزوا بتجربتهم وأحبوا مدربيهم، وأحرزوا المرتبة الأولى على مستوى القطر في مسابقة القفز بالمظلات. كما كان تعليم العاطلين من شباب الكرد من كلا الجنسين مهنًا تعود عليهم بالنفع بادرةً أخرى إلى شدّ عقول هؤلاء وقلوبهم إلى وطنهم. وأُعجب الرئيس العراقي بهذه التجربة عندما قصّها على مسامعه في اجتماعٍ عُقد في نادي الفارس العربي في بغداد لمناقشة القضية الكردية، وطلب تطبيقها واستلهامها. وبدأ جهدٌ حثيثٌ بعد بسط سيطرة الدولة على أرجاء شمال الوطن كافة في أعقاب عمليات «محمد رسول الله» لتحديث البنى التحتية والسير قُدُمًا في تنفيذ المشاريع الاستراتيجية العملاقة، وفي مقدّمها سد بخمة على نهر الزاب الكبير الذي كان سيؤمِّن أمنًا مائيًّا للعراق

ويحسِّن كثيرًا الوضع الإنساني والاقتصادي في المنطقة الكردية، ويفتح آفاقًا كبرى للعمل وتطوير الإنتاج الزراعي في المنطقة، وينتج الطاقة الكهربائية التي هي محرك التطور الاجتماعي والصناعي الأول.

عبد الوهاب عبد الستار القصاب

X Stephen C. Pelletiere and Douglas V. Jonson II, Lessons Learned: The Iran-Iraq War, vol. 1 (Washington, DC: Headquarters United States Marine Corps, 1990), (FMFRP) 3-203.

X يستخدم الجيش العراقي مصطلح الآمر لوصف الشخص الذي يتولى إمرته في مستويات القيادة التعبويّة (التكتيكية) للوحدات والتشكيلات المقاتلة حتى مستوى لواء، أما المستوى الأعلى (فرقة وفيلق) فيستخدم مصطلح قائد لوصف الشخص الذي يتولى قيادته.

X المافوق مصطلح في اللغة العسكرية العراقية يعني الهرم القيادي الأعلى الذي يخضع له مستوى قيادي معين، في حين يعني المادون، التراتبية القيادية الأدنى التي تقع تحت قيادته.

X تنقسم تراتبية الموقف العسكري القتالي إلى ثلاثة مستويات حاليًا، فهي بالمستوى التعبوي في قتالات الوحدات الصغرى وهو المستوى الذي تطلق عليه العسكرية المصرية المستوى التكتيكي، ثم في مستوى الجبهة الذي تطلق عليه اللغة العسكرية العراقية مفهوم المستوى العملياتي وهو مستوى قتال الفيلق ويسمى سَوْق العمليات كذلك، ثم في المستوى السوقي (الاستراتيجي). نلاحظ هنا أن القوات المسلحة العراقية قد عرّبت المفاهيم والمصطلحات العسكرية منذ وقت طويل، ونُقل الكثير منها إلى المعجم العسكري الموحد الذي أصدرته جامعة الدول العربية بإشراف الراحل اللواء الركن محمود شيت خطّاب.

مقدّمــة

هذا الكتاب هو أول دراسة يكتبها عسكري عراقي خاض الحرب العراقية - الإيرانية من يومها الأول في 22/9/1980 حتى انتهائها في يوم 8/8/1988، وشغل في أثنائها مواقع قيادية عسكرية مختلفة، من قائد فرقة وقائد فيلق حتى رئيس أركان الجيش في عام 1987، حين أنهى هذه الحرب الضروس بنصرٍ عراقي كبيرٍ [5] . حاولت أجهزة الإعلام والقوى الغربية تجاهله، والتقليل من شأن ما أنجزه جيش العراق على العدو الإيراني في معارك التحرير الست التي شرعت بها قواتنا من معركة «رمضان مبارك»، وتحرير الفاو من براثن القوات الإيرانية في 17/4/1988 حتى معركة «توكلنا على الله» الرابعة التي كانت أكبر حجمًا من بعض معارك الحرب العالمية الثانية، والتي جرَّدنا فيها القوات الإيرانية وحرس الخميني مما تبقى لهما من عدّة وعتاد، مرورًا بالتوكلات الثلاثة الأخرى، وعملية «محمد رسول الله» التي حرّرنا بها شمال العراق من القوات الإيرانية المحتلة. وما قول كبيرهم وليّ الفقيه ومرشد الثورة والقائد الأعلى لقواتهم المسلحة الخميني: «إني أُفضل تجرّع السمّ على توقيع الموافقة على إنهاء هذه الحرب» إلّا تأكيد لما ذكرته أعلاه.

لم أجد في ما نُشر عن هذه الحرب دراسة اعتمدت مصادرها من طرفي النزاع، وما نُشر كان إما من جانب جهات إيرانية، وإما من جهات متعاطفة معها، وإما كتابات غربية يعترف كتّابها بأن معلوماتهم عنها هي مما نشر في وسائل الإعلام، أو من بعض معاهد الدراسات الغربية أو من مصادر وقادة إيرانيين التقوهم، واستقوا المعلومات منهم، وهي إجمالًا إما بعيدة عن الحقيقة وإما تمثّل وجهة نظر الجانب الآخر.

كانت فكرة كتابة تاريخ الحرب العراقية - الإيرانية تراودني عندما كنت في بلدي العراق، وبعدما أُقلت من منصبي في رئاسة أركان الجيش في إثر احتلال الكويت، لكن نشوب حرب الخليج الثانية والإرهاصات التي أعقبتها أجّلا هذا المشروع، على الرغم من أن المصادر كافة والوثائق والتحاليل للمعارك التي خاضتها قواتنا المسلحة كانت متوافرة لدي آنذاك، وأودعت معظم تلك الوثائق لدى أحد معارفنا بعد خروجي من العراق في عام 1996، لكني خشيت من أنهم لن يتمكنوا من المحافظة عليها في تلك الأوضاع التي مرّ بها العراق في عهد الرئيس صدام حسين، وما أعقبها من

احتلال. واعتمدت في كتابة هذا الكتاب بشكلٍ أساس على التسجيلات التي سجلتها في عام 1997 بعد خروجي من العراق مباشرةً، وعلى جهد نخبة من الإخوة الباحثين الموجودين حاليًا خارج العراق الذين شغلوا مناصب قيادية في القوات المسلحة العراقية في أثناء الحرب، وتفضلوا بتوفيرها لهذا المشروع. وإن المعارك كلها التي وردت في هذا الكتاب هي من المعارك والعمليات التي خضتها أنا شخصيًّا أو تلك التي كنت شاهدًا عليها، وقريبًا منها أو من التي أدارها الزملاء القادة، وإذا كان هناك خطأ في تاريخ أو مكان هنا أو هناك فعذري أنها جرت قبل 25 سنة من الآن، أما الوقائع والأحاديث التي جرت مع الرئيس صدام حسين، القائد العام للقوات المسلحة، فدقيقة بتفصيلاتها لأنها حوادث لا يمكن أن تُنسى، وإذا ما أغفلت بعضها، فذلك من أجل مصلحة الوطن والمحافظة على أسراره حتى بعد مرور هذه السنين كلها.

خاض العراق وحيدًا حربًا ضروسًا مع عدو صعب المراس قاسٍ طموحٍ ومتفوق في كلِّ شيءٍ، عدا الإرادة والإصرار على الصراع اللذين لم يتوقعهما من شعب العراق وقواته المسلحة وسلطته السياسية. وضحّى العراق بأرواح أبنائه وثرواته ومعيشته ليحمي الأمة من أطماع جارها في أرضها وشعبها وثرواتها، وكان بحقّ البوابة الشرقية لهذه الأمة. لم يكن كثيرون من الأشقاء العرب ليشعروا بقيمة هذه البوابة على أمنهم إلّا بعد أن قام الأجنبي بكسرها بمعونةٍ من بعضهم لسوء الحظ. عندئذ وصل حال الأمة إلى ما وصل إليه. أوردنا هذه الحقيقة ليس دفاعًا عن الرئيس صدام حسين الذي ارتكب من الأخطاء ما نجم عنه ضياع العراق وإضعاف الأمة، بل لتبيان ما قدّمه هذا البلد المعطاء كما ذكرت.

ظلّت أفكار هذه المذكرات باعتبارها مشروعًا يراود فكري بين الفينة والفينة لكني لم أجد مناسبةً لتنفيذها حتى اقترح عليّ الصديق عزمي بشارة كتابتها وأبدى استعداد «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» لطباعتها ونشرها، وكلّف عبد الوهاب القصاب، وهو أحد الضباط السابقين في رئاسة الأركان، بأن يعمل معي على إخراجها وتهيئتها وفق المعايير الأكاديمية التي يعمل عليها، فقام القصاب بمهمته خير قيام، فكتب تقديمًا تحليليًا للمذكرات، وأضاف الكثير من المعطيات العلمية عن الموضوع، مما نجده في الهوامش والتنسيق والتحرير العلمي للمذكرات، فللمركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ولعزمي بشارة مني كل شكر وتقدير وعرفان، إذ لولا دعمه وإسناده لما قُيِّض لهذه المذكرات أن ترى النور. ولعبد

الوهاب القصاب مني كل شكر لأنه كان كما عهدته دائمًا رجلًا علميًّا مدققًا، بحيث عهدت إليه قيادة مستشاريّة رئاسة الأركان العامة للبحوث والتطوير بعد إنجاز معارك التحرير، فقام حينئذٍ أيضًا بجهدٍ مميّزٍ. وللأسف كانت هذه الدائرة العلمية أولى الضحايا بعد إعفائي من منصبي بعد حوادث الكويت، إذ أُلغيت كليًّا.

هناك من يتشدق أن الولايات المتحدة ساعدت العراق وأمدته بالأسلحة والمعلومات، متناسين أن أسلحة الجيش العراقي هي أسلحة «شرقية»، ولم تكن لدينا بندقية واحدة من صناعة الولايات المتحدة. أما عن المعلومات، فالمعلومات الوحيدة كانت تلك التي سرّبتها الولايات المتحدة إلينا من خلال أصدقائها العرب وآخرين من العالم الثالث، وأدّت إلى سقوط الفاو بيد العدو في عام 1986. من هنا جاء توجيه القائد العام صدام حسين إبان تحضيراتنا لمعارك التحرير بضرورة خداع أميركا عن حقيقة نياتنا المقبلة، أما إيران فخداعها هو تحصيل حاصل، وتأكيدًا لهذه القناعة فإن صفقات السلاح السرية من أميركا وإسرائيل كانت تذهب إلى الجانب الآخر (إيران) [6].

هناك قول مأثور لدى أهلنا في العراق يقول: «إن العراق مثل السمك مأكول ومذموم». ولعمري ما أخطأ أهلنا في قولهم هذا، فالعراق طوال تاريخه الحديث على الأقل لم يترك فرصة تمرّ أو مناسبة تحدث لم يخدم فيها أهلنا العرب وأصدقاءه بالدم والمال والعدة والعتاد، ولم يقابله أهلنا إلا بالجحود والإنكار والتآمر مع الجانب الآخر ومساعدته على أبناء جلدتهم الذين لم يروا منهم إلّا كل خير، وأعتقد أن ذلك هو قدَرنا وقدر الكبار بحجمهم سلبًا أكان أم إيجابًا. فكان أول صاروخ سكود ضرب بغداد من إيران من مصدر عربي، وهذا ليس ادعاءً بل ما ثبت قطعًا بعد ذلك باعترافات الإيرانيين أنفسهم. والقادة العرب هم الذين جهّزوا به إيران. لا يعني ذلك انتقاصًا من الشعب العربي في القطرين المعنيين ولا من جيشيهما، بل إن من يتحمّل ذلك هو النظامان السياسيان الحاكمان، وشخصيتا حاكميهما بالذات.

كذلك، فإن قطع تصدير النفط العراقي، المورد الرئيس في حربنا مع إيران، كان عربيًّا. ويقول كثيرون إن دولًا عربية ساعدت العراق ماديًّا في أثناء الحرب، والحقيقة أن العراق حصل بعد إغلاق مصادره لتصدير النفط من الدول العربية المصدِّرة للنفط على ما قيمته 30 إلى 35 مليار دولار لمشترياته الحربية، وحُسبت كلها ديونًا عليه، وكل هذا لا يتجاوز 10 في

المئة من تكاليف الحرب المباشرة التي كانت نحو 350 مليار دولار (حُسبت تكاليف الحرب في دائرة الأركان العامة وحجم التدمير الذي أصاب البنية التحتية والمصانع والمنشآت، ورواتب عوائل الشهداء والمفقودين والأسرى). وكانت اللجنة الدارسة تكلفة الحرب واللجنة الأخرى الدارسة تكلفة القوات المسلحة برئاسة القصاب (العميد البحري الركن آنذاك). خسر العراق بنتيجة هذه الحرب ما يزيد على 150 ألفًا بين ضابطٍ وضابط صفٍ وجندي من خيرة أبنائه في القوات المسلحة وقوى الأمن الداخلي والجيش الشعبي، ونحو 700 ألف جريحٍ، وأكثر من 85 ألف أسيرٍ ومفقودٍ في حرب السنوات الثماني. وكان أسرى العدو يتمتعون بحقوقهم، وفق الاتفاقات الدولية في معتقلاتنا للأسرى، وأتذكر جيدًا المجلس التحقيقي الذي أمر الرفيق عزت الدوريّ، نائب أمين سرّ القطر، بتشكيله بحق أحد ضباطنا من حراس قفص الأسرى في أحد المعتقلات لأنه صفع أحد الأسرى الإيرانيين الذي شتم الرئيس صدام حسين.

كانت الأرزاق التي يتناولها أسرى العدو جنودًا وضباطًا من قواتهم النظامية أو حرس الخميني من أرزاق الدرجة الأولى التي تصرف لجنود القوات الخاصّة العراقية وضباطها، وكذلك العلاج الطبي في معتقلاتهم وفي المستشفيات، بينما مات العديد من أسرانا في معتقلات الجانب الآخر بردًا وجوعًا وتحت الضرب والتعذيب.

أخيرًا، إن ما دفعني إلى نشر هذا الكتاب في هذه الأيام التي تعيش فيها أمتنا ربيع ثوراتها، هو كي يعرف أبناؤها ما قدّمه العراق في حرب السنوات الثماني لهذه الأمة من تضحيات كي تبقى حرة وعزيزة ومستقلة، وليعرفوا مدى القوة والتضحية والإصرار التي تستطيع أن تبذلها هذه الأمة في طريق الحرية والحياة الكريمة، عسى الله أن يجعل مستقبلها أفضل من ماضيها، والله من وراء القصد.

X أشار الفريق الركن رعد الحمداني في كتابه قبل أن يغادرنا التاريخ إلى صفحات من الحرب العراقية - الإيرانية من موقعه بصفته آمر لواء وقائد فرقة. وأشار إليها عبد الوهاب القصاب في كتابه احتلال ما بعد الاستقلال في معرض تحليله العلاقات العراقية - الإيرانية ومعضلاتها. انظر: رعد مجيد الحمداني، قبل أن يغادرنا التاريخ (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، 2007)، وعبد الوهاب عبد الستار القصاب، احتلال ما بعد الاستقلال: التداعيات الاستراتيجية للحرب الأمريكية على العراق (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2007).

X يشير الكاتب هنا إلى فضيحة إيران - كونترا التي حُكي فيها عن تمويل الولايات المتحدة عصابات الكونترا في إلسلفادور بالأموال المتحصلة من مبيعات السلاح الأميركي لإيران، والتي كان بطلها العقيد أوليفر (أولي) نورث.

الفصل الأول: الأيام الأولى

ولدتُ في محلّة النبي شيت في مدينة الموصل في شمال العراق في 17/11/ 1936عندما كان والدي الرئيس (النقيب) عبد الكريم فيصل الخزرجيّ [7] ضابطًا في إحدى الوحدات العسكرية في معسكر الغزلانيّ الواقع جنوب المدينة على الطريق القديمة التي تربطها ببغداد، والتي تفصله عن المطار العسكري الواقع بين الطريق والضفة اليمنى لنهر دجلة. والدي تخرّج في الكلية العسكرية في عام 1928 الدورة الثانية لأبناء شيوخ العشائر (كانت خطة الحكومة العراقية آنذاك إدخال أبناء شيوخ العشائر العراقية المتعلمين في الكلية العسكرية لضمان ولائها للدولة الفتيّة)، وكان جدي فيصل محمد الجسّام الخزرجيّ أحد رؤساء عشائر قبيلة خزرج [8] في لواء ديالى (محافظة ديالى كما أصبحت تدعى في ما بعد). وبعد اغتيال الفريق بكر صدقي، رئيس أركان الجيش العراقي، في قاعدة الموصل الجوية في 9 آب/أغسطس 1937 اعتُقل والدي مع ما سُمي الكتلة القومية من ضباط حامية الموصل لتسفيرهم إلى بغداد، ومحاكمتهم بتهمة اغتيال الفريق بكر صدقي [9] ، لكن آمر حامية الموصل اللواء الركن أمين العمري رفض تسليمهم وأعلن العصيان وانفصاله عن بغداد في حالة إصرار الحكومة على تسليمهم، وأيّدته قطعات أخرى من الجيش، ما أجبر الملك غازي الأول على إقالة حكومة حكمت سليمان الموالية لبكر صدقي، وتشكيل حكومة جديدة برئاسة جميل المدفعي [10] ، فأصدرت عفوًا عن الضباط القوميين المتّهمين بالاغتيال. انتقل والدي إلى بغداد آمر سرية في الفوج الثاني في القوة الآلية، وبعد ترقيته إلى رئيس أول (رائد) عُيِّن في منصب معاون آمر الفوج الثاني في القوة نفسها، وعندما حصل الصدام بين الحكومة الوطنية وبريطانيا العظمى وكانت الحكومة برئاسة رشيد عالي الكيلاني [11] ومسندة من العقداء الأربعة أو ما كان يُطلق عليهم المربع الذهبيّ [12] (العقيد الركن صلاح الصباغ والعقيد الركن فهمي سعيد والعقيد الركن كامل شبيب والعقيد الركن محمود سلمان) وخامسهم وزير الشباب يونس السبعاوي، وعرفت باسم حركة مايس (نشبت الحرب في الثاني من شهر مايس [أيار/مايو] 1941، وانتهت في الثلاثين منه)، قامت القوة الآلية بمحاصرة القاعدة الجوية البريطانية في الحبانيّة، التي تحميها قوات من الليفي [13] ، من التلال المشرفة عليها في سن الذبان، واكتفت بمشاغلتها بالقصف المدفعي

والرمي المتبادل من دون صدور الأمر بمهاجمتها واحتلالها. كان آمر الفوج الثاني قد دخل المستشفى العسكري لمرضٍ أصابه فتولّى والدي قيادة الفوج الذي كان أحد آمري فصائله شقيقه الملازم الثاني إبراهيم فيصل الأنصاريّ [14] . وفي الأيام الأخيرة من الحرب اشتدّ القصف الجوي على القوة الآلية في سن الذبان، لثلاثة أيام متتابعة، وعندما هدأ في اليوم الرابع اكتُشف أن قوات بريطانية وقوات أردنية بقيادة الجنرال «أبو حنيك» (غلوب باشا) قائد قوات إمارة الأردن (الفيلق العربي) [15] وأخرى من الليفي قد طوّقت القوة الآلية، واستولت على عجلاتها في مآويها في المناطق الخلفية، فقام والدي وأفراد فوجه بعملية خروجٍ قسريٍّ، وتمكنوا تحت قصف القوات البريطانية ورميها الشديد من الإفلات من التطويق بعد خسائر كبيرة. واتجهوا راجلين نحو الفلوجة، ووصلوا إلى الضفة الغربية من نهر الفرات، وقد أنهكهم التعب والعطش، فاقترح مساعد الفوج الرئيس سعد الله أخذ قسطٍ من الراحة لاستجماع قواهم قبل العبور إلى الجانب الآخر من النهر، واستلقوا منهكين ليفاجأوا بمدرّعات وناقلات جند العدو تحيط بهم. ووقع في الأسر معظم ضباط الفوج ومراتبه إلّا من تمكَّن من القفز إلى النهر والعبور إلى الجانب الآخر، وقد نُقل الضباط الأسرى إلى قاعدة الحبانيّة.

أما الوالد فنُقل إلى فلسطين ثم إلى معسكر هاكستيب في القاهرة، وأُخضع لاستنطاقات مطوّلة، وأُعيد إلى العراق بعد أكثر من شهر ليجد أن ابنته الصغرى مكارم توفيت بعد هروبنا مشيًا إلى بيت عمّنا الكبير في إحدى المناطق الزراعية بالقرب من بلدة خان بني سعد شمال مدينة بغداد، في إثر تهدّم قسمٍ من دارنا في محلة الأرضروملي في جانب الكرخ في بغداد بالقصف الجوي البريطاني، وإصرار الوالدة على ترك العاصمة خشيةً منها على سلامة أولادها. أُصيبت أختي الصغرى مكارم، كان عمرها عامين، بالتهاب الأمعاء لشربها مياهًا ملوّثة من الساقية الصغيرة التي كانت المصدر الوحيد للمياه في تلك المنطقة المنعزلة في ريف خان بني سعد، وتوفيت ودفنت هناك. كما وجد أن معظم رفاقه من الضباط القوميين قد زُجّ بهم في السجون أو أُحيلوا على التقاعد، وعُيِّن معظمهم في وظائف مدنية بسيطة مثل مديرين لدوائر الإعاشة ودوائر العجزة. ولمّا كانت موجة الإحالة على التقاعد قد انتهت، نُقل الوالد إلى منصب آمر فوج في مدينة الديوانيّة جنوب العراق. وكان والدي كثيرًا ما يصطحبني معه إلى معسكر الفوج، وكنت أراقب في كل مرة بانبهار العرض الصباحيّ، وتقديم موجود ساحة العرض من الضباط والمراتب (ذوي الرتب دون الضابط) بالتسلسل،

وصولًا إلى آمر الفوج الذي يأمر بالبدء في التدريب بعد استلامه الوحدة من معاونه، إذ تبدأ عندئذٍ تدريبات الفوج على السلاح، وتفتيش القاعات بأسرّتها وأغطيتها المرصوفة بانتظام في قاعات نوم الجنود، وحانوت الوحدة الذي يؤمّه الجنود بعد انتهاء التدريب، والعمل اليومي. وكثيرًا ما شدّتني عودته إلى البيت بعد انتهاء الدوام الرسمي ممتطيًا حصانه، ويعقبه بأمتارٍ عديدةٍ مراسله على حصانٍ آخر. ومن تلك الأيام تولَّد في قلبي وعقلي حبُّ الجندية واحترامها، وكنت أستعجل الأيام كي أعيش أنا أيضًا سحرها، ولم يدُر بخلدي أي طموحٍ آخر غير أن أكون كبيرًا بالقدر والأهمية كما كنت أرى والدي، خصوصًا وهو يأمر مئات الضباط والجنود بأن يداوموا على التدريب فيبدأ الجميع بالطاعة والتنفيذ.

تزوّج والدي في الديوانيّة زوجته الثانية، وهي من مدينة الموصل، وأذكر أن والدتي (الوالدة من أقرباء أبي) استقبلتها والوالد عند وصولهما من دون تذمرٍ أو احتجاجٍ، ودلّتها على الغرفة المخصصة لها، وقبلت الهدايا التي جلبتها لها الزوجة الجديدة بهدوء، إذ كان الوالد حازمًا ومسيطرًا، ولم يسمح لهما بأي مناكفة أو خصام. وبعد مرور بضع سنين تولَّدت بينهما ألفة ومحبة ووئام، ولم تنجب الزوجة الثانية، فاستأذنت الوالدة في الاهتمام بأخي الصغير وتفرَّغت والدتي لي ولشقيقتيَّ. إضافةً إلى الزوجة الثانية، كانت الشيخة جدتي، وعمتي وزوجها وطفلاها يعيشون معنا في البيت نفسه، وكذلك ابنة عمتي اليتيمة، وأقارب آخرون يأتون ليبقوا أيامًا وأسابيع يقضون حاجاتهم ويذهبون، ولمّا عُيِّن أحد رفاق والدي من دورته في الكلية العسكرية من المحالين على وظيفة مدنية في الديوانيّة، ولم يعثر على سكن بقي وزوجته وابنه بضعة أشهر معنا إلى أن عثر على سكنٍ لائقٍ وانتقل إليه. وكان الوالد يعتبر ذلك أمرًا عاديًّا، فهكذا عاش أبوه الشيخ، إذ كان بيت الشّعر الذي عاش فيه شبابه ثم داره، ملجأ للأهل والأقارب والمحتاجين.

دخلتُ المدرسة الابتدائية في الديوانيّة في عام 1943 تلميذًا في الصف الأول الابتدائي، وفي السنة التالية صار والدي آمرًا لأحد أفواج الفرقة الثانية في كركوك، فداومت هناك في مدرسة الملك غازي الابتدائية، وكانت كركوك آنذاك مدينةً يسكنها التركمان وأقلية من العرب والمسيحيين، وكان معظم تلامذة صفنا من التركمان، وكنت مع تلميذ آخر وتلميذين مسيحيين العرب الوحيدين. وكان التركمان يتحدثون في ما بينهم بلغتهم التركمانية المميّزة، على الرغم من أن الدراسة في المدرسة كانت باللغة العربية. وعندما

أصبحتُ في الصف الثالث كانت الحرب العالمية الثانية قد انتهت بهزيمة ألمانيا، وكان والدي يحكي لنا عن انتحار هتلر وإيفا براون وغوبلز وزوجته وأولادهما الستة تحاشيًا للوقوع أسرى لدى الجيوش السوفياتية وجيوش الحلفاء. وكانت الدموع تنسكب من عيوني وأنا أسمع والدي يصف تدمير قنابل طائرات الحلفاء مدن ألمانيا بأسرها، وأتذكر كيف هدموا دارنا بقنابلهم وتسببوا بموت أُختي، وكيف حاربهم أبي وعمي. ولمّا كانت قوافل وأرتال قواتهم تمرّ من أمام دارنا كنت أُشير لهم بعلامة (v) مقلوبة التي تعني الهزيمة والخذلان، أو هكذا كنت أفهمها، وأدخل بيتنا راكضًا، وفي الليل كنت أخرج إلى الشارع، وأرسم بالطباشير علامة السواستكا النازية [الصليب المعقوف] كي يروها عندما تمرّ أرتالهم بشارعنا في اليوم التالي.

في عام 1946 نُقل الوالد إلى مدينة الموصل آمرًا لأحد أفواج حامية الموصل في معسكر الغزلاني، وداومت في المدرسة العراقية الابتدائية الواقعة على الشارع المؤدي من الباب الجديد إلى مركز المدينة مقابل المقبرة التي كنا نجتازها يوميًا إلى المدرسة من بيتنا في محلة السجن بمحاذاة القنصلية البريطانية. ومرة أخرى كان التلامذة في مدرستي يتكلمون العربية باللهجة الموصلية التي تطلّبت مني وقتًا لإجادتها والتحدث بها وفي تلك السنة اجتاحت الموصل أسراب الجراد وأكلت الأخضر واليابس، وتسببت بقحط شديد وندرة في الخبز والمواد الغذائية. وأذكر أن معلم اللغة العربية والدين كان يحثنا على قتل أكبر عدد منه، ويقول إن الله سيحسبها من محاسننا. وأذكر أيضًا الحفلة التي أحياها الفوج لمناسبة مولد الملك، وقد أُقيم مسرح كبير في حدائق الفوج، ومقابله مباشرة جلس الوالد ومن حوله ضباطه على مقاعد في الصف الأمامي، وخلفهم جلس على الأرض جنود وضباط صف الفوج، وكانت عشرات المصابيح الملونة تتلألأ أضواؤها على المسرح الذي كانت تقف عليه المغنية المعروفة سلطانة يوسف، وأمامها ميكروفون وخلفها أفراد الفرقة الموسيقية يعزفون وهم جلوس في مقاعدهم، وهي تهتز يمنة ويسرة، وتشدو بصوتها الجميل بأغانٍ عن حبها للملك والجيش وضباطه. وكان ذلك كله أشبه بالحلم الذي كنت لا أريد أن أصحو منه.

كان الفوج يقوم بمسيرة تحمّل واحدة شهريًا من ثكنته في معسكر الغزلاني إلى مرقد النبي يونس في الجانب الأيسر من نهر دجلة. وكان والدي والضباط يمتطون خيولهم، والجنود بأسلحتهم يسيرون راجلين في رتلٍ ثلاثيٍّ، وسمح لي الوالد بمصاحبتهم في إحدى هذه المسيرات، وخصص لي

حصانًا أحمر أمتطيه وأسير إلى جانبه، وهو على حصانه الأبيض، وكاد صدري ينفجر زهوًا، وأنا أنظر من علٍ إلى أهالي الموصل الذين يتابعون بفضول رتل فوج والدي، وهو يشق شوارع مدينتهم. كان في الدار المجاورة عائلة سليمان فؤاد بك، وهي عائلة معروفة في الموصل، ومن كبار ملّاك الأراضي الزراعية، وكان البيك من أصدقاء والدي. وكم كان منظره مهيبًا وهو يعود بعد انتهاء موسم الحصاد على حصانه محاطًا بعدد من الخيالة المسلحين بملابسهم العربية. وكانت زوجته أم عصام صديقة حميمة لوالدتي، لها طفلان عصام وأخته الصغيرة التي أصبحت بعد سنين زوجتي وأم أولادي. وكانت أم عصام سيدة لطيفة ومرحة تحب القيام بمقالب للأصدقاء، ففي أحد الأيام كانت الشيخة جدتي مستغرقة في قيلولتها في مجاز بيتنا، وعندما فتحت عينيها رأت شخصًا ملثمًا بملابسه العربية يقف عند رأسها يحدق إليها وبندقيته في يده، فهلعت جدتي وكاد قلبها يتوقف فأماط الملثم الغطاء عن وجهه، وكانت أم عصام وهي غارقة في الضحك لهلع جدتي وذعرها.

في أحد الأيام كان الوالد مع مجموعة من الضباط، والأصدقاء يتسامرون في النادي العسكري، وتطرق الحديث إلى ثورة عام 1941 ومحاكمة أبطالها وإعدامهم، فقال والدي إن اللواء مصطفى راغب، قائد فرقته، كان عضوًا في المحكمة التي أصدرت أحكامها بإعدام قادة الجيش الوطنيين، فوخزه أحد أصدقائه من الجالسين، وهمس في إذنه طالبًا منه السكوت لأن أحد الجالسين هو ابن أخت اللواء مصطفى راغب [16] ، لكن والدي استمرّ وقال بصوت عالٍ: «إني أذكر ما حدث ولا يمنعني وجود ابن أخت اللواء مصطفى راغب معنا من ذكر تلك الحقيقة». وبعد أيام صدر أمر بنقل المقدّم عبد الكريم فيصل الخزرجيّ من آمر فوج في حامية الموصل إلى مدير تجنيد مدينة كربلاء، وكانت تلك ضربة شديدة لوالدي حيث كان مثل هذا المنصب آنذاك للمرضى والعاجزين من الضباط.

في كربلاء كان الصبية في محلتي يستغربون اللهجة التي أتكلم بها، فبعد أكثر من سنتين عشناها في مدينة الموصل اكتسبتُ لهجتهم في النطق والكلام التي تختلف كثيرًا عن لهجة أهل الجنوب. وغالبًا ما كانوا يتساءلون عن معنى هذه الكلمة أو تلك، ويعيدون لفظها بلهجتهم ويضحكون منها ساخرين. وفي ليلة أول جمعة لنا في مدينة كربلاء ذهبت مع العائلة لزيارة مراقد الأئمة الحسين سبط رسول الله (عليه السلام)، وأخيه العباس، وانبهرنا بفخامتها وبهائها وتلألؤ آلاف المصابيح وانعكاسها على سقوف قبابها الذهبية،

وجُدُرها المموّهة بالمرايا المزخرفة، وأقفاصها الذهبية المحيطة بمراقدهم، ومئات البشر نساء ورجالًا يدورون حولها يتباكون ويقبّلون قضبانها الذهبية، ويعلّقون شرائط من القماش الأخضر على قضبانها، كما أدهشني حارس الأحذية عند خروجنا، حيث التقط على الفور أحذيتنا من بين آلاف غيرها من دون أن يرفع نظره ليدقق النظر فينا.

التقى والدي في كربلاء زميلًا له من دورته في الكلية العسكرية، وهو من أبناء شيوخ عشيرة العزة في محافظة ديالى، الرائد إبراهيم العزاويّ الذي كان من جملة الضباط القوميين الذين حاربوا الإنكليز في حركة مايس 1941، وأُحيل على التقاعد وعيِّن مديرًا لدار العجزة في كربلاء. وكان ابنه خليل في مثل عمري وكنا ندرس في المدرسة عينها وفي الصف نفسه، وعلى الفور ربطتنا صداقة استمرّت عشرات السنين.

نشبت الحرب في فلسطين، وأُرسلت القوات العراقية للقتال فيها، فكتب والدي طلبًا لنقله إلى القوات التي تحرّكت إليها، ولم تأتِ الموافقة على طلبه، وأذكر جيدًا كيف كنا نلصق آذاننا بالمذياع كل مساء أربعاء لنسمع المونولوجيست عزيز علي وهو يهاجم الحكومة والسلطة، ويسخر من تقصيرهما في الحرب والسلم في مونولوغاته التي تذيعها (محطة الحكومة) محطة بغداد للإذاعة اللاسلكية كما كانت تدعى آنذاك. وكنت وأنا في ذلك العمر أجلب كتاب الأطلس المدرسي، وفيه خريطة الوطن العربي فأرسم أسهمًا تمثِّل جيوشًا تنطلق من الدول العربية، وتتجه كلها إلى قلب فلسطين لتحريرها من اليهود الغزاة المغتصبين.

في العطلة الصيفية كان والدي يذهب بنا ليزور أخاه في بغداد، ويتركني هناك لأُمضي فترة الصيف، فكنت أنتهزها لقراءة الكتب العسكرية التي تغص بها مكتبته الصغيرة في غرفة الجلوس. وكنت أعشق قراءة تاريخ الحرب العالمية الأولى، ومنها معارك الجيوش التركية والإنكليزية في العراق وحصار الكوت واستسلام الجنرال طاوزند للجنرال التركي خليل باشا، ومعارك الحرب العالمية الثانية، وكنت أكن إعجابًا لا حدود له للجنرالات الألمان، وأحفظ عن ظهر قلب أسماء وألقاب معظم قادتهم، وتفاصيل المعارك التي خاضوها، وانتصروا فيها على الروس والفرنسيين والإنكليز، حتى تلك التي خسروها كنت أتفهم أو أُحاول تبرير خسارتهم، ولم أنظر قط باحترام إلى أولئك القادة الذين انتصروا من الروس والإنكليز والأميركيين إذ كانت خسارتنا الحرب مع الإنكليز وإعدام قادتنا العسكريين لا يزالان عالقين بذهني. كان عمّي معلمًا في مدرسة الأسلحة الخفيفة في معسكر الوشاش،

وأخذني معه مساء أحد الأيام، وكان في ذلك اليوم خفرًا، فتناولنا العشاء في مطعم المدرسة مع ضباط الدورات، وكان العشاء سمكًا، وفي اليوم التالي كان الاختبار الشفوي لضباط دورة الأسلحة، وكنت أجلس إلى جانبه فيُدخل ضابطًا بعد الآخر لأداء الامتحان، وكم كنت أشفق وأشعر بالأسى عندما يتعثر أحدهم في إجابته، وعندما كان والدي يعود لاصطحابي بعد انتهاء العطلة الصيفية كنت أترك جزءًا من عقلي وقلبي مع العمّ في بغداد.

في عام 1947 كُلِّف أرشد العمري بتشكيل وزارةٍ خلفت وزارة توفيق السويدي [17] ، وجاءت لقمع الحريات وتصفية الحياة الحزبية واضطهاد الصحافة، فإذ بها تدفع الأمور إلى التدهور والغليان الشعبي، وكان قد أُذيع قرار اللجنة البريطانية - الأميركية التي تؤكد تنفيذ قرار وعد بلفور بتقسيم فلسطين، وإقامة وطن قومي لليهود فيها. خرجت تظاهرات صاخبة اصطدمت بالشرطة في 28 حزيران/يونيو سقط فيها جرحى وقتلى، ثم تلتها حوادث (كاورباغي) التي نفَّذتها حكومة أرشد العمري [18] ضد تظاهرات عمال شركة النفط في كركوك، وكان الموسم الزراعي سيئًا وبرزت أزمة الخبز، الناس يصطفون في طوابير طويلة لاستلام الخبز الأسود، فسقطت حكومة العمري، وألّف صالح جبر [19] حكومته قبل أن يسارع مع وفد رسمي كبير إلى إنكلترا لاستبدال معاهدة 1930 مع بريطانيا بمعاهدة جديدة سميت معاهدة بورتسموث [20] (اسم المدينة التي وُقِّعت فيها المعاهدة)، لكن طلاب كلية الحقوق أضربوا احتجاجًا في 5 كانون الثاني/يناير 1948، فاعتُقل بعضهم، ولما احتجّ أساتذتهم اعتقلوا أيضًا، فخرجت في اليوم التالي تظاهرات صاخبة توجّهت إلى مجلس النواب للاحتجاج على الحكومة. وقِّعت المعاهدة يوم 15 كانون الثاني/يناير، لتنشر الأحزاب الوطنية بياناتها مندِّدة بالحكومة والمعاهدة يوم 18/1/1948، وتصاعدت موجة التظاهرات، فأصدرت الحكومة بيانًا هدَّدت فيه بقمعها بكل الوسائل والسبل، حتى حلّ يوم 20/1 فخرج طلبة كلية الشريعة بجببهم وعمائمهم البيضاء هاتفين بسقوط الحكومة وصالح جبر، فأطلقت الشرطة النار عليهم وسقط 4 قتلى وعددٌ من الجرحى. وفي اليوم التالي خرجت الجماهير لاستلام الجثث من المستشفى التعليمي، فعاودت الشرطة إطلاق النار عليهم وقتلت اثنين وجرحت آخرين. دعا الوصي على عرش العراق الأمير عبد الإله [21] إلى اجتماع لرؤساء الأحزاب، وأصدر بيانًا بعد انتهائه جاء فيه: «إذا كان الشعب لا يريد هذه المعاهدة فنحن لا نريدها أيضًا». وفي يوم 25 كانون الثاني/يناير عاد رئيس الوزراء صالح جبر من إنكلترا متوعدًا، لكن طائرته لم تستطع النزول في

مطار بغداد الذي كان محاطًا بآلاف المتظاهرين، فنزل في القاعدة الجوية البريطانية في الحبانيّة، ومنها استقل والوفد المرافق له العجلات المدرّعة متوجهًا إلى قصر الرحاب لمقابلة الوصي عبد الإله، واتّهم وكيله جمال بابان بالتهاون، وطلب من الوصي تخويله الصلاحيات الكافية ليقمع التظاهرات خلال 24 ساعة، وفي ليلة 26-27 كانون الثاني/يناير أصدر صالح جبر بيانًا حذّر فيه الشعب من الخروج بالتظاهرات، فإذ بعشرات الألوف من الجماهير يخرجون في اليوم التالي بتظاهراتٍ لم تشهد بغداد مثلها، من الأعظمية إلى الكاظمية، من جانب الرصافة ومن جانب الكرخ، والتقوا في جسر الشهداء، ففتح رجال الشرطة الذين اعتلوا سطوح المنازل ومنارات الجوامع نيران رشاشاتهم فقتلوا 40 وجرحوا 130 آخرين، وازداد الهياج فهاجمت الجماهير بعض مراكز الشرطة، وأضرمت النيران فيها فاستقال 20 نائبًا وبعض الوزراء، الأمر الذي اضطر الوصي إلى الذهاب إلى دار الإذاعة ليعلن إقالة وزارة صالح جبر وإلغاء المعاهدة، وتكليف الشيخ محمد الصدر [22] (رجل دين شيعي) بتشكيل وزارة جديدة. كنت آنذاك في دار عمّي في الأعظمية، وجاء ابن عمّ لي وأخرجني معه، وعبرنا إلى جانب الكرخ حيث فاجأتنا التظاهرات الصاخبة وهتافاتها بسقوط صالح جبر ومعاهدة بورتسموث، وحدث إطلاق نار وسقط بعض الجرحى بالقرب منا، فأخذني ابن عمّي من يدي مسرعًا إلى فندق قريب ولم نستطع العودة لانقطاع الطرق والجسور، وكان الفندق مأوى للجرحى الذين يخشون الذهاب إلى المستشفيات لاتقاء أن تلقي الجهات الحكومية القبض عليهم، فأمضينا الليلة فيه بين أنين الجرحى وصراخهم، وفي اليوم التالي عدنا إلى بيت العمّ فألفيناهم وقد أخذ منهم اليأس والخوف والقلق كل مأخذ. أنّبوا ابن عمّنا على سوء تصرفه وقلة إدراكه، وأُطلق على تلك الحوادث تسمية «وثبة كانون».

في السنة التالية، نُقل والدي إلى بغداد وسكنا في دار تقع في أحد الشوارع الفرعية التي تربط شارع عمر بن عبد العزيز بشارع عشرين في الأعظمية، والتقيت صديقي خليل إبراهيم العزاويّ الذي استقال والده من دار العجزة في كربلاء وتفرّغ للأعمال الحرة في بغداد. أمضينا أوقاتًا جميلة في اللعب وقراءة القصص والروايات. وكان خليل متعصبًا للألمان مثلي، ويكنُّ البغض للإنكليز الذين قاتلهم أبوه وأحالوه على التقاعد. كنا نتبارى في معلوماتنا عن تاريخ الحرب العالمية الثانية وأهم المعارك التي دارت فيها، وأسماء القادة البارزين من الجانبين.

كان لجماعة الإخوان المسلمين نشاط بارز في الأعظمية في تلك الأيام، وكانت تركز فيه على جمع الصبية وصغار السن في تنظيمها ليمارسوا الرياضة والسباحة بإشراف مدربين، ويتعلموا الصلاة إضافة إلى تلقينهم المبادئ الأساسية لفكر الجماعة. وانتظم معها معظم صبية المدارس، وكنت وخليل وأصدقاء آخرون من بعض هؤلاء، وأخذتنا الحماسة في أيامنا الأولى وكنا نلعب ونسبح ونصلّي ونتعلم دروس الجماعة ومبادئها، لكن كنا متحمسين أكثر للقيام بفاعليات أكثر وأكبر مما نقوم به داخل تنظيماتها مثل الخروج في تظاهرات والهتاف بسقوط الحكومة والتهاوش مع رجال الشرطة وغير ذلك. ولم يحدث أيٌّ من ذلك، فتركنا الجماعة إلى غير رجعة وعدنا إلى قراءة القصص والروايات والزيارات الأسبوعية لدور السينما في عروضها الصباحية لأفلام المغامرات، وكان يقلنا إليها سائق سيارة عائلة خليل العزاويّ من نوع «الفيات سفن ستارز»، ولم نمكث طويلًا في بغداد حيث نُقل الوالد إلى معسكر سعد في بعقوبة في لواء ديالى.

في مدينة بعقوبة مركز محافظة ديالى كنا على مقربة من أهلنا، وكانت دارنا لا تخلو يومًا من زيارة يقوم بها الأقارب وأبناء العشيرة، وكنا نحن أيضًا نزورهم في بلداتهم وقراهم، فتعرفت عن قرب إلى الحياة الريفية وبساطة الناس فيها وطيبتهم وكرمهم. وفي العطلة الصيفيّة جاءت عمتي وأولادها من مدينة البصرة، وكان فؤاد بكرها يكبرني ببضعة أشهر، فدعانا أحد أبناء عمومة والدي إلى قريتهم واسمها «كصيبة» في شرق بعقوبة، على الطريق إلى شهربان وخانقين، فركبنا أنا وفؤاد القطار إلى محطة أم الهوا التي لا تبعد أكثر من عشرين دقيقة عن بعقوبة، ووجدنا فيها أحد الأقارب ينتظرنا مع حصانين، فانطلقنا راكبين إلى القرية، وكان الشيخ «سَبِعْ» ابن عمّ الوالد يقطن في بيت كبير مبني من الطين، وبجانبه مضيف كبير مفروش بالبسط والمدّات الطويلة الملونة، يؤمّه رجال القرية نهارًا وتُدقّ القهوة، ويوزّعها أحد أبنائه عليهم. كنا نتناول عشاءنا بعد غياب الشمس مباشرة، وفي المساء تقام الجلسات في الخارج على الدكات الطينيّة الممتدة على هيئة مستطيل بعد أن تُفرش بالبسط والمدات، وتدار القهوة على الضيوف، ويجري تبادل الأحاديث التي لا تخرج عن نطاق حوادث ما مروا به في نهارهم وعن الزرع والسقي ومواشيهم وأبقارهم، وأدهشتني بساطة هؤلاء الناس وقلة حاجاتهم وبساطتها. كنا ننام على الدكات خارج المضيف، ونستيقظ مع شروق الشمس على صوت الخراف، وزوجة العمّ سَبِعْ وبناته يحلبنها، ويُعَد فطورنا من خبز الشعير الحار المغموس بالحليب والدهن،

بعدها نركب الخيول مع أحد أولاده، ونذهب لنسقيها في ساقية القرية، ونذهب إلى «المحلة» خارج القرية حيث تتكوّم أكداس محاصيل الحنطة والشعير التي يذروها ويُنقّيها أهالي القرية ومزارعوها. وفي السنة التي تلت ذهبنا إلى ابن عمّ آخر لوالدي في قرية زاغنية التي تقع على نهر خريسان، وهي قرية كبيرة فيها مقهى وحيد ومذياع يعمل على بطاريّة قديمة للعجلات، محاطة بالبساتين الغنيّة بالبرتقال والرمان والعنب والإجاص. وكنا نذهب إلى بساتين العمّ ونحن نمتطي الحمير التي تسير بتؤدة وثقة على طريق البساتين الترابية الضيقة، وتتوقف طوعًا عند باب بستانهم. وكانت أثمار الأشجار تتدلّى بمنظر يخلب الألباب من دون أن نحاول قطفها، وصدق المثل الذي يقول: «عندما تمتلئ العين تمتلئ المعدة». أثّرت فيَّ حياة القرية وأحببتها لبساطتها وطيبة أهلها وقناعتهم وكرمهم وصدقهم.

في تشرين الثاني/نوفمبر 1952 حدثت اضرابات وتظاهرات عارمة في بغداد وبقية مدن العراق في ما دُعي «وثبة تشرين»، حيث أضرب عمال الموانئ في مدينة البصرة مطالبين بحقوقهم، ولجأت الحكومة إلى وقف الإضراب بالقوة، وسقط عدد من الجرحى والقتلى في صفوف المضربين، الأمر الذي حدا الأحزاب الوطنية إلى تقديم المذكرات إلى الوصي على عرش العراق الأمير عبد الإله، وأوردت فيها شرحًا وافيًا لمدى التدهور الحاصل في أوضاع البلد، لكن الوصي تجاهل تلك المطالب، وتطاول على الفريق طه الهاشميّ [23] في مؤتمر حضره قادة الأحزاب في البلاط الملكي، فأصابت الجماهير حالة من الغليان أنذرت بانفجار عنيف، وجاء قرار عمادة كلية الصيدلة القاضي باعتبار الطالب المعيد لدرس ما معيدًا للدروس كافة ليثير غضب الطلاب الذين سارعوا إلى إعلان الإضراب في 16 تشرين الثاني/نوفمبر 1952، فعجّلت وزارة الصحة في إلغاء قرار عمادة كلية الصيدلة إلّا أن مجهولين اعتدوا في اليوم التالي داخل الحرم الجامعي على ناشطين من الطلاب، الأمر الذي أدّى إلى قيام تظاهرات طالبية، وإعلان طلاب الكليات كافة الإضراب، ثم تبعتهم المدارس الثانوية والمتوسطة في 22/11/1952.

وتطوّرت التظاهرات إلى مطالب سياسية تطالب بتحقيق مطالب الأحزاب التي قدمتها للوصي على عرش العراق. وكان انطلاق التظاهرات الشعبية من محلة الفضل في جانب الرصافة في بغداد حيث تصدت لهم الشرطة، ووقعت معارك سقط في إثرها قتيل وجرح 14 متظاهرًا فيما أُصيب 38 شرطيًّا. وفي عقب تدهور الوضع سارع مصطفى العمري [24] ، رئيس الوزراء، إلى تقديم استقالته إلى الوصي. وفي يوم 23 ازدادت التظاهرات

وهاجم المتظاهرون مراكز الشرطة، واستولوا على أسلحتهم وحرقوا مركز الاستعلامات الأميركي، فقتل 12 متظاهرًا. وفي المساء أُنزلت الشرطة السيارة واصطدمت بالمتظاهرين فقتل 23 متظاهرًا، و4 من رجال الشرطة. قبِلَ الوصي استقالة مصطفى العمري، وكلّف الفريق نور الدين محمود [25] ، رئيس أركان الجيش، بتشكيل الوزارة، وانتشر الجيش في شوارع بغداد وبقية المدن، وسارعت حكومة نور الدين محمود إلى إعلان الأحكام العرفية، وتشكيل المحاكم العرفية. وأعلنت حلَّ الأحزاب ووقْفَ معظم الصحف، وقام الجيش بالتصدي للتظاهرات، فقُتل 8 متظاهرين وجُرح 84، فأصدر أمرًا بمنع التجول من الساعة السادسة مساء حتى السادسة صباحًا. وفي الليلة نفسها قام باعتقال أكثر من 3000 مواطن من بينهم 220 من الوزراء السابقين والنواب والصحافيين ورؤساء الأحزاب وشخصيات سياسية معروفة. وحكمت المحاكم العرفية على اثنين بالإعدام وعلى 958 بالسجن لمدد مختلفة. وأصدرت الحكومة عددًا من المراسيم لتخفيض الرسوم المفروضة على المواد الغذائية وعلى البضائع المستوردة، والمرسوم رقم 6 بتعديل قانون الانتخاب وجعله على مرحلة واحدة، أي ليكون انتخابًا مباشرًا .

حدثت تظاهرات مشابهة في مدينة بعقوبة، فخرجتُ بها مع عددٍ كبيرٍ من الطلبة والمواطنين. وكان هتافنا الرئيس «ماذا تريدون؟ خبزًا لا رصاصًا». واتّجهت التظاهرة إلى مديرية شرطة بعقوبة، وشاهدت رجال الشرطة ورشاشاتهم من نوع «برن» يقفون في أعلى بناية المديرية، ونحن نهتف ونشير نحوهم بقبضاتنا مهدّدين. فجأة انطلقت نيران الرشاشات (كان الرمي إلى أعلى، ولم تصوّب النيران إلى أي من المتظاهرين)، وأذكر أن أحد الأئمة بجلبابه وطربوشه الأبيض والأحمر صرخ بنا «امتدّوا»، وتمدد هو على حافة الشارع حيث تجري المياه الوسخة السوداء، وتلوّث جلبابه وطربوشه، حيث دفن رأسه ليحتمي بين الشارع والرصيف. ولمحتُ على جانب الشارع دكانًا مفتوحًا فقفزت إليه لأحتمي، وبالكاد وجدت مكانًا إذ سبقني إليه العشرات من المتظاهرين. عدت إلى البيت، وقد اختفى صوتي من الهتافات، ولمّا جاء والدي قال: «اتصل بي مدير شرطة البلدة وأخبرني بأنك كنت في التظاهرة ومن الهتافين فيها»، وسألني: «هل أنت شيوعي؟». فقلت: «لا». قال: «لماذا خرجت في تظاهرة يقودها هؤلاء؟». فوعدته ألّا أُكرّرها في المستقبل.

بعد تجارب غير مشجعة في التظاهر انتهت إحداها بليلة رعب مع صراخ الجرحى والمصابين وأنينهم في فندق متواضع في جانب الكرخ من بغداد، كما ذكرتُ، (وثبة كانون 1948)، وأخرى خُتمت بفقدان صوتي

وتأنيب عنيف من والدي وسؤاله إن كنتُ شيوعيًا (وثبة تشرين 1952) اتجهت إلى القراءة بكل جوارحي، وكنت أمضي معظم أوقاتي بعد انتهاء الدوام في مدرستي في قراءة الروايات والقصص التي كنت أضعها وسط الكتب المدرسية التي أتظاهر بقراءتها. ولمّا اكتشفت أختي ذلك توسلتُ إليها بحفظ السر وعدم إخبار الوالد. وفي تلك السن المبكرة كنت أدخر معظم مصروفي اليومي لشراء الطبعات الشعبية من الكتب التي كانت تزخر بها المكتبات في العهد الملكي، فقرأت لطه حسين والعقاد ونجيب محفوظ وجرجي زيدان وآخرين من الكتاب العرب، ودوستويفسكي وتشارلز ديكنز وسارتر وكافكا الذي أصبتُ بكآبة بعد قراءة روايته الصرصار، ولم تسلم كتب المغامرات والقصص البوليسية من نهمي إلى القراءة، إضافة إلى الكتب العسكرية وكتب الحروب من مكتبة الوالد. لم تكن لي اهتمامات سياسية عدا شغفي بكل ما هو عربي، وكنت أميل إلى حركة القوميين السوريين وزعيمهم أنطون سعادة لدعوتهم إلى توحيد سوريا الكبرى، ولنزعتهم إلى الانضباط والتنظيم، ولم أكن قد اطلعت على فكرهم أو فلسفتهم، بل أن دعوتهم إلى التوحيد هي ما جذبني. وفي عام 1953 كتب خليل العاني، أستاذ التاريخ في ثانوية ديالى للبنين، على لوح الصف الأسود بخط كبير (حزب البعث العربي)، وشرح ماهية الحزب وفكره ودعوته إلى الوحدة العربية والتحرّر والعدالة الاجتماعية. وذكر أن قادة الحزب قاتلوا اليهود في فلسطين متطوِّعين في عام 1948، وذكر اسمي ميشيل عفلق وصلاح البيطار مؤسِّسي الحزب. وكانت تلك أول مرة أسمع بها باسم الحزب، فوجدت أنه أشمل وأوسع مما كان القوميون السوريون يدعون إليه، ومع ذلك لم أعر الأمر كثيرًا من الاهتمام، وانصرفت إلى هوايتي المحببة القراءة، وإلى الآفاق التي تفتحها أمامي لمختلف نواحي الحياة، فعدا هواية ركوب الخيل التي كنت أُمارسها في العطلة الصيفية عند أعمامي في قرية «كصيبة»، وكنت أمارس رياضة الجري للمسافات القصيرة والطفر الطويل (الوثب العالي)، وكانت نتائجي طيبة في السباقات المدرسية على الرغم من أنني لم أحصل على المرتبة الأولى، وبقيت غالبًا ضمن المراكز الثلاثة المتقدّمة، وكان لي إسوة بطل العراق والدول العربية في الطفر الطويل، والطفرة الثلاثية جارنا عبد الستار عبد الرزاق العزاوي الذي كان يشجعنا على ذلك.

كان والدي يعاني عدم ترقيته إلى رتبة عقيد، وكانت جداول الترقية تصدر مرتين في السنة في 6 كانون الثاني/يناير الذي هو يوم الجيش، وفي 12 أيلول/سبتمبر كما أتذكر كانت جداول ترقية الضباط تذاع من إذاعة

بغداد، وفي كل مرة لا يرد اسم والدي فيها على الرغم من توافر كل الشروط فيه. واستمرّ ذلك أربع سنين متوالية (ثمانية جداول) حتى عيِّن عمي الذي كان برتبة رائد ركن في إحدى دوائر رئاسة أركان الجيش، فوقعت بين يديه الإضبارة الخاصّة بالوالد فتصفحها، ووجد تقريرًا من اللواء مصطفى راغب قائده السابق عندما كان آمرًا لفوج في حامية الموصل يوصي بعدم ترقيته، فانتزع عمّي التقرير ومزقه وترقى والدي إلى رتبة عقيد في الجدول الذي تلا هذه الحادثة. وعندها أخبرنا عمي بما حدث، وقال: «مزّقتها لأني أعرف مقدرته، وكفاءته، وليس لأنه أخي».

في السنة الدراسية 1954/1955 أنهيت دراستي الثانوية، وتقدمت إلى كلية القوة الجوية والكلية العسكرية، ولمّا سمعت والدتي بتقدمي إلى الكلية الجوية أصرّت على سحب أوراقي على الرغم من أني اجتزت الفحوص الطبيّة كافة، وأجريت المقابلة مع لجنة القبول للكلية العسكرية في إحدى غرف الطبقة الأولى من وزارة الدفاع. وكانت اللجنة من ثلاثة ضباط، الأقدم منهم برتبة عميد. عندما دخلت كانت إضبارتي على المنضدة، فسألني أقدمهم لماذا أريد دخول الكلية العسكرية، وهل لي أقارب في الجيش؟ فذكرت اسم والدي وعمي ورتبهم ومواقعهم، فاكتفوا بذلك وانصرفت. بعد أيام عدة، وجدت اسمي في القائمة المعلّقة في دائرة الإدارة، وفيها موعد التحاقنا بالكلية العسكرية في الرستميّة بمعسكر الرشيد. التحقت ونُسبت إلى الفصيل 14 (آمره الرئيس أحمد علي عثمان) من السريّة الثالثة (آمرها المقدّم بدر الدين علي)، وكان عريف الفصيل التلميذ كنعان توفيق (من الدورة المتقدّمة أي السنة النهائية في الكلية) من بلدة بعقوبة، ووالده العقيد توفيق مع والدي في معسكر سعد ببعقوبة وصديقه. ولم يشفع لي ذلك كله فأخذني مسرعًا إلى أبو جريان، أشهر حلاقي الكلية وأقدمهم فأجلسني هذا على مقعد الحلاقة، والدخان يتطاير من السيكارة المعلقة بين شفتيه، ولف خرقة بيضاء حول رقبتي، وببضع حركات فحسب حلق شعر رأسي «نمرة صفر»، وربّت أبو جريان على كتفي، ونظرت في المرآة فشاهدت شخصًا كدتُ ألّا أعرفه، والعريف كنعان ينظر إليّ وابتسامة واسعة تملأ وجهه.

النظام والانضباط والطاعة هي الشعارات التي تعمل الكلية بكوادرها ومدربيها لتحيل الفتية التي دخلوها إلى رجال يتحملون مسؤولية الدفاع عن الوطن وسلامته، وذلك ما كنت أحلم به وأتمناه، لكن ليس كل ما يطلب المرء يدركه، إذ كنتُ مخالفًا بشكل ما من دون قصد أو تعمّد.

ومعظم مخالفاتي كانت إما لارتدائي الملابس المدنية في عطل نهاية الأسبوع، أو حصيلة التفتيش الأسبوعي الذي يسبق ذهابنا إلى الأهل يوم الخميس. كان بيت عمّي في نهاية الأربعينيات في محلة رأس الحواش في الأعظمية لا يبعد كثيرًا عن دار فاروق صبري، الطالب في الكلية العسكرية آنذاك، وغالبًا ما كنت أراه في ملابسه الكاكي الجميلة التي كان طلبة الكلية العسكرية يرتدونها يومها وأحلم بارتدائها يومًا ما، وهي تختلف عن بدلاتنا الزرقاء وبناطيلها ذات الخطوط الحمراء التي تختلف تمامًا عن الصورة التي كنت أحملها لفاروق صبري وبدلته، فكرهت ارتداءها، وغالبًا ما كان طلبة الصفوف المتقدّمة «يقنصونني» مرتديًا الملابس المدنية في عطل نهاية الأسبوع وأعاقَب عليها.

كان سريري في قاعة منامتنا في الكلية يقع بين سرير الطالب أكرم الجراح (كنا نطلق عليه اسم أكرم الجبليّ، وهو تركماني من كركوك) عن يميني، ورياض أحمد الأعظمي (وكنا نطلق عليه اسم رياض الأحمر نسبة إلى لون شعره) عن يساري، وكان هذان الطالبان متميِّزين في ترتيب خزانتيهما وفراشهما، وصبغ أحذيتهما في التفتيش الأسبوعي. ومهما كنت أحاول بقيت خزانتي وفراشي وأحذيتي نشازًا بينهما، وكانت النتيجة دائمًا عقوبة الحرمان من إذن الخروج، وساعتيْ تدريب إضافي. وهداني الله إلى حل ساعدني نسبيًّا، بالالتجاء إلى صديقي عبد الرزاق محمود في السرير المقابل لي، الذي لم يكن أقل تميزًا من جاريّ رياض وأكرم، فكنت أقوم في الليلة التي تسبق التفتيش الأسبوعي بنثر محتويات خزانتي على الفراش متظاهرًا بمحاولة ترتيبها، ثم أتركها وعلامات الخيبة على وجهي، وعبد الرزاق محمود يرمقني بين فينة وأخرى ثم يأتي ويسألني عن المشكلة، فأشير إلى كومة الملابس، وأذكّره بأنني للأسبوع الثالث لم أذهب إلى أهلي، فتدب النخوة لدى صديقي العزيز، ويقوم بترتيبها قطعة بعد أخرى وهو يدمدم، ويقول إن هذه آخر مرة يساعدني فيها، فأنهض وأقبّله شاكرًا، وفي الأسبوع الذي يليه يُكرّر المشهد عينه.

في نهاية السنة الأولى انتقلت الكلية لفترة التدريب الإجمالي لطلبة الدورتين المستجدة والمتوسطة (طلبة الدورة المتقدّمة كانوا قد تخرجوا ضباطًا) إلى معسكر سكرين قرب مصيف سرسنك في المناطق الجبلية من محافظة الموصل. وكان للملك فيصل الثاني وخاله الأمير عبد الإله قصر صغير في سرسنك يمضيان فيه بعض أشهر الصيف بعيدًا عن حر بغداد. كانا يزوران معسكرنا التدريبي في سيارة حمراء صغيرة مكشوفة، ويتابعان

تدريب الطلبة من بعيد. وفي يوم الجمعة الأولى لوصولنا إلى المعسكر أقاما دعوة غداء لضباط الكلية وطلبتها، وقدّم الطلبة عرضًا للقفز في الماء في حوض سباحة القصر، ووزع الملك والأمير بعد انتهائه ساعات وأقلام حبر بين من شاركوا. بعد الغداء تناولنا الشاي في قاعة القصر، وكانت صورة مجسمة من الزجاج الملون المزدوج للمرحومة الملكة عالية والدة الملك موضوعة على منضدة في أحد أركانها، ومن دون تعمد تعثّر أحد الطلبة بالمنضدة فوقعت وانكسرت قطعًا صغيرة، وجاء الأمير عبد الإله، ونظر بحزن إلى قطع الزجاج لصورة أخته فجمعها وغادر القاعة من دون أن يقول شيئًا أو يعلّق على ما حدث.

كانت خيام معسكرنا منصوبة في منطقة مستوية يسار الطريق الرئيسة المؤدية إلى أربيل، ومحاطة بسلاسل جبلية كنا نتسلّقها وآمرو فصائلنا كل صباح قبل بدء التدريب، وإلى يمين الطريق مقهى صيفي صغير يديره أحد الأكراد مبني من عرائش وفروع الأشجار، ويطل على الوادي السحيق في الجانب الآخر من الطريق. كان مديرو الكلية قد منعوا الطلبة من عبور الشارع أو الجلوس في المقهى، وعصر أحد الأيام قمنا (مجموعة من طلبة دورتنا) بعبور الشارع لشرب الشاي في المقهى، فلمحنا عريف خفر الكلية وكان من طلبة الدورة المتوسطة، فأتى مسرعًا ليكبسنا في المقهى. ولما شاهدناه جرينا إلى الجبال المحيطة بالمعسكر وهو يجري خلفنا، وبعد دورة جري طويلة عدنا إلى المعسكر، وهنا سمعنا بوق تنزيل العلم في المعسكر عند غروب الشمس فتوقفنا عن الجري، ووقفنا بالاستعداد من دون حراك، لكن عريف الخفر المعروف بمقته طلبة دورتنا لم يقف بل لحق بنا وسجل أسماءنا، وقدمنا مذنبين لآمر سريّتنا المقدّم بدر الدين علي الذي أمر بحلاقة رؤوسنا بالموسى، وحكمنا بأربع ساعات تعليم إضافي كل يوم حتى نهاية فترة التدريب الإجمالي (ساعة بعد نهاية التدريب الصباحي، وأخرى بعد الغداء مباشرة، وثالثة بعد العشاء، والأخيرة في منتصف الليل)، وكلّف أحد ضباط الصف، وكان معروفًا بقسوته، بإنفاذ العقوبة يوميًا، فكان هذا يتعمد تنفيذ ساعتي التعليم الإضافي بعد التدريب الصباحي، وبعد الغداء في مواجهة خيمة آمر السريّة الذي تكرم بالعفو عنا بعد ثلاثة أيام وبعد التماسات عديدة من آمري فصائلنا.

في السنة الثانية سجلني أحد أصدقائي من الطلبة الرسامين في مرسم الكلية، ووجدتها مناسبة للتخلص من فترة الرياضة المسائية، وكنت أستغلّها للذهاب إلى بيت عمّي الذي كان يسكن في إحدى دور كلية الأركان حيث

كان يُدرِّس، وكان يفصل الدار عن كليتنا سياج من شجيرات الياس والكالبتوس. عصر أحد الأيام كنت مضطجعًا في قيلولة ما بعد الظهر في ديوان بيت العمّ فشعرت بضربة سكين حاد يُغرس في صدري فصرخت، وسمعتني زوجة عمّي فركضت نحوي، وقالت: «خير ماذا حدث؟». فأخبرتها فقالت محاولة تهدئتي: «احمد الله أنه كان حلمًا»، وبعد أقل من ربع ساعة جاء أصدقاء ابن عمّي من الصبيان يتراكضون، وقالوا إن إياد ابن عمّي (10 سنوات) غرق في نهر ديالى المحاذي للكلية عندما كانوا يسبحون، فخرجنا راكضين إلى النهر ولم نعثر له على أثر. واستدعى عمّي فريقًا من الغواصين، بقي يبحث عنه طوال يومين من الغوص في مياه ديالى العكرة فلم يعثر عليه، وفي اليوم الثالث طافت جثته في مكان غير بعيد من المكان الذي غرق فيه، وحتى الآن أعلم أني لم أكن نائمًا عندما شعرت بضربة السكين تلك، وأنها قد تكون قد حدثت لحظة غرق ابن عمّي!

كان لحوادث مصر في عام 1956 تأثير كبير في نفس ومشاعر الشعب العراقي قاطبة، وشبابه بشكلٍ خاصٍ، فتأميم الرئيس عبد الناصر قناة السويس، والاعتداء الثلاثي على جيش شعب مصر الشقيقة، والمقاومة البطولية لشعب بور سعيد لقوات العدوان الثلاثي، وخطب عبد الناصر، وبرامج أحمد سعيد من إذاعة «صوت العرب» من القاهرة، كلها عوامل عملت على إعادة تأجيج المشاعر القومية في شعبنا بعد محاولات السلطة إخمادها طوال السنين التي أعقبت حربنا ضد الإنكليز في أيار/مايو 1941. وكان معظم طلبتنا في الكلية العسكرية يعبّرون علانية أو سرًا عن إسنادهم مصر عبد الناصر، ولم يخفوا مرارتهم من مواقف السلطة، والحكومة العراقية التي لم تكن بمستوى حوادث مصر المصيرية في تاريخ الأمة والمنطقة.

كان صبحي محمد الداود أحد طلاب دورتي وفصيلي، وهو من مدينة الموصل ومن أصدقائي المقرّبين، يتميز من الآخرين بهدوئه وثقافته وسعة اطلاعه. عرفتُ أنه كان بعثيًا بعد الحوداث التي مرت بها مصر، وفي المناقشات التي كانت تجري في أثنائها وبعد انتهائها، فأخبرته أني سمعت بالبعث وبشعاراته عن وحدة الأمة والعدالة الاجتماعية من بضع سنين من أحد مدرسينا، ولم أجد حينها دافعًا إلى معرفة المزيد عنه، فبدأ الرجل يعرض بعضًا من أفكار الحزب ومواقفه السياسية وتطابقها مع ما يدعو إليه الرئيس عبد الناصر في صراعه مع القوى الإمبريالية ومن أجل تحقيق الحرية والعدالة الاجتماعية لشعب مصر والأمة العربية. ولم أتسرع في اتّخاذ موقفي، حيث كنت أريد التحقق من هذا قبل قراري الذي سيكون نهائيًا

في قضية انتمائي إلى حزب أو حركة. وفي عام 1957 كنت قريبًا جدًا من أفكار صديقي صبحي محمد الداود فسألته: «هل أستطيع الانتماء إلى الحزب؟». قال: «نعم بالتأكيد، وإنني لم أُفاتحك بالانتماء بعد كل تلك الأيام التي تكلمنا فيها عن الحزب ومواقفه وأفكاره، على الرغم من الصداقة والثقة اللتين تربطاننا لأنني أردتُ أن تذكرها أنت عندما تكون مقتنعًا وجاهزًا». في الأسبوع الذي تلا هذا الحديث جلب لي كتاب في سبيل البعث لميشيل عفلق، وأكد ضرورة السريّة في قراءته، وإعادته إليه بعد الانتهاء منه، ثم أخبرني بأنني كنت صديقًا والآن أصبحت مؤيدًا في الحزب. وبعدها فهمت منه أنني كي أصبح نصيرًا وعضوًا في الحزب يجب أن أمضي وقتًا ليس قليلًا في التثقيف والنضال. وأخبرني بأن هناك طلبة آخرين من المنتمين، فصارحته بالقول: «أُفضل أن يكون اتصالي بك فأنت صديقي ومحل ثقتي». وفي 14 شباط/فبراير 1958 أُعلن الاتحاد الهاشميّ بين مملكة العراق والمملكة الأردنية الهاشمية استباقًا لإعلان الوحدة الاندماجية بين مصر وسورية التي كانت المباحثات لتحقيقها قد وصلت إلى مراحلها النهائية، وأُعلنت في 22 شباط/فبراير 1958، واشترط فيها الرئيس عبد الناصر حل الأحزاب السياسية كافة فوافق حزب البعث في سورية على حلّ نفسه في سبيل تحقيقها. وأُعلن الرئيس عبد الناصر رئيسًا للجمهورية العربية المتحدة التي كان إعلانها عيدًا قوميًا للشعب العربي في كل مكان، أما الاتحاد الهاشميّ بين العراق والأردن فكان اتحادًا غير اندماجي، واحتفظ كل منهما بشخصيته الدولية المستقلة ونظام حكمه. ونُصِّب ملك العراق رئيسًا له وملك الأردن نائبًا لرئيس الاتحاد، أما مقرّ الحكومة فتقرر أن يكون دوريًّا بين بغداد وعمّان، يُبدَّل كل ستة أشهر، ووافق مجلسا الأعيان والنواب العراقيان عليه في 17 شباط/فبراير 1958، وأُلّفت حكومة الاتحاد وأصبح نوري السعيد رئيسًا لها، ونظر شعبنا إلى هذه الخطوة مشككًا في جديتها، واعتبرها عملًا استباقيًّا للوحدة الحقيقية لشعبي سورية العروبة ومصر عبد الناصر [26] .

تخرجت دورتنا في الكلية العسكرية في 30 حزيران/يونيو 1958، ورعى حفلة التخرج الملك فيصل الثاني ملك العراق. أُلحقت بالصنف المدرع، ومُنحنا إجازة لمدة أسبوعين على أن نلتحق بمدرسة الدروع في معسكر أبو غريب الواقع في ضواحي بغداد الغربية يوم 14 تموز/يوليو 1958.

صبيحة يوم الاثنين 14 تموز/يوليو نهضت مبكرًا في دارنا في مدينة بعقوبة وفتحت المذياع، فكان يذيع الأناشيد الحماسية ومنها نشيد «الله

أكبر»، ثم أعقبها إذاعة بيان قيام القوات المسلحة الوطنية بالثورة على النظام الملكي، وإعلان جمهورية شعبية عُهدت رئاستها بصورة موقتة إلى مجلس سيادة يتمتع بسلطات رئيس الجمهورية ريثما يتم استفتاء الشعب لانتخاب الرئيس. وكان البيان بتوقيع العقيد الركن عبد السلام محمد عارف [27] عن القائد العام للقوات المسلحة الوطنية. وفي البيانات اللاحقة أُعلن أن الزعيم عبد الكريم قاسم [28] هو زعيم الثورة والقائد العام، وأن العائلة الملكية قد قُتلت. في اليوم الثاني أُعلن مقتل نوري السعيد [29] رجل العراق القوي ورئيس حكومة الاتحاد الهاشميّ.

كان الوالد قد عُيِّن آمرًا لثكنة وزارة الدفاع، وكان يذهب كل يوم صباحًا من بعقوبة إلى دائرته في وزارة الدفاع ويعود إليها بعد انتهاء الدوام، فارتدينا ملابسنا العسكرية على عجل، وغادرنا إلى بغداد في عجلته العسكرية. وفي المسير إلى بغداد كانت الطريق مزدحمة بأرتال اللواء التاسع عشر الذي يقوده الزعيم عبد الكريم قاسم التي كانت تسير بين خان سعد (20 كلم من بغداد) ومعامل الطابوق (10 كلم من بغداد) في طريقها إلى العاصمة. كانت رئاسة أركان الجيش قد أصدرت أوامرها بتحرّك اللواء العشرين إلى الحدود العراقية - الأردنية في إثر تهديدات أطلقتها إسرائيل ضد الأردن. اتفق الزعيم عبد الكريم قاسم والعقيد عبد السلام على انتهاز فرصة مرور اللواء العشرين في بغداد للقيام بالاستيلاء عليها، وإعلان الثورة من دون إخبار تنظيم الضباط الأحرار الذي ينتمون إليه، فقام العقيد عبد السلام عارف الذي كان آمرًا لأحد أفواج اللواء العشرين باعتقال آمر لوائه الذي رفض الاشتراك في الثورة، وقاد اللواء إلى بغداد، واستولى على دار الإذاعة ومركز الاتصالات الهاتفية وبعض مراكز القادة العسكريين، وحاصر العائلة المالكة في قصر الرحاب. لم يوافق الأمير عبد الإله على مقاومة القوة التي تحاصر القصر وكانت نحو سريّة واحدة، وطلب من الملك فيصل أن يكتب وثيقة تنازله عن العرش، وخرجوا إلى حديقة القصر مستسلمين، وفي مقدَّمهم الملك فيصل والأمير عبد الإله، وخلفهما سيدات العائلة المالكة. وكانت السيدة نفيسة والدة الأمير عبد الإله ترفع المصحف الشريف فوق رأس الملك، وعلى الرغم من ذلك قام أحد الضباط الثائرين، وهو الملازم الأول عبد الستار العبوسي، بإطلاق النار عليهم، وشاركه في ذلك آخرون فقُتل الملك والأمير عبد الإله وجميع نساء العائلة عدا الأميرة بديعة خالة الملك التي نجت من هذه المذبحة، والأميرة هيام بنت أمير ربيعة عقيلة الأمير عبد الإله. نُقلت جثة الملك إلى

المستشفى العامّ في بغداد، وسُحلت جثة الأمير عبد الإله في شوارع بغداد ثم عُلقت على عمود كهرباء مقابل وزارة الدفاع في المكان نفسه الذي عُلقت فيه جثة العقيد الركن صلاح الصباغ زعيم القادة العسكريين الذين قاتلوا الإنكليز في عام 1941، والذين عُرفوا باسم المربع الذهبيّ، وعاش عبد الستار العبوسي أيامًا صعبة تحت تأثير تأنيب الضمير فانتحر في بيته في البصرة في أوائل السبعينيات [30] .

وصلنا إلى وزارة الدفاع بعد الساعة التاسعة صباحًا، وكان الزعيم عبد الكريم قاسم يقف ومجموعة من الضباط قبل الدرج المؤدّي إلى البناية الرئيسة للوزارة، وكان يحتضن غدّارة [مسدسًا] من نوع سترلنغ، ويبدو شاحبًا، ووجهه بلون التراب وعيناه الحذرتان تتحرّكان يمينًا ويسارًا، فتقدّم إليه والدي الذي كان يعمل معه آمرًا للفوج الثاني في اللواء التاسع عشر في المنصوريّة، قبل نقله إلى وزارة الدفاع ببضعة أشهر، للسلام عليه وتهنئته بنجاح الثورة.

التحقت بمدرسة الدروع مع زملائي الذين نُسبوا إلى هذا الصنف، ومن الأيام الأولى ظهر الخلاف بيننا، إذ كنا نحن القوميين ندعو إلى الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة التي كان يرفع شعارها ويدعو إليها نائب رئيس الوزراء العقيد عبد السلام عارف، فيما آخرون يدعون إلى اتحادٍ فدرالي وصداقة سوفياتية كما كان يدعو إليها الشيوعيون والشعوبيون من أنصار الزعيم عبد الكريم قاسم. ووصل الخلاف، ونحن في أيام الثورة الأولى، إلى الشجار والمقاطعة وكيل الاتهامات وتشكيك أحدنا بوطنية الآخر، وكانت هذه أولى إرهاصات الفتنة التي لا يزال العراق يعانيها حتى الآن.

في يوم تدريبي في مدرسة الدروع كان رأس العرفاء صالح، معلم الأسلحة، يشرح لنا كيفية دوران مدفع الدبابة سنتوريون كهربائيًا (إنكليزية المنشأ)، وكنا نحن الطلبة الضباط داخل الدبابة التي فيها فتحة بين طائفة الدبابة (مكان الطاقم) والسائق، وعند دوران برج الدبابة تدور الفتحة وتصبح مع بدن الدبابة، وكنت مركّزًا على شرح المعلم، ولم أنتبه لقدمي اليسرى وقد انزلقت في فتحة السائق، وعندما أدار المعلم برج الدبابة كهربائيًا انحشرت قدمي بين الفتحة والبرج ثم الجدار الحديدي لبرج الدبابة، وبدأت أسمع تكسر عظام قدمي فصرخت فأوقف رأس العرفاء صالح البرج، وأعاده يدويًا إلى وضعه السابق، ولو أعاده كهربائيًا لقُطعت قدمي. عندما أخرجوني من الدبابة كانت قدمي في حالة يرثى لها، ونُقلت إلى مستوصف المدرسة فقام طبيبها بالإسعافات الأولية، وأوصى بنقلي فورًا إلى مستشفى

الرشيد العسكري، ومكثت فيه أكثر من شهرين لمعالجة التمزقات والكسور التي أُصبت بها. وأجمع زملائي على أنني كنت محظوظًا عندما لم تُقطع قدمي في هذه الحادثة، لكني اعتُبرت فاشلًا في اجتياز دورة الدروع لانقطاعي عنها أكثر من ثلث مدتها، ونُقلت إلى كتيبة المدرعات في معسكر الوشاش في بغداد على أن أُعيد الدورة في السنة التالية. في الفترة التي أمضيتها في المستشفى كان الانقسام بين القوى القومية والشيوعيين والشعوبيين قد زاد واتسع، وأُبعد العقيد عبد السلام عارف الذي امتنع من الذهاب سفيرًا لألمانيا، وكان يستقبل أنصاره المؤيدين له في داره، وذهبت مع شقيقتي لرؤيته، وكان البيت مكتظًا بهم، وسمعته يقول: «أنا لن أكتفي بالقيام بـ 14 تموز واحدة بل مستعد أن أقوم بمئة 14 تموز أخرى»، فقلت لشقيقتي: «دعينا نخرج فهذا الرجل لا يصلح أن يكون قائدًا لنا فمن المؤكد أن من بين هؤلاء الجموع من سينقل ما قاله إلى الزعيم عبد الكريم قاسم». أخيرًا قابل الزعيم الذي أقنعه بالسفر إلى ألمانيا ثم عاد بعد بضعة أشهر فاستدعاه الزعيم وعنّفه لرجوعه من دون إذنه وموافقته، فأخرج عبد السلام مسدسه وقبل استخدامه تمكَّن أحد زملائهما الضباط وكان حاضرًا معهما، من انتزاعه منه، وأحيل على المحكمة العسكرية العليا الخاصّة (محكمة الشعب)، فأصدرت عليه الحكم بالإعدام لمحاولته اغتيال قائد الثورة الزعيم عبد الكريم قاسم.

التحقت بكتيبة المدرعات في معسكر الوشاش بعد انتهاء إجازتي المرضية، وكانت الكتيبة تقوم ببعض واجبات الأمن الداخلي ومنها حراسة محكمة الشعب السيئة الصيت وآمرها العقيد فاضل المهداوي [31] . وكانت المحكمة في أثناء انعقاد جلساتها قد ازدحمت بضباط الاحتياط ذوي الميول الشيوعية، وبمؤيدي الزعيم عبد الكريم قاسم الذين اصطُلح على تسميتهم بـ «القاسميين»، وكانوا قد نُقلوا إليها أخيرًا. كنت ومساعد الكتيبة الملازم الأول حميد التكريتي وأحد آمري السرايا العناصر القومية الوحيدة في الكتيبة بعد إبعاد الضباط القوميين منها، وكنت لا أعبأ بالمجاهرة بآرائي على الرغم من الجو البوليسي الذي يسود الكتيبة، فاضطرّ آمرها العقيد سلمان الحصان (وهو من القاسميين الجدد) إلى استدعائي وتحذيري، وذكر بأن عبد الناصر متآمر على العراق وطامع في نفطه وثروته، فأجبته: «إننا نعرف عبد الناصر قائدًا قوميًا ويدعو إلى وحدة الأمة، وإذا كان متآمرًا فأبرزوا الأدلة كي نقتنع». فصرفني وبعد بضعة أيام صدر أمر نقلي إلى سريّة حراسة الوشاش.

التحقت بسريّة حراسة الوشاش، وقدمتُ نفسي إلى آمرها العقيد خالد مصطفى الشارود (وهو من عائلة معروفة في بعقوبة) فسألني: «إنك من الصنف المدرع فلماذا نُقلت إلى هنا؟» فقلت: «لاتهامي بأنني بعثي»، ففاجئني بقوله: «وماذا في ذلك؟ فابن أخي بعثي». فقلت: «هذا ما حدث فالكتيبة تغص بالضباط الاحتياط من الشيوعيين الانتهازيين، ولم أستطع إلا أن أصطدم بهم». كانت أيامي الأولى في سريّة حراسة الوشاش طيبة على الرغم من نقلي من الصنف المدرع إلى وحدة غير مقاتلة، فآمرها شهم ومتميِّز وعروبيّ حتى العظم. وكانت السريّة تتألف من ستة فصائل، وكل فصيل من ستين جنديًا وضابط صف، ونصف تعدادها كان مكلفًا بحماية مخازن عتاد أبو غريب. وكنا في السريّة ثلاثة آمري فصائل فقط، أنا والنقيب محسن الدوريّ والملازم الأول عبد الخالق الإمام، وكل ثلاثة أيام يكون أحدنا خفرًا في مخازن العتاد في أبو غريب، وعادة ما يذهب الضابط الخفر في عجلة نقل (لوري) مع نحو 30 جنديًا لتبديل الجنود المجازين الموجودين في حراسة المخازن.

كان العقيد الركن عبد الوهاب الشواف، آمر اللواء الخامس وموقع الموصل وأحد قادة تنظيم الضباط الأحرار، قد أعلن تمرّده على عبد الكريم قاسم في 8 آذار/مارس 1959 في إثر إصرار الزعيم عبد الكريم على إرسال «قطار أنصار السلام» والشيوعيين إلى الموصل العربية التوجه والانتماء، على الرغم من تحذير العقيد عبد الوهاب الشواف من أن ذلك سيؤدي إلى اصطدام وتقاتل مع أبناء المدينة الذين توعدوا الزوار غير المرحّب بهم، وأعلن ثورته من دون الرجوع إلى القيادات العسكرية القومية التي سبق أن اتفقت على التغيير بعد استكمال عوامله. وأُذيعت بيانات الثورة من إذاعة جلبوها من الإقليم السوري إلى الموصل، لكن ضعف أجهزة البث جعلها لا تُسمع إلا بمشقة وبفترات متباعدة، الأمر الذي قلل تأثيرها، فأرسل عبد الكريم قاسم طائراته، فقصفت مقرّ آمرية الموقع، وجرح العقيد الشواف فخرج إلى القاعدة الجوية للتداوي في مستوصفها فانقض عليه جنود وضباط صف كتيبة الهندسة بقيادة ضباط أكراد وشيوعيين، وقُتل في الحال وسُحلت جثته. وبمقتله تفككت وحدات اللواء وسيطر الأكراد والشيوعيون والانتهازيون، بمساعدة جموع مسلحة من الأكراد أرسلهم الملا مصطفى البرزاني للمشاركة في وأد ثورة الشواف. وأُبيحت مدينة الموصل فقتل المئات من الضباط ومؤيدي الثورة وسُحلوا في شوارعها. وهاجموا بيوت مناوئيهم وقتلوا أصحابها ونهبوا محتوياتها ومنهم بيت العمري، حيث

قتلوا رب العائلة وابنته حفصة العمري عندما رمت نفسها على أبيها لتحميه، وعلقوا جثتها على عمود الكهرباء، وأُعدم رميًا بالرصاص أشراف الموصل وشيوخها من جانب المحكمة القصابيّة (رئسها عبد الرحمن القصاب العضو البارز في اللجنة المحلية للحزب الشيوعي) في وادي حجر على الطريق المؤدية إلى بغداد.

بعد فشل الثورة أُلقي القبض على الزعيم (العميد الركن) ناظم الطبقجلي قائد الفرقة الثانية، والعقيد رفعت الحاج سري مؤسس حركة وتنظيم الضباط الأحرار (ويُعرف بـ «أبو الضباط الأحرار»)، وعدد كبير آخر من الضباط القادة والأحداث والطيارين، وأُعدموا بعد مثولهم أمام محكمة المهداوي في ميدان رمي أم الطبول (أُقيم عليه جامع الشهداء في أم الطبول بعد سقوط نظام قاسم). وزجّ بمئات الضباط في السجون، وتفنّن سجانوهم في ممارسة أبشع أساليب التعذيب، وأُحيل أكثر من 200 من كبار الضباط القوميين على التقاعد في قائمة واحدة فقط، تبعتها قوائم أخرى، ومن ضمنهم والدي وعمي. وساد جوٌّ من الإرهاب لا مثيل له في أنحاء العراق كلها أشاعته ميليشيات الحزب الشيوعي المسماة بالمقاومة الشعبية التي كانت تجوب شوارع بغداد وتهتف باسم الزعيم عبد الكريم والحبال في أيديهم يلوحون بها لسحل خصومهم من القوميين والبعثيين، وهم يهتفون «ماكو (لا) مؤامرة تصير (تقوم)، والحبال موجودة»، وكان هتاف منتسبات الجيش الشعبي، وهن يرقصن ببناطيلهن الكاكية الضيقة «بعد شهر ماكو (لا يوجد) مهر (زواج شرعي)، ونذب نرمي القاضي بالنهر».

في هذه الأيام السوداء من تاريخ العراق كنت ضابط خفر مخازن العتاد، وفي طريقي إلى أبو غريب في عجلة حمل، ومعي مجموعة من جنود سريّة الحراسة لتبديل مُجازي مخازن العتاد، سمعت أصوات هتافات يطلقها الجنود الذين كانوا يجلسون في الخلف فأوقفت العجلة ونزلت وقلت: «من كان يهتف منكم»، فلم يجاوبوا فأنّبتهم بشدّة، وقلت: «إن الهتاف والرقص هو للساقطين وليس للجنود»، وأمرتهم أن يتصرفوا بصفتهم جنودًا في الجيش العراقي. وبعد وصولي إلى المخازن قمت بتفتيش المجازين قبل نزولهم، ولاحظت أن بعضهم يضع على صدر بدلته العسكرية شريطًا من القماش الأحمر عليه صورة الزعيم عبد الكريم قاسم ومكتوب تحته «وطن حر، وشعب سعيد»، وهو شعار الحزب الشيوعي، فقلت لهم: «هل هذا موجود في القيافة العسكرية؟»، فقالوا: «كلا»، فأمرتهم بنزعه قبل

نزولهم. وبعد قليل جاء عريف الخفر وهو من مدينة بعقوبة، وقال لي: «سيدي أرجوك اترك المعسكر حالًا قبل فوات الأوان لأن جنود السريّة يدَّعون بأنك من المتآمرين على الزعيم وسيقومون بقتلك وسحلك»، فقلت: «لن أُغادر المخازن وأترك واجبي»، فقال: «إذن اسمح لي بالنزول كي لا أتحمل ما سيحدث، وأرجوك سيدي ألّا تقوم بالتفتيش الليلي على مستودعات ومخازن العتاد كي لا يرموك بحجّة أنهم لم يتعرفوا إليك أو أنك لم تذكر [كلمة] سرّ الليل في أثناء تقرّبك من نقاط حراستهم»، فأذنت له بالنزول وتسليم الخفارة لمن يليه بالقِدم من ضباط الصف. وسرعان ما سمعت أصوات هتافات ودربكة في الخارج، فاستدعيت وكيل عريف الخفر الذي قال: «إن الجنود يتظاهرون ويهتفون ويتوعدون بسحل المتآمرين على الزعيم والثورة، ويدَّعون بأن أحدهم موجود في مخازن العتاد، ويقصدونك بذلك»، فطلبت منه جمعهم في إحدى قاعات المنامة وذهبت إليهم، وكانوا متجمّعين في القاعة ووجوهم محمرة والعرق يتصبب منها من الجري والهتافات، والحبال تتدلّى من أيدي بعضهم، وكان الجميع ساكتين، فقلت: «ما هذا الذي يحدث؟»، فأجاب أحدهم أن متآمرًا على الزعيم والثورة موجود بيننا، فقلت بصوت قوي: «ما اسمك؟»، فقال اسمه، فأمرت وكيل عريف الخفر بتسجيل اسمه، وأضفت: «لماذا هذه الحبال؟»، فلم يُجب أحد، فأمرت وكيل عريف الخفر: «سجِّل أسماء حامليها»، وكنت أُراقب ردّات فعلهم على ما أقوم به، فبدأ التردّد والخوف يظهران عليهم، وقلت بصوت آمر: «كيف تعرفون من هو المتآمر، ومن هو المخلص للزعيم والثورة؟ فنحن حماة الزعيم والثورة، ومن يزرع هذه الظنون في رؤوسكم هم المتآمرون، وإنني سأتّخذ الإجراءات القاسية بحقّ هؤلاء الذين سُجلت أسماؤهم، أما أنتم الباقون فانصرفوا إلى واجباتكم فإن هذا هو ما يريده الزعيم والثورة»، فانصرفوا بعد أن ألقوا الحبال من أيديهم. في تلك الليلة ضاعفت من زياراتي وتفتيشي لنقاط حراسة المخازن، ولم أنم. وفي اليوم التالي ذهبت مباشرة إلى ميدان الرمي في أم الطبول حيث كانت السريّة تُجري رميها السنوي، وكان العقيد الشارود وآمرو الفصائل يقومون بترمية الجنود، وحالما وصلت كلفني العقيد الشارود بإكمال ترميتهم لأنه لم يكن راضيًّا عن أداء النقيب محسن والملازم الأول عبد الخالق، وعدنا إلى معسكر الوشاش بعد الانتهاء من الرمي.

في المعسكر بدأت تظاهرات مئات الجنود من سريّتنا والوحدات المجاورة، وكان قسم منهم ببنادقهم الفارغة وآخرون قطعوا فروعًا من أشجار المعسكر

يلوِّحون بها، وآخرون يلوِّحون بالحبال، فاستدعاني العقيد الشارود الذي أخبره بعض من يثق بهم من الجنود بما حدث يوم أمس في مخازن العتاد، وأراد أن يعرف التفاصيل مني فأخبرته، فقال: «لماذا لم تخبرني، ونحن في ميدان الرمي فكان ممكنًا أن تقتل، وأنت تتقافز بينهم»، فقلت: «لقد كنتَ سيادتك مشغولًا، وكنت أنوي أن أُخبرك حال وصولنا». اتصل برئيس أركان الجيش والحاكم العسكري العام اللواء الركن أحمد صالح العبدي، ونقل إليه ما حدث ويحدث في المعسكر، وذكّره بأن «جنودًا قتلوا قبل يومين أو ثلاثة، بتحريض من الشيوعيين، آمر فوجهم العقيد جلال في معسكرهم بالبصرة وعلقوا جثته على مدخل المعسكر، واليوم يحاولون ذلك مع أحد ضباطي، وأخشى أن يحاولوا غدًا ذلك مع سيادتكم»، فرد عليه اللواء الركن أحمد صالح العبدي غاضبًا: «ما هذا الذي تقوله؟» فقال: «إني أقول ما أقوله حرصًا على الجيش وعليكم»، ثم اتصل بآمر الانضباط العسكري العقيد عبد الكريم الجدة وكان من أصدقائه، وهو من المقربين من الزعيم عبد الكريم قاسم، ومن معارف والدي وعمي وأخبره بالحادثة، وطلب منه اتّخاذ إجراء فوري قبل حدوث ما لا تُحمد عقباه. وفي هذه الأثناء كانت تظاهرات الجنود تهدأ لأخذ بعض الراحة ثم تُستأنف بشكل أقوى، وجموعهم تكبر بمضي الوقت. قال لي العقيد خالد: «انظر إلى مقرّ اللواء الآلي 27». وكان لا يبعد عنا كثيرًا، وكان آمر اللواء وبعض ضباطه يوجهون الجنود المتظاهرين نحو مقر سريّتنا (كثر الانتهازيون في تلك الأوضاع وأصبحوا ملكيين أكثر من الملك). كنت عندما أكون داخل غرفتي أشاهد بعضهم يلصق جبهته بزجاج النافذة ليبصر من خلاله، وأسمع التصايح «أين هو؟ من هو؟» فمعظمهم جاء من وحدات أخرى، ولا يعرفني، ففضلت أن أكون خارجها وبينهم بدلًا من أكون داخلها، فإن اقتحموها فليس هناك مجال للنجاة. في الخارج، كنت أحاول إقناعهم بالانصراف، وأقول إن المومأ إليه قد غادر السريّة والمعسكر، إلّا أن النقيب محسن الدوريّ كان يخطب ببعض منهم، ويقول إن إضبارته كانت بهذا الحجم، ويفتح يديه دلالة على سمكها في العهد الملكي لكونه ضد الملك ولإخلاصه للشعب والجيش، ثم يقول المخلص معروف، ويشير إلى صدره والخائن معروف ويشير إلي. استغربت ذلك، وكان هذا النقيب محتقَرًا من جانب العقيد الشارود لتفاهته وجهله وكان مغرمًا بالإجازات، وغالبًا ما كان يسألني أن أطلب له إجازة من العقيد الشارود لأنه يعزّني ويحترمني، ويلح عليّ فأقوم بذلك مرغمًا. وكان الشارود يقول لي: «ما كان يجب أن يكون

هذا ضابطًا»، وأرجوه فيوافق وأخرج له والإجازة في يدي. بعد وقت قصير، وصل مقرّ السريّة العقيد عبد الكريم الجدة آمر الانضباط العسكري، ومعه سيارتا جيب حماية من الضباط والجنود فاستدعاني فأخبرته بما حدث فطلب أحد ضباطه، وقال له: «خذوا الملازم نزار وأجلسوه بينكم في إحدى سيارات الجيب، واحرصوا على سلامته، وانطلقوا بسرعة ولا تتوقفوا وأوصلوه إلى داره»، فذهبنا وأجلسوني بينهم، وتحرّكت سيارة الجيب فانتبه بعض الجنود وركضوا خلفها وتبعهم آخرون، لكننا كنا قد اجتزنا باب المعسكر. عندما وصلنا دار عمّي في راغبة خاتون (بالقرب من السدة الترابية التي يقطن خلفها أصحاب الجواميس ومن لف لفهم من النازحين من الجنوب، الذين بنى لهم قاسم مدينة الثورة التي تدعى الآن مدينة الصدر) كان والدي هناك لإكمال معاملته التقاعدية مع عمي، ولما عرفا ما حدث كسا الوجوم وجهيهما فأنّبني والدي قائلًا: «لماذا لا تحاذر؟ ما الذي نستطيع أن نقوم به نحن في هذه الأيام السوداء؟».

في اليوم التالي جاء النقيب محسن الدوريّ في عجلة عسكرية وأخبرني بأنني مطلوب للتحقيق في مديرية التخطيط [32] في وزارة الدفاع، واستصحبني إليها وتركني في غرفة الاستعلامات وذهب. كان أحد الضباط الاحتياط يجلس خلف منضدة ضخمة، وأمامه مجموعة من الهواتف، وخلفه عُلقت صورة للزعيم الأوحد عبد الكريم قاسم. وأشار إليّ بالجلوس فجلست صامتًا ولم يسأل أو يتكلم، ويبدو أنه كان يعرف أسباب استدعائي، وكان يبدو مشغولًا بالكلام أو الرد على المكالمات الهاتفيّة أو يوحي إليّ بذلك. وبعد أكثر من ساعة من الانتظار الممل دخل أحد الجنود ومعه فتاة سافرة في العشرينيات من العمر، تبدو على وجهها ملامح التعب والإنهاك الشديدين. تركها الجندي واقفة أمام منضدة ضابط الاستعلامات وخرج، فنظر إليها الضابط وقال: «ها. هل ما زلت تؤمنين بعبد الناصر؟»، فردت بصوت متعب: «إذ كان لديكم شيء ضدي فحاكموني، وإلا فأطلقوا سراحي»، فافتر فمه عن ابتسامة فاجرة، وقال: «نطلق سراحك حتى تروحين لعبد الناصر لازم العراقيون ما عاجْبِيكِ»، ولم ترد الفتاة على تلميحاته الحقيرة، وكانت علامات اليأس وعدم المبالاة واضحة عليها، فقال لها: «إنتِ بنت حلوة ومثقفة فقولي من الذين دفعوك لهذه الطريق، والله معك، إحنا ما عندنا معاك شيء (لا شيء لنا معك)»، وضحك وعيناه تلتهمان جسمها الفتي بنظراته الوقحة، فأجابت بصوت تعب: «والله ما عندي شي». كان الدم يتصاعد في رأسي، ومنعت نفسي بصعوبة من القيام بعمل متهور أُخرس به

هذا الصعلوك، وكانت أصابعي تقبض بشدّة على ذراعيّ المقعد كي لا أنهض، ورن جرس الهاتف، وأصغى الصعلوك للحظات ثم استدعى أحد الجنود وطلب منه اصطحابي إلى دائرة التخطيط. كان هذا الجندي يعرف طريقه جيدًا فصعد بي إلى الطبقة العلوية، وطرق باب إحدى الغرف فخرج أحد الملازمين ودعاني إلى الدخول. كانت منضدة طويلة تتوسط الغرفة، حولها عدد من الضباط الملازمين الاحتياط، جميعهم متمنطقون بمسدسات من نوع كولت 38 عقدة، وكان بعضهم جالسًا، وآخرون وقوفًا، ولمحت النقيب محسن الدوريّ مع الجالسين، وكان يحكي لهم عن بطولاته في معارضة الحكم الملكي. جلست فسألني أحدهم: «هل أنت المعني بالحوادث التي حدثت أمس في معسكر الوشاش؟»، ثم قال: «ما هو الموضوع؟»، فأجبته باختصار من لا يريد الاستمرار بالكلام «قضية ضبط وربط». فسكت وتابع النقيب محسن الدوريّ الكلام عن بطولاته، وكان بعضهم يقول للآخر بين فينة وأخرى «إش» (صه)، لئلا يستيقظ الزعيم، فكنت أعتقد أنه عبد الكريم قاسم، لكني فهمت في ما بعد أن المقصود هو الشيوعي الزعيم طه الشيخ أحمد.

استدعوني أخيرًا إلى لجنة التحقيق، وشاهدت العقيد خالد الشارود فأقبل عليّ وشدّ على يدي، وقال: «كل شيء سيكون على ما يرام». ودخلت إلى غرفة التحقيق، وكان ثلاثة أشخاص يجلسون إلى منضدة في صدر الغرفة، ضابطان برتبة نقيب ويتوسطهما شخص مدني، وأمامهم إضبارة وأقلام رصاص فجلست على المقعد الذي يقابلهم في الجانب الآخر من المنضدة فبادرني الشخص المدني [33] : «أنت فلان؟»، فقلت «نعم». فقال: «أخبرنا كيف انتزعت صورة الزعيم الأوحد عن صدر الجنود ورميتها على الأرض وسحقتها بقدميك؟»، فقلت له بحدة: «أنت شخص مدني، وأنا عسكري، ولا يحق لك استجوابي، وسوف لن أُجاوبك، وإذا ما كان هناك أي سؤال فليسألني عسكري مثلي»، ومن الغريب أن هذا الشخص المدني سكت، ولم يسألني بعدها. وأعاد لي النقيب الذي يجلس عن يمينه [34] السؤال نفسه، فأجبته: «هل يُعقل وأنا ضابط مدرك أن أقوم بمثل هذا العمل؟ الحقيقة أنني سألتهم أن يتقيدوا بالقيافة العسكرية كما تعلمناها في الكلية العسكرية، وعدم ارتداء ما يُخالفها»، وسألني أسئلة أخرى من هذا القبيل فأجبته بأن المشكلة هي أنني كنت أُريد تطبيق أصول الضبط والربط العسكري، لكنهم لم يستسيغوا ذلك، وهذا هو السبب الوحيد كما يبدو لي، وأنني من المخلصين للثورة والزعيم. كان النقيب الثاني يدوّن أقوالي، وعندما انتهيت

طلب النقيب فيصل أن أُوقّعها ففعلت، وخرجت مع النقيب فيصل وكان العقيد الشارود في انتظارنا فقال له النقيب فيصل: «لقد انتهينا من الاستجواب الأولي وسوف نبقيه معنا لبضعة أيام لإكمال التحقيق»، فقال العقيد خالد الشارود: «نقيب فيصل إذا أبقيتم الملازم نزار فأبقوني معه، وقد جلبت يطغي (منامي) معي، وهو الآن في سيارتي، وأتعهّد لكم بجلبه متى طلبتموه لإكمال التحقيق»، فدخل النقيب فيصل إلى الغرفة، وعندما خرج قال للعقيد الشارود: «يمكنه أن يذهب معاك سيدي»، فخرجنا، وفي باحة، وزارة الدفاع استنشقت بملء رئتيّ هواء الحرية التي لم أتوقع التمتع به ثانية وأنا في أروقة مديرية التخطيط المظلمة. وفي طريق العودة قال العقيد الشارود: «خذ إجازة لمدة أسبوع فإنك بحاجة إليها».

بعد عودتي من الإجازة علمت بأن الانضباط العسكري بمساعدة العقيد الشارود تمكَّن من كشف تنظيم شيوعي داخل سريّة الحراسة، واعتقل أفراده، وكانت أول عملية اعتقال لتنظيم شيوعي في القوات المسلحة. وفي 1 أيار/مايو 1959، لمناسبة عيد العمال العالميّ، خرج الحزب الشيوعي وأنصاره وجماهيره في تظاهرات ضخمة استمرّت حتى صباح اليوم التالي. وكان هتافهم «عاش زعيمي عبد الكريم الحزب الشيوعي بالحكم مطلب عظيمي»، واضطرّ الزعيم إلى تعيين الدكتورة نزيهة الدليمي، العضو البارز في الحزب الشيوعي، وزيرة للبلديات والأشغال، فخرجت تظاهرات تأييد تهتف «نزيهة صارت بالحكم موتوا يا بعثية»، لكن رأي اللجنة العسكرية للحزب الشيوعي كان أبعد من هذا بكثير إذ كانوا يرون أن الزعيم عبد الكريم قاسم انحرف عن أهداف ثورة 14 تموز، واقترحوا في مذكرة رفعوها إلى قيادة الحزب الشيوعي في حزيران/يونيو 1959 التحرّك للسيطرة على وزارة الدفاع وإطاحته [35] . كانت الخطة تقضي بتحرّك دبابات كتيبة المثنى في معسكر أبو غريب بقيادة المقدّم الشيوعي خزعل السعدي [36] وكتيبة الدبابات الثانية بقيادة الشيوعي المقدّم خليل العلي، وكتيبة المدرعات في معسكر الوشاش بقيادة الشيوعي العقيد سلمان الحصان للسيطرة على وزارة الدفاع، بمساعدة الضباط الشيوعيين العاملين في دوائرها، لكن قيادة الحزب رفضت اقتراح اللجنة العسكرية، وتسربت هذه المعلومات إلى الزعيم فسارع إلى إحالة القادة الشيوعيين في الجيش والقوة الجوية على التقاعد واعتقال بعضهم، وسُرح أكثر من 1800 ضابط احتياط من الشيوعيين والمتعاطفين معهم.

بعد المذابح الجماعية التي قام بها الشيوعيون وأكراد الحزب البارتي

لأهالي كركوك وأشرافها من التركمان، في تموز/يوليو 1959، أقدم الزعيم على إلغاء التشكيلات التي أشرف على تشكيلها الحزب الشيوعي، وفي مقدّمها التنظيمات المسلحة المسماة «المقاومة الشعبية» (القوة الضاربة للحزب في مدن، العراق وقصباته)، و«الشبيبة الديمقراطية» و«منظمة أنصار السلام» و«لجان الدفاع عن الجمهورية» و«رابطة المرأة».

في آب/أغسطس 1959 طلب الصنف المظلي متطوِّعين من الضباط والمراتب (الأفراد) فتقدّمت بطلب الانتماء. وبعد اجتياز الفحوص الطبية التحقت في الأول من أيلول/سبتمبر مع المقبولين من الضباط والمراتب بالصنف المظلي لدورة التأهيل البدني، وكانت مدتها ستة أسابيع في مدرسة التدريب العنيف في معسكر الرشيد. بارك العقيد خالد الشارود اتّخاذي هذه الخطوة وتمنى لي التوفيق. ونزلت مساء يوم الاثنين 7/9/1959 وأحد زملائي الضباط في دورة التأهيل البدني إلى بغداد لقضاء بعض الحاجيات، وكنا في منطقة الباب الشرقي عندما شاهدنا بعض الأشخاص يتراكضون، فأوقفنا أحدهم لمعرفة ما حدث فقال إن الزعيم قد «انضرب» وتركنا مسرعًا. علمنا من الآخرين أن الزعيم كان بسيارته وتعرّض لإطلاق نار كثيف في منطقة راس القريّة في شارع الرشيد، ويُحتمل أنه قُتل. عدنا على الفور إلى مدرسة التدريب العنيف، وأخبرنا زملاءنا الضباط بالحادث واحتمال مقتل الزعيم. وبعد قليل صدر بيان بأن الزعيم قد تعرّض لمحاولة اغتيال دنيئة في شارع الرشيد، وأصيب بجروح طفيفة، وهو يعالَج في مستشفى السلام، وأنه في صحة جيدة.

التحق من اجتاز دورة التدريب العنيف بنجاح، وكنت أحدهم، بدورة المظليين في مدرسة المظليين في معسكر الرشيد التي أُنشئت بعد قيام الثورة. وفي الأول من كانون الثاني/يناير تخرجت دورتنا، وكانت الدورة الأولى التي جرى تدريبها في العراق، إذ كان المتطوِّعون في العهد الملكي على الصنف المظلي ضباطًا وذوي رتب يُدرّبون في مدرسة المظليين رقم 1 في القاعدة الجوية الملكية في أبينغدون (Abingdon) في إنكلترا. وفي 6 كانون الثاني/يناير أجرينا تظاهرة بالقفز المظلي في عرض الجيش لمناسبة يوم الجيش في قاعدة الرشيد الذي رعاه الزعيم عبد الكريم قاسم. بعد القفز شدّ الزعيم عبد الكريم أجنحة الصنف المظلي على صدورنا.

بعد تخرج دورتنا أُعيد تنظيم الجحفل المظلي إلى الفوج المظلي الأول، وآمره الرائد المظلي كيلان أحمد مدحت، ومدرسة المظليين، وآمرها النقيب المظلي محيي الدين الطيار، وعيِّنت آمرًا للفصيل الأول من السريّة الأولى في

الفوج.

الصورة (1 - 1)
الزعيم عبد الكريم قاسم يقلدني جناح المظليين



كنت مساء يوم السبت 25 حزيران/يونيو 1961 في مطار بغداد الدولي مع زميلي الملازم المظلي بهاء الدين توفيق وهو مساعد معلم في مدرسة المظليين مستعدين للإقلاع بطائرة الخطوط الجوية العراقية من نوع (فايكونت) في طريقنا إلى إنكلترا للاشتراك في دورة المظليين، عندما أعلن الزعيم عبد الكريم قاسم في المؤتمر الصحافي الذي عقده في مقرّه بوزارة الدفاع أن الكويت قضاء عراقي تابع لمحافظة البصرة، وطالب بإعادته إلى العراق. وصلنا مطار هيثرو في لندن ومنها ركبنا القطار إلى مدينة أبينغدون حيث كان في استقبالنا أحد ضباط مدرسة المظليين الإنكليزية، وفي اليوم التالي التقينا بالمقدّم ستنارد، آمر المدرسة، الذي ساهم في إنشاء الصنف المظلي في العراق منذ بدايات عام 1954، فرحب بنا وتكلم طويلًا عن ذكرياته عن العراق وحنينه إلى تلك الأيام الجميلة التي أمضاها هناك (وكان هذا وصفه)، وسألنا عن الضباط وضباط الصف بأسمائهم وألقابهم، وطوال مدة الدورة كان يشملنا برعاية خاصة. في أحد الأيام استدعانا المقدّم ستنارد وأخبرنا بأن مراسلي بعض الصحف قد علموا بوجودنا

ويرغبون في مقابلتنا، وأكد أن أسئلتهم ستتطرق إلى قضية الكويت، وموقفكما من ذلك، فأخبرناه بأننا لم نتلقَّ تعليمات من ملحقنا العسكري بهذا الخصوص، ولذلك فإننا نعتذر عن عدم إجراء مثل هذا اللقاء فاستحسن ذلك.

بعد عودتنا إلى العراق نُقلت إلى مدرسة المظليين بمنصب مساعد معلم، وشاركت في ثورة 8 شباط مع رفاقي الآخرين في الفوج المظلي، وعند استئناف الحركات العسكرية في الشمال نُقلتُ إلى منصب آمر السريّة الأولى في الفوج المظلي الذي تولّى قيادته صديقي الرائد الركن المظلي عدنان محمد نوري، وتحرّك الفوج إلى جلولاء، وكان فيه ما لا يزيد على 300 من المراتب والضباط بعد حملة تطهيره من الشيوعيين والأكراد المشكوك في ولائهم بعد قيام الثورة. وأذكر أننا كُلّفنا بتفتيش إحدى القرى الحدودية، ووجدنا أحد المدنيين، وكان رجلًا كهلًا بملابس مدنية، ولا أدري لماذا همست في أذن آمر الفوج الرائد الركن عدنان محمد نوري بأنني أشكّ في أن هذا الأفندي هو القوميسير السياسي للحزب البارتي، وإلا ما سبب وجوده في هذه القرية الكردية النائية؟ فسأله الآمر عن سبب وجوده، فأجابه الكهل بتعجرفٍ بأنه صاحب أراضي هذه القرية، فانفعل الرائد عدنان من اللهجة التي أجابه بها فصفعه، وسقط الرجل على الأرض. أمر بأن يُوقف ويُرسل إلى استخبارات الفرقة، وعندما عاد الرائد الركن عدنان من إجازته الدورية قال: لقد أمضيتُ إجازتي في شجار مع زوجتي، إذ كان الكهل الذي صفعته خالها، وأنت من حرَّضني عليه، فقلت: «لقد قلت لك إنني أشكّ بكونه قوميسير حزب البارتي، ولم أقل لك اصفعه».

كان اللواء العشرون بقيادة العقيد صديق مصطفى من الفرقة الخامسة مسؤولًا عن قاطع السليمانية، وكان أحد أفواجه يعسكر في ناحية سيد صادق التي تتوسط المسافة بين مدينة السليمانية ومدينة حلبجة، ويُعتقد بأن سوء تفاهم كان قد حصل بين آمر اللواء العقيد صديق، وآمر فوجه في سيد صادق، وفي أحد الأيام أصدر آمر اللواء العقيد صديق أمرًا للفوج في سيد صادق بالتقدّم إلى مدينة حلبجة، وتطهير الطريق المؤدية إليها والمدينة من مسلحي الحركة الكردية، لكن آمر الفوج امتنع عن التنفيذ بحجة أن قوة الفوج غير كافية لوجود عددٍ كبيرٍ من المسلحين الأكراد، فأمر العقيد صديق معاون آمر الفوج بقيادته وتنفيذ الواجب. وقبل وصول الفوج عائدًا إلى معسكره في سيد صادق من دون حادث أطلق آمر الفوج الرصاص على رأسه وتوفي في الحال، فأمرت رئاسة الأركان بتحرّك فوجنا من

جلولاء لتبديل فوج اللواء العشرين في سيد صادق. وفي أثناء وجودنا في سيد صادق جرى تعزيزنا لسدّ النقص بذوي رتب احتياط من مواليد 1941، وجرت بضعة اشتباكات مع مسلحي الحركة الكردية الذين تجنبوا بعدها الاشتباك مع فوجنا، وأخلوا القاطع تقريبًا بعد الضربات القوية التي واجهتهم في المرات القليلة التي اشتبكوا فيها معنا. ونحن في سيد صادق صدرت مراسيم جمهورية بترقية الضباط البعثيين الذين شاركوا في الثورة رتبةً واحدةً، وولّد هذا المرسوم حالة من البلبلة والنرفزة (الضيق) بين الضباط، وشملت هذه الترقية الاستثنائية خمسة من ضباط فوجنا، منهم آمر الفوج وأنا، فاجتمعنا نحن الخمسة واتفقنا على إرسال استقالاتنا إلى وزير الدفاع في حالة عدم إلغاء هذا المرسوم. وتداركت السلطة ذلك، وألغته بعد وقت قصير، لكنه كان قد أحدث ما يكفي من الضرر في القوات المسلحة.

في 18 تشرين الثاني/نوفمبر 1963 قاد عبد السلام عارف مع الجناح اليميني من الحزب انقلابًا أطاح الحزب وقيادته الشرعية. وبعد استتباب الأمر له طرد من تعاون معه في انقلابه من البعثيين، وتباعًا نُقل الضباط البعثيون من الفوج وأُبعدوا إلى مختلف الوحدات، فنقلت أنا إلى قاطع راوندوز في أربيل، وتدخّل عمّي العميد الركن إبراهيم فيصل الأنصاريّ قائد الفرقة الثانية في كركوك فنقلني مرافقًا له.

X ولد في عام 1908 في محافظة ديالى، ودخل دورة أبناء العشائر في الكلية العسكرية في عام 1925. تخرّج في عام 1928 ضابطًا برتبة ملازم ثانٍ، فخدم في الوحدات الفاعلة، وشارك في حركات الأمن الداخلي، وحركة مايس [أيار/مايو] ضد القوات البريطانية في عام 1941، وتطوّع للقتال في حرب فلسطين، ولم يحصل على موافقة السلطات آنذاك فأحيل على التقاعد في عام 1959 برتبة عميد في فترة المد الشيوعي في عهد عبد الكريم قاسم، مع قائمة تزيد على 200 ضابط من القوميين العرب. توفي في عام 1994. أما مدرسة العشائر، فهي مدرسة افتتحتها السلطة الملكية لاحتواء تطلعات الشيوخ العشائريين وجذبهم إلى جانب الحكومة، وهو أسلوب عملت عليه السلطات العثمانية في حينه. قدّمت هذه المدرسة نخبة من خيرة الضباط للجيش العراقي.

X عشيرة الخزرج من القبائل القحطانية، موطنها الأصلي سد مأرب في اليمن. بعد انهيار السد نزح أبناؤها وأولاد عمومتهم قبيلة الأوس إلى الجزيرة العربية، واستقروا في مدينة يثرب (المدينة المنورة)، وبايعوا الرسول محمد (ﷺ) ودعوه إلى المجيء إلى يثرب بعدما اضطهده مشركو قريش،

فهاجر إليها واستقر فيها. نصروا الرسول (ﷺ) وشاركوا في حروبه وغزواته كافة، وأُطلق عليهم وعلى أبناء عمومتهم الأوس لقب الأنصار، وفي عهد الخلافة الراشدة شاركوا في حروب الفتح، وانتشروا في أنحاء العالم الإسلامي كافة ومنها العراق، واستقروا في محافظات ديالى وبغداد والموصل والبصرة.

X الفريق بكر صدقي العسكري (1886-1937)، ولد في قرية عسكر قرب كركوك، ومنها اتّخذ لقبه، وهو أحد الضباط الأكراد البارزين في الجيش العراقي، وكان قد تخرّج في المدرسة الحربية العثمانية في اسطنبول، وشارك في الحرب العالمية الأولى، ثم انضمّ إلى الجيش العراقي عند تشكيله في 6 كانون الثاني/يناير 1920، وبرزت شهرته بعد أن قضى بقسوة على تمرد الأشوريين في شمال العراق، وعلى تمرد العشائر العربية جنوبه. تولّى قيادة الفرقة الثانية، ومقرّها في كركوك، وقاد انقلابًا على حكومة ياسين الهاشمي ذي الميول القومية في 29/10/1936. أتى بحكومة رئسها حكمت سليمان ومجموعة من اليساريين لم تكن تنظر بالود إلى تطلعات الضباط القوميين الذين كان ياسين الهاشمي الضابط اللامع في الجيش العثماني سابقًا مثلهم الأعلى. تبوّأ منصب رئيس أركان الجيش بعد الانقلاب، وكان هو الحاكم الفعلي للعراق، اغتيل يوم 18/8/1937 في القاعدة الجوية في الموصل التي وصلها من بغداد جوًا مع قائد القوة الجوية العقيد الطيار محمد علي جواد واغتاله نائب العريف عبد الله العفري. واعترف القاتل بأن الضابط محمود هندي كلفه بتنفيذ عملية الاغتيال، وكان العقيد الركن فهمي سعيد، والضابط محمد خورشيد من مدبريها، فألقت السلطات القبض على مجموعة من الضباط القوميين بتهمة التآمر لاغتيال الفريق بكر صدقي عاقدة العزم على تسفيرهم إلى بغداد، فرفض آمر حامية الموصل اللواء الركن أمين العمري تسليمهم، وهدد بالانفصال عن بغداد، وأيدته بعض قطعات الجيش فاضطر الملك غازي إلى إقالة وزارة حكمت سليمان، وكُلف جميل المدفعي بتشكيلها، وأُعلن العفو عن الضباط المعتقلين.

X ولد جميل المدفعي في مدينة الموصل، وأتم دراسته العسكرية في اسطنبول، وتخرج ضابط مدفعية في عام 1911، وانضمّ إلى جمعية العهد. اشترك في حرب البلقان، وفي الحرب العالمية الأولى قاتل في القفقاس وفلسطين، وفي عام 1916 هرب من الجيش العثماني، وانضم إلى جيش الثورة العربية الذي كان يقوده الملك فيصل الأول في الحجاز، وكان قائدًا للمدفعية فيه، وبعد احتلال الشام عين قائدًا لموقع دمشق، وعمل مستشارًا للملك فيصل الأول في سورية، وشارك في ثورة العشرين ضد القوات

البريطانية في العراق حيث قاد الحركات في الموصل وتلعفر ودير الزور. بعدها ذهب إلى الأردن حيث عيِّن متصرفًا للكرك ثم مديرًا للأمن، وعاد إلى العراق في عام 1923. عيِّن متصرفًا ثم وزيرًا للداخلية، وتولّى رئاسة الوزارة خمس مرات في الأعوام 1934 و1935 و1938و1941و1953. توفي في بغداد في 26/10/1958 ودفن في مقبرة الإمام الأعظم في بغداد (مقبرة الخيزران التاريخية)، إلى جانب قبر الشاعر الرصافي، وهو خال العقيد رفعت الحاج سري الذي يُعرف بأبي الضباط الأحرار ومؤسس تنظيمهم، أعدمه عبد الكريم قاسم مع ثلة من الضباط القوميين، ودفن بجانب قبر خاله.

X ولد رشيد عالي الكيلاني في عام 1892 في قرية السادات في محافظة ديالى، وهو من أحفاد الشيخ عبد القادر الكيلاني، القطب الصوفي المعروف. اشتهر بمناهضته الإنكليز، ودعوته إلى تحرير الدول العربية. تولّى مناصب سياسية عدّة، ورئس ثلاث حكومات في العهد الملكي. يُعدّ رمزًا من الرموز الوطنية العراقية في تلك الحقبة العصيبة من تاريخ العراق والأمة العربية. تحالف مع مفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني، ووثّق علاقاته بألمانيا وإيطاليا، وشكّل حكومة الإنقاذ الوطني في عام 1941 بمساندة العقداء الأربعة (المربع الذهبي). عارضت حكومته الإنكليز، وحاصرت قاعدتهم الرئيسة في سن الذبان (قاعدة الحبانيّة) في ما دعي بحركة مايس. هرب الكيلاني إلى خارج العراق بعد سيطرة القوات الإنكليزية، ولجأ أول الأمر إلى ألمانيا وشكّل الفيلق العربي ثم التجأ إلى السعودية بعد اندحار ألمانيا. رفض الملك عبد العزيز آل سعود تسليمه للسلطات العراقية على الرغم من الضغط الذي مورس عليه، عاد إلى العراق بعد قيام ثورة 14 تموز/يوليو 1958، وانتقد هيمنة الشيوعيين على زعيم الثورة عبد الكريم قاسم، اتُهم بالتآمر وحكم عليه بالإعدام ثم أُطلق سراحه، وغادر العراق إلى لبنان حيث توفي فيه عام 1965، وجُلب جثمانه إلى بغداد، ودفن بالحضرة الكيلانية مثوى أجداده من الأسرة الكيلانية.

X العقداء الأربعة صلاح الدين الصباغ وفهمي سعيد ومحمود سلمان وكامل شبيب أو من اصطُلح على تسميتهم بالمربع الذهبي، كانوا قادة التجمّع العروبي في الجيش العراقي، ساندوا حكومة رشيد عالي الكيلاني في حكومة الإنقاذ الوطني، واصطدموا بالقوات الإنكليزية في حركة مايس 1941. بعد فشلها هرب العقيد صلاح الصباغ إلى تركيا، والعقداء فهمي سعيد ومحمود سلمان ويونس السبعاوي وزير الشباب إلى إيران، ونُفي كامل شبيب إلى جنوب أفريقيا. وفي عام 1942 ألقى الإنكليز القبض على فهمي

سعيد ومحمود سلمان ويونس السبعاوي في إيران، وسلموهم إلى العراق حيث نُفذ حكم الإعدام الصادر بحقهم، وأعيد كامل شبيب من معتقله في جنوب أفريقيا، ونفذ فيه حكم الإعدام في عام 1944، وسلّمت تركيا صلاح الصباغ فنُفذ به حكم الإعدام شنقًا صبيحة يوم 26/10/1945، وعُلّقت جثته أمام وزارة الدفاع لساعات عدة، وحضر الوصي عبد الإله لمشاهدته والتشفي به.

X الليفي هي قوات عسكرية من المتطوعين في الجيش البريطاني أغلبيتهم من الطائفة الأشورية في العراق، وواجبها الرئيس حماية المعسكرات، والقواعد الجوية البريطانية في العراق. تشكلت على يد الرائد أيدي من قوات الهند البريطانية في عام 1915 باسم الكشافة العربية من عرب الأهوار، ثم توسعت لتصل في عام 1918 إلى 5467 فردًا من العرب والأكراد والميليشيات الأشورية التي شكلت أغلبية هذه القوات في ما بعد، وقد دُمجت في الجيش العراقي بعد حل هذه القوات في إثر تسليم البريطانيين قاعدتي الحبانيّة والشعيبة للحكومة العراقية بحضور الملك الراحل فيصل الثاني في الثاني من مايس [مايو/أيار] عام 1955. لمزيد من التفاصيل عن قوات الليفي العراقية انظر: العميد جي كيلبرت براون (Gilbert J Browne, The Iraqi Levies) ترجمة، وتحقيق الدكتور مؤيد الونداوي نشره دار بنكه زين في السليمانية.

X إبراهيم فيصل الأنصاريّ، الأخ الشقيق لوالدي. ولد في عام 1920 في محافظة ديالى، توفي والده وهو في الرابعة عشرة فتكفل والدي تربيته والإشراف على دراسته. دخل الكلية العسكرية في عام 1938 (الدورة 18)، وتخرج في عام 1940، وعيِّن بمنصب آمر فصيل في الفوج الثاني القوة الآلية الذي قاده أخوه الرائد عبد الكريم (والدي). ذهب في دورة إلى إنكلترا في عام 1948، وعاد منها معلمًا في مدرسة الأسلحة الخفيفة في معسكر الوشاش. دخل كلية الأركان وتخرّج فيها عام 1951. شغل عددًا من المناصب منها معاون آمر فوج، ومعلم في كلية الأركان، وشارك مع عبد الجبار شنشل في إنشاء كلية الأركان الأردنية في عمان. بعد ثورة 14 تموز/يوليو 1958 عاد من الأردن، واستلم آمرية فوج في اللواء 15 في البصرة، وفي عام 1959 أُحيل على التقاعد مع أكثر من 200 ضابط من القوميين، ثم أعيد إلى الجيش بعد مرور موجة الشيوعيين، وعيِّن في منصب ضابط الركن الأول في قيادة الفرقة الثانية، وتولّى قيادة اللواء الخامس بالوكالة لمرض آمره العميد علي العاملي في معركتي باطوفة وملا عرب ضد

المسلحين الأكراد. برزت شهرته منذ ذلك الحين فاضطر عبد الكريم قاسم إلى الموافقة على تثبيته في منصب آمر اللواء الخامس. وبعد ثورة رمضان عام 1963 عيِّن بمنصب قائد الفرقة الثانية التي أدارت عمليات مكافحة الحركات المسلحة الكردية بكفاية واقتدار. وبعد نكسة حزيران/يونيو اضطر عبد الرحمن عارف، رئيس الجمهورية آنذاك، إلى تعيينه رئيسًا لأركان الجيش. وفي ثورة 17 تموز/يوليو 1968 أُحيل على التقاعد عندما كان في زيارة مصر بدعوة من الرئيس عبد الناصر، لكن بعد إزاحة إبراهيم عبد الرحمن ونايف عبد الرزاق من الوزارة في 30 تموز/يوليو 1968 أُعيد إلى منصبه رئيسًا لأركان الجيش، واعتُقل في تشرين الثاني/نوفمبر من السنة نفسها، ليُطلق سراحه بعد سنتين ونصف سنة. توفي في بغداد في عام 2011 في إثر عودته من سورية التي أقام بها. أما سبب تلقبه بالأنصاريّ وليس الخزرجيّ فكان بتأثير أحد أبناء عمومته من الخزرج (العميد صفاء الدين الأنصاريّ) الذي زيّن له اللقب الديني بدلًا من اللقب العشائري.

X الفيلق العربي (Arab Legion) هو تشكيل من القوات العربية شُكل بإشراف بريطاني من القبائل البدوية في ما كان يدعى بـ «شرق الأردن». نيطت قيادته بجون باغوت غلوب الذي تعارف البدو في العراق والأردن على تكنيته بـ «أبو حنيك» الذي تولّى القيادة منذ عام 1931 خلفًا للجنرال فريدريك بيك الذي أسّسه بصفة قوة كشافة الصحراء في عام 1920، ويعود الفضل إلى الجنرل غلوب باشا في تدريبه وتسليحه. استُخدم هذا الفيلق في تنفيذ سياسات بريطانيا، ومنها قيامه بالقضاء على مؤيدي حكومة فيشي في سورية ولبنان في عام 1940، والقضاء على حركة رشيد عالي الكيلاني في معركة سن الذبان التي يتحدّث عنها المؤلف، وأخيرًا استُخدمت وحدات منه للقتال إلى جانب القوات البريطانية في العلمين تحت قيادة الجنرال مونتغمري. أدى غلوب باشا أدوارًا مؤيدة للسياسة البريطانية في تقسيم فلسطين، وأثار حفيظة الشعب الأردني الذي طالب بإقصائه، فأقصاه الملك حسين مع عدد من الضباط البريطانيين الذين كانوا يؤلفون هيئة أركانه في عام 1956، وتسلّم اللواء راضي عذاب الأردني قيادة هذا الجيش بعد ذلك.

X اللواء مصطفى راغب أحد قادة الجيش العراقي البارزين، وهو تركماني من مدينة كركوك، وكان عضو المحكمة العسكرية التي أصدرت أحكام الإعدام بالعقداء الأربعة (المربع الذهبيّ) بعد فشل ثورة مايس 1941. تولّى قيادة القوات العراقية في فلسطين عام 1948، وطلب إحالته على التقاعد

بعد تدخل الفريق نوري الدين محمود في صلاحياته، وكانت بغداد قد أرسلته للإشراف والمتابعة.

X ولد توفيق السويدي في بغداد عام 1891 وشارك في شبابه بتأسيس جمعية «العربية الفتاة» التي تطالب باستقلال العرب عن الحكم العثماني. كان السويدي سياسيًا عراقيًا في العهد الملكي، تولّى منصب رئاسة الوزراء أربع مرات في الأعوام 1929 و1930 و1946 و1950 وتولّى منصب وزير خارجية حكومة الاتحاد الهاشمي في عام 1958، وسجن بعد إطاحة العهد الملكي ثم أطلق سراحه في عام 1961، فغادر العراق إلى لبنان حيث توفي عام 1968. كتب مذكراته: توفيق السويدي: مذكراتي: نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية (بيروت: دار الكاتب العربي، 1969)، وله كتاب مهم آخر هو وجوه عراقية عبر التاريخ (بيروت: دار رياض الريس للنشر، 1987)، وقام فيه بالتعريف بشخصيات العهد الملكي الذين رافقهم وعايشهم.

X ولد أرشد العمري في الموصل في عام 1888 وأكمل دراسة الهندسة في اسطنبول. أهم أعماله ترميم المسجد الأقصى في زمن السلطان عبد الحميد الثاني في عام 1908. عاد إلى العراق ليخوض المعترك السياسي، وتولّى رئاسة الوزارة مرتين في عام 1946 وفي عام 1954، وشغل منصب وزير الدفاع في عام 1948. توفي في عام 1978 عن عمر يناهز التسعين عامًا.

X صالح جبر سياسي عراقي من أسرة فقيرة وغير مشهورة، ولد في الناصرية في عام 1895، واستوزر أول مرة في عام 1933 وزيرًا للمعارف، وعيِّن في مجلس الأعيان. انتُخب في عام 1947 رئيسًا لمجلس الأعيان، ثم اختير رئيسًا للوزراء في السنة نفسها، اضطرّ إلى الاستقالة بعد عقده معاهدة بورتسموث التي رفضها الشعب. توفي في عام 1957.

X بورتسموث: مدينة إنكليزية تقع على بحر المانش في جنوب إنكلترا، وقِّعت فيها في عام 1948 المعاهدة العراقية - البريطانية التي رفضها الشارع العراقي، واندلعت بسببها أعمال عنف استخدمت فيها قوات الأمن الرصاص الحي فأدّى هذا إلى استشهاد عدد من الشبان المتظاهرين.

X الأمير عبد الإله بن الملك علي بن الشريف حسين الهاشميّ، ولد في مدينة الطائف بالحجاز في عام 1913، واستقر مع والده الملك علي بن الحسين وعائلته في العراق في كنف عمه الملك فيصل الأول بن الحسين (1883 - 1933) بعد أن تولت العائلة السعودية (آل سعود) مقاليد الأمور في الحجاز والجزيرة العربية. تلقّى علومه في كلية فكتوريا بالإسكندرية بمصر، وتزوج مَلَك حفظي ثم طلقها ليتزوج سيدة مصرية أخرى من عائلة

الطرابلسي المعروفة، وبعد طلاقه منها تزوج هيام كريمة أمير ربيعة الشيخ محمد حبيب، وهو زواج لاقى رضى شعبيًا. اختير في عام 1939 ليكون وصيًا على عرش العراق، وخلعه ضباط المربع الذهبيّ وحكومة رشيد عالي الكيلاني في أيار/مايو 1941. عيِّن الشريف شرف بدلًا منه، ثم أعيد تنصيبه في عام 1941، وبقي وصيًا حتى عام 1953 حين تولّى ولاية العهد انتظارًا لزواج الملك وإنجابه ولي عهد من صلبه. لقي حتفه مع عائلته على يد الضباط الأحرار في ثورة 1958.

X ولد في سامراء في عام 1887 وأسس حزب الاستقلال. شارك في ثورة العشرين ضد الإنكليز ونفاه برسي كوكس في عام 1922. عاد إلى العراق في عام 1924، وتولّى رئاسة الوزراء بعد إقالة وزارة صالح جبر في إثر عقده معاهدة بورتسموث في عام 1948.

X الفريق طه الهاشميّ، عسكري وسياسي عراقي ولد في عام 1888 وتخرّج في المدرسة العسكرية في اسطنبول عام 1906، ثم تخرّج في كلية الأركان برتبة رئيس في عام 1909. شارك في حرب البلقان عام 1912، والتحق بـ «جمعية العهد» السريّة برئاسة عزيز المصري في عام 1913، وبالجيش العثماني باليمن في فترة 1914 - 1918، أسره الإنكليز في عام 1919. عيّنه الملك فيصل مديرًا للأمن العام في دمشق. عاد إلى العراق، فعيّنه الملك فيصل آمرًا لحامية الموصل ثم رئيسًا لأركان الجيش في عام 1923، قبل أن يصبح وزيرًا للدفاع في عام 1938. وفي شباط/فبراير 1941 أصبح رئيسًا للوزراء لمدة شهرين، وشارك في تأسيس الجبهة الشعبية في عام 1951 قبل أن يرئسها. تولّى في عام 1953 منصب نائب رئيس مجلس الإعمار حتى عام 1958. توفي في أحد مستشفيات لندن في عام 1961.

X ولد مصطفى محمود العمري في مدينة الموصل عام 1894 في أسرة كبيرة عُرفت بالأدب والعلم واليسر، وهي الأسرة العمرية. أكمل الدراسة الأولية في بلدته ثم دخل مدرسة الحقوق ببغداد، إلا أن اندلاع الحرب العالمية الأولى قطع دراسته، فالتحق ضابطًا احتياطيًّا في الجيش العثماني، لكنه وقع أسيرًا في يد القوات البريطانية في جبهة الغراف. وبعد انتهاء الحرب أطلق سراحه وعاد إلى وطنه، فنال شهادة الحقوق وفي الوقت نفسه دخل الوظيفة الحكومية، ثم تولّى مناصب إدارية مختلفة، وتدرج في السلك الوظيفي حتى وصل إلى درجة المتصرف، وتولّى متصرفية عدد من الألوية العراقية. في عام 1936 تولّى منصب مدير المحاسبات العامة قبل أن يتوجّه إلى وزارة الداخلية ثم العدلية في السنة التالية، وانتخب نائبًا وعيّن في

دورات متتالية حتى أسندت إليه رئاسة الوزراء في 12 تموز/يوليو 1952، وشهدت وزارته قيام الثورة، وسقوط النظام الملكي في مصر، الأمر الذي أثر كثيرًا في دفع الحركة الوطنية العراقية، وقيام انتفاضة تشرين الثاني/نوفمبر 1952 وسقوط وزارته، وتشكيل حكومة طوارئ برئاسة الفريق نور الدين محمود. عُرف العمري إداريًا كفيًّا وحازمًا، غير أن عمله السياسي كان عملًا تقليديًا، وهناك من وجّه إليه تهمًا شتى. توفي في عام 1960.

X نور الدين محمود، ولد في مدينة الموصل وهو من أصول كردية. درس في الإعدادية العسكرية في بغداد وتخرج برتبة نائب ضابط. ترقى في الحرب العالمية الأولى إلى رتبة ملازم ثانٍ، وشارك في المعارك حول بغداد، ثم انسحب مع فرقته بعد سقوطها في يد الإنكليز. أسره الإنكليز في معركة هيت ثم التحق بالجيش العراقي في عام 1921. دخل كلية الأركان الأولى في عام 1929، وحلّ الأول بين رفاقه، وشارك في حرب فلسطين، وتولّى رئاسة أركان الجيش ثم رئاسة الوزراء بعد «وثبة تشرين» 1952 حتى عام 1953. توفي في بغداد عام 1981.

X الاتحاد العربي (الهاشميّ) (17 شباط/فبراير- 14تموز/يوليو 1958) صيغة كونفدرالية توصل إليها كلٌّ من العراق والأردن للوقوف بوجه الدعاية الناصرية بعد أن أفلحت كلٌّ من مصر وسورية في إعلان الجمهورية العربية المتحدة يوم 1 شباط/فبراير 1958. ويبدو أن القصد من الاتحاد كان الدفاع عن البلدين في وجه الحركة القومية العربية المتصاعدة، وهو جهد أجهضته حركة الضباط الأحرار في 14 تموز/يوليو 1958 حيث لقي رئيس الاتحاد /ملك العراق مصرعه مع رئيس وزرائه العراقي نوري السعيد، ونائب رئيس الوزراء إبراهيم هاشم وهو أردنيّ. لم يُغيِّر انتقال رئاسة الاتحاد العربي، نظريًا على الأقل، إلى ملك الأردن الحسين بن طلال، في واقع الأمر شيئًا، إذ انتهى هذا الاتحاد بانسحاب أحد طرفيه (العراق) منه. للتفاصيل انظر كتاب مؤيد الونداوي، الاتحاد العربي في الوثائق البريطانية: المجموعة الوثائقية البريطانية الرسمية الكاملة للاتحاد العربي الهاشمي بين العراق والأردن لعام 1958، تقديم سيّار الجميل (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2013).

X ولد عبد السلام محمد عارف في 21 أيار/مايو 1920 في بغداد من عائلة تنحدر أصولها من قبيلة جميلة العربية الساكنة قرب مدينة الفلوجة، وكان خاله الشيخ ضاري أحد قادة ثورة العشرين ضد القوات البريطانية. التحق بالكلية العسكرية وتخرج فيها عام 1941 برتبة ملازم ثانٍ. شارك في

حركة مايس ضد القوات البريطانية واشترك في حرب 1948 في فلسطين، وفي عام 1951 أُرسل إلى دورة تدريبية مع الجيش البريطاني في دسلدورف في ألمانيا الغربية، وبقي فيها ضابط ارتباط للضباط العراقيين الملتحقين بهذه الدورة لغاية عام 1956. عاد بعدها آمرًا لفوج في اللواء العشرين في معسكر جلولاء قرب خانقين، وانضمّ إلى تنظيم الضباط الأحرار في عام 1957 بترشيح من أخيه عبد الرحمن الذي سبقه في الانتماء إلى هذا التنظيم، وكان عضوًا في هيئته العليا، فطلب إدخال صديقه الزعيم عبد الكريم قاسم آمر اللواء التاسع عشر فوافق التنظيم بعد تردد. وأصبح الزعيم قاسم قائدًا للتنظيم بحكم قِدمه العسكري فيما كان عبد السلام محمد عارف المنفذ الرئيس لثورة تموز/يوليو 1958، وتقلد بعدها منصب نائب القائد العام للقوات المسلحة، ونائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية، ولميوله القومية اختلف مع قاسم ذي الميول اليسارية فجُرّد من مناصبه، وأُبعد سفيرًا إلى ألمانيا الغربية، ولما عاد اتُهم بمحاولة اغتيال الزعيم، وحُكم عليه بالإعدام ثم استبدل بالسجن المؤبد ثم الإقامة الإجبارية، وفي ثورة 8 شباط/فبراير 1963 اختاره البعثيون رئيسًا للجمهورية في إثر انقلاب 1963 على حكم قاسم، لكنه ما لبث أن انقلب عليهم وتفرّد بالحكم، وقُتل في حادثة سقوط السمتيّة [طائرة الهليكوبتر] التي كان يستقلها في زيارة تفقدية للمحافظات الجنوبية مساء 13 نيسان/أبريل 1966.

X ولد عبد الكريم بن جاسم (قاسم) بن بكر بن عثمان في محلة المهدية في بغداد في 21 تشرين الثاني/نوفمبر 1914، وفي السادسة من عمره انتقل مع والده إلى الصويرة حيث دخل المدرسة الابتدائية. عاد مع والده إلى بغداد في عام 1926، وتخرّج في مدرسة الرصافة الابتدائية عام 1927، ثم في الثانوية المركزية في بغداد عام 1931، وعمل معلمًا في مدرسة ابتدائية في قضاء الشامية في محافظة الديوانية جنوب العراق، قبل أن يلتحق بالكلية العسكرية عام 1932، ويتخرج عام 1934. عُيّن في الكلية العسكرية آمرًا لفصيل في الدورة 17 عام 1938، وكان من طلابها عبد السلام عارف ورفعت الحاج سري وأحمد حسن البكر، وفي 24/1/1940 دخل كلية الأركان وتخرّج في 11/12/1941. سافر إلى إنكلترا لمعالجة الشق في شفته العليا عام 1947، وشارك في حرب فلسطين عام 1948، وكان آمر فوج في منطقة كفر قاسم، وأبلى فيها بلاء حسنًا. سافر في عام 1950 إلى إنكلترا للاشتراك بدورة التعبئة للضباط الأقدمين، وفي عام 1956 عُيّن بمنصب آمر اللواء التاسع عشر في معسكر المنصورية في محافظة ديالى، وانضم إلى

تنظيم الضباط الأحرار بتوصية من صديقه العقيد الركن عبد السلام عارف، وأصبح زعيم التنظيم لقدمه العسكري. اتفق مع صديقه عبد السلام عارف على القيام بالثورة من دون إعلام التنظيم، وانفردا بها بعد نجاحها، ثم دبّ الخلاف مع عبد السلام فأراد إبعاده إلى ألمانيا، ثم حكم عليه بالإعدام بحجة محاولة اغتيال الزعيم، وانفرد بعدها بالحكم، وأطلق عليه أنصاره الشيوعيون لقب الزعيم الأوحد، تعرض بعد إعدام رفاقه من قادة الضباط الأحرار لمحاولة اغتيال من جانب البعثيين، ومن ضمنهم صدام حسين، وأُعدم بعد قيام ثورة 8 شباط/فبراير 1963.

X هو نوري بن سعيد بن صالح ابن الملا طه، ولد في بغداد عام 1988 من عائلة من الطبقة المتوسطة حيث كان والده يعمل مدققًا (مميزًا) في إحدى الدوائر في العهد العثماني. درس وتعلم في المدارس العسكرية في بغداد، وتخرّج في المدرسة الحربية (العسكرية) في اسطنبول عام 1906 ودخل مدرسة الأركان في عام 1911. شارك في حربيّ البلقان والقرم، وتبنّى الفكر القومي العربي وشارك في الجمعيات السرية التي كانت تدعو إلى استقلال العراق والعرب عن الدولة العثمانية، لذا شارك في الثورة العربية على العثمانيين بقيادة الشريف حسين، واختارته الحكومة البريطانية لعضوية المجلس التأسيسي للعراق في عام 1920، وكتبت المس بيل «السكرتيرة الشرقية» لبريطانيا في العراق بعد أول لقاء معه: «إننا نقف، وجهًا لوجه أمام قوة جبارة، ومرنة في آن واحد، ويجب علينا نحن البريطانيين إما أن نعمل معها يدًا بيد وإما أن نشتبك معها في صراع عنيف يصعب إحراز النصر فيه». نوري باشا السعيد هو رجل العراق القوي في العهد الملكي، ورجل السياسة الداهية، تولى رئاسة الوزارة 14 مرة بين عامي 1930 و1958، وكان له الدور الرئيس في تشكيل جامعة الدول العربية في عام 1947، وفي دخول العراق حلف بغداد في عام 1954، وفي إنشاء الاتحاد الهاشميّ في عام 1958. وُصِف بأنه رجل الغرب في العالم العربي. هرب من العراق مرتين، الأولى بعد انقلاب بكر صدقي في عام 1936، وفي ثورة أيار/مايو (مايس) 1941. قتل في 15 تموز/يوليو 1958 بعد قيام الثورة، حيث هرب ثم أطلق على نفسه الرصاص بعد انكشاف تنكره ومحاصرته من جانب بعض الجماهير والعسكريين. مات نوري السعيد ولم يترك لأهله مالًا أو ميراثًا.

X لا يزال موضوع الشخص الذي تولّى تصفية العائلة المالكة أمرًا يكتنفه الغموض على الرغم من أن الملازم الأول عبد الستار العبوسي اتُهم على

نحو واسع بقيامه بذلك من دون أمر مباشر. ألقى العميد خليل إبراهيم حسين في كتابه عن ثورة 14 تموز/مايو بأجزائه السبعة ضوءًا على هذه الشكوك، وأشار إلى هيئة التحقيق التي أُلفت في الاستخبارات العسكرية التي كان يشغل منصب معاون مديرها الشهيد الراحل رفعت الحاج سري.

X ولد فاضل عباس المهداوي في بغداد محلة المهدية في عام 1915، وأكمل دراسته فيها. دخل الكلية العسكرية وتخرّج فيها عام 1939. شارك في حركة مايس 1941، وفي حرب فلسطين عام 1948، وكان يرتبط بعلاقة وثيقة بعبد الكريم قاسم فهو ابن خالته. كان من الضباط الخاملين، ولم يستلم مناصب مهمة طوال خدمته، وفي ثورة 14 تموز/يوليو 1958 استلم قيادة اللواء الأول مشاة، وفي 15/8/1958 عُيّن رئيسًا للمحكمة العسكرية العليا الخاصّة التي اصطُلح على تسميتها بمحكمة الشعب، ورئس هيئة الادعاء فيها العقيد الركن ماجد محمد أمين. وكانت تعقد جلساتها صباحًا في قاعة الشعب (بناية مجلس النواب في العهد الملكي، وبيت الحكمة حاليًا قرب وزارة الدفاع في بغداد)، وتذاع في التلفاز مساء اليوم نفسه. شهدت هذه المحكمة محاكمة رجال العهد الملكي، وضباط ثورة الشواف في عام 1959، ومحاكمة عبد السلام عارف، وعدد كبير من البعثيين الذين اتهموا بمحاولة اغتيال الزعيم عبد الكريم قاسم في عام 1959. ألقي القبض عليه في ثورة 8 شباط/فبراير 1963، وأُعدم في دار الإذاعة العراقية في بغداد مع زعيمه عبد الكريم قاسم وبعض مؤيِّديه.

X كانت مديرية التخطيط آنذاك تدعى مديرية الخطط، وكان يرئسها العميد الركن طه الشيخ أحمد، العضو البارز في الحزب الشيوعي (قتل في ثورة رمضان)، وكانت الدائرة التي يجري فيها التحقيق مع الضباط القوميين المتهمين بالتآمر على الثورة والزعيم عبد الكريم قاسم. أُعدم العميد الركن طه الشيخ أحمد مع عبد الكريم قاسم بعد انقلاب شباط/فبراير 1963.

X كان هذا المدني هو المحامي الشيوعي عبد الستار ناجي، وكان مشهورًا بتعذيب الضباط القوميين الذين سُجنوا أو أُعدموا بعد ثورة العقيد الشواف في عام 1959، وقد قُتل في ثورة 8 شباط/فبراير 1963.

X عرفتُ من العقيد خالد الشارود أن هذا الضابط، وكان اسمه النقيب فيصل، عمل سابقًا بإمرته، وللعقيد دالة عليه، وأوصاه بي قبل دخولي إلى غرفة التحقيق.

X وقّع المذكرة الضباط الشيوعيون: خزعل السعدي وفاضل البياتي وإبراهيم الجبوري وسلمان الحصان وشاكر الخطيب وعبد الكريم كاظم

وخليل العلي.

X المقدّم الركن خزعل السعدي عضو اللجنة العسكرية للحزب الشيوعي، وآمر كتيبة دبابات المثنى في معسكر أبو غريب في بغداد. أُحيل على التقاعد بعد انكشاف محاولة الانقلاب على الزعيم، واعتُقل ثم أطلق سراحه. وفي ثورة 8 شباط/فبراير 1963 نظّم تنظيمات ألّفها وقادها، وأطلق عليها اسم المقاومة الشعبية لمقاومة الثورة، وقاتل اللواء الثامن عند تحرّكه إلى بغداد عبر الكاظمية، وأوقع به خسائر كبيرة، فقتله ثوار شباط/فبراير في الكاظمية.

الفصل الثاني: في الفرقة الثانية

في عام 1959، وفي إثر إعدام الزعيم عبد الكريم قاسم نخبةً من الضباط القوميين والبعثيين بعد فشل المحاولة الانقلابية التي قادها العقيد عبد الوهاب الشواف، قرّر أمين سرّ الحزب آنذاك، فؤاد الركابي [37] ، من دون علم أعضاء قيادة الحزب تكليف مجموعة من كوادر الحزب وأعضائه باغتيال عبد الكريم قاسم زعيم العراق الأوحد، كما كان يُطلَق عليه من جانب أنصاره الذين أمر بإعدامهم بعد محاكمتهم في محكمة الشعب التي كان يرئسها العقيد فاضل المهداوي ابن خالة الزعيم.

نُفذت محاولة الاغتيال في قلب شارع الرشيد أكبر شوارع العاصمة وأكثرها ازدحامًا، في أثناء مروره في سيارته ذاهبًا إلى مقرّه في وزارة الدفاع! حيث أوقفت مجموعة الاغتيال السيارة، واندفعت إليه في جرأة نادرة، وزخّته بوابل من الرصاص، إلا أن الزعيم لم يُقتل، وأصيب بجروح في كتفه ويده وقُتل سائقه وأصيب مرافقه الشخصي المقدّم الركن عبد الستار الجنابي بجراح. تمكّن المنفذون من الهرب، وتركوا جثة أحد رفاقهم عبد الوهاب الغريري الذي قتل برصاص زملائه، وجُرح آخران هما سمير أحمد النجم وصدّام حسين اللذان تمكّنا من الهرب أيضًا.

تمكّنت الجهات الأمنيّة من معرفة الجهة التي نفّذت محاولة الاغتيال بعد تعرّفها إلى القتيل الذي كان أحد كوادر حزب البعث، فقامت باعتقال معظم منفّذيها، إلا أن صدام حسين الجريح بساقه تمكّن من الهرب إلى تكريت، ومنها تسلّل هاربًا إلى سورية. بعد أن قامت الجهات الأمنيّة باعتقالات جماعية لكوادر الحزب وأعضائه ومؤيديه، نشرت صور مدبري محاولة الاغتيال ومنفّذيها الهاربين، وعلّقتها في الشوارع مع مكافأة لمن يقبض عليهم، ومن ضمنهم صورة شاب وسيم في أوائل العشرينيات حليق الوجه أكثر ما يسترعي النظر فيه عيناه الواسعتان ونظراته النفاذة، وقد كتب تحتها:

صدام حسين مجيد التكريتي

من مواليد مدينة تكريت في عام 1937

طالب في الصف الخامس ثانوي

ينتمي إلى صفوف حزب البعث العربي الاشتراكي.

كانت تلك الصورة هي التعارف الأول بين عامة الشعب ومعظم البعثيين

مع صدام حسين.

مررت بأيام صعبة بعد اعتقال الأنصاريّ، فقد كنت حائرًا بين خيارين هما الحزب والعم، وكل منهما أصعب من الآخر، فالحزب انتميت إليه وأنا تلميذ في الكلية العسكرية واقتنعت بشعاراته وأهدافه وآمنت بها، أي وحدة الأمة وحريتها والحياة الكريمة التي يدعو إليها، والعمّ صديق وقائد عرفته إنسانًا مخلصًا وصادقًا وعسكريًا لامعًا قادرًا على بناء جيشٍ قويٍّ يحتاجه الوطن والأمة في هذه الأوضاع الصعبة التي نمرّ بها. كنت واثقًا من أنه بعيد من أي ادعاءات بقيادته أو مشاركته بمؤامرة أو محاولة انقلاب، لا لخوفه أو تحسّبه بل لأنه لم يكن يعرف التآمر ولا يؤمن به، ويعتبره نكرانًا للجميل وخيانة للأصدقاء، وكان يفضّل ترك الموقع والمنصب الذي لا يرتاح فيه على أن يهادن أو يساوم أو يتآمر للاحتفاظ به.

عندما انتميت إلى الحزب كما انتمى العديد من الشباب، فعلت ليس لأفكاره الوحدوية فحسب بل لقيم الرجولة والشجاعة والوفاء والشرف التي وجدتُ أنها تميّزه من بقية الحركات والأحزاب، حتى انضمّ إليه خيرة الشباب الذي يتطلع إلى مجد الأمة ومستقبلها. وعندما تخاذل بعضهم ممن تصدّروه بعد ثورة شباط/فبراير 1963، وشاركوا عبد السلام عارف رئيس الجمهورية، كانت القيم نفسها ما دفعنا للعمل ليلًا ونهارًا بلا خوف أو وجل، لإطاحة النظام القائم وإعادة الحزب إلى السلطة في تموز/يوليو 1968، فهل نبدأ عهدنا باعتقال الشخص والقائد الذي حمى الضباط البعثيين الذين أُبعدوا إلى فرقته التي كانت تقاتل الانفصاليين الأكراد في شمال العراق؟ وكان معروفًا طوال فترة حكم الأخوين عارف بأنه من المدافعين عنهم، وحاميهم من الأذى والمتابعة والاعتقال، وكان يقول إن هؤلاء الضباط الشباب من البعثيين من أشجع المقاتلين في المعارك وأكثرهم اندفاعًا فماذا نريد منهم أكثر من ذلك؟

كان هناك خطأ ما من جهة ما بلا شكّ، شيء لم أدركه أو أعرفه، وعندما تعود بي الذاكرة إلى الأيام التي أعقبت انقلاب عبد السلام عارف على الحزب في عام 1963، استرجع موجة الاعتقالات والتطهير والإبعاد للضباط البعثيين التي تبعته، وكنت أحدهم، حيث كنت مع فوجي المظلي نقاتل المتمردين الأكراد في منطقة سيد صادق - حلبجة في محافظة السليمانية عندما استلمت أمر النقل خارج صنف المظليين، وتنسيبي إلى إحدى وحدات المشاة، وكان الأنصاريّ قائدًا للفرقة الجبلية الثانية في كركوك، المكلفة بالجهد الرئيس في قتال المتمرِّدين المنضوين إلى قيادة الزعيم الكردي

الملا مصطفى البرزاني.

نصحني آمر فوجي الرائد المظلي الركن عدنان محمد نوري، والمنقول أيضًا خارج الفوج والصنف كونه بعثيًا، بأن أذهب إلى الأنصاريّ لطرح موضوع النقل، وأبدى استعداده لمرافقتي. كان في الدار الواسعة المخصّصة لقائد الفرقة الثانية، وكان قد انتهى لتوّه من تناول غدائه فانتقلنا إلى قاعة الجلوس وقلت: «استلمت للتو أمر نقلي إلى إحدى وحدات المشاة التابعة للفرقة الجبلية الرابعة في منطقة أربيل، والأسوأ من ذلك أن آمر تلك الوحدة من أكثر الضباط عداءً للبعثيين، وإنه ذو لسان ذرب وطويل، ولا ينفك يشتمنا وينعتنا بأسوأ النعوت وأقذرها، وسأصطدم به حتمًا، وبناءً على ذلك فقد قرّرت». قال مبتسمًا: «ماذا قرّرت؟». قلت: «الحزب لا يزال في سورية وسألتحق به هناك».

بعد فترة صمت، قال: «أنتم البعثيون أضعتم أكبر حلم كادت تحققه الأمة (قاصدًا مشروع وحدة العراق وسورية بعد ثورتي شباط/فبراير وآذار/مارس في كلا البلدين عام 1963) نتيجة خلافاتكم أنتم وحماقاتكم أنتم، ولم تكن قياداتكم على مستوى المسؤولية التي ألقتها الحوادث بين يديها. لا أتهمكم أنتم صغار الضباط من البعثيين، إنني أراكم وطنيين ومخلصين وشجعانًا، لكن العلّة في قياداتكم». كان ينظر إلينا ليرى تأثير كلامه فينا، وتوقف للحظات ثم قال: «إسمع»، موجّهًا كلامه إلي، «أريدك أن تعمل هنا معي آمرًا لسريّة المقرّ والحماية، مرافقًا لي على أن تعدني بأن تترك العمل في هذا المجال (يقصد الحزب)، وأن تتفرغ لمهنتك ومستقبلك في الجيش والقوات المسلحة». لم أُجبه وبقيت صامتًا فاعتبر سكوتي قبولًا.

كنت متحمسًا للعمل معه والتتلمذ على يديه، فقد كان من أبرز قادة الجيش وأبرعهم في قيادة حرب مكافحة العصابات في المنطقة الكردية وإدارتها. وكان يعشق مهنته ويقدِّسها. كان فارسًا في المعارك مع الخصوم، ومبدعًا ومبتكرًا في القتال، حريصًا على جنده وقواته، ولم يحدث أن سمح لقطعاته يومًا أن تعتدي على مواطنٍ بريءٍ لا يحمل السلاح، أو أن تهدم بيتًا أو مسكنًا، فلم يستهدف إلّا المسلحين المتمردين، الأمر الذي جعل قياداتهم تكنُّ له الاحترام والإعجاب. وحينما كان القتال يتوقف وتبدأ المفاوضات، وحدث ذلك مرارًا، كان يبذل كل ما يستطيعه للتوصّل إلى حلول بين السلطة وقيادة التمرّد، كان أكثر ما يكره أن تُسفح دماء العراقيين في ما بينهم. وعلى الرغم من قتاله المتمرِّدين فتراتٍ طويلةٍ إلّا

أنه لم يكن يحمل لهم حقدًا أو كراهية على المستوى الشخصي، وكان يعرف أن أغلبية الأكراد غير المسيّسين لا تريد القتال وتنتمي إلى عراق الجميع.

على الرغم من صغر رتبتي آنذاك إلّا أن الأنصاريّ كان يحثني على حضور المؤتمرات والمناقشات مع آمري التشكيلات والصنوف وضباط أركان الفرقة التي كان يجريها بين فترة وأخرى، فكان يقول: «احضر واسمع وتعلّم ولا تتهيّب أبدًا أن تبدي رأيًا تؤمن به أو تراه صائبًا»، وكنت أصاحبه دومًا في جولاته وزياراته إلى ميادين القتال، وتعلّمت كثيرًا من ملاحظاته عن الخصم، ونظرته الثاقبة إلى الأرض والعوارض وتأثيرها، وغالبًا ما كان يقول: «إنها (أي الأرض) تكلمني»، ولا يتاح إلّا نادرًا أن يحصل ضابطٌ صغير الرتبة على خبرة كالتي حصلت عليها من اشتغالي معه لسنتين ونصف سنة.

على الرغم من أنه طُلب مني أن أترك العمل الحزبي، وأن أنصرف لبناء مستقبلي المهني، إلا أنني سرعان ما أعدت اتصالي بالرفاق الضباط البعثيين الذين كانت وحدات وتشكيلات الفرقة تعج بهم. كنا نريد بأي طريقة تتاح لنا أن نطيح عبد السلام عارف الذي جئنا به من بيته بعد انبثاق ثورة رمضان، ومنحناه رتبة المشير وذهبنا به إلى القصر الجمهوري رئيسًا للبلاد فغدر بنا وطعننا في ظهورنا بحقد وخسّة ونذالة، هذا ما كنا نشعر به آنذاك.

أذكر يومها أنني كنت في زيارة بيت الوالد في مدينة بعقوبة التي لا تبعد أكثر من 50 كلم من بغداد في عطلة نهاية الأسبوع. طوال الأسابيع الخمسة أو الستة الماضية كان الجهاز الحزبي في حالة إنذار، وكل بضعة أيام ترفع درجة الإنذار إلى أقصاها فنتجمّع في أوكار محدّدة باللباس المدني مع حقيبة صغيرة نحمل فيها الملابس العسكرية والسلاح بانتظار إشارة التنفيذ. وفي كل مرة تؤجل إلى إشعار آخر من دون ذكر الأسباب، في هذه العطلة قرّرت الذهاب لليلة واحدة إلى بعقوبة على أن أعود صباح يوم الجمعة 8 شباط/فبراير، وفي طريق العودة إلى بغداد أذيع بيان الثورة رقم 1.

أسرعت مع بعض ضباطنا البعثيين في الذهاب لتنفيذ الواجب المكلفين به نحن في الفوج المظلي، واكتشفت بأن أيًا منهم لم يبلّغ هذه المرة، فتبيّن بعدئذ أن أحد الكوادر من العسكريين كان ينقل إلى الزعيم معلومات عن محاولات التنفيذ، لذا قررت القيادة عدم تبليغ القسم الأكبر واكتفت بتبليغ

مجموعة صغيرة من الطيارين، وضباط الدروع لبدء التنفيذ، على أن تلتحق البقية للقيام بالواجبات المكلّفة بها حال سماع بيان الثورة.

كان واجب الضباط المظليين السيطرة على فوجنا، والتحرّك لاقتحام القاعدة الجوية القريبة منا في معسكر الرشيد [38] ، والسيطرة عليها واعتقال آمرها، ومعظم طياريها من الشيوعيين المتعاطفين مع الزعيم عبد الكريم قاسم.

انطلقتُ وأحد الرفاق من ضباط وحدتي مسرعين في عجلته الخاصّة من بيتنا قرب المقبرة الملكيّة في الأعظمية باتجاه باب المعظم، والباب الشرقي ثم معسكر الرشيد. وشاهدت العديد من تنظيمات الحزب المدنية، والحرس القومي بإشاراتهم الخضراء التي تحيط بأذرعهم، وجميعهم يحملون أسلحة متنوعة يتجولون في سيارات مدنية مكشوفة رافعين أسلحتهم عاليًا، وهم يهتفون ويدعون الجماهير إلى الخروج، والانضمام إلى الثورة، فيما سيطر آخرون على معظم المؤسسات والمقرات الحكومية في الأعظمية.

عند وصولنا باب المعظم كان شباب من الحزب في لباس الحرس القومي يتبادلون الرمي الكثيف مع حرس وزارة الدفاع، وبدت طلائع دبابات الكتيبة الرابعة التي تحرّكت من معسكر أبو غريب [39] غرب بغداد تقترب من الوزارة، وضباطها واقفون على أبراجها وهم يهتفون للثورة، وطائرات السرب السادس من نوع هوكر هنتر التي أقلعت من قاعدة الحبانيّة الجوية تواجه مقاومة ضارية من المقاومات الأرضية عند انقضاضها لضرب ثكناتها. في هذه الفوضى كان من المتعذر أن نسلك شارع الرشيد فاتجهنا إلى شارع الكفاح الموازي له، ومررنا مسرعين تحت وابل من زخات الرصاص المتبادل بين شبان الحرس القومي، وبعض أنصار الزعيم، تابعنا طريقنا إلى الباب الشرقي، ومنه سلكنا شارع السعدون المؤدي إلى معسكر الرشيد.

كان مذياع السيارة يذيع بيانات الثورة، ومصرع الزعيم عبد الكريم قاسم، ويعدد برقيات التأييد من وحدات القوات المسلحة وتشكيلاتها. وفي بداية شارع السعدون مرت من الاتجاه المعاكس سيارتان مسرعتان باتجاه الباب الشرقي، في الأولى كان عبد الكريم قاسم الذي تعلن بيانات الثورة مصرعه وخلفه مباشرة سيارة حمايته الخاصّة، وكان واضحًا أنه في طريقه إلى وزارة الدفاع التي يحميها اللواء التاسع عشر ويدافع عنها، وهو لواء الزعيم الذي كان بإمرته قبل ثورة 14 تموز وفي أثنائها. كانت مفاجأة سيئة، فالثورة في خطر ما دام الزعيم في قيد الحياة. تابعنا طريقنا إلى معسكر الرشيد، وكانت هناك قبل المعسكر بـ 200 متر أو بـ 250 مترًا محطة وقود للعجلات، وبعدها بأمتار قليلة ساحة استراحة للعجلات تتوسط

الطريق المؤدية إلى المعسكر. كانت الساحة تغص بالمئات من مدنيين وجنود وضباط صف ممن يهتفون بحياة الزعيم الأوحد، وبالموت للمتآمرين الخونة أولاد ميشيل عفلق مؤسس حزب البعث. وكانت نيران تطلق عليهم من بوابتي حرس مدخل معسكر الرشيد، إذ تمكَّنت مجموعات من الحرس القومي من السيطرة عليها في وقت سابق، ومنعت الدخول إلى المعسكر والخروج منه. وشاهدنا عددًا منهم متمدِّدين على الشارع والساحة مضرجين بدمائهم. حاولنا اجتيازهم نحو باب المعسكر على الرغم من الرمي من ذلك الاتجاه، فإذ بأحدهم يصرخ «أمسكوا البعثيين الخونة»، فاندفعت جموعهم نحونا لإغلاق الطريق علينا، وإخراجنا من سيارتنا، فصرخت بصديقي الذي كان يقودها أن يستدير حول الساحة عائدًا من حيث أتينا. كانت الطريق إلى المعسكر مغلقة بحشودهم. أطلقنا بضع طلقات فانكفأوا قليلًا، وضغط صديقي على دواسة الوقود، وانطلقنا بسرعة عبر الساحة عائدين إلى بغداد. ارتطمنا بعددٍ منهم وكانوا يصرخون ويشتمون وابتعدنا بسرعة والعرق يتصبب من وجوهنا، وأفواهنا متيبسةٌ من الجفاف. مفاجأة سيئة أخرى، كدنا نُقتل ونُسحل بيد أنصار الزعيم. عدنا إلى الأعظمية، وانضممنا إلى قيادة الحرس القومي [40] في الأعظمية في بناية النادي الأولمبي في ساحة عنتر.

ذكرت أن دارنا في الأعظمية كانت قريبة من المقبرة الملكية، وعلى مسافة غير بعيدة يسكن العقيد الركن عبد السلام محمد عارف مع عائلته بعد إطلاق سراحه من السجن. في ضحى يوم الثورة قرّرت قيادة الحزب استدعاءه وتسميته رئيسًا للجمهورية، فقد كان الرجل الثاني في ثورة 14 تموز/يوليو 1958، وكانت أفكاره القومية والوحدوية سببًا في خلافه مع قاسم فأعفاه من مناصبه كافة ثم سجنه، وأصدر حكمًا بإعدامه ثم عفا عنه وحجزه في بيته تحت الإقامة الإجبارية. وكان الحزب في حاجة إلى شخصيّة معروفة تتصدر واجهة الحكم فمعظم قادة الحزب شباب، وأسماؤهم غير معروفة من جماهير الشعب لطبيعة العمل السري الذي انتهجه الحزب في العهد الملكي أو بعد ثورة تموز/يوليو.

بعد عودتي من معسكر الرشيد شاهدت تجمهرًا أمام بيت عبد السلام، مجموعة من شباب الحرس القومي، وعرفت من بينهم أحد كوادر الحزب الرفيق عدنان القصاب الذي كان يتزعمهم، وكان عبد السلام يقف بينهم، وهو يلوّح للناس المتجمهرين بيده مبتسمًا قبل أن يدلف إلى إحدى السيارات مع عدنان القصاب، وينطلقا مسرعين إلى دار الإذاعة والتلفزيون في

منطقة الصالحيّة في جانب الكرخ لينضم إلى قيادة الحزب الموجودة هناك.

بعد تسعة أشهر من تسلّمه رئاسة الجمهورية اتفق مع بعض قادة الحزب وكوادره من عسكريين ومدنيين في إثر الخلافات والانشقاقات التي حدثت بينهم، فانقضّ على القيادة الشرعية للحزب، ثم انقلب على من تعاون معه منهم وشرّدهم وصفّاهم تباعًا، ومرة أخرى غصت السجون والمعتقلات بالبعثيين عسكريين ومدنيين.

في قيادة الفرقة الثانية في كركوك زارني الملازم الأول ناظم الزبيديّ أحد قدامى البعثيين، والمسؤول عن التنظيم العسكري للحزب في الفرقة الثانية، وأعلمني بقرار قيادة الحزب ضمي إلى قيادة مكتب كركوك العسكري للحزب مع عبد الكريم الحمداني وسليم شاكر الأماميّ، وكلاهما من دورتي في الكلية العسكرية، والملازم الأول الطيار تحسين محمد علي، فشرعنا على الفور في إعادة من قُطع الارتباط بهم في إثر «ردة تشرين»، وهي التسمية التي أُطلقت على عملية الانقلاب التي قادها عبد السلام وبعض المنشقين عن الحزب في تشرين الثاني/نوفمبر 1963.

كان عددٌ من الضباط والمراتب البعثيين ممن أُطلق سراحهم من السجون والمعتقلات يُنقل إلى الفرقة الثانية التي تقاتل المتمرِّدين في شمال الوطن، وكنت من خلال موقعي مرافقًا لقائد الفرقة أعمل بالتنسيق مع قيادة التنظيم على تعيينهم في مواقع ومفاصل مهمة في تشكيلات الفرقة، ولم يكن ذلك غائبًا عن عينَي قائد الفرقة الذي لم يكن راضيًا عما قام به عارف من سجنٍ وتشريدٍ لشباب الحزب، وهو المعجب بشجاعتهم ووطنيتهم وأدائهم لواجباتهم دفاعًا عن وحدة الوطن، ولم يتفق مع الرئيس عارف في تحميلهم مسؤولية أخطاء قيادتهم وعواقبها، فكان يوافق على قوائم التنقلات من دون تغيير.

في خريف 1964 استلمت تعليمات من الرفيق أحمد حسن البكر، أمين سرّ الحزب، يطلب فيها أن أفاتح اللواء الأنصاريّ برغبته هو وقيادة الحزب في ضمه إلى صفوفه، ويكون اتصاله فرديًا ومباشرًا بالرفيق البكر.

كان من عادات الأنصاريّ التمشي في حديقة داره بعد العشاء، وكنت أخطو معه تلك الليلة، فقلت له: «عمّي لقد طلب مني الرفيق أحمد حسن البكر أن أفاتحكم برغبته وقيادة الحزب في انضمامكم إلى الحزب، وسيكون اتصالكم المباشر بالبكر زعيم الحزب فحسب، وذلك تقديرًا لشخصكم وموقعكم وللسريّة المطلقة».

لا أدري لماذا شعرت بأنه لم يفاجأ بما قلته. كان ينصت صامتًا وهو

ينظر في عمق ظلام حديقة الدار الواسعة. بعدها قال: «أنت ابن أخي وخير من يعرفني. أنا رجلٌ حرٌّ، أعشق الحريّة وأكره القيود كيفما كانت، فأنا مثل الطير الذي قد يموت إذا حبسته في قفص، ولو كان من ذهب، قد يكون ذلك بحكم تربيتي وأصولي العشائرية. فقد كنت وأبوك في طفولتنا نعيش مع جدّك في بيت من الشعر، ولم نستقر في دار مبنيّة إلا بعد دخولنا المدارس. وكما تراني أكره أن أكون لفترة طويلة تحت سقف، ولو كان مقرّ قيادتي، لذا أخرج إلى القطعات في الميدان فأشعر بالحياة والانطلاق. أريد دومًا أن أكون حرًّا غير مقيدٍ، قد أحبُّ اليوم شيئًا وأرغب بعده في آخر مختلف. أريد أن أكون حرًّا هكذا مثل الطير في سماء الله الواسعة»، ثم التفت إليّ وقال: «هل أنت معي؟»، فأجبته: «نعم»، فقال: «أنتم حزب لكم فكر وقيم وأهداف محددة، قد أُعجب ببعضها لكنني قد أنفر من قسمٍ آخر منها، وإذا ما انضممت إلى حزبكم فسيكون عليّ التقيد بها، وأنا كما قلت لا أطيق القيود، كما أنك تعرف أنني أكره الظلم والعنف وتربيتُ على ذلك، وأنتم حزب ثوريّ مناضل كما في شعاراتكم، ومارستم العنف في الفترة القصيرة التي كنتم فيها في الحكم، وقد تمارسونه في المستقبل ضد من يخالفونكم إذا أصبحتم في السلطة، وتبرِّرون ذلك بالمصلحة الوطنية والقومية والمحافظة على الثورة، وأنا لا أؤمن بذلك ولا أرضاه، فلو افترضنا أنني انضممت إليكم، واستلمتم السلطة يومًا، فسوف نصطدم حتمًا، ويتبع ذلك خلافات وتصفيات لا أريدها ولا أرغب فيها. وإنك تعرف أن كلّ ما أطمح فيه هو أن أكون على رأس هذا الجيش يومًا، كي أُقدِّم له ما هو خيرٌ لهذا البلد وهذه الأمة».

سكت لحظة ثم قال: «أخبر صاحبك بذلك، ولندخل فقد بات الوقت متأخرًا». عدنا صامتين إلا من وقع أقدامنا على إسفلت ممشى الحديقة.

أبلغت قيادة الحزب أن الأنصاريّ يفضّل أن يكون صديقًا على أن ينتسب إلى صفوفه.

بعد أن عاد صدام حسين إلى العراق في إثر ثورة 8 شباط كُلّف بالعمل في تنظيمات الجمعيات الفلاحية بدرجة حزبية متواضعة نسبيًّا هي عضو قيادة فرقة [41] . كان قد هرب إلى سورية بعد فشل محاولة اغتيال قاسم، ومنها انتقل إلى مصر زمن عبد الناصر حيث عمل ومجموعة من البعثيين العراقيين الهاربين تنظيمًا لحزب البعث في مصر، وكشفت الاستخبارات المصرية محاولتهم تلك، ووضعتهم تحت المراقبة الدقيقة. ولما حاولوا ضمّ عناصر مصرية إلى التنظيم زرعت الاستخبارات بعض عناصرها في

التنظيم الوليد وكثّفت متابعتها ومراقبتهم، وتولّى صدام مسؤولية التنظيم بعد أن غادر المسؤول الأصلي مصر. ويقول بعض عناصر التنظيم الذين كانوا معه في مصر إنه اختفى عنهم طوال فترة العطلة الصيفية في عام 1962، ولم يعرفوا شيئًا عن مكانه، فراجت إشاعة وشكوك بأن صدام التقى جهة أجنبية ما، أو أنه أمضى فترة تدريبية مع هذه الجهة لتهيئته لتأدية أدوار مهمة في العراق والمنطقة، وبالطبع ما من دليل ملموس على هذا الادعاء، وليس هنالك ما يؤكده.

حاول صدام حسين أن يؤدي دورًا في الخلافات التي نشبت بين قادة الحزب وكوادره المتقدمة بعد ثورة رمضان بأشهر قليلة، والتي بلغت ذروتها في تشرين الثاني/ نوفمبر 1963، وانتهت بانقلاب عبد السلام عارف على الجميع، وتفرّده بحكم العراق. وحدّثني المرحوم طالب شبيب، وزير خارجية العراق بعد ثورة شباط/فبراير 1963 وعضو القيادة القطرية للحزب آنذاك، في أحد لقاءاتي معه في عمّان عام 1973، فقال: «كنت والرفيق حامد جواد وزير الداخلية وعضو القيادة القطرية أيضًا قد أُبعدنا عن قيادة الحزب وأُعفينا من مناصبنا الوزارية بعد خلافنا مع الرفيق أمين سرّ الحزب علي صالح السعدي على أسلوب إدارة الحزب والدولة في أيلول/سبتمبر 1963، وكان من المعتاد أن يزورنا بعض كوادر الحزب وأعضائه لمعرفة أسباب الخلافات بين القادة فنقوم بتوضيح وجهات نظرنا ويجري ذلك في جو ديمقراطي وصراحة مطلقة، وبعلم قيادة الحزب وأمين سرّها الذي يلتقيه أيضًا كوادر الحزب وأعضاؤه لمعرفة وجهة نظره، وهذا هو الجو الذي كان يسود الحزب وقادته حينذاك تأثرًا بالديمقراطية التي كنا نمارسها في عملنا الحزبي قبل الثورة».

تابع طالب شبيب القول: «استرعى نظري شاب نحيف طويل أسمر البشرة وذو عينين واسعتين، كان يحضر الجلسات يوميًا ويجلس في مؤخرة صالون الجلوس متابعًا باهتمام ما يدور من أحاديث وحوارات. وفي أحد تلك الأيام دار كلام عن تهور الرفيق أمين سرّ الحزب علي صالح السعدي واندفاعه وتطرفه، وخشيتنا من أن يؤدي ذلك بالحزب إلى الانقسام والسقوط، وأول مرة تكلم فيها الشاب النحيف ذو العينين الواسعتين، فقال بهدوء ومن دون انفعال: أيها الرفيق إذا كان أمين سرّ الحزب علي صالح السعدي هو المشكلة فإن طلقة واحدة لا تكلّفنا أكثر من درهم واحد كافية لإنهاء الموضوع، وإنقاذ الحزب». فرد عليه الرفيق طالب شبيب: «نحن بالحزب رفاق عقيدة ونضال، وعندما تظهر بيننا خلافات في تحليلاتنا أو

وجهات النظر نحلّها بالنقاش وبالمنطق وليس بالرصاص، فإذا كان الرفيق أمين سرّ الحزب علي صالح السعدي يكلّفك اليوم طلقة بدرهم واحد فقط، فكم ستكلّفك الطلقة التي ستوجهها إلى رأسي في ما بعد؟». ويقول الرفيق طالب شبيب (رحمه الله): «كان ذاك الشاب هو صدام حسين».

قرّرت القيادة القومية للحزب [42] إعادة تشكيل قيادة قطر العراق للحزب من الكوادر التي لم تشارك في الخلافات والانقسامات التي حدثت بين قادة الحزب للمرحلة السابقة، وكلّفت الرفيق أحمد حسن البكر رئيس الوزراء في حكومة «ثورة شباط» بأمانة سرّ قيادة الحزب. واختارت عددًا من كوادر الحزب الوسطية لتشكيل القيادة القطرية الجديدة، وكان صدام حسين أحدهم، ويقال إنه نُسب بتوصية من الرفيق ميشيل عفلق، أمين سرّ القيادة القومية ومؤسس الحزب.

كان للعلاقة الوثيقة التي تربط أحمد حسن البكر بقريبه وابن قريته صدام حسين الفضل في اختياره نائبًا لأمانة سرّ الحزب. ومن المؤكد أن البكر حصل على موافقة القيادة القومية أو عيّنه بعلمها على الأقل، وأوكل إليه إدارة تنظيم فرع بغداد العسكري للحزب، وكان هذا أول اتصال مباشر لصدام حسين بعسكريي الحزب، وكلّفه أيضًا بتأليف التنظيم الطليعيّ الضارب من شباب الحزب وأطلق عليه اسم «تنظيم حُنين» الذي تحول بعد قيام ثورة 17 تموز/يوليو 1968 إلى «هيئة العلاقات العامة» التي تحوّلت بعد ذلك إلى الاستخبارات العامة.

شرعت القيادة الجديدة في العمل على إعادة بناء الحزب بعد الضربات الموجعة التي عاناها عقب انقلاب الرئيس عبد السلام عارف في تشرين الثاني/نوفمبر 1963، وركّزت على إعادة بناء التنظيم العسكري وتعزيز تنظيمها الطليعيّ «حُنين» وتقويته بأسبقيات متقدّمة للعودة إلى السلطة بانقلاب عسكري حال سنوح الفرصة لذلك. وفي حُمى عملها الحثيث والسريع لهذه الغاية استطاع النظام اختراق بعض تنظيمات الحزب، ومنها فرع بغداد العسكري الذي يديره صدام حسين، واستطاع إجهاض المحاولة الانقلابية المتعجلة التي خطّطوا لها قبيل تنفيذها في 5/9/1964. وأجرى النظام اعتقالات واسعة في صفوف العسكريين البعثيين ممن كانوا في الخدمة أو التقاعد، وأغلبهم من تنظيمات فرع بغداد العسكري. واستطاع صدام حسين الهروب والاختفاء في أحد أوكار الحزب، واعتُقل في ما بعد لأن أحد أعضاء الحزب وشى للجهات الأمنية بالوكر الذي كان فيه مختبئًا.

كان التجمّع الأكبر للبعثيين العسكريين الموجودين بالخدمة في تنظيمات

الفرقة الثانية، وكان يرتبط بأمين سرّ الحزب وأمين سرّ المكتب العسكري الرفيق أحمد البكر مباشرة، فلم يؤثّر كشف تنظيمات فرع بغداد العسكري فيه كثيرًا.

بعد بضعة أسابيع اعتُقل أحد أعضاء قيادة مكتب كركوك العسكري للحزب [43] فجعلني الأمر في وضع حرج، إذا ما اعترف الرفيق المعتقل فكيف سيفهم العمّ الأنصاريّ ذلك؟ فهو يعتقد أنني قد توقفت عن العمل الحزبي بحسب طلبه، وذاك ما شكل عبئًا نفسيًّا وأخلاقيًّا كان من الصعب عليّ تحمّله! فطلبت من أحد أصدقائنا من رؤساء العشائر البعثيين بالمنطقة تدبير خروجي إلى سورية حال طلبي منه ذلك، وأبدى استعداده لذلك، لكنه اعتقل هو الآخر بعد بضعة أيام، فأُسقط في يدي.

تنفسنا الصعداء عندما عرفنا أن صدام اعتقل، وأنه تحمل المسؤولية كاملة عن محاولة الانقلاب، فتوقفت الاعتقالات، ولم يتحمل تنظيمنا خسائر تُذكر.

أدّى تكليف الرئيس عارف العميد الطيار عارف عبد الرزاق [44] قائد القوة الجوية تشكيل حكومة جديدة يتولّى رئاستها مع توليه وزارة الدفاع، إضافة إلى منصبه قائدًا للقوة الجوية، إلى امتعاض قادة الجيش وكبار ضباطه، ومنهم اللواء الأنصاريّ، إذ كان إجراؤه هذا خطوة أخرى في تسييس الجيش والقوات المسلحة. كان العميد عارف عبد الرزاق يتزعّم كتلة الضباط الوحدويين الناصريين في القوات المسلحة التي تضمّ نخبة من الضباط المعروفين بكفاءتهم وسمعتهم الجيدة، مثل العميد الركن يونس عطارباشي، قائد الفرقة الرابعة في الموصل، والعقيد الركن هادي خماس، مدير الاستخبارات العسكرية، والعقيد الركن صبحي عبد الحميد، مدير الحركات العسكرية، والعقيد الركن عرفان عبد القادر وجدي، آمر الكلية العسكرية، وآخرين من المراتب المتوسطة والصغيرة. عرف عارف عبد الرزاق من خلال عمله رئيسًا للوزراء بأن الرئيس عبد السلام لم يكن جادًا في دعواه إلى الوحدة مع مصر، ولم يُرِد أن يكون الرجل الثاني بعد عبد الناصر في دولة الوحدة، فاتفق مع ضباط كتلته على إطاحته عند سنوح الفرصة لذلك، وإعلان دولة الوحدة. وكان سفر الرئيس عبد السلام لحضور قمة الرؤساء العرب في الرباط في خريف عام 1965 موعدًا لتنفيذ انقلابه، فتحرّكت عناصره واحتلت الإذاعة والتلفزيون ومؤسّسات حيوية أخرى. وبدأت الإذاعة والتلفزيون بإذاعة الأناشيد الوحدوية وبيانات الانقلابيين، وكان حزبنا قد أصدر تعليمات سابقة باستغلال أي حادث مفاجئ أو تحرك ضد

السلطة من أي جهة أخرى للعمل بسرعة وحزم للاستيلاء عليها، وضرب التحرّك والنظام في آنٍ واحد من دون انتظار تعليمات إضافية.

اعتبرنا محاولة عارف عبد الرزاق الانقلابية ساعة الصفر للتحرك لتنفيذ توجيهات الحزب. دخلت على اللواء الأنصاريّ في غرفته بقيادة الفرقة، وكان غاضبًا وثائرًا على ما حدث، وأكد تصميمه على وأد الحركة الطائشة كما سمّاها فاستدعى العقيد إسماعيل تايه النعيمي، آمر اللواء الرابع وهو بعثي، والعقيد حماد شهاب، آمر اللواء المدرع العاشر البعثي أيضًا، وهو من أقارب الرئيس البكر، والمقدّم سعدون غيدان، آمر كتيبة الدبابات الرابعة، وآخرين فأوجز لهم الموقف، وقراره بسحق الحركة الانقلابية، وأصدر أوامره بحركة اللواء الرابع مشاة، ويُعقب باللواء العاشر المدرع، ومغاوير الفرقة إلى بغداد، لسحق حركة العميد عارف عبد الرزاق والسيطرة على المؤسّسات الحكومية فيها.

التقيت بهم عند خروجهم من مؤتمر القائد، وأبلغتهم تعليمات قيادة الحزب للسيطرة على السلطة فأبدوا استعدادهم لتنفيذها من دون اعتراض.

لم يستطع الانقلابيون في بغداد إحكام السيطرة عليها، إذ قاد اللواء عبد الرحمن عارف رئيس أركان الجيش والأخ الأكبر للرئيس عبد السلام لواء الحرس الجمهوري، وأعلن ولاءه للرئيس، وكانت قطعات الفرقة الثانية تتقدّم إلى بغداد لسحق الحركة فانهارت معنويات الانقلابيين فركب العميد عارف عبد الرزاق وكبار أعوانه طائرة كانت جاهزة في المطار وتوجهوا بها إلى القاهرة.

عصرًا كانت قطعات الفرقة قد قطعت مرحلة طويلة في طريقها إلى العاصمة بغداد عندما اتصل اللواء عبد الرحمن عارف باللواء الأنصاريّ مهنئًا بفشل المحاولة الانقلابية، وهروب قادتها خارج الوطن، وطلب إعادة قطعات الفرقة إلى ثكناتها لانتفاء الحاجة إليها. وعلى الرغم من إلحاحي على الأنصاريّ لتستمر القطعات في طريقها إلى العاصمة وإنهاء الوضع القائم، أمر القطعات بالعودة لتعود الأمور إلى نصابها.

أوفد اللواء عارف، رئيس أركان الجيش، الوزير شامل السامرائيّ إلى الرباط لإخبار أخيه بتفاصيل ما حدث، فسأل الرئيس عبد السلام الوزير: «لماذا قام العميد عارف عبد الرزاق بمحاولته هذه؟». فأجابه السامرائيّ: «لأنه يريد الوحدة»، فرد عليه عبد السلام ساخرًا: «أليس هذا ما نعمل عليه هنا بالرباط؟».

التمرّد الكردي

حاولت الحكومة في عهد عبد السلام عارف التفاوض والأكراد، وتعتبر الحركات الكردية المسلحة في كردستان العراق من أهمّ عوامل عدم الاستقرار منذ بدايات الحكم الوطني في العشرينيات من القرن الماضي، وزاد في تعقيدها استخدامها من قوى دولية وأخرى إقليمية ورقة ضغط على الحكومات العراقية في عهودها المختلفة، لمصالحهم وفرض أجندتهم وهيمنتهم على العراق.

بعودة الملا مصطفى البرزاني [45] ، زعيم الحركة الكردية، من الاتحاد السوفياتي بعد ثورة تموز 1958، تصاعد مد التحرك الكردي المطالب بحقوق وامتيازات إضافية إلى الحد الذي أدّى إلى اندلاع النزاع المسلّح بين حكومة عبد الكريم قاسم وحزب البارتي الديمقراطي الكردستاني الذي يتزعمه الملا مصطفى البرزاني، والذي امتدّ إلى مناطق واسعة من شمال الوطن. ولم تكن إيران وإنكلترا والولايات المتحدة وأخيرًا إسرائيل بعيدة عن تأجيجه وإدامته لإضعاف العراق وإبعاده عن دوره الوطني والقومي. ومرت العلاقات بين الحركة الكردية المسلحة بفترات مد وجزر وتفاوض واقتتال، وكانت أصابع إيران الشاه وحلفائه وراء تأجيجها كلما أوشكت على الخمود.

أتيحت لي فرصة حضور أحد لقاءات القيادة السياسية وبعض القادة العسكريين بالملا مصطفى البرزاني وقيادة حزبه في ناحية بليكان القريبة من قضاء رانية، معقل قيادة الحركة في عام 1965. كان الوفد العراقي المفاوض برئاسة الفريق طاهر يحيى، رئيس الوزراء، ومعه وزير الداخلية ومحافظ السليمانية ومجموعة من الشخصيات المدنية والعسكريين، منهم اللواء الأنصاريّ، قائد الفرقة الثانية، والعقيد هادي خماس، مدير الاستخبارات العسكرية، وآخرون.

تحرّكنا من السليمانية بالعجلات إلى ناحية بليكان، وكان الملا مصطفى وقادة حزبه ينتظروننا خارج بليكان في مكان مسقوف بمجموعة من فروع الأشجار لتظلله من الشمس، وكان يتوسطهم جالسًا على كرسي خشبي فيما أعضاء القيادة حوله جالسون على بُسُط ممتدّة على الأرض. جلسنا بمواجهتم، فرحب البرزاني بالوفد بكلمة قصيرة ثم قال مخاطبًا الفريق طاهر يحيى: «أنا ابن الحكومة وتابع لها، وليس لدي شيء معين أطلبه من سيادتكم، هؤلاء هم قيادة الحزب وأعضاء مكتبه السياسي فتفضلوا بالكلام معهم وأنا سأنفذ ما تتفقون عليه»، وسكت.

شكره الفريق يحيى، وطلب من أعضاء القيادة الكردية أن يعرضوا مطالبهم. قالوا: «نريد أن يكون الرؤساء الإداريون وموظفو المنطقة الكردية

من الأكراد»، فأجابهم: «ونحن لا نفضل أن نبعث برؤساء وموظفين عرب لأنهم لا يستطيعون القيام بواجباتهم بصورة كفيّة بسبب اللغة والجهل بعادات المنطقة وتقاليدها فرشّحوا لنا من تريدون وسنعيّنهم فورًا». قالوا: «نريد أن يكون تعليم اللغة الكردية في مدارسنا للصف السادس ابتدائي»، فأجابهم: «ولماذا للصف السادس ابتدائي فحسب؟ نحن نرى أن يكون تعليمها لغاية الصف السادس ثانوي، لكن يجب أن يتعلموا العربية أيضًا حتى يكون العراق كله مجالًا لتوظيفهم إذا لم تستوعبهم المنطقة الكردية». قالوا: «نريد الكهرباء والماء». فأجابهم: «في طريقي إلى هنا شاهدت أعمدة الكهرباء محطمة ومرمية على الأرض، فلا تحطموها حتى نتمكّن من تأمين الكهرباء والماء». وطلبوا أشياء صغيرة أخرى مشابهة، وكان الفريق يحيى يضيف إليها أكثر مما طلبوه. هكذا انتهى اللقاء بعدما وافق رئيس الوزراء على مطالبهم كافة، وزاد عليها. أخيرًا دعانا الملا مصطفى إلى مرافقته إلى رانية لنحلّ ضيوفًا عليه هذه الليلة، فأراد الفريق طاهر أن يعتذر لوجود ما يستوجب عودته، فانحنى عليه الفريق الأنصاريّ وهمس في أذنه «أبو زهير لنبقَ تقديرًا لهم ما دامت المشكلة قد حُلت والحمد لله». فوافق وانتقلنا إلى رانية، وأنا غير مصدق ما حدث: هل قاتل هؤلاء كل هذه السنين من أجل هذه المطالب التي كان أيٌّ من المسؤولين في كل العهود سيوافق على ضعفيها من دون أن يرمش له جفن؟

في رانية أقاموا لنا حفلة عشاء في جو ساده التفاؤل. وفي اليوم التالي جاءوا بمطالب جديدة منها تشكيل وحدات عسكرية من مسلحيهم ترتبط بهم مباشرة، وأن لا يُسمح للجيش العراقي بدخول المنطقة الكردية إلا بموافقتهم، ومطالب تعجيزية أخرى لا أذكر تفاصيلها. وكان واضحًا أن القوى الخارجية التي تستخدمهم رفضت ما تم الاتفاق عليه مع الوفد الحكومي نهار أمس، وأملَت عليهم الشروط التعجيزية التي كانت تعرف أننا سنرفضها، فغضب الفريق رئيس الوزراء، وعدنا بخُفّي حُنين ليندلع القتال مجددًا في عام 1965.

في قيادة الفرقة الثانية في كركوك زارنا اللواء الركن عبد العزيز العقيلي [46] ، وزير الدفاع، مع عدد من ضباط الأركان العامة. وعقد فور وصوله اجتماعًا بقائد الفرقة اللواء الأنصاريّ في غرفته في مقر القيادة، وفيها بيّن الاستراتيجيا التي سيعمل عليها للمرحلة المقبلة في مقاتلة مسلحي البرزاني، والتي ستجبر الزعيم الكردي على التخلي عن الخيار المسلّح في خلافه مع السلطة، وذلك بتحويل الجهد الرئيس للعمليات من جبهة الفرقة الثانية -

السليمانية إلى جبهة الفرقة الرابعة - أربيل، على أن تعزز بألوية ووحدات من قطعات الفرقة الثانية. والغاية من ذلك هو عزل مسلّحي الملا مصطفى البرزاني عن الدعم الإيراني، وذلك بالسيطرة على المحور الرئيس الذي يربطهم بإيران أي راوندوز - برسري - حاج عمران. وقال على القطعات أن تبدأ فورًا في سهل راوندوز، وتشرع بالعمليات بعد عطلة العيد المقبلة، بعد أكثر من شهر، وأن اللواء الركن زكي حسين حلمي، قائد الفرقة الرابعة، سيقود العملية.

كانت النظرة الاستراتيجية للواء الأنصاريّ مختلفة تمامًا، إذ قال: «إن هذه العملية وأي عملية مشابهة أخرى لن تحقق الغاية التي استهدفها السيد وزير الدفاع، وأوضحُ أن العمليات المسلحة الحالية تختلف عن تلك التي شارك فيها الوزير في منتصف الأربعينيات. آنذاك كانت حركات عشائر متمرِّدة ومحدّدة في مناطق نفوذ الملا البرزاني والعشائر المؤيدة له، وكان وصول الأرتال العسكرية إلى مناطق تواجد ونفوذ تلك العشائر كافيًا لإخمادها، أما الآن فالوضع مختلف تمامًا! إذ تحوّل قتال المسلحين الأكراد إلى عمليات أنصار وحرب عصابات مشابهة لتلك التي حدثت في يوغسلافيا والاتحاد السوفياتي، وتدرّب عليها البرزاني ومن معه في أثناء لجوئهم إلى الاتحاد السوفياتي، فالقتال الآن ليست له جبهة محدّدة وواضحة بل يجري تقريبًا في كل مكان من المنطقة الكردية في الشمال. ففيما نحن نقاتل المتمرِّدين في المناطق الحدودية لمنع تعاونهم مع إيران أو تركيا، هناك قتال في مناطقنا الخلفية وعلى طرق المواصلات. إن إمساك الشريان الذي يربطهم بإيران وقطعه شيء جيد، ويمكن أن يكون بإمساك العوارض المسيطرة فيه بعدد محدود من القطعات، وإبقاء القسم الأكبر منها لضربهم وإيقاع الخسائر الموجعة فيهم، ومطاردتهم أينما كانوا. ذلك ما يردعهم ويجبرهم على التخلي عن استمرارهم بالقتال، ولا تنسَ سيادة الوزير أن هناك محاور أخرى عديدة تربطهم بإيران»، واختتم اللواء الأنصاريّ قوله: «أخشى يا سيادة الوزير أن يؤدي إصراركم على هذا النهج وتنفيذه بالصيغة التي عرضتها إلى نتائج وخيمة للقطعات التي ستقوم به ولبقية القوات المسلحة!!». لكن الوزير المعروف بعناده أصر على رأيه مدعومًا بتأييد الرئيس عبد السلام عارف.

جرى حشد القطعات في سهل أربيل طوال الشهر الذي سبق تنفيذ العمليات، الأمر الذي أتاح للبرزاني الوقت لجلب وحدات مدفعية إيرانية مع أطقمها إلى القاطع. وبدأت قصفها القوات المتحشدة فتكبَّدت خسائر كبيرة

أثّرت سلبًا في معنوياتها. كانت عارضتا هندرين وزوزك تسيطران على مدخل محور راوندوز - حاجي عمران من الشرق. اللواء الرابع يمسك عارضة هندرين التي تسيطر على الطريق من اليمين، واللواء الثالث يمسك عارضة زوزك عن يسار الطريق، وقد كثف المسلحون الأكراد القصف عليهما فكبدوهما خسائر كثيرة. وفي ليلة دامسة الظلام بوغتت قطعات اللواء الرابع على جبل هندرين بهجوم صاعق أجبرها على ترك العارضة في حالة من الفوضى الشاملة، واحتمى العسكر في السفوح والأودية القريبة، كما ترك بعض وحدات اللواء الثالث معظم مواضعه على عارضة زوزك. لم يسبق لقواتنا أن تعرضت لمثل هذه النكسة المؤلمة والمهينة مطلقًا. وكنا نخشى انعكاسها على بقية قطعات الجيش.

كان اللواء الأنصاريّ يغلي غضبًا، والأخبار السيئة عن قاطع راوندوز ترده تباعًا، فقد توقع أن يحدث ما لا تُحمَد عُقباه عندما حشدوا القطعات في رمضان قبل أكثر من شهر من موعد تنفيذ عملياتها. كان يقطع غرفته ذهابًا وإيابًا عندما دخل عليه اللواء فاضل واللواء حسن سكراب من هيئة أركان قيادة قوة الميدان، وكان اسُتحدث مقرّ باسم قيادة قوة الميدان لإدارة العمليات في الشمال برئاسة عبد الرحمن عارف الذي أصر عزيز العقيلي، وزير الدفاع على إبعاده من الوزارة، لأنه لم يكن ضابط ركن، ولا يحق له أن يكون رئيسًا لأركان الجيش، كما تنص بذلك اللوائح والنظم العسكرية، فكان ذلك حلًا لتلافي أزمة بينه والرئيس عبد السلام عارف. دخلوا يسألونه ويرجونه أن يتدخل لإنقاذ الموقف بالذهاب إلى راوندوز لمعالجة الحالة المتدهورة هناك، فردّهم اللواء الأنصاريّ بجفاء وذكّرهم بتحذيره الوزير من النتائج الوخيمة لإجراءاته تلك.

رد اللواء حسن، والعبرات تخنق صوته: «لواء إبراهيم أستحلفك بالله أن تذهب، إنه شرف الجيش والوطن». فوافق الأنصاريّ وأصدر أوامره لقوات مغاوير الفرقة للتحرّك فورًا إلى راوندوز، واصطحب معه آمر مدفعيته العميد أحمد سعيد وبعض ضباط ركنه في طائرة سمتيّة [هليكوبتر] إلى هناك، وكنت معهم. في المقرّ المتقدّم لقيادة الفرقة الرابعة كان اللواء الركن زكي حسين حلمي، قائد الفرقة، الذي كان قبل أشهر آمرًا لأحد ألوية فرقتنا، يبدو تحت تأثير الصدمة التي فاجأته.

«لواء زكي، قال له الأنصاريّ، أوجز لي آخر موقف». فأوجزه.

تسلّق اللواء الأنصاريّ تلة مرتفعة قريبة تشرف على الجبهة، مصطحبًا معه اللواء زكي والعميد أحمد آمر المدفعية، وعددًا من ضباط الركن

والمُخبرين. وامتدّ الجميع على الأرض، وأصدر أول أوامره بأن تربط كافة وحدات المدفعية في الجبهة بشبكة آمر مدفعيتنا، ثم اتصل مباشرة بأحد آمري الأفواج الأمامية المقدّم الركن زاهد إسماعيل (كان مدرّسنا عندما كنت تلميذًا في كلية الأركان) للتعرف إلى الموقف من الأفواج المشتبكة بالقتال مباشرة. فقال: «أنا اللواء الركن إبراهيم فيصل الأنصاريّ، جئت لإدارة المعركة؛ أعطني موقفك والعدو بدقة، وسأسندك بمدفعية الفرقة كلها. أعطنا التصحيحات لصب نيراننا على العدو». وبعد نصف ساعة أو أقل اتصل المقدّم زاهد إسماعيل وتكلم مع اللواء الأنصاريّ وقال: «سيدي القائد إنني أرى جثثهم تتطاير بفعل نيراننا، وشرعوا بالفرار».

تركنا اللواء زكي لمتابعة الموقف، وذهبنا لاستقبال قوات مغاويرنا التي بدأت طلائعها بالوصول والتجمّع قرب المدخل الشرقي لمضيق كلي علي بك، وحال تكاملها وقف اللواء الأنصاريّ بينهم وحيّاهم بحرارة، وجال ببصره في وجوههم التي يعرفها ويعتزّ بها، حيث كانوا من وحدات مغاوير الفرقة الثانية المعروفين بشجاعتهم وشراستهم في القتال. وخاطبهم قائلًا: «إن وحدات اللواء الرابع قد انسحبت من جبل هندرين ذاك الذي ترونه على اليمين (وأشار إليه)، وكذلك بعض وحدات اللواء الثالث من جبل زوزك على اليسار. وإن المتمرِّدين الخونة احتلوا المرتفعات المسيطرة. أريدكم أن تسترجعوها من أيديهم سيموت بعضكم ويُجرح آخرون، لكنّ شرف الجيش والوطن أكبر وأعظم. أريد أن أرى أعلامكم ترفرف على قمم هذه الجبال. لقد ادُّخرتكم لمثل هذا اليوم. اذهبوا والله معكم». كان زئيرهم يشق عنان السماء وهم يحيّون قائدهم، وانطلقوا. وبعد ساعات كانت أعلامهم ترفرف على قمم الجبال، والمرتفعات بعد أن سقط العديد منهم.

في صيف 1966 قُتل الرئيس عبد السلام عارف في تحطم طائرته السمتيّة في أوضاع غامضة، وكان قبل مقتله بفترة قصيرة زار قيادة الفرقة الثانية، وخطب في مراسيم توديع أحد تشكيلات الفرقة المغادرة إلى المنطقة الكردية للمشاركة في قتال المتمرِّدين، بعد فترة إعادة تنظيم أجرتها في ثكناتها النظامية في كركوك. وفي خطبته هذه انبرى بالسباب للبعثيين، وكلما يرد ذكرهم في خطابه يقول «تكرمون البعثيين»، أي إنهم قذرون إلى درجة يستسمح فيها المستمعين ذِكر اسمهم، فانفعل اللواء إبراهيم الذي كان يقف جانبًا على المنصة التي يخطب منها الرئيس، وردد بصوت غاضب سمعه من كان يقف بجانبه: «لا، لا، هذا كلام غير مقبول. معظم ضباط هذا اللواء من البعثيين وسيذهبون للمحافظة على وحدة البلد، وقد

يستشهد بعضهم. لا، لا، هذا كلام غير مقبول».

لا أعتقد أن الرئيس عارف قد سمعه، لكن من كان يقف إلى جانبه سمع، ومنهم بعض مرافقي الرئيس.

بعد إعلان نبأ وفاة الرئيس أسرعنا بالذهاب إلى بغداد لحضور اجتماع مجلس الدفاع الأعلى للبحث في تداعيات مقتل الرئيس. كنا عادة ننزل في فندق الخيام الكائن في الباب الشرقي في بغداد عند مجيئنا إلى العاصمة لحضور اجتماعات وزارة الدفاع. كان مجلس الدفاع الأعلى يتألف من رئيس الوزراء ووزراء الدفاع والداخلية والمالية ورئيس أركان الجيش، وقادة الفرق وقادة القوتين الجوية والبحرية، ومدير الاستخبارات العسكرية. وفي هذا الاجتماع طُرحت آراء ومقترحات متباينة للخروج بقرار يلائم الحالة الطارئة التي يمرّ بها الوطن. وكان رأي اللواء الأنصاريّ تأليف مجلس لتولّي المسؤولية لقيادة البلاد فترة محددة، يجري بعدها انتخاب رئيس جديد للبلاد، على أن يضمّ هذا المجلس عددًا من الشخصيات السياسية والعسكرية المعروفة، إذ لم يكن اللواء الأنصاريّ يعتقد بأن الشخصيات الحكومية أو العسكرية التي تتربع على المواقع المتقدّمة في السلطة تصلح لإشغال منصب الرئيس الشاغر. فهو لم يكن يثق برئيس الوزراء عبد الرحمن البزاز لغموض ميوله وأهوائه، ولعدم ثقة قادة الجيش به. أما اللواء عبد العزيز العقيلي، وزير الدفاع، فعلى الرغم من ميوله القومية كان انفراديًا متسلطًا، ويمكن أن يصبح شبيهًا بعبد الكريم قاسم. يبقى اللواء عبد الرحمن عارف [47] ، رئيس أركان الجيش وشقيق الرئيس عبد السلام، الذي كان شخصًا طيبًا، لكنه ضعيف لتولّي منصب الرئاسة في تلك الأوضاع الحرجة، على الرغم من أنه كان أحد قادة الضباط الأحرار الذين حققوا ثورة 14 تموز، والحقيقة أنه انتمى إلى حركة الضباط الأحرار قبل أخيه عبد السلام.

كان القوميون والبعثيون يؤلفون الأغلبية النشطة في الشارع العراقي آنذاك، كما كان للجيش وقادته مكانة رفيعة في قلوب العراقيين للتضحيات التي تقدّمها قواتهم المسلحة حفاظًا على وحدة البلد وأمنه.

أصبح مقرّ الأنصاريّ في فندق الخيام قبلة لقادة الجيش وكبار الضباط الذين توافدوا للتباحث وتبادل الآراء لاختيار الشخصيات المقترحة للمجلس الذي سيتولى المسؤولية الموقتة لإدارة البلاد. وفي عصر ذلك اليوم توصلوا إلى قائمة الأسماء المقترحة للمجلس، وكانت تضمّ ممثِّلين عن القوى القومية والوطنية التي لها سمعة وقبولٌ من مجموع فئات الشعب، فمن البعثيين كان أحمد حسن البكر وصالح مهدي عماش وحردان التكريتي، ومن

القوميين طاهر يحيى وعبد الرحمن البزاز وشخصيات عروبية أخرى، وضمت ممثِّلين عن الأكراد وشخصيات وطنية أخرى، ورُشّح البكر لرئاسة المجلس، وطلبوا من الأنصاريّ أن يقوم بمفاتحته بهذا الشأن.

كان منزل أحمد حسن البكر يقع في منطقة علي الصالح في جانب الكرخ من مدينة بغداد، وكان البكر مجتمعًا بأعضاء قيادة الحزب، لكن عند وصولنا إلى منزله لم نشاهد أحدًا منهم، فاجتمعنا به في غرفة الجلوس، وطرح عليه الأنصاريّ الفكرة المقترحة للمجلس الموقت، والأسباب التي دعتهم إلى ذلك، والأسماء المقترحة لأعضائه، وكان البكر يصغي بتركيز شديد وعندما أنهى الأنصاريّ كلامه قال البكر: «أبا عماد كيف تريدني ورفاقي أن نكون في مجلس يضمّ شخصًا مثل الفريق طاهر يحيى الذي يدعو جهارًا إلى إلغاء قانون رقم 80 الذي انتزع به عبد الكريم قاسم الأرض العراقية غير المستغلّة من أيدي شركات النفط؟ هل تريدنا أن نفعل ذلك كي يترحم الناس على كريم قاسم ويلعنوننا علنًا في الشوارع؟». لم أستطع إلا التدخّل. فقلت: «سيدي أرجوك أن توافق، وبعدها لكل حادث حديث»، واستمرّت المناقشة ساعة أخرى ختمها البكر بقوله: «تعلمون يا أبا عماد أننا حزب، ولنا قيادة هي المخوّلة بالقرار. سأستشير رفاقي وسيصلكم ردنا لاحقًا. وأشكركم باسم القيادة على حسن ظنكم بنا».

جلسنا في غرفة العقيد سعيد صليبي، آمر الانضباط العسكري في ثكنة وزارة الدفاع، حيث كان الأنصاريّ وسعيد صليبي وآخرون يضعون اللمسات الأخيرة لقائمة المرشحين للمجلس، عندما دخل المقدّم الركن إبراهيم الداود، آمر لواء الحرس الجمهوري، والنقيب ماجد عبد الرزاق من أقرباء الرئيس عارف، واطلعا على القائمة المقترحة لأعضاء المجلس، فاعترض المقدّم إبراهيم الداود وقال: «ما هذا؟ إن معظمهم من البعثيين». فوقفت قبالته على الفور وقلت له زاجرًا: «ماذا تعني بذلك؟ أليس البعثيون جزءًا من هذا البلد؟». فتراجع الداود توًا وقال: «أنا لا أقصد سوءًا بأحد، ولا مانع لدينا من ذلك»، وكان يقصد الحرس الجمهوري، فيما النقيب ماجد عبد الرزاق قريب الرئيس يقف إلى جانبه ووجهه مصفر، ونظرات لئيمة تكاد تطفر من عينيه، فهمست في أذن العمّ: «لنعتقلهما الآن، فإنهما سيكونان خطرين، إن عادا إلى وحداتهما بالحرس الجمهوري»، لكنه رفض، إذ لم يكن يريد اعتقال أحد.

في مساء ذلك اليوم هبطت طائرة خاصّة في مطار بغداد آتية من القاهرة، تقلّ المشير عبد الحكيم عامر، نائب الرئيس جمال عبد الناصر،

وأجرى على الفور مقابلات مع عبد الرحمن البزاز [48] وعبد العزيز العقيلي واللواء عبد الرحمن عارف، كلٌّ على انفراد. وفي المساء نفسه وصلنا موفد البكر، وهو يحمل موافقته وقيادة الحزب على التشكيلة المقترحة للمجلس.

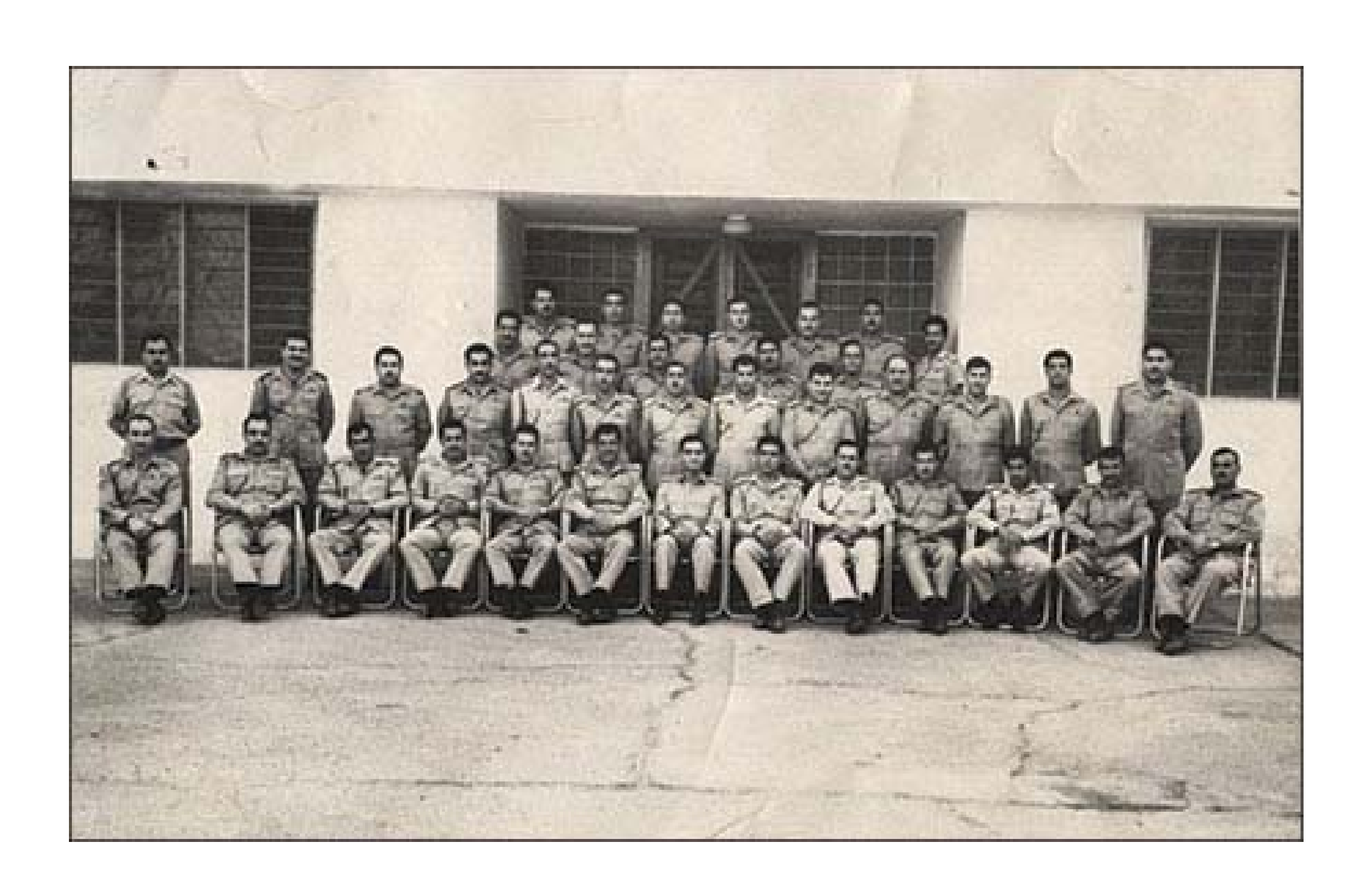
صباح اليوم التالي غيّر قادة الجيش مواقفهم، واحدًا في إثر الآخر فاقترحوا اجتماع مجلس الدفاع الأعلى لانتخاب رئيسٍ للجمهورية، وكان واضحًا أن اجتماعات المشير عامر لم تكن بعيدة عن ذلك.

عُقد اجتماع وترشّحت للرئاسة أسماءٌ ثلاثة، البزاز والعقيلي وعبد الرحمن عارف، واعتمدوا التصويت عندما لم يُجمعوا على اختيار واحد منهم، فانسحب العقيلي غاضبًا عندما لم يحصل إلا على صوته فقط في الجولة الأولى من التصويت. وفي الجولة الثانية تساوت الأصوات بين عارف والبزاز، فآثر الأخير الانسحاب قائلًا: «إنني لا أريد إحداث انقسام أو مشكلات، وسأتنازل على الرغم من أنني الأكفأ لتولّي هذا المنصب». وكوفئ بإعادة تعيينه رئيسًا للوزراء في عهد جديد تميز بالانفتاح والليبرالية، واستمرار القتال في شمال الوطن، وبهزيمة الأمة في حرب الأيام الستة في عام 1967.

في خريف عام 1966 دخلتُ كلية الأركان، وفي خريف عام 1967 تسلّم اللواء الأنصاريّ منصب رئاسة الأركان بعد هزيمة القوات العربية في حرب الأيام الستة، في محاولة لامتصاص فورة الغضب والمرارة عند أبناء القوات المسلحة وضمائرهم، كما تضاعف نشاط وفاعليات الحزب الذي رفض وجماهيره هزيمة حزيران/يونيو، وارتفع سقف مطاليبه وشعاراته لاستلام السلطة وقيادة البلاد في هذه المرحلة الحرجة من حياة الأمة، وبدأت قيادته بالتخطيط الجادّ لتحقيق ذلك.

الصورة (2 - 1)

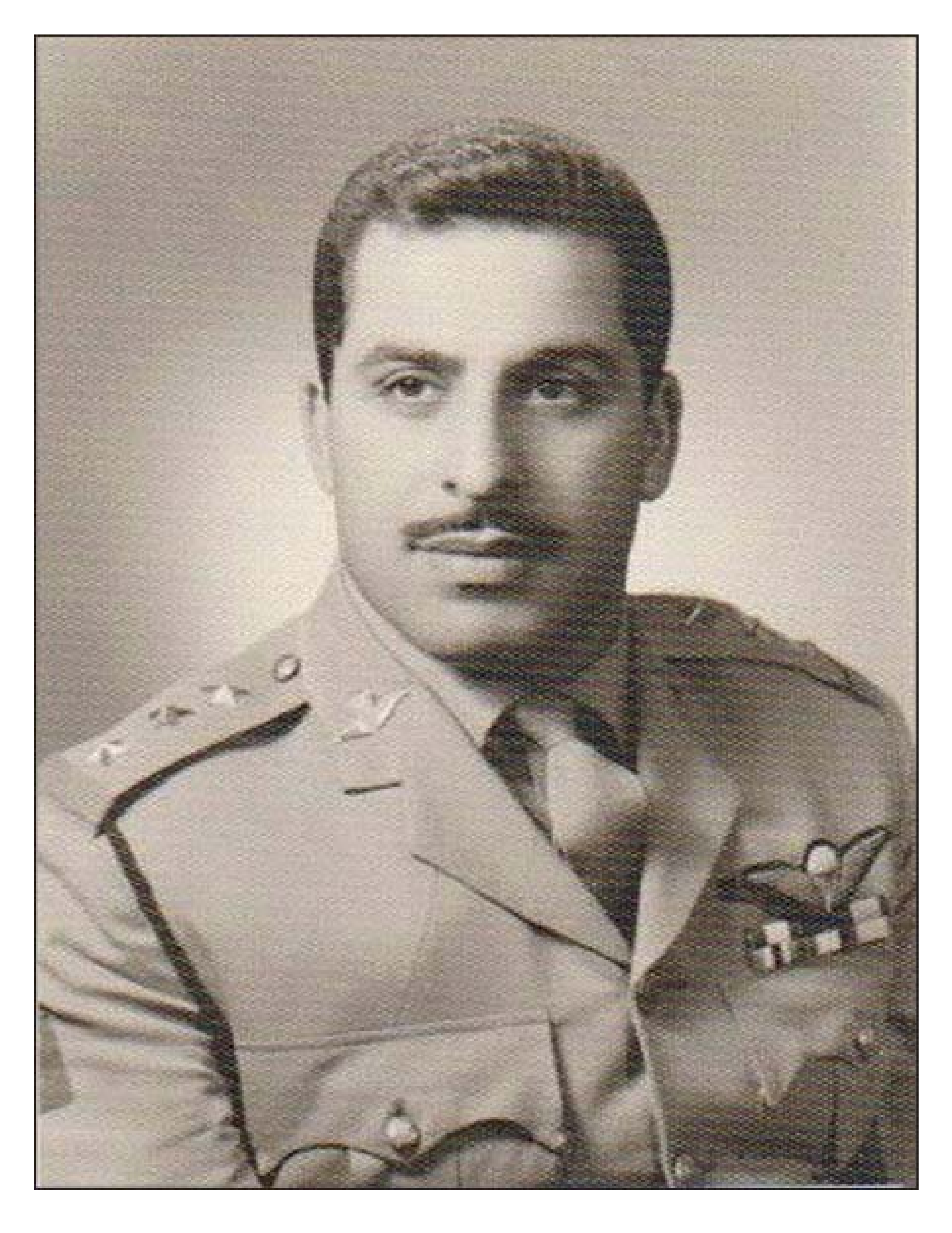
في كلية الأركان 1966 (الصف الأمامي، الرابع من اليسار)



في بداية عام 1968 طرحت قيادة الحزب على كوادرها العسكرية اقتراحًا طلبت رأيها فيه، ومفاده تأييد تنفيذ انقلاب عسكري أو رفضه، بتنسيق مع جهات عسكرية مستقلّة تشغل مفاصل حساسة في القوات المسلحة من دون التطرق إلى اسمها، لضمان ما دعته انقلابًا أبيض. وكان صدام حسين نائب أمين سرّ الحزب، وراء هذه الفكرة كما عرفنا لاحقًا.

الصورة (2 - 2)

طالب في كلية الأركان



قُبيل التخرّج في كلية الأركان في حزيران/يونيو 1968 أرسل الرفيق البكر أحد الرفاق ليبلغني أن الحزب يريدني أن أعود إلى وحدتي القديمة، أي الفوج المظلي الموجود في معسكر الرشيد بعد تخرجي، أو إلى اللواء المدرع العاشر الموجود في معسكر تكريت ويقوده العقيد حماد شهاب، في محاولة لتجميع أكثر عدد من الضباط البعثيين في الوحدات والتشكيلات الضاربة في

بغداد أو بالقرب منها. ذهبتُ إلى الأنصاريّ (رئيس أركان الجيش) لأطلب منه ذلك ففاجأني برفضه قائلًا: «عليك أن تتدرّج في مناصب الركن بعد تخرجك كي تكتسب الخبرة والمهارة الضروريتين لضابط طموح مثلك. وإن القفز على المراحل يضر بمستقبلك المهني على الرغم من الفوائد الآنية التي تحصل عليها. سأنسّبك لتعمل في لواء مدرّع تحت التشكيل، ومنه ستكتسب المعرفة والخبرة الضروريتين لكل ضابط ركن وآمر ناجح». قرّر تنسيبي ضابط ركن الحركات في اللواء المدرع 12 الذي كان تحت التشكيل في مدينة البصرة التي تبعد 500 كلم عن بغداد.

التحقت باللواء المدرع 12 مع زملائي من المتخرجين الجدد، ومنهم النقيب الركن صلاح عسكر والنقيب الركن عبد العزيز الخطيب. استقبلنا الرائد الركن عامر الحمداني مقدّم اللواء وقدّمنا إلى آمر اللواء العقيد إسماعيل العفري فرحّب بنا خصوصًا بعدما عرف أنني ابن أخي الأنصاريّ. أخبره بذلك الرائد عامر الحمداني مقدّم اللواء، فقال: «سنستفيد منك لإكمال نواقص اللواء مع عمك الأنصاريّ».

الصورة (2 - 3)

اللواء الأنصاري مع الرئيس الراحل جمال عبد الناصر

ويظهر في الصورة المشير محمد فوزي



X ولد فؤاد الركابي في مدينة الناصرية جنوب العراق في عام 1931. وتخرّج في كلية الهندسة في بغداد، وهو أول أمين سر للقيادة القطرية لحزب البعث في العراق. عيِّن وزيرًا للأشغال والبلديات بعد ثورة 14 تموز/يوليو 1958، لكنه استقال مع بقية الوزراء القوميين لانحراف عبد الكريم قاسم عن مبادئ الثورة، وانفراده بالحكم. هرب إلى سورية في شباط/فبراير 1959 بعد محاولة اغتيال قاسم لدوره في التخطيط له وحكم عليه بالإعدام. اختلف مع قيادة الحزب وفُصل منه، وفي عام 1964 عيِّن وزيرًا في عهد الرئيس عبد السلام عارف، واستقال في عام 1965. ساهم في تشكيل الحركة الاشتراكية العربية، واعتُقل بعد قيام ثورة 17 تموز/يوليو 1968. قُتل قبل انتهاء محكوميته بأسبوعين في السجن طعنًا بالسكين.

X يقع معسكر الرشيد في النهاية الجنوبية لمدينة بغداد، ويعتبر المعسكر الرئيس للقوات المسلحة، وأكبرها، وتوجد فيه قاعدة الرشيد الجوية، ومعظم المؤسسات الإدارية والفنية ومستشفى الرشيد العسكري، وبمحاذاته إلى الشرق معسكر الرستمية الذي تقع فيه الكلية العسكرية وكلية الأركان.

X معسكر أبو غريب يقع في النهاية الغربية لبغداد، وفيـه مدرسة الدروع وبعض الوحدات المدرعة.

X الحرس القومي ميليشيا الحزب، له دور فاعل في ثورة 8 شباط، وبعد نجاحها انضمّ إليه كثيرون من الانتهازيين فأساء التصرف تجاه المواطنين، وضباط القوات المسلحة، وفي «الردة التشرينية» تم تجريده من السلاح وزُج بعدد من منتسبيه في السجون، وتولى قيادته في أثناء حكم الحزب النقيب الطيار منذر الونداوي.

X تبدأ تنظيمات الحزب بالأنصار، ويكون أحد أعضاء الحزب مسؤولًا عن مجموعة من الأنصار، وكل 3 إلى 7 من الأعضاء يؤلفون خلية أو حلقة يكون مسؤولًا عنها أحد أعضاء الفرق، وكل 3 إلى 7 أعضاء فرق يؤلفون فرقة ويكون مسؤولًا عنهم عضو قيادة شعبة، وكل 3 إلى 7 أعضاء شِعب يؤلفون شعبة، ويكون مسؤولًا عنهم عضو قيادة فرع، ومن مجموعة الفروع تؤلَّف القيادة القطرية التي يُنتخب أعضاؤها في المؤتمر القُطريّ للحزب الذي يُعقد كل أربع سنوات.

X القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي تُنتخب في المؤتمر القومي الذي يحضره ممثلو كافة قيادات الحزب في أرجاء الوطن العربي والعالم. وتُنتخب القيادة القومية وهي أعلى سلطة في الحزب مرة كل أربع

سنوات إذا ساعدت الأوضاع الأمنية والسياسية في ذلك.

X المكتب العسكري أعلى تنظيم للعسكريين في قواطع القيادات العسكرية في أثناء العمل السري للحزب، ويعيَّن أعضاء المكتب من جانب قيادة الحزب، ولا يشاركون في الانتخابات في مؤتمرات الحزب على الرغم من حضور ممثلين عنهم.

X العميد الطيار عارف عبد الرزاق رئيس التكتل القومي للضباط، ومنهم صبحي عبد الحميد ويونس عطارباشي وهادي خماس وعرفان وجدي، ومجموعة أخرى من الضباط، ومعظمهم من العناصر الكفيّة والبارزة في القوات المسلحة.

X ولد الملا مصطفى البرزاني في قضاء الزيبار في شمال العراق عام 1903، ويُعتبر الأب الروحي للحركة الانفصالية الكردية في العراق. قاد مع أخيه الأكبر الشيخ أحمد حركة مسلحة في عام 1935، وبعد فشلها نُفي إلى مدينة السليمانية، فهرب منها في عام 1942. قاد في عام 1944 حركة مسلحة أخرى، وهرب بعد فشلها إلى إيران، حيث ساهم في تأسيس جمهورية مهاباد الكردية في المناطق الكردية من إيران. بعد القضاء على جمهوريته هرب إلى الاتحاد السوفياتي مع 500 من أعوانه، ومُنح فيه رتبة جنرال. عاد إلى العراق بعد ثورة تموز 1958، وفي عام 1961 قاد حركة مسلحة ضد عبد الكريم قاسم، لكنه في عام 1964 عقد اتفاقًا مع الحكومة العراقية في عهد الرئيس عبد السلام عارف، حصل به على الحقوق الثقافية للأكراد وساهم في الحكومة، حتى قاتلها مرة أخرى. بعد مجيء البعثيين تم الاتفاق على منح الأكراد الحكم الذاتي، ولم يدم هذا الاتفاق طويلًا، فنشب صراع مسلّح انتهى بهروبه بعد اتفاق الشاه والعراق في الجزائر في عام 1975، ففرّ إلى خارج العراق، وتوفي في الولايات المتحدة الأميركية في عام 1979.

X ولد اللواء الركن عبد العزيز العقيلي في مدينة الموصل في عام 1919، وكان من الضباط الأكفياء والمتميِّزين، وكانت توجهاته قومية. اعتُقل بعد فشل ثورة الشواف في الموصل في عام 1959، وعُرف بصلابته وعناده. تولّى وزارة الدفاع في عهد الرئيس عبد السلام عارف، وبعد وفاة الرئيس عُقد اجتماع مجلس الدفاع الأعلى لانتخاب رئيس للجمهورية ورشّح العقيلي نفسه، فلم يحصل إلا على صوته في الانتخابات التي جرت بين أعضاء المجلس. واعتقل في عهد الحكم البعثي وتعرّض للتعذيب. توفي في عام 1981.

X ولد الرئيس عبد الرحمن عارف ببغداد في عام 1916، ودخل الكلية

العسكرية في عام 1936. شارك في حركة مايس 1941 ثم انخرط في صفوف الضباط الأحرار في أيامها الأولى، وشارك في ثورة تموز 1958. أحيل على التقاعد في عام 1962، وفي عام 1963 أصبح رئيسًا لأركان الجيش، وانتخبه مجلس الدفاع الأعلى رئيسًا للجمهورية بعد وفاة أخيه عبد السلام عارف في حادث طائرة سمتية. تميز عهده بالانفتاح وأطاحه البعثيون في 17 تموز/يوليو 1968 فغادر إلى تركيا ثم عاد، واستقر بالعراق، وغادره ثانية إلى عمان بالأردن بعد الاحتلال الأميركي في عام 2003. توفي في عمان عام 2007، ودفن في «مقبرة شهداء الجيش العراقي في فلسطين» الواقعة في المفرق.

X ولد عبد الرحمن عبد اللطيف البزاز في بغداد عام 1913، وأكمل فيها دراسته الإعدادية. دخل كلية الحقوق، وأكمل دراساته العليا في لندن. تولّى عمادة كلية الحقوق، وفي ثورة 14 تموز عُين سفيرًا للعراق في الجمهورية العربية المتحدة، واستقال وبقي في القاهرة بعد انحراف عبد الكريم قاسم وتفرده بالحكم. عاد إلى العراق بعد ثورة شباط 1963، وتولّى عددًا من المناصب الوزارية ورئاسة الوزراء لمرتين في عامي 1965 و1966. اعتُقل في عهد البعثيين، وعُذب في سجنه وتوفي نتيجة تدهور صحته بسبب السجن والتعذيب في بغداد في حزيران/يونيو عام 1973. ويُعد الدكتور البزاز من القوميين الملتزمين ومن المؤمنين بالديمقراطية، وكان عهد استيزاره مثلًا لهذا.

الفصل الثالث: 17 تموز/يوليو 1968 واستلام البعث السلطة

بدأت إذاعة بغداد صباح 17 تموز/يوليو بإذاعة بيانات الثورة، وكنت مع ضباط اللواء في مقرّنا نتابع بياناتها المتتابعة. وكان بيان إحالة الأنصاريّ رئيس أركان الجيش على التقاعد يتصدرها.

كان الأنصاريّ في زيارة على رأس وفد عسكري، استجابة لدعوة من القيادة العسكرية المصرية لحضور مناورات وتدريبات كانت تجريها القوات المصرية بإشراف الرئيس عبد الناصر، بعدما تولّى شخصيًّا إعادة بناء القوات المسلحة بعد هزيمة 5 حزيران/يونيو وتهيئتها لحرب جديدة. أخبرنا الأنصاريّ بعد عودته أنه أبدى عددًا من الملحوظات والمقترحات للقادة المصريين ومستشاريهم الروس عن المناورات التي شاهدها، وأن الرئيس عبد الناصر طلب من قادة الجيش أخذها بالاعتبار في إعداد تمارينهم ومناوراتهم المقبلة. وعندما عرف الرئيس عبد الناصر بأنه أحيل على التقاعد طلب منه البقاء والعمل معه مستشارًا عسكريًا، لكنه اعتذر عن قبول ذلك وقرر العودة إلى بلده.

اتفق الحزب مع المقدّم الركن عبد الرزاق النايف، معاون مدير الاستخبارات والرجل القوي فيها، ومع المقدّم الركن إبراهيم عبد الرحمن الداود، آمر لواء الحرس الجمهوري المكلف بحماية الرئيس مع قادة الحزب، ومنهم البكر بالذات وصدام، على تغيير الوضع القائم بثورة بيضاء، وتقاسم السلطة بين الحزب وبينهما، فكان البكر رئيسًا للجمهورية والنايف رئيسًا للوزراء والداود وزيرًا للدفاع. وفي 30 تموز/يوليو، بعد أسبوعين من الثورة، أقلعت طائرة عسكرية خاصّة من القاعدة الجوية في بغداد تقل مجموعة من العسكريين البعثيين مزوّدين بأوامر محدّدة من صدام حسين، نائب أمين سرّ الحزب شخصيًا. حطت الطائرة في مطار عسكري أردني، وانطلقت المجموعة إلى مقرّ الفرقة الثالثة المدرعة العراقية الموجودة في الأردن منذ حرب حزيران/يونيو، واعتقلت وزير الدفاع عبد الرحمن الداود الذي كان في جولة تفتيشية للقوات العراقية في الأردن. وفي الوقت نفسه استدعي عبد الرزاق النايف لمقابلة الرئيس البكر، وبينما كان جالسًا في غرفة أخرى بعد تناول الغداء مع الرئيس، اقتحم صدام حسين الغرفة شاهرًا مسدسه وصرخ به أن يسلّم سلاحه وأنه قيد الاعتقال، ووضعه تحت حراسة مجموعة من

الشبان البعثيين يرئسهم شقيقه برزان التكريتي، ثم أخبر الرئيس البكر الذي كان ينتظر في الغرفة المجاورة أن السلطة قد أصبحت بأكملها في أيدينا.

في اليوم التالي جاء الفريق حردان التكريتي وزير الدفاع، وحماد شهاب آمر موقع بغداد إلى بيت اللواء الأنصاريّ وأبلغاه رغبة الرئيس البكر في عودته إلى منصبه السابق. ولمّا تردد في قبول العرض أخذاه لمقابلة الرئيس البكر الذي استقبله مهلّلًا «أهلًا أهلًا أبو عماد، لا تقل شيئًا، فقد كنا مُجبرين على ذلك لإصرار النايف والداود، والآن وقد انتهينا منهما نريد منك العودة والعمل معنا»، ولمّا رأى بأنه ما زال متردِّدًا ألح وأكَّد أنهم والوطن والقوات المسلحة في حاجة إليه، وختم كلامه: «كم لواء إبراهيم عندنا؟».

كانت معاناتي وألمي كبيرين، وكنت في حالة صعبة بين الولاء للحزب الذي أنتمي إليه إيمانًا بمبادئه وقيمه، وبين ما فعله رجال الحزب برجل أحبهم وقدّرهم وحمى خيرة شبانهم وضباطهم في أصعب الأوضاع التي مروا بها، الرجل الذي أعرف أنه بريء من ادعاءاتهم بتآمره والانقلاب عليهم، وأنه يقبع وراء القضبان وأني ابن أخيه والبعثي القديم أُمنع من مقابلته بأسلوب فج من الجزراوي وأمثاله. وكنت أعيش أيامًا صعبة لعجزي عن مساعدة بريء عزيز. كنا نجلس في غرفة جلوس الطبقة الثانية من دار العمّ اللواء إبراهيم فيصل الأنصاريّ (رئيس أركان الجيش) ظهر يوم دافئ من تشرين الثاني/نوفمبر 1968 ونتبادل الحديث عن انفراج الأزمة التي أعقبت تقديم استقالته من منصبه إلى الرئيس أحمد حسن البكر [49] رئيس الجمهورية، في إثر صدور إجراءات نقل عدد من كبار ضباط القوات المسلحة من دون موافقته أو علمه بذلك، فلازم الأنصاريّ بيته وتوقف عن الذهاب إلى مقرّه في وزارة الدفاع في الأيام التي أعقبت تقديم استقالته.

كان يخبرنا كيف عاد عن قرار استقالته بعد مقابلته الرئيس البكر الذي أرسل أحد كبار الضباط لحضور الاجتماع الذي سيُناقش فيه طلب الاستقالة. قال الأنصاري: «وصلت الاجتماع متأخرًا، وكان الرئيس البكر يجلس في منتصف الطاولة التي تتوسط قاعة الاجتماع، وعلى جانبيه يجلس أعضاء قيادة الحزب والثورة. نهض الرئيس البكر مرحبًا وجلب كرسيًا، وأجلسني إلى جانبه وقال: كيف يمكنك أن تتركنا يا أبا عماد، ومن يقود القوات المسلحة ويطوّرها؟ أجابه الأنصاريّ: سيادة الرئيس عندما أعدتموني إلى رئاسة أركان الجيش بعد أن أحلتموني على التقاعد في أول أيام الثورة كنت واضحًا معكم، فقد كان طلبي الوحيد أن تتركوا لي حرية العمل لما فيه مصلحة

البلد والقوات المسلحة، ووافقتم على إسنادي ومساعدتي على ذلك، وذكرتم أنه أحد أهدافكم الرئيسة بعد هزيمة الأمة في حرب حزيران/يونيو. لكنكم من دون علمي أو استشارتي تُصدرون الأوامر بإجراء تنقلات لضباط القوات المسلحة سيؤدي تنفيذها إلى إضعافها وإرباكها، كما سيهز ثقة الضباط برئيس أركان جيشهم. وإني لست على استعداد لذلك. كما تعلمون سيادة الرئيس إن ذلك من صلب اختصاصي وصلاحيتي، ولن أنوي التخلي عنهما، فإما أن تضعوا ثقتكم بي فأبقى لأعمل بكامل صلاحيتي وإما لا وعندها خير لي ولكم قبول استقالتي، وأن تتيحوا لي فرصةً للراحة بعد خدمتي الطويلة في القوات المسلحة».

كان الرئيس البكر يومئ برأسه مؤيدًا ما يقوله الأنصاريّ. وقال: «لواء إبراهيم أرجو أن تتفهم موقفنا، وسأكون معك واضحًا وصريحًا. عندما قمنا بثورة شباط/فبراير 1963 وجئنا بعبد السلام عارف رئيسًا فاتنا أن نبعد العناصر المناهضة لنا من القوات المسلحة، أو أن نُبعدها على الأقل من بغداد ومن تشكيلات الجيش الضاربة، الأمر الذي مكّنها من الانقضاض علينا وإطاحتنا بعد أن تجمّعت وتكتلت حول عبد السلام عارف. حسنًا، يقولون إن المؤمن لا يُلدغ من جحر مرتين، ولذلك فإن ما نجريه من نقل بعضهم وإبعاد آخرين من الضباط هو لحمايتنا والثورة من لدغة أخرى، وأعتقد بأنك توافقني على حقنا في هذا، أليس كذلك؟». «سيادة الرئيس»، أجابه الأنصاريّ، «لا أشك لحظة واحدة في أن من حقكم المحافظة على ما قمتم به. لكن بإخباري والتفاهم والتنسيق معي، وإجرائها من دون الضرر بي أو بالقوات المسلحة». قال الرئيس البكر: «نعدك من الآن أن لا نجري أي تنقلات أخرى من دون إعلامك والتنسيق معك، وأريد منك الآن أن تسحب استقالتك، وأن تعود إلى مكانك الطبيعي في رئاسة أركان الجيش متمتعًا بثقتي والرفاق في القيادة. عد متوكلًا على الله لنعمل معًا لما فيه خير البلد وقواته المسلحة».

استأنف الأنصاريّ القول: «خرجت بعد أن وافقت على سحب استقالتي، وأقول يا نزار بأني سأعمل معهم ما أستطيعه بعدما أظهره الرئيس البكر من تفهّم للقوات المسلحة وإخلاص لهذا البلد. وأخيرًا فالقوات المسلحة ليست لهذا النظام أو ذاك بل هي للوطن كله». وتوقف قليلًا ثم نظر إلي وقال وعلامات التأثر بادية على وجهه: «أتعلم كم أثّر فيَّ الرئيس البكر عندما قام بنفسه وجلب كرسيًّا وأجلسني إلى جانبه؟ شعرت حينذاك بأنني مستعد أن أعمل كل ما أقدر عليه مع هذا الرجل المتواضع النبيل. تصور

أنه يجلب لي الكرسي بيده. أنا الذي نويت أن أتركهم غاضبًا في أوضاع هم فيها بأشد الحاجة إليّ وإلى أمثالي ممن يعملون لبناء الوطن». كنت سعيدًا وفرحًا أن يحمل الأنصاريّ الذي أعرف مدى صدقه بما يقوله والتزامه كل تلك المشاعر الفياضة بالمحبة والولاء للرئيس البكر، والاستعداد للعمل للثورة وقيادتها لما فيه خير البلد وقواته المسلحة، فقد كنا بأمسّ الحاجة إلى هذا الرجل وأمثاله.

كان المذياع يبث برامجه المعتادة. وفجأة بدأ بثّ موسيقى حماسية وأناشيد وطنية انطلق بعدها صوت المذيع يعلن عن بيان صادر عن مجلس قيادة الثورة جاء فيه: قرّر مجلس قيادة الثورة إعفاء اللواء الركن إبراهيم فيصل الأنصاريّ رئيس أركان الجيش من منصبه، وإحالته على التقاعد. تلاه بيان آخر يعلن فيه ترقية العقيد حماد شهاب [50] عضو مجلس قيادة الثورة إلى رتبة لواء، وتعيينه رئيسًا لأركان الجيش. نظرت إليه، وكانت علامات الدهشة والتعجب تغطي وجهه، وردَّد بصوت أجش: «ما هذا؟ ما الذي حصل؟ البارحة فقط كنت بينهم، فإذا كان هذا ما يريدونه، فلماذا لم يقولوها؟ ولماذا الإذاعة والموسيقى والأناشيد؟».

سكت لفترة وجيزة ثم قال متوجسًا: «إسمع، هناك شيء ما أُذيع، وليس كل ما ينوونه. الأسوأ يمكن أن يحدث»، وكرّر: «الأسوأ من هذا بكثير». لم ينتظر مني جوابًا أو تعليقًا واستأنف القول: «كنت أحدثك منذ دقائق فقط عن مدى إعجابي بالرجل النبيل (يقصد الرئيس البكر)، واستعدادي للعمل معه إلى أبعد الحدود، فكيف يعمل معي هذا؟ هذا ما لا أفهمه. كان يمكنه ببساطة أن يقبل استقالتي، بل كان يمكنه رفضها وإقالتي فهذا من صلاحيّاته، لكن أن يبدي لي كل تلك المشاعر والاعتزاز والثقة ليلة أمس، ويلحّ عليّ راجيًا أن أسحب استقالتي، ليأتي اليوم ويُحيلني على التقاعد ببيانٍ من مجلس قيادة الثورة الذي هو رئيسه وفي الإذاعة ومع الموسيقى والأناشيد؟ هذا ما لا أفهمه».

كانت مشاعر الغضب والألم والتوجّس تطغى على صوته، وتكسو ملامح وجهه. كنت صامتًا لا أجد ما أقوله، وأفكار قاتمة تدور في ذهني «إقالته... الإذاعة ... بيانات مجلس قيادة الثورة... أناشيد... وموسيقى عسكرية...» كل ذلك يعني أن وراء الأكمة ما وراءها، لن يكتفوا بما حدث والأسوأ مقبل، فالجماعة ما زالوا تحت هاجس ما حدث بعد قيام ثورة رمضان.

جاء والدي مسرعًا وبعض الأقارب برفقته، فيما الوجوم يلفّ جوّ قاعة الجلوس. سأله الوالد إن حدث شيء يوجب كل ذلك؟ فأكد العمّ بأن شيئًا

من ذلك لم يحدث عدا موضوع استقالته التي رفضها الرئيس بحضور أعضاء القيادة، وأبدى اعتزازه به وإصراره على سحبها والعودة إلى منصبه. خرجت لأكون وحدي وأستعيد ما حدث وتناقضاته محاولًا فهم ما جرى وما سيجري، وما سيتبع من حوادث وتطورات؟

لم تُضيّع «الجماعة» وقتها، فخارج البيت وعلى مسافة غير بعيدة كانت مجموعة من الأشخاص بملابس مدنية تقف قرب سيارتها، ولم يهتم هؤلاء الناس بإخفاء أسلحتهم. كان من الواضح أنهم من رجال دائرة العلاقات العامة [51] ، فعدت إلى الداخل وأخبرتهم. وتلقى العمّ الخبر كمن كان يتوقعه. تركتهم وخرجت مرة أخرى، وأنظار رجال العلاقات العامة تتابعني.

اتصلت بعدد من الأصدقاء والرفاق المقربين لعل لديهم أي معلومة، لكن الجميع كان متفاجئًا بالطريقة المثيرة التي أُخرج بها الخبر الذي فيه ملامح توحي بحدوث مؤامرة أو محاولة انقلاب عسكري. بعد يومين اقتحمت مجموعة من رجال العلاقات العامة منزل اللواء الأنصاريّ واعتقلته، وفتشت منزله، وأودعته معتقل «قصر النهاية»، كما جرت حملة اعتقالات لمجموعة من كبار الضباط المقربين منه، وبعض أصدقائه ومعارفه وابن عمّ لي، وجميعهم من المدنيين.

كنت آنذاك بعثيًا متحمسًا، ونقيبًا في القوات الخاصّة، تخرجت قبل بضعة أشهر فقط من كلية الأركان، وعُينت بعد قيام الثورة بمنصب معاون آمر الفوج الثاني قوات خاصّة، ومقرّه في معسكر الرشيد جنوب مدينة بغداد. كان معظم ضباط الفوج وضباط صفه من البعثيين أو المتعاطفين معهم، ويُعتبر من القطعات التي يعتمد عليها الحزب والثورة.

«ماذا أعمل؟ وإلى من أذهب؟ هل أذهب إلى وزير الدفاع الفريق الطيار حردان عبد الغفار التكريتي [52] الذي هو من أعزّ أصدقاء عمي، وقد عملا معًا في مدينة كركوك عندما كان التكريتي آمرًا للقاعدة الجوية فيها، والأنصاريّ رئيسًا لأركان الفرقة الثانية قبل أن يصبح قائدًا لها؟». كان الفريق حردان التكريتي حزبيًا بارزًا، وأصبح بعد قيام الثورة عضوًا في مجلس قيادتها كما عيّن وزيرًا للدفاع، هو وحماد شهاب والرئيس أحمد حسن البكر من أصروا على إعادة الأنصاريّ إلى الجيش، وإلى منصب رئيس أركان الجيش للمرة الثانية بعد إحالته على التقاعد أول مرة في أول أيام الثورة، لإصرار المقدّم الركن عبد الرزاق النايف [53] معاون مدير الاستخبارات الذي شاركهم في الثورة، وعيّن بمنصب رئيس الوزراء على إبعاده، وما لبث النايف أن نُحي بعد أسبوعين من قيامها. لم أكن أعرف

الفريق حردان جيدًا، ولم أكن أودّه أيضًا لمواقفه غير الملتزمة بالحزب، فهو الذي اصطفّ وآخرون من الحزبيين مع عبد السلام عارف رئيس الجمهورية في ضرب الحزب وإسقاطه عن السلطة في تشرين الثاني/نوفمبر 1963.

حرتُ؛ هل أذهب إليه أم إلى اللواء حماد شهاب عضو مجلس قيادة الثورة أيضًا وآمر اللواء العاشر المدرع الذي شارك لواؤه في الثورة ودخل بغداد بعد نجاحها، فعيِّن قائدًا لموقع بغداد قبل ترقيته إلى رتبة لواء ليحل محل الأنصاريّ في رئاسة أركان الجيش. كنت أعرفه معرفة وثيقة منذ أن كان آمر اللواء العاشر المدرع الذي كان بإمرة الفرقة الثانية في كركوك، وكان الأنصاريّ قائد هذه الفرقة، وكنت أنا مرافقه قبل دخولي كلية الأركان. كان حماد شهاب صديقًا ومقربًا للأنصاريّ الذي كان يودّه لعاداته العشائرية وبساطته، ويرعاه بشكلٍ خاصٍ. لذلك فضلت أن أقصده، فذهبت إلى رئاسة أركان الجيش طالبًا مقابلة رئيسها الجديد والصديق القديم.

دخلت عليه بعد أن أخبره مرافقه بأني جئت لمقابلته. أديت التحية وكان واقفًا أمام المنضدة الواسعة التي تحتلّ الجزء الشمالي من غرفة رئيس الأركان الفارهة. كان يحاول أن يرسم الجدية والحزم بل الغضب على وجهه، وبادرني قائلًا: «لماذا يتآمر علينا، وقد أعدناه إلى رئاسة أركان الجيش؟ كلنا كنا من محبيه وأصدقائه». فأجبته مستغربًا: «هل تعتقد حقًا يا سيدي أن اللواء الأنصاريّ كان يتآمر عليكم؟ ومع من؟ ولماذا؟». قال: «نعم، وقد اعتقل معه آخرون». قلت: «لكنك تعرفه، أليس كذلك؟». كان اللواء حماد دائمًا ممثلًا رديئًا، لذا اختفت علامات الحزم والغضب التي حاول رسمها على وجهه، وبدت عليه ملامح العجز والحيرة، وقال: «لكن لماذا اعتقلوه، وما علاقته بالآخرين الذين اعتقلوا؟». قلت مستغربًا: «هل تعني أنك لا تدري؟». قال: «هذا قرار الحزب، وأنت تعلم أنني لست في قيادته». قلت: «لكن قرار إعفائه من منصبه وإحالته على التقاعد كان بقرار من مجلس قيادة الثورة، وأنت عضو فيه». لم يجبني، ومرت فترة من الصمت، قطعتها أخيرًا بقولي: «أريد أن أراه».

نظر إليّ بحزن وألم، وقال: «أنا لا أستطيع ذلك، لكني سأرسلك إلى الرفيق النقيب طه الجزراوي المسؤول عن التنسيق بين قيادة الحزب ورئاسة أركان الجيش ووزارة الدفاع، فإنه من يستطيع تدبير ذلك». استدعى مرافقه وطلب منه مرافقتي لأرى النقيب الرفيق الجزراوي [54] الذي كان يشغل غرفة تقع في آخر الممرّ التابع لرئاسة أركان الجيش. دخلت الغرفة مع مرافق اللواء حماد، وكان عدد من الضباط واقفين في مجموعات يتهامسون

في ما بينهم وبأيديهم أوراق وقوائم. كنت أعرف بعضهم فقد كانوا من الضباط الحزبيين.

في صدر الغرفة منضدة صغيرة، يجلس خلفها ضابط يحمل رتبة لم يسبق لي أن رأيته، لكن ما استرعى نظري حجم رأسه الضخم ووجهه الأسمر بصفرة شاحبة وعينين متجهمتين تنطقان حقدًا وكراهية. شخص لا تملك إلا أن تكرهه من النظرة الأولى. أخبره مرافق الفريق حماد باسمي، وبأني مُرسل من جانب رئيس أركان الجيش. قال: «نعم ماذا تريد؟». لفظها بطريقة ونبرة كأنه يشتم. لعنتُ الشيطان، وكتمتُ غيظي وقلت: «اللواء الأنصاريّ اعتقِل وأريد رؤيته، واللواء حماد قال إنك يمكنك إخبار القيادة لترتيب ذلك». قال: «لا يستطيع أحد أن يراه حتى انتهاء التحقيق». قلت: «أرجو إخبار القيادة بأني أريد رؤيته». قال بنبرة من لا يريد مزيدًا من الكلام: «قلت إن أحدًا لن يراه قبل انتهاء التحقيق». فقلت محتدًا وبصوت عالٍ: «أليس من واجبك إخبارهم بما أريد؟». قال: «كلا». وأدار وجهه منهيًا النقاش.

كنت أفور غضبًا والدماء تتصاعد في رأسي، وفكرت أن أنهال عليه ضربًا، وسيطرت بصعوبة على مشاعري، إذ ينبغي ألا أزيد الطين بلة. وخرجت والغضب والإحباط يملآنني. كنت أحاول أن أجد من يعرف حقيقة ما جرى ولماذا؟ حماد شهاب عضو مجلس قيادة الثورة ورئيس أركان الجيش، والصديق المُحب والمقرّب للأنصاريّ لا يعرف. وكذلك الفريق حردان التكريتي وزير الدفاع وعضو مجلس قيادة الثورة والصديق العزيز أيضًا للأنصاريّ الذي قال لعائلة الأنصاريّ عندما استنجدت به أنه لا يعرف ولا يدري السبب. ذهبت إلى العميد سعدون غيدان وزير الداخلية وعضو مجلس قيادة الثورة، وهو من أصدقاء العمّ فأقسم أنه فوجئ مثلنا. أحد الأصدقاء القدامى من الرفاق همس لي: «إنه هو». قلت: «هو من؟». قال: «نائب أمين سرّ الحزب». قلت: «البيان صدر عن مجلس قيادة الثورة، وصدام ليس عضوًا فيه». قال: «هذا صحيح البيان صدر عن مجلس قيادة الثورة، لكن الذي وراءه والذي رتّبه وخطّه هو صدام حسين الذي يدير أيضًا مكتب العلاقات العامة. وعناصره هي التي نفّذت عملية الاعتقال، والمعتقلون ومنهم الأنصاريّ محجوزون في «قصر النهاية» بحراستهم وتحت إشرافهم».

لم أكن أعرف صدام حسين شخصيًّا. سمعتُ عنه، ولم أعمل معه، إذ لم يكن آنذاك معروفًا على نطاق واسع حتى من بعض البعثيين والعسكريين بشكل خاص، ولا سيما ممن يعملون في التشكيلات خارج بغداد، وأنا واحد

منهم. وعندما نُقلتُ إلى خارج العراق في الملحقية العسكرية في موسكو لم يكن عليّ سوى المغادرة، وأنا أعاني حزنًا وألمًا شديدين.

كان اللواء الركن المتقاعد وأحد كبار الضباط الأحرار محسن حسن الحبيب سفيرنا هناك، ويستعدُّ للمغادرة بعد نقله إلى موقعٍ آخر. التقيته لفترةٍ قصيرةٍ قبل مغادرته، وتأثَّرت بشخصيته الهادئة وأدبه الجمّ، وكان محبوبًا ومحترمًا من أوساط المجتمع الدبلوماسي العربي والأجنبي، وكانت علاقاته مميّزةً بكوادر وزارة الخارجية السوفياتية التي حضر كثيرون منها لوداعه في محطة القطار الرئيسة في موسكو.

وصل السفير الجديد السيد شاذل طاقة، الأديب والشاعر والكادر الحزبي المعروف، وقد استلم قيادة التنظيم الحزبي الذي كنت من أعضاء قيادته أنا والرفيقان عماد شبيب وكاظم جلوب معاونا الملحق الجوي. وكان التنظيم يغطي عموم الاتحاد السوفياتي، ويضمّ موظفين وطلبة عراقيين وعربًا من الدارسين في كلياته ومعاهده. بعد بضعة أشهر التحق بنا الرفيق فاضل البراك [55] معاونًا للملحق العسكري، وانضمّ على الفور إلى قيادة التنظيم الحزبي.

كان البراك في مطلع الثلاثين طويلًا نحيفًا وذا وجهٍ ريفي مُتعب يُظهره أكبر من عمره. ومنذ بداية تعارفنا تولّدت بيننا علاقة صداقة وثيقة، وتعمّقت مع مرور الأيام والسنين. كان من مواليد العوجة في تكريت، وهي مسقط رأس الرئيس البكر ونائبه صدام حسين. انضمّ إلى الحزب عندما كان صبيًّا يافعًا، وبعد إكماله دراسته الثانوية دخل الكلية العسكرية بتوجيه من الحزب (كان الحزب يحرص على إدخال أنصاره ومؤيديه الكليات العسكرية والجوية والشرطة). اعتقل مع أقرانه طلبة الكلية العسكرية من البعثيين بعد حوادث تشرين 1963، وبعد تخرجهم أحيلوا إلى العمل في وظائف مدنية متواضعة، وأعيدوا إلى الخدمة العسكرية في حرب حزيران/يونيو 1967، ونسبوا للعمل في الوحدات والمناطق النائية. كانت حصته القاعدة الجوية H3 الواقعة في عمق المنطقة الصحراوية القريبة من الحدود الأردنية. وفي فترة تقاعده كلّفه الحزب بالعمل والإشراف على تنظيمات ضباط الصف البعثيين الموجودين في الخدمة العسكرية والمحالين على التقاعد. وكان ارتباطه المباشر بالرفيق البكر أمين سرّ القطر وأمين سرّ المكتب العسكري، وبنائبه الرفيق صدام حسين نائب أمين القطر والمكتب العسكري أيضًا. وتوثّقت علاقته بهما وبآخرين من قادة الحزب وكوادره في فترة العمل السريّ في عهد الأخوين عارف، وأتيحت له فرصة الاطلاع على

تفاصيل الحياة الداخلية للحزب. عُيّن مرافقًا للرئيس البكر بعد انبثاق الثورة مباشرة، ولتخوُّف البكر من تأثير البراك في ولده البكر هيثم الذي توثقت علاقته به، ونتيجة أقاويل ووشايات نُقل إلى الملحقية العسكرية في موسكو.

كنّا نعمل معًا في دائرة الملحقية العسكرية نهارًا ونخرج معًا ليلًا. وفي ليالي شتاء موسكو الطويلة كنا نقضي الساعات في أحاديثنا عن الحزب ومسيرته في الماضي، وآمالنا له في المستقبل نناقش ونحلل ونعود إلى ذكريات أيام النضال السريّ بحلوها ومرها. وكانت للبراك ذاكرة مدهشة وقدرة على سرد تفاصيل حوادث قديمة، وكنت أصغي بشغف إلى تقويمه قادة الحزب وكوادره، بعدما عمل معهم وتعايش، وإلى ملحوظاته عنهم بالوقائع والحوادث. كان يحب الرئيس البكر ويقدّره على الرغم من ملابسات إبعاده، ويرى فيه إنسانًا نزيهًا ومخلصًا وعسكريًا أكثر منه حزبيًا على الرغم من انضباطه وتقيُّده بالحزب وأنظمته. ويعزو ذلك إلى انتمائه إلى الحزب في عمر متأخر، إذ انتسب إليه وهو برتبة عقيد بعد سجنه بتهمة التآمر على الزعيم عبد الكريم قاسم في الأشهر الأولى من ثورة 14 تموز.

كان البراك يرى في صدام حسين نموذج الإنسان والقائد البعثي، ويعتقد بأنه ضمانة للحزب ومبادئه. وكان قد أمضى بعض أيام طفولته مع صدام في قرية العوجة في تكريت، ويصغره ببضع سنين. ذكر لي أن صدّامًا كان يفرض زعامته على أصحابه، ومنهم من هو أكبر منه سنًّا برضاهم أو رغم أنوفهم. وذكر حادثة قيام الطالب صدام حسين بمحاولة قتل معلم اللغة الإنكليزية بإطلاق النار عليه وهو نائم في الغرفة الملحقة بالمدرسة التي كان يتخذها سكنًا له، بعد أن رسَّبه في الامتحان على الرغم من أن صدام حذّره من أنه سيقتله إن فعل ذلك. ومع أن المدرّس لم يُصب فإنه غادر تكريت والعراق بعدها عائدًا إلى بلاده. وذكر أيضًا كيف قتل قريبًا له كان شيوعيًا آذى أبناء بلدته وأقربائه بتحريضٍ من خاله الضابط المتقاعد خير الله طلفاح [56] . وأخبرني عن اشتراكه في محاولة اغتيال الزعيم عبد الكريم قاسم، وكان نصيرًا بالحزب ولم يكن قد أصبح عضوًا بعد، وعن تحمّله المسؤولية كاملة أمام هيئة التحقيق بعد إلقاء القبض عليه في إثر محاولة الانقلاب الفاشلة في 5/9/1964، وهروبه من السجن، ودوره الفاعل في إعادة بناء الحزب في عهد عبد السلام عارف، وتمكُّنه من جمع معظم أعضاء الحزب وكوادره خلف قيادته القومية، بعد انشقاق الحزب في عام 1966 وصراعه مع المنشقين القُطريين [57] . وقال إن فكرة قيام قيادة الحزب بكامل أعضائها باقتحام بوابة القصر الجمهوري يوم 17 تموز كانت

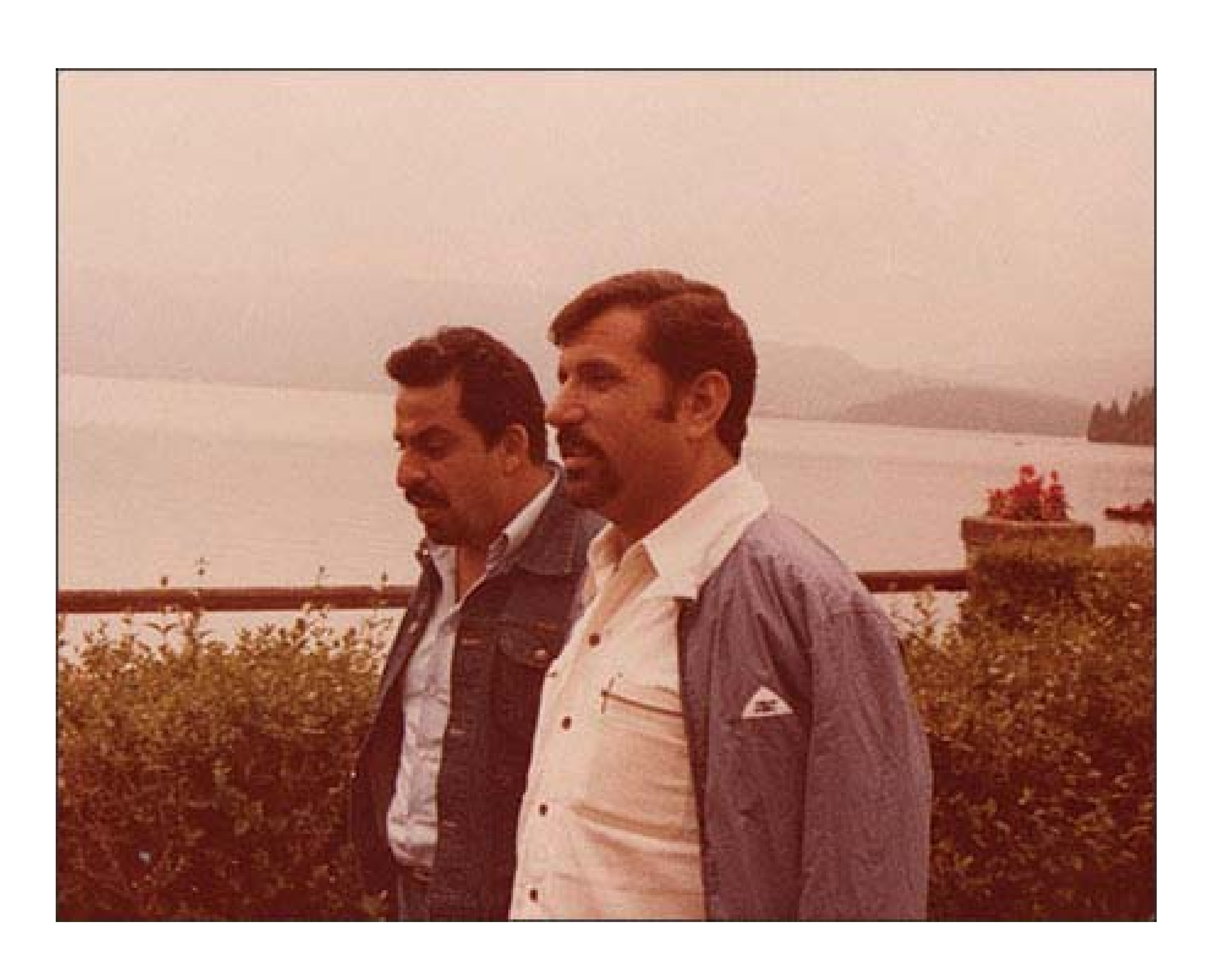
من بنات أفكاره تأكيدًا للمقولة الحزبية إن البعثي الحقيقي هو أول من يُضحي وآخر من ينتفع.

استرعى انتباهي والبراك يستذكر الحوادث غياب دور أعضاء قيادة الحزب الآخرين فيها، وكنت أسأله «وماذا عن الآخرين، فأين الرفيق صالح مهدي عماش [58] الضابط والقيادي البارز، وراهب الحزب ومفكره الرفيق عبد الخالق السامرائيّ [59] الذي نعرف قدراته وشجاعته، وأين الرفيق عبد الله سلوم [60] ، والشيخلي [61] ، وبقية قادة الحزب؟ أليسوا بمستوى صدام فكرًا ونضالًا حتى يتميز منهم بالكيفية التي ذكرتها، فإن كان الأمر كذلك يمكن معالجته بانتخاب قيادة جديدة بقدراتٍ وتأهيلٍ كافيين لقيادة الحزب والسلطة، أما أن تكون قرابته وتكتله مع قريبه البكر وهيمنته على المكتب العسكري وجهاز الاستخبارات هي ما جعلته قويًا ومتميزًا من أقرانه في القيادة، فهي نقاط تُعدُّ تمهيدًا لظهور زعامة فردية تنهي دور الحزب الذي ناضلنا من أجله وضحينا بأفضل أيام شبابنا».

كان البراك من الذين يرون أن شعوب العالم الثالث تحتاج إلى القائد النموذج والقدوة من دون أن يعني ذلك إلغاء دور الحزب وقياداته وكوادره، لكنني لم أقتنع. وكانت جلساتنا تستمر أحيانًا حتى انبثاق فجر اليوم التالي والبراك يقول دائمًا: «لا أستطيع إقناعك حتى تقابله يومًا، وفيه ستجد الجواب، وجاء ذلك اليوم».

الصورة (3 - 1)

مع فاضل البراك في ألمانيا الغربية عشية الحرب العراقية - الإيرانية



في شتاء 1971 قام صدام حسين بأول زيارة إلى بلد أجنبي، إذ وصل على رأس وفد حزبي وحكومي كبير إلى الاتحاد السوفياتي، وكان في استقباله والوفد المرافق كوسيغين رئيس الوزراء والعديد من أعضاء القيادة السوفياتية. هبطت الطائرة في مطار موسكو، نزل صدام حسين يتبعه عبد الخالق السامرائيّ عضو القيادة القومية للحزب، وعبد الكريم الشيخلي عضو القيادة ووزير الخارجية، والرفيقان محمد فاضل [62] ، وسعدون شاكر [63] من أعضاء القيادة وآخرون. كانت أول مرة التي أشاهده فيها، وكان يبدو وسيمًا وأنيقًا وأكثر ما يسترعي النظر فيه عيناه الواسعتان ونظراته النفاذة والثقة العالية بالنفس التي يُعبِّر عنها بمشيته وحركاته.

في اجتماعاته ومباحثاته مع الجانب السوفياتي نجح في كسب احترامهم بتصرفاته وأسلوب تعامله معهم، ومع رفاقه أعضاء الوفد المشاركين في المباحثات، إذ كان يحرص على أخذ رأيهم، وعرض وجهات نظرهم في المواضيع التي يجري التباحث فيها، الأمر الذي أشعر السوفيات بأنه لا وجود للرأي الواحد أو الفرد الواحد في القيادة العراقية للحزب، وأنها تمارس التشاور وتبادل الرأي في الأمور كافة، مع أسلوب ذكي وبارع في الحديث

من جانب الرفيق النائب. وكانت طريقته في الحركة كفيلة بإشعارهم في الوقت نفسه بأنه الرجل الأول فيهم وصاحب الرأي والقرار. وأذكر بأنه عندما اقترح تأجيل دفع قسط مالي مستحقٍ للجانب السوفياتي بضعة أشهر لحين تحسّن موقفنا المالي، تهامس السيد كوسيغين مع الوزير المختص الجالس إلى جانبه، ثم قال: «أنا آسف، فلا مجال للتأجيل، فقيمة القسط المذكور قد أُدرجت في الميزانية السنوية»، وهنا قام صدام بمدّ يديه كمن يريد أن يخلع سترته، وقال: «إنني أتفهم ذلك تمامًا، وسنسدِّد القسط في موعده ولو اضطررنا لبيع ملابسنا، ثم أعاد سترته إلى مكانها». كانت حصيلة الزيارة عقد اتفاق ضخم وشامل، وتأكيد الانطباع لدى القيادة السوفياتية بأن صدام حسين هو الرجل القوي والزعيم المقبل للعراق.

عقد في دار السفير العراقي شاذل طاقة اجتماع قيادة التنظيم الحزبي في الاتحاد السوفياتي، حضره صدام حسين وعبد الخالق السامرائيّ وعبد الكريم الشيخلي، وعرضت فيه قيادة التنظيم إيجازًا لأعمالها وفاعلياتها. ثم بدأ صدام بعرض شامل للوضع السياسي في العراق والمنطقة ودور الحزب ومنظماته، والنجاحات والإخفاقات التي مررنا بها في السنوات القليلة الماضية، ومسؤولية الرفاق الحزبيين في هذه المرحلة، ثم تعرّض لزيارته والوفد وما تحقّق بها. كان مقنعًا في عرضه وممتعًا في حديثه، ويوحي لمستمعيه بالثقة والاطمئنان والإيمان العميق بالحزب والوطن والأمة، ولم يُشعرنا بأنه الرجل الثاني في الحزب والدولة بل كأنه واحد منا مع بقاء الهيبة والاحترام له. وعندما خاطبه السفير بالرفيق النائب ابتسم وقال: «أفضِّل أن تنادوني بالرفيق أبو عدي». وفي الاجتماع كان الرفيق فاضل البراك ينظر إليّ بين الفينة والأخرى، وكأنه يقول «هذا صدام أليس هو كما قلت لك؟»، والواقع أنه قد ترك فيَّ انطباعًا وتأثيرًا كبيرين.

انتهى الاجتماع وخرجنا إلى الصالة الرئيسة لتناول العشاء الذي كان جاهزًا في صالة مجاورة، فتوقفت أمامه وقلت: «اسمح لي رفيق أبو عدي، أريد أن أحدثكم عن موضوع الأنصاريّ». اعترض السفير شاذل طاقة وقال: «ليكن ذلك بعد العشاء»، لكن صدام أجابه مبتسمًا «دعونا نرى ما لدى الرفيق نزار. إنها قضية عمه، ومن حقه أن يقول ما يريده». كان الجميع ينظرون إليّ عندما بدأت الكلام. في البداية كان صوتي يرتجف قليلًا، وقلت: «أريدك رفيق أبو عدي أن تعرف والرفاق بأن علاقتي بالأنصاريّ ليست علاقة ابن أخ بعمه، بل إنها أعمق بكثير فهو عمي وصديقي وآمري ومعلمي، وقد أبدو متحيزًا في كلامي عنه، لكني كبعثي ملتزم سأحاول أن

أكون محايدًا في ما أعرضه لكم عمّا أعرفه عن الأنصاريّ». وبدأت أتكلم صادقًا وبثقة وموضوعية عن تفاصيل ما أعرفه ومواقفه منا نحن البعثيين ومحبته لنا، وإعجابه بنا لِما كنا نُبديه من شجاعة وتضحية في سبيل الوطن، وعمّا اتّهم به، وقناعاتي العميقة والراسخة ببرائته. وكان صدام يصغي باهتمام وتركيز ويهز رأسه كمن يحثني على الاستمرار. وعندما اعترض الرفيق الشيخلي بقوله: «إننا كنا نلاحظ أنه كان يخزرنا بنظرات متوعدة في المناسبات التي التقيناه فيها». أجبته: «هل تعتقد حقًا أن من يريد التآمر والانقلاب عليكم يخزركم بنظراته كلما التقى بكم أم أن العكس صحيح؟ فكل ما في الأمر أن عينيّ الأنصاريّ واسعتان، وتنحرفان قليلًا عندما يفكر أو يسهو لحظة، وهذا ما جعلك وآخرين أيضًا تخرجون بمثل هذا الانطباع».

علّق الرفيق صدام بالقول: «إن من يتآمر علينا لا يتوعدنا بخُزْراته. أرجو أن تستمر في حديثك رفيق نزار». وبعد أكثر من نصف ساعة كنت قد قلت ما أريده، عقّب الرفيق صدام: «إنني مقتنعٌ بما قاله الرفيق نزار على الرغم من أننا نعلم أن العديد من الضباط المتذمرين كانوا يزورونه في حينه، وقد ألّبوه علينا بعض الشيء»، واستمرّ في كلامه: «دعني أوضح لك ذلك بشكلٍ أفضل، الأنصاريّ مثل الورقة البيضاء، وإذا ما كتبت عليها بقلم الرصاص مثلًا فستترك أثرًا مهمًّا. هل حاولت أن تمحوه؟»، أجبته أن ذلك يحدث مع آخرين، فالرجل لا يعرف الحقد والكراهية، وأكّدت: «أبدًا».

قال صدام أخيرًا: «رفيق نزار أنا شخصيًّا سمعت عنك، وكنت أعرف بأنك صِدامي وبعثي وملتزم، لكنك الآن أضفت إلينا شيئًا آخر. خسارة أن يكون مثلك هنا فيما الوطن يحتاج إليك، ونحن نحتاج إلى أمثالك معنا. ستعود قريبًا وترى الأنصاريّ حرًا طليقًا». توقف قليلًا، واستدرك قائلًا: «طبعًا بعد أن نأخذ رأي الرفاق في القيادة، لكنني أقول إنك ستسمع أخبارًا طيبة». وبعد عودته من قصر الضيافة الذي يسكنه صدام جاءني فاضل البراك، وقال: «مبروك أخي، لقد تركت لدى الرفيق النائب انطباعًا ممتازًا، وهو معجبٌ بك، وقد أسعدني قوله هذا».

في اليوم التالي أقام الرفيق صدام حسين والوفد المرافق له دعوة عشاءٍ لجميع موظفي السفارة وعوائلهم في الطبقة 21 من فندق روسيا الضخم قبل عودته إلى الوطن. كان الفرح يشمل الجميع، وفي صدر مائدة العشاء الطويلة كان صدام حسين يجلس وإلى يمينه وشماله أعضاء الوفد والمدعوّون. وعندما كانت العيون تلتقي كان يرفع قدحه، إذ كان يشرب الماء المعدني

فحسب، فأردُّ عليه بشرب كأسي حتى الثمالة.

كنت منهمكًا بالحديث مع البراك الجالس إلى جانبي عندما ربت أحدهم على كتفي فالتفتُّ فكان السفير الذي انحنى وهمس في أذني: «الرفيق النائب يريد التحدث إليك»، فنهضت وذهبت إليه. أمسك بيدي وسحبها قليلًا، الأمر الذي اضطرني إلى الانحناء فهمس في أذني: «رفيق نزار لو قلت لك إنّا محتاجون إليك الآن، وأريدك أن تعود معي على الطائرة التي سنغادر بها غدًا، ماذا تقول؟»، أجبته من من دون تردد: «الرفيق أبو عدي، إنك وعدتني أن أعود قريبًا لألقى الرجل أماميّ حرًا طليقًا»، جفل قليلًا لجواب لم يتوقعه كما يبدو، فترك يدي التي كان ممسكًا بها، وقال: «حسنًا على خاطرك».

لم نستلم أي إشعار بإطلاق سراح الأنصاريّ بعد أسبوع من عودة الوفد، وفي الأسبوع التالي كتبت رسالة إلى صدام وأرسلتها بالبريد السياسي، وكان مضمونها «انتظر تنفيذ وعدكم، ووعد الحر دين». بعد بضعة أيام استلمت برقية من زميلي الرائد الركن حامد الدليمي [64] معاون مدير الاستخبارات، كان نصها «أهنئك بخروج العمّ، ونقلك إلى جبهة التحرير العربية [65] »، وركبت على الفور أول طائرة متجهة إلى بغداد.

ذهبت بعد وصولي مباشرة إلى منزل العم في مدينة الضباط، ولحظت واحدة من سيارات الاستخبارات متوقفة في مدخل الشارع المؤدي إلى الدار وداخلها عدد من الأشخاص، وأخرى قرب البيت، وحولها يقف آخرون يدققون في أوجه الداخلين إلى منزل الأنصاريّ والخارجين منه. ولما دخلت عليه كان يجلس مع بعض الأقارب وواحدٍ أو اثنين من الأصدقاء القدامى. قال: «هل رأيت الشبان المحيطين بالمنزل والذين في مدخل الشارع؟ استبدلوا السجن بالإقامة الإجبارية، كما يبدو أن الأمر بمصادرة الأموال المنقولة وغير المنقولة لا يزال ساريًا كما أعتقد».

اتصلت هاتفيًّا بالرائد علي العبيدي [66] (من دورتي في الكلية العسكرية) سكرتير الرفيق النائب صدام حسين، وأخبرته بأني قد وصلت لتوّي من موسكو، وأرغب في مقابلة الرفيق نائب أمين سر القطر، وأعطيته رقم هاتفي، وبعد أقل من ساعة اتصل ليخبرني بأن أكون غدًا في الساعة العاشرة صباحًا في المجلس الوطني. في اليوم التالي دخلت غرفة السكرتير علي العبيدي، وكانت ممتلئة بمواطنين وشخصيات جاءت لمقابلة السيد النائب كما كان يدعى. دخل السكرتير عليه ثم خرج ليدعوني إلى الدخول، ودخل معي وبيده قلم ودفتر ملحوظات.

نهض صدام من خلف منضدة الكتابة، وصافحني مرحبًا بعد أن أشار إلى سكرتيره بالخروج، وقال: «أهلًا بالرفيق نزار، أخبرني الرفيق علي السكرتير أنك وصلت بغداد البارحة. أخبرني كيف هو أخونا الأنصاريّ؟!». قلت: «هو بخير ويزجيك السلام، ويشكركم على الإفراج عنه». قال: «أرجو أن يكون بخير. أخبِرني إنْ كان في حاجة إلى أي شيء؟». قلت: «إنه الآن في الإقامة الإجبارية، ومجموعة من المسلحين محيطة بمنزله، كما أن أمر مصادرة أمواله المنقولة وغير المنقولة لا يزال ساريًا». اكتسى وجه الرفيق النائب الدهشة، ورفع سماعة الهاتف وطلب وزير الداخلية وقال: «رفيق سعدون (العميد سعدون غيدان) [67] أُفرج عن أخينا الأنصاريّ فما حكاية الإقامة الإجبارية ومصادرة الأموال؟». واستمع إلى وزير الداخلية لبعض الوقت ثم قال: «يُرفع كل هذا على الفور»، ووضع سماعة الهاتف والتفت إليّ وقال: «ارتحت الآن؟»، فتمتمت عبارات الشكر الملائمة ثم قلت: «الرفيق أبو عدي. وضعتم العمّ أكثر من سنتين في السجن. الرجل كان لا يتحمل البقاء تحت سقف لساعات فيخرج للجلوس في الخلاء أو يقوم بزيارة للميدان، فما رأيك لو استصحبته معي إلى موسكو للترويح وتغيير الأجواء؟». أجاب: «والله إنها لفكرة جيدة»، ثم رفع سماعة الهاتف مرة أخرى، وطلب وزير الداخلية ثانية وقال: «رفيق سعدون اقترح الرفيق نزار أن يذهب معه عمّه إلى موسكو للترويح، اعملوا على إنجاز جوازه»، ووضع يده على حاكية الهاتف وسألني: «هل هناك شيء آخر؟». فأجبته: «كلا»، فوضع سماعة الهاتف ونهض واقفًا منهيًا المقابلة، وقال: «أرجو أن تخبر أخانا أبا عماد أننا في الريف وبين الأهل والأقارب كثيرًا ما نتشاجر ونتضارب، قد تُسفك دماء منا جميعًا، لكن بعدها بساعات نتصالح ويحتضن بعضنا بعضًا، ويقبّل أحدنا الآخر ونعود أهلًا وأقرباء. هكذا نحن والأنصاريّ وسلِّم لي عليه».

لما عدت إلى منزله بعد مقابلتي صدام حسين كانت العجلات قد اختفت مع من فيها. في اليوم التالي ذهبنا إلى وزارة الداخلية فاستقبله الوزير سعدون غيدان بالأحضان والقبلات، فقد كانا صديقين قديمين، ولمّا حاول سعدون الاعتذار لأنه لم يتمكّن من عمل شيء، قال له الأنصاريّ: «أبو سمرة (كما كان يُعرف سعدون غيدان بين أصدقائه) أعرف ذلك فلا داعي للاعتذار». بعد إنجاز الجوازات ومعاملات السفر اصطحبت العم والوالد إلى موسكو لعلي أخفف عن العمّ بعض ما عاناه. عندما كنا جالسين في دار فاضل البراك هناك نتبادل أطراف الحديث، وكان العمّ يجلس ساهمًا صامتًا وكأنه ليس معنا، سألنا فجأة: «دخلت السجن وخرجت منه من دون أن

أعرف لماذا دخلت ولا لماذا خرجت؟ فهل يعرف أيٌّ منكم ذلك؟»، وسكت، ولم يتطرق إلى الأمر مرة أخرى. بعدها بأشهر تركته في موسكو، وعدت إلى العراق آمرًا للفوج الثاني قوات خاصّة في كركوك.

عدت إلى العراق خريف عام 1971، وكان كثير من الأمور قد تغيّر، أُزيح الفريق حردان التكريتي وزير الدفاع وعضو مجلس قيادة الثورة عن مناصبه، عندما كان في زيارة إلى الجزائر، وحين انتقل إلى الكويت ليكون قريبًا من الساحة العراقية أُرسل فريق اغتيالات من القوات الخاصّة أشرف عليه كلٌّ من الرفيق عبد الكريم الشيخلي ومحمد فاضل عضوي القيادة القطرية للحزب، واغتيل عند مدخل المستشفى الذي كان يقصده، وهو في سيارة السفير العراقي مدحت إبراهيم جمعة [68] الذي كان يرافقه. وتراجع نفوذ وتأثير الفريق صالح مهدي عماش نائب رئيس الجمهورية، وعضو مجلس قيادة الثورة، وكان من أقدم العسكريين الذين انتموا إلى حزب البعث، وأُبعد لاحقًا إلى موسكو سفيرًا للعراق، وتم بذلك إبعاد أهمّ العسكريين وأكثرهم نفوذًا وتأثيرًا في قيادة الحزب ومجلس قيادة الثورة. وتصدّرت واجهة المشهد الشعبي والحزبي وطغت عليه شخصيّة نائب أمين سرّ القيادة القطرية للحزب الرفيق صدام حسين، على الرغم من أنه لم يكن يتولّى أي منصب في السلطة أو الوزارة.

ذهبت إلى وزارة الدفاع لمقابلة الفريق حماد شهاب وزير الدفاع. وفي اليوم التالي من وصولي إلى بغداد أبلغني أني قد نُسّبت آمرًا للفوج الثاني قوات خاصّة الموجود في كركوك مع آمرية القوات وبقية وحداتها، فسافرت إلى كركوك للالتحاق بمنصبي الجديد.

كان العقيد الركن غانم محمود القزاز بطل العراق والعرب في رياضة الجري قد نُسّب آمرًا للقوات الخاصّة على الرغم من أنه من صنف المشاة، بعد اعتقال العقيد الركن عدنان محمد نوري، صديقي وآمري السابق الذي اتُّهم بمشاركته في ما سُمّي مؤامرة العقيد الركن محمد علي سعيد [69] قائد الفرقة الثانية في كركوك، والحزبي البارز في التنظيم العسكري، لإطاحة قيادة الحزب. لم أكن أعرف العقيد القزاز شخصيًّا، لكن سمعته الرياضية جعلته معروفًا في البلد والقوات المسلحة. وما إن التقيت به وتعرّفت إليه شخصيًّا حتى تكوّنت بيننا صداقة متميِّزة، وكان ضباط وآمرو وحدات القوات الخاصّة يكنّون له احترامًا ومحبةً لتفهّمه وتواضعه وأخلاقه العالية، على الرغم من أنه لم يكن من أبناء الصنف.

قررت قيادة التنظيم العسكري في الحزب تكليفي بمسؤولية القوات

الخاصّة الحزبية إضافة إلى وظيفتي (بعض العسكريين البعثيين تفرغوا للعمل الحزبي)، كما كُلّفت برئاسة لجنة تطوير الصنف فأتيحت لي متابعة المعضلات والمشكلات التي تواجهها القوات الخاصّة، ودراسة سبل الارتقاء بها، ورفع قدراتها [70] .

في إحدى زياراتي إلى مدرسة القوات الخاصّة في معسكر الرشيد في بغداد لمتابعتي أسس تطويرها زارها الرئيس البكر فجأة فالتقيته، وصاحَبْته في جولته لتفقد منشآت المدرسة وأجنحتها. وكنت أُجيب عن استفساراته، وأذكر له سبل التطور التي نطمح إلى العمل بها لرفع مستوى القوات إلى مستوى مثيلاتها في جيوش البلدان المتقدمة. ولاقت ملحوظاتي قبولًا لدى الرئيس، فبعد بضعة أيام استُدعينا إلى مؤتمر تطوير الصنف الذي حضره الرئيس شخصيًّا.

عُقد الاجتماع في ديوان وزارة الدفاع، وحضرت مع العقيد القزاز آمر القوات بصفتي رئيس لجنة تطوير الصنف والمسؤول الحزبي للقوات الخاصّة. كان الرئيس البكر يُدير الاجتماع بحضور نائب أمين سرّ الحزب ونائب أمين سرّ المكتب العسكري صدام حسين، ووزير الدفاع الفريق حماد شهاب. عرض العقيد القزاز وضع القوات الخاصّة بصورة عامة، وقمتُ من جهتي بعرض دقيق ومفصّل لطبيعة مهمات القوات الخاصّة وواجباتها، والمعضلات والنواقص التي تعانيها، والسبل والوسائل التي يجب توافرها أو العمل بها لتحقيق ذلك.

كانوا يصغون إليّ باهتمام، وكان الرئيس البكر يستوقفني بين فترة وأخرى مستفسرًا عن هذه النقطة أو تلك. أما صدام حسين فكان صامتًا مكتفيًا بتسجيل ملاحظات في دفتره الخاصّ، وكان الوزير الفريق حماد مرتاحًا للعرض، والحبور يغطي وجهه. استغرق الاجتماع أكثر من أربع ساعات رجعنا بعدها إلى كركوك آملين أن القيادة ستتخذ الإجراءات لتنفيذ مقترحاتنا.

في اليوم التالي كنت في ساحة العرض أُتابع تدريب الفوج، فجاءني المراسل راكضًا ليخبرني أن وزير الدفاع يطلبني تلفونيًّا. أخبرني الوزير أن عليّ العودة فورًا إلى بغداد، وأن أوافيه إلى الوزارة حال وصولي. في صباح اليوم التالي ذهبت إلى وزارة الدفاع، وعندما وصلت مكتبه أدخلني سكرتيره على الفور. نهض الفريق حماد من خلف منضدته، واستقبلني ضاحكًا، فعلاقتي به وثيقة من فترة وجودي في كركوك مرافقًا للأنصاريّ، وتعمقت أكثر بزيارته موسكو التي أمضى فيها فترة طويلة للعلاج، وصحبته إلى

سوخومي حيث كان يستشفي في حماماتها المعدنية، ويمارس طرائق العلاج الطبيعي الذي يجيده الروس. قال حماد: «ما هذا؟ لقد أُعجب الرئيس البكر بك كثيرًا بعد لقاء الأمس، وطلب مني تنسيبك آمرًا للقوات الخاصّة بدلًا من العقيد غانم القزاز الذي ليس من الصنف، والذي لم يبدُ أنه على اطلاع كافٍ بالقوات الخاصّة، ومهماتها وسبل تطويرها».

كان ذلك مفاجأة عظيمة لي، والحقيقة أنه لم يدُر في خلدي أن أكون آمرًا للقوات الخاصّة، وأنا لا أحمل أكثر من رتبة رائد. كنت سأترقى إلى رتبة مقدّم ركن في تموز/يوليو المقبل بعد بضعة أشهر، ولم يكن قد مرّ على قيادتي فوج قوات خاصّة فترة كافية. كنت معاونًا لآمر الفوج نفسه قبل ذهابي إلى موسكو، وكنت أرى أن الطريق لا تزال طويلة أمامي بحكم ضرورة حصولي على الخبرة والكفاءة كي أكون جديرًا بقيادتها. لذلك أجبته: «سيدي الوزير بالأمس كنا نتكلم على قوات خاصّة نطمح أن تكون بكفاءة أقرانها في جيوش الدول المتقدمة، واليوم تعرضون عليّ قيادتها، وأنا لا أملك الخبرة والتجربة والتأهيل بعد لأحقق ما أطمح أنا شخصيًّا إليه، أعطوني الوقت والفرصة لأكون جديرًا بقيادتها، أما الآن فأرجو أن تعفيني وأن يعفيني السيد الرئيس من تولّي هذا المنصب».

قابل الوزير إجابتي بجفاء تام، ولا أدري بأي كلمات نُقل جوابي إلى الرئيس، لكني علمت في ما بعد أن ذلك أغضبه، وقال: «هل هناك من نُكلِّفه بمثل ذلك ويرفض؟»، ومن ذلك الحين، وضعني الرئيس البكر في قائمة غير المرحّب بهم.

في أحد أيام شتاء عام 1972 اتصل بي الرائد علي العبيدي وقال: «إن الرفيق النائب يريدك غدًا، كن في المجلس الوطني صباحًا عند الساعة العاشرة». وصلت غرفة الرائد علي سكرتير الرفيق النائب، وكانت كالعادة تغص بالمراجعين فنظر إلى ساعته وأدخلني فورًا فأديت التحية. ونهض صدام وصافحني وأشار إليّ بالجلوس على الكرسي أمام منضدته مباشرة ورحب بي، ثم قال: «رفيق نزار أعتقد أن انطباعك عن الاتحاد السوفياتي جيد ولدينا فكرة فتح قنصلية في مدينة وميناء باكو، حيث تشحن من هناك كما تعلم معظم مشترياتنا من الاتحاد السوفياتي. أريدك أن تذهب إلى موسكو، وتتذاكر مع الرفاق هناك في جدوى فتح القنصلية من عدمه، وتعود إلينا بما اتفقتم عليه».

سافرت إلى موسكو والتقيت الملحقيْن العسكري والجوي، والرفيق فاضل البراك معاون الملحق العسكري والمسؤول الحزبي في الاتحاد السوفياتي،

وطرحت عليهم ما حمّلني الرفيق النائب، وكان رأي الجميع مع فتح قنصلية عراقية في مدينة باكو للأسباب والذرائع الموجبة التي ثُبِّتت في الكتاب الذي سأعود به إلى الرفيق النائب. وبعد بضعة أيام أمضيتها في الراحة مع فاضل البراك عدت إلى بغداد، وسلمته الكتاب الذي أيّدنا فيه فتح القنصلية، فسألني عن حالي وإن كنت في حاجة لأي شيء؟ فأجبته شاكرًا وأني في أحسن حال. قال: «حسنًا، أُريدك أن تأتي لزيارتي كلما جئت في إجازة إلى بغداد»، فشكرته وخرجت، وفي ظني أنه يريدني أن أكون أحد رجاله.

كان ارتباطي الحزبي بصفتي مسؤول التنظيم الحزبي للقوات الخاصّة، بقيادة مكتب كركوك العسكري الذي كانت تنظيماته تغطي الوحدات والتشكيلات العسكرية في محافظات كركوك والسليمانية وأربيل. وكان أمين سرّ تنظيم مكتب كركوك يُعيَّن من أحد أعضاء المكتب العسكري في بغداد، ولم يكن معظمهم يقيم في كركوك، فكانوا يحضرون اجتماع قيادة المكتب الأسبوعي، ويقومون بزيارة أحد التنظيمات المنتشرة في القاطع، ثم يعودون في اليوم التالي إلى بغداد. كان الرفيق عضو المكتب العسكري كامل ياسين نائب ضابط سابقًا ومن أقارب صدام حسين، وأخوه أرشد ياسين كان مرافقًا لصدام ومتزوجًا إحدى شقيقاته، وأصبح عضو قيادة قطرية في ما بعد، ثم تولّى المسؤولية الرفيق خليل العزاوي ضابط الاحتياط ومن خريجي كلية التجارة ومن أصدقاء الطفولة، فوالدي ووالده خريجا الدورة الثانية في الكلية العسكرية، وشغل والده منصب مدير الاستخبارات العسكرية ثم محافظ الكوت قبل إحالته على التقاعد. كذلك فارس حسين القرة غولي رائد ركن قوات خاصّة، كان متفرغًا للعمل الحزبي وصار مسؤول مكتب كركوك ثم عيِّن سفيرًا وسُجن في عام 1979 عند تولّي صدام حسين الرئاسة. ومن أعضاء المكتب المقدّم الركن حامد الدليمي الذي عيِّن سفيرًا ثم سُجن في عام 1979، ومات في السجن نتيجة تعذيبه، والرائد الركن دريد القدو (استشهد في الحرب العراقية - الإيرانية عندما كان يقود لواءه في القاطع الجنوبي)، والنقيب صالح الساعدي الذي كان متفرغًا حزبيًا ثم سُجن في عام 1979 ومات في السجن من التعذيب، وعلي حسن المجيد [71] الذي كان مسؤولًا عن تنظيمات ضباط الصف في مكتب كركوك العسكري، وأدين مع العديد من ضباط التنظيمات بتهم الفساد والرشوة من لجنة تحقيق حزبية برئاسة خليل العزاوي، ومع ذلك نُقل إلى دائرة المكتب العسكري في بغداد بوظيفة إدارية، أما أصحابه فحكم عليهم بالسجن لمدد متفاوتة

وطردوا من الحزب.

في ربيع عام 1973 كانت تدور مفاوضات بين السلطة والحركة الكردية المسلحة، وكان هناك إيقاف لإطلاق النار بين الجانبين. كان مهندسو شركة نفط العراق في كركوك يقومون بعملهم الروتيني في فحص أنابيب نقل النفط في منطقة لا تبعد كثيرًا عن معسكرنا شرق كركوك، عندما قام بعض المسلحين الأكراد بخطفهم واقتيادهم إلى قرية قرة حسن التي كانت مقرًا لهم، الواقعة على بُعد نحو 15 كلم من معسكر الفوج باتجاه مدينة السليمانية، جنوب طريق «كركوك - السليمانية» في منطقة وعرة يصعب الوصول إليها بالعجلات. اتصلوا بنا من الفرقة الثانية التي كان مقرّها في معسكر كركوك، وأخبرونا بالحادثة، وقالوا إنهم سيحرِّكون اللواء الرابع الذي كان يقوده العقيد الركن عبد الستار المعيني [72] ، وسيصل معسكرنا ونقوم معًا بتعقب المسلحين الأكراد وتحرير المهندسين. سألت عن وقت الاختطاف فقالوا منذ بضع ساعات، وقد علموا به لتوّهم. قلت: «إن انتظار قدوم اللواء يعني أن المسلحين قد وصلوا قواعدهم في قرة حسن، وأقترحُ إرسال طائرات سمتيّة لنقل قوة من الفوج تحرّر المهندسين قبل وصولهم إلى مقرهم في قرة حسن»، وبعد أن تداولوا وقائد الفرقة أرسلوا طائرة سمتيّة واحدة فقط، وقالوا «إن اللواء الرابع في طريقه إليك».

جهزت قوة من 18 مقاتلًا بإمرة ضابطين، وأقلعت القوة للتفتيش عن الخاطفين، وكان الوقت قد جاوز الثانية بعد الظهر. في أثناء تنفيذ قوتنا الواجب أطلقت مجموعات من المسلحين النار على السمتيّة فعالجتهم بنيرانها، وأنزلت القوة التي اشتبكت معهم ثم أقلعت بعد أن قتلت عددًا منهم، ولم يكن المهندسون معهم. واستمرت في التفتيش عن الخاطفين، فوصل اللواء الرابع إلى معسكرنا في أثناء التفتيش، ومنه انطلق على الطريق الترابية لأنابيب النفط لتعقُّب المسلحين. استمرّت السمتيّة في تفتيشها، وشاهدت مجموعة أخرى من المسلحين أطلقوا النار عليها فعالجتهم بصواريخها، وأنزلت القوة التي اشتبكت معهم أيضًا وقتلت عددًا منهم، وتفرّق الآخرون في الأراضي المتكسرة، ولم يكن المهندسون بصحبة هؤلاء العصاة أيضًا. عاد اللواء الرابع بعد انقطاع الطريق النيسمي (طريق غير معبدة) مع جثث المسلحين الذين أردتهم القوة التي في السمتيّة في اشتباكها الأول. وقبل الغروب بساعة طلبت من قائد السمتيّة العودة إلى معسكر الفوج لأني أعتقد بأن المسلحين والمهندسين المختطَفين قد وصلوا قرية قرة حسن الآهلة، وتُمنع علينا مهاجمتها، ولم يبقَ وقتٌ كافٍ للتفتيش

والظلام سيحل قريبًا، فأخبرني بأنه قد استلم الأمر لكنه شاهد مجموعات أُخرى من المسلحين، فاستدار واشتبك معهم فأُصيبت الطائرة ورشح الزيت منها، واضطرت إلى الهبوط في وادٍ بين مجموعات من التلال قرب قرية قرة حسن، وأخبروني بالموقف الجديد فطلبت من قائد السمتيّة وآمر القوة أن يحددا موقع الطائرة، فأخبراني بأن معرفة المكان بدقة متعذرة عليهما لأن التلال تحيط بهم من كل جانب. وبعد قليل أُخبرت بأنهم اشتبكوا مع المسلحين الأكراد الذين توافدوا إلى مكان سقوط الطائرة، فأمرتهم بحمايتها بأي ثمن، وبأن لا يسمحوا للمسلحين بالسيطرة عليها. وهبط الظلام وتجمّع المسلحون وقاموا بعدد من الهجمات للوصول إلى الطائرة، وفي كل مرة يجبرهم مقاتلو الفوج على التراجع، وبتقدّم الليل جلب المسلحون هاوناتهم، وبدأوا بقصف جنودنا والطائرة ثم أعقبه هجوم، وقرب منتصف الليل أوشك عتاد مقاتلينا على النفاد فأخبرني آمر القوة بذلك، وأمرته أن يسمح للمسلحين بالتقرب ثم يفاجئهم بقذفهم بالرمانات اليدوية، ومرة أُخرى فشل هجوم المسلحين فأخبرني آمر القوة أن عتادهم قد نفد فقلت له: «هل تشاهد لهيب النار الأزلية من حقول كركوك النفطية؟» فأجابني بأنه لا يشاهدها مباشرة، لكن يشاهد احمرارها في الجو، فقلت: «اتجه أنت، والطيارون باتجاهها». فأخبرني أنه سيباشر بذلك على الفور. وبعد بضع دقائق أخبرني أنه شرع بالتحرك، ويشاهد المسلحين وهم داخل الطائرة السمتيّة، فسألته إن بقي لديهم صواريخ قاذفات آر بي جي (RBG) فقال: «لدينا صاروخان». فأمرته أن يعود ويدمر السمتيّة ومن فيها. وبعد دقائق أخبرني بأن السمتيّة قد احترقت وقتل عدد من المسلحين، وقد شاهدهم في ضوء لهيب النيران التي اشتعلت فيها. فأمرته بالعودة مع التحسُب من متابعة المسلحين.

بعد الضياء الأول بقليل، وصلت القوة معسكر الفوج فأخبرنا قيادة الفرقة الثانية بالموقف، وأن القوة عادت سالمة. وأبدى قائد الفرقة انزعاجه من تدميرنا الطائرة السمتيّة، فقلت إني أمرت بذلك كي لا نسمح للمسلحين بالسيطرة عليها. وبعد بضعة أيام اشتكى محافظ أربيل آنذاك عبد الوهاب الأتروشي [73] أن القوات الخاصّة قتلت 55 مسلحًا من مقاتليهم.

في أحد اجتماعات قيادة تنظيم القوات الخاصّة طرح الرفيق النقيب الركن صباح صبري آمر الفوج الرابع قوات خاصّة [74] أمرًا خطرًا، جاء فيه أن مجموعة من ضباط صف الفوج الثالث قوات خاصّة، من فوجه، نقلوا إلى أماكن حساسة للغاية مثل قوات الحماية المسؤولة عن حماية الرئيس

البكر ومديريات الأمن والاستخبارات بتأثير من مرافق الرئيس الرائد الركن قوات خاصّة طارق صادق عبد الحسين الذي كان يعمل في الفوج الثالث قوات خاصّة قبل نقله مرافقًا للرئيس، ومعظمهم من العناصر المعروفة بسوء السلوك والانضباط، ومنهم من كان من مؤيدي التيار الشيوعي والقاسمي، وبعضهم من كان يحقّق مع البعثيين في وحداتهم وشارك في تعذيبهم. وأيد بقية أعضاء التنظيم هذه المعلومات، فطلبت تهيئة قوائم بأسمائهم مع ملحوظاتهم عن كل واحد منهم لنرسلها إلى مكتب تنظيم كركوك العسكري لاتخاذ ما يرونه من جانبهم.

النجم الساطع

أصبح الرفيق صدام حسين، نائب أمين سرّ الحزب، نجمًا ساطعًا في قيادة الحزب بعيدًا بمسافات شاسعة عن أقرانه أعضاء القيادة بعد نجاحه في قيادة معركة التأميم مع شركات النفط الاحتكارية، التي انتهت برضوخ الشركات وتأميم العراق نفطه. وهي الخطوة التي عارضها بشدّة الرئيس أحمد حسن البكر مع بعض أعضاء القيادة، وقال: «أُشهدكم على أن صدام حسين سيدمر الحزب»، وذكّرهم بمصير مصدق في إيران عندما قام بمحاولة مشابهة للتأميم، لكن تحت إصرار صدام وأغلبية أعضاء قيادة الحزب الذين ساندوه اضطر البكر والأقلية التي أيّدته إلى الرضوخ.

في الوقت عينه كثّف صدام لقاءاته بجماهير الشعب في الأماكن العامة وملاعب كرة القدم في ندوات «أنت تسأل والحزب يجيب» التي كان يديرها، وكانت تذاع وتُنقل تلفزيونيًا على الهواء، فيجيب فيها عن أي سؤال ممن كان وفي أي موضوع. وفتح مكتبه في المجلس الوطني للسائل والمجيب، ووضع رقم هاتفه الشخصي في مقدمة كتاب دليل الهاتف لبغداد، وكان العديد من المواطنين ممن يعانون مشكلات مستعصية يتصلون برقم هاتفه، وعندما يسألون «من المتكلم؟» يأتيهم الصوت من الجانب الآخر من خطّ الهاتف: «صدام حسين»، فيعمل على حل مشكلاتهم هاتفيًا أو يطلب منهم المجيء إلى مكتبه في المجلس الوطني لمقابلته. وكان كثيرون منهم يخرج وقد حُلت قضيته، فازدادت شعبيته عند أبناء الشعب حتى عند بعض المعادين للحزب.

في القوات المسلحة أتاح له موقعه بصفته نائب أمين سرّ المكتب العسكري إمكانية لقاء القادة والكوادر العسكرية والضباط الشباب من البعثيين وغيرهم، فكسب ثقتهم وقلوبهم بأحاديثه معهم، وتجاوبه مع

أفكارهم وببساطته وعفويته المرسومة والمخطّط لها في تعامله معهم، فأصبح الرمز والأمل الذي يتطلعون إليه ليحقق للعراق الحلم البعثي.

صدام حسين هو من بنى جهاز الاستخبارات وأشرف عليه منذ أيام النضال السريّ، عندما أُنشئ جهاز حُنين، اليد الضاربة للحزب، فاختار صدام أفراده وكوادره وأشرف عليه، وأصبح دائرة العلاقات العامة في أيام الثورة الأولى، قبل أن يتحول إلى دائرة الاستخبارات العامة بعد أن توسعت صلاحيته وكثرت. كانت هذه الدائرة عين صدام وذراعه التي يبطش بها من يعارضه، ولم يسمح لأي كان غير الذين يثق بهم بأن ينخرطوا فيها أو يقتربوا منها. ولم يكن أيٌّ من أعضاء القيادة القطرية، ومنهم الرئيس البكر، على علم بما يجري في أروقتها وبين جُدُرها، أو مُطّلعًا عليه. بسط صدام حسين نفوذه وهيمن على وسائل الإعلام والثقافة بترؤسه مكتب الثقافة والإعلام، فسيطر على وسائله من إذاعة وتلفزيون وجمعيات للكتّاب والشعراء. وأغدق عليهم وسخّرهم لشخصه على حساب الآخرين. وتولّى رئاسة لجنة التخطيط، ومشاريع الخطط الخمسة للبناء وتطوير البنية التحتية والزراعية والصناعية. وهكذا استطاع تجميع كل عناصر القوة بين يديه، وأصبح الرجل الأول، وإن لم يكن يشغل أيّ منصب حكومي. ثم توجه إلى الأحزاب والقوى الوطنية بعد أن اقتنعت بسطوة وقوة واقتدار الحزب القائد، حزب البعث العربي الاشتراكي، فعمل على إقناعها بالمشاركة في السلطة تحت خيمة الجبهة الوطنية التقدمية التي يتزعمها الحزب القائد، وعرض تسليم قياداتها بعض الوزارات، والاكتفاء بدور الشريك الثانوي. هكذا تألفت الجبهة إضافة إلى حزب البعث من الحزب الشيوعي العراقي، والحزب الوطني الديمقراطي، والحزب الديمقراطي الكردستاني، وبعض القوى والشخصيات القومية والوحدوية.

في 30 حزيران/يونيو 1973 قام اللواء ناظم كزار، مدير الأمن العام [75] وعضو المكتب العسكري، المقرّب من صدام حسين بمحاولة اغتيال الرئيس البكر في مطار بغداد، عند وصوله بالطائرة من زيارة قام بها إلى عدد من الدول الاشتراكية، وخرج جميع أعضاء القيادة والحكومة، وعلى رأسهم نائب أمين سرّ الحزب صدام حسين لاستقباله. كان ناظم كزار قد وزّع عناصره المكلفة بالاغتيال على سطوح المطار ومنافذه لتنفّذ الاغتيال حال نزول الرئيس من الطائرة، وكان على اتصال بهم من مقرّه بأجهزة مواصلات لاسلكية، وعلى ذبذبات خاصّة. تأخرت طائرة الرئيس ولم تصل بموعدها، ولاحظ رجال كزار أن موظفًا من مكتب النائب قدم مسرعًا وذهب إلى

صدام وهمس في أذنه، فترك صدام المستقبلين وغادر المطار، فشك ناظم كزار أن محاولته قد كشفت فبادر ومجموعة من أقرب أعوانه بالهروب باتجاه الحدود الإيرانية مستصحبًا معه رهينتين هما وزير الدفاع الفريق حماد شهاب، ووزير الداخلية العميد سعدون غيدان بعد أن قيّدهما، ورماهما في الصناديق الخلفية للعجلات التي هربوا بها.

كان ناظم كزار قد اتصل في صباح ذلك اليوم بوزيري الدفاع والداخلية، وأخبرهما بأن أجهزة جديدة ومطورة قد وصلته من الخارج، وأنه يرغب في أن يطّلعا عليها لمعرفة إن كانت مفيدة لوزارتيهما، فجاءا إلى مقرّه كل على انفراد فاعتقلهما، وألقى بهما في أحد الأقبية ولما هرب أخذهما معه.

إن موظف مكتب النائب الذي جاء إلى المطار وهمس في أذنه أخبره أن الرئيس سيتأخر بضع ساعات، لأن رئيس بلغاريا الذي كان في انتظار الرئيس البكر القادم من دولة اشتراكية أخرى وهبطت طائرته في مطار العاصمة البلغارية وهو في طريقه إلى بغداد. وكان في برنامجه أن يكون اللقاء مع الرئيس البلغاري في المطار لساعة واحدة فقط، لكن الرئيس البلغاري ألحّ على الرئيس البكر ليزور إحدى المناطق الاستشفائية القريبة فحدث التأخير، ونجا الرئيس البكر من محاولة الاغتيال. هكذا تدخّل القدر في كشف المؤامرة وإنقاذ حياة الرئيس، وإنهاء حياة وزير الدفاع حماد شهاب. بعد مغادرة صدام المطار عرف بقية أعضاء القيادة والحكومة بالتأخير فغادروا بدورهم، فتركت مجموعات الاغتيال أماكنها وعادت إلى مقرّاتها. كنا في كركوك عندما سمعنا بالمحاولة الفاشلة لاغتيال الرئيس في مطار بغداد، وكان فوجي قد تدرّب وأجاد عمليات الصولات الجوية والإنزال السمتيّ، وخشية من وصول ناظم كزار ومجموعته إلى الحدود الإيرانية والإفلات من مطارديه، اقترحتُ على المسؤول الحزبي في مكتب كركوك العسكري الاتصال بالمكتب العسكري فورًا لاستحصال الموافقة على أن يقوم فوجي بالإقلاع بالسمتيّات فورًا، وإلقاء القبض على كزار وجماعته وتخليص الرهائن من أيديهم. وجرت اتصالات حثيثة بين مكتب كركوك العسكري والمكتب العسكري والقصر الجمهوري للموافقة على التنفيذ، وفي انتظار الجواب الذي لم يصل أرسلوا عناصر من الحمايات الخاصّة وحرس القصر، فألقوا القبض على ناظم كزار وجماعته بعد أن تمكَّن كزار من قتل وزير الدفاع حماد شهاب، وإصابة وزير الداخلية سعدون غيدان الذي تظاهر بالموت بإصابات خطرة.

نُفِّذ حكم الإعدام بناظم كزار ومجموعته بعد قليل من القبض عليهم في

أروقة الاستخبارات، ولم تُتح للرئيس البكر الذي استهدفته محاولة الاغتيال أو أي من أعضاء قيادة الحزب معرفة نتيجة التحقيق مع كزار وأسباب ودواعي قيامه بمحاولة اغتيال الرئيس، خصوصًا مع تورّط عضو القيادة القطرية للحزب محمد فاضل وإعدامه، وعضو القيادتين القطرية والقومية، ومفكِّر الحزب عبد الخالق السامرائيّ الذي أُودع في غياهب سجون الاستخبارات، ولم يشاهده أحد أو يلتقيه حتى إعدامه بعد تولّي صدام حسين مباشرة سدّة الرئاسة في تموز/يوليو 1979.

أثارت محاولة ناظم كزار لغطًا كثيرًا داخل الحزب أفرادًا وكوادرَ، إذ كان صدام عرّابه وهو من كان وراء تسلقه السريع للرتب والمناصب الحزبية والوظيفية، فمن عنصر عاديٍّ في جهاز حُنين إلى عضو مكتب الحزب العسكري، وعيّنه مديرًا للأمن، ومنحه صلاحيات غير محدودة في مطاردة وتصفية من يفترض أنهم خصوم وأعداء الحزب والقبض عليهم، بل طاولت ذراعه بعض أعضاء الحزب لسبب أو لآخر حتى أصبح اسمه عنوانًا للخوف والفزع من دون أن يجرؤ أحد على النقد أو الشكوى، لأنه مرتبطٌ مباشرةً بالرفيق نائب أمين سرّ الحزب صدام حسين، وتحت مسؤوليته المباشرة. كان للبكر شكوكه في من كان وراء تورّط كزار أو من شاركه أو دفعه إلى تلك المحاولة، ولم يكن مرتاحًا لتنفيذ الإعدام مباشرةً بعد إلقاء القبض عليه قبل اعترافه وكشف دوافعه، ومن كان متواطئًا معه في الحزب والسلطة. وفي أحد اجتماعات القيادة بعد المحاولة قال البكر غاضبًا: «أقسم بالله إن من كان وراء عملية ناظم كزار جالسٌ معنا هنا، وعلى هذه الطاولة في هذا الاجتماع».

أزعجت شكوك البكر وكلامه في اجتماع القيادة نائبه صدام حسين، واعتبرها موجّهة بشكلٍ ما إليه، وآثر بعدها الابتعاد عن ممارسة أعماله في أمانة سرّ القطر وبقية مسؤولياته الحزبية احتجاجًا على شكوك الرئيس البكر الذي فشل في استغلال تواري صدام عن واجهة الحزب لتقليص بعض صلاحياته وسحبها أو التخلّص منه. وبعد أشهر عدّة عاد صدام، وقد أرضاه الرئيس، أقوى من السابق. وبدأ فورًا بسحب خيوط ما تبقى من السلطة من البكر تدريجًا ليجمّعها بين يديه.

في تموز/يوليو 1973 تمرد أحد رؤساء اليزيدية في قضاء سنجار المحاذي الحدود السورية غرب مدينة الموصل، واسمه خديدة بزي، بتشجيعٍ من الملا مصطفى البرزاني زعيم الحزب الديمقراطي الكردستاني بدعوى أن اليزيدية الساكنين في قضاء سنجار غرب الموصل هم من أصولٍ كرديةٍ، وهم [76]

جزءٌ من الشعب الكردي، وكان المومأ إليه منتميًا إلى حزب الملا مصطفى، فصدرت أوامر رئاسة أركان الجيش بتحرّك فوجي إلى سنجار، على أن أكون بإمرة الفرقة الرابعة التي انتقل مقرّها المتقدم إلى سنجار. فتحرّك الفوج، وحال وصولنا استدعاني قائد الفرقة العميد الركن طالب (طلبة) محمد كاظم، وأوجز أن متمرِّدي اليزيدية التابعين لخديدة بزي [77] يتحصنون في قمة جبل سنجار حيث يوجد مزار مقدّس لطائفتهم، وأن فوجي واللواء الخامس سيُكلّفان بمهمة تسلق الجبل، وضرب وجود المتمرِّدين فيه، وبصفته قوات خاصّة، فإن الفوج سيكون القوة التي تقتحم الجبل، ويعقبه اللواء الخامس، فسألته عن عدد المتمرِّدين في الجبل فقال: «ليسوا كثيرين»، فقلت: «سيدي القائد أريد الحصول على معلوماتٍ دقيقةٍ إن كانت متيسّرة لديكم كي أعرف كيف أضع خطتي»، فقال: «ليسوا أكثر من مئة متمرِّد»، فقلت إني أحتاج إلى السمتيّات للقيام بالإنزال في مناطق محدّدة من الجبل لحصر المتمرِّدين فيه والقضاء عليهم، فوعدني بذلك.

في اليوم التالي، حضر المستشار الجوي وقال إن السمتيّات الروسيّة Mi8 لا تستطيع نقل الجنود في حرارة تموز/يوليو وإنزالهم على جبل سنجار. وسألته كيف يمكن ذلك؟ فقال: «هذه هي الكرّاسات الخاصّة بالسمتيّة (الهليكوبتر) الروسيّة Mi8، وهذه تحديداتها كما استلمناها من الخبراء الروس»، فقلت للمستشار الجوي: «توجد لدينا سمتيّات إنكليزية المنشأ، وأعتقد أنها يمكن أن تعمل في هذه الأجواء، وعلى هذه الارتفاعات»، فقال: «لدينا واحدة أو اثنتان في قاعدة فرناس في الموصل، وسنجلبها»، فقلت: «في هذه الحالة سنقوم بالعمل راجلين»، فقال القائد: «سوف تصعدون من طريق الكلية العسكرية (النيسمي [78] الذي كان طلاب دورات الكلية العسكرية يتسلقونه في تدريبهم الإجمالي في المنطقة) المؤدية إلى منطقة المزار، ويعقبكم اللواء الخامس». فقلت: «سيدي القائد، تريد مني الهدف فدعني أخطّط له وأسلِّمه للواء الخامس، وعندها سينزل الفوج من العارضة، لأن واجبنا يكون قد انتهى، فنحن لا نمسك الأرض بعد احتلالها». فوافق على ذلك، وأرسل لي دليلين من اليزيدية لمساعدتي في التعرف إلى الهدف والمتمرِّدين، فقمت على الفور بحجز الدليلين في غرفة لحين التنفيذ. خرجت في اليوم التالي لاستطلاع الجبل الذي كان يمتدّ بمحاذاة طريق سنجار - موصل، وفي مقابل المنطقة التي تعسكر فيها القطعات تبدأ طريق الكلية العسكرية صاعدة إلى قمة الجبل حيث يقع المزار الذي يحيطه بستان غني بالأشجار. كان صعود الفوج من هذا الاتجاه المتوقع سيؤدي إلى تعرّضه

لنيران المتمرِّدين الذين تحصّنوا على طرفي الطريق قرب القمة، لذلك أسقطت هذا المسلك، وذهبت شرقًا على الطريق باتجاه مدينة الموصل، ومن هناك يبدأ ذيل الجبل الشرقي بالارتفاع تدريجًا باتجاه قمة الجبل، وقِستُ المسافة على الخريطة فكانت نحو 23000 خطوة، بعد أن حولتُ الأمتار إلى خطوات. كانت المسافة طويلةً، والظَّهْرة (طريق البر) التي هي امتداد ذيل الجبل إلى القمة تكسوها صخورٌ ضخمةٌ، لكنه كان مسلكًا وطريقًا لا يتوقعه المتمرِّدون، فقررت اختياره. طلبت من الفرقة قطع طريق سنجار - الموصل من بعد ظهر ذلك اليوم، وسربت الفوج بعجلات حمل مغطاة، فكانت تخرج عجلة واحدة كل فترة 5 -10 دقائق كي لا تُكشف حركتنا من المتمرِّدين الذين كانوا يراقبوننا بنواظيرهم من قمة الجبل. وترجّل الجنود في ذيل الجبل الذي لم يكن يُرصد من القمة.

مساءً تكامل الفوج في منطقة التسلّق، وعند الساعة الثامنة شرعنا بالتسلق، وكنت مع فصيل الاستطلاع في المقدمة تعقبنا سرايا الفوج. كان الجوّ حارًا، والرياح الحارة تهبُّ بقوة من الجهة المعاكسة لتسلقنا، وبعد قطعنا منتصف المسافة كانت أفواهنا قد جفّت من شدة الريح، وكنا نبلِّل شفاهنا ونرتشف جرعة من الماء لا أكثر، وبدأت أشعر بالتعب، وأصبح ثقل المسدس الذي أحمله وزمزميّة الماء وكأنهما أضعاف وزنهما، وعندما أرى الجنود يتسلّقون معي بكامل تجهيزاتهم أنسى التعب والعطش واستمر معهم في الصعود، وكانت تصادفنا أحيانًا صخورٌ ضخمةٌ تعترض طريقنا لا يمكن اجتيازها إلّا بمساعدة أحدنا الآخر، وفي الساعة الأخيرة من التسلّق كنا منهكين وعطشى، لكن لم نتوقف، إذ علينا بلوغ القمة قبل الضوء، وإلّا فإننا سنفقد عنصر المباغتة، ويتحوّل المتمردون باتجاهنا ويشاغلوننا بنيرانهم من فوق. قبل الفجر بدقائق كنا قد وصلنا إلى القمة، وكان أمامنا بستان كبير محاط بسياجٍ من الصخور متوسط الارتفاع، وفجأة فُتحت علينا نيران أسلحة عددٍ من المتمرِّدين، وقدَّرتُها ببنادق عدّة. إذًا كُشف أمرنا أخيرًا، ويجب التعامل معهم بسرعةٍ قبل وصول أعداد أخرى فأمرت جماعات القاذفات RBG7 بضرب السياج بأكثر من صاروخ لكلِّ قاذفةٍ، وجماعات الرشاشات بإسناد جماعات الصولة التي ستقفز إلى البستان، وأصدرت الأمر بصولة السريّة التي كانت خلفي مباشرة مع فصيل الاستطلاع، وتحت ضربات الصواريخ لجدار البستان الذي كانت صخوره تتطاير في الهواء، وإسناد الرشاشات قفز جنودنا إلى منطقة البستان، وقتلوا أوّل اثنين شاهدوهما، وتعقبوا الآخرين الذين هربوا باتجاه المزار وإلى الجانب الآخر

من البستان.
اقتحم جنودنا المزار وكان خاليًا، وشاهدنا العشرات منهم يعبرون السياج في الاتجاه الآخر، وسرعان ما اختفوا في الشقوق والأودية السحيقة في الجانب الغربي من الجبل. أخبرت الفرقة عن الموقف، وأن القمة والمزار والبستان كلها قد أصبحت تحت سيطرتنا، وأني أنتظر وصول اللواء الخامس الذي كان يتسلق من طريق الكلية العسكرية، وقبل وصول اللواء الخامس القمة بمسافة قليلة اندلع القتال بينه وبين من تبقى في المواضع التي كانوا موجودين فيها لمقاومة القوات التي ستصعد من هذا الاتجاه، فطلب قائد الفرقة منا القضاء على المقاومة التي تُواجه اللواء الخامس، فأرسلت عددًا من القناصة الذين أجبروا المتبقين على الفرار في الشقوق التي يعجّ بها جبل سنجار، وقُتل أحد جنودنا من فصيل الاستطلاع وجُرح آخر، وتكبَّد اللواء الخامس قتيلين، وجُرح عدد من عناصره (المعروف عن اليزيدية شراستهم في القتال، وطاعتهم العمياء لرؤسائهم، لكن المفاجأة أربكتهم، وأجبرتهم على الفرار من مواضعهم المهيأة على طريق الكلية العسكرية)، وكان من بين القتلى في البستان ابن خديدة بزي الذي كان يقود المتمرِّدين، أما خديدة فقد هرب إلى سورية عندما رأى أن الجبل قد سقط بأيدي قواتنا.
طلبت من اللواء الخامس استلام الجبل من فوجي لأنني سأنزل والفوج بعد انتهاء الواجب، وكان آمر اللواء الخامس المقدّم الركن حازم برهاوي [79] يرغب في بقاء الفوج، لكنني أمرته بالنزول فورًا، وطلبت طائرة سمتيّة لمواجهة القائد، فأرسل طائرة سمتيّة إنكليزية الصنع من طراز ويسكس، فأقلّتني إلى قائد الفرقة الذي طلب أن يبقى الفوج اليوم والليلة وينزل غدًا. فطلبت منه أن ينزل الفوج حالًا وفق ما اتفقنا عليه، فالقوات الخاصّة تحتل الأهداف وتسلمها، فامتعض القائد مما سمعه، وقال: «هناك واجب آخر»، وذكر قريةً يجب تطهيرها لورود معلومات عن وجود العدو فيها، وأنه يجب أن أتحرك بأسرع ما يمكن.
عند تكامل الفوج تحركنا من دون أي قسط من الراحة إلى القرية التي طُلب منا تطهيرها بدلالة الأدلّاء اليزيديين، وعندما وصلنا القرية التي كانت في وادٍ قرب مجرى ماء، وتحيط بها الجبال الشاهقة، وفتشناها فلم يكن فيها إلّا النساء والشيوخ، أخبرنا الفرقة، فأمر القائد أن نتسلّق الجبل المشرف على القرية ونفتشه لاحتمال لجوء المتمرِّدين إليه، فطلبت منه إرسال طائرتين سمتيّتين من طراز ويسكس، فأرسل واحدةً أقلّتني وحضيرة

من فصيل الاستطلاع، وهبطنا على قمة الجبل، وأكملت السمتيّة نقل بقية الفصيل، ولم نعثر على أحد فأخبرنا الفرقة بأننا على قمة الجبل وليس للمتمرِّدين وجود، فأمر القائد بأن نذهب إلى هدف آخر، وهو قرية يزيدية قريبة من الحدود السورية، فعدنا إلى منطقة تجمّع الفوج، وانطلقنا مع الأدلّاء إلى الهدف الجديد القريب من الحدود السورية، ووصلنا عصرًا، وتوقّفنا قبل القرية التي كان على شمالها مرتفَع كبير، ودفعت فصيل الاستطلاع إلى القرية ففُتحت علينا نيرانٌ كثيفةٌ من المرتفع شمال القرية، ومن القرية. وكانت عشرات الطلقات تتساقط تحت أقدامنا، فدفعت سريّة إلى جنوب القرية، وأخرى من الأمام، والثالثة تشاغل منطقة العارضة الجبلية في شمال القرية. واقتحم الفوج القرية، وعثرنا على العشرات مع أسلحتهم، وادعوا أنهم مسلحون من جانب الحكومة، وكان الوقت قد أصبح ليلًا، فقيّدنا اليزيديين المسلحين بعد أن أخذنا أسلحتهم ووزعناهم على عجلاتنا، ووصلنا معسكرنا قبل منتصف الليل، وكان القائد في مقرّه مع مجموعةٍ من شيوخ اليزيدية الذين ادّعى أحدهم بأننا قتلنا أبرياء من أهالي القرية القريبة من الحدود السورية. فقلت للقائد: «أنا كنت هناك وليس هذا الرجل، لقد فُتحت علينا نيران من القرية، ومن العارضة في شمالها، وألقينا القبض على أكثر من 50 مسلحًا منهم»، فأجاب الرجل: «أنا كنت هناك أيضًا»، فقلت له محتدًّا: «لو كنت هناك لجلبتك معهم»، ولم يكن القائد [80] الذي كلَّفني بهذا الواجب سعيدًا بما قمنا به، وفي اليوم التالي استأذنته في العودة إلى كركوك. في الأول من تشرين الأول/أكتوبر 1973 أجريت عملية جراحية في مستشفى كركوك العسكري، وكان يجب أن أُجريها منذ زمن، وكنتُ أؤجِّلها مرةً بعد أخرى.

X ولد أحمد حسن البكر في تكريت عام 1914، وتخرّج في مدرسة المعلمين عام 1932. دخل الكلية العسكرية في عام 1938، وصار عضوًا في تنظيم الضباط الأحرار الذي أطاح العهد الملكي في عام 1958. اعتُقل بعد فشل ثورة الشواف في عام 1959، وأحيل على التقاعد. انضمّ إلى حزب البعث العربي الاشتراكي، وشارك في إطاحة عبد الكريم قاسم في 8 شباط/فبراير 1963، ومنح رتبة لواء وعيّن رئيسًا للوزراء. بعد «ردة تشرين» التي قادها عبد السلام عارف عيّن نائبًا لرئيس الجمهورية ثم استقال واعتقل في عام 1965، وأصبح أمين سرّ القيادة القطرية لحزب البعث في العراق. في ثورة 17 تموز أصبح رئيسًا للجمهورية، وتنحى عن منصبه في عام 1979 لصدام حسين في أحوال يكتنفها الغموض. توفي في 4/10/1982.

X حماد شهاب من مواليد تكريت. أكمل دراسته فيها ودخل الكلية العسكرية وتخرج ضابطًا برتبة ملازم ثانٍ (ضابط درع). وتولّى قيادة اللواء المدرع العاشر في كركوك عام 1964. انضمّ إلى حزب البعث العربي الاشتراكي، وشارك في ثورة 17 تموز، وأصبح عضوًا في مجلس قيادة الثورة، وتقلد منصب رئيس أركان الجيش بعد إقالة اللواء الأنصاريّ في عام 1968، ثم صار وزيرًا للدفاع بعد إقالة الفريق الطيار حردان التكريتي في عام 1969. قُتل بعد محاولة ناظم كزار إطاحة الرئيس أحمد حسن البكر في عام 1973.

X مديرية العلاقات العامة أنشئت بعد قيام ثورة 17 تموز 1968 من معظم عناصر جهاز «حُنين»، وهو اليد الضّاربة لحزب البعث قبل قيام الثورة التي أشرف عليها صدام حسين. وبعد قيامها شُكلت مديرية العلاقات العامة التي تحولت إلى مديرية الاستخبارات العامة، وكانت تحت إشراف صدام حسين وتوجيهه.

X حردان عبد الغفار التكريتي (الفريق الطيار الركن)، ضابط طيار انتمى إلى حزب البعث العربي الاشتراكي، وكان من جملة العسكريين الذين أيدوا الرئيس عبد السلام عارف في حركة تشرين 1963 (يدعوها البعثيون بالردة التشرينية). اعتزل العمل السياسي العلني بعد تشرين، لكنه كان من المجموعة التي خطّطت للاستيلاء على السلطة في 17 تموز/يوليو 1968، وذهب ضحية الصراع على السلطة بين قياداتها، فاغتيل في الكويت عام 1969.

X عبد الرزاق النايف ضابط طموح كان بمنصب معاون مدير الاستخبارات عندما فاتحه صديقه المقدّم الركن إبراهيم الداود آمر لواء الحرس الجمهوري بأنه قد اتفق مع البعثيين على الانقلاب على الرئيس عبد الرحمن عارف، فاتفقا على التعاون. بعد نجاح الثورة عيِّن النايف رئيسًا للوزراء فيما عيِّن إبراهيم الداود وزيرًا للدفاع، وفي 30/7/1968 أطاحهما البعثيون وأُبعدا عن العراق. قتله النظام البعثي العراقي في لندن عام 1975.

X طه ياسين رمضان (الجزراوي)، ولد في الموصل عام 1938، وانضمّ إلى صفوف حزب البعث العربي الاشتراكي في عام 1956. انخرط في السلك العسكري برتبة نائب ضابط تلميذ ثم ملازم ثانٍ وأصبح عضو القيادة القطرية للحزب. شارك في ثورة 17 تموز ومنح رتبة نقيب، وعضو في المكتب العسكري للحزب. كان من أشد أنصار الرئيس صدام حسين ومن

المؤمنين بقيادته. تولّى منصب وزير الصناعة وأصبح نائب رئيس الجمهورية في عام 1991. ألقي القبض عليه في مدينة الموصل في آب/أغسطس 2003، ونُفذ الإعدام فيه في 20/3/2007.

X عُيِّن فاضل البراك في عام 1977 مديرًا للأمن العام، ومُنح رتبة لواء في عام 1984. ثم عُيِّن في منصب مدير الاستخبارات العامة، وفي عام 1990 أُخرج من منصبه، ونُصِّب مستشارًا في رئاسة الجمهورية حتى عام 1991 حين ألقي القبض عليه، وأعدم بتهمة التخابر مع دولة أجنبية.

X والد وزير الدفاع عدنان خير الله، وخال الرئيس صدام حسين، ووالد زوجته. كان أول من أساء إلى الرئيس والسلطة بفساده واستغلاله قرابته للرئيس وللعائلة الحاكمة.

X المقصود هنا انقلاب اللجنة العسكرية البعثية السورية على القيادة القومية للحزب (ميشيل عفلق) في 23 شباط/فبراير 1966، وتبع جزء من التنظيم الحزبي العراقي القيادة الانقلابية، وما زالت بقاياه موجودة في سورية حتى الآن.

X الفريق صالح مهدي عماش من أوائل البعثيين العسكريين. عضو القيادة القطرية للحزب شارك في ثورتي 8 شباط و17 تموز، وعيّن وزيرًا للدفاع في عام 1963، ووزير داخلية ونائبًا لرئيس الوزراء في عام 1968 ونائبًا لرئيس الجمهورية في عام 1970 حتى أُبعد سفيرًا إلى موسكو في عام 1971 بعد خلافه مع صدام حسين، ومات في منتصف الثمانينيات في أحوال غامضة.

X عبد الخالق السامرئي أحد أهم قيادي حزب البعث العربي الاشتراكي في العراق، ويُعرف باسم «راهب الحزب». سكن حتى آخر أيام حياته في مسكن متواضع، ويعتبر من أهم مفكري الحزب. خشي صدام حسين من تأثيره في الحزب والحزبيين فأودعه السجن في عام 1973 بحجة وجود علاقة ما بالمحاولة الانقلابية لناظم كزار، ثم أعدم في عام 1979 بعد تسلم الرئيس صدام حسين السلطة.

X عبد الله سلوم أحد البعثيين القدامى وعضو القيادة القطرية ووزير بعد ثورة 1968. أبعد إلى منصب سفير العراق في الهند بعد خلافه مع صدام حسين، وأحيل بعدها على التقاعد وتوفي في بغداد.

X عبد الكريم الشيخلي من البعثيين القدامى، وكان عضو القيادة القطرية ووزير الخارجية. أُطيح بعد خلافه مع صدام حسين وقُتل في أحوال غامضة.

X محمد فاضل عضو القيادة القطرية، والمكتب العسكري. اتُّهم بالاشتراك في مؤامرة ناظم كزار (1973)، وأعدم في إثرها.

X سعدون شاكر العضو البارز في جهاز حُنين، القوة الضاربة للحزب في أيام النضال السريّ، وأول رئيس للاستخبارات العامة عضو القيادة القطرية، ووزير الداخلية لفترة طويلة. قُبض عليه بعد الاحتلال الأميركي في عام 2003.

X العقيد الركن حامد الدليمي من دورتي في الكلية العسكرية. بعثي قديم وعضو فرع التنظيم العسكري للحزب. تولّى منصب معاون مدير استخبارات ثم آمر لواء، وأبعد إلى منصب ملحق عسكري في باكستان. اعتقل بعد تولّي صدام حسين رئاسة الجمهورية. مات تحت التعذيب في السجن.

X جبهة التحرير العربية هي أحد فصائل المقاومة الفلسطينية والمسندة من حزب البعث، أُسست في عام 1969 وكان دورها بين أوساط فلسطينيي العراق إجمالًا.

X الرائد علي العبيدي خريج الكلية العسكرية الدورة 34 في عام 1958. بعثي أصبح سكرتيرًا للنائب صدام حسين. يتميز بهدوئه وتكتمه. نُقل نتيجة وشايات من منصبه إلى منصب مدير مستشفى مدينة الطب، وتقاعد بعدها.

X ضابط درع عمل آمرًا لكتيبة دبابات القصر الجمهوري في عهد الرئيس عبد الرحمن عارف، واتفق مع إبراهيم عبد الرحمن قائد الحرس ومع البعثيين على التعاون لإطاحة الرئيس عارف، وهو الذي فتح أبواب القصر الجمهوري للانقلابيين، وكوفئ على ذلك بترقيته إلى رتبة عميد، وتعيينه عضوًا في مجلس قيادة الثورة ووزيرًا للداخلية. نجا من القتل على يد ناظم كزار في مؤامرته في حزيران/يونيو 1973. توفي بمرض السرطان.

X مدحت إبراهيم جمعة أحد قدامى البعثيين. كان عضوًا سابقًا في القيادة القطرية، وبعد ثورة 17 تموز 1968 عُين سفيرًا في الكويت، ولم يكن يعلم بعملية اغتيال الفريق حردان قبل حدوثها.

X العقيد الركن محمد علي سعيد من البعثيين العسكريين القدامى عُين بعد ثورة 17 تموز 1968 في منصب قائد الفرقة الثانية في كركوك، واتهم بمحاولة القيام بانقلاب على الحزب في عام 1971 فألقي القبض عليه وأعدم.

X لجان تطوير الصنف صيغة استُحدثت من خارج الملاك لإقران خبرة

وتجربة مدير الصنف (السلاح) بخبرة واندفاع وعفوية القادة الحزبيين الشبان من ضباط الصنف (السلاح). كانت مهمتها التخطيط لتطوير الصنف بما في ذلك التسليح والتجهيز والتدريب وإيفاد ضباط الصنف إلى الدورات خارج القطر.

X كان علي حسن المجيد نائب عريف، سائق عجلة تزويد الطائرات بالوقود في قاعدة الحريّة الجوية (كركوك) قبل ثورة 17 تموز 1968. تفرّغ بعدها للعمل الحزبي، وهو ابن عم صدام حسين، ورجل المهمات الصعبة كما كان الرئيس صدام يطلق عليه. أصبح عضوًا في القيادة القطرية للحزب، وعضو مجلس قيادة الثورة، ثم وزيرًا للدفاع بعد حرب 1991 مع قوات التحالف.

X عبد الستار المعيني من الضباط الجيدين. تولّى قيادة الفرقة الرابعة في الحرب العراقية - الإيرانية وقيادة الفيلق الثاني، ثم صار معاونًا لرئيس أركان الجيش في عام 1987، ووزيرًا للمواصلات في عام 1991، وبعد الاحتلال الأميركي للعراق غادر إلى الأردن مع عائلته.

X عبد الوهاب الأتروشي كان ضابط شرطة في وزارة الداخلية قبل هروبه إلى جانب المسلحين الأكراد في عام 1961. قاد مجموعات منهم وقاتل قوات الجيش في معارك عديدة. عاد إلى الصف الوطني وعيِّن سفيرًا ثم عضوًا في المجلس التنفيذي للحكم الذاتي بدرجة وزير، توفي في عام 2010 في شمال العراق.

X من الضباط البعثيين الشباب. استشهد في الحرب العراقية - الإيرانية عندما كان يقود لواءه في القاطع الجنوبي من الجبهة.

X كادر حزبي مدني، ومن جهاز حُنين أيام النضال السري. مُنح رتبة لواء وصلاحيتها بعد تعيينه مديرًا للأمن العام. قاد مؤامرة للسيطرة على السلطة بقتل البكر والبعثيين العسكريين، ثم أعدم بعد إلقاء القبض عليه ومحاكمته محاكمة سريعة.

X اليزيديّة إحدى الطوائف الدينية التي تسكن في محافظة الموصل، ويدعي بعض رؤسائهم أنهم من سلالة الأمويين الذين لجأوا إلى المناطق الجبلية في قضاء الشيخان حيث مقرّهم الديني وجبل سنجار في محافظة نينوى (الموصل) بعد سقوط الدولة الأموية. لهم معابدهم الخاصّة ويتكلم معظمهم الكردية والعربية. من أهم المراجع العربية عنهم كتاب صديق الدملوجي اليزيدية الذي أصدره في عام 1949 بعد أن عايشهم ونشأت بينه وبين أميرهم وطبقاتهم الدينية علاقات وثيقة جدًا منذ أن تولّى

مديرية ناحية باعذرى (مقرّهم الديني والزمني) في العهد العثماني.

X أحد رجال اليزيدية. تواطأ مع الملا مصطفى البرزاني لتنفيذ عمليات مسلحة مع بعض أتباعه في قضاء زاخو الواقع غرب محافظة الموصل، والمحاذي للحدود السورية.

X النيسم هو طريق ترابية ضيقة يسلكها المشاة، وبعض الحيوانات في المناطق الجبلية.

X اللواء الركن حازم البرهاوي من الضباط الجيدين تولّى قيادة الفرقة الرابعة ثم السابعة لفترة قليلة ثم الفرقة الثانية. شارك في حركات الشمال، وفي الحرب العراقية - الإيرانية، وتولّى منصب مدير الأشغال العسكرية، وتقاعد برتبة لواء ركن.

X أخبرني الرفيق خليل العزاوي، أمين سرّ الفرع العسكري، أن العميد الركن طالب محمد (طلبة) كاظم قائد الفرقة الرابعة الذي عملت بإمرته في زاخو، قد كتب إلى القيادة تقريرًا في غير صالحي عن العمليات التي نفذتها، فأخبرته بتفاصيل ما حدث في معركة زاخو فطلب أن أكتب تقريرًا لتوضيح ما حدث فعلًا فرفضت، وأخبرته بأني قد حكيت لكم ما حدث من وجهة نظري، ويمكنكم أن تحققوا وتعرفوا الحقيقة.

الفصل الرابع: مقاتل في جبهة الجولان

لم يكن في الأجواء السياسية أو العسكرية ما يُنذر بنشوب حرب تشرين التي فوجئنا باندلاعها في الساعة 14:55 من 6 تشرين الأول/أكتوبر 1973، فتركت المستشفى فورًا، والتحقت بوحدتي على الرغم من تحذير الأطباء، وعدم موافقتهم على خروجي خشية عواقب عدم التئام جراح العملية بعد.
كانت الأجواء في غاية الحماسة، والمعنويات في أقصاها، وكان الجميع متلهفًا للاشتراك في المعارك الدائرة في الجبهتين المصرية والسورية، وتابعنا بفخر واعتزاز عبور القوات المصرية القناة، وسيطرتها على ضفتها الشرقية، وكنا ننتظر على أحر من الجمر اندفاعها إلى الاستيلاء على الممرات في سيناء بعد عبور القناة، وسحقها القوات الإسرائيلية في خطّ بارليف. وفي الجبهة الشرقية كان اكتساح السوريين الصاعق لدفاعات العدو الصهيوني في الجولان مبعث فخرِ واعتزازِ كلِ فرد في قواتنا المسلحة. وقبل بضعة أشهر استجابت القيادة السياسية لطلب الحكومة المصرية إرسال سرب طائرات الهوكر هنتر لتعزيز قواتها الجوية (20 طائرة)، فشاركت طائراتنا باقتدار وكفاية في الضربة الأولى، وعملت بفاعلية طوال أيام الحرب.
تحركت القيادة السياسية العراقية بسرعة فائقة على الرغم من عدم إشعارها أو معرفتها بالاتفاق المشترك بين القيادتين السياسيتين السورية والمصرية على شنّ الحرب على إسرائيل، واسترجاع أراضيهما المحتلة، فأرسلت على الفور جهدًا جويًا كبيرًا إلى الجبهة السورية، ووضعته بإمرة وتصرّف قيادة القوات الجوية السورية. وفي اليوم التالي حرّكت قواتها البرية إلى الجبهة السورية تتقدمها الفرقة المدرعة الثالثة، وحملت ناقلات الدبابات المتيسّرة اللواء المدرع 12، وتلتها بقية التشكيلات المدرعة والآلية ومدفعيتها الذاتية الحركة [81] متنقلة على الطريق إلى سورية على السرف لعدم تيسر الناقلات لمسافة أكثر من 1000 كلم لجبهة القتال في الجولان. وبعد يومين من بداية الحرب (8 تشرين الأول/أكتوبر) وصل اللواء المدرع 12 الأراضي السورية فترجّلت دباباته عن ناقلاتها التي عادت لتنقل بقية القطعات التي تتحرّك على السرف [82] باتجاه الأراضي السورية، واندفع اللواء المدرّع على الفور إلى هضبة الجولان.
بعد التقدم السريع للتشكيلات المدرعة السورية لتحرير هضبة الجولان الذي أجبر العدو فيها على التراجع وإخلاء الهضبة، وتمكّنت بعض الوحدات

السورية من الوصول إلى منطقة قريبة من بحيرة طبرية [83] ، وبعد تقدير العدو الإسرائيلي للموقف العسكري في الجبهتين الشمالية السورية، والجنوبية المصرية، كانت الأسبقية عنده لمواجهة الحالة الخطرة في الجولان التي في حالة تطورها ستُوصل إلى الأهداف الحيوية الإسرائيلية في قلب الكيان الصهيوني، فحشد معظم قطعاته المدرعة وتشكيلاته المقاتلة في القاطع الشمالي، وشن هجومًا مقابلًا شاملًا على القوات السورية التي تمكّنت من إعادة سيطرتها على كامل الجولان، وأجّل معالجة تهديد القوات المصرية شرق القناة التي تفصلها صحراء سيناء والنقب عن مدنه وأهدافه الحيوية كأسبقية ثانية، وترك قوات محدودة لمواجهة التهديد في هذه الجبهة.

يكمن الخطأ الذي ارتكبته القيادة العسكرية السورية في أن قواتها في خضم تقدمها السريع على هضبة الجولان لم تشغل الأراضي التي تحرّرت بتشكيلات المشاة لتشكيل قواعد أمينة ودفاعية قوية تستند إليها قواتها المدرعة عند قيام العدو بهجومه المقابل المتوقع، ولذلك عند حصول الهجوم تراجعت الألوية المدرعة السورية من دون قاعدة تستند إليها، الأمر الذي أدى إلى تدمير دباباتها وإخلاء هضبة الجولان بالسرعة التي احتلوها بها فأضاعوا جميع مكاسبهم، وأصبحت سورية بأجمعها مكشوفة أمام القوات الإسرائيلية المتقدمة التي ناورت بمعظم تشكيلاتها المدرعة التي كانت قد حشدتها على الجبهة السورية ثم انتقلت إلى الجبهة المصرية في الجنوب بعد أن قضت على التهديد السوري في الشمال.

أما الخطأ الذي وقعت فيه القيادة العسكرية المصرية فكان في عدم استغلالها نجاح قواتها في عبور قناة السويس، وتدمير لواء المشاة الإسرائيلي المُدافِع عن الضفة الشرقية بجبهة طولها 110 كلم، وتدميرها اللواءين المدرعين الإسرائيليين ولواء الاحتياط الإسرائيلي في جبهة القناة للهجوم المقابل، في التقدم السريع، إذ كان يجب احتلال المضايق في سيناء [84] بعد السيطرة عليها بالقوات الخاصّة وكتائب الاستطلاع العميق بحجة عدم توافر الغطاء الجوي الكافي، وتخوفها من الخروج خارج مدى دفاعاتها الجوية في وقت كانت فيه هذه الجبهة شبه فارغة من القوات البرية الإسرائيلية، وكان الجزء الأكبر من قوتهم الجوية مشتبكًا بمعارك مريرة مع الطيران السوري والطيران العراقي الذي قاتل بشجاعة وإقدام.

في 9 تشرين الأول/أكتوبر كان العدو الإسرائيلي يتعقب بسرعة كبيرة على محور القنيطرة - الكسوة - دمشق ما تبقى من التشكيلات المدرعة السورية التي خسرت معظمها من 80 إلى 90 بالمئة من دباباتها التي

كانت تتراجع من دون انتظام، بينما كان اللواء العراقي المدرع 12 يتقدم مسرعًا لتغطية تراجع القوات السورية، فاصطدم بالألوية المدرعة الإسرائيلية في معركةٍ تصادفيةٍ [85] غير مخطط لها، في منطقة تل الشعار - تل العدسية - تل الحارة، فدارت معارك دبابات شديدة وتدخّل الطيران الإسرائيلي، وتكبَّد الجانبان خسائر كبيرة، فاضطرت القيادة العسكرية للجبهة الشمالية للعدو إلى التوقف وإعادة تقديرها للموقف بعد أن فوجئت بالقوات المدرعة العراقية وقتالها الشرس في معركة الدبابات. وتبيّن للعدو أن الدبابات والآليات العراقية تتحرك باتجاه دمشق من بغداد بأرتال أولها في دمشق وآخرها في بغداد.

في 8 تشرين الأول/أكتوبر أصدرت رئاسة أركان الجيش أوامرها بحركة القوات الخاصّة إلى الجبهة السورية، وكان فوجي أول من أقلع بالطائرات من قاعدة كركوك العسكرية إلى مناطق تحشُّدِنا الأمامية في القاعدة الجوية H3 قرب الحدود الغربية للعراق بانتظار عجلات الفوج التي أُرسلت لنقل الفوج الخامس قوات خاصّة الذي كان في دور التشكيل قبل اندلاع الحرب مباشرة في مدينة الناصرية جنوب العراق. وحال وصول عجلات الفوج تحركنا ليلة 11- 12، وكان الأمر الذي استلمته ينص على أن نكون بإمرة الفرقة العراقية الثالثة المدرعة التي كانت تشكيلاتها المدرعة والآلية مشتبكة بالقتال مع العدو في جبهة الجولان.

فجر 12 تشرين الأول/أكتوبر وصلنا إلى قرب القاعدة الجوية جنوب دمشق وتوقفنا هناك، تركت الفوج بإمرة معاون آمر الفوج، وتحركتُ مع فصيل الاستطلاع إلى دمشق، وفي منطقة الغوطة قبل دمشق شاهدت عددًا كبيرًا من الدبابات الحديثة من نوع T62 المنتشرة على امتداد الطريق تحت ستر أشجار الغوطة. كان ذلك غريبًا، إذ يجب أن تكون هذه الدبابات الحديثة والمتفوقة في جبهة القتال بعد أن أصبح موقف الجيش السوري على الجبهة حرجًا، وفقدت تشكيلاته المدرعة كلَّ دباباتها أو معظمها، ولم يكن لدينا مثل هذه الدبابات آنذاك، إذ كان السوفيات يقدِّمون للسوريين أسلحة أحدث مقابل التسهيلات لأسطولهم في ميناءي اللاذقية وطرطوس، وكانت هذه الدبابات تعود إلى سرايا الدفاع المسؤولة عن حماية الرئيس السوري التي يقودها رفعت الأسد شقيق الرئيس، والظاهر أنها قد أُرسلت لمراقبة القوات العراقية المتدفقة على الجبهة خوفًا من قيامها بانقلاب على النظام السوري. ذهبت إلى مقرّ آمرية الشرطة العسكرية لأستدل على مكان الفرقة المدرعة العراقية الثالثة، وبعد أخذ ورد

وسلسلة طويلة من الاتصالات أخبرونا بأن مقر الفرقة العراقية موجود في أحد المعسكرات في حرجلة، فانطلقت وفصيل الاستطلاع إليها، وفي طريقي إلى هناك كنا نشاهد مجموعات من أفراد الجيش السوري تعود من الجبهة، ومعظمها من دون أسلحتها أو تجهيزاتها. وصلت حرجلة ضحى ذلك اليوم وقدّمت نفسي لقائد الفرقة العميد الركن محمد فتحي الذي أعرفه جيدًا منذ أن كنت مرافقًا لقائد الفرقة الثانية، وكان آمرًا لأحد أفواج اللواء الرابع الذي أبلى بلاءً حسنًا في معارك بنجوين آنذاك، وأخبرته بوصول فوجي وباقي القوات الخاصّة التي ستصل تباعًا، وأننا قد وُضِعنا بإمرته، وأعدت فصيل الاستطلاع إلى الفوج ليدلّه على قاطع الفرقة.

أوجز لي قائد الفرقة الموقف القتالي للفرقة واللواء المدرع 12 الذي كان يقاتل تحت ضغطٍ معادٍ شديدٍ، والمشتبك منذ الصباح مع العدو في تل عنتر على الذيول الجنوبية الشرقية لهضبة الجولان وقال إن الاتصال معه قد انقطع منذ بضع ساعات، وأبدى انزعاجه من آمر اللواء لعدم الاتصال به لبيان موقف اللواء، وليس لديه صورة واضحة حاليًا عما يجري هناك، فاستأذنته في الذهاب إلى اللواء فلدي وقت كافٍ حتى وصول فوجي إلى قاطع الفرقة فوافق، وأرسل معي دليلًا من ضباط الفرقة. انطلقنا إلى قصبة كفر شمس [86] حيث مقرّ اللواء الرئيس، وأشار دليلي إلى عدد من ناقلات الأشخاص المدرعة وبعض العجلات المنتشرة بأنه مقرّ اللواء 12 فترجلنا من العجلة، وجاء أحد الضباط برتبة ملازم فسألته عن الضابط المسؤول فقال مقدّم اللواء، وهو في ناقلة الأشخاص المدرعة تلك، وأشار إليها فذهبت، وطرقت على جُدُرها فلم يردّ عليّ أحد فصعدت إلى أعلى الناقلة، وطرقت بشدّة مرات عديدة على الفتحة العلوية للناقلة، وأخيرًا أخرج ضابط ركن برتبة رائد رأسه منها، فسألته «أين آمر اللواء؟»، فأشار بيده «هناك في تل عنتر»، ثم «غطس» ثانية في الناقلة وأغلق فتحتها العلوية.

كانت المنطقة تتعرض لقصف معادٍ متقطّعٍ فترجلنا من العجلة، وتقدّمنا راجلين إلى النهاية الجنوبية لتل عنتر، وكانت في أسفل التل حفرة مستطيلة واسعة ولمحنا بضعة أشخاص ممتدين في تلك الحفرة، فتقدمنا نحوهم والتفت أحدهم وشاهدنا مقبلين عليهم فأشار بيده أن نخفض رؤوسنا، كانوا خمسة أو ستة، ولمحت من بينهم المقدم الركن سليم شاكر الأماميّ، آمر اللواء المدرع 12.

كان الأماميّ من دورتي في الكلية العسكرية ومن فصيلي، وكنا نسكن

القاعة نفسها في سنوات الدراسة الثلاث في الكلية، وبعد أن تخرجنا انتمينا معًا إلى الصنف المدرع، ودخلنا كلية الأركان معًا، وكان من البعثيين القدامى. كان عاري الرأس يلف رقبته بكوفية حمراء، وإلى جانبه تمتد مجموعة صغيرة من المخابرين مع أجهزتهم، وقد خفضوا الأسلاك الهوائية لأجهزتهم كي لا يرصدها العدو، وقد يكون هذا سبب انقطاع اتصالاتهم بمقرّ الفرقة، وعلى بعد خطوات منهم يمتد ضابطان سوريان برتبة عقيد. فحييته بحرارة فقال: «من الذي أتى بك إلى هنا؟»، فأجبته مازحًا: «هل تعتقد أن الحرب يمكن أن تنتهي من دوني؟»، فسألني وعلامات القلق على وجهه: «ما الذي يقولونه عني هناك؟»، وأشار إلى الخلف فقلت متعمدًا كي أرفع معنوياته: «يقولون إنك تقوم بعمل جيد»، فاختفت علامات القلق عن وجهه وانطلقت أساريره بشرًا. وقال: «نزار انظر (وأشار إلى العقيدين السوريين) هذان العقيدان يعملان بإمرتي»، وكان يبدو سعيدًا بذلك.

قلت: «سليم أريد أن تشرح لي الموقف»، قال: «نقاتل في تل عنتر بعد أن اضطرّرنا إلى الانسحاب لتفوّق العدو الكبير. إلى اليمين من تل عنتر كتيبة قتيبة، وقد انقطع اتصالي بآمرها الرائد الركن هادي الراوي، وسأحاسبه على ذلك (كانت دبابة الرائد الراوي قد دمّرت واستشهد فيها)، وإلى اليسار من تل عنتر كتيبة المعتصم، وآمرها الرائد الركن زهير قاسم شكري، وقد انقطع اتصالي به وسأحاسبه أيضًا (كانت دبابة القيادة التي فيها آمر الكتيبة الرائد زهير قد دمُرت فانتقل إلى دبابة أخرى للقتال ولم يكن فيها اتصال باللواء)». وأضاف: «إلى اليسار أيضًا، أترى ناقلات المشاة المدرعة تلك؟ (وأشار إليها). هي ما تبقى من الفوج الآلي للواء، ولا أعرف مصير آمر الفوج المقدّم الركن حازم الجنابي». كان مقرّ الفوج الآلي قد حُوصر من دبابات العدو في فجر ذلك اليوم، واستطاعوا أسر ناقلات مقرّ الفوج، وكان المقدّم الركن حازم من ضمن الأسرى، وفي الليل تعرضت المجموعة الإسرائيلية التي تحرس أسرى الفوج الآلي لقصف مدفعي كثيف فاستتروا من شدّة القصف فانتهز المقدّم الركن حازم ومجموعة من ضباط الصف والجنود هذا الموقف، وتمكنوا من التملص من العدو والعودة إلى قطعاتنا صباح اليوم التالي.

سألت سليم: «وأين هو العدو الآن؟»، فأشار بيده، وقال: «هناك على تلك المرتفعات المشرفة على تل عنتر»، وسمّاها لي إلى اليمين تل المال، وفي الوسط تل لا أذكر اسمه، وإلى اليسار تل قرين. كان قصف العدو متقطعًا على مقرّ اللواء سليم الأماميّ ومجموعته وقنابله تئز وهي تمرّ من فوق

رؤوسنا لتنفجر بعيدًا منا، وكنت أخفض رأسي لاإراديًا عند مرورها فوق رؤوسنا، فقال: «نزار، لا تخفض رأسك عند سماع أزيزها فالقنبلة التي تقتلك لن تسمعها»، وكان محقًّا بقوله ذلك.

بعد قليل جاءت مجموعة أخرى من الضباط يتقدّمهم آمر اللواء السادس المدرع الرائد الركن غازي العمر التكريتي من عائلة الرئيس البكر، الذي تولّى آمرية لواء مدرع من دون أن يكون مؤهلًا لهذا المنصب، فجعله خاملًا وغير فاعل، ومعه عدد من ضباطه للاستطلاع. ولتكاثر أعدادنا في أسفل الوادي كثف العدو قصفه علينا فسارع آمر اللواء المدرع وضباطه بالمغادرة بعد أن قال: «لقد رأينا ما يكفي». بعد ذهابهم التفتُّ إلى آمر اللواء وقلت له: «سليم، سنقوم هذه الليلة بمهاجمة أولئك الأوغاد على تلك التلال».

كان فوجي قد وصل حرجلة عندما وصلتُ مقرّ الفرقة، فاختير معسكر اللواء السبعين المدرّع السوري مكانًا لنا. وقال لي معاون آمر الفوج الذي قاده في تنقله إلى حرجلة إن العميد الركن إسماعيل تايه النعيمي [87] والعميد الركن منعم لفتة من ضباط الارتباط بين الأركان العامة العراقية والقيادة السورية التقياه عند تنقله إلى هنا، وطلبا منه تغيير اتجاه تنقله إلى جهة أخرى لتكليفه بواجب طارئ، لكنه رفض بعد أن أخبرهما بأن الأوامر لديه بأن يكون بإمرة الفرقة المدرعة الثالثة، وأراهما الأمر الصادر بذلك فتركاه يواصل تنقله إلى حرجلة، الأمر الذي يدل على الإرباك في المعلومات والارتجال في عمل الركن.

جمعت ضباط الفوج، وأوجزت لهم الموقف على الجبهة، وقلت: «أعلم أنكم متعبون لكنها الحرب، وسنهاجم العدو هذه الليلة»، ذهبت إلى مقرّ قيادة الفرقة، وأخبرت القائد أن فوجي سيهاجم العدو على المرتفعات الشمالية المشرفة والمسيطرة على تل عنتر هذه الليلة فوافق على ذلك. واستدعى ضابط ركن الاستخبارات وطلب منه مَدِّي بالمعلومات الضرورية لتنفيذنا الواجب فذهبت معه وكانت معلوماته جيدة. ولمّا سألته عن ذلك أخبرني أن الخبراء الروس في الأركان العامة السورية يزوّدون السوريين بالمعلومات التي تصل إليهم من مصادرهم، والفرقة تتلقّى معلوماتها من الاستخبارات العسكرية السورية. كانت الأقمار التجسسية الروسية تحصل على معلومات دقيقة عن أعداد العدو وأماكن وجوده، وفاعلياته يوميًا، ويزوّد الروس السوريين بما يعتقدون أنهم بحاجة إليه. فأخذتُ المعلومات وتعداد القوة المعادية في المرتفعات الشمالية لتل عنتر ثم التقيت ضابط ركن

المدفعية للفرقة لرسم الخطة النارية، والجهد الناري المطلوب لإسناد العملية، فأمّن لنا ضابطَ مدفعية مع شبكته اللاسلكية، وعدنا إلى مقرّ الفوج وأوجزت لهم الحالة مع خرائط مؤشرة.

كانت الخطة بسيطة ومباشرة، ثلاث مجموعات اقتحام تنطلق من القاعدة في تل عنتر إلى أهدافها في التلال الثلاث بهجوم صامت، وبكلمة رمزية مني تضرب العدو فيها، وتنسحب تحت ستار نيران مدفعيتنا، وطلبت منهم إكمال متطلبات العملية وأخذ قسط من الراحة.

مع حلول الظلام انطلقنا بالعجلات بتعتيم كامل إلى كفر ناسج، وترجّلنا فيها للتنقل إلى منطقة انطلاقنا في تل عنتر وفق الخطة، فأخبرنا ضابط من اللواء المدرع 12 أن التل قد أصبح في أيدي الإسرائيليين بعد انسحاب وحدات اللواء منه، وكان أمامي خياران: أن أُلغي العملية؛ أو أن أغيّر خطة الهجوم في ضوء الموقف الجديد، فقرّرت تغيير خطة الهجوم وأجريت تعديلًا لأماكن انطلاق مجموعات القتال ومواقيت تنفيذ الهجوم، واستغرق ذلك وقتًا ليس بالقليل، فاضطررت إلى تحديد الساعة 4.00 موعدًا لسحب المجموعات سواء أوصلت إلى أهدافها أم لم تصل. وفعلًا لم تستطع المجموعتان اليمنى والوسطى من الوصول إلى أهدافهما قبل الساعة 4.00 فسحبتهما من دون أن تنفذا هجوميهما، وتمكَّنت المجموعة اليسرى من مهاجمة العدو في تل قرين ضمن التوقيت، وانسحبت من دون أن نتمكَّن من تحديد خسائر العدو.

في اليوم التالي، وصلت آمرية القوات وباقي الأفواج واستقر الجميع في معسكرات اللواء المدرع السبعين، وكانت التشكيلات المدرعة والآلية العراقية تصل تباعًا إلى مناطق تحشُّدها جنوب الجولان، وكنا نتنقل بين مقرّ قيادة الفرقة للحصول على المعلومات والجبهة لتدقيقها على الأرض ومتابعة فاعليات العدو.

أوقفت قوات العدو الإسرائيلي تقدّمها وتحولت إلى الدفاع، وشرعت في العمل على تحصين مواضعها الدفاعية وتحسينها، بعد أن حصلت على المعلومات عن تتابع وصول القوات العراقية إلى الجبهة السورية وحشدها. كان الأميركيون من خلال قدراتهم التجسسية بالأقمار الصناعية والوسائل الأخرى يزوّدون الإسرائيليين بالمعلومات التي يحصلون عليها.

من المعلومات التي تحصل عليها قيادة الفرقة الثالثة المدرعة من القيادة السورية عن العدو يوميًا، التي أكدتها الاستطلاعات الدقيقة التي قمنا بها ومتابعتنا المستمرة لفاعليات العدو، استطعنا تحديد قوة العدو، وتوزيع

قطعاته في مناطق وجوده في تل عنتر والمرتفعات الشمالية المشرفة التي كان يحتلها بلواء مدرع معززٍ بالمشاة الآلي، يشغل التلال الشمالية الثلاث بمجموعات قتال «درع/مشاة آلي» بتعداد سريّة لكل منها. أما قوة اللواء الرئيسة فكانت في تل عنتر، وتل أحمد المجاور، والوادي الواقع بينهما، واقتصرت فاعلياته نهارًا على مشاغلتنا بنيران مدفعيته ودباباته من معلومات مراصده الأمامية، فيما تقتصر أعماله ليلًا على تحكيم مواضعه الدفاعية وإدامة عجلاته ودباباته في منطقة الوادي بين تل عنتر وتل أحمد.

كان اللواء المدرّع الإسرائيلي في تل عنتر هدف الهجوم الذي سنقوم به، وبُني تصميم العملية على تنفيذ غارة خاطفة ومفاجأة للعدو في منطقة وجوده الرئيسة في تل عنتر والوادي، وعلى حجز ومشاغلة مجموعاته القتالية المتمركزة في التلال الشمالية ومقرّه ومدفعيته، ومنعها من التدخّل والتأثير في قوتنا المهاجمة. وبناءً عليه ركّزت الخطة على خطة نارية محكمة وهجوم مباغت، كما يلي:

الخطة النارية: تشمل نيران حجز ومشاغلة للعدو المتمركز في التلال الشمالية المشرفة وعلى مقرّاته ومدفعيته في العمق:

- نيرانًا لضرب أهداف العملية الرئيسة بعد إكمال المجموعات القتالية صولتها على العدو مباشرة.

- إبقاء العدو تحت تأثير نيران مدفعيتنا لحين انسحاب المجموعات القتالية إلى مسافات ملائمة بعد تنفيذ واجباتها.

خطة الهجوم: وهي التسلّل ليلًا إلى المنطقة الكائنة شرق تل عنتر ثم الاستدارة غربًا باتجاه التل، والتقرب منه.

تكون مثابةُ مقرّ الفوج لقيادة العملية في النقطة التي تستدير منها مجموعات القتال [88] باتجاه أهدافها.

- تتقرب مجموعات القتال من أهدافها وتكمن في خطوط صولاتها.

- بالكلمة الرمزية المحددة تهجم المجموعات القتالية وتباغت العدو بضرباتٍ قويةٍ وسريعةٍ وفاعلةٍ.

- حال شروع المجموعات القتالية في صولتها تفتح المدفعية نيرانها لحجز ومشاغلة مدفعية العدو ومقراته ومجموعات قتاله الموجودة في التلال الشمالية المشرفة، ومنعها من التدخّل في أثناء التنفيذ.

- بعد إكمال مجموعات القتال أهدافها تنسحب فورًا، وتشرع مدفعية الإسناد المباشر في ضرب الأهداف التي هوجمت بالدخان لإعمائها، وستر انسحاب مجموعاتنا القتالية.

- بعد انسحاب مجموعاتنا القتالية إلى مسافة أمينة وبأمر من مقرنا تضرب مدفعية الإسناد المباشر الأهداف الرئيسة في تل عنتر والوادي بنيران كثيفة لتدمير أكبر ما يمكن من قطعات العدو ومعداته.
- تعود مجموعات القتال ومقرّ الفوج إلى أماكن انطلاقهما في كفر شمس.

قوة الهجوم:
- 120 مقاتلًا و4 ضباط بأسلحة خفيفة وقاذفات مضادة للدبابات (RBG).
- 3 مجموعات قتال.
- المجموعة الرئيسة بقوة 60 مقاتلًا وضابطين، واجبها مهاجمة العدو في منطقة إدامته في الوادي بين تل عنتر، وتل أحمد.
- مجموعتان بقوة 30 مقاتلًا وضابط لكلٍّ منها، واجبها مهاجمة العدو على تل عنتر ومرصديه الشمالي والجنوبي.
وتم تخصيص الجهد المدفعي كما يلي:
- كتيبة إسناد مباشر عراقية لتغطية مجموعات القتال بعد إكمال واجباتها، برمي الدخان لستر انسحابها.
- 3 كتائب إسناد سورية لضرب الأهداف الرئيسة في تل عنتر والوادي بعد انسحاب المجموعات القتالية.
- كتيبتا صواريخ سورية لحجز ومشاغلة مدفعية العدو ومقراته ومجموعاته.
- 3 كتائب مدفعية [89] سورية للقتال في التلال الشمالية المشرفة.

كان نجاح العملية يعتمد على المباغتة والسرعة في التنفيذ وخطة نارية محكمة. بعد الانتهاء من إعداد الخطة واختيار المقاتلين والضباط للمجموعات الثلاث، شرعت المجموعات باستطلاعاتها وتهيئة متطلباتها وتأمينها. ذهبت إلى قيادة الفرقة، وأوجزت للقائد مجمل الخطة فأرسل معي ضابط ارتباط من مقر الفرقة إلى الآمر المدفعي السوري لتأمين الجهد الناري، وفق الخطة النارية لعملية الهجوم. كان الآمر المدفعي السوري في كفر ناسج فبحثنا عنه طويلًا حتى عثرنا عليه نائمًا في غرفة صغيرة لدار سكنية اتخذها مقرًا لمدفعية القاطع، وكان يرقد على سريرٍ حديديٍّ، وعليه حشية قذرة. عندما دخلنا عليه وقدّمت له نفسي: «المقدّم الركن قوات خاصّة نزار الخزرجيّ آمر الفوج الثاني قوات خاصّة العراقية»، فرك عينيه الحمراوين

وكان وجهه النحيف متعبًا يبدو عليه الإرهاق، ولم يكن قد حلق لحيته من أيام عدة. ابتسم، وقال: «أهلين بالقوات الخاصّة العراقية»، وطلب لنا شايًا. نهض عن سريره، وأشار إليّ لأجلس إلى المنضدة الخشبية الصغيرة في زاوية الغرفة وجلس قبالتي.

قلت: «سأهاجم بفوجي قوات العدو في تل عنتر»، ظهر الاهتمام على وجهه، وفرش الخريطة على المنضدة فعرضت عليه قائمة الأهداف المطلوب ضربها ومعالجتها. وسألني: «ومتى ستهاجمون؟». فأجبته: «هذه الليلة». قال: «ليس هناك أي مشكلة سأؤمن لكم ما تطلبونه»، وبدأ يدقق قائمة الأهداف بإمعان، ويسجل الجهد المدفعي المطلوب إزاء كل منها. كان يقرأ الأهداف، ويتمتم «نعم هذا جيد، ممتاز ليست هناك أي مشكلة. لدينا كل ما تحتاجونه، وأكثر». قلت: «أنا شاكر لك كثيرًا، والآن أرجو أن تأمر أحد ضباطكم ليرافقني، ويدير نيران الكتائب التي تفضلتم بتخصيصها لنا في أثناء تنفيذ الهجوم». قال: «نعم، نعم بالطبع»، ونادى أحد رجاله فقدِم ضابط برتبة نقيب وأدى التحية. قال له: «هذا آمر فوج قوات خاصّة عراقية، وسيهاجم العدو الصهيوني هذه الليلة، وقد خصصنا له جهدًا مدفعيًا لإسناد هجومه، وأريدك أن تذهب معه لإدارة نيران الكتائب التي خصصناها لإسناده». فأجابه النقيب باستهانة: «لا أستطيع الذهاب سيدي». فاستفسر العقيد: «لماذا؟»، أجاب النقيب: «عندي شغل سيدي». هز العقيد رأسه، وقال: «حسنًا، أرسل لي الملازم الأول فلانًا»، ولما جاء الملازم الأول أخبره العقيد آمر المدفعية بالواجب، فاعتذر هو الآخر بأنه لا يستطيع الذهاب لأن لديه عملًا. فصاح العقيد بغضب: «ولك روح امشي»، ونظر نحوي معتذرًا. كدتُ ألّا أصدق ما أراه أمامي، إذ كيف يعتذر المادون عن تنفيذ أمر آمره؟ وأين؟ في الحرب وفي ساحة العمليات وبمواجهة العدو ولا يُقدّم إلى محكمة ميدانية فورية؟! هل هكذا هو الضبط والربط في الجيش السوري؟ أم أنه بسبب الإرهاق والظروف الصعبة التي يمرون بها؟ لكن ألا تتدرب القطعات للعمل في مثل هذه الأوضاع؟ وهل يُفسر ذلك سرعة انهيار الجيش السوري بعد بضعة أيام من القتال؟

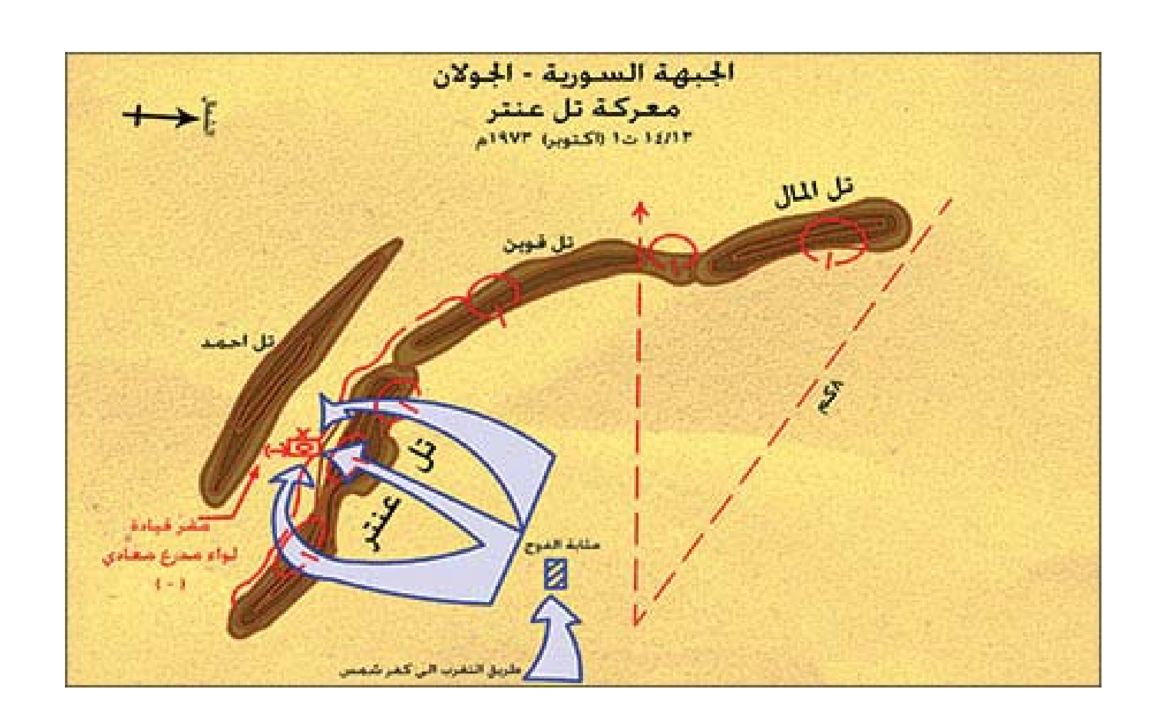
عند الباب كان يقف ضابط الارتباط العراقي الذي جاء معي وهو يتابع ما يجري، وإلى جانبه يقف ضابط سوري قصير القامة ضئيلها وغامق السمرة بشكل يسترعي النظر، وكان برتبة ملازم ثانٍ. اندفع هذا الملازم داخل الغرفة وأدى التحية بنشاط، وصاح بصوت عالٍ: «أنا أذهب لأموت مع القوات الخاصّة العراقية سيدي». تهلل وجه العقيد آمر المدفعية

السوري وردّ بانفعال وبلهجته السورية المحببة: «ولك هدول قوات خاصّة عراقية. هدول ما بيموتوا. هدول بيموّتوا. يالله توكل على الله، وروح معاهم». أدى الملازم الثاني التحية بنشاط والفرح يغمر وجهه الغامق السمرة وخرج. وعندما تركت العقيد وخرجت ربتُّ على كتفه مشجعًا، وسألته: «ما اسمك؟ ومن أي منطقة أنت؟» فأجاب بفخر واعتزاز: «اسمي أحمد، وأصلي عراقي شمّري (من عشيرة شمّر المشهورة التي تقيم في المنطقة الشمالية الغربية من العراق وتمتد إلى الداخل السوري، ورجالها مشهورون بالشجاعة والإقدام) وأنا من منطقة البوكمال الحدودية مع العراق».

بعد عودتنا إلى معسكرنا التقيت بضباط قوة الواجب والمراتب فيها، وكان الجميع في أعلى درجات الثقة والاستعداد النفسي والإصرار على إنجاز واجبهم على أكمل وجه. وحضر اللقاء الرائد الركن وضاح عبد الستار آمر الفوج الأول قوات خاصّة وهو من ضباط القوات الخاصّة الجيدين، وطلب مرافقتي في هذه العملية. وتولّى الرائد وضاح قيادة فرقة مشاة في الحرب العراقية - الإيرانية، وأصبح آمرًا للقوات الخاصّة في حرب الخليج الثانية ثم أحيل على التقاعد، قُتل برصاصة في رأسه في حادثة سير مفتعلة أعقبها شجار في عام 1994.

الشكل (4 - 1)

مخطّط يدوي يبيِّن خطة اقتحام فوج القوات الخاصّة العراقية دفاعات العدو في تل عنتر



أجرينا تدقيقًا أخيرًا في التحضيرات كافة، وانطلقنا بالعجلات إلى منطقة الواجب ببطء وتعتيم تام وترّجلنا في كفر شمس. وبعد تدقيق سريع انطلقنا إلى أهدافنا بحذر وتأنٍ، وعندما وصلنا مثابة مقرّ الفوج المتقدّم توقفنا، واتجهت مجموعات القتال غربًا نحو أهدافها في تل عنتر، ومن مكاننا تابعناها وهي تختفي مبتعدة في الظلام الدامس. وبنواظيرنا الليلية تفحّصنا مراصد العدو على تل عنتر، ولم نلحظ له حركة غير اعتيادية على التل، وألصقنا آذاننا بأجهزة المخابرة اللاسلكية للتنصّت على شبكات المحطات المعادية، ولم يكن هناك ما يشير إلى ارتياب العدو أو توجسه من أي فاعلية لقواتنا، ومع ذلك كان يطلق كعادته قنابل التنوير (القنابل المضيئة) في مختلف الاتجاهات بين حين وآخر.

توقفت مجموعات القتال بمسافة غير بعيدة عن أهدافها لتدقيقٍ أخير في المواضع المعادية وتحديد الموقع المعادي من هذه المسافة القريبة. في المرصد الشمالي على التل كانت تقف دبابة معادية مع أعداد من مشاة العدو يحفرون خنادق في السفح المقابل لنا غير بعيد عن الدبابة، وعلى المرصد الجنوبي كانت تقف دبابة أخرى مع عدد أقل من المشاة الإسرائيليين الذين يقومون بالحفر أيضًا. اقتربت المجموعتان اللتان ستهاجمان المرصدين زحفًا إلى أقرب ما يمكن من أهدافهما وكمنتا هناك، وهما تتابعان جنود العدو المنهمكين بالحفر، أما المجموعة المركزية فتقدّمت بحذر شديد بين المرصدين المعاديين في طريقها إلى الوادي الذي فيه مقرّ القوة المعادية، وشاهدت عددًا كبيرًا من رجال العدو وهم يقومون بنقل أعتدة ووقود من العجلات إلى الدبابات والعجلات المدرعة المتكدسة، بدأ آمرو المجموعات القتالية بتحديد الأهداف لزمر مجموعاتهم التي اقترب عسكريوها زحفًا لمسافة أخرى، وسكنوا بانتظار أمر الهجوم.

في الساعة 1.30 أصدرتُ الكلمة الرمزية «حسن» فنهض الرجال من أماكنهم وانقضوا على العدو صائلين. ومن مكاننا في مثابة مقرّ الفوج المتقدّم كنا نسمع لعلعة الرصاص وانفجار صواريخ (RBG)، وشاهدنا النيران تندلع في دبابتي العدو على المرصدين. وفي هذا الوقت صبت مدفعيتنا وصواريخنا نيرانها بكثافة على مقرات العدو ومدفعيته وقواته في المرتفعات الشمالية المشرفة على تل عنتر، واشتعلت النيران عالية بمواضعه وعجلاته في التلال الثلاث شمال تل عنتر، وكانت تُشاهد بوضوح.

كانت المجموعة المعادية التي تقوم بالحفر في المرصد الشمالي نحو 40

من جنود العدو قد خلعوا ملابسهم العلوية على الرغم من البرد، وشبكوا بنادقهم في مجموعات بالقرب منهم. وعندما قفز رجالنا من مكامنهم صائلين وهم يصرخون «الله أكبر» قتلوا وجرحوا معظمهم وفرّ القليل منهم وهم يصرخون ويولولون. أصيبت الدبابة بالصواريخ، واشتعلت النيران فيها فبدت كأنها علبة كبريت مشتعلة، وحاولت طائفتها (طاقمها) الهرب منها فعالجتها القوة بنيرانها على الفور، وبالطريقة نفسها تعاملت مجموعة القتال الثانية مع المرصد الجنوبي والدبابة وجنود المشاة وكانوا نحو 15 جنديًا، أما المجموعة الرئيسة التي توغلت في الوادي فقد كمنت تراقب المكان الذي كان يعج بالعشرات من العجلات وناقلات الجند المدرّعة والدبابات وعشرات العاملين المنهمكين بتزويد الدبابات بالوقود والأعتدة. وعند صدور الأمر بالهجوم فتحوا نيرانهم المصوّبة بكثافة، فاشتعلت حرائق ودوّت انفجارات وتحوّل الوادي إلى كتلة نيران مشتعلة وانفجارات تصم الآذان، وغمرت الحرائق والدخان المكان، وسقط العديد من جنود العدو قبل أن تنسحب مجموعة القتال وتعبر الوادي باتجاه الشرق، وأعقبتها مجموعتا المرصد، فأخبروني أنهم بدأوا الانسحاب فشرعت كتيبة مدفعية الإسناد المباشر العراقية برمي كثيف لقنابل الدخان الذي كوّن حاجزًا أخفاهم عن العدو، في حال كان لا يزال قادرًا على متابعتهم! وبعد ابتعادهم نحو 500 متر شرعت كتيبة المدفعية برمي العدو في تل عنتر بقنابل المهداد الشديدة الانفجار، ولم تستغرق عملية الهجوم أكثر من عشر دقائق انسحبت بعدها المجموعات، وهي تحمل أحد جرحانا من مقاتلي مجموعة القتال التي هاجمت المرصد الشمالي، وبعد انسحابهم مسافة أكبر صبّت كتائب مدفعية الإسناد السورية الثلاث نيرانها على الأهداف التي هاجمناها لمنع العدو من تعقب رجالنا بنيرانه.

لم يستفق العدو من الصدمة التي أحدثها هجومنا حتى وصول مقاتلينا إلى مثابة [90] مقرّ الفوج المتقدّم، وانسحبنا جميعًا باتجاه قاعدة انطلاقنا في كفر شمس، واكتفى العدو بتكثيف رمي قنابل التنوير وبعض طلقات المدفعية الطائشة هنا وهناك.

كان الفخر والحبور يغمران كل واحد منا، ونحن نحثّ الخطى عائدين، وقبل وصولنا بقليل أجرينا وقفةً أعدنا فيها ترتيب القوة في رتل مسير نظامي ودخلنا كفر شمس ونحن ننشد، وتوقفنا فترة قليلة لتضميد الجريح الوحيد في هذه العملية، وعدنا بالعجلات إلى معسكرنا، ووصلناه قبل الفجر. وقبل أن تتفرّق القوة قمنا باستجواب مجموعات القتال كلٍّ على انفراد

لتثبيت تفاصيل ما قامت به وكيفية تعاملها مع العدو، ومقدار الخسائر التي أحدثتها في الأشخاص والمعدات. وقلّصنا وقللنا ما أحدثته إلى الحد الأدنى، ومع ذلك بقيت حصيلة خسائر العدو لا تقل عن 40 قتيلًا عدا الجرحى، وتدمير 11 دبابة وبضع ناقلات جندٍ مدرعة والعديد من العجلات ومستودعات الوقود وأكداس الذخائر. وبعدها بأيام زارتنا مجموعة من قياديي الحزب وكوادره، وقالوا إنهم في زيارتهم القادة السوريين أخبروهم نقلًا عن السوفيات طبعًا أن خسائر الإسرائيليين في هذه العملية كانت أكبر مما ذكرنا.

بعد يومين أصر آمر الفوج الثالث قوات خاصّة الرائد علي الحواس وهو ضابط شجاع جدًا، تولّى في الحرب العراقية - الإيرانية قيادة لواء، واستشهد في القاطع الجنوبي في عام 1982، على تنفيذ عملية مشابهة على الجانب الغربي من تل أحمد. وعلى الرغم من تحذيري له من أن العدو قد تحسّب بعد تنفيذ عمليتنا إلا أنه نفّذها فأوقع خسائر بالعدو، لكنه فقد 6 من مقاتليه.

في عارضة كفر ناسج الواقعة بالعمق شمال التلال المشرفة على تل عنتر تتمركز قيادة لواء مدرّع إسرائيلي معززة بمجموعة قتال، ومن الطبيعي ألّا تتوقع قيادة اللواء المعادي أن تتعرض لهجوم مباشر، وهي في عمق القاطع الدفاعي، ووحداتها الأمامية تحتل العوارض المشرفة والمسيطرة على الجبهة، وقوة كبيرة منها تحتل العوارض الرئيسة في تل عنتر وتل أحمد في أقصى الأمام، لذلك فإن مهاجمتها في عملية سريعة ومباغتة ستحقق مباغتة تامة. ذاك ما توصلت إليه، فقمت بدراسة المعلومات المتيسرة في قيادة الفرقة كما قمت باستطلاع مكثف للمنطقة والمقتربات المؤدية إلى موقع قيادة اللواء المعادي للقرار على الخطة وعدد أفراد القوة والجهد الناري الذي أحتاج إليه لمهاجمة هذا الهدف.

كانت الخطة التي وضعتها وكيفية تنفيذها تعتمد على قدر كبير من الجرأة والمخاطرة، إذ كان على مجموعة القتال التي ستنفّذ الواجب أن تتسلّل ليلًا، وتتجاوز قوات العدو في تل عنتر والمرتفعات الشمالية من جناحها الأيمن، وتستمر شمالًا نحو مقرّ قيادة اللواء المعادي، وتحيطه من الخلف لتباغته بهجوم سريع كاسح لتقتل أكثر ما يمكن من الآمرين والضباط، وتدمر المعدات فيه. أما المعضلة الكبيرة التي ستتعرض لها مجموعة القتال في حال انكشافها بعد تنفيذ هجومها، وهي في عمق الموضع الدفاعي للعدو، فكانت تعتمد على عاملين درستهما جيدًا،

واعتمدتهما في تنفيذ العملية الهجومية للمجموعة القتالية: أن نشاغل مواضع العدو كلها بنيران كثيفة ومركّزة طوال الوقت الذي يستغرقه انسحاب مجموعة القتال بعد التنفيذ، لحجزها ومنعها من التدخّل أو متابعة قوتنا المنسحبة؛ والعامل الآخر الذي اعتمدته هو أن تنسحب مجموعة القتال من خلال الحدود الفاصلة بين المواضع الدفاعية المعادية مقدِّرًا أن مواضع العدو الأمامية ستتردد أو لن تقوم بتصويب نيرانها على قواتنا المنسحبة حتى وإن كشفتها في الظلام الدامس الذي يلف المنطقة خشية تضارب قطعاته، واشتباكها في ما بينها خصوصًا أنها واقعة تحت نيران كثيفة من مدفعيتنا.

قمت باختبار دقيق لضباط مجموعة القتال والمراتب الذين سينفذون هذا الواجب، واخترت الملازم الأول قوات خاصّة هاني متعب لهدوئه وسيطرته على أعصابه في المواقف الحرجة، وضابطين آخرين، و60 من المراتب، وشرحت لهم تفاصيل الخطة وواجبات كل منهم، وردات أفعال العدو المتوقعة، وكيف التعامل معها، ومقدار الجهد الناري المخصص لإسنادهم. فخرج آمر القوة وضباطه وضباط الصف آمرو المجموعات الفرعية لاستطلاع مفصلي للمنطقة والمقتربات المؤدية إلى هدفهم، ومع العقيد السوري آمر المدفعية في قاطعنا، وضعنا الخطة النارية، وخصص 6 كتائب مدفعية، وكتيبتي صواريخ لإسنادها، واستصحبنا الملازم أحمد لمرافقة مجموعة القتال التي ستنفّذ عملية الهجوم.

ليلة 19 -20 تشرين الأول/أكتوبر الساعة 23.00 انطلقت القوة من مثابة مقرّ الفوج المتقدم في الجبهة إلى أهدافها، وتابعتها وأنا أقرأ الآيات القرآنية، وأدعو الله أن يكون مع مقاتلينا. وكان الوقت يمرّ بطيئًا وأنا أراقب وأتنصت على كل إشارة غير طبيعية من العدو. كان الهدوء يغمر الجبهة، وحسبت أن كل شيء يجري وفق ما خُطّط له، وفي الساعة 1.00 استلمت الكلمة الجفرية (كلمة السر) من آمر القوة التي تشير إلى أن مجموعة القتال قد وصلت هدفها، ووفق الخطة كان الآمرون يحتاجون من 15 إلى 20 دقيقة لتوزيع مجموعاتهم على أهدافهم قبل شروعهم في الهجوم.

وصل في هذا الوقت إلى مثابة الفوج المتقدمة ضابط ارتباط من قيادة الفرقة المدرعة الثالثة ومعه ضابط سوري، فقال ضابط الارتباط إن أوامر مشدّدة صدرت عن قيادة الفرقة تأمر بإيقاف تنفيذ العملية على الفور، وأن أقوم بسحب القوة حالًا من واجبها. فأجبته: «ماذا تقول؟ القوة تكمن خلف هدفها على مسافة عشرات الأمتار فقط، وستشرع بالهجوم بعد

دقائق. لا يمكن أن أسحبها قبل تنفيذ هجومها وإلا ستُدمَّر وتباد في حالة سحبها وكشف العدو وجودها؟». قال: «هذه أوامر القيادة»، وشدّد على أن أمن الجبهة يعتمد على سحب القوة الآن وفورًا. أحرجتني عبارة «أمن الجبهة» جدًا، فاتصلت بالملازم الأول هاني آمر مجموعة القتال فأخبرني على الفور بأنه سيهاجم بعد دقائق. قلت له: «هاني اسمعني جيدًا. أريدك أن تعود الآن فورًا. أكرّر تعود على الفور، ومن طريق الذهاب نفسها من دون أن تنفّذ». وبعد ساعتين من الترقّب والقلق لاحت الأشباح العائدة لقوة الواجب، وحمدت الله فقد كان اختياري للملازم الأول هاني لقيادة قوة الواجب في محله فلم يفقد هدوءه وأعصابه، وهو يسحب مجموعاته الفرعية، واحدة بعد الأخرى من نقاط وثوبها على بعد أمتار من أهدافها في عمق دفاعات العدو.

رجعنا جميعًا إلى قاعدة انطلاقنا، ومنها إلى معسكرنا، ومن هناك اتصلت هاتفيًّا بمقر قيادة الفرقة وأنا في أقصى حالات الغضب فأجابني ضابط الركن الخفر: «إنها أوامر صادرة عن القيادة السورية، وقد تم إبلاغك بها كما وردتنا».

علمت في اليوم التالي أننا سُحبنا من عمق دفاعات العدو ونحن على وشك تنفيذ أقوى ضربة توجَّه إليه في جبهتنا، وتعرضت القوة التي كانت ستنفّذ لخطر ماحق بسبب وجود دورية سورية في الوقت نفسه لتنفيذ غارة محدودة في مكان آخر من الجبهة. والمؤلم أن الدورية السورية لم تنفّذ غارتها في تلك الليلة.

في اليوم الأول من نشوب حرب تشرين التي لم تعرف قيادتنا السياسية بها، أصدرت أوامرها إلى رئاسة الأركان بحشد جميع قطعاتنا المدرعة والآلية والقوات الخاصّة وبعض تشكيلات المشاة فورًا إلى الجبهة السورية، كما أرسلت كل الجهد الجوي المتيسر ووضعته بإمرة القيادة السورية وتصرّفها، وعندما تبيّن لرئاسة الأركان بأن ليس لديها ما يكفي من ناقلات الدبابات وعجلات القتال المدرعة والمدفعية الذاتية الحركة لتقلّ أكثر من لواء مدرع واحد، كان ردّ القيادة السياسية «تتنقل بقية التشكيلات الآلية والمدرعة على السرف إلى الجبهة السورية ومن دون تأخير». وعلى الرغم من أن ذلك سرّع حشد القوات إلا أن عددًا غير قليلٍ من دباباتها وعجلاتها المدرعة تعطّل في تنقل الـ 1000 كلم إلى الجبهة، كما أنهكت طوائفها إذ حُرمت من النوم والراحة أيامًا، الأمر الذي أثر في أدائها القتالي، إذ كانت التشكيلات تُزجّ في القتال حال وصولها وعند تكامل حشد القوات.

في العشرين من تشرين الأول/أكتوبر قرّرت القيادة العسكرية تنفيذ هجومٍ شاملٍ على العدو في هضبة الجولان ليلة 21 - 22. كُلِّفت آمرية القوات الخاصّة بأفواجها الثلاثة باحتلال العوارض المواجهة لنا في خطة الهجوم إسوة بتشكيلات المشاة، الأمر الذي يدل على عدم معرفة القيادة العسكرية التي خططت للهجوم بمبادئ استخدام القوات الخاصّة وخواصها، وباشرنا مع العديد من مجموعات استطلاع التشكيلات الأخرى باستطلاع الأهداف المحدّدة لكل منها طوال نهار 21 تشرين الأول/أكتوبر، ولم يتدخّل العدو على الرغم من أن حركتنا كانت مكشوفةً لمراصده، وعند حلول الظلام تحرّكت من مناطق تحشُّدها إلى الأماكن الأمامية التي ستشرع منها في الهجوم في الساعة 2.30 يوم 22 تشرين الأول/أكتوبر.

كانت أفواجنا في أماكنها الأمامية مع بقية التشكيلات التي ستنطلق منها للهجوم عندما جاءت الأوامر عبد الساعة 2.00 يوم 22 بإلغاء عملية الهجوم، وعودة القطعات إلى مناطقها الخلفية على الفور، وأن سورية والعدو الصهيوني قد اتفقا على الإيقاف الفوري لإطلاق النار وانتهت حرب تشرين، ولا يزال العدو يطلُّ علينا من مرتفعات الجولان المحتلة.

سمعنا، وقرأنا كثيرًا مما قيل أو نشر عن الجيش الإسرائيلي بعد حرب حزيران/يونيو 1967 وعن قدراته وتفوّقه وبراعة آمريه وقادته وحنكتهم، وقد جعلت الدعاية منه أسطورة وقيل «الجيش الذي لا يُقهر».

وفي هذه الحرب، وبعد أن واجهناه في بضع معارك فوجئنا بتواضع أدائه ومستواه فأفراده تعوزهم الشجاعة والمعنويات، ولم تظهر لنا حنكة آمريه وقادته وبراعتهم!! وأكاد أجزم أننا واجهنا في العمليات القتالية مع المتمرِّدين الأكراد في شمال الوطن مقاتلين من الطراز الأول وآمرين ذوي براعة، ومن الظلم مقارنتهم بالإسرائيليين الذين واجهناهم في هضبة الجولان!! فعندما كانت قواتهم المتفوقة تتعقب بقايا القوات السورية التي انسحبت من الجولان بعد فشل تعرضها في اليومين الأولين من الحرب اصطدمت بلواء عراقي مدرع هو اللواء المدرع 12 الذي قدم مسرعًا من العمق العراقي من دون توقف أو راحة بمعركة تصادفية، وعلى الرغم من تفوق العدو الساحق في البر والجو اضطرّ إلى التوقف بعد معركة شرسة واحدة لا أكثر!! الأمر الذي أتاح لنا وقتًا ثمينًا كنا في أشد الحاجة إليه لحشد قواتنا في الجبهة فأضاعوا الفرصة التي أُتيحت لهم لحسم المعركة.

في المعارك المحدودة التي اشتبكنا فيها معهم في تل عنتر والعوارض الأخرى كان أداؤهم متواضعًا، وردات فعلهم ضعيفة، ففي الغارة التي

نفّذتها قطعاتنا على تل عنتر استطاعت مجموعاتنا القتالية أن تكمن على مسافات أمتار من أهدافها قبل أن تصول من دون أن تكشفها مراصدهم أو قطعاتهم، وعند صولتها هرب من لم يُقتلوا وهم يولوِلون، ولم تُبدِ قطعاتهم أو احتياطاتهم أي فعل يُذكر عند انسحاب مجموعاتنا بعد الهجوم، وفي العملية التي خطّطنا فيها لمهاجمة مقرّ اللواء المدرع في كفر ناسج في عمق دفاعاتهم، ونجحنا في إحاطة مقرّ قيادة اللواء، وكانت مجموعات الصولة تكمن على بعد عشرات الأمتار فقط من أهدافها تمكّنت القوة من التملص من دون أن يكتشف العدو انسحابها، كما كانت الأرض الحرام تحت سيطرتنا المطلقة بدوريات الاستطلاع ودوريات القتال حتى آخر يوم من الحرب، وليس في كل ذلك ما يدلُّ على «الجيش الذي لا يُقهر».

يمكن كما يُقال أن يعود ضعف أدائهم في هذه الحرب إلى نصرهم الصاعق والسريع على الجيوش العربية في حرب حزيران/يونيو 1967، الذي أعطاهم ثقة مفرطة بالنفس وبقدراتهم، فصدقوا أسطورة «الجيش الذي لا يُقهر» التي كانت ترددها وسائل الإعلام المختلفة في مناسبة أو غيرها، وأصبح قادتهم بين ليلة وضحاها نجومًا لامعة، وتصدّرت صورهم الصحف والمجلات والتلفاز فأدمنوا الحفلات والأضواء، فتهاونوا في مهنتهم واستهانوا بعدوّهم، فكادوا يخسرون الصراع لولا نجدة أصدقائهم وأخطاء قادتنا السياسيين والعسكريين في إدارة الحرب واستخدام آلتهم العسكرية.

كما لم يكن أداء القوات العراقية في هذه الحرب على الرغم من الفترة القصيرة التي اشتركت فيها بالمستوى الذي يجب أن تكون عليه، لعامل رئيس شغل قواتنا المسلحة عن تفرغها لواجبها الوطني في الدفاع عن الوطن تجاه الاعتداء الخارجي، وواجبها القومي في المشاركة الفاعلة في معركة الأمة ضد العدو الإسرائيلي، وهذا العامل هو التمرّد والحركة المسلحة الكردية، وانشغال 80 في المئة من قواتنا بقتالها المتمرِّدين الأكراد منذ عام 1961. كثيرون لا يعرفون أن انشغال قوات أي بلد بهذا النوع من الحروب الداخلية وحروب العصابات يعني ابتعاد القوات المسلحة عن تدريباتها العلمية والعملية على الحرب والمعارك النظامية والأسلحة المستخدمة فيها، من الدبابة حتى المدفع ووسائل القتال الأخرى، لتكتفي بإعادة تأهيل الآمرين والضباط والمراتب على أن يكونوا على كفاية تؤهلهم لقتال المتمرِّدين، وذلك يمكّن من أن تقاتلهم بأسلوبهم، وأن تكون أقرب إلى المتمرِّد في الجبال والأودية من مقاتل في جيش نظامي يجيد وسائل الحرب الحديثة وأدواتها، وحقيقة أخرى أن إعادة تأهيل جيش كهذا تتطلب عددًا

من السنين لأفراده وقادته الصغار، وسنين أكثر لقادته وكوادره المتقدمين لاكتساب العلم والمعرفة بالحرب الحديثة وإدارتها، لذلك حرص أعداء العراق والأمة من دول إقليمية ودولية وإسرائيل على إشغال العراق وجيشه بالتمرّد الكردي، على الرغم من أن العراق منح الأكراد حقوقًا لم يحقّقها لهم أي بلد فيه أقليات كردية. أما العوامل الأخرى التي ساهمت في إضعاف أداء قواتنا فأُجملها بما يلي:

- الثورات والانقلابات المتتابعة التي مرّ بها العراق منذ عام 1958، وتدخّل الجيش في السياسة، الأمر الذي أفقد القوات المسلحة خيرة ضباطها وقادتها.

- دأبت الأنظمة الانقلابية التي حكمت العراق على تعيين القادة والآمرين الموالين لها في قيادات القوات المسلحة، والأقرباء والضعفاء الذين لا يشكلون خطرًا عليها، وظهر ذلك بوضوح في أداء عدد من القادة والآمرين في حرب تشرين.

- ضعف رئاسة الأركان العراقية وعدم تحملها المسؤولية، جعلاها توافق على وضع القوات الجوية والبرية بإمرة القيادة السورية التي لم تحسن استخدامها.

- عدم إعلام القيادة السياسية العراقية بموعد الحرب، أو إشراكها في خطتها أو إشعارها بالنيات على الأقل من دول المواجهة مع العدو الصهيوني، الأمر الذي اضطرّ العراق إلى زجّ قواته بسرعة وارتجال فأدى الأمر إلى تخبط في التخطيط والتنسيق وإلى إضعاف القدرة والأداء القتاليين لقواتنا.

بعد إعلان إيقاف القتال بين سورية والعدو الصهيوني من دون إنذار أو علم القيادة السياسية العراقية التي أصدرت على الفور أوامرها بسحب قواتنا من سورية، وأكدت بأنها قد أرسلت القوات العراقية لقتال العدو الصهيوني وليس لحماية وقف إطلاق النار، وشرعت القوات العراقية بالعودة إلى الوطن وفي طليعتها القوات الخاصّة، أمر الرئيس البكر بعقد مؤتمرٍ تحليلي شاملٍ لتقويم أدائها وتحديد نواقصها ومتطلبات الحرب الحديثة في ضوء تجربة حربها في الجولان. وعُقد المؤتمر التحليلي في الكلية العسكرية واستغرق بضعة أيام. أدار الرئيس البكر شخصيًّا المؤتمر الذي حضره صدام حسين وأعضاء المكتب العسكري ورئيس أركان الجيش ومعاونوه وعدد من هيئة أركانه والقادة والآمرون المشاركون في الحرب ومديرو الصنوف والخدمات.

افتتح الرئيس البكر المؤتمر بكلمة قصيرة أكد فيها أن الغرض من المؤتمر هو التعرف إلى حقيقة الحوادث والتوصل إليها، وتقويم أداء قواتنا المسلحة بإيجابياتها وسلبياتها بصدق وصراحة كي نتمكَّن من التوصل إلى الاستنتاجات والدروس المستنبطة للاستفادة منها لتطوير قواتنا المسلحة وإعدادها للمرحلة المقبلة.

انتهى المؤتمر من دون أن يذكر معظم المشاركين الذين أُتيحت لهم فرص الكلام الحقيقةَ كما حدثت أو من دون أن يتطرقوا إليها، فهناك من بالغ في تقويم إنجازاته وأغفل إخفاقاته، فضاعت الحقيقة ولم يحقّق المؤتمر الأهداف أو الغاية التي انعقد من أجلها.

قدمت لجنة تحقيق حزبية خاصّة لتحقق معي ومع قادة تنظيم كركوك العسكري، أولًا: عن الدوافع التي كانت وراء التقرير الخاص بالعناصر المشكوك فيها من الفوجين الثالث والرابع قوات خاصّة إلى وحدات حماية الرئيس البكر والحرس الجمهوري والاستخبارات العامة. وثانيًا: عن أسباب طلبي استخدام فوجي للصولة الجوية بالسمتيّات في محاولة ناظم كزار الفاشلة. كان واضحًا أن شكوكًا تراود الرئيس البكر فيَّ وفي مدى ولائي لقيادة الحزب ونياتي تجاههم أو تجاهه شخصيًّا، وأن شخصًا ما قريبًا منه يغذيها. عادت اللجنة الحزبية بعد أن تبيّنت الحقيقة مني ومن قادة التنظيم، وأن كل ما جاء في النقطتين كان بعلم الحزب وموافقته وإشرافه. وحدثني أحد أقرباء الرئيس الذي كان حاضرًا الحادثة المتعلقة بهذه القضية، فقال: «كنت والرئيس والرفيق صدام حسين عند طرح الموضوع، وكانت للرئيس البكر شكوكه» على الرغم من رأي اللجنة التحقيقية الحزبية الذي جاء في مصلحتي، إلا أن البكر بقي مصرًا على محاسبتي وإخراجي من الجيش، فاقترح الرفيق صدام حسين على الرئيس البكر حلًا وسطًا، وذلك بنقلي إلى إحدى الملحقيات العسكرية فوافق البكر على مضض.

لم تبتعد حوادث مؤامرة كزار وتداعياتها عن عقل الرئيس البكر وفكره، إذ تولّدت لديه قناعة ما بأن لقادة مكتب كركوك العسكري يدًا أو علاقة ما بتلك الحوادث، وفي مطلع عام 1974 نُقل وأبعد معظمهم إلى الملحقيات العسكرية، فنقلت أنا إلى الهند، ونُقل المقدّم الركن حامد الدليمي إلى باكستان، والرائد الركن دريد القدو [91] إلى أفغانستان، والنقيب صالح الساعدي [92] إلى اليمن، أما مسؤول المكتب الرائد الركن فارس حسين فنُقل إلى فرنسا.

X المدفع ذاتي الحركة مدفع يُوضع على بدن عجلة مدرعة مجنزرة.

X سرفة الدبابة تعني جنزير الدبابة.

X بحيرة طبرية تقع في السهل الشمالي لفلسطين المحتلة، وكانت الحدود السورية قبل احتلال الجولان في حرب عام 1967 في الحافات الشرقية للبحيرة.

X المضايق تتوسط صحراء سيناء، واحتلال الجيش المصري للمضايق يتيح له الاندفاع إلى مرحلة ثانية لتحرير شبه جزيرة سيناء، ويحمي قواعد الجيش المصري على الضفة الشرقية لقناة السويس.

X هي المعارك التي تجري من دون تخطيط مسبق بين القوات المتصارعة.

X بلدة صغيرة تقع شرق تل عنتر ببضعة كيلومترات.

X العميد الركن إسماعيل تايه النعيمي، والعميد الركن عبد المنعم لفتة الريفيّ كلاهما عمل في الفرقة الثانية في عهد قيادة اللواء إبراهيم الأنصاريّ، وكان إسماعيل آمرًا للواء الرابع، وعبد المنعم لفتة ضابط الركن الأول في مقرّ الفرقة، وتقلد إسماعيل تايه مناصب متعددة في ما بعد منها قيادة فرقة. وفي أثناء الحرب العراقية - الإيرانية تولى قيادة فيلق، وصار معاونًا لرئيس أركان الجيش أما اللواء الركن عبد المنعم لفتة، فقد أحيل على التقاعد برتبة لواء ركن في منتصف السبعينيات.

X مجموعة القتال قوة تنظم ضمن الفوج من أشخاص وأسلحة لتلائم الواجب، أي الهدف التي تهاجمه.

X كتيبة المدفعية تتألف من 3 بطاريات مدفعية تتألف كل منها من ثلاثة رعائل مدفعية، ويتحدد عدد المدافع وفق نوع الكتيبة ومهماتها ووفق عيار المدفع، لكن عدد 18 - 24 مدفعًا لكل كتيبة هو المقياس المعمول به عمومًا، وتخصص عادة كتيبة مدفعية ميدان واحدة لإسناد لواء المشاة.

X المثابة منطقة محددة لمقرّ الفوج المتقدم للإشراف وإدارة المعركة.

X قاد لواءً مدرعًا في الحرب العراقية - الإيرانية 1980، استشهد في معارك القاطع الجنوبي.

X اعتقل في تموز/يوليو 1979 بعد تولي صدام حسين رئاسة الجمهورية وتوفي في السجن بعد تعرّضه للتعذيب.

الفصل الخامس: ملحق عسكري في الهند

صدر أمر نقلي ملحقًا عسكريًا في نيو دلهي ربيع 1974، والتحقت بالعمل في بداية الشهر الخامس. في الطائرة التي أقلتني صادفت الرفيق عبد الله سلوم السامرائيّ، سفيرنا في الهند، وكان من أبرز أعضاء القيادة القطرية للحزب، التقيته في موسكو عام 1969 خلال زيارته الاتحاد السوفياتي على رأس وفد حزبي كبير يضمّ عددًا من أعضاء القيادة القطرية، وعددًا من الكوادر المتقدّمة في الحزب، في حفلة أقامها على شرفه والوفد المرافق له المقدّم الطيار خالد كريّم السامرائيّ الملحق الجوي في الاتحاد السوفياتي، وكان من معارفه وأبناء بلدته. ودُعيت إليها وبقية أعضاء الملحقية وموظفو السفارة، وأُعجبت به لما أبداه من رؤى وآراء في حديثه العميق والمبدئي عن عمل الحزب في العراق ومستقبله. انتظرت حتى أقلعت الطائرة فنهضت للسلام عليه، وأخبرته بأني الملحق العسكري الجديد في الهند، وأن العمل معه يسعدني، وذكّرته بلقائنا في موسكو.

أوجز لي الملحق العسكري السابق العقيد الركن طارق محمود جلال قبل مغادرته طبيعة عمل الملحقية العسكرية في الهند، والتعامل مع مديري الاستخبارات الهندية البرية والبحرية والجوية وطبيعة كل منهم، ومدى تعاونه. وأخبرني عن رؤساء أركان القوات الثلاثة، وبقية من نتعامل معهم في الدوائر العسكرية أو موظفي وزارة الخارجية، وعن الملحقين العرب والأجانب، ثم تطرّق إلى موظفي الملحقية العسكرية والسفارة وملحقياتها التجارية والصحافية، وأبدى ملاحظات حذرة عن شخصية السفير عبد الله سلوم القوية وهيمنته على جميع من يعمل فيها.

من سوء الحظ أن مشكلة إدارية صغيرة أحدثت جفاءً بيني وبين السفير، وعمل عددٌ من موظفي الملحقية والسفارة على تأجيجه، فصار خلافًا شخصيًّا حادًا، وانعكس ذلك على العلاقة بين السفارة والملحقية العسكرية على الرغم من أن السفير هو رئيس الهيئة الدبلوماسية أمام الحكومة التي يعمل فيها، إلا أن الملحقية العسكرية دائرة منفصلة ترتبط حصرًا بمرجعيتها مديرية الاستخبارات العسكرية العامة في وزارة الدفاع، والسفارة بمرجعيتها في وزارة الخارجية. وكان الرفيق عبد الله سلوم المناضل البارز في الحزب وعضو القيادة القطرية السابق هو المسؤول الحزبي للمنظمة الحزبية في عموم الهند. كنتُ في القطر قبل نقلي عضوَ مكتب كركوك العسكري، وفي

نظام الحزب الداخلي من ينقل خارج القطر من الرفاق لا يحتفظ بالضرورة بدرجته الحزبية في التنظيم الخارجي للحزب الذي هو من التنظيمات القومية ويرتبط بالقيادة القومية، بل يُنسب في التنظيم الجديد، وفق الحاجة أو الموقع الشاغر والملائم لدرجته وقدمه الحزبي غالبًا. أما أن يعيِّن الرفيق السفير عضوًا متدربًا من التنظيم مسؤولًا عني، ففي ذلك مخالفة صريحة لتقاليد الحزب ونظامه الداخلي [93] ، إذ لا يجوز للرفيق المتدرّب أن يكون مسؤولًا عن رفاق أقدم منه مرتبة حزبية. ومع ذلك حضرت جميع الاجتماعات الحزبية التي يديرها الرفيق المتدرّب الذي وجد نفسه في حرج شديد بما كُلِّف به، وكتبتُ تقريرًا مغلقًا إلى القيادة القومية (الرفاق أحمد حسن البكر وصدام حسين من أبرز أعضائها) أُبيِّن فيه إجراء الرفيق عبد الله سلوم التنظيمي في ضوء الجفاء ثم الخلاف الذي حصل بيننا (التقارير المغلقة تُرفع من أعضاء التنظيم الحزبي إلى القيادات العليا التي تُعنْوَن إليها، ولا يحق لقيادة رافع التقرير أن تطّلع عليه، ويحدث ذلك عادة لحالات أمنية أو خلل بالغ في العمل التنظيمي). بعد بضعة أسابيع جاء قرار القيادة القومية بتجميد [94] الرفيق عبد الله سلوم، وتكليف الرفيق نزار الخزرجيّ بمسؤولية التنظيم الذي أصبحت تسميته «شعبة الحزب في الهند»، وجاء أمر من وزارة الخارجية بنقل السفير عبد الله سلوم السامرائيّ إلى دوائر وزارة الخارجية.

قررت بعد ما حدث كسر حاجز الجليد بيننا والقيام بزيارته في السفارة لنتصالح، فاستقبلني بترحاب شديد وأبديت له أسفي لسوء التفاهم الذي حدث، والذي لم أقصد منه أي إساءة إلى السفارة أو إلى شخصه بصفته السفير وأنني كنت وما زلت أكنّ له احترامًا كبيرًا، فأبدى من ناحيته تقديره لهذه البادرة من جانبي، وذكر أن عناصر من موظفي دائرتينا عملوا على ذلك فقال: «رفيق نزار إحذر فلانًا الذي يعمل لديك فإنه يُظهر شيئًا ويُبطن أشياء أخرى، وهو أحد من عملوا على تعقيد سوء التفاهم الذي حصل».

في الفترة التي سبقت انفكاكه كنت أُصاحبه في المناسبات كلها التي تقام لمناسبة نقله حتى تلك التي كانت تقتصر على السفراء فحسب، إذ كان يُصر على حضوري دائمًا، وكان فيها كلها نجمًا لامعًا، مهيمنًا على الحاضرين، وفي أحاديثه وتحليلاته عن القضايا الراهنة كان يرجع غالبًا إلى التاريخ مستذكرًا حوادث مماثلة، ثم يربطها بموضوع المناقشة بشكل سلس مقنع، ليعرض رؤيته للحوادث بصوت قوي وثابت، وعبارات واضحة وقاطعة، يتكلم

والآخرون يصغون، والحقيقة أنني في هذه الفترة التي أمضيتها معه ازداد إعجابي به، وأسفت كثيرًا لمغادرته موقعًا رفع به اسم العراق عاليًا.

جاء الرفيق محمد سعيد الصحاف سفيرًا جديدًا، وحاول جاهدًا أن يملأ الفراغ الذي أحدثه غياب سفيرنا السابق، بنجاح محدود للفارق الشاسع بين الرجلين، فالصحاف شخصية ناعمة ومجاملة، تختلف كثيرًا عن شخصية السامرائيّ القوية والمهيمنة التي اعتادها السفراء والدبلوماسيون. وكانت علاقتي به جيدة، وكان عضوًا في قيادة التنظيم الحزبي الذي كنت أتولى مسؤوليته.

كانت قبضة الصحاف الرخوة سببًا في هيمنة ممثل الاستخبارات الذي كان خامدًا في عهد السفير السابق، فجعل يفرضها على موظفي السفارة وسير العمل فيها بمن فيهم السفير، ونبّهت الصحاف أكثر من مرة لهذا السلوك الشاذ لكن من دون جدوى، ولمّا حاول التحرش بالملحقية العسكرية زجرته ومنعته من الدخول إليها، كما أدّى سلوكه الخشن والمتعالي مع الطلبة العراقيين الدارسين في الهند إلى ابتعادهم عن مراجعة السفارة، وشكوا من خلال تنظيمهم الحزبي من تصرفاته الشاذة معهم، وقرّر اتحادهم الطلابي التوقف عن مراجعة السفارة أو دخولها، فأخبرتهم بأن أبواب الملحقية العسكرية مفتوحة لهم، وأنا وموظفوها وقيادة التنظيم الحزبي جاهزون لتأمين حاجاتهم، واستلمت مسؤولية التنظيم الطالبي مباشرة للتواصل معهم وحل مشكلاتهم من خلاله.

استدعيتُ إلى بغداد للتذاكر في أمور الملحقية العسكرية، وجرى عَرَضًا التطرق إلى التصرفات الشاذة لممثل الاستخبارات في سفارتنا في نيو دلهي، وأسباب منعي دخوله الملحقية العسكرية بعد أن حاول التدخل في شؤونها من خلال بعض موظفينا، فأخبروني في اليوم التالي أن الرفيق سعدون شاكر رئيس الاستخبارات العامة يرغب في رؤيتي غدًا فذهبت لمقابلته في دائرته بالاستخبارات العامة. وكان شخصًا لطيفًا جدًا في كلامه وتصرفاته، وسألني عن رأيي في أداء ممثل الاستخبارات في السفارة، فأجبته بصراحة عن تصرفاته غير المقبولة، وقلت له: «إن الهند هي لبنان كبير، ما أقصده أنها بلد مفتوح لكافة أجهزة استخبارات الدول الكبيرة والصغيرة، وهناك مجال واسع للحصول على المعلومات من جميع الأطراف، ومنها تلك التي في قمة الهرم السياسي في البلاد بسهولة، لو أحسنّا اختيار الرجل الملائم لهذا الموقع في سفارتنا. وإن ممثلكم في السفارة لجهله اللغة الإنكليزية، كما أعتقد، ترك كل ذلك وبدأ يتابع موظفي السفارة والسفير منهم، وعمل على هروب

الطلبة، وهم مصدر معلومات ممتازة لعلاقتهم بالاتحادات الطالبية المتعددة التي يرتبط كل منها بحزب أو جهة سياسية معينة، لو أحسن التصرف معهم». سألني: «هل في بالك أي شخص تعرفه يصلح لهذا الموقع؟». كان سؤالًا خبيثًا من شخص لطيف وكيّس مثله، فأجبته: «ومن أين لي أن أعرف؟ أنا أعتقد بأنكم قادرون على تعيين شخص قادر على ذلك من جهازكم». فشكرني واعتذر عن أي إزعاج قد يكون سبّبه لي، وقال إنها كانت فرصة طيبة للتعرف إليّ.

أعتقد أن استدعائي إلى بغداد كان الغرض الحقيقي منه لقاء الرفيق سعدون شاكر وليس للأمور البسيطة التي نوقشت في مديرية الاستخبارات. وعندما عدت إلى نيودلهي كان أمر نقل رجل الاستخبارات في السفارة قد صدر، وحل محله الرفيق ثابت الراوي الذي سرعان ما فرض هو الآخر هيمنته على السفارة.

استفدت من الطلبة في التعرف إلى الأحزاب المختلفة وكوادرها، ومن المعلومات التي يمكنهم الحصول عليها من زملائهم الهنود المنخرطين في الحركات السياسية. وتمكّن أحد طلبتنا نتيجة صداقته الوثيقة بكادر شيوعي مسلم يعمل في أرشيف الحزب من الحصول على وثائق جمعها الحزب الشيوعي بجهد، وعمل سنين عليها عن الشخصيات الحكومية والسياسية والعسكرية ورجال المال الذين يعملون مع الماسونية والبهائية والإيرانيين والغربيين وإسرائيل، أو لهم علاقة وثيقة بهم. وجلب إليّ هذه الوثائق وبدأنا في تصنيفها بالنسبة إلى أهميتها قبل إرسالها إلى مرجعنا. وكانت في الحقيقة كنزًا عثرنا عليه من خلال طلبتنا الذين كانوا يتبرعون بتلبية أيٍ من طلباتنا عن طيب خاطر لوطنيتهم وللمعاملة الطيبة والثقة المتبادلة بيننا.

في أحد الأيام، وأنا أُراجع الوثائق المذكورة في غرفتي في الملحقية مع الطالب الذي جلبها، فُتح الباب ودخل ممثل الاستخبارات في السفارة من دون إخبار السكرتيرة بمجيئه، فانزعجت جدًا. لم أكن أريده أن يرى الطالب أو الوثائق، فصحتُ به: «كيف تدخل هكذا من دون إخبار السكرتيرة؟ أُخرج حالًا». فترك الغرفة لا يلوي على شيء، وتوتر الجو مرة أخرى مع ممثل الاستخبارات. وحاول السفير التدخل لتلطيف الأجواء فذكّرته بما قام به السكرتير الثاني، وكان هذا منصبه الرسمي في السفارة، الذي يعمل تحت غطائه، وبأننا نعمل في دوائر رسمية، ولها سياقات يجب العمل بها لأيٍ كان، وكونه ممثل الاستخبارات لا يعفيه من ذلك.

من ناحية الأخرى كوّنت علاقات جيدة برؤساء الاستخبارات والعاملين فيها، وكذلك برئيس أركان القوات البرية، الأمر الذي جعل عملنا مريحًا معهم. وكان للهدايا الثمينة التي أرسلها لهم في المناسبات فضلٌ في ذلك، حيث كان معاون مدير الاستخبارات خليل العزاوي من أصدقائي القدامى وأرسل إلى الملحقية كمية كبيرة وثمينة من الهدايا التي سهّلت عملنا وتلبية طلباتنا الاستخبارية والتدريبية واللوجستية. كما كانت لنا علاقة ممتازة بالملحق المصري اللواء البحري محمد علي الذي أصبح قائدًا للقوات البحرية المصرية بعدئذ، ثم جاء بعده العقيد حسام الدين سويلم الذي تقاعد برتبة لواء، ويعمل حاليًا في أحد مراكز البحوث المصرية. وكانت هناك علاقات طيبة بالملحقين العسكريين للاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية، وبشكلٍ خاصٍّ بالملحق العسكري لألمانيا الديمقراطية العقيد ويزا الذي كان مخزنًا ثمينًا للمعلومات، وعمل قبل ذلك ملحقًا عسكريًا في بغداد، الأمر الذي زاد من توثيق علاقتنا. ولا بدّ من الإشارة إلى الملحق الصيني الذي كان لا يكلُّ ولا يملُّ، والذي تعاون معنا بشكلٍ جيدٍ أيضًا. وبعد اتفاق الجزائر (بشأن الأكراد) تحسَّنت علاقتنا بالملحق الإيراني، وكنا حذرين في علاقتنا بالملحقين الغربيين ولا سيما الأميركي والبريطاني.

كان صدام حسين قد زار الهند على رأس وفد حكومي وحزبي كبير قبل مجيئي إلى الملحقية بفترة قصيرة. وكانت إحدى نتائج الزيارة الانفتاح الكبير على الهند في التبادل التجاري، فاتجهت وزارة الدفاع إليها في شراء التجهيزات العسكرية المختلفة، وأرسلوا وفدًا عسكريًا برئاسة اللواء الركن نصيف جاسم السامرائيّ [95] لعقد الصفقات المختلفة مع الجهات الحكومية والقطاع الخاص، وبقي اللواء السامرائيّ شهرًا ثم ذهب إلى الصين لأسبوعين عاد بعدها لشهر آخر لإكمال عقد الصفقات. وعندما عاد إلى العراق بقيت الملحقية تتابعها، إضافة إلى طلبات بدأت تصلنا لشراء تجهيزات أخرى. ولم يتوقف ذلك طوال الأعوام التي عملت بها في الهند فكوّنا علاقات جيدة بالصناعيين وأصحاب الشركات الذين كانوا مصدرًا ممتازًا للمعلومات عن الشخصيات الحكومية والوزراء وأصحاب القرار في الحكومة الهندية.

في 11 آذار/مارس 1974 أعلنت الحكومة قانون الحكم الذاتي للأكراد [96] إلا أن الملا مصطفى البرزاني، زعيم الحزب الديمقراطي الكردستاني، تحالف مجددًا مع خصمه اللدود جلال الطالباني، زعيم الاتحاد الوطني الكردستاني، برعاية من نظام الشاه في إيران، وأعلنا في بداية الشهر الرابع رفضهما القانون، واحتل مسلحوهما العقد الجبلية والمرتفعات المسيطرة على طرق

المواصلات في عموم المنطقة الشمالية، وقطعوها إلى مناطق معزولة.

عيِّن الفريق سعيد حمو قائدًا للمنطقة الشمالية لقيادة العمليات، وكان آمرًا لأحد أفواج اللواء الخامس الذي كان آمره العميد الركن إبراهيم الأنصاريّ في أواخر عام 1962، وعندما أصبح الأنصاريّ قائدًا للفرقة الثانية في ربيع 1963 تسلّم العقيد سعيد حمو آمرية اللواء الخامس. وفي العمليات العسكرية آنذاك وُضع اللواء الخامس عددًا من المرات بإمرة الفرقة الثانية، فتعرفت إليه عندما كنت مرافق الأنصاريّ وهو ضابط لم يتمكَّن من اجتياز كلية الأركان عندما كان تلميذًا فيها، الأمر الذي ولّد لديه ردة فعل تجاه ضباط الركن والآمرين منهم، وكان من الطراز المحافظ والتقليدي في عمله وأدائه العسكري.

في الأسبوع الأخير من نيسان/أبريل 1974 بدأت القوات المسلحة بعملياتها لفتح الطرق والمحاور الرئيسة المؤدية إلى المدن والقصبات الرئيسة بأسبقية أولى، على أن يتبعها التقدم إلى المحاور التي تؤدي إلى مناطق التمرّد الرئيسة في المناطق الوعرة التي يعتصم فيها المتمرِّدون.

كان بعض آمري أفواج القوات الخاصّة يكتبون إليّ في رسائلهم عن العمليات والمعارك التي يشتركون فيها، وكيف أن القيادة تكلفهم بواجبات لا علاقة لها بمهمات القوات الخاصّة وما دُرِّبت عليه، فكنت أنصحهم بأن يطلبوا من القادة الذين يعملون بإمرتهم تكليفهم بمهمات تتلاءم وما دُرِّبوا عليه، لكن يبدو أن ذلك لم يحصل، واستمرّ تكليفهم بالواجبات التي يمكن أن تقوم بها أيٌّ من وحدات المشاة.

شدّ من عزم المتمرِّدين الإسناد المستمر العسكري والفني واللوجستي من نظام الشاه، بما في ذلك العديد من كتائب المدفعية بطوائفها وآمريها من الجيش الإيراني الذين حلّوا في عمق الأراضي العراقية التي يحتلّها المتمرِّدون. وزوّدتهم إيران بالألغام ضد البشر والآليات وبأسلحة مقاومة للطائرات، وبأجهزة الاتصال وبالأعتدة والمساعدات الطبية وبخبراء إيرانيين وغربيين وإسرائيليين، وأشياء ومتطلّبات أخرى تساعدهم وتشد أزرهم في القتال، الأمر الذي أدّى إلى تعثر القوات المسلحة العراقية بعد توقف الاتحاد السوفياتي عن إمداد العراق بالعتاد لعملياته في خريف 1974 وشتاء 1975، ما جعل القيادة السياسية تلجأ إلى خيار الاتفاق مع شاه إيران في «اتفاقية الجزائر» في بداية آذار/مارس 1975 التي تخلّى العراق فيها عن سيادته على نصف شطّ العرب لإيران، وهو أحد الأسباب الرئيسة للحرب العراقية - الإيرانية حينما حاول صدام حسين، عرّاب اتفاق الجزائر، تلافي خطأه في تخلّيه عن

مياه وطنية (نصف شطّ العرب) مقابل وقف مساعدة التمرّد العسكري في شمال العراق.

انهارت حركة التمرّد الكردي حالما تخلى الشاه عن دعمه المتمرِّدين، وألقى عشرات الآلاف منهم أسلحتهم وهرب قادتهم إلى الدول المجاورة. ومات الملا مصطفى البرزاني في الولايات المتحدة وعمّ السلام شمال العراق لفترة وجيزة، إذ عاد أعداؤنا إلى لعب الورقة الكردية مرة أخرى في عام 1976.

في الأعوام الثلاثة التي كنتُ فيها ملحقًا عسكريًا في الهند قمنا مع الملحقين العسكريين للدول الأخرى بعدد من الزيارات التي نظّمتها القيادات العسكرية الهندية إلى المناطق الحدودية، مع خصمي الهند التقليديين أي الصين وباكستان، فعلى الحدود مع الصين زرنا القيادات والتشكيلات العاملة في مناطق التماس في جبال هملايا الشاهقة، وشرحوا لنا الإجراءات التدريجية التي تمارسها الوحدات للتأقلم مع الحياة والقتال في مثل هذه الارتفاعات الشاهقة. وعلى الجبهة الباكستانية زرنا الفرق العاملة في المناطق الجبلية في كشمير، وفي المناطق الصحراوية في راجستان، كذلك حضرنا مناورات قواتهم الجوية وتمارين قصف بالقنابل من طائراتهم القاصفة، وتمارين لقواتهم البحرية. وقمنا بالزيارة التقليدية إلى حاملة الطائرات القديمة الإنكليزية المنشأ والوحيدة التي يمتلكونها آنذاك، كما قمنا بزيارات متعددة لمعاهدهم العسكرية مثل كلية الأركان في ويلنغتون قرب مدينة بنغلور، والدفاع الوطني في نيودلهي. وزرنا في الجنوب مدراس عاصمة التاميل نادو، وفي الشرق كلكتا عاصمة ولاية البنغال التي تعاني حركات تمرّد مستمرة، وفي الغرب بومباي عاصمة المال والقلب النابض للاقتصاد الهندي، وفي الشمال كشمير المنطقة الجبلية ذات الطبيعة الخلابة الرائعة.

تعرفت أيضًا إلى العديد من ضباطنا الذين يدرسون في كليات الأركان والدفاع الوطني في الهند. وقامت بيننا علاقات طيبة، وعملت معهم بعد عودتي إلى العراق، ومنهم الفريق عبد الجبار الأسدي، معاون رئيس أركان الجيش للعمليات وقائد الفيلق الثاني في الحرب العراقية - الإيرانية، والفريق محمد فتحي، قائد الفيلق الأول في الحرب العراقية - الإيرانية، واللواء دخيل الهلالي الذي تطوّع للعمل بعد تقاعده في ألوية المهمات الخاصّة، وأسره الإيرانيون في معارك الشوش، وأعيد من الأسر بحالة صحية سيئة، وتوفي في بغداد، واللواء الركن عبد اللطيف شطيب، وجميعهم في كلية الدفاع الوطني، واللواء البحري الركن عبد الوهاب القصاب الذي كان طالبًا

في كلية الأركان - ويلنغتون وعمل معي بعد ذلك في رئاسة الأركان العامة طوال فترة إشغالي منصبي.

زارنا مدير عام قوات الحدود العراقية والفريق الركن عدنان أحمد عبد الجليل معاون رئيس أركان الجيش للتدريب واللواء الطيار الركن نعمة الدليمي [97] قائد القوة الجوية، مثلما قامت دورات كلية الحرب العراقية بزيارات إلى مثيلاتها في الهند. وكما بيّنت سابقًا، فالتعاون في المجالات كلها، ومنها التعاون العسكري الذي تطور إلى حد كبير بعد زيارة نائب الرئيس صدام حسين إلى الهند في مطلع عام 1974، والتقينا أيضًا الرفيقين شبلي العيسمي عضو القيادة القومية الذي حضر أحد اجتماعاتنا الحزبية وتكلم فيها عن تاريخ الحزب ودوره النضالي في الحقبات الماضية، ووزير الخارجية طارق عزيز بعد عودته من إحدى دورات دول عدم الانحياز، وتطرّق إلى الحوادث التي جرت في أروقة المؤتمر، وكيفية إصدار قراراته. كما مرّ بنا العديد من الرفاق القادة في الحزب ومن كوادره المتقدمة كلما زاروا «حزب المؤتمر» الهندي والأحزاب الاشتراكية والتقدمية التي تعج بها الساحة الهندية. وفي منتصف عام 1977، وفي ضوء بعض المشكلات التي افتُعلت في التنظيم الحزبي، ولم تكن مرة أخرى الاستخبارات بعيدة عنها، طلبت من مرجعي في وزارة الدفاع إعادتي إلى الوطن على الفور، وفعلًا صدر الأمر بذلك في الشهر السابع، وعدت عن طريق موسكو حيث صديقي القديم فاضل البراك.

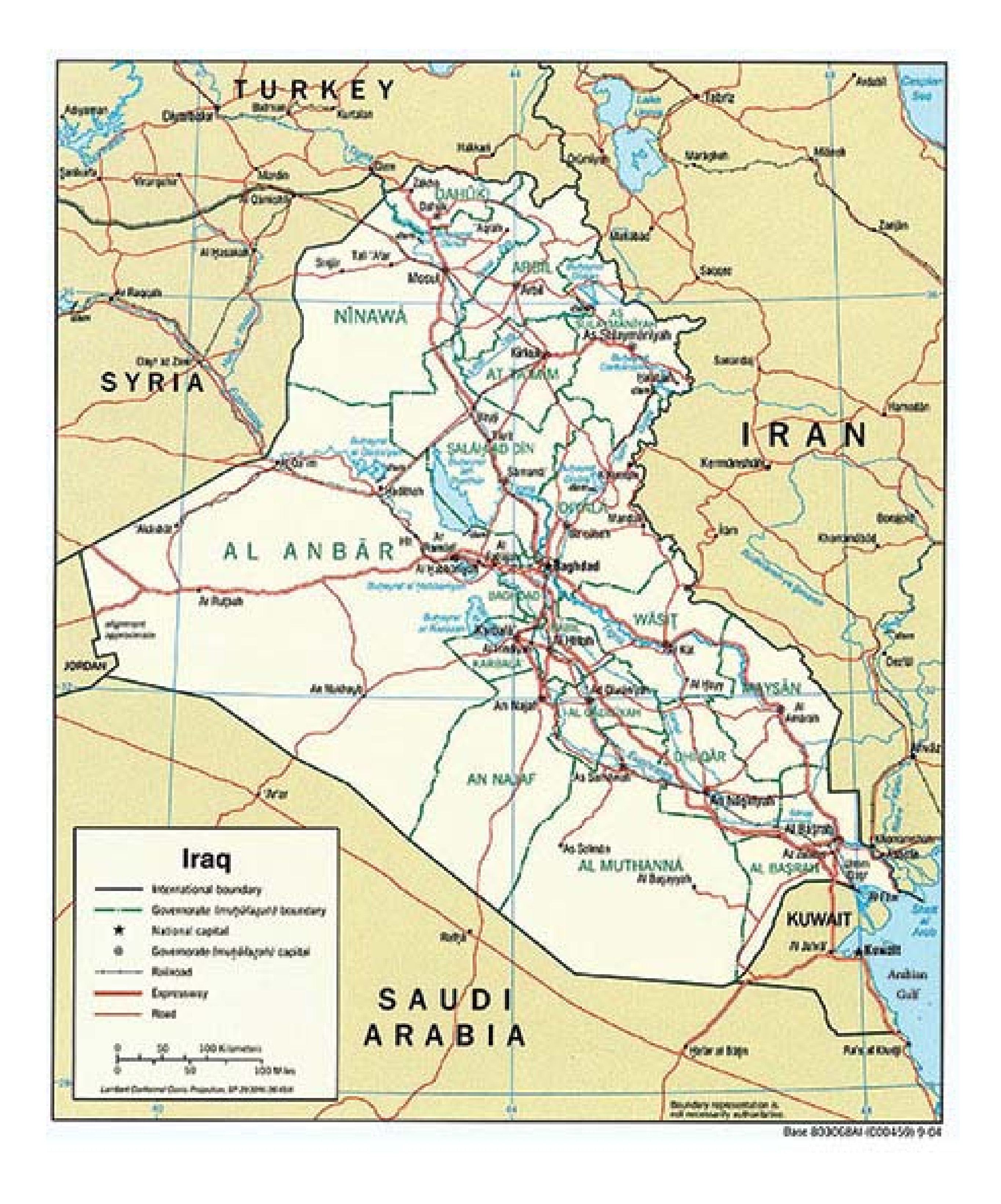
الصورة (5 - 1)

مع الرئيس صدام حسين في أحد اللقاءات



الخريطة (5 - 1)

خريطة العــراق



X النظام الداخلي للحزب هو الذي ينظم الصيغ التنظيمية، وأسلوب عملها في الحياة الداخلية للحزب.

X التجميد يعني التوقف الموقت عن العمل التنظيمي بالحزب، وهو نوع مخفف من العقوبات الحزبية لأعضائه.

X اللواء السامرائيّ كان يعمل في دائرة التسليح والتجهيز آنذاك.

X حصل أكراد العراق على حقوقهم القومية كافة، وأتيحت لهم إدارة

المنطقة الكردية في شمال العراق ومشاركتهم في الحكومة، ولم يحصل أكراد الدول المجاورة، لحد الآن، على جزء من الحقوق التي أقرتها قيادة حزب البعث والحكومة العراقية في عام 1974 في قانون الحكم الذاتي للأكراد.

X توفي بعد عودته من الهند بفترة قصيرة لإصابته بالسرطان.

الفصل السادس: مدرّس في كلية الأركان وآمر اللواء الخامس

التحقت بكلية الأركان التي عيِّنت فيها معلمًا في بداية آب/أغسطس 1977. وفي اليوم الأول من التحاقي بلّغتُ إدارة الكلية بأني سأطلب النقل خارجها، وفعلًا كتبت عريضة إلى رئيس الجمهورية ووكيل وزير الدفاع آنذاك أحمد حسن البكر مضمونها رغبتي في النقل إلى أحد التشكيلات العاملة في عمليات مكافحة التخريب في شمال الوطن.

في السنتين الدراسيتين اللتين أمضيتهما تلميذًا في كلية الأركان العراقية تولّد لدي انطباع بأن هنالك قصورًا في طريقة إعداد القادة وهيئات الأركان، على الرغم من غزارة المواد العلمية وكفاية الهيئات التدريسية، والسبب هو التقيد بالمادة العلمية الموجودة في محاضرات الكلية وتوجيهات الهيئة التعليمية، ورفض الخروج عنها مهما كان الرأي المطروح وجيهًا ومبررًا، فضلًا عن المعاملة الجافة المتعالية التي يلاقيها طلاب كلية الأركان من الهيئة التدريسية.

إن كلية الأركان العراقية من أعرق كليات الأركان في العالم العربي وأغزرها علمًا وأكثرها انضباطًا، أُسّست في عام 1928، مدة الدراسة فيها سنتان. يدخلها الضابط بعد اجتياز اختبار تنافسي بين الضباط خريجي الكليات العسكرية الذين مرت عليهم سبع سنوات أو أكثر في الخدمة في الجيش، ولم يُعاقبوا في خلالها، مع توصية من آمريهم، على أن يكونوا قد أمضوا أكثر من نصف المدة في الوحدات الفاعلة. ففي الدورة التي دخلتها في عام 1966 (الدورة 34) تقدّم للاختبار 285 ضابطًا قُبل 34 فقط، وفي السنة الأولى فشل 8 ضباط فتخرّج 26 فقط، أي 26 في المئة فقط ممن قُبلوا في الدورة. والدراسة فيها مماثلة في أوجه كثيرة لما هو موجود في كلية كمبرلي للأركان في إنكلترا (العقيدة القتالية للجيش العراقي بريطانية على الرغم من التسليح السوفياتي)، والحقيقة أن الدراسة والجهد المبذول فيها أصعب من أي كلية علمية موجودة في العراق آنذاك، ومن لا يدرس ويهيّئ ويتابع ليلًا ونهارًا، وهذا ليس قولًا مجازيًا، فلا مجال لاجتيازه الكلية، ومن يفشل فهذه نهاية طموحاته، ويبقى عار الفشل فيها يلاحقه طوال خدمته العسكرية.

تمنح الكلية خريجيها شهادة الماجستير في العلوم العسكرية التي يعترف

بها مجلس التعليم العالي العراقي، وهي تعادل نظيراتها من الجامعات المدنية العراقية.

بعد أسبوع من طلبي اتصل بي عضو المكتب العسكري ومدير إدارة مكتب الكلية الرفيق كامل ياسين وقال: «إن الرئيس أحمد حسن البكر اطلع على طلبك، ويريد رأيك في أن تكون آمرًا للواء الخامس الذي يعاني حاليًا مشكلات أثّرت في مستواه الذي عُرف به»، وأضاف: «معلوماتنا أن العقيد الركن ميسر الجبوري كفوء إلا أن الانسجام مفقود بينه وبعض الرفاق من آمري الوحدات وضباط الركن»، وهذا بتقديري رأي كامل ياسين الشخصي. فسبب مشكلات اللواء أن العقيد ميسر الجبوري غير حزبي. وافقت على الفور لأن من يقود هذا اللواء المشهور بـ «العالي»، وينجح فيه يحقّق بداية لمسيرة مهنية مميزة. وقلت له: «يسعدني أن أقود اللواء لكني عند التحاقي قد أطلب نقل بعض آمري وضباط الركن، وتعويضهم بآخرين»، فوافق على ذلك فأخبرته بأنني سألتحق في بداية الشهر المقبل.

اللواء الخامس - اللواء العالي

للواء الخامس قصة معروفة في حرب فلسطين في عام 1948، ففي إثر استئناف القتال بعد الهدنة التي استغلّها العدو الصهيوني لتعزيز قدراته بالمساعدات التي حصل عليها من أسلحة ومعدات وتجهيزات عسكرية من دول متعاطفة معه، عدا المقاتلين اليهود المتطوِّعين ذوي الخبرة من جيوشها، حاصرت القوات الصهيونية أحد أفواج اللواء الرابع في جنين وقلعتها، فأوعزت القيادة العراقية إلى الفوج الثاني من اللواء الخامس، الذي كان يقوده آنذاك المقدّم الركن عمر علي بالإسراع إلى نجدته، فاندفع الفوج لفك الحصار، واشتبك بمعارك ضارية بالقوات الصهيونية التي كانت متفوقة عليه كثيرًا، وتمكَّن من إيقاع خسائر كثيرة جدًا لا يزال الصهيونيون يتذكرونها. وتمكَّن الفوج أخيرًا من فك الحصار وهربت القوات الصهيونية تاركة 300 جثة لقتلاها في ساحة المعركة. واستولى الفوج على كثير من التجهيزات والمعدات والأسلحة المتروكة، وأصبح شعار اللواء الخامس صرخة المقدّم الركن عمر علي آمر الفوج الثاني في جنوده، يستحثهم على القتال في معركة جنين: «العالي الفوج الثاني العالي». تقلّد عمر علي مناصب متميِّزة في الجيش، وفي ثورة تموز/يوليو 1958 كان قائد الفرقة الأولى التي كان مقرها في الديوانيّة، وحاول التحرك إلى بغداد لإنقاذ النظام الملكي، لكن الضباط الأحرار تمكنوا من إلقاء القبض عليه، وقدِّم إلى المحكمة العسكرية الخاصّة

التي يرئسها العقيد المهداوي ابن خالة الزعيم عبد الكريم قاسم، الذي حاول إهانته لكن ثباته وشخصيته الطاغية أجبرا العقيد المهداوي الذلق اللسان الذي كان يشغل موقعًا إداريًّا متواضعًا في فرقته (آمر موقع المسيب) على احترامه، فحكم عليه بالسجن المؤبد ثم أُطلق سراحه بعد بضع سنين. وتوفي مع ولده وزوجته في حادث سيارة في الأراضي التركية عندما كان في طريق عودته إلى العراق في بداية الثمانينيات.

كان العميد الركن (في حينه) إبراهيم فيصل الأنصاريّ ضابط الركن الأول في الفرقة الثانية في عام 1962 (إذ لم يكن منصب رئيس أركان الفرقة قد استُحدث بعد)، وكان آمر اللواء الخامس العميد علي العاملي الذي كان يعاني اعتلال صحته غير موفّقٍ في قيادة اللواء في معاركه مع مسلحي البرزاني الذين كان يُطلق عليهم اسم «العصاة» ثم تبدّل إلى «المخرِّبين» في ما بعد، الأمر الذي اضطرّ قائد الفرقة إلى إرسال العميد الركن الأنصاريّ لمساعدته. باشر الأنصاريّ القيادة الفعلية للواء إلى جانب العميد العاملي، وبعد دخول العاملي المستشفى قاد اللواء بالوكالة، وأحرز انتصارات في معارك باطوفة وملا عرب ومعارك أخرى، وكانت كلها انتصارات بارزة فاضطرّ الزعيم عبد الكريم قاسم رئيس الوزراء ووزير الدفاع إلى تثبيته آمرًا للواء الخامس بعد إلحاح قائد الفرقة اللواء الركن محمود عبد الرزاق الذي كان من أصدقائه المقربين، وتلك كانت بداية شهرة الأنصاريّ في أوساط الجيش، والقوات المسلحة، وهذا أيضًا ما جعلني أرحّب بقيادة اللواء العالي.

تركت كلية الأركان في بداية أيلول/سبتمبر، والتحقت باللواء الخامس الذي كان معسكِرًا في دهوك لمتابعة مخربي الديمقراطي الكردستاني الذين كانوا بأعداد محدودة، في إثر استئنافهم النشاط التخريبي بعد انهيارهم في عام 1975، وقبل التحاقي عرّجت على مقرّ الفرقة الرابعة في الموصل للسلام على قائد الفرقة العميد الركن حازم البرهاوي.

رحب بي آمر اللواء العقيد الركن ميسر الجبوري [98] ، وبعد الترحيب والمجاملات المعروفة بين زملاء السلاح، استأذنته في أن يبقى لبعض الوقت وإيجاز حالة اللواء، وهيئات الركن والآمرين مع تقويمه لكل منهم ومقترحاته لجعل اللواء يعمل بحرَفية وانسجام. ذكر العقيد الجبوري المشكلات التي يعانيها في إدارة اللواء، ولخّصها في محاولات أحد آمري أفواجه من الحزبيين تجميع بعض ضباط اللواء في دائرة نفوذه، ومعاكسة آمر اللواء، ومحاولة تجاهل أوامره، كما شكا من مقدّم اللواء المشهور بين رفاقه باسم «أحمد حرقني» كناية عن قيامه بإثارة المشكلات والخصومات

بين المنتسبين إلى الوحدة أو التشكيل المُلحَق به، كما نصحني بتغيير آمر فوج آخر لعدم قدرته على قيادة فوج بمستوى أفواج اللواء الخامس. وذكر عددًا صغيرًا من الضباط الأحداث الذين كان يعتقد أنهم يمكن أن يُستبدلوا بضباط أفضل، كما بيَّن نواقص اللواء من الأشخاص بشكل خاص، فقمت بإرسال برقية إلى الرفيق كامل ياسين لنقل هؤلاء الضباط وتعيين آخرين.

قبل انفكاك العقيد الجبوري صدرت أوامر نقلهم خارج اللواء، وعُوِّضنا عنهم بمقدّم لواء جيد هو المقدّم الركن قاسم، وبآمر للفوج الأول هو المقدّم أحمد زاهر الذي استشهد في قره داغ في عام 1981 في صدام مع مخربي الاتحاد الوطني الكردستاني، وبالمقدّم الركن صائب الزيباري آمرًا للفوج الثاني وهو شقيق شيخ عشيرة الزيباريين الشيخ لطيف الزيباري، الخصم اللدود للبرزانيين، وشقيق أرشد الزيباري وزير الدولة والضابط السابق في الجيش العراقي، وكان المقدّم الركن الزيباري ضابطًا متميِّزا بخلقه وكفاءته وانضباطه، ولم يعتمد على عائلته وهو من شيوخ عشيرة الزيبار المشهورة أو على أخيه وزير الدولة، بقدر ما كان يعتمد على قدرته وصفاته، وفي الحرب العراقية - الإيرانية استلم قيادة لواء في القاطع الجنوبي واستشهد وهو يقاتل مع حاميته من الجنود الزيباريين الذين استشهدوا جميعًا معه في معارك الشوش والبسيتين في عام 1982.

للتعرف إلى السياقات التي تعمل بها وحدات اللواء في عملياتها لقتال المسلحين الأكراد كلّفت أحد الأفواج بالخروج في دورية قتال لضربهم في منطقة حددتها له، وكنت أُراقب تحضيرات الفوج للخروج في هذا الواجب فقام آمر الفوج بتهيئة القوة، وكانت بتعداد سريّة، وجلب الدواب وحمّلها بالخيم والمعدات وأوعية المياه المعدنية والفوانيس (يوجد في الألوية الجبلية فصيل بغال في ملاك أفواجها، وسريّة نقلية بغال في ملاك اللواء)، وقبل خروجه إلى الواجب قلت له: «ماذا تعمل؟». أجاب بأنه يهيّئ القوة للواجب. وسألته: «ولماذا هذه الحيوانات والخيم والفوانيس؟». أجاب أن الواجب قد يستغرق أكثر من يوم، ولا بدّ للقوة من التعسكر والمبيت، فشكرته وأخبرته بأن الواجب قد تأجل إلى إشعار آخر، وطلبت من القائد إعادة اللواء إلى معسكره الدائم لإعادة التنظيم والتدريب فتم ذلك، وعدنا إلى ثكناتنا في معسكر الغزلاني في الموصل.

يتميز لواء المشاة الخامس من غيره من التشكيلات بأن معظم ضباطه من أهالي مدينة الموصل وأطرافها وكذلك آمريه، ويعتبرون من يأتي من خارج المنطقة غريبًا، ويُنظر إليه بنظرة مشكّكة إلى أن يثبت جدارته

وحينها يعتبرونه واحدًا منهم ويولونه ثقتهم، وهم معروفون بكفايتهم وحرَفيتهم. أما ضباط صف اللواء ومتطوِّعوه من الجنود فمعظمهم من العشائر العربية المحيطة بالمدينة والمعروفة بعزة النفس والغيرة والشجاعة والشراسة في القتال.

كانت كتب كراسات التدريب للحروب الجبلية المعتمدة في الجيش العراقي مترجمة عن كرّاسات الجيش البريطاني التي استمدت مادتها من تجربة الجيش البريطاني في قتال القبائل في شمال الهند وباكستان وفي الحدود الأفغانية، وتركّز على مبدأي الأمن والتعرض الرئيسين في الحروب غير النظامية. ونجح الجيش العراقي في العهد الملكي وبدايات العهد الجمهوري في إخماد حركات العصيان في شمال العراق بتطبيق سياقات كراسات الحروب الجبلية التي عُرِّبت وأجريت عليها تحويرات ثانوية لتلائم الحالة العراقية. وبرعت تشكيلات الفرقة الثانية الجبلية والفرقة الرابعة الجبلية في ما بعد بهذا النوع من القتال، وفي مقدّمها اللواء الخامس العريق. وعلى الرغم من أن الحركات الكردية المسلحة في المرحلة الأولى من العهد الجمهوري أدخلت بعض أساليب حرب العصابات وتكتيكاتها في إثر عودة الملا مصطفى البرزاني من الاتحاد السوفياتي، إلا أنه ظلَّ معتمدًا على مناعة موطنه في برزان والمناطق الوعرة المحيطة وعلى عشيرته والعشائر الموالية له. وبعد انهيارهم في عام 1975 في عقب اتفاق الجزائر تسلّم راية العصيان الاتحاد الوطني الكردستاني وجماعة جلال الطالباني الذي ينتشر مؤيدوه السورانيّون [99] في السليمانية وبعض مناطق محافظة أربيل، لكن نفوذه ينحسر بين البهدينانيين [100] في دهوك ومعظم أربيل، الذين يوالون الحزب الديمقراطي الكردستاني [101] بزعامة البرزانيين الذين لم يكن لهم نشاط ملحوظ في هذه المرحلة.

اعتمد مخربو الاتحاد الوطني الكردستاني معظم أساليب حرب العصابات وأسُسها في قتالهم القوات الحكومية بعد اتفاقهم مع البرزاني في عامي 1974 و1975، ثم انسحب معظم مقاتليه إلى الأراضي الإيرانية بعد انهيار التمرّد، وسلموا أسلحتهم إلى الجانب الإيراني، إلا أن تنظيماتهم وخلاياهم السريّة في المدن والقصبات والمناطق البعيدة لم تتضرر، وفي عام 1976 بدأوا التسلّل عائدين إلى مدن وقصبات وقرى محافظة السليمانية والمناطق الوعرة فيها بعد أن تراخت قبضة الشاه على المناطق الحدودية وانشغل بالمعارضة المتصاعدة للشعب الإيراني.

مارس مقاتلو الحزب المذكور في عام 1976 وما بعده تكتيكات حرب

العصابات على نطاق واسع، وانتشرت زمرهم ومجموعاتهم في عموم مناطق السورانيين في السليمانية وأربيل. وانتظموا في زمر صغيرة تتألف كلٌّ منها من 10 الى20 مخربًا مع أسلحة خفيفة مثل الكلاشنكوف والبرنو، وتؤلف كل زمرتين إلى خمس زمر ما يدعى بالكرت (بمستوى سريّة تقريبًا)، ويتراوح عدد مخربيه بين40 و100 عنصر. إضافة إلى الأسلحة الخفيفة للزمر يمتلك الكرت بضعة رشاشات خفيفة RBK، وهاون 60 ملم وبعض الألغام، وتُعطى عادة تسمية لهذا الكرت إما بالنسبة إلى المنطقة التي يعمل فيها وإما بالنسبة إلى المنطقة التي ينتمي إليها مسلحوه. وتؤلف كل 3 إلى 5 كرتات ما يدعى بالملبند (بمستوى فوج أو كتيبة تقريبًا) وهو أعلى تشكيل في الهرم التنظيمي لمخربي الاتحاد الوطني، يتراوح عدد مسلحيه بين 250 و350، وكان يمتلك بعض الأسلحة المتوسطة مثل الهاونات 82 ملم، وفي مراحل لاحقة 120 ملم، والرشاشات المتوسطة، وبعض أسلحة مقاومة الطائرات ومنها صاروخ سام 7 الذي يُحمل على الكتف، وألغام مختلفة، ومتفجرات وبعض معدات التفجير، ويسمى الملبند بالمنطقة التي ينشط فيها، ويكون مسؤول الملبند على الأغلب عضوًا في المكتب العسكري للاتحاد الوطني الديمقراطي. وكان لديهم بين عام 1976 وبداية الحرب العراقية - الإيرانية 12 ملبندًا، وزاد هذا العدد بعد اندلاعها.

هذا عدا العدد الكبير من التنظيمات السريّة والخلايا النائمة ومجموعات الاغتيالات في المدن والقصبات والمجمّعات السكنية التي أنشأتها السلطة بعد إخلاء الشريط الحدودي. ولقياداتهم مقار في سركلو وبركلو ومالومة وكلها في المناطق المنيعة شرق جبل بيرة مكرون [102] شرق سورداش ولهم طرق فرعية ونياسم تربطهم بالحدود الإيرانية.

لم تكن هناك جبهة محددة، فالمنطقة كلها مسرح لتنفيذ عملياتهم، فهم يخططون عادةً للهدف الذي سيهاجمونه بعد مراقبة دقيقة قد تستغرق أيامًا ليهربوا بعدها ويختفوا في قرية أو مأوى بعيدًا عن مكان الضربة، ليوم أو أقل ثم يتحركون بين مكان وآخر، وهكذا دواليك حتى يضيع أثرهم ويصعبُ تعقّبهم، ثم يخططون لضربة قد تبعد أو تقرب في ضوء المعطيات المتوافرة، فهم في حركة مستمرة في دوائر تضيق وتتسع تبعًا لنشاط الجانب الآخر (القوات النظامية العراقية) وفاعليته، وطبيعة المنطقة وأهاليها إن كانوا موالين لهم أم يتصلون بالسلطة وأجهزتها.

كان التهديد بالقتل أو الاغتيال إحدى الوسائل التي يلجأون إليها لضمان ملاجئ أمينة لعناصرهم في المدن والقرى والمجمعات السكنية وللحصول على

المعلومات واختراق العاملين في الجهات الحكومية والأمنية والحزبية والمستقلة، ولتصفية المتعاونين مع الدولة والعاملين في دوائرها وأجهزتها الأمنية، ووكلائها من أكراد المنطقة.

أصبحت سياقات معارك الحروب الجبلية كما وردت في كراساتنا غير ملائمة لمثل هذا النوع من العمليات والتنظيمات. وسبقنا قادة وآمرون اجتهدوا في ابتكار صيغ جديدة لمواجهة حرب الملا مصطفى البرزاني التي كانت مزيجًا من حرب العشائر والعصابات من بداية الستينيات، واطلعوا على ما كتب ونشر عنها، وعن مكافحة حرب العصابات فاعتمدوا تشكيلات المغاوير والمفارز الخاصّة وقوات الوليد من العشائر العربية، وصلاح الدين من العشائر الكردية الموالية، واستخدام السمتيّات إلا أن كل ذلك لم يجارِ ما آلت إليه العمليات والتنظيمات التي عمل فيها مخربو الاتحاد الوطني في المراحل المتأخرة التي سبقت الحرب العراقية - الإيرانية.

في معسكرنا الدائم في الغزلاني كانت البداية في تحديث المعرفة المهنية بقتال الحروب الجبلية بإلقاء محاضرات إعادة تعريف آمري اللواء وضباطه، بمفهوم حرب العصابات وفلسفتها، ولماذا تلجأ إليها المجموعات المتمرِّدة؟ وما هي الأساليب والعمليات التي تمارسها وأين ومتى؟ وما هي الفروق الجوهرية بينها وبين حروب مكافحة التمرّد العشائري التي بُنيت عليها كراسة الحروب الجبلية التي نعتمدها (ذات الأصل البريطاني)، والتي كانت ملائمة لحركات التمرّد التي قام بها الشيخ أحمد البرزاني وأخوه الملا مصطفى البرزاني في العهد الملكي، ثم تطرقنا إلى حركات التمرّد في الستينيات والنصف الأول من السبعينيات التي مارس فيها المتمرِّدون مزيجًا من التمرّد العشائري ومن بعض أساليب حرب العصابات، والسبل التي ابتكرها قادتنا في تلك المرحلة لمواجهتها، ومارسته معظم تشكيلاتنا المقاتلة آنذاك، ومنها لواؤنا. وبيّنت لهم أن مخربي الاتحاد الوطني الكردستاني يشنون حاليًا عملياتهم القتالية في محافظتي السليمانية وأربيل بهذا النوع من أعمال التخريب، وعلينا نحن في اللواء الخامس العالي أن نكون جاهزين لهذا النوع من القتال. وكانت تلك البدايات التي أوجزتها لهم عن حروب العصابات، وتابعت بمحاضرات عن تفاصيلها وكيفية مكافحتها، وما ينبغي عمله تنظيميًّا وتدريبيًّا لنكون جاهزين لهذا النوع من العمليات التي تعتمد على:

- الخفة وقابلية الحركة وردات الفعل السريعة.
- القتال بمجموعات صغيرة بتحركات مخفية.

- إجادة العمل ليلًا وفي الأحوال الجوية السيئة.
- الحصول على المعلومات عن العدو وعاداته.
- استخدام السمتيّات وعمليات الإنزال الجوي.
- تطوير قدراتنا البدنية واستخدام أسلحتنا.

وأخبرتهم بأننا «سنبدأ تدريبنا للأيام والأسابيع والأشهر المقبلة لإجادة هذه النوع من العمليات، وعليكم آمرين وضباطًا أن تهيئوا جنودكم وضباط صفكم لقبول أساليب التدريب والتنظيم التي سنعمل بها».

لم يقبل ضباط وآمرو أفواج اللواء ما طلبته بسهولة، وهذا ما توقعته لاعتزازهم بما لديهم من خبرة وتجربة في قتال المسلحين الأكراد في المراحل السابقة، الأمر الذي أوجب عليّ أن أكون معهم خطوة بخطوة في مراحل التدريب المختلفة، فكنت أُخرج مجموعة من كل فوج، وأبدأ معها بشرح تفاصيل ما نقوم به ولماذا وكيف؟ ثم أواكبهم بالتنفيذ، وعندما يكون هناك خلل أوقف العملية وأشرح لهم الخلل، وكيف نُعالجه، واستمرُّ معهم حتى نهاية التنفيذ، فكنت أسير معهم وأمتدّ معهم وأزحف معهم، وأدهشهم. وسرّهم أيضًا أن آمر اللواء شخصيًّا يُمارس معهم التدريب بتفاصيله، فكان القبول بعد تردد وازدادت حماستهم يومًا بعد يوم للتدرّب والعمل على أساليب قتال وحروب مكافحة العصابات التي جئنا بها إليهم.

في خضم تدريبنا وحدات اللواء في خريف 1977 استلمنا أمر التحرك إلى معسكر طاسلوجة [103] في السليمانية قاطع الفرقة السابعة التي سنكون بإمرتها لأغراض الحركات.

بعد تكامل وصول مقرّ اللواء وأفواجه إلى معسكر طاسلوجة (20 كلم جنوب مدينة السليمانية) ذهبت إلى مقر الفرقة السابعة لمقابلة قائدها العميد الركن وليد محمود سيرت، وهو من أبناء دورتي في الكلية العسكرية، وخريج كلية سانت هيرست البريطانية، وهو رفيق وصديق قديم، سُجن مع رفاقه البعثيين بعد حوادث تشرين 1963، ونُقل بعد إطلاق سراحه إلى الفرقة الثانية، ونُسّب بحسب رغبته آمرًا لإحدى سرايا مغاوير الفرقة، وأصبح عضوًا معنا في مكتب كركوك العسكري، وفي معركة مع المسلحين الأكراد جرح جرحًا بليغًا في كتفه فحدّت الإصابة حركة يده اليمنى فتعلم الكتابة باليسرى، وأصبح يؤدي التحية العسكرية بها، وأصبح معروفًا بها في الجيش. وفي كلية الأركان عمل معنا في التنظيم الحزبي، وبعد تخرجه في عام 1969 عمل في الاستخبارات العسكرية، وأصبح معاونًا لمدير الاستخبارات العسكرية، وزارنا في موسكو في شتاء 1971 عندما كنت

معاونًا للملحق العسكري، وصدر في أثناء وجوده في موسكو أمر بنقله إلى منصب الملحق العسكري في لندن على أن يلتحق بها من موسكو فورًا (ويبدو أن القيادة السياسية قرّرت إبعاده إلى لندن نتيجة وشاية)، وفي عام 1973 عاد إلى العراق، وتسلّم آمرية اللواء المدرع 30 في الفرقة المدرعة السادسة، وفي حرب تشرين 1973 وصل لواؤه قبل يوم واحد من الهجوم الشامل للقوات العراقية في 22 تشرين الأول/أكتوبر الذي أُلغي في اللحظات الأخيرة في إثر اتفاق السوريين مع الصهيونيين على إيقاف إطلاق النار، فحُرم بهذا من المشاركة في المعركة وأصابه إحباط شديد. وفي عام 1974 عيِّن قائدًا للفرقة السابعة في السليمانية بعد لقائه الرفيق النائب صدام حسين ومُنح رتبة عميد ركن، وأصبح عضوًا في المكتب العسكري للحزب، ثم عُيِّن في عام 1978 قائدًا للفيلق الأول، أُلقي القبض عليه بعد تسلّم الرئيس صدام حسين الرئاسة في تموز/يوليو 1979، وأُعدِم مع بعض أعضاء القيادة القطرية وكوادر متقدمة في الحزب وعدد من الضباط البعثيين بتهمة التآمر مع حافظ الأسد، وذُكر بأنه واجه الموت بشجاعة.

كان العميد الركن وليد قد قام بزيارة إيران مع وفد عسكري، وقال إن الأوضاع في إيران غير مستقرة وإن معظم تنقلات الشاه تكون بالسمتيّات، بناء على نصيحة مستشاريه، الأمر الذي يجعله غير مطلع على حقيقة ما يجري حتى في عاصمته طهران. وذكر بأنه سمع من ملحقنا العسكري وأفراد السفارة أن السافاك (البوليس السريّ الإيراني) يقوم باستمرار بغارات على أوكار المعارضة للشاه في مدينة الصفيح التي يسكنها فقراء العاصمة وكادحوها، وهي ليست بعيدة كثيرًا عن قصور الشاه كما ذكر العميد وليد، وأن هذه الغارات تنتهي بمقتل جميع ساكني الوكر من المعارضين بعد قتال دموي شديد، ولمّا سألته عنهم قال إنهم يُدعون بـ «مجاهدي خلق» [104]، وكانت أول مرة أسمع باسمهم.

قال العميد وليد بعدما أوجزت له حال اللواء: لا بأس في أن تبقوا بعض الوقت في معسكركم الحالي في طاسلوجة قبل أن تنتقلوا إلى قاطع بنجوين.

في طاسلوجة، على الرغم من أننا لم نكمل تدريباتنا، قرّرت أن أقوم بفحص عملي لما تدربوا عليه، فخططت للقيام بعملية تمشيط تستغرق ليلتين لحوض قره داغ [105] الذي يوجد فيه بعض المسلحين الأكراد، تبدأ من مضيق طاسلوجة لغاية مقرّ اللواء 94 في قصبة قره داغ، ولمسافة 40 كلم تقريبًا. حوض واسع بعرض يتراوح بين 15 و20 كلم، ويقع بين

سلسلتي قره داغ الممتدّة من مدينة سد دربندخان حتى مضيق طاسلوجة شمالًا، ومضيق بازيان جنوبًا، ولم يسبق لقوة عسكرية أن قامت بعمل مشابه في هذا الحوض ليلًا، وأخبرت قيادة الفرقة بذلك.

أصدرت الأوامر للعملية بعد أن اخترت تسع مجموعات قتال، ثلاث من كل فوج، واخترت إحدى المجموعات لأرافقها وأكون مراقبًا عليها في الوقت عينه، وكذلك بقية المجموعات حيث عيّنت مراقبًا من فوج آخر غير فوج المجموعة المنفِّذة لتسجيل الملحوظات إيجابية أكانت أم سلبية في أثناء تنفيذها الواجب كما كان واضحًا لهم وجود مخربين في منطقة الواجب واحتمال اصطدامهم بهم. أجرت المجموعات تحضيراتها كلها، ومع حلول الظلام تحركت نحو أهدافها في وقت واحد، وكانت المسافة الجانبية بين مجموعة وأخرى تتراوح بين 1 و1.5 كلم. في الليلة الأولى تحركت المجموعات بحسب اتجاهها محاولة تطبيق ما تدربت عليه، والضباط المراقبون يسجلون الملحوظات على أدائها، وقبل حلول الفجر الأول لجأت المجموعات إلى مناطق وعرة للاختباء، وانطلقت لإكمال مهمتها مع حلول الظلام، وفي نهار اليوم التالي تتابع وصول المجموعات إلى مقرّ اللواء 94 (اللواء مؤلف من 6 أفواج)، وكان واجبه إمساك بعض العوارض في الحوض لتأمين الطريق بين قصبة قره داغ والسليمانية الذي كان المثابة النهائيّة للواجب من دون حادث، ومنها عُدنا بالعجلات إلى معسكرنا في طاسلوجة.

بعد استراحة قصيرة تناولوا فيها الطعام جمعتُ مجموعات القتال لتحليل العملية، وما سجله المراقبون من نقاط، فبدأت بالمجموعة التي صاحبتها، وطلبت من المراتب أن يبدوا ملحوظاتهم عن مدى ما حدث من تطابق ووقع من أخطاء في أثناء التنفيذ قياسًا على تعلّموه وتدرّبوا عليه، وأعقبهم ضباط صف المجموعة ثم الضباط آمرو المفارز وأخيرًا آمر المجموعة، وأنهيتها بملاحظاتي عن أداء مجموعة القتال لمهمّتها، وهل تعتبر العملية ناجحة، وما كان متوقّعًا لو أن اصطدامًا فعليًّا حدث مع المسلحين الأكراد ولماذا؟ وما هي الأعمال التي أجادوها والأخرى التي فشلوا فيها، وكان الغرض من هذا التسلسل في بيان الملحوظات هو ألّا يتأثر المادون (الأقل رتبة ومسؤولية) بما يقوله المافوق (الأعلى رتبة ومسؤولية)، وتعمّدت أن تكون المجموعة التي كنت معها هي الأولى في التحليل كي يقوم مراقبو المجموعات بنقد أداء المجموعة التي كانوا معها بالجديّة نفسها والمصارحة والدقة التي بيّنت بها ملاحظاتي ونقدي لمجموعتي. وكان هذا التحليل أقسى على بعضهم من الإنهاك الذي عانوه خلال اليومين اللذين استغرقتهما

العملية. هذا ما سمعته من بعضهم في ما بعد، لكنهم تعلموا أن يلتزموا ما تعلموه وتدربوا عليه في كل خطوة وإجراء عندما يقومون بالعمليات الفعلية في القتال.

بعد بضعة أيام أصدرت قيادة الفرقة السابعة أمرها بتحرّك اللواء إلى قاطع بنجوين الحدودي فتنقلنا على طريق السليمانية -عربت - سيد صادق - كاني منكه - نالباريز - بنجوين. كان مقر اللواء 116 في قصبة نالباريز ويقوده العقيد ضاحي وهو من أهالي الموصل، وله خبرة في التعامل مع المنتسبين إلى اللواء المؤلف من 8 أفواج من الذين تطوّعوا ليكونوا أفواج شرطة تخدم قرب مناطق تطوعهم، لكن ضرورة الحركات في المنطقة الشمالية حوّلتهم إلى أفواج تقوم بواجبات الجيش، وكُلفوا بإمساك مضيق بنجوين الوعر الذي يبلغ طوله أكثر من 25 كلم.

عسكَرَ اللواء في القرب من مدينة بنجوين [106] ، وشرعت أفواجه في التدريب بعد أن أفرزت رบايا [107] لحماية منطقة معسكراتها، وكان بعض العناصر المتمردة في قاطع بنجوين يتعامل بالتهريب بين المدن، والقصبات الحدودية كأحد مصادر التمويل لهم، كما أنها مهنة بعضهم قبل أن يلتحق بالتمرد، مقاتلًا أو صديقًا، ولذلك ركّزنا على نصب الكمائن وإلقاء القبض عليهم وعلى المواد المهربة وإرسالهم إلى قيادة الفرقة للتحقيق. وغالبًا ما كان يحدث تصادم وإطلاق نار متبادل، إذ إن معظم المهربين مسلحون، فيقع العديد منهم قتلى جراء ذلك.

كانت المعلومات التي تردنا تشير إلى أن المسلحين الأكراد يلجأون إلى القرى البعيدة من مواقع الجيش في الأحوال الجوية السيئة. وفي أحد تلك الأيام، وكان الجوّ غائمًا هيأتُ تسع مجموعات قتالٍ، وحددت تسع قرى يمكن أن يلجأ إليها المسلحون الأكراد في هذه الليلة الغائمة التي يحتمل أن تكون ماطرة أيضًا، وكانت هذه القرى تبعد ما يتراوح بين 15 و20 كلم شمال وشمال غرب معسكراتنا. وعند حلول الظلام بدأ رذاذ من المطر يتساقط، ويتوقف لدقائق ثم يبدأ بالتساقط مرة أخرى، وهكذا دواليك. التحقت بإحدى مجموعات القتال، وتحرّكنا نحو أهدافنا، وأنا واثق بأننا سنحصل على صيدٍ طيبٍ من المسلحين الأكراد في هذا الجو الذي سيُلجئهم إلى القرى ويشعرهم بالأمان. وفي الساعات الأربع الأولى كانت المجموعات كلها قد قطعت مسافات جيدة باتجاه أهدافها، واجتزنا خلالها عددًا من السواقي والأودية الجافة.

بعد منتصف الليل بقليل بدأت الأمطار تنهمر بشدّة لا مثيل لها، وفي

دقائق بدا وكأن بحارًا تنهال علينا من السماء، فأصدرت أمرًا لجميع المجموعات أن تلجأ إلى أقرب قرية أو ستر يحميها من السيول المنهمرة من فوق، وأن يشكلوا جميعًا رتلًا منفردًا، وأن يمسك كل منهم بنطاق الجندي الذي أمامه، وأن لا يتركه مهما حدث، وإذا حدث وأفلته، فالمجموعة كلّها تتوقف إلى أن تتأكد بأننا لم نفقد أيًّا من جنودنا. كان الظلام دامسًا إلى الحدّ الذي لا ترى فيه راحة يدك، وهي على بعد سنتيمترات من وجهك، وبدأت الأودية الفارغة التي مررنا بها تدوي بهدير السيول التي امتلأت وضاقت بها، وأخذت تضرب حافاتها بأصوات تصم الآذان. كان بعض المجموعات يدور في حلقات بسبب الأودية والسيول التي تعترضها، وكانت أوامري بأن يستمروا في السير والحركة، فالتوقف يعني الموت بردًا وبللًا، ثم تغير كل شيء فتوقف المطر فجأة، وبدأت الثلوج تنهمر بغزارة فأصبح كل شيء أبيض، السماء التي تنهمر منها الثلوج والأرض والعوارض وكل ما يحيط بنا، ولم يكن ذلك سيِّئًا فقد بدأنا نرى بعضنا بعضًا والقليل مما حولنا، وبدأ هدير السيول في الأودية يهدأ شيئًا فشيئًا ونحن نسير من دون توقف. بعض المجموعات أخبرنا بأنه دخل بعض القرى فأمرتهم أن يتدفأوا فور وصولهم، ثم توقف سقوط الثلوج، وتمكَّنت مجموعتي بدورها من اللجوء إلى أحد المخافر [108] ، وكان شرطيو المخفر ينظرون إلينا بعجب ويسألوننا «كيف خرجتم في هذه الليلة؟»، فهم يعرفون أجواء هذه المناطق وكنا جددًا. وفي الصباح كان الجميع قد لجأ إلى قرية أو مخفر، وكان الله معنا ولم نفقد أيًا من جنودنا، لكنه كان درسًا لا يُنسى.

أصدرت قيادة الفرقة السابعة أمرًا بانتقال اللواء إلى مدينة حلبجة بعد أن يترك أحد أفواجه في بنجوين، واستقر مقرّ اللواء في بناية كانت لمركز شرطة في الحافة الجنوبية لمدينة حلبجة [109] قرب معسكر بقية وحدات اللواء. كانت مهمة اللواء تأمين قاطع حلبجة من الأعمال التخريبية وضرب المخربين فيها، وباشرنا في إخراج الكمائن وجمع المعلومات عن المسلحين الأكراد في القاطع. ولما كان نهج التخريب الذي تتبعه قيادة حركة العصيان آنذاك هو عدم التحرش بالمناطق التي تكون فيها وحدات الجيش، كان لا بدّ من متابعة وملاحقة وجودهم في قاطع مسؤولية اللواء، لكن كانت تنقصنا المعلومات، فما زوّدتنا به استخبارات الفرقة كان معلومات عامة وقديمة لم يجرِ تحديث معظمها.

لم تكن علاقة قيادة الفرقة السابعة جيدة ببقية الدوائر الأمنية أي

منظومة الاستخبارات العسكرية في السليمانية ودائرتي الاستخبارات وأمن السليمانية، وانعكس ذلك على التعاون وتبادل المعلومات، فقد كانت كل جهة تعمل بمفردها بأجهزتها ومصادر معلوماتها، وتحرص على الاحتفاظ بما تحصل عليه من معلومات، وأن لا يصل منها شيء إلى الجهة الأخرى، ولا سيما إلى قيادة الفرقة السابعة، وتشكيلاتها المقاتلة لمعاملة قائدها الخشنة معهم.

كان ممثّلو هذه الأجهزة متحفظين في المقابلة التي أجريتها معهم في مقرّ اللواء في حلبجة لبحث تعاوننا في تبادل المعلومات عن المسلحين الأكراد وتحركاتهم في قاطع اللواء، وكان واضحًا أنهم ينفّذون توجيهات رؤسائهم في مركز المحافظة.

إزاء هذه الحالة من انعدام التعاون بادرنا بتشكيل قوة خاصّة من جنود اللواء من المراتب وضباط الصف الأكراد من العشائر المعروفة بولائها للسلطة، وبعض عناصر استخبارات اللواء بإمرة أحد ضباط مقرّ اللواء، لجمع المعلومات عن المسلحين الأكراد، وأمّنا لهم ملابس الكرد التقليدية من أسواق السليمانية، وتركنا لهم حرية إطلاق شعرهم ولحاهم، وحصلنا لهم على أسلحة مثل بنادق البرنو، والإنكليزية القديمة (لي أنفيلد)، إضافة إلى بنادق الكلاشنكوف وزوّدناهم بهويات مدنية بمهن مختلفة، ودرّبناهم على واجباتهم الجديدة، وزوّدهم ضابط استخبارات اللواء بالمعلومات المتيسرة عن المسلحين الأكراد وأسماء المفارز والقرى المتعاطفة معهم. وأجرينا لهم بعض الممارسات ثم أرسلناهم للتجوال بين القرى وفي المناطق التي يرتادها المسلحون الأكراد، وكانوا يتنقلون بوسائل مشابهة لأقرانهم كالجرارات الزراعية وغيرها، وكنا حرصاء على معرفة ردات فعل المسلحين الأكراد على فعاليتنا هذه، فوصلتنا معلومة بأن المسلحين الأكراد رصدوا بعض تحركات مجموعتنا الخاصّة على أنها من مفارز الاستخبارات التابعة لمركز استخبارات حلبجة [110] بعد أن كشفوا علبًا معدنية لأرزاق المعركة [111] متروكة في أحد المواقع التي مرت بها مفارزنا، فأوعزنا إليهم بدفن هذه العلب بعد تناولهم وجبات الطعام. كانت مفارز الاستخبارات تتألف من المسلحين الأكراد الذين عادوا إلى الصف الوطني، والذين تطوّعوا للعمل مع مراكز الاستخبارات العسكرية التابعة لمنظومة الاستخبارات الشمالية [112] .

كانت وحدات اللواء تتدرب في الأيام التي لا تنشغل فيها بفاعليات الكمائن ودوريات القتال. وفي أحد الأيام اتصل بي رئيس أركان الفرقة العميد الركن عطا الشيخلي، وطلب مني المجيء إلى مقرّ الفرقة، وكان

العميد الركن وليد سيرت قائد الفرقة في بغداد لحضور مؤتمر. عرض لي رئيس الأركان العميد الركن الشيخلي خريطة قاطع حلبجة، وأشّر إلى منطقة فيها، وطلب مني أن أقوم بعملية لتطهيرها من المسلحين الأكراد، وسيكون بإمرتي عدد من سرايا مغاوير الفرقة وسمتيّات [113] للإنزال الجوي. كانت العملية ستنفّذ بعد يومين فسلمني الأوامر والمعلومات الخاصّة بتنفيذ العملية، ولمّا دققت في الخريطة، وجدت أن المنطقة المقصودة هي المنطقة التي نجري فيها تدريباتنا اليومية، وليس هناك بالطبع أي وجود للمخربين، وكنت أتوقع أن يقول: «إذن سأخبر القائد بذلك، وسنلغي العملية»، لكنه أصر على تنفيذها لأنها أوامر القائد. فقلت له: «حسنًا أخبر القائد إنني لن أُنفذها هل تريدون أن أخبر جنودي بأننا سننفّذ عملية بهذا الحجم لمطاردة المسلحين في الساحة التي نتدرب فيها يوميًا؟ إذا أصررتم على تنفيذها فإني سأذهب في إجازة، وافعلوا أنتم ما شئتم». وتركت اللواء وذهبت في الاجازة ونفّذوا هم العملية.

حصلت المجموعة الخاصّة على معلومات عن إحدى مفارز المسلحين الأكراد الرئيسة التي تتجول في منطقة تقع على بعد 15 كلم جنوب حلبجة في منطقة تدعى بفريميري القريبة من نهر السيروان [114] ، وتعبر إلى الجانب الشرقي من النهر في قرية تتخذها ملجأ لها. ذهبت إلى المنطقة نهارًا مع مجموعة صغيرة من جماعة الاستطلاع، وراقبت المكان فكان نهر السيروان في تلك المنطقة بعرض 80 مترًا تقريبًا، وسريع الجريان والقرية المذكورة تبعد نحو 600م عن النهر، ولاحظت وجود زورقين خشبيين مع مجاذيفهما المركونة في منطقة المعبر وقد يكونان لصيادين محليين، كما قد يُستخدمان أيضًا لنقل الأشخاص بين الضفتين. أكد لي آمر المجموعة الخاصّة الذي كان بصحبتي أن هذين الزورقين موجودان في مكانهما الحالي معظم الأوقات. فقرّرت قيام المجموعة الخاصّة مع مجموعة قتال بالعبور ليلًا، ومهاجمة المسلحين الأكراد في ملجئهم الأمين في القرية. في اليوم التالي تحرّكنا ليلًا إلى منطقة قريبة بالعجلات، وترجلنا وتقدّمنا بتشكيل القتال، ووصلنا إلى النهر فنزلت المجموعات تباعًا إلى المعبر بحذر شديد، وكان الزورقان في مكانهما المعتاد فعبرت المجموعة الأولى، وأمّنت الضفة البعيدة إلى أن تكامل عبور باقي القوة فتقدمت إلى القرية، وسارعوا إلى مهاجمتها بعد سماعهم نباح كلاب القرية، فتمكَّنت قواتنا من إلقاء القبض على معاون آمر المفرزة وأحد أفرادها مع أسلحتهما، فيما استطاع الآخرون الفرار، وانتشروا في المناطق الوعرة خارج القرية، فأوعزت إلى القوة بالعودة، وأرسلنا

أسيري العملية إلى قيادة الفرقة لاستجوابهما. وعلى الرغم من صغر العملية ونتائجها نسبيًّا، إلا أنها عمّقت إيمان جنود اللواء بأهمية الأساليب غير التقليدية لمثل هذا النوع من العمليات.

في تموز/يوليو 1978 تولّى العميد الركن وليد محمود سيرت قيادة الفيلق الأول في كركوك، ورُقيَّ إلى رتبة لواء، ونُقل العميد الركن حازم برهاوي قائد الفرقة الرابعة إلى قيادة الفرقة السابعة، ولمّا زرته للسلام عليه كان يبدو غير مرتاح، وقال بصراحة: «لا أدري كيف سأتعامل مع هذه الفرقة التي اعتادت أسلوب اللواء وليد الجاف والشديد». فقلت له: «يا سيدي أنت كنت ناجحًا في قيادة فرقتك السابقة بأسلوبك الخاص فلماذا تغيره؟». لم يكن مقتنعًا، ولم يكن سعيدًا بمنصبه الجديد.

بعد أقل من شهر صدر أمر نقلي إلى منصب قائد الفرقة السابعة وترقيتي إلى رتبة عميد ركن، ونُقل العميد الركن حازم برهاوي إلى قيادة الفرقة الثانية في كركوك. اتصل بي العميد برهاوي وطلب مني المجيء إلى مقرّ الفرقة، وكنت ما أزال أحمل رتبة عقيد فاستقبلني وابتسامة عريضة تغطي وجهه، وصاح بمرافقه عندما رأى أني ما زلت أحمل رتبة عقيد «اجلب إحدى رتبي». ونزع الرتبة القديمة ووضع رتبة العميد الركن بدلًا منها.

X اللواء الركن ميسر الجبوري من أبناء الموصل. ضابط مشاة جيد، وله معرفة أكاديمية ممتازة، عمل لاحقًا في الأركان العامة، وكان في بداية الحرب العراقية - الإيرانية مديرًا للحركات العسكرية، وفي بداية عام 1982 استلم مني قيادة الفرقة السابعة التي كانت بإمرة الفيلق الثاني في القاطع الأوسط، ثم عمل معي رئيسًا لأركان الفيلق الأول في الفترة الأولى من قيادتي للفيلق، عاد بعدها إلى العمل في الأركان العامة مديرًا للحركات للمرة الثانية. يتميز بالخلق الرفيع وبانضباطه العسكري المثالي، ويتمتع بالمهارة في إدارة مرؤوسيه من هيئات الركن، الأمر الذي يترك لقائده الوقت الكافي مع قواته في الميدان.

X السورانيون هم الأكراد الذين هُم بشكلٍ عام في محافظة السليمانية، وقطاع من أربيل.

X البهدينائيون (البهدينانيون) هم الأكراد الذين يؤلفون سكان محافظة دهوك حاليًا، وقطاعًا من محافظة أربيل، ويختلف كلا القسمين في اللهجة وفي السحنة كذلك. أما أكراد محافظة ديالى العراقية فهم خليط من السورانيين، والأردلان (أكراد غرب إيران)، والأكراد الفيليين. للاطلاع أكثر على

أكراد العراق وتقسيماتهم راجع محمد أمين زكي، خلاصة تاريخ الكرد وكردستان، شاكر خصباك ؛ الأكراد - دراسة في الجغرافيا الاجتماعية؛ عزيز الحاج - القضية الكردية وغير ذلك كثير.

X الحزب الديمقراطي الكردستاني المعروف في العراق باسم البارتي هو الحزب التاريخي القومي في العراق، الذي ورث اتجاهات تحقيق الأمل القومي الكردي، وعلى الرغم من يسارية أفكار الحزب إلا أن الملا مصطفى البرزاني كان يقوده قيادة عشائرية. ولا تزال الصفة العشائرية هي السائدة بعكس الحزب السوراني المنافس وهو حزب الاتحاد الوطني الكردستاني.

X جبل بيرة مكرون جبل شاهق يبلغ ارتفاعه نحو 2500 م عن مستوى سطح البحر، ويشكل علامة بارزة في منطقته كأعلى قمة موجودة في الجوار. يقع إلى الجنوب الغربي من مدينة السليمانية، كبرى مدن منطقة سوران، ويسيطر الجبل على الطريق إلى سد دوكان المائي المهمة والخطرة على الزاب الأسفل.

X طاسلوجة أحد مضيقين يواجهان القادم من كركوك إلى السليمانية على الطريق العام، يُعدّ مانعًا دفاعيًا مهمًا. المضيق الآخر هو بازيان الذي يقع على بُعد 20 كلم جنوبه.

X «مجاهدي خلق» منظمة يسارية دينية قومية كانت من أكثر المجموعات المعارضة عداءً للشاه وشراسة، ولها دور رئيس في الثورة عليه. وبعد نجاحها تحالف أنصارها مع الخميني واعتبروه الأب الروحي لهم، لكنه انقلب عليهم وقتل الآلاف منهم، وقد نجا مسعود رجوي وهرب وقاد المنظمة من الخارج.

X سلسلة جبال قره داغ سلسلة واسعة من الجبال والأودية تمتد من منطقة أغجلر شمال الطريق العام كركوك - السليمانية، حتى مدينة وبحيرة دربندخان جنوبًا، يبلغ طول هذه السلاسل أكثر من 70 كلم، وعرضها أكثر من 20 كلم، وتقع شرق مدينة جمجمال وغرب مدينة السليمانية.

X مدينة بنجوين مركز قضاء بنجوين تقع على الحدود الإيرانية وتبعد منها بضعة كيلومترات، تقابل مدينة ميروان الإيرانية وترتبط بسهل شهرزور والسليمانية بمضيق بنجوين.

X الربيئة موقع عسكري ينشأ على منطقة مشرفة ومسيطرة على طريق المواصلات، أو لحماية المناطق الحيوية ذات الأهمية الحيوية سابقًا، وهي تشبه القلاع التي كانت تنشأ في المناطق ذات الأهمية الحيوية، وعلى العموم فهي ليست دائمة إلا في حالات خاصة.

X المخفر مركز شرطة محصن ينشأ عادة في القرى أو في المناطق الحدودية.

X مدينة حلبجة الحدودية، مركز قضاء حلبجة التابع لمحافظة السليمانية، تبعد عن الحدود الإيرانية بضعة كيلومترات. تسيطر عليها من الشرق سلسلة جبال هورمان وقممها المسيطرة إيرانية، ومن الجنوب جبل بالمبو وقممه المسيطرة إيرانية أيضًا.

X من المسلحين الأكراد الذين يعملون بإمرة مراكز استخبارات المنطقة الشمالية، ممن كانوا منخرطين في الحركة الكردية المسلحة وعادوا إلى الصف الوطني وكانوا فاعلين جدًا في مكافحة الحركات الكردية المسلحة لمعرفتهم بتفاصيل تحركاتهم وعاداتهم ومآويهم.

X أرزاق تصرف للوحدات في أثناء تكليفها بالعمل خارج معسكراتها أو في أثناء الدوريات، وهي وجبات طعام معلبة بقياسات محددة وتكفي كلٌّ منها لشخص واحد.

X بعد تعقد الوضع الأمني من جهة والعلاقات المتردية مع سورية وأهمية الساحتين الإيرانية والتركية من جهة أخرى، نظّمت مديرية الاستخبارات العسكرية جهدها على مستوى القطر بأربع منظومات هي على التوالي الشمالية ومسؤوليتها القاطع الشمالي، والغربية ومسؤوليتها سورية، ودولتا الجوار العربيتان على حدودنا الغربية والشرقية مع إيران، والجنوبية مع كل من إيران والكويت والمملكة العربية السعودية.

X السمتيّة هو التعبير الذي تطلقه القوات المسلحة العراقية على طائرات الهِلِيكوبْتِر باعتبارها تقلع عموديًا.

X السيروان (آب سيروان) هو اسم نهر ديالى في قسمه من منبعه حتى التقائه برافده الرئيس (نهر الوند) ونهر ديالى من روافد نهر دجلة الرئيسة، ويصب فيه على مسافة 10 كلم جنوب بغداد.

الفصل السابع: قائد الفرقة السابعة

بعد استلامي قيادة الفرقة بفترة قصيرة سحب الفيلق من قاطع الفرقة لواء المشاة الخامس الذي كان يتولّى مسؤولية قاطعي حلبجة وبنجوين، ولواء القوات الخاصّة الذي كان من قوات الضربة في الفرقة إضافة إلى فوج مشاة آلي من اللواء الآلي 25 ووحدات أخرى، كذلك سرِّح ما يزيد على 4000 جندي من المراتب في الفرقة. وكانت هذه الفرقة قد عُززت بهؤلاء الجنود عندما كان اللواء وليد محمود سيرت قائدًا لها، وكانوا من مواليد سنة واحدة وتم تسريحهم لإكمالهم الخدمة الإلزامية. تدنى موجود (عديد) بعض سرايا تشكيلات الفرقة الأساسية: الألوية 19 و38 و39 إلى أقل من 30 جنديًا من مجموع 132 جنديًا وضابط صف هو العديد القياسي لسريّة مشاة في الجيش العراقي. فذهبت لمقابلة قائد الفيلق اللواء الركن وليد محمود سيرت، وقلت له: «إنك لم تترك الفرقة إلا منذ فترة قليلة وتعرف مدى حاجتها إلى التشكيلات والوحدات التي سحبتها، فما الذي استُحدث حتى تقوموا بمثل هذا الإجراء؟». فذكر أن ذلك حدث بالمذاكرة مع رئاسة أركان الجيش «وعليك التعامل معها»، ثم تطرقت إلى تسريح المراتب والنقص الحاد الذي تعانيه تشكيلات الفرقة، فقال إنه سيحاول تعزيزنا بمراتب من المواليد الجديدة حال إكمالها تدريبها الأساس في مراكز التدريب. أوعزت إلى اللواء 116 لإرسال قوة مرتبة من أفواجه إلى بنجوين، كما طلبت من اللواء 38 في قاطع خورمال [115] بإرسال أحد أفواجه إلى حلبجة. وبعد فترة بدأت تصلنا أعداد من المراتب الجدد بعد إكمال تدريبهم الأساس في مراكز التدريب [116] فأوعزت إلى الألوية بفتح دورات تدريبية لهم في الرماية وتدريبهم على الأسلحة المختلفة لعدم ثقتي بمستوى التدريبات التي حصلوا عليها في المراكز.

التحق بالفرقة المقدّم الركن برهان خليل [117] بمنصب ضابط الركن الثاني استخبارات، وهو ضابط ذكيّ ومتحمس للعمل في موقعه الجديد، فأخبرته بمدى الأهمية التي أُعيرها للمعلومات في إنجاح مهمة الفرقة في مكافحة التخريب، وسوف أُعززه بما يمكّنه من تحقيق ذلك، وحذّرته في الوقت نفسه من إشغال نفسه وهيئة ركنه في نقل القيل والقال عما يدور بين ضباط الفرقة كما يفعل بعض من أقرانه، إذ إني سوف أنقله بالتأكيد لو فعل ذلك، إلا ما يتعلق بالمعلومات التي تخص أمن الدولة والحزب. وأبدى

المقدّم برهان تفهمه.

كان قسم الاستخبارات في الفرقة يتكوّن من ضابطي ركن وضابط أمن وآمر فصيل الاستخبارات، وفصيله يتكوّن من حضيرة [118] قراءة تصاوير جوية، وحضيرة أمن وحضيرة استخبارات، ويبلغ المجموع الكلي لرتب الاستخبارات 30 من المراتب وضباط الصف.

اخترنا 12 ضابطًا بعدما أجرينا معهم أنا والمقدّم الركن برهان مقابلات، واختير300 ضابط صف ومراتب من أكراد العشائر الموالية ومن العرب لتعزيز استخبارات الفرقة بعدما قابلهم العقيد برهان، وخضعوا لدورات مغاوير وقتال خاصّة، ودورات معلومات أمن واستخبارات. وجرى نشرهم وتوزيعهم في مختلف أرجاء مدينة السليمانية بعد تنكّرهم بملابس وهيئات تتلاءم وأماكن وجودهم، والمهنة التي يعملون تحت غطائها. وتعلّم المراتب العرب اللغة الكردية. وألّفنا مجموعات ضاربة تتألف كل منها من 15 إلى 20 ضابطًا وضابط صف وجنديًا لمهاجمة الأهداف التي حصلوا على معلومات عنهـا.

استدعيت مديري أمن استخبارات شرطة المحافظة وآمر مركز استخبارات السليمانية، واجتمعت بهم بحضور ضابط استخبارات الفرقة المقدّم برهان. أخبرتهم برغبتي في التعاون جميعًا في تداول المعلومات، وأن أي معلومة عن المسلحين الأكراد أو تنظيماتهم الداخلية تقدّمها أي جهة منهم سنرسل لمعالجتها قوة مشتركة، وتحسب نتائجها لهم فحسب من دون ذكر أي شيء عن اشتراك الفرقة في العملية، وسنكتب إلى مراجعهم عن تعاونهم وحسن إنجازاتهم، وقلت: «سنقوم بتشكيل هيئة معلومات منكم ومن المقدّم الركن برهان تجتمع يوميًا للتداول وتبادل المعلومات وتنسيقها، وتبادل الخطط لتنفيذ العمليات، وسأكون موجودًا في هذه الاجتماعات، وإن شُغلتُ سيحضرها رئيس أركان الفرقة، ويكون هذا نهجًا لعملنا الآن وفي المستقبل، وسأكون مستعدًا لاستقبال أي واحد منكم ليلًا أو نهارًا»، وكان الجميع سعيدًا بذلك. في السنة الأولى تمكّنا من إلقاء القبض على أكثر من 250 عنصرًا من جماعات الاغتيالات والتنظيمات السريّة للاتحاد الوطني الكردستاني في مدينة السليمانية فحسب، مقابل «لا شيء» في السنين السابقة.

كانت ألوية الفرقة والتشكيلات التي بإمرتها مكلفة بإمساك العوارض الرئيسة في قاطع الفرقة، ولم تكن تتيسر لها قوة متحررة أو قوة احتياط لضرب ومطاردة المسلحين الأكراد أكثر من سرايا مغاويرها ومغاوير الفرقة بعد أن سُحب لواء القوات الخاصّة واللواء الخامس والوحدات الأخرى،

لذلك قررتُ سحب ألوية الفرقة الأساسية: لواء 19 في سورداش، ولواء 38 في خورمال، ولواء 39 في ماوت، واللواء 18 من الفرقة الرابعة في جوارتة من العوارض المكلفة بمسكها، وإبقاء سريّة من كل فوج لا أكثر لمسك العوارض الحيوية التي لا يمكن الاستغناء عنها، وتحرير أفواجها للتدريب وللعمليات المقبلة، كما شكلتُ في كل لواء سريّة واجبات خاصّة بالصيغة نفسها التي مارسناها في اللواء الخامس ترتبط بمقر اللواء، إضافة إلى سريّة مغاوير اللواء. أما الأفواج (يتألف كل فوج من سريّة مقرّ، وسريّة إسناد، وأربع سرايا مشاة) فقد كلفنا سريّة المقرّ بحراسة محيط معسكر الفوج إضافة إلى واجباتها، ونقلنا الجنود الضعفاء والمترهلين من الذين لا يستطيعون القيام بالمهمات الشاقة إلى السريّة الرابعة، وكُلفت بإمساك العوارض الحيوية في قاطع الفوج، فبقيت ثلاث سرايا مشاة وسريّة الإسناد متحرّرة كقوات ضربة، وبذلك يكون لكل لواء تسع سرايا مشاة وسريّة مغاوير واحدة وسريّة واجبات خاصّة، وبإسنادهم ثلاث سرايا إسناد كقوات ضربة بدلًا من سريّة مغاوير اللواء فحسب، كما كان سابقًا.

كذلك طلبنا من اللواءين 116 و94 المكلفين بمسك الطرق والمضايق تحرير سريّة من كل فوج للتدريب كقوة ضاربة، وتشكيل مجموعة عمليات خاصّة فأصبح للواء 94: سريّة مغاوير اللواء، وسريّة عمليات خاصّة، وست سرايا مُشاة متحرّرة كقوات ضربة، وللواء 116: سريّة مغاوير اللواء، وسريّة عمليات خاصّة، وثماني سرايا مشاة كقوات ضربة. كان هناك قبل هذه التغييرات عدم توازن (في تحقّق مبدأي الأمن والتعرض الأساسيين في الحروب غير النظامية) ليس في قاطع الفرقة السابعة وإنما في قواطع بقية الفرق العاملة في المنطقة الشمالية بشكلٍ عامٍّ. فالتشكيل الذي يُمسك بمعظم وحداته وأحيانًا بكل عوارض المنطقة المكلف بحمايتها لا يستطيع منع المجاميع الصغيرة للمسلحين الأكراد (وهو ما تقوم به مفارز المسلحين الأكراد في حرب العصابات) من حرية التنقل والتسلّل ليلًا حتى من خلال وحداته المكلفة إمساك تلك العوارض، فلا يحقق الأمن لأن فاعلياته وقدراته على مطاردة العدو وضربه محددة لعدم وجود قوة ضاربة لديه، ولا يحقق التعرض أيضًا. وبعد أن أكملت الألوية تدريب وحداتها وسراياها المتحررة ومجموعاتها الخاصّة أصبحت المناطق في قواطع الألوية تحت السيطرة التامة لتشكيلاتنا، وأصبح عمل المسلحين الأكراد في قواطعها محفوفًا بالخطر الشديد.

كان الشباب في السليمانية وفي مناطق السورانيين التي ينشط فيها حزب

الاتحاد الوطني الديمقراطي واقعين تحت تأثير الأفكار التي يروّج لها دعاته ومثقفوه من يسار شوفيني وكره عميق للسلطة وأدواتها. ولتغيير هذه الصورة وكسر الحاجز النفسي بينهم وبين الجيش الذي هو أهمّ أدوات السلطة، فكرتُ في إنشاء نادٍ لرياضة خطرة ينجذب إليها شبابهم ترعاه الفرقة، ولما كنت مظليًّا ولدينا مجموعة جيدة من المعلمين والمدربين السابقين في مدرسة المظليين (كان آمر قوات المغاوير في الفرقة العقيد قوات خاصّة إياد شعبان رمزي آمر الجناح المظلي السابق في مدرسة المظليين، ومن أبرز رياضي القفز الحر، وكذلك كان مرافقي النقيب قوات خاصّة عبد الرحيم الجنابي [119] ، وعدد من ضباط الصف في حمايتي الخاصّة) لذا قرّرت إنشاء جناحٍ للتدريب على القفز المظلي في الفرقة، وقد خصصت لنا المحافظة قاعة كبيرة تابعة لدائرة الزراعة في منطقة بكر جو القريبة من المدينة، وجلبنا المظلّات ومتعلقاتها وأدوات التدريب من مدرسة المظليين، ثم دعونا الشباب والشابات من خلال المحافظة إلى الالتحاق بالدورات التدريبية، وأدهشنا العدد الكبير من الشباب والشابات الذين تقدّموا للالتحاق بالدورة الأولى فجعلناهم على وجبات.

بدأنا تدريب الوجبة الأولى، وكنت أحيانًا أتدرب معهم، ولاحظت اندفاعهم وسرعة تعلمهم وانضباطهم وتقيّدهم بتعليمات معلميهم. وأكثر ما أسعدني العلاقة الوثيقة التي تولّدت بينهم وبين مدرّبيهم. وبعد إكمالهم التدريب الأرضي جرى تقفيزهم من طائرات الهليكوبتر، وأجريت عددًا من القفزات معهم ليعرفوا مدى ثقتنا بهم وحرصنا عليهم، وأنهم أبناؤنا وأبناء هذا الوطن. وفي حفلة التخرج حضر المئات من أهاليهم وأصدقائهم وشخصيات البلد والضباط المتقاعدين وموظفي المحافظة يتقدّمهم المحافظ أرشد الزيباري، من قيادة التنظيم الحزبي في المحافظة. وبعد أن أجروا القفزة الأخيرة بحضور هذا التجمّع وزّعنا عليهم شهادات التخرج، وأجنحة المظليين ليزينوا بها صدورهم، وخرّجنا أكثر من عشر دورات، وفي كل دورة نحو30 إلى 40 من الشباب والشابات. شارك فريق السليمانية للمظلّات في سباقات مع نوادي القطر وحصل على المرتبة الأولى، وأرسلنا بعضهم للمشاركة في سباقات ودورات خارج القطر. كما أرسلنا عددًا منهم للتدرّب على الطيران في نادي فرناس الجوي للهواة. ولَّدت هذه المبادرة تغيّرًا كبيرًا في نظرة مواطني وشباب السليمانية إلى الجيش والقوات المسلحة، ولم نعد نمثل لكثيرين منهم العدو والخصم كما كان يروّج لذلك دُعاة الاتحاد الوطني الكردستاني. في أحد تنقلاتي جوًا في أثناء رئاستي أركان الجيش وبعد إقلاع

الطائرة «فالكون 20» جاء الطيار المساعد وكان برتبة ملازم أول طيار، وأدى التحية، وسألني إن كنت قد عرفته فهززت رأسي فقال: «سيدي، إنني فلان خريج دورة المظليين في السليمانية». ففرحت بلقاء أحد هؤلاء الذي رعيناهم ودرّبناهم ضابطًا طيارًا في سلاحنا الجوي، وسألته عن الذين تخرجوا في دوراتنا المظلية فقال: «إن كثيرين منهم في وظائف حكومية، وبعضهم في الجيش». سألته إن كان أيٌّ منهم التحق بالمسلحين الأكراد؟» فقال: «أبدًا».

عانى الفيلق الأول في عملياته لمكافحة المسلحين الأكراد من وجود القرى الحدودية كمخابئ ومناطق أمينة للمخربين والمهربين والمتعاونين مع الأجنبي في الجانب الآخر من الحدود، ومن قرى أخرى منعزلة أو في مناطق منيعة في داخل مناطق العمليات وعمقها، يلجأ إليها المسلحون الأكراد، ويشكل بعضها قواعد انطلاق أمامية ينطلقون منها لشن عملياتهم التخريبية. فتولّدت لدى الفيلق خطة أيّدتها رئاسة الأركان، وعرضت على القيادة السياسية التي وافقت عليها وأمرت بالشروع في تنفيذها، إذ سبق لدول عديدة أن واجهت عمليات مشابهة فتم العمل بها، وهي إخلاء الشريط الحدودي من القرى، ومنع الوجود السكاني فيه إلى عمق يتراوح بين 15 و25 كلم، وكذلك في القرى المنعزلة في الداخل. ونقل السكان إلى مجمعات تتوافر فيها المقومات كافة بعد تعويضهم عن بيوتهم ومزارعهم وبساتينهم وحيواناتهم بشكل مجزٍ إلى مناطق منبسطة وقريبة يمكن أن تصلها الإدارة المدنية وقوات الأمن بسهولة، على أن يعاد النظر في إعادتهم إلى مناطقهم السابقة تدريجًا في ضوء نجاح الدولة في إنهاء حركات التخريب في المنطقة الشمالية من العراق.

قامت الإدارات المدنية بمشورة القيادات العسكرية في قواطعها بتحديد مواقع المجمعات، والقرار على حجمها وصنّفتها: صغيرة بسعة 500 إلى 1000 بيت، ومتوسطة بسعة 1000 إلى 1500 بيت، وكبيرة بسعة 1500 إلى 2000 بيت، وكلها قابلة للتوسع عند الحاجة إلى ذلك، ثم شرعت بإعطاء مقاولات لبناء المساكن والبنية التأسيسية من منظومة مياه وكهرباء ومدارس ومستوصفات ومراكز للإدارة والشرطة، وشقت الطرق إليها وفي داخلها أيضًا. وأُلّفت لجان من العناصر الاختصاصية في المحافظات لتقويم وتقدير ممتلكات المرحّلين من قراهم وتعويضهم، ولاحظنا أن التعويضات كانت مُجزية، وأكثر من عادلة، وقامت قطعات الفرقة بتأمين الحماية ونقل أهالي القرى، وما حملوه من أثاث وأغراض إلى مجمعاتهم بعجلات سرايا نقل

الفرقة، وساعدت هندسة الفرقة الإدارة المدنية في عمليات تهديم القرى، وتسويتها بالأرض كي لا تكون ملجأ للمخربين في المستقبل.

في زيارتي إلى بعض المجمعات بعد أن شغلها المرحّلون شاهدت معظم الرجال والشباب الذين كانوا قبل الترحيل يعملون في مزارعهم ويرعون مواشيهم جالسين جماعات خارج بيوتهم والضجر ونفاد الصبر باديان عليهم، فلا أرض زراعية للعمل فيها ولا حيوانات يستثمرونها، فالموجود من أرض وحيوانات في المنطقة لا يكاد يكفي أهاليها الأصليين. وإن بقاءهم هكذا سيجعلهم خميرة جاهزة لاستغلالهم من دعاة الأحزاب والحركات المسلحة لإلحاقهم بهم، لذلك عندما عدت إلى قيادة الفرقة جمعت جميع آمري الخدمات في الفرقة، وذكرت لهم الحالة التي شاهدت فيها المرحّلين في المجمعات وخطورة ذلك، وطلبت منهم تهيئة زمر كفيّة بإمرة ضباط جيدين من وحداتهم لتعليم المرحّلين المهن التي تفتح أمامهم مجالات العمل الشريف في المُجمعات وخارجها. واتصلت بالمحافظ وأخبرته بالخطوات التي سنقوم بها فرحّب بها وأبدى استعداده لتقديم أي معاونة أو خدمة نحتاج إليها.

تحرّكت الزمر التعليمية بإمرة ضباطها إلى المجمعات كافة في قاطع الفرقة وقواطع الألوية التي ساهمت بدورها بما يتيسر لديها. وتوزع شباب المجمعات على الزمر وفق المهن التي يرغبون فيها كالسياقة وتصليح العجلات بأنواعها والبناء والسباكة والحدادة والنجارة والطهو والحلاقة والتضميد الصحي والإسعافات الأولية والخياطة ... إلخ. وكان مجموعها أكثر من 30 مهنة. وكنت أفرح وأتمتع بمنظر تلك المجموعات تقف في طوابيرها الثلاثية صباحًا بقامات منتصبة وآمرو زمرها يفتشونها قبل أن تشرع بالتدرّب على مهنها، ومرة أخرى نمت علاقات حميمة بينهم وبين مدربيهم، وتولّدت مبنيّة على التقدير والاحترام، الأمر الذي شجعهم على أن يطلبوا من فتياتهم أن يشاركن في تعلم بعض ما يناسبهن من تلك المهن مثل الطبابة والخياطة والطهو. وأقمنا معارض لمنتجاتهم، فزارهم المحافظ وعدد من مسؤولي المحافظة والحزب وأهالي المناطق المجاورة، وأقمنا حفلات تخرج ومسابقات لأفضل الزمر في قواطع الفرقة والألوية، واستمررنا في هذا النهج لتعليم أكبر عدد منهم في مختلف المهن وكتبنا عن هذه التجربة ونتائجها إلى مرجعنا الذي بارك خطوتنا تلك وعمّمها على فرق الفيلق، وأوعز بإرسال ممثِّليهم إلى قاطعنا للاطلاع عليها للعمل بها في قواطعهم كما أرسلت رئاسة أركان الجيش ودوائرها ممثِّليها للاطلاع على هذه المبادرة.

طلبت قيادة الفيلق من قادة الفرق إجراء دراسات وبحوث عن أي من المواضيع التي يختار القادة الكتابة عنها في الجوانب المختلفة عسكرية أكانت تاريخية أم سياسية، وأن ترسل هذه البحوث والدراسات إلى قيادة الفيلق لتقويمها، وتحديد مواعيد إلقائها على أن يحضرها أكبر عددٍ من ضباط تلك الفرقة وقادة الفرق وآمري التشكيلات، وعدد من آمري الوحدات وهيئات ركن الفرق الأخرى وضباط التوجيه السياسي والقيادات والكوادر الحزبية العسكرية في عموم قاطع الفيلق، ويقوم قائد الفرقة بإلقاء محاضرته في قاطع فرقته، وقد يبلغ عدد الحضور من 400 إلى 500 ضابط، وبعد إلقائها يفتح باب الأسئلة والأجوبة والمناقشات. كتب بعضهم موضوعًا تاريخيًا عن خالد بن الوليد، والآخر سياسيًا عن الوحدة العربية. اخترت أن أكتب عن إعادة النظر في تنظيم وإعداد فرق الفيلق الأول كي تكون قادرة على إدارة وقيادة عمليات مكافحة التخريب بكفيّة، مستمدًا ذلك من تجربتي في قيادة الفرقة في عملياتها، والتغييرات التي قمت بها، وتلك التي أتطلع إلى إحداثها في المستقبل. وفي الموعد الذي حُدِّد لإلقاء محاضرتي لم يحضر قائد الفيلق علمًا أنه حضر المحاضرات كلها التي أجراها القادة الآخرون ولم أعر بالًا كثيرًا لغيابه. وأحدثت المحاضرة كثيرًا من المناقشات والأسئلة والأجوبة بين مؤيِّدٍ ومعارضٍ، وكان ذلك يدلُّ على حيوية الموضوع وأهميته، وكان لها صدى في أوساط الضباط لفترة من الزمن. وفي إحدى زيارات قائد الفيلق إلى الفرقة قلت في حديثي: «إنك لم تحضر محاضرتي، ولم تكتب رأيك فيها؟». فأجابني: «جيد أنني لم أحاسبك». فقلت: «على ماذا؟»، قال: «إنك كتبت على غلاف المحاضرة أنها قد طبعت في ماكنات الطباعة الخاصّة بالمحافظة، وهذا خرق لسريّة المعلومات التي فيها»، فأجبته: «صحيح أننا استخدمنا ماكنات المحافظة، لكن ضابط الاستخبارات أشرف على طبعها بنفسه، ولم يكن هناك أي من عناصرهم». ولم نتطرق بعدها إلى هذا الموضوع.

كنا والفيلق نرغب في التعاون مع القطعات الإيرانية في قواطعنا في عمليات مشتركة لحصر المسلحين الأكراد بين قواتنا وتكبيدهم خسائر كبيرة، وتم الاتفاق أخيرًا على ذلك في إثر زيارة قمت بها لقيادة القطعات الإيرانية في مدينة ميروان المقابلة لبنجوين. وفي النادي العسكري للضباط في ميروان عقدنا اجتماعًا واتفقنا معهم على تنفيذ عملية مشتركة لحصر المسلحين الأكراد في المناطق الحدودية وضربهم أو أسرهم، وحددنا منطقة العملية ووقت تنفيذها، وأرسلوا ضابط ارتباط مع أجهزة الاتصالات اللاسلكية

على شبكتهم، كما أرسلنا ضابط ارتباط ليمكث معهم حتى تنفيذ العملية، لكن ما لاحظته هو أن لقاءنا لم يجرِ في المقرّ العسكري لقيادة القاطع وإنما في نادي الضباط، وقد يكون ذلك لحذرهم أو تنفيذًا لأوامر مرجعهم، على الرغم من ترحيبهم الحار بنا، والجو الودي الذي جرت فيه مناقشة العملية المقترحة، والملاحظة الأخرى هي خشية أهالي ميروان وخوفهم، وجميعهم من الأكراد، من السلطة العسكرية، فعندما تمرّ عجلة عسكرية بمقهى على سبيل المثال ينهض كافة الموجودين في المقهى، وقوفًا احترامًا للعجلة العسكرية التي مرت أمام المقهى بغض النظر عمن فيها.

في اليوم المحدد لتنفيذ العملية، صادف أنه كان يومًا ممطرًا، شرعت قطعاتنا المكلفة بتنفيذ الواجب ليلًا بتسلّق العوارض المطلوب الوجود فيها بانتظار إشعارنا من الجانب الإيراني بخروج قطعاتهم، ومسك العوارض في جانبهم تمهيدًا لزج مجموعات القتال المكلفة بتعقّب المسلحين الأكراد وضربهم، إلا أن شيئًا من ذلك لم يحدث، وعند اتصالنا بضابط ارتباطنا الموجود عندهم على جهاز الاتصال قال: «لا أعرف فليس هناك أي خبر منهم هنا»، وطلبنا من ضابط الاتصال الإيراني الموجود معنا أن يعرف من قيادته موقف قطعاتهم المنفذة، فادّعى أنه لم يتمكّن من الاتصال بهم. في اليوم التالي فهم ضابط ارتباطنا الموجود عندهم أن الأجواء كانت سيئة فألغوا العملية من جانبهم، ولم يكلّفوا أنفسهم إخبارنا، وكانت هذه أول وآخر عملية تعاون عسكري معهم.

قام نائب الرئيس الرفيق صدام حسين ووزير الدفاع الفريق الأول الركن عدنان خير الله بزيارة الفرقة والمحافظة، وطلب صدام جمع ضباط مقرّ الفرقة والتقاهم فأوجزت له ووزير الدفاع عمليات الفرقة وإجراءاتها في مكافحتها عمليات التخريب والمبادرات والفاعليات التي قمنا بها في مختلف المجالات لكسب ثقة مواطني المحافظة، وإبعادهم عن التأثير التخريبي، ثم تكلم الرفيق النائب للضباط عن التآمر الأجنبي لإفشال ما حققته الثورة من إنجازات لعموم شعبنا في المجالات كلها، وأوضح أن ما يقوم به المسلحون الأكراد هو جزء من هذا التآمر، ثم قال: «إن الجزء الأكبر من أبناء شعبنا الكردي هم من المخلصين والمؤمنين بوحدة الشعب والوطن، وإننا حققنا لشعبنا الكردي ما لم يحققه الآخرون، وهذه ليست منّة منا لكن ذلك هو حقهم»، وسأل أخيرًا إن كانت لأيٍ منهم حاجة كي يساعده في تلبيتها، ثم انتقلنا إلى غرفة القائد، وفي الحديث الذي دار بيننا بيّنت له وللوزير بعض ما يدور في خلدي بشأن وضعنا العسكري في القاطع

الشمالي، فأيّد معظم ما طرحته. ومما قاله تأييدًا لما عرضته: «نحن نريد من قواتنا في المنطقة الشمالية أن تكون بخفة الفهد وقوّته، لا بحجم الفيل وثقله». بعدها انتقلنا إلى مقرّ المحافظة حيث كان في استقبالنا المحافظ أرشد الزيباري وكبار موظفي المحافظة وشخصيات البلد ووجوهه المعروفة. وهنا حدثت مفارقة لن أنساها حين جاء أحد موظفي المحافظة إلى القاعة التي كنا فيها، وهمس في أذني بأن رئيس الأركان يريد مكالمتي على الهاتف في غرفة المحافظ فاستأذنت النائب وخرجت، ولما عدت إلى القاعة أوقفني أحد المرافقين من حماية النائب وكان واقفًا في مدخل القاعة، وطلب مني أن أترك مسدسي معه. كنا جميع الضباط، آمرين وقادة، نحمل مسدساتنا في مناطق الحركات، ولاحظ النائب هذا التصرف من حمايته فصاح به: «ماذا تعمل؟ نحن جميعًا هنا بحماية القائد». ففسح عنصر الحماية الطريق فقررت بعدها ألّا أحمل مسدسًا أبدًا وأنا في قيافتي العسكرية أينما كنت.

في بداية عام 1979 هرب الشاه وجاء الخميني على رأس السلطة في إيران زعيمًا للشعب الإيراني ووليًا للفقيه [120] ، واعتقدت القوميات المسحوقة زمن الشاه، ومنها الأكراد، بأنه آن الأوان للمطالبة ببعض الحقوق القومية بعد غياب الشاه وبطشه وأدواته القمعيّة من السافاك وغيرهم من القتلة المأجورين، ومجيء سلطة ثورة الفقراء والمظلومين، إلا أن ردّ سلطات الثورة كان من العنف والوحشية والقسوة بما لم يتخيلوه، فشرعت الآلاف منهم تعبر الحدود هربًا من الموت، وفي سهل حلبجة تدفقت أعداد كبيرة منهم فهيَّأنا معسكرات خيام خاصّة بهم، وأمّنا الطعام والشراب والمنامة والوسائل الصحيّة، وطلبنا من الفيلق تأمين حاجاتهم لأن سيل النازحين لم يتوقف. وتوقعنا وصول آلاف أخرى واقترحنا مفاتحة القيادة في بغداد لنقلهم إلى أماكن أمينة بعيدًا عن المناطق الحدودية. وفي تجوالي بينهم شاهدت أنهم من مختلف المشارب والأعمار، فمنهم الأستاذ والطبيب والمحامي والعامل والفلاح ومنهم الشيوخ والشباب والنساء والأطفال. واستمعت إلى بعض ما يروونه عما لاقوه من قتل وبطش وفتك بالكبير والصغير مما لا يصدقه عقل ولا منطق. وتمنَّيت أن يسمع المسلحون الأكراد وقادتهم ما يحدث لجيرانهم من الأكراد لمجرد أنهم طالبوا ببعض ما حصل عليه أكراد العراق.

اللواء الركن وليد محمود سيرت، قائد الفيلق الأول وعضو المكتب العسكري، والرفيق نوري الحديثي عضو المكتب العسكري وأمين سر التنظيم

العسكري للحزب في قاطع الفيلق الأول، وبينهما ما صنع الحداد. فالرفيق نوري الحديثي خريج الكلية العسكرية ومن الرفاق القدامى. في عام 1973 كان في منصب مدير أمن السليمانية وقد أصيب في حادث سيارة في أثناء ذهابه إلى السليمانية بالقرب من معسكر الفوج الثاني قوات خاصّة الواقع على الطريق المؤدية إلى السليمانية خارج كركوك عندما كنت آمرًا للفوج، وعندما علمت بالحادث قمت وطبيب الفوج بإخراجه من حطام سيارته، وبإسعافه ونقله إلى المستشفى العسكري، وفي إثر تلك الحادثة ارتبطنا بصداقة وثيقة. وكان الاثنان يتبادلان الاتهامات والنقد لأسلوب قيامهما بالواجبات التي كانا مكلفين بها، ففي الوقت الذي يتذمّر فيه اللواء وليد من محاولات الرفيق نوري المتكررة نقد إدارته في قيادة الفيلق وتعامله مع مرؤوسيه، كان الرفيق نوري يرى أن اللواء وليد يتمرّد على توجيهات الحزب في التعامل مع القيادات والقطعات في الفيلق، الأمر الذي يؤثِّر في ولائها للحزب والثورة، وكنت بصفتي صديقًا للاثنين أحاول جاهدًا تخفيف التوتر والنزاع بينهما.

استلم الرفيق صدام حسين مسؤولية رئاسة الحزب والدولة من الرئيس أحمد حسن البكر بادعاء مرضه، ورفضه الاستمرار في تحمل المسؤولية، وحدث ما حدث من اتهام بعض أعضاء القيادة وكوادر للحزب بالتآمر مع الرئيس السوري حافظ الأسد للانقلاب على صدام حسين واستلام السلطة، والرفاق أعضاء القيادة هم عدنان الحمداني ومحمد محجوب الدوريّ ومحمد عايش ومحيي عبد الحسين مشهدي وغانم عبد الجليل وعبد الخالق السامرائي الذي كان في السجن منذ مؤامرة ناظم كزار في عام 1973، وأعداد أخرى من كوادر الحزب وقادته، أُعدموا جميعًا بعد تحقيق قصير. لم نكن نعلم بهذا الحادث بعد، وكنت قد عدت من إجازتي ومررت بقائد الفيلق اللواء وليد سيرت للسلام عليه قبل ذهابي إلى مقرّ الفرقة في السليمانية، وكان يمارس الرمي في ميدان الرمي الصغير الذي بناه خلف غرفة القيادة مباشرة لتسهل عليه ممارسة الرمي، وكان بطل الجيش في رمي المسدس، فالتقيته هناك وقمنا بالرمي معًا، وكانت نتائجه أفضل مما حصلت عليه بكثير. وعندما انتهينا قال لي: «نزار إننا غير أوفياء»، فأجبته: «غير أوفياء لمن؟». قالها بتأثر: «غير أوفياء للشايب منذ فترة النضال السري». كنا نطلق على الرفيق أحمد حسن البكر لقب الشايب لكبر سنه قياسًا على شباب الحزب، فقلت: «غير أوفياء كيف؟». قال: «أليس من الوفاء والواجب أن نزوره بعد خروجه من المسؤولية؟»، فقلت: «أبو خالد

رتِّبْ ذلك ونذهب معًا في أي وقت تختاره»، فانفرجت أساريره، وقال: «حسنًا سأعمل على ذلك ونذهب إلى زيارته»، ثم قال: «اسمح لي سأبدل ملابسي ثم نذهب للغداء». فتركته وذهبت إلى غرفة رئيس الأركان العميد الركن عبد الستار المعيني، وفي هذه الأثناء انفتح باب مدخل مقرّ الفيلق بعنف، ودخلت مجموعة من الرفاق من تنظيمات الحزب العسكرية، وفي مقدمهم الرفيق نوري الحديثي أمين سرّ التنظيم، وكان يبدو عليه التوتر والعصبية، ومن دون سلام صاح: «أين وليد؟». فأشار العميد عبد الستار بيده إلى غرفته وقال: «في غرفته»، فاندفع الجمع إلى غرفة قائد الفيلق، وبعد أقل من دقيقة خرجوا وكانوا يقتادون اللواء وليد وهو عاري الرأس ومقيد اليدين. نظرت إلى العميد الركن عبد الستار المعيني، وقلت: «ما هذا؟»، فبسط عبد الستار يديه باستسلام وقال بذهول: «لا أدري». استدعيت سائقي وعدت مسرعًا إلى فرقتي في السليمانية.

بعد وصولي إلى السليمانية كانت الأخبار قد بدأت تتوارد عن مؤامرة وأعضاء قيادة مشاركين وآخرين من كوادر وعسكريين كبار. وأخذوا أحدهم بحضورنا منذ ساعات، وماذا بعد؟ وماذا كان وليد يقصد بقوله «إننا غير أوفياء» لأننا لم نزر البكر الذي ترك الرئاسة بخياره، لكن هل كان بخياره حقًّا؟ وما معنى كلام وليد إذًا؟ وهل يمكن أن يكون أخذ موافقتي على الذهاب قد جعله يعتقد أني معهم؟ وهل سيعترف بذلك إذا سئل؟ هل سأُعتبر مشاركًا معه؟ تداعت عليَّ كل هذه الأفكار والتساؤلات وكانت تدور في خلدي وأنا أحاول استرجاع السويعات الغريبة الماضية. استمرّ توارد الأخبار وأسماء تظهر وبعضها قريب مني. رنّ جرس الهاتف وكان فاضل البراك على الجانب الآخر، وسأل: «هل تكلم وليد معك بشيء؟»، فقلت: «بشيء ماذا؟». قال: «أي شيء يدل على نيات غير طيبة؟». أجبته: «أبدًا»، قال: «الحمد لله».

كُشفت الأسماء في اليوم التالي وحوادث المؤامرة كما رُويت، ومع ذلك كان هناك مزيد من الاعتقالات. اتصل بي البراك مرة أخرى، وطلب مني أن أتذكر إن كان وليد قد قال لي في يومٍ من الأيام أو لمّح لي عن علاقته بأي من الذين سمعت أسماءهم؟ قلت: «لا أبدًا»، قال: «هذا جيد جدًا». في اليوم الثالث تلقيت اتصالًا من سكرتير وزير الدفاع للحضور غدًا إلى ديوان الوزارة. تركت مقرّي في طريقي إلى بغداد وأنا أقول ما الذي ذكّر الوزير بي الآن ليستدعيني؟ السبب على الأغلب له علاقة بما حدث. كانوا يعرفون أن وليد صديقي وإن لم يكونوا يعرفون، فلا بدّ من أن

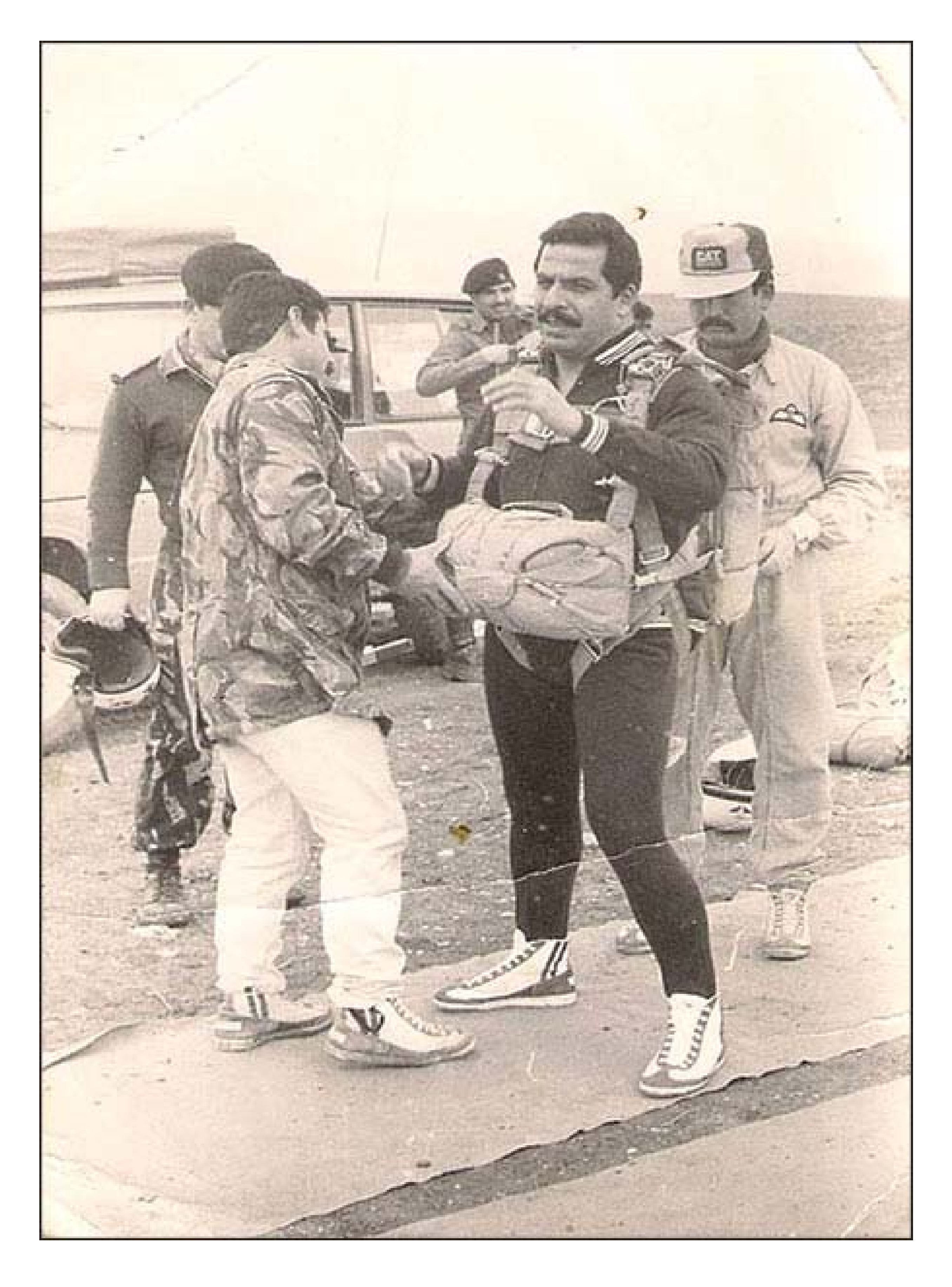
نوري الحديثي قد أكد لهم ذلك. هل تكلم وليد عن لقائنا الأخير؟ وهل يُفسّر ما قاله تآمرًا؟ إن ما قلته آنذاك لم يكن إلّا وقفة وفاء كما قالها وليد نفسه، ولم أفكر لحظة واحدة أنها خطوة في طريق التآمر. وهل هناك من هو أقرب منه إلى النائب والوزير؟ من كان يصدق أنه يتآمر عليهما، وماذا سأقول للوزير غدًا إن سألني عن ذلك؟

أدخلني السكرتير على الوزير حال وصولي، فأديت له التحية وقام وصافحني ودعاني إلى الجلوس، وقال: «عميد نزار نحن نثق بك وبكل الأخوة القادة والرفاق، لكن ما حدث كان من أقرب الرفاق إلينا وأنا أعرف علاقتك بوليد وصداقتك له، وأريد أن أعرف إن كان قد فاتحك أو لمّح إليك بشيء مما تورّط به، وبالتالي هو قائدك وعضو المكتب العسكري، وقد تعتبر ما يقوله أمرًا حزبيًا وعسكريًا؟». كان الوزير يتكلم وعيناه مركّزتان في وجهي. كنت أتوقع هذا السؤال، وقد تهيّأتُ له فلم أجاوبه على الفور بل جعلته يعتقد بأني أفكر في سؤاله، بعدها قلت: «سيدي الوزير، وليد سيرت كان قائدي وعضو مكتب الحزب، ونحن نعرف كم هو قريب منكم، وكنا ننتظر تعيينه لرئاسة أركان الجيش في أي لحظة. لذلك لو أن وليدًا أصدر لي أمرًا أيًا كان لنفّذته واعتبرته صادرًا عنكم، والآن بعدما حدث أشكّ في أني سأنفّذ أي أمر يصدره قائدُ فيلقي أو الحزب لأن ذلك قد يُفسّر تآمرًا»، قال الوزير: «لا أبدًا تعملون وفق النهج الذي نعرفه، ولم أقصد بكلامي إلا التأكد من أنه لم يلمِّح أو يقُل شيئًا، وثقتنا بك وبرفاقك القادة عالية»، وبأدبه الجم المعروف عنه قال: «تعدينا عليك واستدعيناك من السليمانية فخذ لك بضعة أيام ترتاح فيها مع العائلة».

عندما وصلت إلى البيت أخبروني بأن فاضل البراك اتصل مرات عدّة، وطلب أن أتصل به حال عودتي فاتصلت، وقال: «أنا قادم في الحال»، جاء ومعه عجلة وفيها عدد من الخرفان وقصّاب وقاموا بذبح الخرفان قربانًا لسلامتي من هذه المحنة. وقال فاضل: «لا تتصور كم كنت قلقًا عليك، وتكلمت مع الرفيق الرئيس صدام، وأكدت له أنك لست من النوع الذي يتآمر علينا بوليد أو غير وليد فاقتنع، وكلّف الوزير أن يتأكد من ذلك».

الصورة (7 - 1)

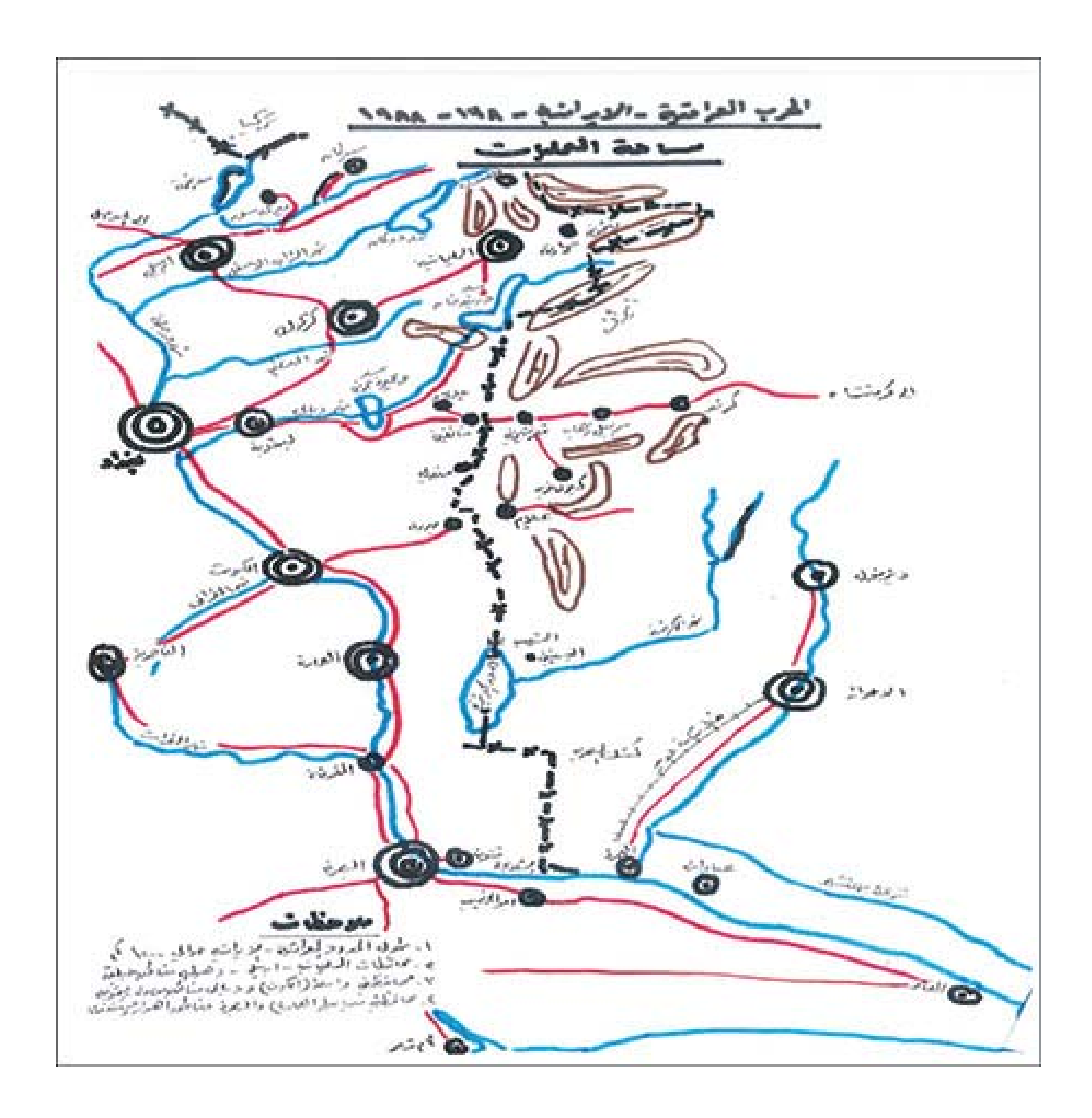
الفريق الخزرجي في ثياب المظليين



الخريطة (7 - 2)

الحرب العراقية - الإيرانية

ساحة العمليات



X بنجوين مركز قضاء عراقي يقع بالضبط على الحدود العراقية - الإيرانية في جيب ترسمه الحدود بحيث تحيط به من ثلاث جهات. وشهدت مدينة بنجوين معارك عنيفة طوال الحرب العراقية - الإيرانية على الرغم من أن الإيرانيين لم يحتلوها، إلا أنها تهدمت بالقصف وأُخليت من السكان. وناحية خورمال بلدة تقع شمال حلبجة على بُعد 15 كلم، وتابعة لقضاء حلبجة.

X هو المركز أو الوحدة التي يتدرب فيها المجندون الجدد التدريب الأساس قبل توزيعهم على الوحدات الفاعلة.

X المقدّم الركن برهان خليل ترقى إلى رتبة عميد ركن بعد معارك

كيلان غرب، وأصبح آمرًا للواء 19 في الفرقة 7، واستخدم في قاطع الفرقة 12 في القاطع الأوسط من الجبهة، أعدم في عام 1983 بعد فشل لوائه في استرجاع عارضة فقدتها الفرقة في إحدى معارك الفرقة 12 في مهران.

X الحضيرة في الجيش العراقي هي أصغر تشكيلة قتالية يقودها آمر وتتألف في أفواج المشاة من 9 - 11 مقاتلًا يقودهم نائب عريف.

X بعد نقلي من الفرقة نقل إلى منصب آمر فوج في أحد تشكيلات الجبهة، وعندما أصبحت قائدًا للفيلق الأول طلبت إعادة نقله مرافقًا لي، وذهب إلى المواضع الأمامية لتوديع جنوده قبل التحاقه بالفيلق فاستشهد بقنبلة معادية.

X يؤمن الشيعة بأن الإمام الثاني عشر من الأئمة المعصومين، من نسل الإمام علي بن أبي طالب وزوجته فاطمة بنت الرسول محمد (ﷺ)،اختفى وهو طفل خشية أن يقتله الخلفاء العباسيون، وسيظهر ليعيد العدل إلى العالم كله، و«الوليّ الفقيه» نظرية للخميني تعني أنه هو الذي يقود الشيعة نيابة عن الإمام الثاني عشر ويتمتع بصلاحياته، وهذه النظرية رفضها معظم رجال الدين الكبار من الشيعة.

الفصل الثامن: الحرب - الحصول على المبادأة وفقدانها

طلبت رئاسة أركان الجيش من قيادة الفيلق الأول والفرق والقادة التابعين له حضور اجتماع في ديوان وزارة الدفاع لعرض نواقص الفيلق من الأفراد والتجهيزات. وتم ذلك في النصف الثاني من مايس (أيار/مايو) 1980. وحضر الاجتماع قائد الفيلق الفريق الركن محمد فتحي، وقادة الفرق الثانية والرابعة والسابعة والثامنة وقيادات قوات ذي قار (تحوّلت في ما بعد إلى الفرقة المدرّعة 12) وقوات زاخو (تحوّلت في ما بعد إلى فرقة المشاة 11)، ورئس الاجتماع وزير الدفاع الفريق الأول عدنان خير الله، ومن الأركان العامة الفريق الأول الركن عبد الجبار شنشل رئيس أركان الجيش، ومعاون رئيس أركان الجيش للعمليات الفريق الركن عبد الجبار الأسدي، ومدير الحركات العميد الركن ميسر الجبوري، ومدير التخطيط العميد الركن شاكر وجر الأمارة، وعدد من العقداء الركن من ديوان الوزارة عرفت منهم العقيد الركن صلاح القاضي [121] . جلس الوزير على رأس المنضدة الطويلة في الناحية الجنوبية من قاعة الاجتماعات، وجلسنا مقابل رئيس الأركان ومجموعة الأركان العامة، وجلس ضباط ديوان الوزارة في الجانب الآخر المقابل للوزير. بدأ الاجتماع بكلمة ترحيبية من الوزير ثم طلب من قائد الفيلق بيان نواقصه، ومن ورقة أمامه قرأ الفريق محمد فتحي قائمة طويلة بنواقص الفيلق وفرقه من الأشخاص والتجهيزات، وكان أحد ضباط ركن دائرة رئاسة أركان الجيش يسجل النواقص التي كان يقرأها قائد الفيلق الأول. ثم تكلم الفريق الأول عبد الجبار شنشل عن موضوع مختلف لا علاقة له بنواقص الفيلق الذي اعتقدنا أن الاجتماع عقد من أجله، فقد كانت توجيهاتُه قيام فرق الفيلق الأول بالتدريب في الشهرين المقبلين على التقدّم والهجوم وتخطي المقاومات على عدو نظامي، بإسناد ناري وجوي، وبتعاون مع التشكيلات المدرعة على أن تنتهي الفترة التدريبية بفحوص عملية تشرف عليها هيئات ركن من المقرّ العام. وأعقبه معاون العمليات الفريق عبد الجبار الأسديّ قائلًا: «إن على الفيلق أن يكون جاهزًا للمناورة بفرقتين وتشكيلات إضافية من قاطع الفيلق في أي وقت بعد انتهاء الفترة التدريبية»، وأضاف أن «مدير التخطيط العميد الركن شاكر وجر الأمارة سيوضح لكم ذلك بالتفصيل». وبدأ مدير التخطيط كلامه بأن الفرقتين اللتين قد نناور بهما هما الفرقة الرابعة والفرقة الثامنة. وسمى

أيضًا ثلاثة ألوية أخرى من الألوية العاملة في قاطع الفيلق، وتتولّى الفرقة الثانية مسؤولية قاطعي الفرقتين المذكورتين والفرقة السابعة مسؤولية قاطع الفرقة الثانية إضافة إلى قاطعها الحالي، وعلى فرق الفيلق إجراء التدريبات والتمارين للألوية الثلاثة أعلاه.

توقعت أن يقوم قائد الفيلق بالرد على ما طرحته هيئة الأركان العامة وبيان حقيقة موقف وإمكانات فرق الفيلق الأول وتشكيلاته المنشغلة بقتال المسلحين الأكراد للسنوات الأربع الماضية، لكنه لم يفعل ذلك فطلبت الإذن بالكلام وقلت: «سيدي الوزير إن ما عُرض علينا الآن يعني شيئًا واحدًا هو الحرب، وسمّى مدير التخطيط فرقًا وتشكيلاتٍ من فيلقنا لتشارك في حرب نظامية فيها تقدّم وهجوم وتخطي مقاومات، وتعاون مع الدروع والقوات الجوية بعد تدريب لمدة شهرين فقط. إن فرقنا وتشكيلاتنا سيدي الوزير، وللسنوات الأربع الماضية معلقة في أعالي الجبال وموزّعة على ربايا وقواعد بتعداد فصيل سريّة في أفضل الأحوال، وواجبها الرئيس هو منع المسلحين الأكراد من التسلّل وحماية الطرق والمدن والقصبات. إن هذه الفرق والتشكيلات بمعظمها لم تمارس التدريب، ولم تحضر ساحات العرض لسنين، وكل جهدنا كان مركزًا على إعداد الضابط والجندي ليكون أقرب إلى المخرِّب منه إلى الجندي النظامي كي يكون قادرًا على مقاتلة المسلحين الأكراد بطريقتهم، وهذا أيضًا اقتصر على عدد محدود من القطعات المحرّرة وقوات المغاوير، والقسم الأعظم كما قلت بقي معلقًا في الجبال. هل تعلم سيدي الوزير أن الضابط أو الجندي المعلق في الربايا ينحصر جل تفكيره باليوم الذي يتمتع فيه بإجازته التي سيذهب فيها إلى أهله وبلدته؟ وهل تقدِّر سيدي الوزير أي مستوى من الضبط والربط يكون بينهم وضباطهم، وهم في ربيئة لا يتجاوز طولها وعرضها عشرات الأمتار. إن معظم الأسلحة الساندة، سيدي الوزير، ومنها أسلحة مقاومة الدبابات والطائرات مرزومة وفي مخازنها، وكذلك الصنوف والخدمات [122] لعدم الحاجة إليها في قتال المسلحين الأكراد، وكثيرًا ما نستخدم أشخاصها للحاجة في واجبات مسك الربايا، وأرجو من العميد شاكر مدير التخطيط أن يحسب قدرة تشكيلاتنا القتالية الفعلية عند تكليفها بالواجبات. سيدي الوزير ليس منا من لا يحارب إذا صدر الأمر إليه بذلك، لكننا إن أردنا أن نقاتل بكفاءة واقتدار وننتصر، علينا أن نكون جاهزين، ولنكون كذلك نحتاج إلى سنتين أو سنة لإعادة صقل الضابط والجندي وتدريبهما، كي يعودا ضابطًا وجنديًا من الحالة التي هما عليها الآن، وسنة أخرى للتدريب بمستوى الوحدة والتشكيل

للعمل بكفاءة واقتدار مع الدروع والطيران في مختلف صفحات القتال. وإني مثلكم جميعًا أخشى على هذا البلد ومستقبله وأشكرك سيدي الوزير». كان الوزير يستمع باهتمام من دون أن يعلّق بشيء، أما رئيس أركان الجيش فكان يرمقني بنظراته الغاضبة، والفريق عبد الجبار الأسدي يُدوّر القلم بيده من دون توقف بعصبية بالغة، أما العميد شاكر وجر الأمارة فاصفرّ وجهه وكساه الشحوب. وكان الوحيد الذي لم أقرأ على وجهه أي تعبير هو العميد الركن ميسر الجبوري مدير الحركات العسكرية. انتهى المؤتمر [123] ، وخرجنا فجاء بعض ضباط ديوان الوزارة وصافحني بحرارة ومنهم من احتضنني وشكرني لأني قلت الحقيقة كما يعرفها بعضهم.

كان الوضع مع الجارة الشرقية إيران لا يُبشّر بخير تحت قيادة زعيم الثورة الوليّ الفقيه الخميني منذ الأيام الأولى لاستلامه السلطة المطلقة في إيران، إذ كان ردّه خشنًا وغير مقبول على رسالة التهنئة بقيام الثورة التي أرسلتها القيادة العراقية. وختم ردّه بعبارة جارحة تقال لغير المسلم وهي «والسلام على من اتبع الهدى». واعترف مستشاره الخاص موسى الموسوي بعد لجوئه إلى لندن أن الخميني قال بعد استلامه الرسالة إن القيادة العراقية خائفة منه، وإن نسبة كبيرة من الشعب العراقي سوف تؤيِّده حالما ينادي بإسقاط النظام في العراق، كما شنّت وسائل الإعلام الإيرانية حملة محمومة للدعوة إلى تصدير الثورة الإسلامية إلى الدول المجاورة وإسقاط أنظمتها الكافرة. كما صرّح الخميني بأن أي اتفاقية لا تحقق مصالح الشعب الإيراني عُقدت في زمن الشاه لا تعترف بها حكومة الجمهورية الإسلامية، ومنها «اتفاقية الجزائر» التي وقّعها الشاه والعراق.

في 1 نيسان/أبريل 1980 تعرَّض نائب رئيس الوزراء وزير الإعلام طارق عزيز لمحاولة اغتيال في الجامعة المستنصرية، فجرح وقتل ثلاثة، أحدهم إيراني، قالت الحكومة إنه منفذ العملية، وفي 6 نيسان/أبريل 1980 سحب الإيرانيون جميع دبلوماسييهم من العراق في إثر إنذار العراق لإيران بسحب قواتها من الجزر العربية الثلاث أبو موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى في رأس الخليج العربي. وفي 20 نيسان/أبريل1980 أعلن الخميني أن صدام قتل الصدر وأخته بنت الهدى، ودعا الجيش العراقي إلى الثورة على صدام.

إذًا لم يعد خافيًا من هي الجهة المقصودة بالتحضيرات التي تطرّق إليها مؤتمر وزارة الدفاع لقادة الفيلق الأول وفرقه وقياداته، والتي تحققت في الأشهر المقبلة. وفي الأيام المتبقية من الشهر الخامس كنا في سباق محموم مع الزمن للتهيؤ ووضع المناهج وخطط التدريب للوحدات والتشكيلات للبدء

بها في بداية الشهر المقبل.

أُعيد تدريب تشكيلات وفرق الفيلق الأول في فترتين: الأولى، مدتها شهر للتدريب الفردي للضباط والجنود بهدف استعادة المهارة الفردية في التدريب الأساس، أي استخدام السلاح والرمي ومهنة الميدان والتشكيلات التعبوية للوحدات الفرعية بمستوى الحضيرة والفصيل وما يعادلها في الصنوف الساندة، وأُخرجت وحدات الصنوف الساندة أسلحتها المخزونة من المستودعات للتدريب عليها، والفترة الثانية، مدتها شهر أيضًا خُصص النصف الأول منها للتدريب التعبوي للوحدات الرئيسة والتشكيلات وكتائب المدفعية وبقية وحدات الأسلحة الساندة. وخُصص النصف الثاني للتدريب المشترك. واختُتمت عملية إعادة التأهيل بتمارين لتشكيلات الفرقة في التقدّم والهجوم بمشاركة السمتيّات والدروع والمدفعية وبقية الصنوف والأسلحة الساندة، حضرها ممثّلو المقرّ العام لتقويم التمرين وأداء القطعات [124] .

كانت قيادة الفرقة السابعة وتشكيلاتها قد وجَّهت ضربات موجعة للتنظيمات والخلايا السريّة للاتحاد الوطني الكردستاني، حيث تم التعامل وإلقاء القبض على المئات من جماعات الاغتيالات والتنظيمات الداخلية في السليمانية والمدن والقصبات الأخرى في المحافظة. وكذلك تكبَّدت فصائلهم التخريبية المقاتلة خسائر غير مسبوقة، فقتل ثلاثة من آمري الملبند أكبر تنظيم قتالي لديهم، واستسلم الرابع من مجموع [125] 12. وقُتل واستسلم مئات من مقاتليهم. وتوقفت متابعتهم أو كادت بعد تفرّغ معظم تشكيلاتنا للتدريب (زارني عضو المكتب السياسي للاتحاد الوطني الكردستاني في داري في عمان بعد خروجي من العراق، وقال لي حرفيًا: «أنقذنا اندلاع الحرب مع إيران، فالسنتان اللتان سبقتهما كانتا من أقسى ما مرّ علينا») [126] .

أخبرني فاضل البراك مدير الأمن العام بأنه ينوي الذهاب إلى مدينة ميونخ عاصمة بافاريا في ألمانيا الاتحادية للعمل والراحة، واقترح أن نذهب معًا، وأن أصدقاءه في ميونخ يمكن أن يحجزوا لنا مواعيد الفحوصات الطبية لدى الأطباء الاختصاصيين في مستشفى كروسهادن الشهيرة، وهي أيضًا فرصة نصحب فيها عوائلنا وأطفالنا، فوافقت على أن أستأذن الرفيق وزير الدفاع أولًا، فذهبت إلى الوزارة لمقابلته وأخبرته بنيتي الذهاب إلى ألمانيا مع فاضل البراك للعلاج والحصول على بعض الراحة إن لم يكن لديه مانع، وفاجأني الوزير [127] عندما قال: «هل ذهابك أمر ملح؟»، قلت: «نعم سيدي الوزير وتجنبًا للأسوأ إذا ما انفجرت القرحة كما حذّرني من ذلك الأطباء». وبعد تردّد قال: «ومتى تنوي الذهاب وكم ستبقى؟»، فأجبته:

«خلال يومين أو ثلاثة، ولمدة شهر كما أعتقد»، فقال: «حسنًا، ولا تزد على ذلك، وأتمنى لك الشفاء».

في الطائرة التي أقلتنا إلى ميونخ قلت لفاضل البراك: «فاضل، أول مرة أرى الوزير يتردّد في تلبية طلب أحد قادته، يعلم أني مريض واحتاج إلى العلاج والراحة»، فقال البراك: «قد يكون للتدهور السريع مع الجيران دخل في ذلك».

كان مدير أمن بافاريا في استقبالنا في مطار ميونخ ويبدو أنه كان على علاقة وثيقة بالبراك، إذ زار العراق من قبل، كما أنها الزيارة الثانية للبراك إلى ميونخ، وكان في صحبته السيد بيرنغر الذي كنت قد رأيته في دائرة الأمن العام في إحدى زياراتي إلى فاضل في دائرته، وفهمت أن بيرنغر مدير شركة قامت بتأثيث قصر المؤتمرات ودائرة الأمن العام، ويبدو الآن أنه أكثر من مدير شركة تأثيث وقد يكون صلة اتصال البراك بالجهات الأمنية الألمانية، علمًا بأن ألمانيا كانت ملجأ لأعداد غير قليلة من المعارضين الإيرانيين في زمن الشاه، الذين احتلوا مواقع مهمة في النظام الثوري الجديد في إيران.

أجريت سلسلة من الفحوص في مستشفى كروسهادن وأعطوني علاجًا على أن أعود إلى معاودة الفحوص بعد أسبوعين، وكان البراك هو الآخر قد أنهى لقاءاته بنظيره الألماني فسافرنا للترويح إلى إيطاليا عن طريق هولندا، وكانت رحلة جميلة وممتعة، وعندما عدت بعد أسبوعين إلى المستشفى لإعادة الفحص كانت قرحة المعدة والاثنا عشري قد اختفت.

كنا أنا والبراك نناقش ما يحدث من تصعيد وتأزم للعلاقات بيننا وبين إيران، وإلى أي مدى يمكن أن يؤدي ذلك بالبلدين في نهاية الأمر. كان البراك يعتقد أن أي شيء غير مستبعد إذا ما استمرت وتيرة الحوادث على ما هي عليه الآن، وأن أي شرارة يمكن أن تشعل فتيل البارود الذي سيجر المنطقة إلى حرب مريرة. وكنت أقول «إننا غير مستعدين لحرب أخرى في الوقت الذي نخوض فيه يوميًا حربًا شرسة قائمة بالفعل مع التخريب الكردي، إذ سنكون قد خضنا حربًا على جبهتين. تقتضي الحكمة تحييد حرب الداخل على الأقل، قبل أن نزجّ بقواتنا في حرب مع خصم جامح مثل خميني إيران وشعاراته الدينية الطائفية التي قد تدغدغ بعض من في قلبه مرض في جسمنا العراقي». قال فاضل: «لكني أعرف أيضًا أن الخميني قد قتل وأبعد خيرة قادة الجيش وضباطه، وأن قواته المسلحة قد أصابها الوهن والضعف إلى حد بعيد، ومعلوماتنا أنه لو حدث صِدام

فسيكون من جانب واحد». قلت: «كنا معًا في الاتحاد السوفياتي، وعرفنا تاريخ ثورتهم، وإن لم نكن نقرأ عنها فقد اطلعنا عليها من الأفلام التي كانوا يعرضونها على الناس ليلًا ونهارًا على شاشات تلفزيوناتهم. حاربت ثورتهم الفتيّة بعد أن كسبت المسحوقين والمحرومين من شعبهم العالم كله، وكانت أكثر من عشرين دولة قد تدخلت بجيوشها مع الجيش الأبيض الموالي للنظام القيصري، ولم يتمكنوا من إسقاط ثورتهم، فما الذي تختلف به ثورة الخميني وملايين المسحوقين والمحرومين من الشعب الإيراني يرون فيه الوليّ الفقيه ونائب المهدي المنتظر؟». قال البراك: «هذا صحيح أيضًا، وأتمنى ألّا نصل إلى هذا الحد».

في بداية الشهر التاسع وصلت إلى بغداد عائدًا من رحلة العلاج والراحة في ألمانيا الاتحادية، والتحقت على الفور بفرقتي في السليمانية. وفي 4/9/1980 أعلنت القيادة العامة للقوات المسلحة أن الإيرانيين يقصفون البلدات والمنشآت النفطية الحدودية بالمدفعية الثقيلة. وفي الأيام التالية تبادل الجانبان الضرب بالمدفعية وأشرك الإيرانيون قوتهم الجوية وأُسقطت إحدى طائراتهم وأُسر قائدها. بعدها قامت قوات عراقية باستعادة أراضٍ عراقية كان يُفترض إعادتها إلى العراق، وفق «اتفاقية الجزائر» التي وقِّعت في عام 1975. شنّت الفرقة المدرعة السادسة والفرقة الآلية الأولى سلسلة من الهجمات في 18/9/1980 فاستعيدت مناطق زين القوس، وسيف سعد، وسيف أبو عبيدة شرق مدينتي خانقين ومندلي، وفي يوم 22/9/1980 اندفعت القوات العراقية في العمق الإيراني بعد ضربة جوية شاملة.

تردّد كثيرٌ من الكلام والتحليلات وبعضها لأشخاص ومحلِّلين متخصصين بالعلاقات والسياسات الدولية عن قيام بعض القوى الكبرى بتحريض العراق على شن الحرب على إيران، كما ادّعت إيران أن صدام حسين عميل الشيطان الأكبر الذي حرّضه على محاولة وأد الثورة الإسلامية في إيران، والواقع أن صدام حسين لم يستشر أيًّا من تلك الأطراف الدولية التي فوجئت بالضربة الجوية الشاملة والاندفاع الواسع للقوات العراقية إلى العمق الإيراني.

يروي رئيس رابطة الدبلوماسيين الروس والسفير السابق للاتحاد السوفياتي في الكويت بافل آكوبوف أن الاتحاد السوفياتي كان قد قطع توريد الأسلحة إلى العراق فور نشوب الحرب، وأُعيدت بواخر محملة بالأسلحة والمعدات العسكرية من الخليج العربي إلى روسيا على الرغم من أن العراق كان قد دفع ثمنها، ولم يُعَد توريد أسلحة سوفياتية إليه إلا بعد انسحابه إلى

حدوده الدولية في عام 1982. وكشف أن القيادة في موسكو عرضت على الإيرانيين عبر سفيرها آنذاك فلاديمير فينوغرادوف تزويدهم بالدعم العسكري وتوريدات السلاح، لكن القيادة الإيرانية رفضت هذا العرض معللة ذلك بأنها لا تستطيع قبول المساعدة من الاتحاد السوفياتي في وقت يدعم فيه العراق [128] . كما نفى كاري سيك مساعد مستشار الأمن القومي زبيغنيو بريجنسكي (في إدارة الرئيس الأميركي الأسبق جيمي كارتر) أن أميركا قد أعطت ضوءًا أخضرَ للعراق لبدء الحرب، ونفى وجود أي تنسيق مع العراق في شأن هذه الحرب، وقال: «الواقع إذا كنا قد فعلنا شيئًا فهو العكس تمامًا، لأننا كنا في تلك الأيام نحاول أن نبدأ علاقات بالحكومة الثورية في إيران، وفعلًا قمنا بإرسال مبعوثين إليهم لإبلاغهم أن صدام يحشد قواته ضدهم»، ووصف الهجوم العراقي في 22/9/1980 بأنه كان مفاجأة لإدارة الرئيس الأميركي جيمي كارتر [129] .

يقول الدبلوماسي الإيراني السابق رضا قاسمي إن العدوان كان متبادلًا، وإن إيران قامت بالعدوان التحريضي، وقابله العراق بعدوان فعلي، متجاهلًا الاعتداءات الإيرانية قبل 22/9/1980، إذ قدّم العراق للأمم المتحدة والمؤتمر الإسلامي وجامعة الدول العربية أكثر من 260 مذكرة احتجاج موثّقة عن تجاوزات وخروقات الجانب الإيراني. وعلل قاسمي ذلك بقوله إن العراق استجاب للتحريض الإيراني الذي ارتبط بشعارات تصدير الثورة وإسقاط الأنظمة الكافرة في الدول المجاورة، وتصريحات مثل «سنذهب إلى القدس عبر كربلاء»، وإرسال العملاء للاختراق ودعم حزب الدعوة الذي يدعو إلى إسقاط النظام [130] .

في مقرّ قيادة الفرقة كنت وبعض ضباط أركانها نشاهد أفلامًا يعرضها التلفزيون عن اشتباكات قطعاتنا مع العدو في القاطع الأوسط شرق خانقين، وكان يصوِّر إحدى كتائب المدفعية وهي تقصف مناطق معادية، وكان مظهر جنود وضباط تلك الوحدة التي تشاغل العدو بالقصف يدلُّ على الفوضى وعدم الانضباط أو التقيد بسياقات التدريب التي يجب على الوحدات العسكرية العمل بموجبها، إذ كان جنود المدفعية يهتفون بعد كل قنبلة يرمونها ويتقافزون، وكان معظمهم ببدلات الشغل فحسب من دون أغطية الرأس أو التجهيزات العسكرية والأسلحة الشخصية، وكأنهم أفراد عشائر وليسوا مراتب نظاميين في وحدات عسكرية. وكان ذلك دلالة على نقص في التدريب وضعف في الانضباط.

أصدرت قيادة الفيلق الأول أمرًا لقيادتي الفرقتين السابعة والثانية، وقيادة

قوات زاخو التي أُعيد تنظيمها وتسميتها فرقة المشاة الحادية عشرة، باستلام قواطع الفرقتين الرابعة والثامنة والفرقة الثانية عشرة المدرعة (قيادة قوات ذي قار سابقًا) التي تتهيّأ للمناورة إلى قواطع أخرى. فأجريت مع عدد من ضباط هيئة ركن الفرقة وآمري بعض التشكيلات الذين سيستلمون القواطع الجديدة وآمري الصنوف والخدمات، استطلاع تلك القواطع التي تم استلام مسؤوليتها بعد حركة الفرق المذكورة إلى القاطع الأوسط في خانقين ومندلي وزرباطيّة.

في ظهر 22/9/1980 كنت وآمر مدفعية الفرقة وبعض ضباط الركن في الطائرة السمتيّة محلِّقين فوق بحيرة دوكان لنزور قطعاتنا التي استلمت مسؤولية قاطع قلعة دزة [131] من الفرقة الثانية، عندما جاءنا الطيار وهمس في أذني بأن طائراتنا تشن هجماتها على القواعد الجوية الإيرانية، فأمرته بالعودة فورًا إلى مقرّ الفرقة في السليمانية.

في الساعة 12.00 ظهر 22 أيلول/سبتمبر 1980 عبرت الحدود العراقية - الإيرانية 128 طائرة قاصفة، وحدث هجوم أرضي لضرب تسع قواعد جوية إيرانية وستة مطارات وثلاثة مجمعات رادار. في الساعة 16.00 قامت 40 طائرة أخرى بتكرار الضربة على أربع قواعد ومطارين.

بعد تنفيذ الضربة الجوية، وعندما التقى قائد القوة الجوية الفريق الطيار الركن محمد جسام الجبوري القائد العام ووزير الدفاع ليخبرهما عن نتائج الضربة الجوية الشاملة سأله القائد العام عن الصور الجوية للضربة لتقويم نتائجها بدقة، فأجابه الفريق قائد القوة الجوية أن ليست هناك تصاوير للضربة لرفع آلات التصوير، وتعويضها بالأعتدة والقنابل، فالتفت القائد العام إلى وزير دفاعه وقال: «اتخذوا كافة الترتيبات الدفاعية اللازمة فطيران العدو سيشن غارات شاملة نهار غد».

عند إكمال الضربة الجوية الأولى عبرت القوات العراقية الحدود الدولية إلى العمق الإيراني، ففي الجنوب اندفع الفيلق الثالث بفرقه المدرعة والآلية الخمس: الفرقة المدرعة الثالثة والمدرعة التاسعة والمدرعة العاشرة وفرقتا المشاة الآليتان الأولى والخامسة، إلى أهدافها باتجاه ديزفول - الشوش والأحواز والمحمرة - عبادان، ففي اتجاه ديزفول الفرق التاسعة المدرعة والعاشرة المدرعة والمشاة الآلية الأولى، عبرت القوات العراقية نهر دويريج، وطهرت منطقة جم صريم وسيطرت على إمام ناعر، ودمرت القطعات الإيرانية في هذه المنطقة، واشتبكت الفرقة المدرعة العاشرة مع قوات إيرانية مدرّعة بقتال عنيف في منطقة إمام زادة وتمكّنت الفرقة من اجتيازها، وإلى

الجنوب منها تمكَّنت القوات العراقية من السيطرة على نهر الكرخة، وبذلك سيطرت على الطريق المؤدية إلى ديزفول، ونفّذت غارات على مدينة دهلران ودمرت المنشآت العسكرية ومدرج للطائرات، واحتلت مدينة جنانة وطهرتها من الوجود الإيراني فيها. واستمرّت في تقدّمها وسيطرت على منطقة الدوسنك ومنطقة الرادار حتى وصلت إلى ضواحي مدينة الشوش. وفي هذا الاتجاه خاضت القوات العراقية معارك دروع تكبَّد فيها الإيرانيون خسائر كبيرة.

أما في قاطع الأحواز فتمكَّنت القوات العراقية المؤلفة من الفرقة المدرعة الثالثة وفرقة المشاة الآلية الخامسة من اجتياز الخانق بين هور الحويزة والكثبان الرملية الذي يبلغ عرضه 300م وطوله 15 كلم، وتمكَّنت من احتلال قصبة بسيتين (يسميها الإيرانيون بستان)، والخفاجية (يسميها الإيرانيون سوسنكرد)، وقطعت طريق الأحواز - المحمرة. وفي 25/9/1980 تمكَّنت من احتلال منطقة الجفير وسيطرت على معسكر حميد الإيراني. وفي يوم 27 اشتبكت في معارك مع الدبابات الإيرانية جنوب الأحواز وتمكَّنت من تدميرها، ووصلت يوم 28 إلى مشارف مدينة الأحواز على بعد ستة كيلومترات منها. وفي الوقت نفسه أوعزت القيادة إلى القوات الخاصّة العراقية باحتلال مدينة المحمرة [132] . وفيها يتفرع الكارون إلى فرعين يتجه الأول جنوبًا إلى عبادان (ترعة بهمشير) حيث يصبُّ في الخليج العربي، ويصبُّ الآخر في شطّ العرب.

يسكن المحمرة أكثر من ربع مليون نسمة معظمهم من العرب، ويبلغ طولها سبعة كيلومترات وعرضها ستة كيلومترات. تحيط بالمحمرة مناطق زراعية وتكثر فيها بساتين النخيل. والمحمرة ميناء مهم للتصدير واستيراد البضائع، وفيها تحصينات قوية بناها الشاه في مواقع منتخبة بعناية. تدافع فيها قوات من المشاة والدروع والقوات الخاصّة. تمكَّنت القوات الخاصّة من السيطرة على معسكر الدج القريب من المدينة، وتطهيره من جيوب المقاومة والاستيلاء على عدد كبير من الأسلحة والمعدات، وخاضت القوات الخاصّة معارك عنيفة خارج المدينة وداخلها. وبعد معارك من شارع إلى آخر، ومن بيت إلى بيت تمكَّنت القوات الخاصّة بإسناد الدروع من الاستيلاء عليها وتطهيرها من أي وجود إيراني [133] . وإلى الشمال منها تمكَّن اللواء المدرع السادس من الفرقة المدرعة الثالثة من عبور الكارون بعرض 400م، والاندفاع باتجاه عبادان، وقطع الطريق عبادان - الأحواز، والسيطرة على طريق عبادان - شيخ بدير - ماهشهر شرق نهر الكارون.

في القاطع الأوسط عبرت قوات الفيلق الثاني، المكوّنة من الفرقة المدرعة السادسة والفرقة المدرعة الثانية عشرة وفرقة المشاة الرابعة وفرقة المشاة الثامنة الحدود الإيرانية، واندفعت الفرقة الثامنة مشاة من خانقين باتجاه قصر شيرين وسربيل زهاب، والفرقة الرابعة من اتجاه مندلي إلى سومار وكيلان غرب، والفرقة المدرعة الثانية عشرة من بدرة باتجاه سد كنجان ومهران وعيلام. تمكّنت الفرقة الثامنة من احتلال مدينة قصر شيرين في الاتجاه الشمالي، واندفعت باتجاه مدينة سربيل زهاب، الواقعة على مداخل مضيق باي طاق المهمّ في سلسلة جبال كرند. وفي الجنوب احتلّت الفرقة الثانية عشرة سد كنجان الواقع على وادي كلال بدرة (كنجان جم)، وبعدها احتلت مدينة مهران.

أرى من الملائم هنا عرض المعارك الرئيسة التي نفّذتها فرقة المشاة الرابعة والقطعات الملحقة بها في قاطع سومار - إمام حسن - كيلان غرب، لبيان طبيعة المعارك في هذا القاطع. أصدر قائد الفيلق الثاني الفريق الركن عبد الله عبد اللطيف الحديثي [134] أوامره إلى قائد فرقة المشاة الرابعة (المؤلفة من لواء المشاة الخامس ولواء المشاة الثامن عشر ولواء المشاة التاسع والعشرين وقوات مغاوير الفرقة وكتيبة الدبابات الرابعة وكتيبة استطلاع الفرقة ولواء مدفعية الفرقة وكتيبة الهندسة الرابعة)، ووضع بإمرته اللواء المدرع العاشر بالتقدّم على محور مندلي - سومار - كيلان غرب، وتدمير القوات الإيرانية المتحشدة على هذا المحور وتطوير العمليات لاحقًا في ضوء توجيهات قيادة الفيلق الثاني.

وصف منطقة العمليات

طبيعة الأرض داخل الأراضي الإيرانية جبلية وعرة، تبدأ بالارتفاع كلما تقدّمنا في العمق الإيراني، ففي المنطقة الحدودية يتراوح ارتفاع الأرض بين 200 و450م ثم إلى 450-900م، وإلى 1800 -3600م، والطرق في المنطقة محدودة، وتوجد طرق ترابية محاذية للحدود وطرق عمودية على خط الحدود أنشأتها شركة النفط الإيرانية للوصول إلى منشآتها النفطية في حقول نفط شاه المقابلة لحقولنا النفطية في نفط خانة في قاطع خانقين، ويوجد طريق ممهدة تمتد من الحدود بموازاة وادي حران وتصل إلى سومار، ومنها طريق مُعبدة تنتهي بسلسلة جبلية شرق سومار، وتتقاطع معها طريق تمتد بموازاة الحدود بعمق 5 -10 كلم، وتعبر مضيق كوهينة ثم تنحرف إلى الشمال الشرقي حيث إمام حسن، ويلتقي بالطريق المعبّدة التي تربط قصر

شيرين بكيلان غرب، وهذه الطرق كلها تحيطها مناطق جبلية متوسطة الارتفاع، وتعبر إلى الشرق من مضايق كورة ومايخورة وحجين الواقعة بين إمام حسن وكيلان غرب، والمرتفعات والجبال الحدودية جرداء، أمّا جنوب إمام حسن حتى كيلان غرب فمشجّرة تساعد في الاختفاء. أما المنطقة بين إمام حسن وقصر شيرين فمفتوحة وواسعة نسبيًّا تساعد في حركة الآليات والدروع.

قواتنا

فرقة المشاة الرابعة وبإمرتها اللواء المدرع العاشر.

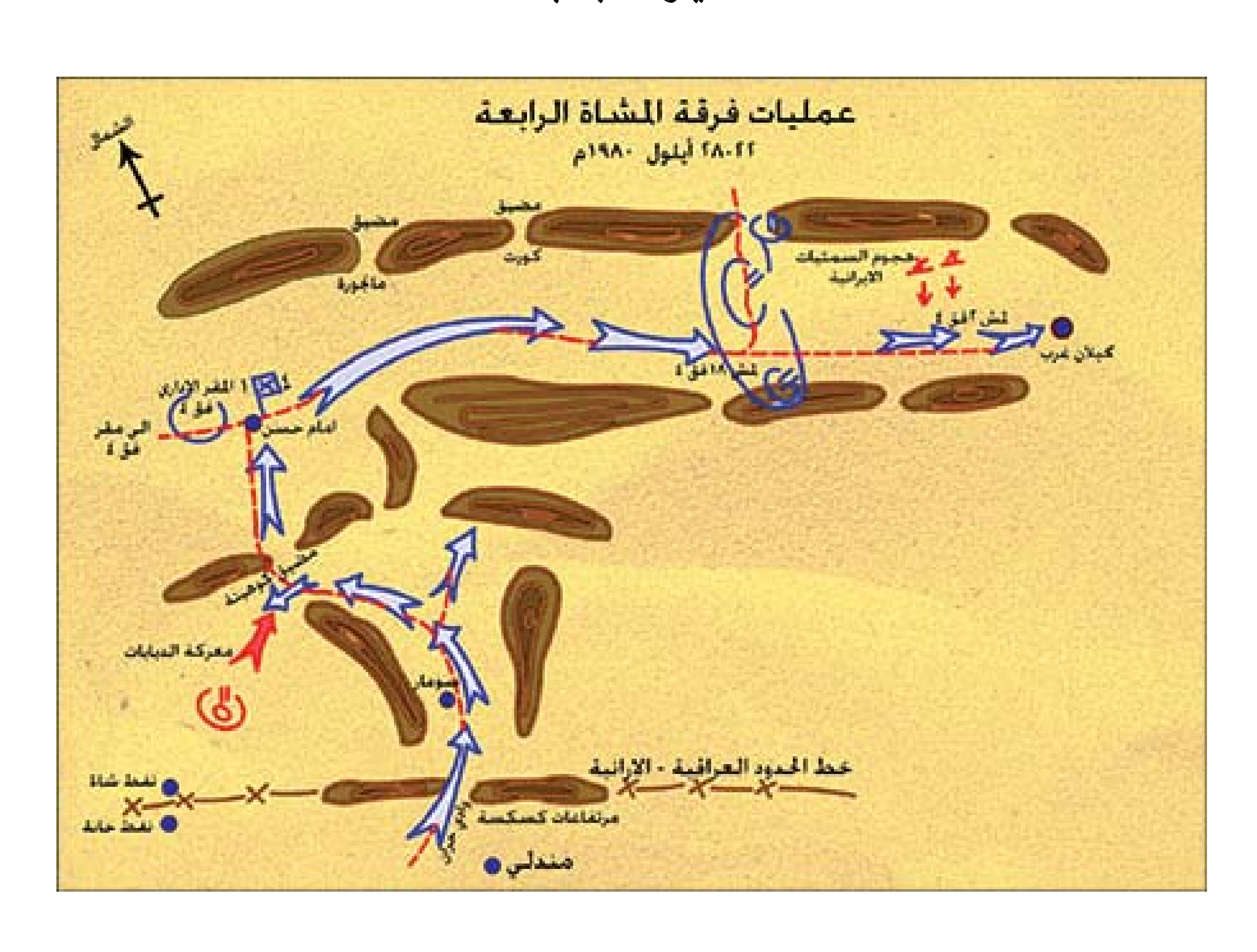
العدو

لواء مشاة وكتيبة دبابات وكتيبة مدفعية ووحدات صواريخ ضد الدبابات في مضيق كوهينة وبإسناده طائرات سمتية مقاتلة من نوع كوبرا مسلحة بصواريخ تاو تنطلق من القاعدة الجوية في كرمنشاه.

الشكل (8 - 1)

عملية فرقة المشاة الرابعة لاحتلال كيلان غرب،

28-22 ايلول/سبتمبر 1980



في الساعة 17.00 يوم 22/9/1980 تقدّم اللواء الخامس نحو أهدافه في عارضة كسكه الحدودية المطلة على وادي حران، واستطاع احتلالها في الساعة 21.00 (التاسعة مساءً) من اليوم نفسه، إذ انسحبت القوات الإيرانية منها على الرغم من مناعتها، وكانت المواضع الإيرانية بشكل مَنعَات كونكريتية (باطون) قوية [135] .

باشرت الفرقة تقدّمها بموازاة وادي حران باتجاه سومار تتقدمها كتيبة استطلاع الفرقة، ويقود التقدّم لواء المشاة 18، وتم احتلال سومار مع الفجر الأول في 23 أيلول/سبتمبر، وكانت المقاومة الإيرانية ضعيفة قُضي عليها بسرعة. وصلت قطعات الفرقة إلى نهاية طريق شركة النفط الإيرانية، حيث انقطعت هذه الطريق عند سلسلة جبلية مرتفعة. قام قائد الفرقة بإرسال زمرتي استطلاع، ولم يعثر المستطلعون على أي طريق تساعد في تقدّم الفرقة إلى هدفها كيلان غرب، فأرسل القائد رسالة إلى الفيلق بالموقف، وطلب تخويله سلوك طريق أخرى توصله إلى هدفه فخوّله الفيلق بذلك. عندها أصدر قائد الفرقة أوامره لتشكيلاتها للتقدّم على الطريق الحدودية باتجاه مضيق كوهينة ثم إمام حسن، والانعطاف نحو الجنوب الشرقي معقبًا الطريق العام قصر شيرين - إمام حسن - كيلان غرب، حيث لا توجد طريق أخرى سواها.

بعد اجتياز سومار أخبر آمر اللواء 29 أن أحد أفواجه تعرض لهجوم سريّة دبابات منسحبة من المنشآت النفطية في نفط شاه في الساعة 14.00 فأوعز قائد الفرقة إلى اللواء العاشر بإرسال إحدى وحداته لتدمير القوة المعادية فأرسل جحفل معركة الوحدة [136] (كتيبة دبابات زائدًا سريّة مشاة آلية)، وبعد معركة قصيرة دُمرت خمس دبابات، وهربت البقية إلى العمق الإيراني. وفي 24/9/1980 أصدر الفيلق أوامره بفك ارتباط اللواء المدرع العاشر عن الفرقة. استمرّت الفرقة في تقدّمها، واستطاع اللواء 29 أسر فوج مشاة إيراني كان ينسحب راجلًا على الطريق، وأخذ بطارية مدفعية 105 ملم كانت مفتوحة على جانبي الطريق وكان جنودها قد فروا وتركوها في يوم 25 أيلول/سبتمبر، وتوقفت القوات أمام مضيق كوهينة القريب من إمام حسن حيث كانت قواعد صواريخ تاو ضد الدبابات تطلق صواريخها على دبابات الفرقة، إلّا أنها لم تصب أي دبابة ورددنا عليها بالمدفعية والهاونات فانسحبت، فتم عبور المضيق في 26 أيلول/سبتمبر.

في هذا اليوم أيضًا وصلت قطعات الفرقة إلى إمام حسن، واندفع اللواء

18 نحو أهدافه لمسك مضيق حجين وطرد القوات الإيرانية الموجودة على طريق تقدّمه، وتم مسك المضيق بفوج مشاة، ومسك باقي اللواء موضعًا دفاعيًا على الطريق العام. وفي اليوم التالي تقدّم اللواء الخامس بقيادة العقيد الركن سلطان هاشم باتجاه الهدف النهائي للفرقة (كيلان غرب)، حيث أوعز الفيلق إلى الفرقة للقيام بغارة على كيلان غرب والانسحاب منها بعد تفتيشها. كانت المدينة تبعد بين 25 و30 كلم عن مواضع اللواء 18 في حجين، وكانت الطريق المؤدية إليها تمرّ بين سلسلتين جبليتين، وفي منتصف طريقه إلى كيلان غرب تعرض اللواء لغارات بالطائرات السمتيّة المعادية من نوع كوبرا المزوّدة بصواريخ تاو ذات مدى الـ3.5 كلم فأوقعت خسائر في الآليات والمدافع، وكثّف العدو غارات سمتيّاته لإيقاع مزيدٍ من الخسائر، ولم تستطع بطارية مقاومة الطائرات مقاومة السمتيّات لقصر مداها (مدافع 23 ملم بمدى 2.5 كلم) وطلبت الفرقة إسنادًا جويًا لتدميرها لكن الفيلق أجاب بأن المقاتلات العراقية لا تقاتل السمتيّات وعليكم الاعتماد على مواردكم، فجرى الإيعاز إلى اللواء بإخراج كمائن من الرشاشات الأحادية 14.5 ملم إلى قمم الجبال التي تكمن خلفها السمتيّات المعادية، وأُسقطت سمتيّتان من جانب الكمائن. عندها هربت سمتيّات العدو ولم تعد.

كما أُسقطت طائرة فانتوم F4 في 27/9/1980 في منطقة إمام حسن من كتيبة مقاومة الطائرات وأُسر طياراها الاثنان. وفي 28/9 أغار اللواء الخامس على مدينة كيلان غرب فاحتلها وفتشها وانسحب منها ليلة 28 - 29، وفق الأوامر الصادرة إليه، وبذلك أكملت الفرقة كافة المهمات المكلفة بها. وبعد انتهاء مهمة الفرقة سُحب اللواء الخامس ليصبح بإمرة الفرقة الثامنة، وسُحب اللواء 29 ليصبح بإمرة الفرقة المدرّعة 12.

عودة إلى قاطع الفيلق الأول

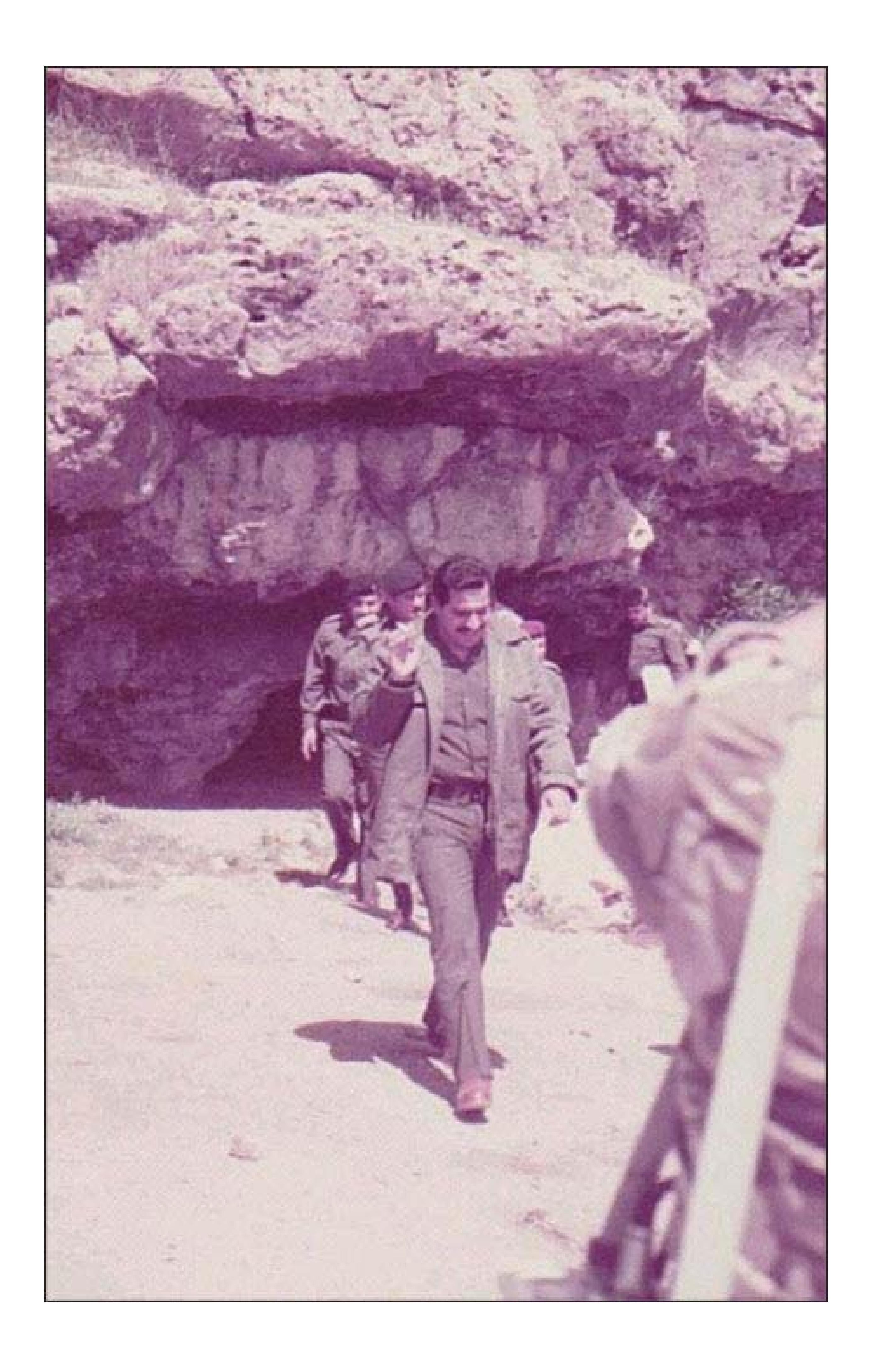
قمنا في هذا الوقت بتنفيذ عملية إعادة انفتاح فرقنا لمسك القواطع التي أخلتها الفرق الثلاث التي سُحبت إلى القواطع الأخرى، وكلّفتُ اللواء 38 بإمساك موضع دفاعيّ على المحور المؤدي من ميروان الإيرانية إلى بنجوين، وفي قاطع حلبجة كانت المرتفعات الإيرانية في الجنوب الشرقي منها تشرف على المنطقة بأسرها فقررت احتلالها، ودفعت قوة من أحد تشكيلاتنا لمسكها، وقمت بزيارة المنطقة. كانت قصبة شوشمي الإيرانية في هذه المنطقة قد أُخليت تمامًا من سكانها حيث غادروها على عجل عند تقدّم

قطعاتنا، وكانت معظم دكاكين القصبة مفتوحة، وبضاعتها ما زالت معروضة، إذ لم يجد أصحابها الوقت لإغلاقها قبل هروبهم، واسترعى نظري محل لبيع الملابس النسائية والولادية، وفيه مواد ذهبية متعددة معروضة في عارضات معلقة تحميها ألواح زجاجية سميكة. قلت لآمر الوحدة الذي تحتلّ وحدته المنطقة: «قد نترك القاطع لفرقة أخرى أو قد تنتهي هذه الحرب ويعود إليها أهلها، وسأعود لزيارة هذا القاطع في كلتا الحالتين، وأريد أن أرى دكاكين أهل القرية بما فيها كما تركوها، وهذا المحل بالذات لا تنقص منه حاجة واحدة».

وبعد بضعة أشهر عندما تركنا القاطع للفرقة الرابعة [137] التي عادت من الجبهة لاستبدالنا زرت المنطقة مرة أخرى وكانت دكاكينها باقية ببضائعها كما تركها أهلها، في دكان الذهب كانت خلاخل الأطفال وأساور وقلائد النساء الذهبية تشع في عارضاتها، وقد أسعدتني حقًا عفة جنودنا وشهامتهم، والحرَفية التي تمتعت بها قطعاتنا.

الصورة (8 - 1)

في قاطع الفيلق الأول 1986



هرب أحد آمري أفواج اللواء 38 الذي يمسك الموضع الدفاعي في بنجوين إلى جانب العدو، فقد خرج ليلًا إلى المواضع الأمامية للفوج، وأخبر مرافقيه بأنه سيذهب إلى أقصى الأمام وحده لتفقُّد الحجابات الأمامية لموضع الفوج الدفاعي واختفى. ولمّا لم يعد أخبروا آمر اللواء بذلك، فأخبرني بالحادث وقمنا بإجراء تغييرات في الموضع الدفاعي للواء، إذ كان متوقعًا أن يُخبر العدو عن ترتيب اللواء الدفاعي، وبدأنا في تحقيق معمَّق عنه. كان من مدينة الحلة جنوب غرب بغداد، وتخرّج في كلية سانت هيرست البريطانية، وتدرج بشكلٍ طبيعي في خدمته العسكرية، وتخرّج في كلية الأركان، وأصبح آمر فوج قبل أقل من سنتين، وكان عضو قيادة فرقة في الحزب، ولم يلاحظ زملاؤه أي ملحوظة تثير شكوكهم طوال وجوده معهم إلا حماسته للحزب والثورة، فأرسلت ضابط استخباراتنا إلى عائلته وظهر أن علاقته بزوجته كانت متوترة، وكانا في خصام مستمر فرجحنا أن وضعه العائلي قد يكون وراء هروبه إلى جانب العدو، ولكن تقارير استخباراتنا العامة كانت تشير إلى أن المومأ إليه كان يحقق مثل الإيرانيين مع أسرانا، وكان من أقساهم على زملائه ورفاقه من الضباط الذي يقعون في الأسر ومن أشدهم بطشًا وتسلطًا، وهذا ما يشير إلى ما يمكن أن يكتنف النفس البشرية من مشاعر ونيات غير ظاهرة.

كثّف طيران العدو غاراته الجوية على قاطع الفرقة، وعلى مدينة السليمانية والمؤسسات الحكومية والعسكرية فيها. لم يتيسر لنا من وسائل الدفاع الجوي غير كتيبة مقاومة الطائرات، وبطاريات مقاومة الطائرات للألوية من عيار 57 ملم و23 ملم. تركّز القصف الجوي في جبهة اللواء 38 في بنجوين فذهبت مع آمري مدفعية الفرقة والدفاع الجوي للفرقة إلى قاطع اللواء في بنجوين لزيارة القاطع واستطلاعه والتعرف إلى الموقف ميدانيًّا. تدارسنا مع آمر اللواء وآمر بطارية مقاومة الطائرات للواء اتجاه تقرب الطيران المعادي فقمنا بنصب كمائن جوية على اتجاهات تقربها في مناطق متتابعة.

تمكَّنت كمائن اللواء الجوية في الأيام اللاحقة من إسقاط عدد من طائرات العدو، وألقينا القبض على طيارين لطائرات F5 وعثرنا على جثة ثالث، هذا عدا الطائرات المصابة التي كانت تسقط داخل الأراضي الإيرانية، والتي كانت مراصدنا تشاهدها من قمم جبال قاية وهرزلة. كان أحد الأسرى طيارًا برتبة ملازم أول، أُصيب في أثناء إسقاط طائرته وكان جريحًا

وفي حالة يرثى لها من الإجهاد والتعب، ومع ذلك رفض أن يشرب ماءً قدمه له أحد ضباطنا، وقال: «أنا لا أشرب ماءً من أيدي الكفار»، ولمّا أخبره الضابط العراقي بأننا مسلمون ولسنا كفارًا، و«أنا مسلم شيعي مثلك»، كرر رفضه. وفي وحدة الميدان الطبية للواء رفض أيضًا عملية نقل الدم إليه، وكان في حاجة ماسة إليها، وكرر أنه لا يريد لدماء الكفار العراقيين أن تجري في عروقه. وعلمنا أنه كان خريج إحدى كليات الطيران في الولايات المتحدة الأميركية في زمن الشاه، ودلّت هذه الحالة التي تكاد تكون الوحيدة التي واجهتها مع أسرى إيرانيين على درجة التعصب التي يمكن أن تصيب الإنسان في ما لو تعرّض لتوجيه فكري محدد وبشكل مركز.

كان الوجود الإيراني ضعيفًا في قاطعنا، وكان الحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني بزعامة عبد الرحمن قاسملو [138] ينفّذ عمليات مستمرة في الجانب الإيراني المواجه لنا من مدينة سردشت شرق قلعة دزة حتى مدينة بانة التي كانت قواته تحاصرها، والواقعة إلى الشرق من ماوت، وإلى مدينة ميروان شرق بنجوين. تولّدت لديّ فكرة أن نقوم باحتلال هذه المناطق، وتشكيل قاعدة أمينة تسند جماعة قاسملو لينطلق منها شرقًا في عملياته ضد العدو المشترك، علمًا بأن أغلبية سكان المنطقة كانوا من الأكراد. وكان لقاسملو وحزبه نفوذ وتأييد واسعان بينهم. وطرحت الفكرة لقائد الفيلق، وقلت: «إننا لا نحتاج إلى قطعات إضافية، وإنها ضمن إمكانات الفيلق، ونحقّق بها أمن حدودنا وقطعاتنا وبإمكاننا إسناد قوات قاسملو وإشغالها بعمليات الأمن الداخلي التي ستستنزف كثيرًا من وقت الإيرانيين وإمكاناتهم»، إلا أن قائد الفيلق لم يوافق على ذلك. وفي السنتين اللاحقتين ركّزت القوات الإيرانية وقوة حرس الخميني عملياتها على هذا الاتجاه، واستطاعت طرد عبد الرحمن قاسملو وقواته من المنطقة وأصبحت على تماس مع حدودنا وقطعاتنا المدافعة في هذا الاتجاه. وبهذا نكون قد خسرنا فرصة مهمة كانت ستقلل خسائرنا وتبعد الإيرانيين من التماس المباشر مع حدودنا، بل وتؤثّر في التعاون بين جماعة الاتحاد الوطني الكردستاني والقوات الإيرانية، الأمر الذي كان سيُضطرهم إلى العودة إلى الصف الوطني.

في السادس من كانون الثاني/يناير 1981، المصادفة فيه الذكرى السنوية الستين لتأسيس الجيش العراقي، شنّ الإيرانيون أربع هجمات في القاطعين الأوسط والجنوبي، فهاجموا قاطع قصر شيرين شرق خانقين وتمكنوا من الاستيلاء على بعض المرتفعات، كما هاجموا المرتفعات المحيطة بمدينة مهران

شرق مندلي وتمكنوا من السيطرة على بعضها، وفي القاطع الجنوبي هاجموا قطعات الفيلق الثالث جنوب مدينة الأحواز لإبعادها عن مرمى مدفعيتنا، وتمكنوا من إحراز مكاسب محدودة. إلا أن المعركة الرئيسة كانت في قاطع الخفاجية حيث قامت الفرقة المدرعة الإيرانية 16، واللواء المظلي 55 بالتعرّض من اتجاه شرق نهر الكرخة على قطعات الفرقة المدرعة التاسعة بقيادة العميد الركن طالع الدوري [139] فدفع الفيلق العراقي الثالث اللواء المدرع العاشر المستقلّ المجهز بدبابات T72 الحديثة، وكان يقوده العميد الركن محمود شكر شاهين الذي استطاع خلال يومي المعركة تدمير الألوية الثلاثة للفرقة المدرعة الإيرانية في أكبر معركة دبابات طوال فترة الحرب، وخسر الإيرانيون بين 250 إلى 300 دبابة مدمرة أو تم الاستيلاء عليها.

في بداية عام 1981 استُدعيتُ لمقابلة رئيس أركان الجيش الذي طلب تهيئة الفرقة لعبور شطّ العرب إلى عبادان، وقال: «أمامك شهران للتدريب على هذا الواجب، وسيتحرك مقرّ الفرقة الرابعة من القاطع الأوسط لاستلام قاطعك، وأرى أن تستغل هذا الوقت لاتخاذ القرار في شأن المنطقة التي ستتدرب الفرقة فيها». كنت قد قمتُ في الفترة الماضية، بموافقة الفيلق والمقرّ العام، باستطلاع الجبهة الجنوبية، ومن ضمنها شبه جزيرة الفاو، والقاطع المقابل لمدينة عبادان. واستعرتُ أحد ضباط مديرية الأمن العام المصوِّرين من اللواء فاضل البراك لتصوير المناطق التي سأستطلعها. ذهبنا إلى منطقة المسيب شمال مدينة الحلة، واخترنا لتدريب الفرقة منطقة تحيطها بساتين النخيل على نهر الفرات شمال مدينة المسيب بنحو 10 كلم، تماثل المنطقة التي تحيط بعبادان. وبعد أن أكملت قيادة الفرقة الرابعة استلام قاطعنا تحركنا إلى منطقة التدريب في المسيب، ووُضعت بإمرتنا كتيبة دبابات وفوج مشاة آلي وقاطعا جيش شعبي لهذا الواجب.

كانت المنطقة مثالية للتدريب على عمليات العبور والقتال في البساتين والمناطق المشجرة، وغير بعيدٍ منها يوجد حيٌّ من الدور تحت البناء (الدور لمنسوبي معامل الإسكندرية) يصلح لتدريب وحدات الفرقة على قتال المدن والمناطق المبنية. أجريت مع هيئة الركن تقسيم الفترة التدريبية إلى عمليات العبور بأسبقية أولى، ثم القتال في البساتين والمناطق المشجرة، وأخيرًا القتال في المدن والمناطق المبنية. كانت أولى المعضلات التي واجهتنا هي منظومة العبور التي سنعمل عليها، بما فيها الضفة القريبة وعدد القوات والمنطقة التي تخصص لها والعبور ووسائل القيادة والسيطرة، والتوقيتات الدقيقة التي تضمن نجاح عملية العبور، والضفة البعيدة والقوات المخصّصة لها وحجم

وامتداد رأس الجسر للفرقة [140] . فضلًا عن منظومة السيطرة على السابلة، وغير ذلك من التفاصيل التي لم تسبق لنا ممارستها أو العمل بها لانشغال القطعات في مقاتلة العصيان. رجعت إلى الكراسات العسكرية التي تبحث في هذا الموضوع، ومحاضرات كلية الأركان ولم أجد فيها التفاصيل الكافية، فقمنا بدراسة منظومات العبور في الكراسات الأجنبية، وأخيرًا قرنا العمل بالمنظومة الباكستانية مع بعض التعديل الذي يلائم سياقاتنا. وفي الشهرين التاليين كانت حُمى التدريب سمة مشتركة لوحدات وتشكيلات الفرقة والقطعات الملحقة بها. قمنا بتكبير خرائط مدن حدودية إيرانية عدّة، من ضمنها مدينة عبادان، للتمويه على الرسامين من عناصر استخبارات ومدفعية الفرقة، ووضعنا أرقامًا وتسميات للبيوت وللشوارع وللبنايات الرئيسة فيها.

حدثت حادثة أزعجتنا عندما ألقت الاستخبارات العسكرية العامة القبض على الرائد الركن قوات خاصّة فاضل عباس [141] ، وهو من سكان مدينة الحلة أيضًا الذي كان يزوّد العدو الإيراني من خلال تنظيمات حزب الدعوة الموالي لإيران بمعلومات تفصيلية عن نشاط وتدريب وحداتنا المكلفة بالواجب. وباقتراب نهاية الشهرين كانت الفرقة والقطعات الملحقة بها قد أنجزت تدريباتها باقتدار للمهمة المقبلة، وأصبحت لدينا منظومة عبور كفيّة ومتكاملة فذهبت إلى رئاسة الأركان، وأخبرت رئيس الأركان بأننا جاهزون لاحتلال عبادان فرمقني بنظرة من تحت حواجبه الكثة، وقال: «نحن لا نريد منك احتلال عبادان ما نريده أن تعبر وتشكل رأس جسر في الضفة البعيدة»، فسألته: «وماذا بعد؟»، فقال: «رأس جسر في الضفة البعيدة هو ما ستقوم به»؛ فقلت سيدي: «إن عبور الفرقة أو بعضها لتشكيل رأس جسر من دون الاندفاع إلى عبادان يعني أن هذه القوة ستكون تحت رحمة مدفعية العدو وهاوناته. وسوف تتكبّد الخسائر وتتأكّل تدريجًا. إن كل ما نحتاجه هو دفع قوة من المشاة والدبابات من قطعات الفرقة السادسة الموجودة في الجانب الأيسر من نهر الكارون للالتقاء بقطعاتي لغلق المحور شمال عبادان، الأمر الذي يسهِّل لي عملية احتلالها، ونحن تدربنا في الشهرين الماضيين على العبور واحتلال عبادان، وليس على تشكيل رأس جسر في الضفة الأخرى». تركت رئاسة الأركان محبطًا ونفسي تغلي بالغضب.

بعد يومين أو ثلاثة تم سحب كتيبة الدبابات وفوج المشاة الآلي وقاطعي الجيش الشعبي من إمرة الفرقة ثم استلمنا أمرًا بحركة اللواء 38 إلى القاطع الأوسط وكُلف باستعادة جبل كولينا الذي تمكَّن العدو الإيراني من

احتلاله من مدة قصيرة، وبعد أيام عدّة استلمنا أمر حركة الفرقة إلى القاطع الأوسط لتكون بإمرة الفيلق الثاني، وضاعت فرصة احتلال عبادان التي كنا نتدرب لتنفيذها.

استلمت الفرقة القاطع الدفاعي الذي كان من مسؤولية الفرقة الرابعة قبل تحركها إلى السليمانية، والذي أصبح من مسؤولية الفرقة الثامنة التي كانت تدافع في قاطع قصر شيرين - سربيل زهاب عند تحرك الفرقة الرابعة خارج القاطع. عندها شنّ العدو هجومًا على عارضتي جبلي كوجر وكولينا اللذين كان يدافع عنهما اللواء الثالث واستطاع إسقاطهما، واستخدم الفيلق اللواء 38 الذي تحرّك من المسيب للهجوم على العدو في عارضة كولينا، فتمكَّن من احتلالها، ولم يحاول استرجاع عارضة كوجر المجاورة. أصبح قاطع الفرقة يمتدّ من المرتفعات شمال عارضة كولينا، والحدود الفاصلة مع الفرقة الثامنة بقيادة اللواء الركن سالم حسين إلى جنوب شرق مضيق حجين، والحدود الفاصلة مع الفرقة الثانية عشرة بقيادة العميد الركن طالع الدوري، وفي الاحتياط كانت الفرقة المدرعة السادسة بقيادة العميد الركن محمود شكر شاهين، أما مقرّ قيادة الفيلق، في المنصورية، وقائده الفريق الركن عبد الجبار الأسدي.

أشغلت الفرقة الموضع الدفاعي بأربعة ألوية هي اللواء 19 الذي يحتل المرتفعات الممتدة إلى الشمال من كولينا، واللواء 38 في كولينا، واللواء 238 الذي يمسك مضيقي مايخورة وكورة جنوب جبل كوجر، واللواء الخامس وبإمرته أحد أفواج اللواء 18، يشغل موضعه الدفاعي على شكل حدوة حصان تبدأ بمضيق حجين ثم الأرض المنبسطة إلى الغرب منه التي تمرّ منها الطريق المؤدية إلى مدينة كيلان غرب ثم عارضة جيكون إلى الجنوب الغربي منها، وأبقينا اللواء 39 ومغاوير الفرقة في الاحتياط. استقر مقرّ الفرقة في مضيق كوهينة قرب جسر القعقاع الذي أنشأته الفرقة الرابعة على نهير صغير غرب المضيق.

في زيارتي لقاطع اللواء 38 الدفاعي استرعى انتباهي أن آمر الفوج الأيمن (المواجه لعارضة كوجر التي يحتلها العدو) المقدّم الركن أكرم لم يكن ملمًا بقدر كافٍ بتفاصيل موضعه الدفاعي، وبالعدو المقابل له في عارضة كوجر، ولم يكن على معرفة بأسماء بعض ضباط صف الفوج عندما سألته عنهم في أثناء وجودنا في الموضع الدفاعي للفوج، فتولّد لدي انطباع بأنه لم يكن على اتصال وثيق ويومي بهم، وذلك ما أقلقني فنبهته، وأمر اللواء العقيد الركن طلال محمد صالح بتكثيف زياراتهم إلى مواضع الفوج، وأن يتابعوا

بدقة أكبر فاعلية العدو في قاطعهم. وبعد أقل من أسبوع لاحظت استخباراتنا نشاطًا للعدو باتجاه عارضة كولينا فقمت بزيارة مقرّ اللواء وبصحبتي آمر المدفعية، وضابط ركن الثاني استخبارات الذي أوجز آمر اللواء عن النشاط المعادي باتجاه مواضع اللواء الدفاعية، وأكد آمر اللواء أنهم قد رصدوا أيضًا نشاطًا متزايدًا في فاعليات العدو. وفي اجتماعي مع آمري أفواجه أخبرتهم بأننا نتوقع قيام العدو بتعرض على قاطع اللواء خلال الأيام المقبلة، وأنه قد يستهدف الجناح الأيمن المواجه لوجوده في عارضة كوجر، ثم وجّهت كلامي إلى المقدّم الركن أكرم آمر الفوج في الجناح الأيمن لمواضع اللواء الدفاعية في جبل كولينا، والمتوقع مهاجمته من العدو بأسبقية أولى، وقلت له: «مقدّم أكرم في زيارتي السابقة نبّهتك إلى عدد من النقاط فهل عملت بها؟»، فأجاب: «نعم سيدي»، قلت: «حدث مرارًا في الجبهة الجنوبية أن قام العدو بمهاجمة بعض مواضعنا الدفاعية فقام عدد من الجنود من الذين في «قلوبهم مرض» أو من المذعورين والخائفين بالتنادي أن العدو يهاجم، وكانت تصدر الأوامر لنا بالانسحاب فتسقط المواضع من دون قتال، وذلك لأسباب منها ضجرهم وتدني معنوياتهم وضعف العلاقة بينهم وبين آمريهم. أريد منك أن تنتبه لفوجك وجنودك، وتكون أنت وضباطك معهم. دققوا في أوضاعهم وجاهزيتهم، فأ كثر ما أخشاه الثقة الزائدة التي تولّدت لديكم بعد معركة انتزاعكم العارضة من العدو، والتي قد تجعلكم غير متحسبين؛ إني أقول ذلك لأن فوجك هو من سيهاجمه العدو»، فأجاب: «لقد قمت، وسأقوم بكل ما تأمر به سيدي». وأضفت مخاطبًا آمر اللواء: «عقيد طلال، إني أؤكد ذلك لأن الموضع إذا سقط فستسفك دماء كثيرين من مقاتلينا لاستعادته فأرجو أن تتابع ما قلته توًا مع الآمرين والضباط شخصيًّا».

تواترت المعلومات عن تحركات وفاعليات العدو، وتأكدنا في قيادة الفرقة أن العدو سيهاجم في الساعات المتأخرة من تلك الليلة، وقبل الفجر الأول من نهار يوم الغد، وتم إخبار آمر اللواء العقيد طلال بذلك، ومع ذلك اتصلت بالمقدّم أكرم وأخبرته أن العدو سيهاجمه في الساعات المتأخرة من هذه الليلة، وأضفت: «مقدّم أكرم سيقوم العدو بشن هجوم صامت [142] ومن اتجاهين، الأول من منطقة الرقبة التي تربط كولينا بكوجر، والآخر من اتجاه النيسم الذي يربط كولينا بالوادي شرقها، وأطلب منك أن ترسل مجموعتين كل منهما تتكون من 15 إلى 20 من المراتب بإمرة ضابطين من الذين تعتمد عليهما بالاتجاهين، وبمسافة 500م أمام مواضعنا كي تكشف

العدو، ولا يباغت فوجك في موضعه الدفاعي، ويكون توقيت إخراج الدوريتين في الساعة العاشرة من هذه الليلة. هل هذا واضح، أم تريدني أن أعيده مرة أخرى؟»، فأجاب: «إن كل شيء واضح وسأقوم باتخاذ الإجراءات كافة التي أمرت بها سيدي». بعد هذه المكالمة اتصلت بآمر اللواء وأخبرته بما وجهتُ به المقدّم أكرم، وطلبت منه أن يكرّر ذلك عليه مرة أخرى.

في ساعة متأخرة من الليلة نفسها قام العدو بهجوم صامت على مواضع فوج المقدّم أكرم في عارضة كولينا، وتمكَّن من احتلالها مع الفجر الأول. انتقلت على الفور إلى قاطع اللواء لمعرفة حقيقة ما حدث، وكيف استطاع العدو احتلال مواضع الفوج مع الإجراءات كلها التي يُفترض أن الفوج واللواء قد اتخذاها، ففهمت أن آمر الفوج لم يُنفّذ أيًّا من التوجيهات التي استلمها مني ومن آمر اللواء في الليلة الماضية، وأن العدو قام بهجومه الصامت من الاتجاهين اللذين حددتهما لآمر الفوج الذي لم يرسل مجموعتي القتال إلى أمام الموضع كما أمرته بذلك. وأن الفوج انسحب عندما سمع الجنود أحدهم يقول: «إن الأوامر قد صدرت لنا بالانسحاب». تمامًا مثلما حذّرت منه عند زيارتي لهم قبل بضعة أيام، فأمرت على الفور بالتحقيق مع آمر الفوج والمنتسبين إليه كافة، ثم قدمت لجنة تحقيق من الفيلق تولّت الشأن. وشرعنا في اليوم التالي في عمليات الهجوم المقابل، وفي كل مرة كانت القوة المهاجمة تصل إلى عشرات الأمتار من منطقة المنعة [143] في قمة العارضة، تتراجع بتأثير الرمانات اليدوية التي يدحرجها العدو عليهم من كهوف منطقة المنعة، وفي اليوم السابع من سقوط منطقة الفوج حضر القائد العام صدام حسين وقائد الفيلق الفريق عبد الجبار الأسديّ إلى المقرّ الجوال الذي كنت أدير منه عملية الهجوم الخامسة، واستفسر عن الموقف فأخبرته بأن الهجوم يسير بشكل جيد حتى الآن، والمعضلة في عشرات الأمتار الأخيرة قبل صولتهم على الهدف، ومثلما حدث في المرات السابقة توقف الهجوم بتأثير مئات الرمانات التي يدحرجها العدو من منطقة المنعة، فقرّر القائد العام إرسال لواء القوات الخاصّة حرس جمهوري الذي يقوده العقيد عبد الهادي الذي كان أحد آمري الأفواج في فرقتي، ثم استلم اللواء 39 في الفرقة، وهو من مدينة الموصل ويتميز بشجاعته الفائقة وقربه الشديد من جنوده ومحبته لهم وكانوا هم على استعداد للذهاب معه أينما يريد من دون تردد أو وجل. أما نقاط ضعفه فهي بساطته الشديدة وعدم رفضه لأي طلبٍ من جنوده حتى على حساب

راحته وأمنه.

كنت أعرفه جيدًا ولم أستطع أنا وغيري إلا أن نحبه. كان العقيد عبد الهادي قد نُقل إلى الحرس الجمهوري بعد حركتنا إلى القاطع الأوسط، وأصبح آمرًا للواء القوات الخاصّة، واستشهد بعد ذلك في القاطع الجنوبي في عام 1982، ولم يُعثر على جثته. تغمّده الله برحمته فقد كان آمرًا وضابطًا شجاعًا يحب جنوده ويحنو عليهم.

عقد قائد الفيلق الفريق عبد الجبار الأسدي اجتماعًا حضرته مع قائد الفرقة السادسة المدرعة العميد الركن محمود شكر شاهين ومسؤول التنظيم الحزبي في فرقته العقيد ثابت الآلوسي، ومسؤول التنظيم الحزبي في فرقتي النقيب فرحان حمادي، واللواء الركن سالم حسين قائد الفرقة الثامنة ومسؤول التنظيم الحزبي في فرقته، وعدد من ضباط الركن لعرض خطة الهجوم الأخيرة. وكانت الفرقة السادسة قد أُشركت في الخطة برتل مدرّع لمخادعة العدو بالقيام بحركة إحاطة لغرض منع احتياطه من التدخل في المعركة، فيما تقوم الفرقة الثامنة بهجمات تثبيتية في قاطعها لإشغال العدو وتشتيت جهده. حضر الاجتماع الرفيق كاظم نعمة عضو المكتب العسكري ومسؤول التنظيم الحزبي في الفيلق، وبينما كنت أشرح الخطة على الخريطة المعلقة على جدار القاعة قاطعني العقيد ثابت الآلوسي مسؤول تنظيم الفرقة السادسة بتعليق عن رتل الإحاطة فأزعجني كثيرًا وعنّفته بقسوة، وأمرته بمغادرة القاعة فأدى التحية وخرج، ولم ينبس قائد الفيلق بأي كلمة، وهذا خطأ ارتكبته بتجاوزي قائد الفيلق، وذلك لانفعالي عند مقاطعتي.

أرسلت لنا قيادة الفيلق صورة جوية حديثة لمنطقة المعركة، وفيها حددنا مناطق مدفعية العدو وهاوناته، واحتياطاته القريبة والبعيدة، بشكل ساعدنا في وضع خطط نارية محكمة لضرب هذه الأهداف كلها بدقة وتأثير كبيرين، كما تمكنّا من جلب مدافع ضد الدبابات من نوع B10 حُملت على أكتاف الجنود، واستخدمت للرمي المباشر على كهوف المنعة، وكان تأثيرها ممتازًا. وصلنا العقيد عبد الهادي ولواء القوات الخاصّة حرس جمهوري الذي يقوده، فأوجزت له الموقف وقلت له: «عبد الهادي تم سحق الجزء الأكبر من قوات العدو في المنعة وكذلك احتياطاته القريبة والبعيدة، ونجحنا في إسكات مدفعيته وتدمير هاوناته، ولدينا قاعدة أمينة لمغاويرنا بمسافة 100م عن المنعة أريد منك أن تختار ثلاث مجموعات من لوائك، كلٌّ منها من 100 جندي وضابط لاحتلال المَنَعة والمواضع جنوبها

باتجاه كوجر، (ثم أشّرت له على المواضع الثلاثة). وكذلك عليك تهيئة مجموعة رابعة من 100 جندي وضابط احتياطًا لك تبقى مع مغاويرنا في القاعدة الأمينة، وستصعد إلى الهدف وتحتله من دون مقاومة أو بمقاومة بسيطة ممن تبقى من أفراد العدو، انتبه لي عبد الهادي أريد منك بعد احتلال الهدف أن تتمركز فيه مع قوتك الكاملة إلى أن يستلمها المغاوير منكم لاحقًا، وإذا خسرت إحدى المجموعات جنديًا أو عشرة تعوض فورًا من الاحتياط في القاعدة الأمينة بما يماثلهم، ولا يُسحب أي جندي بعد احتلال الهدف حتى لو كنت أنا من يصدر الأمر لك بذلك. هل هذا مفهوم؟»، فأجابني: «مفهوم يا سيدي، ولا يبقى بالك فسأذهب واحتلّها بعون الله».

قلت له: «أنا أعرف بأنك ستحتلها، لكني أريدك التقيد بما قلته لك بعد احتلال الهدف لتتمركز مجموعاتك في مواضعها بقوة إلى أن أصدر أمرًا للمغاوير ليستلموه منكم مرة أخرى. عبد الهادي هل ما أقوله، واضح؟». فأجاب: «واضح سيدي، ولا تشغل بالك»، فقلت: «إذن اتكِل على الله». كان ذلك في اليوم التاسع من سقوط الهدف.

تقدّم عبد الهادي ومجموعاته بإسناد خطة نارية محكمة، واحتل الهدف بسهولة ومن دون مقاومة تذكر، وبعد أقل من نصف ساعة جاءنا خبر انسحاب العقيد عبد الهادي ومجموعاته من المواضع التي احتلتها بعد هجوم مقابل من العدو، فأرسلت في طلبه فورًا وجاء، وكنت أول مرة أراه غير حليقٍ وغير مهندمٍ، وكان وجهه مغطى بآثار دخان المعركة والتراب يغطي بدلته. كان العقيد عبد الهادي في السابق وبعد أي معركة مع مسلحي الحركة الكردية في قاطع السليمانية لا يجيئني إلا بعد أن يحلق ويغتسل ويتعطّر، ويرتدي بدلة جديدة. قلت له: «احكي لي عبد الهادي ماذا حدث؟». قال: «كنا قد احتللنا الهدف وانسحبنا عندما هاجمونا، وكدنا أن نقتل أنا والعقيد خالد آمر مغاوير الفرقة لولا أن ركضنا عائدين إلى القاعدة الأمينة، أما المخابر الذي كان معنا فقتل برمانة يدوية». فأسكته قائلًا: «انتظر وأين كان جنودكم حين هاجمكم العدو، وكم كان عددهم؟». قال: العدو كان ستة أو سبعة لا أكثر. أما جنودي فأعدتهم إلى القاعدة الأمينة للراحة، وبقينا في الهدف أنا والعقيد خالد والمخابر». لم أتمالك نفسي فضحكت قائلًا: «هذا هو عبد الهادي، ولن يغيره شيء»، فغمر وجهه الارتياح، وقال: «تعرف سيدي، إن الجنود كانوا متعبين، وأردت لهم أن يرتاحوا قليلًا»، ثم قال: «سأعود لاحتلالها الآن إذا أمرت بذلك». قلت:

«عبد الهادي اذهب وارتح مع جنودك الآن». وفي اليوم الحادي عشر احتلّ عبد الهادي وجنوده الهدف من دون مقاومة تذكر فالعدو كان قد سُحق تمامًا في معارك الأحد عشر يومًا الماضية.

في أحد الأيام، اتصل بي الفريق عبد الجبار الأسدي، وطلب مني المجيء فورًا إلى قيادة الفيلق في المنصوريّة. وفي مدخل الفيلق كانت مجموعة من حرس الرئيس، وعندما دخلت غرفة القائد كان الرئيس وقائد الفيلق، والعميد الركن كامل عبد اللطيف العزاوي عضو المكتب العسكري وقائد الفرقة المدرعة التاسعة التي حلت محل الفرقة المدرعة السادسة التي تحرّكت إلى القاطع الجنوبي [144] .

أبدى الرئيس رغبته في زيارة قطعات الفرقة في الجبهة فركبنا عجلة لاندكروزر رباعية الدفع، ولما أراد العميد الركن كامل أن يقودها قال الرئيس: «في الطرق الوعرة كما في المواقف الصعبة أتولّى أنا القيادة». وحكى عن حادثة نزول اضطراري لإحدى السمتيّات التي كان يتنقل بها قرب الجبهة مع وزير الدفاع الفريق عدنان خير الله ومرافقيهما. وكان نزول الطائرة في الأرض الحرام في أحد قواطع الجبهة الجنوبية. قال الرئيس: «امتددنا، وتناولت بندقية برنو كان يتسلح بها أحد المرافقين». ترجّاه وزير الدفاع بأن لا يتكلّف ويحمل هو البندقية فردَّ عليه: «فريق عدنان في المواقف الصعبة أتولّى أنا حمل السلاح»، وهي سمة الشجاعة التي كان يتصف بها (رحمه الله). واستُدرك هذا الموقف الخطر بسمتيّة أخرى وصلت وأقلّتهم إلى خارج المنطقة. ثم أكمل: «نحن الآن في زيارة إلى الجبهة والطريق جبلية وغير ممهدة. أنا من يتولّى القيادة». كان الرئيس يقود العجلة وإلى يمينه يجلس قائد الفيلق، وفي الخلف جلستُ أنا والعميد كامل عبد اللطيف.

في الطريق تحدث الرئيس عن فكرة تشكيل ألوية المهمات الخاصّة، فقال: «هنا، كما في القاطع الجنوبي كانت المعارك التي شنّها العدو بفرق الحرس الثوري (حرس الخميني) أكثر شراسة من تلك التي تنفذها قواته النظامية، وذلك لكون المنتسبين إليها من المؤمنين بالثورة والسلطة الدينية لقائدها الخميني، فلماذا لا نقوم نحن بعمل مشابه ونشكل ألوية نسميها ألوية المهمات الخاصّة، تتألف من متطوّعي كوادر الحزب وأعضائه، وكل لواء يضمّ 960 مقاتلًا موزّعين على ست سرايا ومسلحين بالأسلحة الخفيفة وقاذفات الآر بي جي (RBG). يقود اللواء وسراياه الست ضباط من الجيش وتعمل في قواطع الفيالق». وسكت بانتظار آرائنا فأثنى الفريق قائد الفيلق على

الفكرة، وتبعه العميد كامل، وفي المرآة الأمامية للعجلة لمحته ينظرُ إليّ فقلت: «إني لا أتفق مع هذه الفكرة سيدي الرئيس». وفي المرآة شاهدته وهو يقطب عينيه، وقال: «لماذا؟»، فقلت: «لعدد من الأسباب سيدي الرئيس، وأولها طبيعة شعبينا، فالشعب الإيراني مطيع ومنفذ خصوصًا أولئك الذي يؤمنون بالخميني وكيلًا لأئمة آل البيت وجُلّهم من القرويين والمعدمين الذين لا يعني بقاؤهم أو ذهابهم شيئًا كثيرًا بالنسبة إليه وإلى بلد مثل إيران. العراقي بطبيعته صعب المراس ومتشكك وليس من السهولة إقناعه ويبحث عن حجج وبراهين كي يقتنع. والسبب الثاني حرسهم متطوِّعون من ملايين الفلاحين والجهلة وألويتنا ستكون من نخب وخميرة الحزب والدولة، وهم يعدون بعشرات الآلاف لا أكثر، ومعظمهم من حملة الشهادات والأساتذة، والمديرين وموظفي الدولة، فإذا خسرناهم فمن الصعب تعويضهم، والشيء الآخر سيدي الرئيس إننا في الوحدات العسكرية فوج المشاة عديده 750، وفيه 30 ضابطًا، و139 ضابط صف، ومع ذلك ليس من السهولة قيادته بنجاح فكيف بلواء من 960 يقودهم آمر وستة ضباط وهؤلاء سيجري نقلهم من فرق وتشكيلات تقاتل الآن في الجبهة. وأؤكد لك سيدي بأنه ليس هناك من سيرسل أفضل ضباطه، وأنا منهم. إن لم يكن العكس، إذ سيرسلون من يريدون التخلص منهم». وأضفت: «وستكون هذه الألوية بلا وسائط نقل ووسائل اتصال كافية، وإنني أعتقد بأنهم سيكونون يومًا ما في جبهة ما بإمرة قيادة ما وفي معركة يمكن أن نخسرها، فتنسحب تشكيلاتها النظامية بوسائلها ووسائطها المتيسّرة، ونترك هؤلاء للقتل والأسر». كان العميد كامل «يلكزني» بمرفقه مرة بعد أخرى بأن أسكت، لكني رأيتُ أن من واجبي أن أُسمع القائد العام رأيي. وفي المرآة أيضًا كنت ألمح وجه الرئيس العبوس فلم يكن راضيًا عما قلته.

حدث بعد ذلك ما توقعته بالضبط ففي معارك الشوش - ديزفول تراجعت معظم قوات الفيلق الرابع لتجنب التطويق، وتركت ألوية المهمات الخاصّة التي كانت من دون وسائط نقل وتقاتل وحدها، فوقعت بعد نفاد عتادها في الأسر بعد أن قُتل كثيرون منها.

في الأسبوع الأخير من أيلول/سبتمبر 1981 هاجم العدو في القاطع الجنوبي قوات الفرقة المدرعة الثالثة الموجودة شرق نهر الكارون في قاطع الفيلق الثالث، وتمكّن من إجبارها على التراجع إلى الضفة الغربية من النهر، بعد أن فقدت العديد من دروعها وعجلاتها المدرعة. وفي نهاية تشرين الثاني/نوفمبر تمكَّن العدو من استعادة مدينة بسيتين التي كانت

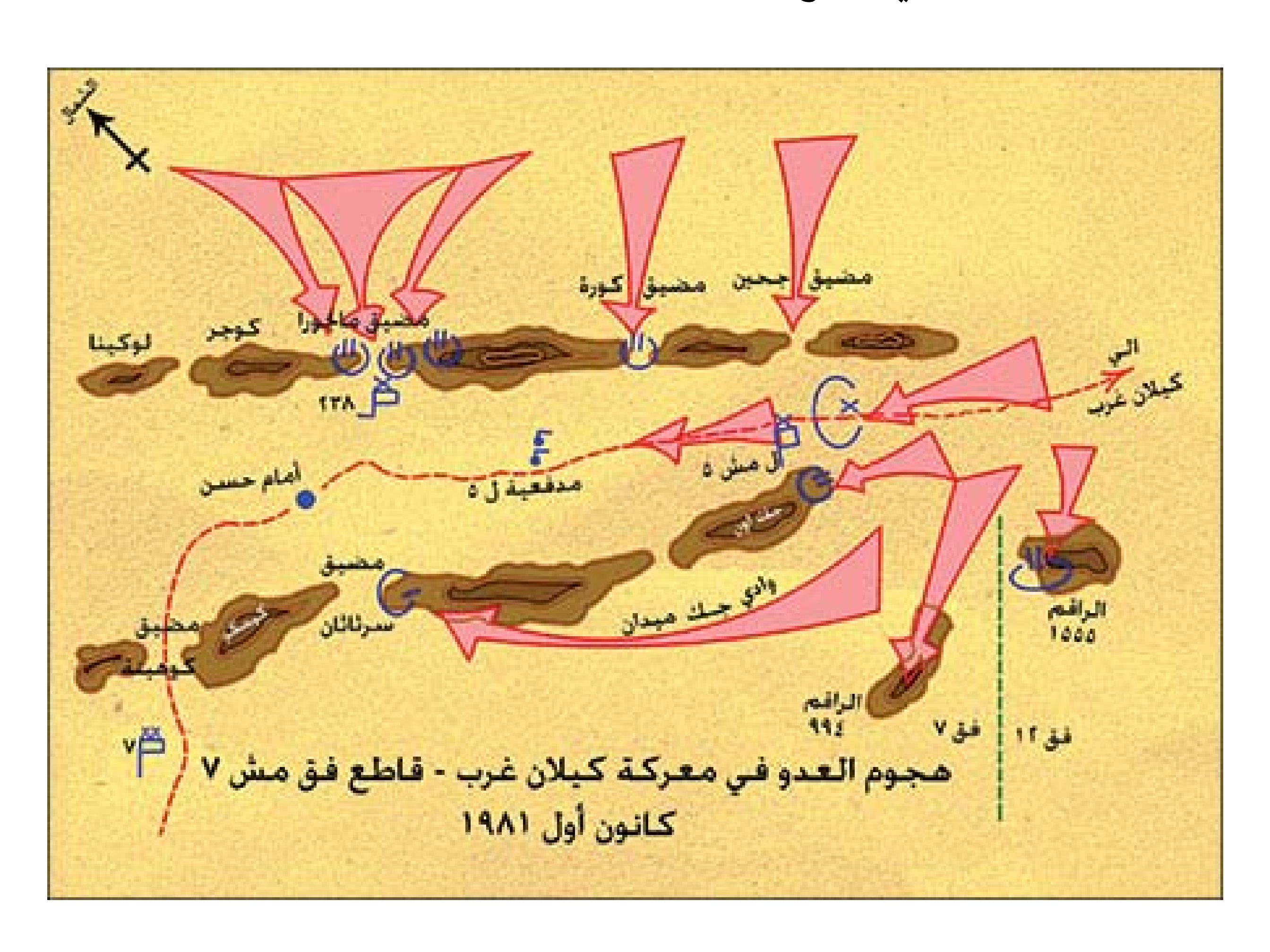
تدافع عنها الفرقة المدرعة التاسعة، ولم تفلح هجماتنا المقابلة لاستعادتها.

معركة كيلان غرب

عقد قائد الفيلق مؤتمرًا لقادة الفرق وآمري الصنوف الساندة لمناقشة احتمالات عمل العدو في المرحلة المقبلة بعد فشله في معركة كولينا الأخيرة، وطلب سماع آراء قادة الفرق فيها. تكلّم القادة عن احتمالات كنت أرى أنها بعيدة عن توجهات العدو المقبلة، فقائد الفرقة الثامنة كان يرى أن العدو سيقوم بهجوم يستهدف مواضع فرقته في عارضة سيسر غرب سربيل زهاب، واحتمال أن يصاحب ذلك محاولة للهجوم مرة أخرى على عارضة كولينا. أما قائد الفيلق فكان يُركز على قاطع كولينا، وقال: «إن العدو سيعيد مهاجمته ومحاولة الاستيلاء عليه، وإحداث ثغرة واسعة في قلب مواضعنا الدفاعية». وكان العدو قد احتل عارضة كوجر يمين كولينا مباشرة، قبل حركة الفرقة السابعة إلى القاطع.

الشكل (8 - 2)

معركة كيلان غرب في قاطع فرقة المشاة السابعة، كانون الأول/ديسمبر 1981



لمّا جاء دوري أخيرًا قلت موضحًا وجهة نظري، بأني لا أظن بأن العدو سيكرّر فشله للمرة الثالثة ويهاجم كولينا، وكذلك لن يهاجم عارضة سيسر التي سبق أن هاجمها وفشل في الاستيلاء عليها، وحتى لو نجح في احتلالها فالفرقة ستنسحب إلى عارضة بمو في الخلف من دون أن يؤثّر ذلك في بقية مواضع فرق الفيلق الدفاعية، وما أعتقده هو أن العدو سيستهدف في هجومه المقبل الجناح الأيمن لقاطع فرقتي اعتبارًا من مواضع اللواء 238 في مضيق مايخورة وكورة، ومواضع اللواء الخامس في حجين، ومحور الطريق العام كيلان غرب - إمام حسن حتى مرتفعات جك أون في الجناح الجنوبي الغربي لمواضع اللواء، وإذا استطاع العدو تحقيق ذلك فسيضطر الفيلق إلى سحب بقية فرقه إلى الخلف حتى الحدود الدولية. ولم يقتنع قائد الفيلق بذلك لكن إلحاحي عليه جعله يوافق على إدخاله باعتباره أحد الاحتمالات التي يمكن أن يسلكها العدو.

شرعت مع آمري التشكيلات وآمر المدفعية وهيئات ركن الفرقة باستطلاع مفصل للقواطع التي أتوقع أن يستهدفها العدو. وبيّنت لهم لماذا وكيف سيهاجم العدو بالاتجاه هذا والاتجاه ذاك. وبعدما أصبح الجميع على معرفة وإدراك لاتجاهات عمل العدو في تعرّضه المقبل، بدأنا سلسلة من التحضيرات لإعداد ساحة المعركة وتهيئة القطعات والخطط النارية والتحضيرات الهندسية والفنية.

في معركة كولينا كانت معظم تحصينات الجنود من الصخور التي بُنيت فوق الأرض لصعوبة الحفر في العارضة، ولاحظنا بعد استرجاع العارضة أن تلك المواضع كافة قد اختفت وتناثرت صخورها من شدّة القصف وتأثير العصف عليها، ولتلافي ذلك يجب أن تكون مواضع جنودنا وأسلحتهم الساندة في خنادق شِقيّة (نسبة إلى شِقّ) ومواضع تحفر داخل الأرض مهما كانت صلابتها، وكان في اللواء الخامس عدد من الجنود اليزيدية (من الطائفة اليزيدية) من الذين كانوا يعملون في حفر الصخور في مناطقهم، ويدعون بالنقارين (النقارون هم الذين يعملون في تكسير الصخور وبيعها لأغراض البناء) فطلبت من آمر اللواء العقيد الركن سلطان هاشم إرسالهم وتوزيعهم على زمر لتعليم وتدريب بقية مراتب وحدات وألوية الفرقة، ولا سيما أولئك الذين أتوقع أن تتعرض وحداتهم لهجوم العدو المقبل. وأرسلت آخرين لشراء أدوات نقر الصخور من مدينة الموصل. وبدأت زمر اليزيدية (النقارون) تعليم رفاقهم جنود الوحدات حفر الخنادق، ووضعنا جوائز لأفضل وأسرع من ينجز خندقه، وأفضل وحدة فرعية وفوج ولواء. وفي فترة

قصيرة كانت الوحدات قد أنجزت خنادقها الشقيِّة ومواضع أسلحتها الساندة في مواضعها الدفاعية. أبلغناهم بإبقاء مواضعهم القديمة وعدم إشغال خنادقهم الشقية إلا في أثناء المعركة كي لا نسترعي انتباه العدو إليها.

كثّفنا إرسال عناصر الاستطلاع العميق للفرقة (من عناصرنا من ذوي الخبرة الذين كنا نرسلهم إلى القرى لمتابعة المسلحين الأكراد في الشمال) إلى العوارض المشرفة على العدو، وفي بعض الأحيان ندفعهم إلى أجنحة العدو وخلف مواضعهم الأمامية ليبقوا هناك يومين أو ثلاثة، ويقوموا بتزويدنا بتحضيرات العدو وتحركاته وفاعلياته.

استعنّا أيضًا في جهدنا لجمع المعلومات عن تحضيرات العدو ونياته بأجهزة الرازيت [145] ، حيث سبق وأرسلنا إلى مديرية التأهيل العلمي والفني لوزارة الدفاع، فافتتحت الدورات التعليمية للجنود الخريجين الذين كان معظمهم من الأطباء البيطريين الذين أُرسلوا بعد تخرجهم إلى الفرقة السابعة الجبلية (فرقتنا)، وفيها نقلية بغال ويخصص لها سنويًّا أطباء بيطريون من المتخرجين حديثًا من دائرة الإدارة، وخريجون آخرون. وكانت نتائجهم متميِّزة في الدورات، واستُخدم معظمهم لتعليم دورات الفرق الأخرى بحسب رغبة اللواء قحطان العزاويّ مدير مديرية التأهيل العلمي والفني في وزارة الدفاع.

كانت مجموعات الرصد المتكوّنة من الاستخبارات والمعدات الفنية والمدفعية تتابع وترصد تحركات العدو وتأشيرات مدفعيته برمي الدخان لتحديد الأهداف التي سيهاجمها، ولبناء خطته النارية للمعركة. كما أجريتُ تجميع فصائل الهاونات من أفواج الألوية في مجموعات بإشراف ضباط أكفياء، وتتألف كل مجموعة من 36 مدفع هاون من عيار 82 ملم، تُستخدم ككتلة واحدة في معالجة هجمات العدو، وتم تدريبهم من جانب ضباط من مدفعية الفرقة على ذلك. ويمكن كتلة هاونات الألوية التي لا تتعرض للهجوم المناورة بها إلى القاطع الساخن. وحُفرت لها المواضع البديلة وأجرينا عليها الممارسات.

بدأ العدو قبل مدة ببناء مصاطب رمي الدبابات ليلًا كي لا تُرصد، لكنا كنا نتابعه عن كثب، فأمام الموضع الدفاعي في مضيق مايخورة الذي تشغله وحدات من اللواء 238 بنى العدو 40 مصطبة، وبإكمالها كان يقترب من موعد هجومه.

أجرينا ممارسات متعددة لقطعات الاحتياط على الهجمات المقابلة لاستعادة المواضع المتوقع سقوطها في هجوم العدو، وأوعزنا إلى التشكيلات بإجراء

ممارسات مشابهة باحتياطاتهم المحلية.

كان احتياط الفرقة يتألف من اللواء 39، وكتيبة دبابات، وفوج مشاة آلي من اللواء الآلي 51 (كان تحت التشكيل وبإشراف فرقتنا) وست سرايا مغاوير للفرقة، أما احتياط اللواء الخامس فكان أربع سرايا مغاوير وسريّة دبابات. وفي أثناء استطلاعي مع آمر اللواء الخامس العقيد الركن سلطان هاشم ذيل عارضة سرتاتان، الامتداد الشمالي لعارضة جك أون المشرفة على مضيق سرتاتان (وكان يتمركز فيها فصيل مشاة مع دبابة)، قلت له: «إن العدو سيهاجم موضع الفصيل». فقال آمر اللواء: «إذن، دعني أعززه بالاحتياط»، فقلت: «دع الفصيل يعزز موضعه، ولا تفرط باحتياطك فستستخدمه هنا وفي مواضع أخرى للهجمات المقابلة». وكان احتياط اللواء 238 مؤلفًا من سريّتين من المغاوير، وعززناه بمجموعة هاونات اللواء 19، وكذلك اللواء الخامس الذي عززناه بمجموعة أخرى من هاونات اللواء 38.

في 10/12/1981 أخبرتنا عناصر الاستطلاع العميق، وأيدتها مراصدنا بأن العدو في مراحله النهائية من التحضيرات، وكذلك رصدنا إكمال مصاطب الدبابات أمام اللواء 238 فدفعنا مزيدًا من عناصر الاستطلاع العميق إلى كافة الاتجاهات التي نتوقع قيام العدو بالهجوم منها. وفي ليلة 11 - 12 أكدت المجموعات أن مقدمات العدو الأمامية تحركت إلى أماكن انطلاقها وشروعها، وأن الهجوم سيكون هذه الليلة أو مع الفجر. ورصدت مراصدنا تكثيف تسجيل مدفعية العدو الأهداف برمي قنابل الدخان، كما أكدت أجهزة الرازيت تحركات آليات العدو ودباباته إلى مناطق أمامية. وفي غرفة حركات (عمليات) الفرقة كانت المعلومات تتوارد عن هذه التحركات فقلت لهيئة الركن إن الهجوم سيتم قبل الفجر، «وسأذهب للنوم وأيقظوني عند هجوم العدو».

أيقظوني عند الفجر، وأخبروني أن العدو شرع في هجومه الذي سمّاه «عملية الفجر» قبل أقل من نصف ساعة، فذهبتُ إلى غرفة الحركات وتابعت محاور هجوم العدو واتجاهاته. وبعد قليل اصطحبت آمر المدفعية وضابط الركن الثاني استخبارات وبعض المخابرين، وذهبت إلى المرصد الأمامي في عارضة كيمكو شمال عارضة سرتاتان، ويفصلهما مضيق ونهير سرتاتان، وكان يحتلها قاطع من الجيش الشعبي. في المرصد كنا نتابع مناطق الاشتباكات، وتردني من غرفة حركات الفرقة مواقف العدو وقطعاتنا المدافعة، وكان العدو يهاجم من أحد عشر اتجاهًا، عشرة منها كما توقعتها، والأخير كان باتجاه عارضة الراقم 994 الكائن في أقصى الشمال الغربي من قاطع

الفرقة وإلى الخلف، ولم تكن لدينا قطعات فيه كما هاجم الراقم 1155 في قاطع الفرقة 12 إلى الشمال الغربي من مواضع اللواء الخامس مقابل عارضة جك أون التي يحتلها فوج من اللواء الخامس ويفصلهما وادي جك ميدان. هاجم العدو اللواء 238 في مضيق مايخورة والعوارض التي تحتلها وحداته شمال المضيق وجنوبه، كما هاجم مضيق كورة والمرتفعات التي بينه وبين مضيق مايخورة. وفي قاطع اللواء الخامس هاجم مضيق حجين، وهاجم بالمشاة والدبابات فتحة الطريق المؤدية من كيلان غرب إلى إمام حسن، وهاجم منطقة السن الساقط في الطرف الجنوبي في عارضة جك أون، وتسلّل في وادي جك ميدان، وهاجم مواضع الفصيل الذي يمسك ذيل العارضة المشرفة على مضيق سرتاتان. كانت المعلومات تردني عن هذه الهجمات، ولما تكاملت قلت للضباط الذين كانوا معي: «إن القائد الإيراني شنّ هجومه كما توقعناه وكأننا خططناه له، ولذلك فإننا سوف نكسب المعركة لأننا استعددنا لكل ما قام به حتى الآن».

عدنا إلى غرفة العمليات لمتابعة الموقف. ففي قاطع اللواء 238 كانت دبابات العدو قد اعتلت مصاطبها، وحال رفع نيران مدفعيتهم عن مواضع اللواء واحتياطاته فتحت الدبابات نيرانها المباشرة على مواضعنا القديمة القائمة فوق الأرض وتم تدميرها. وكان جنودنا قد تركوها حال بدء القصف المعادي واستتروا في خنادقهم الشقيّة التي عملوا عليها في فترة التحضيرات. وبعد أن تأكد العدو من تدمير مواضعنا الدفاعية التي كانت فوق الأرض شرع مشاته بصولتهم عليها، لكنهم ووجهوا بنيران قوة المضيق من جنودنا في مواضعهم الجديدة التي لم تتأثر بالقصف المعادي ولا بالرمي المباشر لدبابات العدو، الأمر الذي أجبرهم على التوقف. وعلى الفور انصبت عليهم نيران مجموعتي الهاونات 82 ملم برمي سريع مع مدفعية الفرقة، وتم سحق الهجوم وتراجع من لم يُقتل منهم. كما هاجموا المرتفعات شمال وجنوب المضيق، وتمكنوا من احتلال مواطئ قدم فيها فقد أسقطوا موضع سريّة من الفوج المدافع عن المرتفعات جنوب مضيق مايخورة، وسريّة أخرى من الفوج المدافع عن شماله، وفشل الهجوم المعادي على مضيق كورة وانسحب مقاتلوهم إلى العمق، وفي قاطع اللواء الخامس تراجع العدو عن مضيق حجين تحت وطأة نيران الهاونات والمدفعية، لكن قوة معادية مشتركة من الدبابات والمشاة تمكّنت من اختراق الجناح الأيسر لمواضع الفوج المدافع على محور الطريق العام كيلان غرب - إمام حسن بعد إسقاط إحدى سرايا الفوج، واندفعت دباباتهم نحو كتيبة مدفعية اللواء

لتدميرها إلّا أن عناصر هذه الكتيبة العتيدة خفضوا سبطانات مدافعهم وشاغلوها بالرمي المباشر، ودمروا عددًا من دباباتهم، وهربت الدبابات الأخرى تاركة مشاتهم وحدهم، ووقع في الأسر من لم يُقتل منهم. كما هاجموا الخشم (الرأس أو السن) الأمامي لعارضة جك أون المسمّى «السن الساقط»، إذ كان قد سقط بأيدي الإيرانيين في معركة سابقة وأعيد استرجاعه فسمّي بهذا الاسم، وتمكنوا من السيطرة عليه واحتلاله، وأوقفهم الفوج المدافع عن باقي العارضة من تطوير هجومهم كما تمكَّنت القوة المتسللة في وادي جك ميدان من احتلال موضع الفصيل في المنطقة المشرفة على مضيق سرتاتان.

عاود العدو هجومه على مضيق مايخورة بقوة، وكنت أسمع آمر اللواء الذي كان يوجز لنا المواقف، وهو يئن تحت ثقل الهجوم والقصف الكثيف، يقول: «ها هم قد أوشكوا على الوصول إلى قوة المضيق»، وبعد قليل يصف لنا حالًا آخر، وبصوت أقوى يقول: «لقد دحرناهم وبدأوا يتراجعون»، فقررت أن أرسل إليه أحد أفضل ضباط المدفعية المقدّم علي عبد غزال مقدّم لواء مدفعية الفرقة لإدارة النيران في قاطع اللواء. وطوال النهار كان العدو يركز هجماته على مضيق مايخورة، والمناطق التي سقطت في قاطعي اللواءين، وتمكّن من إسقاط موضع سريّة أخرى في الفوج الذي يدافع عن المرتفعات بين كورة ومايخورة (نجاح العدو في هذا الاتجاه يجعله يندفع إلى تقاطع إمام حسن، ويصبح خلف (شمال) مواضع اللواء الخامس الذي يدافع في مضيق حجين، والطريق المؤدية إلى كيلان غرب، وعارضة جك أون).

في اليوم التالي دفعنا اللواء 39 ناقصًا فوجًا بهجوم مقابل على العارضة التي تقع بين مايخورة وكورة، واستطاع استعادة المواضع. وهاجمت سرايا المغاوير الموضع الساقط في الجناح الشمالي، وتمكنت من استعادته. دفعنا فوجًا من اللواء 39 إلى العقيد سلطان آمر اللواء الخامس، واستخدمه مع مغاويره في الهجوم المقابل، واستعاد السن الساقط، وكذلك سحق قوة العدو التي تسللت إلى ذيل عارضة سرتاتان. وفي اليوم الثالث كانت الفرقة قد دحرت هجوم العدو في القواطع كافة عدا عارضة الراقم 994 الذي لم نكن نشغله لكونه في أقصى الشمال الغربي، وإلى الخلف بمحاذاة النهايات الشمالية لمواضع الفرقة 12.

قبل المعركة كنت قد زرت قاطع الفرقة 12، ومن هناك كنت أستطلع مواضع اللواء الخامس على عارضة جك أون من هذا الاتجاه (التي يفصلها

وادي جك ميدان بعرض من 3 إلى 5 كلم عن مواضع الفرقة 12)، وكان الراقم 1155 الذي تحتله قوة من قطعات الفرقة يطل مباشرة على الوادي، وكان يربط القمة ببقية الموضع الدفاعي لقطعات الفرقة 12 مجموعة من الأسنان الصخرية، ونيسم رفيع على جانبيه قطوع حادة، عرضه لا يبلغ أكثر من بضعة أمتار.

كان موقف الفرقة 12 محرجًا حيث شنّ قائدها عددًا من الهجمات لاستعادة العارضة 1155، وكان يستخدم لواء مشاة في كل هجمة لمنطقة لا تستوعب أكثر من وحدة فرعية بتعداد سريّة أو فصيل. كان العدو يدافع عن القمة في مجموعة الأسنان التي تفصله عن الموضع الرئيس لقطعات الفرقة 12 التي ركّز فيها قناصته ورشاشاته المتوسطة، وفي الجانب الوحشي من العارضة المطلّة على الوادي توجد قطوع، مجموعة من الكهوف التي وضع فيها هاوناته، وكانت الفرقة تدفع اللواء الذي ينفّذ الهجوم بأجمعه إلى أقصى الأمام، وعندما يشرع في الهجوم تتقدّم الوحدة الأمامية التي لا يوجد مجال لانفتاحها على النيسم، وهو الممر الوحيد المؤدي إلى الأسنان والقمة. ويبدأ العدو بمشاغلتها بالقنص والرشاشات المتوسطة فتضطر إلى التوقف، وفي الوقت نفسه تبدأ هاونات العدو بالرمي المكثف على بقية وحدات اللواء المتكدسة خلف النيسم، وتوقع بها خسائر بالغة. ولم تستطع مدفعية الفرقة أو هاوناتها التأثير في هاونات العدو الموجودة في القطوع الخلفية للراقم وفي الكهوف، وفي أسبوع من المعارك على هذه الشاكلة تضررت ثلاثة ألوية ضررًا بالغًا وخرجت من المعركة.

زارني قائد الفيلق وقال إنه يحتاج إلى اللواء 39 ليتحرك إلى قاطع الفرقة 12 لاستخدامه في استرجاع الراقم 1155، قلت: «إن العميد طالع استخدم ثلاثة ألوية ولم يستطع استعادة الراقم، فماذا يضيف استخدام اللواء 39 عدا تدميره كبقية الألوية؟»، فألح وقال: «إن العميد طالع يقول لم يبقَ إلا القليل، ويستعيد الراقم»، فقلت له: «سيدي، إن طالع لم يرَ الراقم من قبل، إنه يدير المعركة من غرفة الحركات، وأنا زرت منطقة الراقم 1155 قبل المعركة لاستطلاع مواضع اللواء الخامس من ذلك الاتجاه، وأرى أن استرجاع الراقم 1155 يكون بعمل من جهتي، وليس بالهجوم المباشر من اتجاه الفرقة 12»، فقال: «كيف؟». كانت قد تولّدت عندي فكرة القيام بدفع قوة في وادي جك ميدان لقطع طريق إدامة قوة العدو في الراقم 1155، وإجباره على التخلي عنه. كانت مجرد فكرة أولية نتيجة الإخفاقات المتكررة للفرقة 12 في استرجاعه، فأخبرته بذلك ولم يوافق، وأصر

على تحريك اللواء 39 إلى الفرقة 12 فوافقت على مضض، وأرسلت بطلب العقيد الركن زهير يونس آمر اللواء وأخبرته بالواجب، وأكدت عليه العمل بالصيغ والأسس التي نعمل بها في الفرقة السابعة. وبعد مغادرة اللواء 39 سحبت اللواء 19 من العارضة التي كان يحتلها شمال كولينا ليكون احتياط الفرقة، وأمرت اللواء 38 الموجود في كولينا بتمديد جناحه الأيسر ليمسك مواضع اللواء 19.

اتصل بي قائد الفيلق وأخبرني بأن العقيد زهير آمر اللواء 39 لا ينفِّذ أوامر قائد الفرقة 12 العميد طالع الدوري، وأن ذلك قد يعرضه إلى أقسى أنواع المحاسبة، وطلب مني أن أذهب إلى زهير لحلّ هذا الإشكال. فذهبت إلى العميد طالع فأخبرني بأن زهير لا ينفّذ أوامره، وأنه قد يُعدم لهذا التمرد، فقلت: «تعال معي لنذهب هناك، ونرى الموقف على الأرض»، فقال: «أنت تعرف بأني قد أُصبت في معارك الجنوب، ولا أستطيع التسلق إلى تلك العوارض»، فقلت: «حسنًا كَلِّف أحد ضباط ركنك بالمجيء معي». فأرسل معي ضابط ركن وذهبنا معًا للقاء العقيد زهير، فقلت لزهير: «أوجز لي ما حدث»، فقال: «إن القائد يريدني أن أزجّ باللواء أجمعه في هجوم على الراقم، والمنطقة لا تتيح ذلك، وأخبرته بذلك مرارًا، ولكنه يصر على زجّ اللواء بهجوم شامل كما يقول، وذلك يعني تدمير لوائي كالألوية التي سبقتني». فقلت له: «تعال معي وضابط ركن الفرقة لنستطلع منطقة الراقم». وذهبنا وكنت أريد أن يرى ممثل الفرقة الموقف كما هو. وبعد الاستطلاع اقتنع بصحة موقف العقيد زهير فطلبت منه أن يشرح ذلك شخصيًّا لقائده. وعندما عدنا إلى الفرقة كان الفريق عبد الجبار الأسدي في انتظارنا مع قائد الفرقة فطلبت من ضابط الركن أن يبيِّن ما رآه، وما هي قناعته فتكلم الرجل بما رآه، وقال: «إن وجهة نظر العقيد آمر اللواء 39 صحيحة»، ولم يرُق ذلك للعميد طالع فأنّب ضابط ركنه. وكان الفريق عبد الجبار قائد الفيلق يتابع ما يدور من دون أن يعلق. أخيرًا قلت: «يا طالع إذا كنت لم تقتنع حتى الآن فتفضل معي كي نذهب معًا إلى منطقة الراقم لتقرّر في ضوء ما تراه»، فكرر حجة جرحه، وكيف أنه أُرسل للعلاج في ألمانيا، وبدأ يقص علينا كيف عولج هناك، وكنت أُراقب قائد الفيلق الذي كان يتلظى غضبًا. بعدها قال: «عميد نزار لنخرج لنشم بعض الهواء النقي»، وخرجنا. فقال لي: «ما هذا؟ أي نوع من البشر هذا الرجل؟ استلم منه الفرقة وأدر أنت المعركة»، فأجبته: «لا مانع لدي، أصدر لي الأمر بذلك». فسكت الفريق عبد الجبار، وأخذ يدخن بعصبية فقلت له:

«سيدي، سبق وأخبرتك أن استعادة الراقم 1155 تكون بقطع خطوط إدامة قوة العدو بالراقم بعمل من قاطعي»، فقال: «حسنًا لا مانع لدي، إعمل على ذلك»، وأخيرًا قلت له: «أريد منك أن تحمي العقيد زهير من قائد الفرقة 12»، فوعدني بذلك.

كان تنفيذ عملية التقرب غير المباشر من وادي جك ميدان وإحاطة العدو الذي يحتل الراقم 1155 في قاطع الفرقة 12 والراقم 994 في مؤخرة الجانب الغربي من فرقتي، يتطلبان العديد من التحضيرات، منها الهندسية والتعبوية وتهيئة القطعات. فمضيق سرتاتان الذي يفصل عارضة سرتاتان وامتدادها الجنوبي عارضة جك أون عن عارضة كيمكو شمال المضيق يجب أن يُجسّر من دون أن يشعر العدو الذي يمكن أن يكشف العملية التي نتوخى مباغتته بها، إلا أن طرف عارضة سرتاتان المقابل لعملية التجسير غير صالح لمسير الآليات والدبابات، وهناك أسنان لمسافة 500 أو 600م يجب تسويتها، كما ليس هناك طريق تربط العارضة 994 بغربها، وهناك نيسم قديم يمكن أن تسير عليه الحيوانات أو المشاة، ويستغرق الوصول إليها راجلين أكثر من ثماني ساعات. اتخذنا سلسلة من التحضيرات لمعالجة هذه المعضلات، فقمنا بنصب الجسر الذي يربط طرفي المضيق بالعمل ليلًا وتمويهه نهارًا، وكلفت سريّة هندسة اللواء الخامس بتسوية الأسنان الصخرية على الطرف الذي يربط الجسر بالعارضة. وعندما سألت آمر السريّة كم من الوقت تتطلبه تسوية الأسنان الممتدة إلى أكثر من 500م، قال: «أحتاج إلى أسبوعين». فقلت: «إن هذه سريّة هندسة اللواء الخامس أليس كذلك؟»، فقال: «نعم سيدي»، فقلت: «أريدك أن تنجز العمل بعد 48 ساعة من الآن». وتم إنجازه في الوقت الذي حددته. في أثناء ذلك أرسلت في طلب فصيل نقلية حيوانات (بغال) من سريّة نقلية حيوانات، الفرقة المتروكة في معسكراتها في السليمانية، لإيصال الإمدادات إلى القوة التي ستتعرض على الراقم 994، وشرعنا بجلب جهد هندسي من الفيلق، إضافة إلى الجهد الهندسي للفرقة لتوسيع النيسم المؤدي إلى الراقم لطريق تصلح لمسير الآليات.

كلّفتُ آمر اللواء 19 العقيد الركن قوات خاصّة عصمت صابر [146] بقيادة اللواء والقطعات التي ستلحق به للقيام بعملية التقرب والإحاطة من وادي جك ميدان. ألحقت به كتيبة الدبابات والفوج الآلي التابعين للواء المشاة الآلي 51 الذي كان يُشكّل في قاطع الفرقة وتحت إشرافها، وألحقت به أيضًا ثلاث سرايا مغاوير، وسريّة هندسة فأصبحت قوة الواجب تعادل

اللواءين. لم أكن مطمئنًا لجدارة طوائف (طواقم) كتيبة الدبابات التابعة للواء 51، إذ كان جلّهم من المستجدين بدباباتهم الجديدة والحديثة من طراز T55. كان لدينا في مرتفعات كولينا كتيبة دبابات قديمة، طوائفها وضباطها من ذوي الخبرة والتجربة، يسندون اللواءين 38 و19 بدباباتهم القديمة من الطراز T54 التي يصعب إنزالها من جبال كولينا، ويمكن أن تتعطل في أثناء تنفيذها الواجبات المقبلة لقِدَمها. فقررت قيام طوائفها باستلام دبابات الكتيبة الجديدة لتنفيذ الواجب بعد أن يتركوا واحدًا من طائفة الدبابة (هو الرامي ويسمّى بتعبير وحدات الدروع والمدفعية العراقية عدد واحد) في كل دبابة، وضابطًا واحدًا في كل سريّة في مواضعها في كولينا، وتنتقل طوائف وضباط الكتيبة الجديدة إلى كتيبة دبابات كولينا. هكذا أصبح لدينا كتيبة دبابات حديثة بطوائف مجربة لتنفيذ الواجب.

كان طول المحور الذي ستتقدم عليه قوة الواجب بين 23 و25 كلم، وتقع على امتداده عقد عدّة من المرتفعات المنخفضة والنياسم. استصحبت قبل التنفيذ آمري اللواءين الخامس والتاسع عشر، وآمر المدفعية إلى عارضة سرتاتان، وبدأنا استطلاع المناطق المشرفة على الوادي سيرًا باتجاه عارضة جك أون الذي تحتله قطعات من اللواء الخامس. كنت أُركز على انتخاب مواضع إسناد في المرتفعات التي كنا نستطلعها للقوة التي ستتقدم في الوادي، وبعد مسير كل مئاتٍ عدة من الأمتار أشير إلى آمر المدفعية الذي يتابع مسيرنا على الخريطة التي معه، وأطلب منه ومن آمر اللواء الخامس أن يضعا رشاشًا متوسطًا هنا أو دبابة هناك، ومفرزة من المشاة وسلاحًا ساندًا في هذه النقطة أو تلك. هكذا سيضمن إسناد القوة التي ستتقدم في وادي جك أون في حالة تعرّضها لأي عمل معادٍ، إلى أن وصلنا قريبًا من المنطقة التي سينتهي إليها رتل الوادي، وثبّتنا آخر نقطة إسناد. التفتُّ إلى الضباط الذين معي وقلت لهم: «الآن كسبنا المعركة».

أخبر الفريق عبد الجبار قائد الفيلق، وزيرَ الدفاع ورئيس أركان الجيش بالعملية التي نزمع القيام بها فقاموا جميعًا بزيارتنا، وذهبنا إلى مرصد الفرقة في عارضة كيمكو المشرفة على المنطقة، وكلفت آمر المدفعية أن يوجز الخطة لرئيس أركان الجيش، وقمت أنا بالإيجاز للوزير عن واجب القوة والتحضيرات التي قمنا بها لتنفيذه، فأبدى إعجابه بخطة العملية والإجراءات المتخذة، وعلّق بأن العمل بمجمله مبتكر وجريء وتمنى لنا التوفيق. لم أكن مقتنعًا بدفع القوة التي ستُكلف بواجب الراقم 994 على الطريق النيسمية التي يستغرق قطعها ساعات عدّة للقوة الراجلة للوصول

إليه، على الرغم من قيام الجهد الهندسي بتحسين النيسم المؤدي إليه مسافة لا بأس بها لسير العجلات. وفي غرفة الحركات قلت إني سأقوم بإنزال صولة جوية بالسمتيّات على الراقم 994 بمسافة تبعد بين 600 و700م عن مكان وجود العدو كي لا تُصاب السمتيّات بنيران قواته الموجودة في الراقم، فتحمّس المقدّم الركن برهان خليل لهذه الخطوة فكلفته بقيادة أربع سرايا مغاوير معززة بأسلحة ساندة لتنفيذ الصولة الجوية. وبعد إكمال التحضيرات كافة شرعنا في تنفيذ العملية فقام المقدّم برهان وقوته بالإنزال في منطقة الراقم 994 بإسناد نيران المدفعية والسمتيّات المسلحة فأجبرنا فيها العدو على الالتجاء إلى الكهوف والمغارات في المنطقة، وبعد الإنزال اشتبكت القوة مع العدو، واستطاعت التقدّم مئات عدة من الأمتار، ولما اشتدت المقاومة أوعزنا إليها بالتوقف وتحصين مواضعها، وكلّفنا المدفعية بصب نيرانها عليه.

في اليوم التالي ليلًا شرعت القوة الرئيسة بعبور جسر سرتاتان إلى وادي جك أون تتقدمها سرايا المغاوير. قامت مدفعيتنا بقصف العدو كي لا يكشف القوة أو يسمع حركة الدبابات في أثناء تقدمها، وقبل الفجر استقرت القوة في عقدة تقاطع الطرق التي أطلقنا عليها اسم W بعد أن اتخذت القوة إجراءات الغش لضمان أن لا يكشفها العدو. وفي ظهر اليوم بدء رذاذ المطر بالتساقط، وفي المساء كان المطر ينهمر بكثافة، وفي الساعات الأولى من الليل بدأ رذاذ من الثلوج بالسقوط. لم يقلقني رتل القوة الرئيسة الذي كانت طريق مواصلاته مفتوحة وفي الوادي يكون الجو أدفأ من الجبال، بل أقلقتني قوة المقدّم برهان التي كانت معلقة في الراقم 994 والمطر ينهمر عليها ثم الثلوج.

في عام 1979 كانت فرقتي تشنّ عملية لمطاردة المسلحين الأكراد في جبل قره داغ في محافظة السليمانية، وكان الفيلق الأول قد أرسل سريّتي مغاوير من الفرقة الثامنة في أربيل لمشاركة مغاويرنا في هذه العملية، وكان المغاوير يتحركون ليلًا لمباغتة المسلحين الأكراد، وفي تلك الليلة انهمرت أمطار كثيفة مع هبوب رياح قوية على جنودنا في العراء، ومع الصباح كان ثمانية من مغاوير الفرقة الثامنة قد لقوا حتفهم نتيجة الأمطار والرياح، وكان هذا درسًا استوعبناه. فاتصلت بالمقدّم برهان وسألته عن وضعية القوة. فأجابني: «إن البرودة شديدة، وإن الجنود مبللون»، فقلت له: «برهان هل تستطيع أن تسحب جنودك للعودة عن طريق النيسم من دون أن يشعر بك العدو»، فأجابني: «نعم أستطيع ذلك». قلت: «برهان أترك الأسلحة الساندة

في أماكنها، وهيّئ جنودك واسحبهم حالما أخبرك بذلك». أمرت العجلات بأدلائها أن تتحرك إلى الطريق النيسمية لملاقاة القوة ونقلها إلى المنطقة الإدارية للفرقة، على أن ترفع مصابيح العجلات الأمامية والخلفية كي لا يكشفها العدو، وأمرت مدير إدارة الفرقة بأن يحضر على الفور إلى المنطقة الإدارية، وأن تهيّئ مطابخنا وجبات طعام حارة للقوة، وأن تهيّئ حمامات السريّة الكيمياوية المياه الحارة لاستحمام الجنود، وأن تكون طبابة الفرقة موجودة لفحصهم، وأن تُهَيَّأ ملابس داخلية وجوارب جديدة وأحذية وبدلات ومعاطف جافة.

في تلك الليلة أرسلت أحد الضباط الإداريين إلى المستودعات المركزية في بغداد لجلب العباءات الخاصّة بالصنف الكيماوي التي تحميهم من التبلل بالمطر والثلوج. استدعيت آمر المدفعية وأخبرته بأني سأسحب القوة وأعيدها غدًا ليلًا، «وطوال هذه المدة أريد أن تكلف المقدّم علي عبد غزال مقدّم لوائك، ومعه ضابط جيد آخر، بأن يكون واجبهما رمي العدو في الراقم بنيران مدفع مصوبة في اتجاه أي حركة من أيٍّ من أفراده حتى لا يرفع أحد رأسه نهار الغد حتى عودة القوة، ولا مجال لأي خطأ أو تهاون في ذلك». وبعد إكمال هذه التوجيهات اتصلت بالمقدّم برهان وقلت: «اشرعْ الآن». بعد مسير ثلاث ساعات التقت القوة بالعجلات وانتقلت إلى منطقة الفرقة الإدارية بسلام. وفي اليوم التالي قام ضباط الركن وضباط التوجيه السياسي بزيارة قوة الراقم وتأمين حاجاتها، والتقيت جنودها وألقيت فيهم كلمة قصيرة، وفي المساء تحركوا للعودة إلى منطقة الراقم 994، وهم جاهزون لتنفيذ واجبهم بأفضل وجه.

تحركت قوة العقيد عصمت بقفزة أخرى في الليلة الماطرة بعد أن تركت كتيبة الدبابات وفوج المشاة الآلي ليكونا قاعدة أمينة في منطقة W، وقامت بقفزة أخرى في الليلة التي تلتها بعد أن تركت أحد أفواج اللواء ليشكل قاعدة أمينة فيها، وأصبحت في الليلة الثالثة خلف خطوط إدامة العدو. وفي منتصف الليل جاءت سيارتان للعدو من اتجاه كيلان غرب فاستوقفها اللواء وألقي القبض على من فيها ومنهم ضابطان. وفي فجر اليوم التالي بدأ اللواء ينادي جنود العدو الموجودين في منطقة الراقم 1155 بمكبرات الصوت داعيًا إياهم للاستسلام، لأن قواتنا أصبحت خلفهم وخطوط إدامتهم قد قطعت. كنت وآمر المدفعية وعدد من ضباط الركن نتابع ذلك، وفجأة هبطت غيوم واطئة، وبعد دقائق كان الوادي بأجمعه مغطى بالغيوم، ولم نعد نرى شيئًا فيه. كدت لا أُصدّق ما يجري فكل ما قمنا

به مهدّد بالفشل، إذ قد ينجح العدو بالتسرب ويفلت من قبضتنا، أو تأتي قوات من احتياطاته لضرب قوة الإحاطة، وأزعجني ذلك كثيرًا فقلت لآمر المدفعية: «سأذهب إلى مرصد الضابط المدفعي المجاور لأحاول أن أرتاح فأنا لم أنم في الليلة الماضية». كنت أتقلب على منام الضابط الراصد، وأنا أستعيد ما حدث، وكيف سنتعامل مع الموقف الذي طرأ خارج حساباتنا. لم تمرّ أكثر من 15 دقيقة حتى رنّ جرس الهاتف، وكان آمر المدفعية على الجانب الآخر، واعتذر عن إيقاظي إن كنت نائمًا، فقلت له: «أنا لم أنم بعد، ما الذي حدث؟»، فقال: «ممكن سيدي أن تخرج من المرصد رجاءً»، فقلت له: «لماذا؟». قال: «أرجوك يا سيدي اخرج، وانظر ما حولك». فخرجت ونظرت إلى الوادي، وكان أصفى من عين الغزال حيث اختفت كل الغيوم فجأة كما بدأت فأسرعت إلى المرصد، وكنا نرى جنود العدو بالمئات يتركون مواضعهم، ويهيمون في أرجائه، ومعظمهم من دون أسلحتهم. فأمرت آمر المدفعية بمشاغلتهم بالرمي السريع، وكانت مجموعات منهم تهرب بهذا الاتجاه أو ذاك، وعندما تصلهم رشقة قنابل يتراكضون إلى الاتجاه الآخر كأنهم قطعان خراف، فطلبت من الفيلق أن يرسل إليّ سريّة أو سريّتين لجمع هؤلاء الهائمين قبل أن يختفوا في أرجاء الوادي الشاسعة، لكن الفيلق اعتذر عن عدم تيسرها. وفي اتجاه الراقم 994 كنا نشاهد جنودنا من المغاوير يندفعون إلى الكهوف، وبعد قليل يخرج جنود العدو بالعشرات من كهوفهم رافعي الأيدي مستسلمين، فاستعادت قطعات الفرقة 12 الراقم 1155 من دون مقاومة.

عدنا إلى مقرّ الفرقة، وكان قائد الفيلق الفريق عبد الجبار الأسدي في مقري يتابع الموقف، وكان تاريخ ذلك اليوم 5/1/1982، أي كنا سنحتفل في غده بذكرى تأسيس الجيش، فأرسلنا برقية أهدينا بها هذا النصر الكبير إلى جيشنا العتيد بهذه المناسبة.

قام وزير الدفاع الفريق عدنان خير الله بزيارتنا في مقرّ الفرقة، وأبدى رغبته في زيارة قوة المقدّم برهان في الراقم 994، وكان الجوّ غير مستقر والأمطار تهطل بين وقت وآخر، ومع ذلك أصر الوزير على الزيارة وكانت السمتيّة التي أقلتنا تهتز بشدّة وتتأرجح يمينًا وشمالًا، ونجحنا أخيرًا في الهبوط على الراقم وكان المقدّم الركن برهان ومقاتلوه من المغاوير في استقبالنا، وكُرّم المقدّم برهان بأمر القائد العام برتبتين، وقام الوزير بوضع رتبة عميد ركن على كتفيه، وألقى الوزير كلمة في مراتب القوة وضباطها امتدح فيها أداءهم المتميِّز في المعركة.

قام القائد العام وبصحبته قائد الفيلق العميد الركن ميسر الجبوري مدير الحركات العسكرية بزيارتنا في مقرّ الفرقة في كوهينة، وفي عريشة الاستراحة على ضفاف النهير إلى جانب جسر القعقاع. جلسنا مع الرئيس ومرافقيه من ضباط الأركان العامة، وضباط ركن الفرقة وآمر المدفعية، والرفيق فرحان حمادي أمين سرّ التنظيم الحزبي في الفرقة. وقمت بإيجاز المعركة والتحضيرات التي قمنا بها للقائد العام، وكان واضحًا أنه يسمع تفاصيل لم يكن قد اطلع عليها. وكذلك قام الرفيق فرحان، وآمر المدفعية بالتطرق إلى بعض المفارقات التي حدثت في أثناء المعركة. وكان الرئيس يستمع بتمتع وإعجاب، ويعلّق بما يدل على إعجابه وفخره بما تحقق على أيدي رجال فرقتنا في المعركة. أخيرًا قال: «عميد نزار لقد قضيتَ في هذه الفرقة ما يقارب الثلاث سنوات، وقد آن الوقت لأن ترتاح قليلًا، وتُنقل إلى إحدى المديريات». فقلت: «سيدي الرئيس لم أشعر بأي تعب وإرهاق في قيادتي هذه الفرقة، ومتعتي في أن أكون فيها وبين رجالها». فرد الرئيس: «عميد نزار أترك للآخرين فرصة الحصول على تجربة كالتي حصلت عليها، وسيكون بديلك العميد الركن ميسر الجبوري». تعشى الرئيس وضيوفه معنا وقبل أن يتركنا سألت العميد ميسر: «أي مديرية نُقلت إليها؟»، فأجابني: «ستعرف ذلك في ما بعد». بعد أقل من أسبوع، وصل أمر نقلي إلى منصب مدير مديرية التطوير القتالي فودعت الفرقة وتشكيلاتها. وفي طريقي إلى بغداد صحبني الرفيق فرحان حمادي الذي بكى بحرقة، ولم أفهم سبب ذلك إلا بعد وقت طويل، وسأسرد الآن تفاصيل ذلك.

بعد طردي العقيد ثابت أمين سرّ تنظيم الحزب للفرقة السادسة من قاعة الاجتماع، بعد أن قاطعني في المؤتمر الذي عقده قائد الفيلق قبل المعركة الأخيرة في عارضة كولينا، بحضور عضو المكتب العسكري أمين سرّ التنظيم للحزب في الفيلق الرفيق كاظم نعمة، رفع الرفيق ثابت تقريرًا إلى المكتب العسكري، واعتمده بحماسة الرفيق كاظم نعمة الذي طلب اتخاذ أشد الإجراءات للحفاظ على هيبة الحزب، وخوفًا من تكرارها من قادة آخرين، فرفع المكتب العسكري توصية إلى القائد العام بمحاسبتي وإحالتي على التقاعد، إلا أن القائد العام رفض توصية الحزب، واكتفى بنقلي من قيادة الفرقة إلى إحدى دوائر وزارة الدفاع.

المقاتلون العرب

كان من المعروف عن الجيش العراقي أنه يهبّ لنجدة أشقائه العرب في

كل ملحمةٍ من دون أن يسأل لماذا وكيف؟ ولم نحتج في العراق إلى قوات عربية إلا في حالتين محدودتين: أولاهما في عام 1963 عندما أتت قوات سورية بقيادة العقيد فهد الشاعر وتجحفلت مع قواتنا في شمال الوطن، والثانية عندما قدمت قوة من الجمهورية العربية المتحدة (مصر) إبان توقيع اتفاق الوحدة السياسية مع الجمهورية العربية المتحدة بين الرئيسين جمال عبد الناصر وعبد السلام عارف في عام 1965، حيث أُرسلتْ قوة كتيبة دبابات بإمرة المقدّم الركن أحمد عرابي واستقرت في معسكر التاجي شمال بغداد [147] ، إلّا أن دور القوة المصرية لم يكن قتاليًا بل دورًا رمزيًّا يشير إلى قرب توحيد القطرين في دولة واحدة. لكن الحال اختلف الآن في أوضاع الحرب الضروس التي تخوضها القوات المسلحة العراقية على الجبهة الشرقية، الجناح الشرقي للوطن العربي دفاعًا عن العراق وعن الأمة، إذ شاركنا في هذه الحرب الأشقاء الأردنيون واليمنيون، وسأبيِّن في ما يلي انطباعاتي عن هذه التجربة القتالية بسلبياتها وإيجابياتها.

- الأردنيون

في أحد الاجتماعات ذكر القائد العام الرئيس صدام حسين أن الملك حسين ملك الأردن وعد في إحدى زياراته إلى العراق في السنة الأولى من الحرب بإرسال فرقة أردنية للمشاركة في القتال مع إخوانهم العراقيين. والتفت القائد العام إلى الفريق شنشل وقال: «أتذكر ذلك أبو مثنى؟»، فردّ عليه بـ «نعم سيدي». واستمر القائد العام في روايته فقال: «أوعزت إلى رئيس أركان الجيش أن يرسل وفدًا إلى الأردن برئاسة العميد الركن ميسر الجبوري، مدير الحركات العسكرية آنذاك، لترتيب حركة الفرقة الأردنية وتأمين متطلّباتها اللوجستية في أثناء التنقل وبعد وصولها».

قابل الوفد الفريق فتحي أبو طالب رئيس أركان الجيش الأردني الذي أبدى دهشته لما سمعه من الوفد العراقي وقال: «فرقة، أي فرقة؟ لا يمكننا إرسال فرقة وهذا موضوع لم يناقش معي من قبل. الفكرة هي أن نرسل بعض المتطوِّعين، وإرسال فرقة يعني أننا دخلنا الحرب معكم. إن مشكلتنا نحن مع إسرائيل وليس مع إيران». عاد الوفد إلى العراق وأخبر القائد العام بذلك، وكان رده: «نحن لم نطلب منهم ذلك، وأرسلتكم في ضوء تعهّد الملك حسين. وفرقة أو غيرها هي نقطة في بحر الحرب التي نخوضها». في ما بعد أرسلوا نحو 2000 من المتطوِّعين، وكان الملك حسين موجودًا في بغداد، فخرج مع الرئيس لاستقبالهم فهزجوا وهتفوا ودبكوا ثم

هجموا على الملك والرئيس لتقبيلهما واحتضانهما. وكان واضحًا أنهم عناصر غير منضبطة ولا يصلحون للقتال، فأرسلتهم الأركان العامة إلى قيادة الفيلق الثاني في القاطع الأوسط لتدريبهم والاستفادة منهم. وفي مقرّ الفيلق أعادوا ترتيبهم في ثلاثة أفواج، وأرسلوا فوجًا إلى قاطع الفرقة 12، وفوجين إلى قاطعي، فأسكنتهم في المنطقة الإدارية للفرقة وهيأت لهم متطلبات التدريب. جاء أحد ضباط ركني وأخبرني بأن أفراد الفوجين الأردنيين قد تمردوا على ضباطهم الأردنيين وكانوا جميعهم من المتقاعدين، ويرفضون الخروج إلى التدريب، ويريدون الفتك بضباطهم، وأن الضباط محاصرون الآن في غرفهم تحت حماية بعض الأفراد من أقاربهم وعشائرهم. ذهبت مع جنود حمايتي إلى معسكر الأردنيين، وعندما شاهدوني مع قوة الحماية تفرقوا وعادوا إلى خيامهم. فجمعت ضباطهم لأعرف منهم ما حدث، وما أسباب هذه الفوضى، فأخبروني أن المشكلة هي أن بعض هؤلاء من نزلاء السجون، وأن الملك قد أصدر أمرًا بإعفاء من يتطوّع منهم للقتال في العراق، فخرجوا من السجون إلى العراق مباشرة مع المتطوِّعين، وأن بعضهم سُجن لعمالته لإسرائيل وسورية، وآخرين هم من المجرمين والقتلة، وهؤلاء هم سبب الفوضى، والتحريض. فقلت: «هل تعرفونهم، وهل لديكم أسماؤهم؟»، فقالوا: «نحن نعرفهم، ولدينا قوائم بأسمائهم»، فطلبتها وكانوا نحو 200 شخصٍ، وقلت: «هل لديكم آخرون ممن لا يصلحون للقتال لوضعهم الصحي، أو لأي سبب آخر»، فأعطوني قائمة تضم نحو 50 شخصًا، فاتصلت بالفيلق وطلبت إرسال خمس عجلات نقلٍ من المخصصة لنقل مجازي الفيلق، وجمعت هؤلاء وشحنتهم تحت حماية مسلحة، وكانت أوامري لآمر قوة الحماية التي تحرسهم أن يتوجّهوا إلى الحدود العراقية - الأردنية من دون توقف، وأن يسلموهم إلى رجال الحدود الأردنيين مع توصية بأن هؤلاء غير مرغوب فيهم، ويُمنعون من العودة إلى العراق. وفي منطقة الحدود اتصلوا بالأركان العامة حيث تفاجأوا بهذا الإجراء الذي لم أستحصل للقيام به على أي موافقة من الجهات المعنيّة في وزارة الدفاع والقيادة العامة، فأخبرتهم بخطورة ما قام به هؤلاء، وخلفياتهم الإجرامية والتجسسية، وبعد فترة انتظار أتت موافقة القيادة العامة، وعبروا الحدود من دون رجعة.

بقي من المتطوِّعين الأردنيين نحو الألف، فأعدتُ تنظيمهم في فوجين، أحدهما مشاة آلي، إذ كان هناك عددٌ من الضباط المتقاعدين الأردنيين ممن كانوا في وحداتٍ آلية خلال خدمتهم في الجيش الأردني، وكنت أعلم بوجود عجلات مدرّعة أميركية قديمة ومستهلكة من نوع M113 في

مستودعات الهندسة الآلية العسكرية، فطلبت من اللواء جوهر العزاوي، صديقي ومدير الهندسة الآلية الكهربائية، تصليحها وتأمين قطع الغيار لها، وكانت حاجتي هي أربعين عجلة مدرعة. وشرعنا في تدريبهم على الرماية، وركّزنا على الضبط والربط، وأجرينا لهم تمارين قتال، وأنهينا التدريب بتمرينين بالعتاد الحقيقي، أحدهما لفوج المشاة، والآخر لفوج المشاة الآلي بعجلاتهم المدرعة. ولغرض تطعيمهم [148] للمعركة أعطينا فوج المشاة واجبًا دفاعيًّا مع قطعاتنا في زين القوس، وأبقينا فوج المشاة الآلي احتياطًا للهجمات المقابلة، ولما عادوا بعد مدة إلى الأردن كانوا جنودًا حقيقيين.

- اليمنيون

اقترح الرئيس اليمني السابق علي عبد الله صالح إرسال ألوية من الجيش اليمني تباعًا إلى العراق للمشاركة في الحرب، وتبدّل كل ستة أشهر، وهكذا كان، إذ كانت تُرسل بالطائرات فنجهّزها ونسلّحها وكان مجموع ما أُرسل ثمانية ألوية. عندما وصل اللواء الأول اليمني كانت ملاحظاتنا الأولية هي ضعف انضباط جنودهم، وقلة ثقافة ضباطهم ومعارفهم، وأدهشنا ما عرفناه لاحقًا من أن ولاء الجنود وطاعتهم هما للضباط الذين من قبيلتهم، ولا سلطة لهؤلاء الضباط على الجنود من القبائل الأخرى. وكما في الحالة الأردنية أعدنا تدريبهم وتهذيبهم [149] وعلّمناهم الضبط والربط. وفي نهاية الأشهر الثلاثة من التدريب والتهذيب وضعناهم في المناطق الخلفية من الموضع الدفاعي للفرقة، وعاد اللواء إلى وطنه بعد انتهاء الأشهر الستة، واستلمنا لواءً آخر فكرّرنا ما فعلناه بسابقه، وكان ذلك ذكاءً من الرئيس علي عبد الله أن نقوم بتدريب جيشه تباعًا تحت شعار المشاركة القومية في المعركة [150] .

- السودانيون

أرسل النظام السوداني لواءً تدرّب في القاطع الأوسط، وأُعيد إلى بلده قبل إكمال تدريبه للحاجة إليه في السودان آنذاك.

- المصريون

وضع الفيلق بإمرتنا قاطع جيشٍ شعبي من المتطوّعين المصريين العاملين في العراق، وكان معظم أفراده قد أمضوا الخدمة الإلزامية في بلدهم، وكان انضباطهم جيدًا وكذلك إطاعتهم الأوامر، ووضعناهم لمسك عارضة على

طريق خانقين - مندلي بعيدًا عن الجبهة.

في عام 1981 تعاقد العراق مع الحكومة المصرية لتزويدنا بمئة دبابة روسية ت T54، وكان في استقبالها في الميناء لجنة من ممثلي مديريات التسليح والتجهيز الهندسة الآلية الكهربائية والدروع لغرض فحص صلاحيتها ومطابقتها شروط العقد، وعندما أُنزلت من البواخر تعطّل معظمها بعد سيرها بضعة أمتار، ورفضت اللجنة استلامها وأخبر أعضاؤها رئيس أركان الجيش عبد الجبار شنشل أن الدبابات لا تطابق المواصفات التي على أساسها تم التعاقد على شرائها وأنها مستهلكة، والأنكى من ذلك أن أسعارها أعلى من أسعار الدبابات السوفياتية الجديدة من الطراز نفسه التي كان يجهِّزنا بها الاتحاد السوفياتي، ولذلك تقرر رفضها، فذهب رئيس أركان الجيش إلى القائد العام وأخبره بأن الصفقة مخالفة لمواصفات العقد، وأنها مستهلكة، ومعظمها عاطل من العمل ويرى إعادتها فردَّ عليه القائد العام: «استلموها وأودعوها مستودعات المواد المستهلكة، وادفعوا لهم مبلغ العقد كاملًا».

في الشهر الثاني من عام 1982 التحقت بمنصبي الجديد في مديرية التطوير القتالي، وبعد أسبوع من التحاقي صدر أمر من القائد العام بمنحي قِدَمًا لمدة سنة واحدة للدور البارز في قيادتي للفرقة السابعة في معركة كيلان غرب. وبعد ثلاثة أيام رنّ جرس الهاتف، وقال عامل البدالة: «السيد الرئيس يطلبكم سيدي». سألني الرئيس عما أقوم به في المديرية فقلت: «إنني أحاول نقل تجربة الحرب، وجعلها الأساس الذي يقوم عليه عمل المديرية في المرحلة المقبلة»، فسأل الرئيس: «هل هناك أي حاجات نستطيع مساعدتك فيها؟». فأجبته أنني أحتاج إلى بعض ضباط الركن من الآمرين الذين أُصيبوا في الحرب، وهم الآن خارج الوحدات الفاعلة، فقال الرئيس: «سنقوم بنقل بعضهم على الرغم من أنك تعرف موقفنا الحرج»، فقلت: «إنني أكتفي ببعض ممن لا يسمح لهم وضعهم الصحي بالخدمة في الجبهة سيدي».

X العقيد الركن صلاح القاضي رُقي في بدايات الحرب إلى رتبة عميد ركن، وتسلم قيادة الفرقة الخامسة الآلية التي كانت تقاتل في القاطع الجنوبي، وبعد فترة قصيرة رُقي مرة أخرى إلى رتبة لواء ركن، وتسلم قيادة الفيلق الثالث في القاطع الجنوبي من ساحة العمليات، وحمّل مسؤولية سقوط مدينة المحمرة بيد العدو، وبعد محاكمة قصيرة أُعدم، وعرفت عنه شجاعته وصراحته، وأُعدم معه العميد الركن جواد أسعد شيتنا قائد الفرقة

الثالثة المدرعة، وهو من الضباط المتميِّزين والمعروف أيضًا بشجاعته وصدقه، وهو ابن الشيخ أسعد شيتنا أحد أهمّ رؤساء العشائر الكردية الموالين للسلطة في قضاء راوندوز من محافظة أربيل، والعدو اللدود للملا مصطفى البرزاني.

X الصنف مصطلح يطلق في القوات المسلحة العراقية على القوات المقاتلة والمعاونة مثل الدروع والمدفعية والمخابرة وهو ما تشير إليه جيوش عربية أخرى بمصطلح (السلاح)، أما الخدمات فهي تعني وحدات الإسناد اللوجستي (الميرة والإدارة) كالطبابة والتموين والنقل والهندسة الآلية الكهربائية وما إلى ذلك.

X لم يُنقل ما تكلمت به إلى الرئيس، وذلك لعدم التجرؤ على تجاوز وزير الدفاع عدنان خير الله، وإلا لكان من الممكن أن أُحاسب على معارضتي لحرب مقبلة لم نكن مستعدين لها.

X مهنة الميدان تعبير يقصد به حرَفية التعامل مع الأرض والتضاريس من جانب الجنود، بما يؤمّن نجاح الفعل العسكري المخطط. ويعني مصطلح التعبئة والتعبوي، التكتيك والتكتيكي، في المصطلحات العسكرية لجيوش عربية أخرى لا تزال تستخدم هذا التعبير على الرغم من إقرار معجم المصطلحات العسكرية الموحد الصادر عن جامعة الدول العربية للمصطلح العراقي.

X الملبند تعبير كردي يعني قوة حرب عصابات تعادل تشكيلًا قتاليًا في حجمها وليس في تنظيمها أو واجباتها القتالية.

X هو السيد محمد توفيق، وهو الآن عضو المكتب السياسي لحركة التغيير الكردية المنشقة عن الاتحاد الوطني الكردستاني.

X كانت الحرب ستشن في أيلول/سبتمبر، ويبدو أن الوزير لم يكن يريد أن أكون خارج البلاد عند شنها، ومن المفيد الإشارة إلى أن منح الإجازة الاعتيادية خارج العراق من صلاحيات وزير الدفاع لآمري الوحدات والتشكيلات والفرق والفيالق وللضباط من رتبة مقدّم فأعلى.

X وردت شهادة آكوبوف في فيلم وثائقي بثه تلفزيون BBC البريطاني لمناسبة مرور ثلاثين عامًا على اندلاع الحرب العراقية - الإيرانية. للاطلاع على التفاصيل انظر الرابط:
<www.alhiwar.net/ShowNews.php?Tnd=10172>

X يوضح هذا الرد نفيًا لأسطورة أن العراق شن الحرب على إيران بالتنسيق مع الولايات المتحدة الأميركية ولمصلحتها. انظر الرابط السابق.

X انظر الرابط السابق.

X أحد أقضية محافظة السليمانية، يقع إلى الشمال منها، وبمحاذاة الحدود الإيرانية، مقابل مدينة بانة الإيرانية.

X تقع مدينة المحمرة (يسميها الإيرانيون خرمشهر)، على ملتقى نهر الكارون بشط العرب. كانت عاصمة إمارة كعب العربية التي قضى عليها رضا شاه باعتقاله آخر أمرائها الشيخ خزعل بن جابر بن مرداو الكعبي بمكيدة رتبها مع البريطانيين، وأسره في طهران حتى وفاته في عام 1936.

X قاتلت عناصر متطوِّعة من مجاهدي خلق مع القوات الإيرانية في مدينة المحمرة، واستمر موقف مجاهدي خلق هذا حتى انسحب العراق إلى الحدود الدولية في عام 1982، عندئذٍ حصلت اتصالات بين الطرفين توّجت باتفاق استراتيجي أمّن العراق بموجبه لمجاهدي خلق ملاذًا آمنًا وحرية حركة في استهداف النظام الإيراني الذي كان عدوًا للطرفين.

X كان المقدّم الركن عبد الله الحديثي ضابط الركن الثاني في مقرّ الفرقة الثانية في عام 1964 عندما كنت مرافقًا لقائدها الركن إبراهيم فيصل الأنصاريّ آنذاك.

X المَنَعة هي استحكام عسكري ينشأ من الخرسانة المسلّحة والصخور ويستخدم لغايات دفاعية كما هو واضح من استحكامات بهذا الشكل تلاحظ على الطرق في مداخل المدن والمعسكرات والمواقع ذات الأهمية الحيوية.

X جحفل المعركة (Group Battle) هو تشكيل عسكري ميداني يؤلَّف وفق متطلبات المعركة من قوة مختلطة من الدروع والمشاة والمدفعية والهندسة بحيث يشكل قوة متوازنة قادرة على التنفيذ اعتمادًا على مواردها القتالية بشكل رئيس.

X كان العميد الركن عبد الستار المعيني قائدًا للفرقة الرابعة.

X الدكتور عبد الرحمن قاسملو أكاديمي وسياسي كردي إيراني زعيم الحزب الديمقراطي الكردستاني الإيراني، كان كثيرًا ما يلجأ إلى العراق عند اشتداد الضغط الإيراني عليه. استهدفته الاستخبارات الإيرانية واغتالته في فيينا بالنمسا في تموز/يوليو 1989.

X كان ابن عمي الرائد الركن غضبان الخزرجيّ ضابط ركن في اللواء المدرع 43 من الفرقة التاسعة، أُسر في هجوم العدو على الفرقة التاسعة بقيادة العميد الركن طالع الدوريّ في الكرخة في 6 كانون الثاني/يناير 1981. وعذّبه الإيرانيون بألوان شتى، الأمر الذي أفقده عقله، وتوفي في معتقلات العدو ولم تُعاد جثته إلى الوطن.

X رأس الجسر: مصطلح عسكري يعني المنطقة الأولى التي تنجح قوات العبور بمسكها في الضفة البعيدة والتي تعد فورًا لتكون قادرة على الدفاع عن نفسها وتتولّى القوات المعقبة توسيع هذه المنطقة والانطلاق منها لتحقيق الهدف من العبور. كانت مناطق الضفة الشرقية لقناة السويس في حرب تشرين 1973 رؤوس جسور مثالية وكذلك رأس الجسر على الضفة البعيدة من بحيرة الدفرسوار في الثغرة الشهيرة التي أحدثها شارون في المنطقة الفاصلة بين الجيشين الميدانيين الثاني والثالث في الحرب نفسها.

X كان آمر فصيل في الفوج الثاني قوات خاصّة الذي كنت آمره بين عامي 1971 و1974.

X الهجوم الصامت يُنفّذ من دون إسناد مدفعي، وليلًا لتحقيق المباغتة.

X أطلقنا عليها تسمية المَنعَة لمناعتها، ولوجود عدد من الكهوف فيها ويدعوها الإخوة العسكريون المصريون «النقطة الحصينة».

X العميد الركن كامل عبد اللطيف أحيل على التقاعد في عام 1983 ثم اعتقل في عام 1985 وأُعدم بتهمة تهجّمه على شخص الرئيس.

X الرازيت جهاز رادار لمتابعة حركة مشاة العدو. امتاز بالدقة والقدرة على استكناه مناطق الحركة المعادية والتأشير إليها. اشتُريت هذه الأجهزة من سويسرا في أثناء الحرب، ويمكنها متابعة تحركات العدو حتى 40- 50 كلم للآليات، و10 - 15م للأشخاص من أصوات ووقع أقدام الجنود المعادين أو حركة آلياتهم حتى ولو كانت محجوزة بمرتفعات، والرؤية غير متبادلة مع مواقع هذه الأجهزة، وتنعكس أصوات هذه التحركات على شاشات الأجهزة ويتابعها المشغّلون.

X العقيد الركن قوات خاصّة عصمت صابر محمد، تركماني من كركوك، يتميز بالشجاعة الفائقة والأخلاق الرفيعة والانضباط الشديد. وكان قبل الحرب معلمًا في مدرسة المظليين، وبعدها آمر جناح التدريب، وهو من أبطال القفز الحر بالمظلات على المستوى الدولي. عمل في الحرب في مناصب آمر اللواء 19، وقائد الفرقه الرابعة، وفي حرب الخليج 1991 كان قائد قوات بمستوى الفيلق، كما شغل منصب مدير الحركات (العمليات) العسكرية. أُعدم بعد نهاية الحرب بتهمة سحب مقرّ القيادة من دون أمر، وذلك ما ثبت عدم صحته بعد ذلك.

X ترقى المقدّم الركن أحمد عرابي في سلم القيادة في مصر حتى تسنّم منصب رئيس الأركان العامة في عهد الرئيس السادات، ولقي حتفه مع عدد من ضباط ركنه في حادث سقوط طائرته وهو في مهمة رسمية.

X تطعيم المعركة تعبير يستخدم في القوات المسلحة العراقية ويعني زجّ الجنود المتدربين، أو القطعات الموجودة قيد التدريب في تمرين قتالي يمثّل أجواء معركة حقيقية من ناحية التعرض للمواقف والمخاطر لكسر حاجز الخشية والخوف من المعركة لديهم.

X التهذيب مصطلح في القوات المسلحة العراقية يعني تعليم الجندي مفردات الثقافة العامة، وإدخاله مدرسة محو الأمية أو إكمال تعليمه المدرسي. وكان يخصص لها وقت بعد العودة من ساحة التدريب.

X من المفيد الإشارة إلى أن هذه ليست المرة الأولى التي قام فيها الجيش العراقي بإسداء المعونة التدريبية للجيش اليمني، حيث كانت أول مرة في عام 1939 عندما ابتعثت بعثة عسكرية عراقية بقيادة العقيد الركن إسماعيل صفوت (اللواء الركن في ما بعد) وفيها مجموعة من الضباط وضباط الصف العراقيين تولت تدريب الجيش اليمني حتى تقرر سحبها بعد أربع سنوات تقريبًا وتركت وراءها الشهيد جمال جميل الذي شارك في ثورة 1948 ضد الإمام أحمد وأعدم بسبب ذلك، وهو من صاح بالقول المشهور عند إعدامه «أحبلناها وستلد» متنبئًا بثورة سبتمبر 1962 التي قضت على حكم الإمامة. ثم أُرسلت بعثة عسكرية كبيرة أخرى في عام 1990 عندما كنت رئيسًا لأركان الجيش تولت إعادة تنظيم القوات المسلحة اليمنية وتدريبها.

الفصل التاسع: معركة سقوط المحمرة وتداعياتها

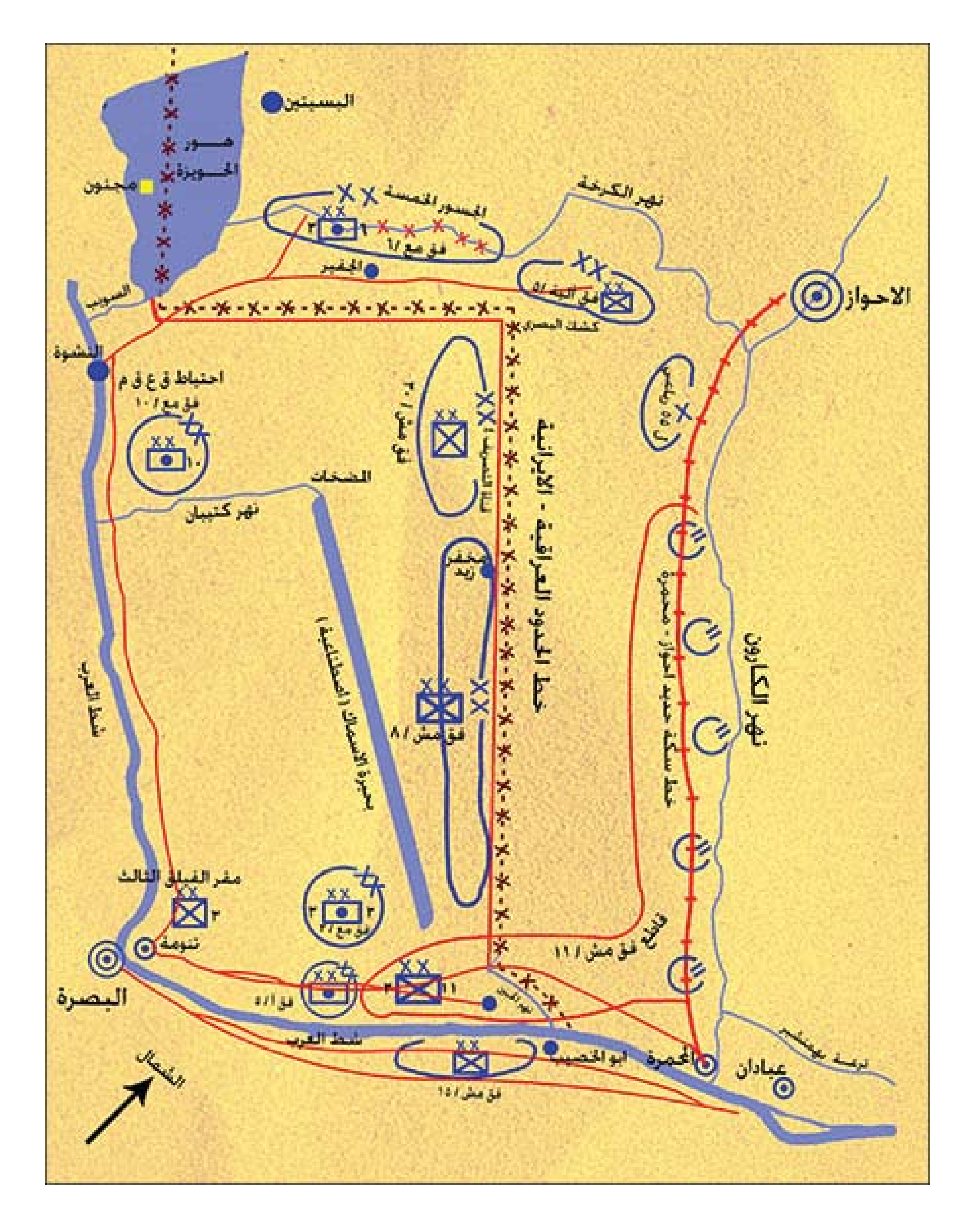
الموقف العام

تحول الجيش العراقي إلى الدفاع بعد انتهاء المعارك التعرضية في عموم الجبهات، وكان الإيرانيون قد شنوا في عمليات أطلقوا عليها اسم «الفتح المبين» هجومًا فجر 22/3/1982 من الاتجاه الغربي لمدينة الشوش ومن جنوب ديزفول على قطعات الفيلق الرابع لإجبار القوات العراقية على التخلي عما تبقى منها على الأرض الإيرانية. وخلال اليومين الأولين حاولت القوات الإيرانية تطويق فرقة المشاة الآلية الأولى والفرقة المدرعة العاشرة، وبعد أربعة أيام من القتال الشديد تمكّنت الفرقتان من الانسحاب بعد تكبّدهما خسائر كبيرة، لكن معظم ألوية المهمات الخاصّة التي بإمرة الفيلق، والتي كانت تدافع في مواضعها وقعت في الأسر لعدم تيسر وسائط النقل لديها. وتقدّمت القوات الإيرانية في هذا التعرض مسافات تتراوح بين 30 و40 كلم، وأصبحت على بعد 15 كلم من الحدود مع العراق في بعض المناطق.

بعد تشكيل الفيلق الرابع وتولّيه مسؤولية الحدود الدولية في قاطع ميسان، أصبحت مسؤولية الفيلق الثالث ومقرّه البصرة تبتدئ من جنوب هور الحويزة بموازاة القرنة ثم جنوب البسيتين، وامتداد نهر الكرخة والخفاجية، ومشارف مدينة الأحواز حيث أبنية الكلية العسكرية الإيرانية، والانعطاف جنوبًا على الضفة الغربية لنهر الكارون حتى المحمرة.

الشكل (9 - 1)

الموقف العام ودفاعات الفيلق الثالث، 1981 - 1982



كانت فرق الفيلق الثالث تحتل قواطعها الدفاعية كما يلي:

أ. الفرقة المدرعة التاسعة، ويمتد قاطعها من نهر الكرخة والخفاجية إلى أقصى شمال قاطع الفيلق. سُحبت لاحقًا.

ب. الفرقة المدرعة السادسة قاطعها خلف قاطعي الفرقة المدرعة التاسعة والآلية الخامسة.

ج. الفرقة الآلية الخامسة قاطعها جنوب شرق نهر الكرخة، وإلى مشارف مدينة الأحواز والانعطاف جنوبًا مع نهر الكارون حتى حدود مسؤولية الفرقة المدرعة الثالثة.

د. الفرقة المدرعة الثالثة قاطعها من مدينة الأحواز حتى نهر شطّ العرب، ومن ضمنها مدينة المحمرة. وكانت دفاعاتها غير متصلة بل اعتمدت مسك قواعد بقوة فوج مشاة معزز بالدروع والمدفعية لكل قاعدة، عددها خمس قواعد تمتد على مسافة 55 كلم وسُميت بالقواعد الخمسة، وتم إشغالها من جانب لواء المشاة 117، واللواء ذي التنظيم الرباعي (فوجا مشاة، وكتيبتا دبابات)، وكانت كتيبة الاستطلاع منفتحة لمراقبة تحركات العدو، وتقع كل دفاعات الفرقة على نهر الكارون.

هـ. تم تحرير الفرقة المدرعة الثالثة، وكُلفت فرقة المشاة 11 بمسك قاطعها، وأصبحت الفرقة المدرعة الثالثة احتياطًا للقاطع خلف سكة حديد (الأحواز - المحمرة) ومهمتها القيام بالهجوم المقابل حال عبور العدو نهر الكارون من هذه المنطقة، على أن تمسك خطًا دفاعيًّا خلف سكة الحديد الأحواز - المحمرة لمنع العدو من التسلّل إلى مواضع الفيلق على الحدود، وأعد الموضع الدفاعي، وأجرت الفرقة العديد من الممارسات على الهجوم المقابل.

و. وفي الضفة الغربية من شطّ العرب كانت فرقة المشاة 15 في أبو الخصيب مسؤولة عن شطّ العرب من البصرة إلى الفاو.

ز. وفي قاطع الفيلق في الخلف تتموضع الفرقة المدرعة العاشرة، وهي احتياط القيادة العامة للقوات المسلحة في قاطع الفيلق.

الموقف الخاص

تُعتبر مدينة المحمرة الهدف الحيوي في قاطع الفيلق، وأُعدّت الدفاعات فيها لمواجهة حرب الشوارع، وأُعدّت منظومة إشعال الحرائق على نهر الكارون في حالة قيام العدو بالعبور إلى المدينة، وكُلف اللواء قوات خاصّة إياد شعبان ليكون قائدًا لقوات المحمرة. وأُشغلت الدفاعات في المدينة بخمسة ألوية (مشاة وقوات خاصّة وحدود). في ليلة 29 نيسان/أبريل 1982 قامت القوات الإيرانية بالعبور من منطقة القواعد الخمس بين قاطعي الفرقة الآلية الخامسة وفرقة المشاة 11، واستطاعت تطويق القواعد والاندفاع عبرها باتجاه خطّ سكة حديد الأحواز - المحمرة، وصدرت الأوامر حال عبور العدو إلى الفرقة المدرعة الثالثة لمسك موضعها الدفاعي على

خطّ السكة الحديد قبل تمكّن العدو من الاستيلاء عليها، والقيام بالهجوم المقابل لطرد العدو، وتدمير رؤوس الجسور التي أقامها على نهر الكارون. إلا أن اللواء الثامن الآلي المكلف بمسك هذه المواضع تأخر في الوصول، الأمر الذي جعل العدو يسبق قطعاتنا ويمسكها، ويتسلّل عبرها وبأعداد كبيرة إلى خطّ الحدود، ويمسك السدة الحدودية الممتدة من كشك البصري حتى السدة الممتدة بموازاة طريق الشلامجة - المحمرة خلال الأيام اللاحقة للمعركة. وانسحبت الفرقة المدرعة الثالثة إلى خلف السدة الحدودية داخل الأراضي العراقية تحت ضغط أفواج حملة القاذفات من حرس الخميني.

أصبح موقف فرقة المشاة 11 غاية في الصعوبة بعد انكشاف جناحها الأيسر (من الجسر الكائن على القناة الحدودية في الشلامجة حتى المحمرة بطول 23 كلم تقريبًا)، وأصبح مقرّها غير قادرٍ على إدارة معركة بـ 22 لواءً كانت بإمرتها.

رفع مقرّ الفيلق الثالث دراسة مقترحة لخطة الدفاع عن المحمرة، تتضمن حلًا لمشكلة أن مقرّ فرقة المشاة 11 غير قادر على إدارة المعركة في الوضع الميداني الحالي، ويُقترح أن يكون الترتيب الدفاعي لإدارة معركة المحمرة كما يلي:

أ. تقسيم قاطع المسؤولية بين فرقة المشاة 11 وفرقة المشاة 15 الكائنة غرب شطّ العرب، وأن يُنقل مقر الفرقة 11 إلى غرب شطّ العرب (كوت الزين)، ويكون مسؤولًا عن المحمرة فحسب.

ب. تستلم فرقة المشاة 15 باقي قاطع مسؤولية الفرقة 11، وتُنشأ خمسة جسور على شطّ العرب لتسهيل تنقل القطعات بين ضفتي النهر، وفق أوضاع المعركة.

ج. تخفيف وجود القطعات في المواضع الحالية على السدة الموازية للطريق العام الشلامجة - المحمرة، وتخفيف القطعات في مدينة المحمرة لتقليل الخسائر.

لم توافق القيادة العامة للقوات المسلحة على دراسة ومقترحات الفيلق فوافقت على نصب جسر واحد على شطّ العرب في منطقة قناة خيين [151] مقابل جزيرة أم الرصاص فحسب، وأوعزت بزيادة ضباط الركن في مقرّ الفرقة. وعندما انتهت المعركة بسقوط المحمرة أجرى القائد العام لقاءات مع ضباط مقرّ الفيلق، والفرقة 11، وطرح موضوع دراسة ومقترحات الفيلق التي لم توافق عليها القيادة العامة، فالتفت القائد العام إلى رئيس الأركان الفريق عبد الجبار شنشل، وقال له: «أنا لم أطلع على

دراسة ومقترحات الفيلق وإجابة القيادة العامة بالرفض». إلا أن رئيس أركان الجيش التزم الصمت.

وصف ساحة العمليات

ساحة عمليات الفيلق بصورة عامة تساعد في حركة الآليات والدروع في الاتجاهات كافة، ويحدُّها من الشرق نهر الكارون ما بين الأحواز وشطّ العرب، وفي شمال الساحة هور الحويزة الذي يمتد من شمال كشك البصري إلى الكحلاء والمشرح، وفي الغرب شطّ العرب، وحُفرت قناة مائية تمتد بموازاة خطّ الحدود سُميت قناة الإغمار/4 من هور الحويزة إلى الشلامجة، كما حُفر خندق لمنع عبور الدبابات بالعمق شمال نهر كتيبان حتى مخفر زيد، وتوجد بحيرة اصطناعية تمتد من نهر كتيبان إلى الشلامجة بعرض 150 إلى200م تُشكّل مانعًا موازيًا ومائلًا عن خط الحدود.

يوجد شريط من النخيل بموازاة ضفة شطّ العرب بعرض 2 - 4 كلم، يمتدّ من منطقة النشوة شمال البصرة حتى الشلامجة على الحدود الإيرانية جنوبًا، وفي الضفة الغربية من شطّ العرب شريط من النخيل يمتد من البصرة شمالًا حتى الفاو جنوبًا.

الطرق الرئيسة

أ. طريق البصرة - تنومة - الشلامجة - المحمرة.

ب. طريق البصرة - النشوة - الأحواز تمر جنوب هور الحويزة، وتتفرع منها طريق معبدة إلى البسيتين والكرخة.

ج. طريق البصرة - النشوة.

قوات الطرفين

- العدو

القوات الإيرانية مزيج من القوات النظامية المؤلفة من المشاة والدروع ومن قوات حرس الخميني غير النظامية (الباسيج والباسدران). تُقدّر القوات النظامية وفرق حرس الخميني بما بين 8 و10 فرق مسندة بالمدفعية والدبابات وعدد من أفواج حملة القاذفات من حرس الخميني، وكانت الإمدادات مستمرّة لهذه القوات من الأحواز.

- قواتنا

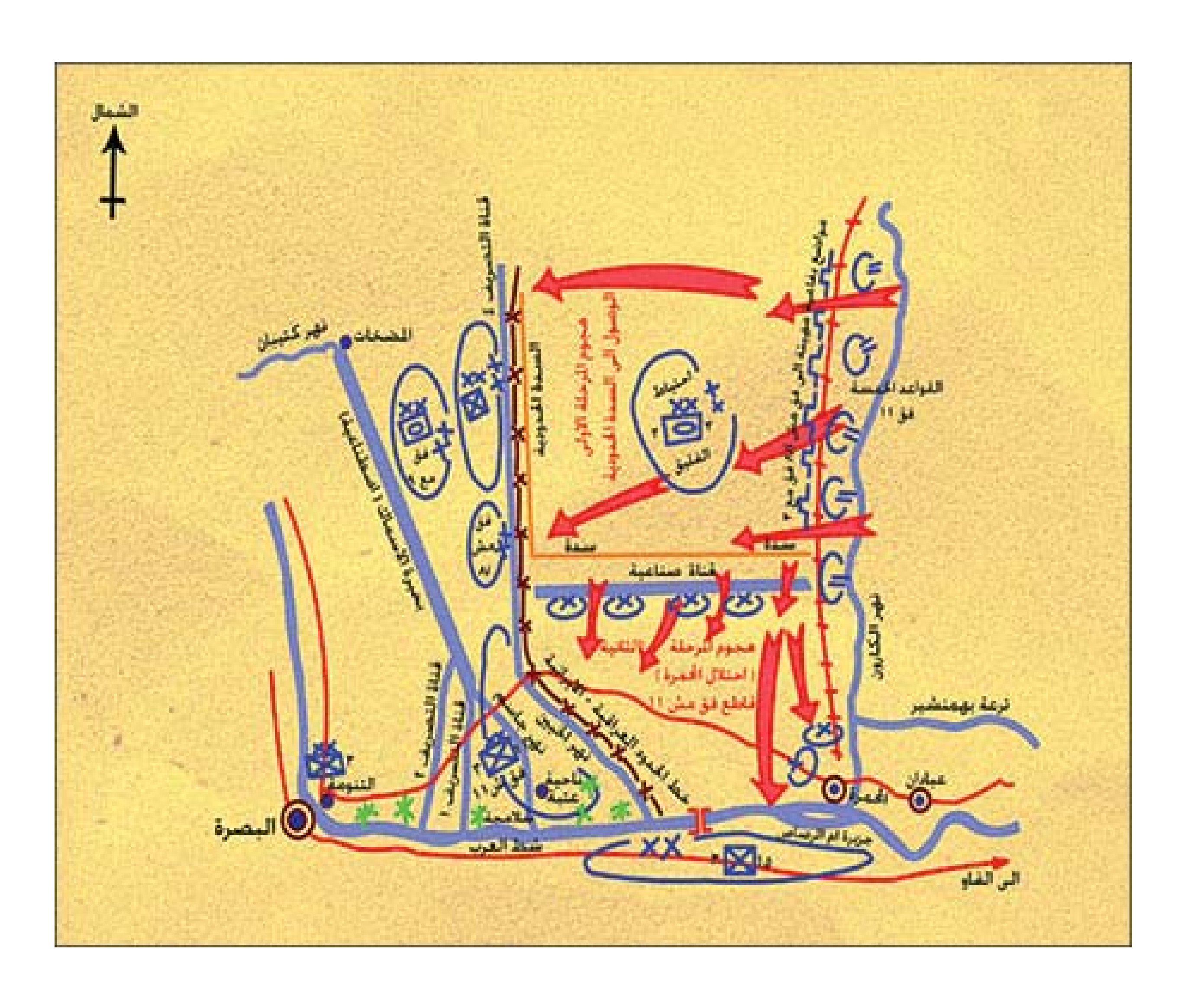
كانت فرقة المشاة 11 تدافع عن المحمرة والمنطقة الكائنة شمالها (منطقة القواعد الخمس)، وبإمرتها 22 لواءً حُشد معظمها على عجلٍ بعد

عبور العدو نهر الكارون واندفاعه نحو الحدود العراقية. ولم تُتح للتشكيلات الجديدة فرصة تهيئة مواضعها أو إجراء استطلاعاتها، ولم يكن مقرّ فرقة المشاة الحادية عشرة أو أي فرقة أخرى قادرًا على إدارة هذا العدد من التشكيلات في معركة، وكانت الفرقة قبل ذلك تدافع عن مدينة المحمرة بخمسة ألوية (ألوية الفرقة الثلاثة ولواء قوات خاصّة ولواء الشرطة العاشر)، وبلواءين (اللواء 117 واللواء الرباعي 55) منفتحين في القواعد الخمس.

الشكل (9 - 2)

معركة فرقة المشاة 11 في المحمرة (خرمشهر)

26 نيسان/أبريل - مايس (أيار/مايو) 1982



المعركة

هنالك بعض الحقائق التي أثّرت في أداء الفيلق والفرقة 11 وبقية الفرق وأهمها:

أ. كانت وجهة نظر الفيلق الثالث تفيد بأن معركة المحمرة محسومة لمصلحة العدو بعد أن عبرت قطعاته نهر الكارون، وتمكّنت من إزاحة الفرقة المدرعة الثالثة إلى الحدود وتطويق القواعد الخمس، فانكشف جناح فرقة المشاة 11 الشمالي لمسافة 23 كلم، وأصبح عمق الدفاعات لا يزيد على 4 إلى 6 كلم، بعد تعديل الجبهة في ضوء اختراق القوات الإيرانية، وعدم موافقة القيادة العامة على مقترحات الفيلق، وكان ردّها ينص على أن «المحمرة تعتبر مثل بغداد، ويجب الدفاع عنها كما يجب».

ب. حضر جميع معاوني رئيس أركان الجيش (الفريق الركن عبد الجبار الأسدي والفريق الركن إسماعيل تايه والفريق الركن نجيب أبتر عمر) وجلسوا مع قائد الفيلق بحضور رئيس أركان الجيش الفريق الأول الركن عبد الجبار شنشل. وقام كلٌّ منهم برفع مقترحات متناقضة إلى قائد الفيلق، وأجروا جولات في قاطع الفيلق وأعطى كلٌّ منهم توجيهاته للقطعات مباشرة من دون إشعار قيادة الفيلق، فما عاد قرار إدارة المعركة بيد قائد الفيلق ولا قائد الفرقة [152] 11.

ج. حضر وزير الدفاع الفريق عدنان خير الله وكذلك نائب رئيس مجلس قيادة الثورة الرفيق عزت الدوريّ إلى قاطع الفيلق، وكلٌّ منهما يعطي توجيهات إلى الفيلق من مقراتهما في البصرة من دون الاطلاع على تفاصيل الموقف.

د. حضر أعضاء المكتب العسكري وتوزعوا على الفرق. وتم تنسيب اللواء الركن عبد الجواد ذنون عضو المكتب العسكري مع قائد الفرقة11.

هاجم العدو موضع الفرقة 11 الدفاعي من نقاط عدّة على طول السدة العمودية التي كانت تشغلها تشكيلات الفرقة، وتمكّن من اختراقها في بعض النقاط، إلا أن الجهد الرئيس لهجوم العدو كان باتجاه ميناء المحمرة لعزلها عن باقي قاطع الفرقة وتطويق القطعات المدافعة عنها. واستطاع العدو ليلة 24 -25 مايس [أيار/مايو] 1982 تطويق المدينة بعد أن نجح في اختراق المواضع الدفاعية للواء الشرطة العاشر في شمال المدينة، وقاتلت القوات المدافعة عن المدينة ببسالة إلا أن ذخيرتها كانت قد أشرفت على النفاد بعد القتال المستمر الذي خاضته قطعاتها.

كلّف مقرّ الفيلق فرقة المشاة السابعة بقيادة العميد الركن ميسر الجبوري، التي وصلت قبل فترة قليلة بالتقدم من الشلامجة لكسر طوق الحصار عن المحمرة. وباشرت الفرقة بالتقدم في وجه مقاومة متتابعة على طول طريق تقدمها يومي 25 و26 مايس [أيار/مايو]، وعلى الرغم من أن

الفيلق دفع اللواء المدرع 30 من الفرقة المدرعة السادسة لإسناد الفرقة السابعة، ألا أنهما لم يتمكّنا من الوصول إلى المحمرة حتى يوم 26 مايس [أيار/مايو].

قام جناح طيران الجيش الثالث بنقل العتاد والمواد التموينية وإلقائها من الجو على القطعات المدافعة في المحمرة (كانت شقق النزول كلها في المدينة قد تم نصب أعمدة فيها كعوائق لمنع سمتيّات العدو من الإنزال)، وتم إسقاط سمتيتين وإصابة أعداد أخرى، الأمر الذي جعل عملية الإمداد جوًّا محفوفة بالمخاطر. وبعد نفاد الذخيرة والمؤن لدى القطعات المحاصرة استسلمت في 28 مايس [أيار/مايو] بعد تسلّل عددٍ كبيرٍ من أفرادها إلى الجانب الغربي من شطّ العرب، وكان عدد الأسرى بين 5000 و6000 جندي.

استُدعي قائد الفيلق اللواء الركن صلاح القاضي، وقائد الفرقة المدرعة الثالثة العميد الركن جواد أسعد شيتنة، وبعد محاكمة قصيرة أُعدما، إذ حُمِّلا مسؤولية انهيار الموضع الدفاعي [153] . وعانت القوات المسلحة بعدها ظاهرة الإعدامات الميدانية التي كان يجانبها الصواب في حالات كثيرة، وهي ظاهرة موجودة في أغلب المواجهات العسكرية على مستوى العالم، لكنها في العراق وعلى الرغم من محدودية الحالات التي تمت فيها أثّرت في معنويات القوات المسلحة ولا سيما بعد معركة المحمرة.

عندما وصلت قوات العدو إلى السدة الحدودية من كشك البصري إلى الشلامجة، أصدرت القيادة العامة أوامرها بسحب الفرقة المدرعة السادسة وفرقة المشاة الآلية الخامسة من مواضعهما في منطقة الأحواز والخفاجية ونهر الكرخة إلى داخل الأراضي العراقية ما بين كشك البصريّ ومخفر زيد خشية أن يعزلها العدو.

اتصلوا من الأركان العامة وطلبوا مني ومن اللواء الركن سالم حسين الذي كان مدير الأشغال العسكرية، وهي إحدى مديريات الوزارة، الذهاب إلى المجلس الوطني، بحسب طلب القائد العام للقوات المسلحة الذي كان يعقد لقاءات مع جنود وضباط صف وضباط وآمرين، جرى اختيارهم لمقابلة القائد العام عشوائيًا من قيادة الفيلق والفرق والتشكيلات والوحدات التي قاتلت في معركة المحمرة، ليتبيّن منهم حقيقة حوادث المعركة وملابساتها، بعد أن أصبح لا يثق كما يبدو بذرائع قيادة الأركان العامة والقيادات الأخرى لهذه الهزيمة المنكرة، فأراد انتزاعها من مصدرها من المشاركين الفعليين على اختلاف مواقعهم ورتبهم ومسؤولياتهم. إذ هز سقوط المحمرة قيادات الحزب والدولة ووجدان الشعب وكرامة القوات المسلحة.

وطلب القائد العام منا حضور لقاءاته معهم، وأمر اللواء سالم حسين بتسجيل ما يدور في اللقاء، ومني أن أستمع إليهم. وفي فترة امتدت أكثر من أسبوع وفي لقاء أو لقاءين يوميًا يستغرق بين 6 و8 ساعات (لكل لقاء)، وفي أحيان كثيرة تنتهي اللقاءات في الرابعة من فجر اليوم التالي، كان الجنود والضباط يتكلمون بعفوية وصدقية عما مرّ بهم، وكيف ولماذا حصل ما حصل؟ والغريب أن منهم من لم يعرف لماذا انسحبوا، ولماذا لم يقاتلوا، على الرغم من أنه كان بإمكانهم ذلك. وشهدتُ العديد من اللحظات الوجدانية التي لم يستطع فيها الضباط السيطرة على عواطفهم وشعورهم بعار الهزيمة والتقصير، فانفجروا بالبكاء وكانت الدموع تتساقط من عيني القائد العام تأثرًا.

كان ملخص الأسباب الرئيسة لسقوط المحمرة:

1 - عدم كفاءة القيادة بكل مستوياتها (الأركان العامة والفيلق والفرقة).

2 - الإصرار على قبول المعركة في المحمرة بعد نجاح العدو في عبوره الكارون واندفاعه إلى السدة الحدودية واحتلالها، وانكشاف جناح الفرقة الشمالي لمسافة 23 كلم.

3 - عدم قبول القيادة العامة بمقترحات قيادة الفيلق وإصرارها على الدفاع عن المحمرة كما ندافع عن بغداد.

4 - حشد قطعات غير متجانسة لم يتح لها الاستقرار أو الاستطلاع بلغ عددها 22 لواءً، وتكليف مقرّ فرقة واحدة بقيادتها.

5 - إرباك قيادة الفيلق بوجود رئيس الأركان ومعاونيه كافة وتدخلهم وإصدارهم التوجيهات المختلفة والمتناقضة إلى القطعات من دون العودة إلى الفيلق، وفقدان القيادة والسيطرة، وأخيرًا عدم نقل الصورة الحقيقية بالمستويات كلها.

أعتقد أن الرئيس صدام حسين قرّر الإشراف المباشر على العمليات في جبهات القتال أكثر من أي وقت مضى بعد معركة المحمرة، حيث تولّدت لديه الثقة بأنه أجدر وأقدر على اتخاذ القرارت المصيرية في جبهات القتال ممن هم في الأركان العامة أو في وزارة الدفاع [154] .

بعد الانتهاء من لقاءات الرئيس استأذناه بالعودة إلى دوائرنا فسألني الرئيس: «عميد نزار ألم نمنحك قدمًا لمدة سنة؟»، فقلت له: «نعم سيدي»، فسألني: «ومتى سترفع؟»، فأجبته: «في تموز/يوليو المقبل أي بعد أقل من شهرين؟»، فقال: «ولماذا إذًا لم تحمل رتبة لواء؟»، قلت له: «سأترفع في تموز/يوليو باستحقاقي وتتبقى لي سنة قدَم سأستفيد منها في الرتبة التي

تليها». فقال: «غيرك يرفع الرتبة الجديدة فور تكريمه، وبعضهم يطلب إضافة أشهر تنقصه لحمل الرتبة الأعلى»، ثم التفت إلى العقيد صباح ميرزا مرافقه، وأمره بجلب رتبة لواء ركن وشدها بنفسه على كتفي. ووجه كلامه إلى اللواء الركن سالم حسين وقال له: «لواء سالم أنت تستلم قيادة الفيلق الثاني»، ثم وجّه كلامه إليّ «وأنت تعود لاستلام فرقتك السابعة، وأريدك أن تُعيدها كما كانت فقد تضررت في معركة المحمرة».

في حزيران/يونيو 1982 عدت إلى قيادة الفرقة السابعة مرة ثانية، وشرعت على الفور بإعادة التنظيم والتدريب وإكمال النواقص في الأشخاص والمعدات بعد الأضرار التي لحقت بتشكيلاتها في معارك المحمرة.

كنت في زيارة إلى أحد ألوية الفرقة في الجبهة عندما اتصلوا بي من مقرّ الفرقة وأخبروني أن طائرة سمتيّة ستأتي لتقلني إلى قيادة الفيلق. وكان في السمتيّة العقيد صباح ميرزا الذي أخبرني أن القائد العام موجود في مقرّ الفيلق. عندما دخلت غرفة قائد الفيلق كان الرئيس وقائد الفيلق وقادة الفرق موجودين، فأمر بجلب مقعد إضافي لجلوسي، وبدأ يعرض الموقف العام، وقال إن موقف قطعاتنا في الجبهة الجنوبية ضعيف، ويمكن أن يُخرَق في أي وقت، وفي ضوء ذلك قرّر سحب قواتنا في الجبهات كلها إلى الحدود الدولية والدفاع فيها عن العراق، وسيصدر الأمر بذلك اعتبارًا من يوم غدٍ المصادف 20 حزيران/يونيو على أن يكمل انسحاب القوات كلها إلى الحدود في اليوم الثلاثين من الشهر نفسه. وكان الجميع يسجلون ملحوظاتهم ولم يعلّق أيٌّ منهم، فرفعت يدي طالبًا الإذن بالكلام وقلت: «سيدي الرئيس، إننا في القاطع الأوسط (قاطع الفيلق الثاني) بوضع دفاعي جيد، ووجودنا هناك يحمي مدننا ومنشآتنا النفطية القريبة من الحدود، فإذا ما عدنا إلى الحدود فإنها ستكون ضمن مدى مدفعية العدو، وقد يتطلب ذلك إخلاء سكانها وتدمير المنشآت، ولا أعتقد أن العدو سيتوقف عن إصراره على الاستمرار في القتال، فإذا كان الموقف في الجبهة الجنوبية (في قاطعي الفيلق الثالث والفيلق الرابع) يتطلب سحب الجنود إلى الحدود فإننا في الأوسط في وضع جيد، ونحن قادرون على الدفاع عن مواضعنا الحالية». والظاهر أنني كنت متحمسًا بعض الشيء، فدمعت عينا الرئيس وقال بصوت خافت يشوبه الألم: «أنا لو كان الموقف في الجنوب مثل ما هو عندكم هل كنت سأنسحب؟». واستمر وكأنه يخاطب نفسه «أين كنا نخطّط، وبماذا كنا نفكر، وكيف حدث الذي حدث؟». وتهدج صوته وسكت. عندها سارعت بالقول: «إذا كان الوضع هكذا فسننسحب كما تأمر سيدي

الرئيس».

في اليوم التالي صدر عن وسائل الإعلام كلها خبر أننا سنسحب قواتنا إلى الحدود الدولية خلال عشرة أيام، وكان ذلك خطأً لم نستطع أن نفهمه وما هي الغاية منه؟ إذ كيف نخبر العدو أننا سننسحب في اليوم المحدد ونتيح له أن يهاجمنا ونحن في أضعف حالاتنا؟

لم تكن لدينا مواضع دفاعية مهيّأة على الحدود الدولية، فذهبنا للاستطلاع وحددنا الخط العام لقواطعنا الدفاعية، وكلّفنا وحداتنا الإدارية في المناطق الخلفية بواجبات تهيئة الموضع الدفاعي للفرقة وحفر المواضع، وأبقينا المراتب العائدين من إجازاتهم بإمرة المقرّ الخلفي للعمل في إعداده، وهيأنا الطرق والطرق البديلة وتسوية المخاضات [155] على الأنهر والأودية على طرق الانسحاب. ولم نذكر لقطعاتنا كلمة انسحاب، بل قلنا إننا سننتقل إلى موضع دفاعي أفضل، لما لكلمة الانسحاب من تأثير سلبي في معنويات الجنود، على الرغم من أن معظمهم سمعها من وسائل الإعلام [156] . كان اللواء جوهر العزاوي مدير مديرية الهندسة الآلية الكهربائية من أصدقائي، فطلبت منه الحضور إلى مقرّ الفرقة وأخبرته بأني أريد منه أن يصنع في معامل المديرية هياكل لدبابات وناقلات وعجلات ودمى ترتدي ملابس الجنود لوضعها في المواضع التي سننسحب منها لإيهام العدو بأننا ما زلنا فيها بعد انسحابنا، وكذلك هيأنا فوانيس نفطية، وراديوات ترانزستور توضع في ملاجئ الجنود، وتُشغل ليلة الانسحاب. وقمنا في الليلة الأخيرة بتغيير تأشيرات ممرات الدوريات [157] إلى الأرض الحرام، ووضعنا التأشيرات في مناطق ملغومة كي تنفجر بقطعات العدو حال دخولها بعد تأكده من انسحابنا. أما بالنسبة إلى التشكيلات فقمنا بأربع ممارسات ليلية، وأجرينا التعديلات بعد كل ممارسة للقرار على خطة الانسحاب النهائية، وكثفنا إخراج دوريات القتال للاشتباك مع العدو في الأيام الأخيرة، وجعله غير متأكد من حقيقة نياتنا بالانسحاب الذي أعلنت عنه قيادتنا السياسية.

كان بإمرة الفرقة الألوية 51 مشاة آلي، والخامس المؤلف من خمسة أفواج، والألوية 238 و19 و38 و39، وكتيبتا مدفعية، ومغاوير الفرقة عشر سرايا، وكتيبة دبابات في مرتفعات كولينا، وثماني كتائب مدفعية، ومعدات وتجهيزات أخرى. وكانت مواضع الفرقة الدفاعية تمتد على جبهة 25 كلم، ويشكّل الجناح الأيمن الذي يشغله اللواء الخامس بأفواجه الخمسة في الجناح الجنوبي من الموضع الدفاعي جيبًا في عمق العدو يمتد إلى ما لا يقل عن خمسة كيلومترات.

يكدس كل لواء خطين [158] من قياسات الأعتدة والمؤن اعتياديًّا في مواضعه، وخطًّا آخر احتياطًا، وفاجأني آمر اللواء الخامس عندما أخبرني بأنه قد كدس 15 خطًّا في مواضعه من أعتدة الأسلحة الخفيفة والمتوسطة وأعتدة المدفعية والهاونات والمؤن تحسبًا لطبيعة المواضع الدفاعية للواء، واحتمال أن يعزله العدو، وكان هذا يتطلب عددًا هائلًا من عجلات النقل لنقله إلى الخلف من دون أن نلفت انتباه العدو. وكان من الإجراءات التي قمنا بها سحب المدافع الثقيلة والمتوسطة وإحلال مدافع بعيارات أصغر مكانها ليسهل سحبها ليلة الانسحاب، وهكذا كنا نسحب معدات ثقيلة وأكداس الأسلحة والتجهيزات والمؤن ليلًا، وندفع بدائل مدافع ومعدات خفيفة نهارًا، الأمر الذي جعل العدو يعتقد بأننا نعزز قطعات الجبهة بالأسلحة والمعدات، وكل ذلك يجري وفق خطة دقيقة وعملية ويجري تنفيذها بإشراف هيئات ركن الفرقة والتشكيلات، وآمري الصنوف والخدمات، وآمري التشكيلات، وبمتابعتي شخصيًّا.

جرى تباعًا دفع هياكل الدبابات والعجلات والجنود إلى المواضع الدفاعية بدلًا من تلك التي تُسحب ليلًا إلى الخلف. وحدث أن هاجم العدو موضعًا للحجابات الأمامية [159] التي تقع على بعد 500م أمام الموضع الرئيس للواء 238 في مضيق مايخورة، قبل ليلتين من موعد انسحابنا، واستطاع إسقاطه. كان الموضع بحجم فصيل مشاة فقررت القيام بهجوم مقابل في اليوم التالي واسترجاعه، ورجا آمر اللواء وضباط ركن الفرقة أن أصرف النظر عن ذلك لأننا سننسحب في الليلة التالية، لكني أصررت على استرجاعه، لسببين أولهما كي تبقى الشكوك في انسحابنا الذي أُعلن عنه لدى العدو، إذ لا يعقل أن نقوم بالهجوم لاسترجاعها ونحن ننوي الانسحاب في الليلة نفسها، وثانيهما لا نريد أن ننسحب والعدو قد هزمنا ولو في عملية صغيرة كهذه. وفعلًا قمنا في اليوم التالي بهجوم بإسناد ناري كثيف واسترجعنا موضع الحجابات الأمامية بعد أن فقدنا ثلاثة شهداء، ونحو اثني عشر جريحًا، لكننا شوشنا على العدو وجعلناه في حيرة من أمره.

في ليلة الانسحاب، تمركزت كتائب مدفعية 130 ملم بعيدة المدى في مواضع متوسطة تحسبًا لمشاغلة العدو في حالة تعقب قطعاتنا، وبدأنا بسحب القطعات في الساعة 24.00. وفي الساعة 1.30 شنّ العدو هجومًا على مواضع اللواءين 38 في كولينا، و238 في مضيق مايخورة عندما كانت الساقات الخلفية [160] للواءين تنسحب من آخر مواضعها فقامت مدفعية الكتائب المتوسطة 130 ملم بالرمي السريع عليه لتغطية الساقات، وتم

انسحابها واستقلت عجلاتها لتلتحق بوحداتها.

في المثابة [161] على تقاطع طريق إمام حسن وكوهينة، كنت مع آمر المدفعية ومجموعة من ضباط الركن وآمري الصنوف والخدمات آخر من انسحب، بعد أن مرت العجلة الأخيرة من عجلات اللواء الخامس إلى المواضع الجديدة للفرقة على الحدود العراقية. وفي اليوم التالي عرفت أن أحد جنودنا من ساقات اللواء 238 قد تُرك بعد استشهاده في القصف المعادي، فأرسلت إلى آمر اللواء وأسمعته كلامًا قاسيًا لتركه جثة الشهيد وعدم إخلائها، واعتذر بأنه لم يعلم بفقدان الجندي الشهيد إلا حين تفقّد الساقات بعد إكمال انسحابها.

لم تجرؤ قطعات العدو على دخول مواضعنا الفارغة إلا بعد أكثر من 48 ساعة من إنجاز انسحابنا نتيجة إجراءات المخادعة والترتيبات التي قمنا بها في المواضع التي انسحبنا منها.

استقر مقرّ الفرقة في معسكر لواء المشاة الآلي 25 التابع للفرقة المدرعة السادسة، الذي يقع بين خانقين ومقرّ الفيلق في المنصوريّة، وكان معسكرًا واسعًا تتوافر فيه كل وسائل الراحة التي افتقدناها في مقرّنا القديم في مضيق كوهينة.

معارك شرق البصرة تموز/يوليو 1982 - قيادة الفيلق الثالث- البصرة

خلال أشهر الصيف قام جهد الدولة المركزي [162] والهندسة العسكرية للمقرّ العام وهندسة الفيلق الثالث بإعداد المواضع الدفاعية للفيلق الثالث على شكل خطين دفاعيين: الأول على الحدود الدولية شرق الشلامجة، والثاني غربه ببضعة كيلومترات، وعُزز بالألغام الكثيفة وخطوط الأسلاك الشائكة. جُهِّزت ساحات رمي الأسلحة الخفيفة والمتوسطة وأنشئت مواضع ودكات رمي الدبابات ومواضع المدفعية، ومواضع قطعات الاحتياط والهجوم المقابل للفرق المدرعة والآلية خلف الخط الدفاعي الثاني. وأُشغلت المواضع الدفاعية بأربع فرق مشاة، وكانت الاحتياطات المحلية من قوات المغاوير المسندة بالدبابات. وشُكّلت ثلاث فرق مدرعة وفرقة مشاة آلية، احتياط الهجوم المقابل، وتولّى قيادة الفيلق اللواء الركن سعدي طعمة الجبوري.

حشد الإيرانيون لمعركة شرق البصرة التي أطلقوا عليها اسم «عمليات رمضان» القوات التالية: أربع فرق مدرعة هي الفرقة المدرعة 16، والفرقة المدرعة 88، والفرقة المدرعة 92، والفرقة المدرعة حرس الخميني 30، ومعها اللواء المدرع 37 المستقل، وفرقتا المشاة 21 و77، علاوة على لواءي مشاة

40 المستقل و58 المستقل، و26 كتيبة مدفعية وقاذفة صواريخ، وأربع كتائب مدفعية مقاومة الطائرات، وأكثر من 60 ألف مقاتل من حرس الخميني والباسيج (المتطوِّعين)، وتجحفلت في ثلاث مجموعات وفي ثلاثة اتجاهات:

- **الأول** : باتجاه شمال البصرة، ويشمل الفرقة المدرعة 16، ولواءي المشاة 40 و58.

- **الثاني** : باتجاه شرق البصرة، ويشمل الفرقة المدرعة 92، وفرقة المشاة 21، واللواء المدرع 37.

- **الثالث** : باتجاه شمال شرق البصرة الشلامجة، ويشمل فرقة المشاة 77 والفرقة 88 مدرعة احتياط.

كانت الغاية من عمليات رمضان احتلال البصرة، من خلال ثلاث مراحل أو صفحات:

- **الصفحة الأولى** : اختراق دفاعات الفيلق الثالث من اتجاهين شمال شرق البصرة، وشرق البصرة إلى أبعد ما يمكن باتجاه الغرب.

- **الصفحة الثانية** : اختراق دفاعات الفرقة 11 المدافعة في قاطع الشلامجة للوصول إلى شط العرب.

- **الصفحة الثالثة** : عبور شطّ العرب وحصار البصرة من الغرب والجنوب تمهيدًا لاحتلالها.واعتمدت الخطة الإيرانية الهجوم ليلًا في موجات بشرية متتابعة من مقاتلي حرس الخميني والباسيج لإحداث الاختراق، وفي أكثر من اتجاه، ثم دفع الفرق والتشكيلات النظامية المشاة والمدرعة من الثغرات التي تُحدثها الموجات البشرية، والوصول إلى عمق الدفاعات العراقية وتطويقها والقضاء عليها.

بدأ الإيرانيون في ليلة 13 - 14 تموز/يوليو 1982 تنفيذ الصفحة الأولى، ثم الصفحة الثانية بعد فشل الأولى، ولم تُنفَّذ الصفحة الثالثة.

سير المعارك

أ - الهجوم الأول

تقدّمت القوات الإيرانية المكوّنة من الفرقتين المدرعتين 92 و30 حرس الخميني، ولواء مشاة من فرقة المشاة 77، وأكثر من 30 ألف مقاتل من حرس الخميني ووحدات الباسيج تحت ستر الظلام في الساعة 22.00، وهاجمت المواضع الدفاعية الأمامية للفيلق الثالث بين مخفر زيد شمال بحيرة الأسماك، بموجتين من فرق حرس الخميني والباسيج والفرقة المدرعة

30 حرس الخميني، وتمكَّنت من اختراقها، وأعقبتها موجتان: الثالثة والرابعة من الفرق المدرعة والمشاة النظامية، وتمكَّنت من الاختراق حتى عمق يتراوح بين 15 و20 كلم. وبعد قتال ضارٍ استمر 12 ساعة توقفت في الساعة العاشرة صباحًا. وفي الساعة العاشرة والنصف قام الفيلق الثالث بالهجوم المقابل بالتشكيلات المدرعة والمشاة الآلي، واستطاع تدمير معظم قوات الاختراق الإيرانية، وأجبر الباقي على التراجع حتى مسافة 7 إلى 10 كلم.

ب - الهجوم الثاني

ليلة 16 - 17 تموز/يوليو أي بعد ثلاثة أيام من الهجوم الأول عاود العدو الإيراني هجومه، وفي الاتجاهات نفسها من قطاع الاختراق في الساعة 22.00 أيضًا. وكان الهجوم بلواء مدرع، ولواءي مشاة من الفرقتين 21 و77، و15 ألف مقاتل من حرس الخميني، وتمكنوا من إحداث خرق بعمق 5 إلى 6 كلم. وفي فجر 17 تموز/يوليو بادر الفيلق الثالث إلى الهجوم المقابل من اتجاهين، وتمكَّن من تدمير القوات الإيرانية في قطاع الاختراق، وأجبر الباقي على التراجع.

ج - الهجوم الثالث

في الساعة 22.00 أيضًا من ليلة 21 - 22، أي بعد خمسة أيام على الهجوم الثاني، دفع الإيرانيون الفرقة المدرعة 92 مرة أخرى مدعّمة بلواءي مشاة من الفرقتين 21 و77، و15 ألف مقاتلٍ من حرس الخميني في اتجاه لا يبعد كثيرًا عن قطاع الاختراق السابق شرق بحيرة الأسماك، فاستطاعت إحداث خرق محدود، وتوقفت مع فجر 22 تموز/يوليو، وقام الفيلق الثالث بهجوم مقابل من أكثر من اتجاه، وتمكَّن من استعادة المواضع الدفاعية للفيلق بعد أن كبّد القوات الإيرانية خسائر فادحة.

د - الهجوم الرابع

بعد فشل هجماتهم الثلاث في تحقيق أهدافها قرر الإيرانيون تنفيذ هجوم جديد من اتجاه الشلامجة، الأمر الذي يعني شروعهم في تنفيذ الصفحة الثانية من خطتهم من دون نجاح الصفحة الأولى، لتحقيق نجاح قد يساعد في تطوير اختراقهم في الاتجاه الأول. غيَّر الإيرانيون هجومهم باتجاه جنوب شرق البصرة - الشلامجة، وكان توقيت الهجوم في الساعة 24.00 من ليلة 23 - 24 تموز/يوليو، فدفعوا الفرقة 21 مسندة بالدروع، و10 آلاف مقاتل من حرس الخميني باتجاه المواضع الدفاعية في الشلامجة التي تمسكها الفرقة الحادية عشرة من الفيلق الثالث. وتمكَّنت الفرقة من إدارة معركة دفاعية ناجحة وأحبطت الهجمات الإيرانية. انسحب المهاجمون

بعد تكبّدهم خسائر كبيرة، ولم يعاودوا الهجوم في هذا الاتجاه.

هـ - الهجوم الخامس

حشد الإيرانيون الفرقة 77 مشاة، ولواءين مدرعين من الفرقتين المدرعتين 16 و92، وما يقارب الـ 15 ألفًا من حرس الخميني، وهاجموا في الساعة الثانية بعد منتصف ليلة 28 تموز/يوليو من الاتجاه الأول بين مخفر زيد وشرق بحيرة الأسماك، وتمكّنوا من تحقيق خرق بعمق 10 كلم في دفاعات الفيلق قبل أن يتوقف زخم الهجوم. وفي هجمات مقابلة لقوات الفيلق الثالث استمرت يومي 29 و30 تموز/يوليو تمكَّنت قوات الفيلق الثالث من إجبار القوات الإيرانية على التراجع، وانتهت معارك شرق البصرة بخسائر هائلة في القوات الإيرانية من دون تحقيق أهدافها.

على الرغم من خسائره الفادحة في معارك شرق البصرة، استمر العدو الإيراني في امتلاك المبادأة، والقيام بهجماته في قواطع العمليات بقية عام 1982. ففي الأول من تشرين الأول/أكتوبر هاجم الروابي الحدودية شرق مندلي في قاطع الفرقة 12 في الفيلق الثاني في عملية أطلق عليها اسم «مسلم بن عقيل». وفي الأول من تشرين الثاني/نوفمبر، وتحت اسم عملية «محرم الحرام»، هاجم العدو المواضع الدفاعية الحدودية في منطقة الطيب - الزبيدات شمال شرق العمارة في قاطع الفيلق الرابع، وبعد عبور نهر الدويريج اندفع إلى منطقة البيضاء والمرتفعات الحدودية وتمكّن من السيطرة على بعضها.

معركة الشيب في شباط/فبراير 1983 - قيادة الفيلق الرابع - العمارة

حشد العدو قطعاته من القوات النظامية وحرس الخميني في شباط/فبراير 1983 هادفًا التقدّم في اتجاه مدينة العمارة في قاطع الفيلق الرابع، والسيطرة على طريق بغداد - البصرة تمهيدًا لعزل مدينة البصرة ومهاجمتها في وقت لاحق. وكانت القوات التي حشدها العدو لتنفيذ العملية مؤلفة من الفرقة المدرعة 16 وفرقة المشاة 21 واللواء المدرع المستقل 37 واللواءين المستقلين 40 و84 مشاة ولواء حرس حدود من القوات النظامية والفرقة المدرعة 30 حرس الخميني وفرقة مشاة من حرس الخميني ولواء باسيج (مقاتلون متطوِّعون غير نظاميين غالبًا ما كان يقودهم وعّاظٌ ورجال دين متعصبون)، وبإسنادهم لواءي مدفعية، ونظّموا قواتهم في نسقين الأول الفرق المدرعة والمشاة، والثاني الألوية المستقلة لتطوير الهجوم.

خطة الهجوم

- الصفحة الأولى: اختراق الحدود الدولية باتجاه قرية الشيب 30 كلم شرق مدينة العمارة، والهجوم من اتجاهين لاختراق الدفاعات العراقية وتطويقها والوصول إلى قرية الشيب.

- الصفحة الثانية: تطوير الهجوم للسيطرة على طريق بغداد - البصرة.

سير المعركة

في فجر السابع من شباط/فبراير 1983 بدأت «عملية فجر النصر» الإيرانية بالهجوم من اتجاهين لاختراق الدفاعات العراقية وتطويقها، وتمكَّنت القوات المدافعة من صد الهجمات الإيرانية وإيقافها، ودفعت القيادة الميدانية الإيرانية قوات الصفحة الثانية، على الرغم من أن قوات الصفحة الأولى لم تحقق أهدافها، وتم صدها وتكبيدها خسائر كبيرة، إلا أن عناصر من القوات الإيرانية تسللت ليلة 9 -10 شباط/فبراير إلى بعض مواضعنا الدفاعية، ومن تلك الثغرات دفع الإيرانيون لواءين مدرعين من الفرقة المدرعة 16، ولواء مدرعًا آخر من فرقة حرس الخميني المدرعة، وتمكَّنت قوة الاختراق المدرعة من خرق 8 كلم داخل المواضع الدفاعية. ومع فجر 10/2/1983 قامت قوات الهجوم المقابل المدرعة والآلية للفيلق بهجوم صاعق، وتمكَّنت من تمزيق قوات العدو المخترقة، وحاصرت بعضها، ووقع في الأسر الآلاف منهم، وتراجع الباقي على عجل شرقًا إلى قواعده التي انطلق منها.

قام العدو في 10/4/1983 بالهجوم على منطقة الفكة الحدودية إلى الشرق من العمارة التي تدافع فيها الفرقة الآلية الأولى في قاطع الفيلق الرابع أيضًا تحت تسمية «والفجر 2»، وتمكَّن من السيطرة على بعض المرتفعات الحدودية بعد أن تكبَّد خسائر فادحة.

في حزيران/يونيو 1983 تسلّلت قوات إيرانية بمساعدة مسلحي الحزب الديمقراطي الكردستاني إلى قاطع حاج عمران، ومضيق برسريني في قاطع راوندوز (محافظة أربيل) ضمن قاطع عمليات الفيلق الأول، وتمكن المهاجمون من السيطرة على مدينة حاج عمران الحدودية، وتوغلوا في مرتفعات مضيق برسريني لمسافة 15 كلم، واستولوا على جبل كردمند الذي استعاده قائد الفيلق الأول اللواء الركن نعمة فارس بصولة جوية بالسمتيّات في 29/7/1983.

كنت أُتابع الموقف في جبهات القتال، وأتحسَّب من أن استمرار القيادة

العسكرية العراقية باستراتيجية الدفاع السلبي وترك المبادأة المطلقة للعدو الإيراني قد يؤديان بالنتيجة إلى الهزيمة والمغامرة بمصير الشعب والوطن، وكنت عندما أتمشى مع آمر مدفعية الفرقة ليلًا على الطريق المعبّدة المحاذية لسياج معسكر لواء المشاة الآلي 25 الذي استقر مقرّنا فيه، أتحدث معه بهذا المنطق، وأخبره بما يجب على القيادة العامة للقوات المسلحة أن تعمل به لتلافي الوصول إلى هذه الحالة. وفي إحدى تلك الليالي قال لي: «لماذا لا تكتب ذلك وترسله إلى المراجع، ويمكن أن يأخذوا به، أو على الأقل يكون قد وصلهم صوت يفكر بطريقة أخرى؟»، قلت: «وأرسله لمن؟»، قال: «أرسله للقائد العام»، فوجدتُ أنها فكرة معقولة فكتبت دراسة مكثفة ومختصرة كي يقرأها القائد العام.

لم أكن أعلم أن الرئيس صدام حسين غالبًا ما يقرأ كل ما يكتب له، وإلا لجعلتها دراسة وافية. كتبت نحو سبع أو ثماني صفحات فقط تحت عنوان «بعض أفكار جندي في القادسية». كنا نطلق على حربنا مع إيران «القادسية الثانية»، فـ «القادسية» الأولى كانت معركة المسلمين مع الفرس في العراق في صدر الدولة الإسلامية.

كان ملخصَ ما جاء فيها تحليل سياسي واقتصادي مقتضب، وتعرّض للموقف الاستراتيجي الحالي والاستراتيجية التي يجب أن نعمل بها سياسيًا. فبيّنت أن الحرب أدت إلى تقوية سلطة الخميني، ولم تضعفها وجمّعت الشعب حوله أكثر مما قبل نشوبها، وأعطته الفرصة والمبرر لضرب أعدائه والتخلص من خصومه تباعًا. وأصبح بذلك الرجل الوحيد، وأمل الشعب الإيراني في إحراز النصر. لذا هو غير عابئ باستمرار الحرب مهما طالت. ومن الناحية الاقتصادية فإن منافذنا لتصدير النفط المورد الرئيس للحصول على الأموال الضرورية لاستمرار الحرب قد أغلقت من جهتي الخليج العربي وسورية، ولم يتبقَّ لنا إلا المنفذ التركي الذي يتعرض لتخريب المسلحين الأكراد بين حين وآخر. ولا يستوعب هذا المنفذ التصديري سوى ربع كميات النفط التي كنا نُصدّرها قبل الحرب، بينما ما زالت منافذ تصدير نفط العدو كما هي قبل الحرب، كما أن كلفة تسليحنا الثقيل بصفتنا قوات نظامية تُكلّف أكثر من كلفة تسليح العدو الخفيف الذي يعتمد على فرق حرس الخميني وقوات الباسيج التي تُشكّل الجزء الأكبر من قواته الضاربة.

لذلك فإن علينا أن نمنهج علميًا عناصر تفوقنا على العدو، كالقوات الجوية لضرب مفاصل القوة والقدرة في مجال الصناعات العسكرية ومجالات الطاقة، وغيرها من الوسائل التي تساعده في الاستمرار بالحرب، بدلًا من

الاستخدام غير المخطط لها. وأخيراً اقترحت التوقف عن استمرارنا باستراتيجية دفاعية سلبية، وتهيئة متطلبات استراتيجية تعرضية تستهدف تدمير الآلة العسكرية للعدو وإرادته على الاستمرار بالحرب، واقترحت إعادة النظر بانفتاح قطعاتنا، وتحرير القوات الضاربة فيها، وتدريبها على العمليات التعرضية والمناورة الواسعة وحركات الإحاطة، وضرب خطوط مواصلات العدو، والاقتراب غير المباشر [163] . لذلك من المهم تعيين القادة الأكفياء والقادرين على العمل بهذا النهج لقيادتها، واقترحت تشكيل ثلاث قيادات تتألف كل منها من فرقة مدرعة، وفرقة آلية، وفرقة مشاة، ولواء قوات خاصّة، تخرج جميعها من إمرة الفيالق، وترتبط بقائد واحد يرتبط بالقيادة العامة حصرًا، وأكدتُ ضرورة استخدام القيادات الثلاث في آنٍ واحد في ساحة المعركة لتحقيق ضربات موجعة للعدو.

أرسلت هذه الدراسة المقتضبة التي ركّزت على أهم العناصر المطلوبة لإحراز النصر إلى القائد العام للقوات المسلحة، وأعطيت نسخة منها لنائب القائد العام وزير الدفاع. وبعد أيام وصلتني رسالة من القيادة العامة بتوقيع أمين سرّ القيادة العامة اللواء الركن طالع الدوري جاء فيها «اطّلَعَ السيد الرئيس القائد العام للقوات المسلحة على الدراسة بعنوان «بعض أفكار جندي في القادسية»، وعلّق بما يلي «يُبلغ اللواء نزار بما يلي: اطلعتُ على الدراسة، وأؤيد معظم ما جاء فيها، ولكن امتلاك العدو للمبادأة في جبهات القتال لا يسمح بتنفيذ ما جاء فيها، وأشكر المبادرة، وأرجو أن تستمر بالكتابة إلينا»».

افترضت عندما أرسلت الدراسة أنني سأستدعى لمناقشة ما جاء فيها، والتطرق إلى ما يجب فعله وكيفية ذلك ومتى، وغير ذلك من استيضاحات للنقاط التي احتوتها، أو أن يُطلب مني على الأقل إعداد دراسة وافية تفصل الدراسة المقتضبة التي أرسلتها، لكن أيًّا من ذلك لم يحدث.

هاجم الإيرانيون الفرقة 12 التي كانت تحتل بعض المرتفعات المسيطرة على الطريق الموصلة بين دهلران جنوبًا وعيلام شمالًا غرب مدينة مهران المقابلة لمدينة بدرة في قاطع الفيلق الثاني في 30 تموز/يوليو 1983 تحت اسم «والفجر 3». وانتهت المعارك التي استمرت حتى العاشر من آب/أغسطس بسيطرة الإيرانيين عليها بعد أن تكبَّد الطرفان خسائر فادحة.

طلب الفيلق إرسال لواءٍ من فرقتي إلى قاطع الفرقة 12 المشتبكة مع العدو في قاطع مهران، فاستدعيت العميد الركن برهان خليل آمر اللواء 38 الذي كان متحرّرًا، وكلفته بهذا الواجب فقال: «سيدي سأذهب، وأقول لك

شيئًا واحدًا أنا سأعُدم». فاندهشت مما قاله، وقلت: «ما هذا الذي تقوله؟»، قال: «كما قلت لك لقد تابعت معارك الفرقة في مهران. سيطر العدو على عوارض لم تنجح الفرقة في استعادتها بهجمات ألوية سبقتني، وسيُكلّف لوائي بذلك فإن لم أنجح فسأتحمل الفشل كله». قلت له: «برهان أبعد هذه الأفكار عن ذهنك وقم بواجبك على أفضل وجه، وهذا هو ما يجب أن تركِّز عليه».

لم يتمكَّن اللواء 38 من استعادة العوارض الساقطة بعد أن عزز العدو مواضعه بالقوات والنيران. وفي كل هجمة كانت قواتنا المهاجمة تقع في مصيدة نارية أحسن العدو استخدامها بعد أن كررت الفرقة هجماتها بالاتجاه نفسه والأسلوب ذاته. فشُكل مجلس تحقيقٍ برئاسة اللواء الركن ماهر عبد الرشيد معاون مدير الاستخبارات العسكرية للنظر في أسباب عدم إنجاز اللواء واجبه، وقرر توقيف العميد الركن برهان خليل آمر اللواء لتقصيره وأُعيد مخفورًا إلى فرقتي.

خصصت له إحدى غرف ضباط الركن حيث كان يمضي معظم أوقاته طليقًا مع ضباط ركن الفرقة. غالبًا ما كنت أستدعيه إلى دائرتي، وطلبت منه إخباري ما حدث في معركة لوائه، فجلب عددًا من التسجيلات، وقال: «إن كل ما قمت به في أثناء معركة اللواء مسجل على هذه الشرائط (كان برهان ضابط استخبارات لفترة طويلة، وقد تحسّب لمثل هذا الموقف) فأرجو سيدي أن تسمعها، وتبدي رأيك في ما قمت به، وهل كان هنالك أي تقصير من جانبي؟». وهذا ما قمت به. وفي تلك التسجيلات كان برهان يُطلع قائد الفرقة اللواء الركن مطر المعيني على الموقف ساعة بساعة، ويعرض عليه الصعوبات التي يعانيها لواؤه في الهجوم على العدو، ويطلب رأيه في الإجراءات التي يتخذها بصفته آمر لواء في ساحة المعركة. وكانت كلها منطقية ووفق السياقات، غير أن القائد كان يكتفي بقوله «أنجز الواجب واحتلّ الهدف مهما كلفك الأمر». وأخيرًا اضُطرّ العميد برهان إلى أن يطلب منه القدوم إلى ساحة المعركة، والقرار على ما يجب أن يعمله اللواء في ضوء الموقف الذي تدور فيه المعركة، فاعتذر بأنه لا يستطيع لانشغاله. وفي كل ما سمعته كان واضحًا أن لا غبار على أداء برهان ولوائه، وأن التقصير كان من قائد الفرقة 12 لموقفه السلبي، ورفضه الذهاب إلى ساحة المعركة بعد أن تعقّد الوقف فيها، وعدم قيامه بأي من الإجراءات الكفيلة بربح المعركة. فأرسلت التسجيلات مع رسالة مستعجلة بيد أحد ضباط ركن الفرقة إلى اللواء الركن طالع الدوري (أمين سرّ القيادة

العامة للقوات المسلحة)، وبينتُ فيها ملخص ما سمعته في تسجيلات العميد الركن برهان خليل لمعركة اللواء التي جرى التحقيق فيها، ورجوته بإلحاح أن يعرضها للقائد العام ليعرف ما حدث في معركة اللواء 38 في مهران.

كنت مقتنعًا بعدم مسؤولية برهان وواثقًا ببراءته، لذلك طلبت منه أن يذهب لزيارة عائلته وأطفاله في بغداد وأن يعود يوم غد، لكنه اعتذر، وقال إن تلك مسؤولية لا يريدني تحمّلها «فإن كان لا بدّ من رؤيتهم أرجو إرسال سائقي لجلب أطفالي لأُمضي معهم بضع ساعات»، فأرسلت السائق إلى بغداد على الفور. كان في دائرتي عندما أخبرني بأن القائد العام كان في مقرّ الفرقة 12 في أثناء تكليفه بالواجب، وقال له بالحرف الواحد: «عميد برهان لقد كرمناك تكريمًا كبيرًا فإن لم تنجز الواجب كما يجب فستُحاسب بمثله وأكثر»، فوجل قلبي، وقلت له: «برهان لماذا لم تذكر لي ذلك من قبل؟ حينها كنت سأذهب أنا إلى القائد العام». وتذكرت موقف اللواء الركن ثابت سلطان [164] قائد الفرقة العاشرة المدرعة الذي خاض معركة الفكة في الشهر الرابع من هذه السنة.

كانت القيادة العامة قد بعثت باللواء 38 ليصبح بإمرة الفرقة العاشرة (في قاطع الفيلق الرابع)، وكُلف اللواء 38 ليكون قوة مؤخرة لحماية انسحاب الفرقة. وفي مكالمة هاتفية بعد المعركة أخبرني القائد أنه غير راضٍ عن أدائه. وكنت قد استفسرت قبلها عن هذا الشأن من عدد من ضباط ركن مقرّ الفرقة العاشرة، وامتدحوا جميعًا أداء اللواء وآمره، فقلت له: «لواء ثابت لقد استفسرت من ضباطك عن أدائه فأجمعوا على امتداحه؛ فإن لم تره كذلك فأرجو الاستحصال على الموافقة لإعادته». كان اللواء ثابت آنذاك قريبًا جدًا من القائد العام، وأخشى أن يكون قد أسمعه شيئًا في غير مصلحة برهان.

عصر ذلك اليوم، ومن نافذة غرفتي شاهدت برهان يلعب ويمرح مع طفليه (طفل في الرابعة، وطفلة في الثالثة) فناديتهم أن يأتوا إلى غرفتي، وجاءوا وجلسوا بعض الوقت، وبعدها استأذن برهان لإعادة طفليه إلى بغداد. كان في غرفتي عندما دخل العقيد الركن محمد جواد [165] ضابط الركن الأول في الفرقة، وفي يده رسالة مغلقة مكتوب عليها «سريّ وشخصيّ تفتح من جانب القائد»، ووضعها أمامي وخرج ففتحتها وكان نصها (يُنفذ حكم الإعدام رميًا بالرصاص في الساعة السادسة من صباح الغد بالمقدّم الركن برهان خليل لتخاذله في ساحة المعركة، ويحضر ممثّلون من تشكيلات الفرقة والتنظيم الحزبي تنفيذ حكم الإعدام، ويقوم اللواء الركن قائد الفرقة

بإلقاء كلمة في الحاضرين بعد تنفيذ حكم الإعدام. التوقيع صدام حسين القائد العام للقوات المسلحة). رفعت رأسي عن الرسالة ونظرت إليه فقال برهان: «اسمح لي سيدي بالذهاب أرى أنك مشغول». فقلت له: «نعم إنهم يطلبون بعض الطلبات الطارئة وسأجتمع بضباط الركن». خرج وتركت الغرفة كي أستنشق الهواء فقد كنت أختنق، واستدعيت العقيد الركن جواد وأطلعته على البرقية فبدأ بالنشيج. قلت له: «جواد سجل ما يلي أُريد أن تهيّئ فريق الإعدام، وتبلغهم بأني أريد أن يُقتل من الرشقة الأولى فإن بعض الجنود يتحرجون من قتل زملائهم، ولا يصوبون على المحكوم عليه، ويوجهون رميهم إلى الأرض، ولا أريد أن يُضرب في منطقة الرأس كي لا يُشوَّه وجهه، وأن لا يُقيَّد عند ذهابه إلى ساحة الإعدام»، سألته: «من هو أقرب أصدقائه، أريده أن يكون متدينًا»، فقال لي: «العقيد سالم باشعالم من ضباط فرقتنا ومن أبناء مدينته الموصل»، فقلت له: «أُريده أن يذهب إليه في الساعة الرابعة فجرًا ليبلغه بالحكم، وأن يأخذ معه نسخة من القرآن الكريم، وبلغ تشكيلات الحزب لإرسال ممثليهم»، وكان يكتب ودموعه تجري على وجنتيه.

قبل الساعة السادسة صباحًا كان التجمّع قد اكتمل في ساحة التدريب التي نُصب فيها عمود الإعدام، جاء برهان يمشي مرفوع الرأس وبصحبته عدد من الضباط ووقف أمام العمود، ودفع يديه إلى الخلف كي تربطا إلى العمود وقرئ عليه حكم الإعدام، وتقدّم أحدهم كي يربط عينيه فرفض، وقال: «أنا لست جبانًا كي تُربط عيناي»، ثم رفع صوته عاليًا، وقال: «إنني لم أُقصر في واجبي وأنا ضابط شجاع وكلكم يعرفني، والجبناء هم من حمّلوني مسؤولية فشلهم»، ثم قال: «علّموا أولادي حب الله والجيش والوطن»، وأخيرًا قال: «في أمان الله سيدي القائد»، وهتف «عاش الجيش عاش الشعب عاش الوطن»، ودوّى صوت الرصاص، ومن الرشقة الأولى تدلّى رأسه على صدره، وأكمل فريق الإعدام الرشقات الثلاث، وألقيتُ كلمة قصيرة قلت فيها: «كثيرون من الشجعان قد لا يحالفهم الحظ على الرغم من شجاعتهم وحبهم للجيش والوطن. في الجيش يجب إطاعة الأوامر وتنفيذها. يبقى الوطن أغلى من كل شيء». وتركتهم مسرعًا، وصعدت إلى عجلتي وفيها انهمرت الدموع التي حبستها منذ الليلة السابقة.

كتبت ملخص ما حدث وكلمة برهان، وهو على عمود الإعدام وأرسلتها إلى القائد العام، وجاء ردّ القائد العام على رسالتي، وقد كتب فيها «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، وإنا لله وإنا إليه راجعون»، وبعد أشهر

عدّة صدر قرار من مجلس قيادة الثورة برد الاعتبار إلى الشهيد العميد الركن برهان خليل.

بعد أيام من إعدام برهان هاتفني وزير الدفاع نائب القائد العام عدنان خير الله، وأخبرني بأنه يرغب في أن أشغل منصب أمين سرّ وزارة الدفاع إن رغبت في ذلك، فأبديت ترحيبي وشكري لثقته، وبعد أيام غادرت الفرقة السابعة بعد أن أمضيت فيها أكثر من خمس سنوات وتشرفت بقيادتها فترتين.

معركة بنجوين تشرين الأول/أكتوبر - تشرين الثاني/نوفمبر 1983

قيادة الفيلق الأول - كركوك

كانت الاستخبارات العسكرية العامة وقيادة الفيلق الأول تتابعان حشد الإيرانيين قواتهم منذ منتصف أيلول/سبتمبر في منطقة ميروان الحدودية مقابل مدينة بنجوين الحدودية العراقية الواقعة على بعد 70 كلم شرق مدينة السليمانية. وفي منتصف تشرين الأول/أكتوبر كان الإيرانيون قد أكملوا حشد ثلاث فرقٍ من القوات النظامية، وفرقًا أخرى مؤلفة من الباسيج المتطوِّعين، وحرس الخميني، وعناصر من مخربي الحزب الديمقراطي الكردستاني العراقي (جماعة مسعود البرزاني)، ومجموعات من قوات بدر من المعارضة العراقية تحت إمرة «اطلاعات» (جهاز الاستخبارات الإيرانية). كان هدف عملية «والفجر4» الاستيلاء على مدينة بنجوين والمضيق والجبال المسيطرة عليه. وفي يوم 18 تشرين الأول/أكتوبر أعلنت القيادة العامة للقوات المسلحة العراقية في بلاغ لها أن العدو قد أكمل تحضيراته للهجوم في منطقة بنجوين من قاطع الفيلق الأول [166] .

في ليلة 19 تشرين الأول/أكتوبر تسلّلت مجموعات المشاة الإيرانية، وكان يدلّها مخربو الديمقراطي الكردستاني إلى المواقع الدفاعية الأمامية للفيلق الأول، وتمكَّنت وحدات المتطوِّعين وحرس الخميني من اجتياز حقول الألغام ومهاجمتها والاستيلاء عليها والتمركز فيها. لم تتمكَّن هجمات الفيلق المقابلة من استعادة المنطقة التي سقطت في يد العدو. تتابعت هجمات الموجات البشرية الإيرانية، وتمكَّنت من الاستيلاء على الخط الدفاعي الأمامي للفيلق. وفي يوم 25 شنّت هجومًا آخر، وبعد قتال شديد استمر حتى يوم 31 تراجعت قوات الفيلق الأول إلى خارج مدينة بنجوين. وفي الفترة بين 4 و9 تشرين الثاني/نوفمبر نشبت معارك عنيفة جدًا بعد تسلّل قوات إيرانية من

حرس الخميني بمساعدة مخربي الوطني الكردستاني عبر الأودية، واستولت على المرتفعات المشرفة على مدينة بنجوين، وحاولت الاستيلاء على مدينة بنجوين، لكنها وُوجهت بمقاومة شديدة من قوات الفيلق وتكبّدت خسائر فادحة، وعزز الفيلق الأول دفاعاته في العوارض المسيطرة على كتفي مضيق بنجوين [167] وقمتي قاية وهرزلة، وهاجم الإيرانيون تلك العوارض في 19 تشرين الثاني/نوفمبر وتمكّنوا من الاستيلاء على قمة هرزلة فقامت قوات من الحرس الجمهوري التي عُزز بها الفيلق إضافة إلى أكثر من 23 لواء آخر من قواطع العمليات الأخرى بهجوم مقابل، فطردت قوات العدو الإيراني من قمة هرزلة، وتوقفت المعارك في 30 تشرين الثاني/نوفمبر بعد أن تمكَّنت القوات الإيرانية من الاستيلاء على مناطق واسعة في قاطع بنجوين والمرتفعات المحيطة به، فضلًا عن وادي شلير الذي يقع على مسافة 15 كلم شمال مدينة بنجوين (والوادي أرض عراقية على شكل نتوء يمتد شرقًا في العمق الإيراني بعرض 10 إلى 20 كلم، وطول 40 كلم، واصطُلح على تسميته في كتاب الجغرافيا العسكرية «منقار البط»). وتمكّنوا أيضًا من الاستيلاء على المخافر العراقية الحدودية المحاذية لسلسلة المرتفعات الحدودية شمال، وشمال شرق مدينة جوارتة، وعارضة هلوان الواقعة على مسافة 10 كلم شمال شرق مدينة جوارتـة [168] .

أمين عام وزارة الدفاع

في بداية الشهر الثامن التحقتُ بمنصب أمين سر عام وزارة الدفاع (يعادل منصب وكيل الوزارة في الوزارات المدنية). كان الوزير يعاني الآم فقرات الظهر (الدِسْك)، وكان راقدًا في داره طوال فترة الشهر ونصف الشهر الأولى من دوامي في الوزارة، الذي استمرّ ثلاثة أشهر ونصف شهر. أوجز لي اللواء الركن زكريا الطيار (كان من أساتذتي عندما كنت طالبًا في كلية الأركان) طبيعة العمل في هذه الدائرة، وسياسة الوزارة وأسلوب تعاملها مع الوزارات الأخرى في القضايا المشتركة، وفي اللجان التي كانت الوزارة طرفًا فيها، ومع مجلس قيادة الثورة في بعض الأمور التي يُطلب فيها رأي الوزارة، وغير ذلك من أمور عمل الدولة اليومي، وهي سلسلة طويلة من الأعمال التي تتطلب رأي الوزير الذي كان راقدًا في بيته يعالج آلام ظهره. كنت أسأل اللواء زكريا الذي بقي معي ثلاثة أيام قبل انفكاكه، عن خبرته المكتسبة من اشتغاله مع الوزير فترة طويلة، وعن رأي الوزير في هذا الأمر أو ذاك؟ فيقول أعتقد أن رأي السيد الوزير في هذا الموضوع كذا،

ورأيه في ذاك كذا، ولم يكن من اللائق أن اتصل بالوزير في داره كلما طُلب رأي الوزارة. وغالبًا ما كنت أدرسه واتخذُ القرار بما أعتقد أنه يخدم المصلحة العامة. وعندما عاد الوزير إلى الوزارة بعد شفائه كان العمل معه ممتعًا، فشخصيته محبوبة ومتواضعة، وتشعر أنه صديق أكثر منه رئيسًا، واطّلعت من خلال عملي على عمل الوزارة وجانب من عمل الأركان العامة ودور كلٍّ منهما، ولاحظت عدم تحمل رئاسة الأركان مسؤولية الأعمال والقرارات التي من صميم واجباتها، وتحويلها الأمور كافة إلى الوزير لأخذ القرار في شأنها.

شكلتُ لجنة في مديرية التسليح والتجهيز، وكنت ممثلًا لوزير الدفاع لمتابعة مشروع تصنيع الصواريخ للأغراض العسكرية، وهو مشروع مشترك بين وزارة الدفاع العراقية ومثيلتها المصرية، على أن يجري ذلك في مصانع جمهورية مصر العربية وبمشاركة علماء من الجانبين. وكان المشروع برعاية شخصية من المشير عبد الحليم أبو غزالة وزير الحربية المصرية، وعلمنا من خلال علمائنا الموجودين هناك بتعثر المشروع وعدم الجدية في إنجازه، ثم أبلغنا الجانب المصري أخيرًا بتوقفه للصعوبات التي واجهتهم في تنفيذه. وعند تصفية الحسابات ادّعى الجانب المصري أن حصة العراق ممّا أُنفق على المشروع بلغت 200 مليون دولار من مجموع مبلغ 500 مليون دولار دفعتها وزارة الدفاع العراقية مقدّمًا. ولمّا طالبنا وزارة الحربية المصرية بإعادة مبلغ الـ 300 مليون دولار المتبقي اعتذرت عن عدم إعادته، وادّعت أنها ستغطي به ديونًا سابقة على الحكومة العراقية. فأخبرت الوزير أن هذا المبلغ يعود إلى وزارة الدفاع وليس إلى الحكومة العراقية، فقال: «دعه لهم، ولا نريد أن تكون الوزارة سببًا في توتر علاقاتنا في هذه الأوضاع».

كان الوزير ذا عقلية منفتحة على الأفكار، يتحمس للجيد منها ويقبل الأخذ والرد حتى في بعض ما يحمله من قناعات إذا رأى أنها مفيدة للجيش والقوات المسلحة. وأذكر أن الفريق علاء الجنابي مدير التوجيه السياسي آنذاك قدّم دراسة عن التوجيه السياسي في القوات المسلحة مع مقترحات بتوسيعه وإنزال المنتسبين إليه بين الوحدات، فيكون لكل آمر ضابط توجيه سياسي، وكان الجنابي متأثرًا بالتجربتين السوفياتية واليوغسلافية وكان عائدًا من زيارة إلى البلدين. كان الكادر المطلوب لهذه التوسعات يقارب الـ 36 ألف ضابط وضابط صف وجندي ومعدات ضخمة تشمل عجلات وإذاعات وغير ذلك في وقت كنا فيه بأمسّ الحاجة إلى هؤلاء الأشخاص وتلك المعدات والجهد لجبهات القتال. ومن تجربتنا لعناصر

التوجيه السياسي في الفرق والتشكيلات لاحظنا أنه لم يكن لهم حضور أو تأثير في تطوير القدرات والمعنويات. وكان التنظيم الحزبي يقوم بمعظم الواجبات التي حددها الفريق علاء الجنابي في دراسته، فاقترحت على الوزير أن نعيد تنظيم التوجيه السياسي الحالي بعد تقليص ملاكاته إلى التوجيه المعنوي، فكاد يطير صواب الفريق علاء الذي كان حصل على الموافقات المبدئية على الدراسة والملاكات من الأركان العامة والوزارة. وكان قرار الوزير بعد هذه المناقشة إبقاء الملاكات على ما هي عليه من دون زيادة أو نقصان، وأعتقد أن ذلك كان خدمة للجيش والقوات المسلحة.

كان خير الله طلفاح والد الوزير وخال الرئيس القائد العام معروفًا بسلاطة اللسان والتوسط وحب الظهور. أخبرني ضابط التشريفات هاتفيًّا أن الأستاذ خير الله طلفاح في طريقه إلى دائرتي، وبعد قليل دخل غرفتي فرحّبت به ودعوته إلى الجلوس، وكان بصحبته أحد العقداء الذين لم أشاهدهم من قبل (عرفت في ما بعد أن من سبقني كان يستقبله عند سلم الوزارة احترامًا لقرابته للرئيس والوزير). بعد قليل، ومن دون أي مناسبة بدأ يتكلم بكلام خشن وقاسٍ على الوزير، وسمّاه بتسميات لا تليق، وكان يقول «إن عدنان كذا، وعدنان كيت»، ثم أخذ يتكلم على الرئيس القائد العام، ويقول: «أنا قلت له أن يعمل هذا، ولا يعمل ذاك، وقمت بنصحه في هذا الأمر وذاك». وهكذا كان يحاول أن يظهر أنه صاحب الرأي في معظم ما يُتخذ من قرارات مصيرية في الدولة والحكم. وقال إن الرئيس السابق أحمد حسن البكر لم يكن يتخذ قرارًا إلا بعد المشاورة معه، ثم تطرق إلى الحزب، وتكلّم باستخفافٍ عنه وعن قادته وسمّاهم بالأطفال والمراهقين الذين لا يصلحون لشيء. وكان بين آونة وأخرى يلتفت إلى العقيد الذي جاء معه ويزجره بكلمات خشنة، وكان من الواضح أنه يريد إعطائي انطباعًا بأنه الكل في الكل في البلد والوزارة وبعدها يلعب كما يريد في ديوان الوزارة (كنت جديدًا في هذا المنصب، وجاء ليفرض سيطرته بهذا الأسلوب السمج كما يبدو). لم أستطع التحمل أكثر فنهضت، وقلت له: «أستاذ خير الله، إن عدنان الذي تحكي عنه هذا الكلام هو الفريق الأول الركن عدنان خير الله وزيري ورئيسي المباشر، وصدام الذي تتكلم عنه هذه الأقوال هو القائد العام ورئيس هذا البلد، فإذا كان عندك كلام عنهم فقله لهم في بيتكم. أما هنا فوزارة الدفاع هذه تعود إلى الوزير والقائد العام». تركت غرفتي إلى قاطع الأركان العامة، وجلست في غرفة صديقي اللواء الركن أحمد داود أمين سرّ رئاسة أركان الجيش.

قلت لمراسله: «أخبرني عندما يترك الأستاذ خير الله غرفتي». ولم يقرب الأستاذ خير الله بعدها الوزارة إلى أن غادرتها.

في النصف الثاني من كانون الأول/ديسمبر نُقلت إلى منصب مدير الحركات العسكرية في رئاسة أركان الجيش، وكان دوامنا يبدأ صباحًا في القيادة العامة للقوات المسلحة التي كان مقرّها آنذاك في بناية المجلس الوطني المجاورة للقصر الجمهوري، وقبيل الظهر نذهب إلى دوائرنا في وزارة الدفاع، وفي معظم تلك الأيام كان القائد العام يحضر لتناول الفطور معنا. كان رئيس أركان الجيش الفريق الأول الركن عبد الجبار شنشل ومعاونه اللواء الركن عبد الجواد ذنون ومدير الاستخبارات العسكرية العميد الركن محمود شكر شاهين والعميد الركن ميسر الجبوري مدير التخطيط ومدير الحركات العسكرية وكالة والفريق الطيار حميد شعبان التكريتي قائد القوة الجوية وأمين سرّ القيادة العامة للقوات المسلحة يحضرون جميعًا صباحًا إلى القيادة العامة، وحال التحاقي طلبت من العميد ميسر أن يوجز لي أحوال المديرية، وأن نقوم بجولة في دوائرها للتعرف إلى مديري الشعب والضباط والأعمال التي تنجز فيها، فنظر إليَّ وقال: «إنك لن تبقى في هذا المنصب طويلًا فلا أرى ضرورة لذلك»، ولم أسأله كيف عرف، وما هو الموقع الذي سأنقل إليه؛ فلم يكن العميد الركن ميسر ممن يبوح بما يعرفه من أمور في القيادة العامة. كان الفطور الصباحي مناسبة لإيجاز آخر الفاعليات في الجبهة للقائد العام، وللتطرق إلى بعض القضايا التي تخص الجيش والقوات المسلحة، وكان القائد العام أيضًا يذكر فيها بعض المواقف التي حدثت في المعارك والعمليات السابقة، ويبدي رأيه في حوادثها وفي بعض القادة والآمرين. وكان يتطرق أحيانًا إلى حوادث وذكريات عن لقاءاته سياسيين وزعماء دول، ويروي بعض ذكرياته عن الريف والقرية والأقرباء والأصدقاء. وعندما يعرض رئيس أركان الجيش موقف العمليات أو بعض قضايا الجيش، أو عندما يذكر مدير الاستخبارات معلومات عن العدو كان يستمع باهتمام شديد ولا يقاطع المتحدث مهما أطال، وغالبًا ما كان يعلّق بعد انتهاء المتحدث بآراء وتعليقات عميقة ومتفهمة. ولاحظت قدرته على تلقف الفكرة الذكية أو الرأي الحصيف، فيعيد صوغها وترتيبها، ويطرحها لتبدو وكأنه هو من أبدعها وفكر بها. وكان يتحدّد في جلسات الفطور هذه مصير بعض القادة وكبار الضباط، وأذكر أنه في إحدى المرات تكلم بقسوة على اللواء الركن عبد الستار المعيني قائد الفرقة الرابعة سابقًا ومدير مديرية التدريب، وهو ضابط ركن وقائد جيد وكان ينوي وفق حديثه إحالته على التقاعد،

لكن كنت أعرف أن المقصود بالكلام هو اللواء الركن مطر المعيني قائد الفرقة 12 التي خاضت سلسلة من المعارك الفاشلة في القاطع الأوسط، وكنت واثقًا من أن الجميع كان يعرف ذلك، ولم ينبس أي منهم بكلمة واحدة، فاستأذنته بالكلام وقلت: «سيدي الرئيس أعتقد أنك تقصد بكلامك اللواء مطر المعيني قائد الفرقة 12، أما اللواء الركن عبد الستار المعيني فهو ضابط ركن وقائد جيد» [169] . فالتفت إلى رئيس أركان الجيش وسأله: «ماذا تقول يا أبو مثنى؟»، فأجابه: «نعم سيدي، كما قال اللواء نزار». وحدث مثل ذلك أكثر من مرة وتدخّلت لتصحيح معلومة ما عن ضابط جرى التطرق إليه، وقبِل ملاحظاتي بصدر رحب، ولم أفهم لماذا لا يتكلم الآخرون؟ وفي مناسبة أخرى، وإلى مائدة الفطور أيضًا جرى التطرق إلى كلية الأركان فذكرت له مزايا العقيد الركن سعد الدين عزيز المعلم الأقدم في دورتي في كلية الأركان فسألني: «وأين هو الآن؟»، فأجبته بأنه تسلم منصب قائد الفرقة الثانية وأحيل على التقاعد، وعيِّن في منصب مدير عام الموانئ في البصرة، «ولا أعرف أين هو الآن»، فأمر بالبحث عنه وإعادته قائدًا لإحدى فرق الفيلق الأول الخاص [170] (اللواء الركن سعد الدين عزيز رقي إلى رتبة فريق، وأصبح معاونًا لرئيس أركان الجيش للميرة ثم رئيسًا لأركان الجيش، ترقى إلى رتبة فريق أول ركن)، وكان من الممكن أن يتغير كثير مما حدث لو تكلمت هيئة الركن التي أحاطته معظم مدة الحرب.

في الأيام الأولى من بداية عام 1984، وإلى مائدة الفطور في القيادة العامة للقوات المسلحة، قال الرئيس القائد العام: «لواء نزار، هيّئ نفسك سنخرج بجولة»، وكانت الجولة في طائرة سمتيّة أقلتني مع القائد العام، وصاحبتنا في جولتنا تلك ثلاث سمتيّات للحماية. لم أكن أعرف الوجهة التي كنا ذاهبين إليها، وبعد أن أقلعت الطائرات قال الرئيس: «لواء نزار، نسّبتك قائدًا للفيلق الأول»، فشكرته، وأضاف: «وصاحبك فاضل البراك [171] مديرًا للاستخبارات؛ فما رأيك بفاضل البراك في هذا المنصب؟»، فأجبته: «فاضل البراك شخصية ذكية ومثقفة سيدي الرئيس، وأعتقد أنه سيعتمد على النوعية بدلًا من الكمية، وسيحاول أن يُطور ويُعلمِن دائرة الاستخبارات، وهذا ما أعرف عنه»، وذكرت للرئيس أنني فهمت من قراءاتي أن جهاز الاستخبارات الإنكليزية (MI6) يحوي كادرًا محدودًا من المحترفين واعتماده الرئيس هو على الباحثين والمتخصصين بالشوؤن الدولية في الجامعات ومراكز البحوث من العاملين والموفدين في خارج بريطانيا من أساتذة ورجال أعمال

ومال وأصحاب شركات وعسكريين متقاعدين، حيث يُكلّفهم الجهاز بالبحث وجلب المعلومات في القضايا التي تهمه، ويُقدّم هؤلاء أفضل ما يستطيعونه بدافع الوطنية والولاء للبلد من دون تحميلها أي تكاليف. ولم يُعلق الرئيس على هذه المعلومة، ثم جرى التطرق إلى أيام كنا أنا وفاضل نمضي الساعات الطوال في مناقشة أحوال البلد ومسيرة الثورة والحزب، وأخبرته كيف كان فاضل البراك يبدي إعجابه الكبير بشخص الرفيق صدام حسين، وتميُّزه من باقي أعضاء القيادة، وكيف كان لي تحفظي على رأيه هذا. وكانت مخاوفي كما قلت له في حينها من أن باقي أعضاء القيادة إما أنهم لم يكونوا مؤهلين للقيادة في الحزب، أو أن قرابة الرفيق صدام للبكر أعطته تلك الخصوصية، ولما عجز عن إقناعي قال: «ستراه يومًا ما، وبعدها أخبرني بما تراه». وقلت للرئيس: «ولما التقينا في موسكو، وكانت تلك أول مرة أراك فيها أخبرت فاضل أنه كان محقًا في رأيه بالرفيق صدام حسين». وكان الرئيس ينظر إليَّ بمزيج من الاستغراب والفضول، وأنا أسرد عليه تلك الذكريات، وعلمت في ما بعد أن قلة كانوا يتكلمون معه بتلك العفوية والصراحة.

كانت المحطة الأولى لجولتنا قيادة الفيلق الرابع في العمارة، واستقبلنا الفريق ثابت سلطان قائد الفيلق، وقادة الفرق، وضباط ركن القيادة، ثم ذهبنا إلى دائرة القائد، وأخبره الرئيس أني قد أصبحت قائدًا للفيلق الأول فتمنى الفريق ثابت لي النجاح، ثم أوجز للقائد العام عن العدو وفاعلياته في جبهة الفيلق، وعن ترتيبات الفيلق، وقيّم قادة فرقه وأداءهم في الجبهة، وفي المساء التقى القائد العام قادةَ الفرق في إحدى كرفاناته، واستمع إلى شروحهم، وسأل إن كانت هناك أي طلبات كي ينفذها، وبعدها انتقل الجميع إلى كرفان آخر حيث أُعدَّ العشاء، وكان مزاج الرئيس طيبًا في أثنائه، فأمضى وقته في الحديث معهم.

كانت قيادة الفيلق الثالث في البصرة محطتنا في اليوم الثاني من جولة القائد العام، واستقبلنا الفريق سعدي طعمة قائد الفيلق، فأوجز الحال للقائد العام الذي اجتمع بقادة الفرق، واستمع إلى شروحهم وطلباتهم، وبعد الغداء تحركنا بالعجلات إلى قيادة القوات البحرية. وكانت جماهير من المواطنين قد تجمّعت هناك فترجل الرئيس، ونحن معه على بُعد مئة متر أو أكثر من القيادة، وسرنا ونحن نشقّ طريقنا بمشقة بين حشود المواطنين الذين كانوا يهتفون ويهزجون، وكان الرئيس يردّ عليهم ملوحًا بيده، ويمنع مرافقيه من إبعادهم عند تدافعهم للتقرب منه لمصافحته. وكان العميد

البحري الركن عبد محمد عبد الله قائد القوات البحرية مع ضباطه في انتظارنا في مدخل القيادة، والتقى القائد العام بآمري وضباط ركن البحرية، وبعد العشاء انصرفنا للراحة.

في صباح اليوم التالي أخبرني العقيد صباح ميرزا المرافق الأقدم للرئيس أن الرئيس التقى ليلة أمس وفجر هذا اليوم أكثر من 50 مواطنًا من أصحاب الحاجة الذين طلبوا مقابلته، ونظرت إليه وكان يبدو في كامل نشاطه، وهو يحدق من نافذة السمتيّة التي كانت تحلق فوق الأهوار ونحن في طريق عودتنا إلى بغداد.

X قناة خيين هي قناة تخرج من شطّ العرب على الضفة الشرقية. يبدأ منها خط الحدود العراقية - الإيرانية باتباع خط منتصف العمق (التالويك Thalweg) مقسِّمًا شطّ العرب بين العراق وإيران وفق اتفاقية عام 1975(اتفاقية الجزائر).

X تغلبت روح الحماسة على السياقات النظامية لاستخدام القوات المسلحة، وأصبح الجميع يرغب في المشاركة في المعركة ولو من بعيد، الأمر الذي أضر بالقوات المسلحة العراقية العالية المهنية والاحتراف. واستمرت حالة الفوضى والحماسة هذه مستشرية حتى إعادة تنظيم القوات المسلحة لاسترداد الفاو وتحرير أراضينا الوطنية بدءًا من منتصف عام 1987.

X حُمِّل اللواء الركن صلاح القاضي، وهو من الضباط الجيدين، مسؤولية الإخفاق في المحمرة على الرغم من أنه قد أبلغ القيادة بنقاط الضعف الخطرة في منظومتنا الدفاعية، وأوصى بإعادة ترتيب مواضعنا الدفاعية بإخلاء مواقع كثيرة تعاني اختلالًا في ترتيباتها. وحصل ما توقعه وانكسرت القطعات فدفع حياته ثمنًا لخطأ لم يرتكبه، ولمعركة لم تتح له فرصة قيادتها لكثرة الذين تدخلوا في إدارتها كما بيّنا آنفًا. أما قائد الفرقة المدرعة الثالثة العميد الركن جواد أسعد شيتنة فهو سليل مشايخ أكراد كرام كانوا قبل إعدامه وبعد إعدامه من المؤيدين للحكومة والموالين لها، على الرغم من أن عشيرته تسكن في منطقة جبل قلندر بموازاة الحدود التركية وأن مسألة تمرّدها لو شاءت لم تكن صعبة لكنها آثرت الولاء وظلت هكذا إلى الآخِر.

X لم يكن الرئيس الراحل صدام حسين بعيدًا عن القيادة العسكرية، وقد درس مع دورة الأركان 43 وبشكل موازٍ للدورة، ثم ساهم بآرائه في مراحل التخطيط الأولى. وحضر دومًا اجتماعات القيادة العامة للقوات المسلحة، وكان يميل إلى سماع الآراء بتمعن ويترك لصاحب الرأي أن يعطي رأيه بحرية من دون أن يقاطعه، الأمر الذي جعل حضوره الاجتماعات أمرًا

مألوفًا.

X المخاضات هي المناطق الضحلة في الأنهر والأودية التي يمكن عبور العجلات فيها في حالة تدمير الجسور أو لتسريع العبور إضافة إلى الجسور.

X تعد عملية الانسحاب أعقد عمليات القتال النظامي الأربع الرئيسة (التقدم والهجوم والدفاع والانسحاب)، وتتطلب جهدًا جبارًا للسيطرة عليها. ويكون للتوقيتات تأثير مهم في نجاحها أو فشلها.

X ممرات الدوريات ممر يؤشر في حقول الألغام ويكون خاليًا من الألغام لعبور دورياتنا القتالية والاستطلاع في الأرض الحرام.

X خط من العتاد أو الأرزاق هو قياس محدد من العتاد والأرزاق. وقياس الخط الأول يحمل مع الجندي أو السلاح الساند، والخطوط الأخرى تكون في الاحتياط، وتخزن في قدمات في الأمام وفي المخازن في الخلف.

X الحجابات الأمامية، هي مجموعة صغيرة من القطعات توضع أمام الموضع الدفاعي الرئيس حتى لا يفاجأ بهجوم العدو وتُراقب وترفع المعلومات عن فاعليات العدو في الوقت نفسه. تُطلق عليها بعض الجيوش الشقيقة التي تتبع العقيدة الشرقية مصطلح «الحرس».

X الساقات الخلفية، قطعات صغيرة تبقى في الخلف عند الانسحاب لحماية القوة الرئيسة في أثناء انسحابها وللحيلولة دون تدخل العدو بعد انسحاب القطعات الرئيسة.

X نقاط التفقد هي نقاط سيطرة تفتح في أثناء عملية الانسحاب لضبط سير العملية والسيطرة على الوحدات خلال تنفيذها العملية.

X وُضعت موارد الدولة في أثناء الحرب بوزاراتها ومؤسساتها كافة تحت تصرف جهد الدولة المركزي لخدمة جبهات القتال، وشمل ذلك المعدات الهندسية والفنية والعجلات والناقلات والمهندسين والفنيين والمشغلين والعمال.

X التقدم والمناورة على الاتجاهات غير المباشرة لمواضع العدو الدفاعية، واستراتيجية الاقتراب غير المباشر هي استراتيجية وضع أسسها المفكر البريطاني ليدل هارت وتحوّلت تطبيقاتها التعبوية والعملياتية إلى الاستفادة من المناورة الواسعة لتحقيق أهداف العمليات.

X الفريق الركن ثابت سلطان من عائلة محترمة في تكريت، وزوج ابنة حردان التكريتي نائب رئيس الجمهورية في بداية الثورة، الذي اغتيل في الكويت بعد إبعاده من منصبه. أصبح ثابت قائدًا للفيلق الرابع قبلي على الرغم من أنني أقدم منه بـ 12 دورة (سنة) ثم أصبح معاون رئيس أركان الجيش وعمره 37 عامًا، غضب عليه القائد العام (لأسباب نجهلها)

فأحاله على التقاعد، وبعدها سجنه لبعض الوقت ثم أطلق سراحه، ثم وُجد مقتولًا في مزرعته.

X ضابط ركن متميِّز استشهد في عام 1983 في معارك بنجوين في قاطع الفيلق الأول الذي كان يقوده الفريق الركن ماهر عبد الرشيد.

X أصدرت القيادة العامة للقوات المسلحة بيانات متسلسلة عن سير العمليات ونتائجها صدرت في كتاب جامع لها من البيان رقم (1) حتى البيان الأخير الذي سمّته بيان البيانات. طبع الكتاب في مطبعة التوجيه السياسي ويصلح مرجعًا ذا صدقية عالية لمن يتابع ويوثق وجهة النظر العراقية وأداء القوات المسلحة العراقية. وعلى الرغم مما في بعض هذه البيانات من تعابير خطابية هدفها شحذ المعنويات، إلا أنها على العموم على درجة عالية من الصدقية.

X يقع مضيق بنجوين بين قمتي قاية وهرزلة في سلسلة جبال هورمان التي تشكل خط الحدود العراقي - الإيراني الذي يمر من قممها، وتمر منه الطريق التي تسيطر عليها الجبال من الطرفين. يربط بنجوين بسيد صادق وعربت فمدينة السليمانية.

X جوارتة مركز قضاء بشدر وتقع على السفوح الجنوبية لسلسلة سرسير شمال مركز محافظة السليمانية، وسيتردد اسمها كثيرًا لكثرة المعارك التي خيضت فيها وحولها.

X ترقى اللواء الركن عبد الستار المعيني في ما بعد ووصل إلى رتبة فريق، وأصبح قائدًا للفيلق الثاني ثم معاونًا لرئيس أركان الجيش للإدارة ثم وزيرًا للمواصلات وظل في هذا المنصب حتى الغزو.

X الفيلق الأول الخاص تشكل في السنة الثالثة من الحرب من الضباط المتقاعدين، وكان يتألف من 3 فرق، وتسلم القاطع في بدرة وجصان بين الفيلق الثاني والفيلق الرابع.

X كان فاضل البراك يشغل منصب مدير الأمن العام في هذا الوقت.

الفصل العاشر: قائد الفيلق الأول

التحقت في 9 كانون الثاني/يناير 1984 بقيادة الفيلق الأول، وكان في استقبالي الفريق الركن ماهر عبد الرشيد [172] قائد الفيلق الذي نُقل إلى قيادة الفيلق الثالث في البصرة. وأقام بهذه المناسبة حفلة استقبال في نادي شركة نفط الشمال في كركوك حضرها أمين سرّ فرع الشمال للحزب الرفيق سعدي مهدي صالح [173] (من محافظة صلاح الدين (تكريت)، وهو شخصية متميزة بلطفها وتواضعها)، ورفاقٌ من قيادتي الفرع المدني والعسكري للحزب، وبعضُ ضباط ركن الفيلق. قمت بجولات في قاطع الفيلق الواسع الذي يمتد على جبهة 500 كلم مع إيران وتركيا في محافظات السليمانية وأربيل ودهوك ونينوى (الموصل). وبعد مرور أكثر من 40 يومًا على انتهاء معارك بنجوين كان لا يزال في قاطع الفيلق 23 لواءً و22 كتيبة من التعزيزات التي أُرسلت إلى قاطع الفيلق في معارك بنجوين، عدا تشكيلات الحرس الجمهوري والقوات الخاصّة وبعض وحدات الدروع التي سحبت بعد انتهاء المعركة، وتم تشكيل أفواج الدفاع الوطني في أثنائها، التي كُلفت بقتال المسلحين الأكراد كي تتفرغ القطعات العسكرية في قاطع الفيلق لمواجهة العدو الإيراني.

أفواج الدفاع الوطني صيغة متقدمة عن «فرسان صلاح الدين» التي شكلتها الحكومات السابقة من العشائر الكردية الرئيسة الموالية للسلطة لتقاتل المسلحين الأكراد، عيِّن ثلاثة ضباط لكل فوج: آمر ومساعدٌ وضابطٌ إداري، وسُمي رئيس العشيرة مستشارًا للفوج، وكان هو عمليًّا من يقوده ويسيطر عليه، وكان لبعض العشائر أكثر من فوج (عدد أفراد الفوج بين 1000 و1500 وأكثر أحيانًا لبعض العشائر الكبيرة)، وبحسب مناطق وجودها، فالعشائر الكبيرة مثل السورجيّة والهركيّة والزيباريّة كانت تحظى بأكثر من فوج لكل منها، وترتبط الأفواج بقيادة أفواج الدفاع الوطني الأول التي كانت بإمرة قيادة الفيلق الأول في كركوك. وبعد استحداث الفيلق الخامس [174] تشكلت قيادة أفواج الدفاع الوطني الخامس، وارتبطت بقيادة الفيلق الخامس في أربيل.

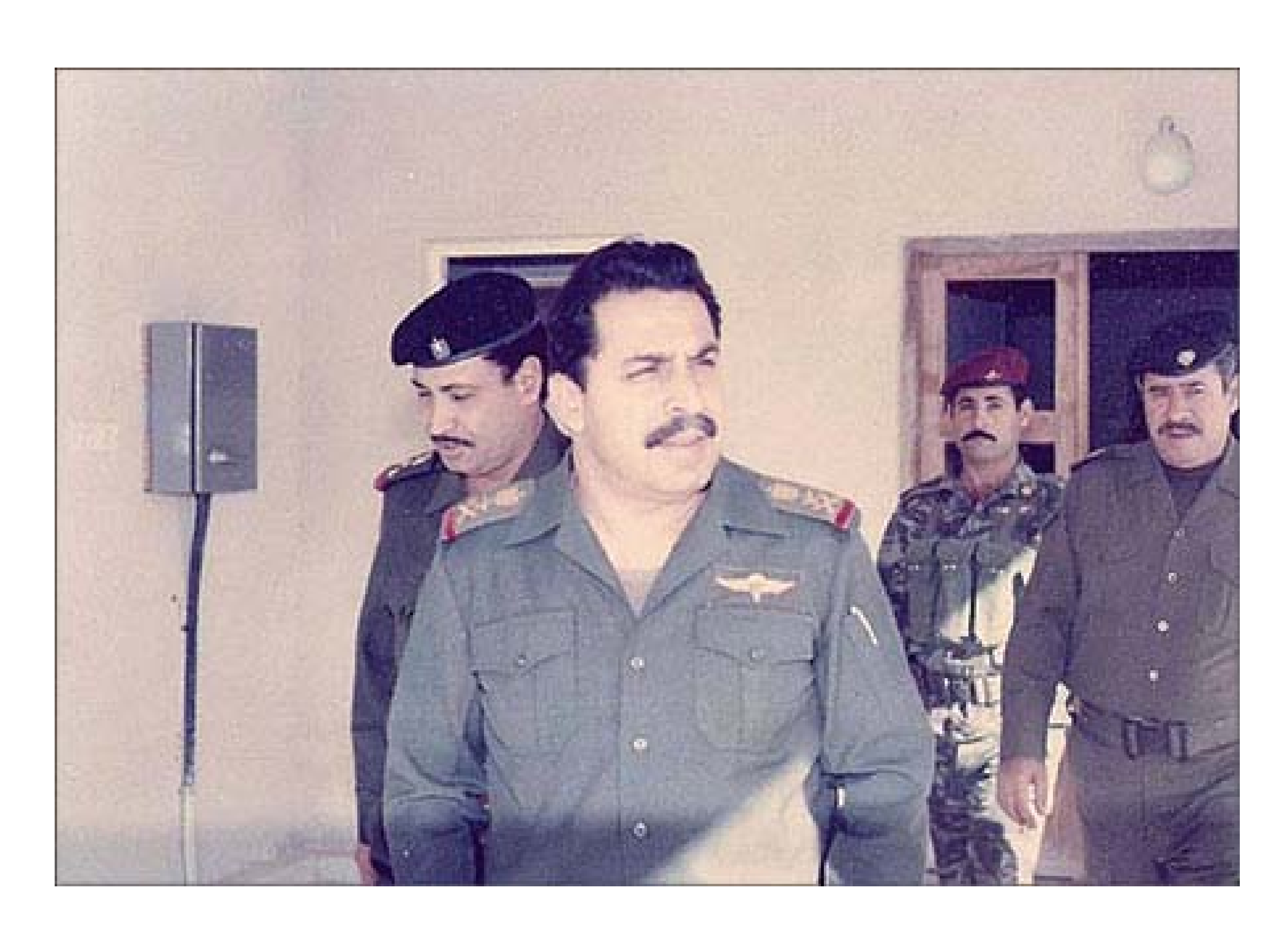
كان التعامل مع الأفواج وشيوخها عملية حساسة تتطلب تفهُّم القائد وحسن تقديره من أجل الاستفادة القصوى من أدائها في الواجبات التي تُكلف بها. وكان عددها نحو المئة فوج قبل أن يقرر الرئيس تسليح

الشعب الكردي لقتال المسلحين الأكراد في عام 1987، إذ بلغ عددهم نحو 250 فوجًا، الأمر الذي ولّد لنا مشكلات كثيرة، لأن معظم الأفواج الجديدة شُكلت إما من عشائر صغيرة أو من طريق قيام بعض الأشخاص بتجميع عناصر من القرى والقصبات وأحيانًا المدن، لتشكيل أفواج لغرض الكسب المادي.

في عام 1983 توصلت السلطة العراقية إلى اتفاق إيقاف إطلاق النار مع قيادة الاتحاد الوطني الكردستاني، وبدأت مفاوضات ماراثونية مع لجنة شؤون الشمال، تحت توجيه مباشر من الرئيس، للوصول إلى اتفاق يرضي الطرفين لإنهاء التمرد وعمليات التخريب. وكان جلال الطالباني [175] وقادة الاتحاد يتوقفون في كركوك في ذهابهم إلى بغداد وعودتهم منها. كنا نلتقيهم في مكتب الرفيق سعدي مهدي صالح عضو القيادة القطرية وأمين سرّ فرع الشمال للحزب. وقاموا بزيارتي أكثر من مرة في قيادة الفيلق، وغالبًا ما كنا نحضر معًا دعوات العشاء التي تقام لهم بمناسبة وجودهم في كركوك، الأمر الذي وثّق علاقتي بجلال الطالباني ومعظم أعضاء قيادة الاتحاد الوطني الكردستاني.

الصورة (10 - 1)

في مقرّ الفيلق الأول في كركوك



معركة هور الحويزة الأولى شرق دجلة 22 شباط/فبراير 1984

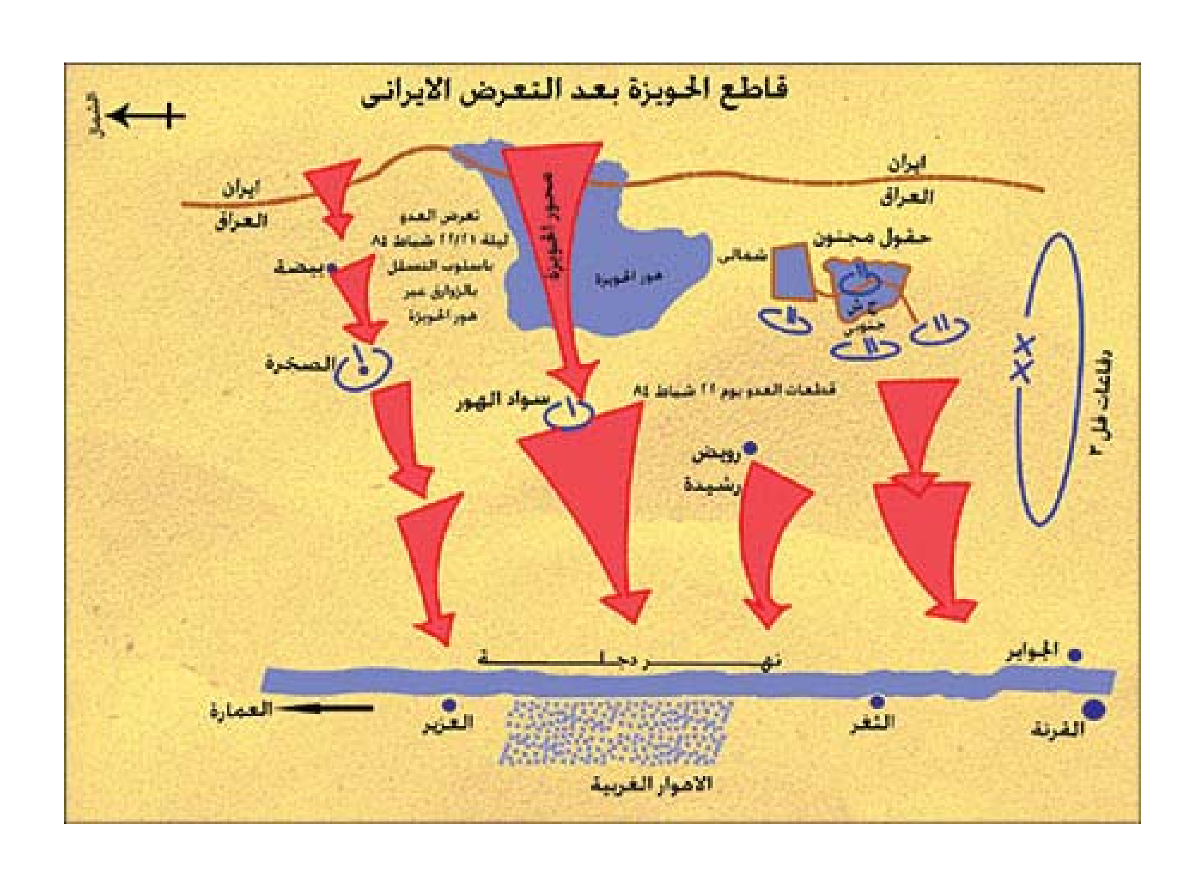
مسارح عمليات الفيلقين الثالث والرابع وقيادة عمليات دجلة

منذ بداية الصراع المسلح بين العراق وإيران لم تجرِ أي فاعليات عسكرية بين طرفي النزاع في مستنقعات هور الحويزة التي تُشكل حاجزًا طبيعيًا على امتداد الحدود العراقية - الإيرانية من العمارة شمالًا حتى شمال البصرة جنوبًا، وكانت المعلومات محدودة عما يجري فيها. وشكّل هجوم العدو الواسع بالاندفاع عبر المستنقعات في هذا الاتجاه مباغتةً استراتيجية للقيادة العامة للقوات المسلحة، وسمّوه «عمليات خيبر» [176] .

وكان العدو قد أجرى قبلها سلسلة من العمليات الهجومية المحدودة في منطقة الشهابي على الحدود الدولية شرق الكوت في قاطع الفيلق الثاني، والشيب (الواقعة على الحدود الدولية شرق محافظة ميسان (العمارة)) في قاطع الفيلق الرابع، والشلامجة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من مدينة البصرة على الحدود الدولية في قاطع الفيلق الثالث للمخادعة، وتثبيت قوات الضربة المقاتلة واحتياطاتها.

الشكل (10 - 1)

معركة هور الحويزة الأولى 22 شباط/فبراير 1984



كان هدف العدو من هذه العملية السيطرة على طريق بغداد - البصرة، والاندفاع غربًا عبر نهر دجلة للوصول إلى الأهوار الغربية في محافظة ذي قار (الناصريّة)، والتعاون مع المتمردين الموالين لإيران فيها، واقتطاع جزءٍ كبيرٍ من جنوب العراق، وقطع طرق المواصلات بين البصرة وبغداد، وإحاطتها من الشمال وكذلك المناطق النفطية المحيطة بها تمهيدًا لاحتلالها. ورَامَ الإيرانيون كذلك قطع العراق عن الخليج العربي في ضربة استراتيجية جريئة كان هدفها النهائي إسقاط النظام الحاكم واحتلال العراق بدءًا بالبصرة والتربع على رأس الخليج العربي والتحكّم به.

طبيعة المنطقة

تمثِّل مستنقعات هور الحويزة مسطحًا مائيًّا واسعًا تمر الحدود العراقية - الإيرانية عبر رُبعه الشرقي، ويمتد إلى مسافة تزيد على 200 كلم، وبعرض يتراوح بين 25 و40 كلم يمتدّ من عقدة غزيل شمال البصرة حتى مخفر حلفاية المشرح - الشيب جنوب العمارة. وجُفف بعضُ المناطق في مستنقعات هور الحويزة لأغراض وزارة النفط (حقلي مجنون الشمالي والجنوبي). والهور محاط بسداد ترابية بارتفاع 3 إلى 4 أمتار، وعرض 8 أمتار. ويكثر فيه نبات القصب والبردى والنباتات المائية في بعض أقسامه، ويبلغ ارتفاعها 2 - 3 أمتار فوق سطح الماء. يتغذّى هور الحويزة من نهر الكرخة العمية المتفرّع من نهر الكرخة الأصلي، بل إن أغلبية مياه نهر الكرخة تتسرب وتصب فيه، الأمر الذي يجعله مانعًا مائيًّا مهمًّا وخطِرًا يفصل البلدين ويمنع الحركة الواسعة النطاق عبره، إلا لمجموعات صغيرة من المتسلّلين والمهربين. كانت هذه هي الصورة قبل تعرّض (هجوم) الإيرانيين الواسع النطاق عبر هذا الهور ومباغتتهم العراقيين بالكامل.

الطرق والمقتربات

لا تتيسر للعدو مقتربات غير الممرات المائية الضيقة التي تحددها نباتات القصب والبردى عبر مستنقعات الهور باستخدام الزوارق، ولذلك عوّل على استخدام الطائرات السمتيّة. أما في قاطع الفيلق الثالث فإن للعدو مقتربات برية باتجاه عقدة غزيل - السويب، ويؤدي سلوك العدو هذا المقترب إلى أن يكون خلف قطعات الفيلق المدافعة عن حافة الهور الجنوبية الغربية.

أما الطرق المتيسّرة لقطعات الفيلق الثالث، التي تؤدي إلى هور الحويزة

فهي طريق القرنة - الروطة - هور الحويزة، وطريق الزريجي - النشوة - هور الحويزة، وطريق التعاون غزيل - السويب - حقل مجنون الجنوبي. أما في قاطع الفيلق الرابع فالطرق المتيسّرة هي الطريق الرئيسة العمارة - العزير - القرنة - البصرة حيث تتفرع منها طريق تؤدي إلى قرية الصخرة - قرية البيضة بعد عبورها نهر دجلة عبر جسر العزير، وطريق العزير - عقدة العجيردة المارة على الجسر الذي أنشأته الهندسة العسكرية جنوب العزير، وطريق التعاون بين الروطة - الرشيدة - عجيردة [177] .

أهم الموانع في ساحة العمليات هي مستنقعات هور الحويزة وشطّ العرب ونهر دجلة والسداد الترابية في حقلي مجنون النفطيين الشمالي والجنوبي، ولسان عجيردة وسداد هور الحويزة والسدة الموازية لنهر دجلة.

قوات الطرفين

- العدو

بدأت إيران استعداداتها لهذه العملية منذ وقت طويل، وتمكَّنت من حشد قوة ضاربة تتراوح بين 100 ألف و150 ألف مقاتل من القوات النظامية والباسيج وحرس الخميني في الجانب الشرقي من هور الحويزة وفي المدن القريبة منه، وأدار عملياتها الهجومية (عمليات خيبر) مقرّ عمليات «محمد رسول الله»، وبإمرته فرق من القوات النظامية وحرس الخميني والمتطوعين، ومنها فرقتا المشاة 22 و27، وفرق حرس الخميني: فرقة المشاة 7 ولي العصر، فرقة المشاة 15 كربلاء، وفرق أخرى، ومجموعات من المسلحين العراقيين الموالين لإيران من مجموعات التوابين وقوات بدر [178] . وجرى تعزيز قوات العدو بأعداد كبيرة من أسلحة مقاومة الدبابات 106 ملم وأسلحة مقاومة الطائرات، وكذلك بقطعات من القوات المحمولة جوًا باستخدام السمتيّات، وجرى تأمين أعداد كبيرة من الزوارق بأنواعها المختلفة لعبور مستنقعات هور الحويزة، وعدد من الجسور لربط الأهوار بالبر الإيراني.

- قواتنا

- قاطع الفيلق الثالث

أولًا: فرقة المشاة 31 قيادة قوات الحسين.

ثانيًا: قاطعا جيش شعبي في حقلي مجنون الشمالي والجنوبي.

ثالثًا: مخافر الشرطة الحدودية.

- قاطع الفيلق الرابع

لواء حدود موزع على شكل حضائر على سداد الهور.

خطط الطرفين

- العدو: خطط العدو وعملياته التعرضية في ثلاث صفحات:

- الصفحة الأولى: العبور إلى الجانب الغربي من هور الحويزة بالزوارق والإنزال بالسمتيّات، والسيطرة على السداد الغربية للهور، واحتلال حقلي مجنون والقرى والمخافر العراقية في قاطعي الفيلق الثالث والرابع.

- الصفحة الثانية: الاندفاع إلى نهر دجلة والسيطرة على جسوره واحتلال القرنة والعزير.

- الصفحة الثالثة: عبور نهر دجلة والاندفاع باتجاه الأهوار الغربية والاتصال بالمتمردين الموالين لإيران.

- قواتنا

لم تتوقع القيادة العامة، وقيادة الفيلقين قيام العدو بالتعرض الواسع في هذا القاطع مفترضة أنه يُشكل حاجزًا طبيعيًا بيننا. والإجراءات كلها التي اتخذتها القيادة العامة لاحقًا كانت لمعالجة الاختراق وإعادة السيطرة على الجانب العراقي من مستنقعات الهور [179] .

سير العمليات

بدأ تعرّض القوات الإيرانية ليلة 22-23 شباط/فبراير 1984 عبر هور الحويزة بأعداد كبيرة من مشاة الفرق النظامية وحرس الخميني، مستخدمين الزوارق المختلفة للوصول إلى السداد الغربية للهور، سبقها قيامهم باحتلال قريتي البيضة والصخرة العراقية من خلال عمليات إنزال بالسمتيّات وقوارب الصولة، وتمكّنوا من احتلال حقلي مجنون الشمالي [180] والجنوبي، وتسلّلوا بمجموعات صغيرة متفرقة تلتقي في أماكن محددة وتندفع غربًا. وفي قاطع الفيلق الثالث تمكّنوا من الوصول إلى السداد الغربية والسويب. وفي قاطع الفيلق الرابع تمكّنوا من الوصول إلى نهر دجلة ومدينة العزير، واجتازت بعض مجموعات العدو نهر دجلة وقطعت طريق البصرة - بغداد في مناطق عدّة بين العزير والقرنة.

أصدرت القيادة العامة للقوات المسلحة إلى قيادتي الفيلقين الثالث والرابع في الليلة نفسها بعد انكشاف تعرّض العدو توجيهًا بمنع قوات العدو من الاندفاع غرب دجلة باتجاه الأهوار الغربية. وفي صباح اليوم التالي 23 شباط/فبراير صدرت الأوامر لقيادة الفرقة المدرعة السادسة لطرد العدو من

المناطق التي احتلها ليلًا في قاطع الفيلق الثالث، وتحرّكت الفرقة المدرعة الثالثة من شرق الزريجي إلى شرق القرنة وتمركزت فيها.

في قاطع الفيلق الرابع تحرّكت الفرقة المدرعة العاشرة ناقص اللواء المدرع 42 من تلول البند شرق العمارة باتجاه منطقة العزير (اللواء المدرع 17، ولواء المشاة الآلي 24)، وجرت معركة للسيطرة على جسر العزير على نهر دجلة بأحد الأفواج الآلية، وتمكّن بعد قتال قصير من السيطرة على الجسر لعبور باقي الفرقة إلى مناطق تحشُّدها شرق العزير، وقتلت عددًا من المتسللين الإيرانيين، وأسرت عددًا آخر ووصل لواءا القوات الخاصّة 66 و68 إلى قاطع الفيلق الرابع.

نهار 23/2 شكلت القيادة العامة مقرّ «عمليات شرق دجلة» (تحول في ما بعد إلى الفيلق السادس لإدارة العمليات في جبهة الاختراق في قاطع الفيلق الرابع). وطوال نهار 23 وليلة 23/24 كانت الفرق والتشكيلات المخصّصة للهجمات المقابلة تتحرك إلى منطقة العمليات، وأرسلت عناصر الاستطلاع للفرق والتشكيلات لاستطلاع القواطع المخصّصة لها، وتنقلت قطعاتهم خلفهم بإمرة معاونيهم لكسب الوقت.

العمليات في قاطع الفيلق الثالث

بعد احتلال العدو جزر مجنون النفطية اندفع غربًا واحتل مقرّ شركة النفط، وحاصر اللواء المدرع 56 المتمركز في تقاطع مجنون - طريق التعاون. واندفعت مجاميع من المتسلّلين باتجاه الروطة - نهر دجلة - القرنة في ليلة تعرّضه نفسها. وتمكّنت قطعات الفيلق الثالث من قتل وأسر عدد من مجاميع العدو في مناطق قريبة من نهر دجلة والروطة، فأدّى هذا إلى تراجعهم إلى الهور في 25/2/1984، وفكّ الحصار عن اللواء المدرع 56.

شنّت الفرقة المدرعة السادسة هجومًا على سداد الهور ومجنون في 26/2/1984، وتمكّنت وحدات اللواء 16 المدرع من تدمير العدو على سدة السويب والعقد الأخرى، فتراجع إلى جزر مجنون، ودخلت دبابات اللواء إلى السداد في حقل مجنون الجنوبي التي لا تستوعب إلا دبابة واحدة، وتكبّد اللواء خسائر في الدبابات لعدم توافر ساحات رمي لكثافة نبات القصب التي كمن فيها رماة القاذفات من العدو، وتم سحبه إلى الخلف، وسيطر على حافات الهور الغربية لمسافة 4 كلم من حقول مجنون. كُلّفت فرقة المشاة الرابعة بطرد العدو من جزر مجنون، وتمكّنت من السيطرة على

بعض المناطق. وفي ليلة 26-27 شباط/فبراير شنّ العدو هجومًا مقابلًا على قطعات الفرقة الرابعة، وتمكَّن من السيطرة على مواضع أحد أفواج اللواء 95 من الفرقة وكبده بعض الخسائر. وفي 27/2/1984 تم انفتاح اللواء المدرع الثاني حرس جمهوري بموازاة سداد الهور، وباشر الرمي المباشر بدبابات T72، وتمكَّن بوقت قصير من تدمير العديد من الأهداف المعادية، وتراجع العدو الذي فوجئ بكثافة النيران إلى الخلف. واستثمرت قطعات الفرقة الرابعة ذلك وقفزت إلى السداد الرئيسة داخل الهور وسيطرت عليها. وتمكَّن الفيلق من تدمير القطعات الإيرانية في اتجاه السويب، وأغلق اتجاه الروطة - القرنة أمام العدو، كما استطاع استعادة المواقع الساقطة بيده في مخفر بوبيان وكشك البصري وغزيل ومنطقة مقرّ شركة النفط والسويب، وكبَّده خسائر فادحة، ولم تستطع قطعات الفيلق التي شنّت العديد من الهجمات المقابلة من استعادة جزر مجنون [181] .

العمليات في قاطع عمليات شرق دجلة

في السادسة من صباح 24 شباط/فبراير 1984 شنّ اللواء المدرع 17 من الفرقة المدرعة العاشرة هجومًا لطرد العدو من منطقتي الصخرة والبيضة. ولعدم تيسر غير طريق ترابية واحدة قام فوج المشاة الآلي للواء بالهجوم بإسناد دبابات اللواء التي انفتحت على سداد الهور، وأسندت الفوج بنيران مباشرة إضافة إلى نيران مدفعية الفرقة. وخلال ساعتين حُررت قريتا الصخرة والبيضة، وقُتل عدد كبير من القوات الإيرانية وجرى الاستيلاء على الزوارق والأعتدة المكدسة، وانسحب اللواء المدرع بعد أن مسكت وحدات لواء المشاة 28 بمنطقتي الصخرة والبيضة والسداد المحيطة بهما. وطوال نهار 24 وليلة 24-25 كان القصف المدفعي متبادلًا بين الجانبين، وليلًا قام العدو بمحاولات تسلّل باتجاه قطعات الفرقة العاشرة المدرعة وأُحبطت. وفي الساعة 7.00 من يوم 25/2 شنّت الفرقة المدرعة العاشرة هجومًا واسعًا باللواء المدرع 17 باتجاه سدة نهر دجلة حتى طريق التعاون - عجيردة، وبلواء المشاة الآلي 24 باتجاه عقدة عجيردة والسداد المحيطة بها. ونُفذ الهجوم بالصولة الراكبة بعجلات قتال المشاة الآلي BMP1، وبإسناد مكثّف من رمي دبابات اللواء.

تمكَّنت وحدات اللواء من احتلال أهدافها بعد 45 دقيقة من الهجوم وتدمير العدو وتكبيده المئات من القتلى والأسرى، والاستيلاء على كميات كبيرة من المعدات والأسلحة والأعتدة والزوارق. وكُلّف اللواء قوات خاصّة

66 بتطهير سدة عجيردة من العدو، وتمكّن بعد قتال شديد من تطهير 10 كلم من طول السدة البالغ 18 كلم، كما دمّر القطعات الإيرانية شرق دجلة من منطقة الرشيدة جنوبًا حتى منطقة قرية الكسارة شمالًا، وقُتل عدد كبير من القوات الإيرانية، وتم الاستيلاء على معداتها وأسلحتها. وكُلّفت فرقة المشاة 35 المشكّلة حديثًا بمسؤولية الدفاع شرق العزير، وتركز اللواء المدرع 42 غرب العزير احتياطًا للقاطع بعد سحب الفرقة العاشرة إلى قاطعها في الفيلق الرابع. وكانت الخسائر الفادحة للعدو في معارك شرق دجلة سببًا لتوقفه عن شنّ هجمات كبرى حتى حلول آذار/مارس 1985.

في الأيام الأولى من معارك شرق دجلة جاء إلى الفيلق اللواء الركن شوكت أحمد عطا من القيادة العامة، وأخبرني بأنه موفد من القائد العام الذي طلب المناورة بلواءين أو ثلاثة من الألوية التي عُزز الفيلق بها في أثناء معارك بنجوين في نهاية العام الماضي، لحراجة الموقف في قاطع اختراق العدو شرق دجلة. فقلت له: «لواء شوكت، بلِّغ القائد العام أن في قاطع الفيلق 23 لواءً و22 كتيبة مدفعية، وكلها جاهزة للحركة فورًا إلى جبهة القتال في قاطع الاختراق شرق دجلة، ولدي سرايا نقلية الفيلق، وسرايا نقلية مُرتبة. أستطيع نقل عدد كبير من هذه التشكيلات فورًا، ويمكنكم إرسال بعض سرايا نقلية المقرّ العام لإكمال نقلها كلها بأسرع ما يمكن، وأرجو إصدار الأمر الآن من القيادة العامة كي تشرع القطعات الموجودة لدي بالانتقال، وكل ما أطلبه أن تعيدوا سرايا النقل التابعة للفيلق التي ستنقل هذه القطعات بعد إكمال نقلها». فاتصل اللواء شوكت بالقيادة العامة وأخبرهم بإمكانية تحريك التشكيلات كلها التي عُزز بها الفيلق في معارك بنجوين. وطلب منهم إصدار الأمر بحركة الـ 23 لواءً، والـ 22 كتيبة مدفعية (تعادل أكثر من 7 فرق مشاة مع مدفعيتها) من قاطع الفيلق الأول لتعزيز قواتنا في جبهة الاختراق شرق دجلة.

في عام 1984 جرت انتخابات المجلس الوطني (مجلس النواب) للمرة الثانية (كانت الأولى في عام 1980عندما كنت قائدًا للفرقة السابعة في السليمانية وقد شارك فيها أكراد المنطقة الشمالية من العراق بكثافة). كانت المعلومات التي توافرت لنا أن المسلحين الأكراد سيحاولون منع المواطنين الأكراد من التصويت في الانتخابات الجارية، خصوصًا في القرى والأرياف. وحضر الرفيق عزت الدوريّ نائب أمين سرّ الحزب إلى كركوك لمتابعة هذا الشأن، لحرص السلطة على إشراك أكبر عدد من المواطنين الأكراد في منطقة الحكم الذاتي في التصويت. ذهبت إلى زيارته في المقرّ الذي اختاره لمتابعة

سير الانتخابات، وكان معه أمين سرّ فرع الحزب في كركوك، وعدد من أعضاء قيادة الفرع، وكانت عملية الانتخابات تجري مجراها الطبيعي عمومًا.

وردتنا معلومات أن المسلحين الأكراد يمنعون أهالي بعض القرى في منطقة تقع خارج مركز المحافظة من التصويت، فطلب النائب أن أرسل قوة عسكرية لردعهم وتسهيل مجيء المواطنين للإدلاء بأصواتهم في المركز الانتخابيّ في الناحية التي تتبع لها هذه القرى، فأوعزت إلى قيادة الفيلق بإخراج قوة يقودها آمر مواقع الفيلق لهذا الواجب. وبعد قليل تركت الرفيق النائب وعدت إلى قيادة الفيلق. اصطدمت القوة التي أُرسلت لفتح الطريق بعدد من الكمائن التي نصبها المسلحون الأكراد بالقرب من هذه القرى، وحدث قتال شديد ولم تستطع القوة الوصول إلى مقصدها، وجُرح عدد من الجنود. عادت القوة بعد أن تركت إحدى المدرعات التي غرّزت في المناطق الطينية خارج الطريق الترابية، ولم تتمكّن من سحبها. وأنّبتُ آمر القوة لعدم تحسّبه، وأرسلت قوة أخرى لإعادة المدرعة، ولم يتمكّن أهالي تلك القرى من المشاركة في الانتخابات في ذلك اليوم.

بعد أسابيع عدّة جاء إلى مقرّ قيادة الفيلق مدير الاستخبارات العسكرية العميد الركن محمود شكر شاهين مع ضابطين من المديرية، وأخبرني أن القائد العام أرسله للتحقيق في حادثة عدم إشراك أهالي تلك القرى في الانتخابات، بناءً على تقرير رفعه الرفيق عزت الدوريّ للرئيس عن تعمّد الفيلق عدم جلب أهالي تلك القرى للتصويت في الانتخابات، على الرغم من أنه طلب ذلك من القائد شخصيًّا. وجاء في التقرير أن قائد الفيلق قد أصدر الأمر هاتفيًّا بحضور النائب إلى هيئة ركن مقرّ الفيلق لإخراج قوة للقيام بهذا الواجب «إلّا أنني (أي الرفيق عزت الدوريّ) علمت في ما بعد أن القوة لم تخرج، ويبدو أن قائد الفيلق قد ألغى أمره بإرسال القوة بعد عودته إلى الفيلق. وإن قيام قائد الفيلق بهذا العمل وعدم تنفيذ أمر الرجل الثاني بالحزب والدولة لمشاركة أبناء شعبنا بالانتخابات يدل على عدم احترامه لنا، وعدم صدقيته في عمله». كان هذا ملخص التقرير الذي أرسله النائب للرئيس، وكان مكتوبًا بخط يده، وتمكّن ضابط ركن استخبارات الفيلق من تصويره عندما تركه على مكتبه ضابط مديرية الاستخبارات الذي غادر المكتب بضع دقائق. أخبرت العميد الركن محمود شكر شاهين بملابسات الحادثة كما حدثت، وعندما طلب مني تثبيتها خطيًا غضبت وقلت له: «ما قلته لك هو ما حدث. وإن قائد الفيلق لا يكتب إفادة عن أمر أصدره فاذهب إلى هيئة الركن واستفسر منهم، وراجع

جريدة الحرب [182] للفيلق وموقف العمليات لذلك اليوم فكل شيء مسجل فيها». عادت اللجنة بعد أن تأكدت من عدم صحة ما جاء في تقرير الرفيق النائب. وبعد ذهابهم جلب لي ضابط استخبارات الفيلق صورة تقرير النائب الذي صوّره خفية عن ضابط الاستخبارات الذي جاء مع العميد الركن محمود شكر شاهين للتحقيق.

تأثرت كثيرًا بما جاء في تقرير الرفيق النائب من ادعاءات لا أساس لها من الصحة. وأسفت كثيرًا لأن الرجل الثاني في الحزب والدولة يتجنى على قادة الجيش قبل أن يتحقق منهم من صحة ادعاءاته، فكتبت رسالة إلى الرئيس القائد العام بعدم صحة ادعاءات نائب أمين سرّ الحزب، وذكرت فيها أن القائد الذي يتصرف وفق ما جاء في تقرير النائب ينبغي ألا يبقى في السلك العسكري، و«إني أضع استقالتي ونفسي للمحاسبة في حالة صحة ما ورد في ادعاءاته»، وردّ الرئيس برسالة جميلة ملخصها «إن الرجال في الأوضاع الصعبة هم من يتحملون ثقل وأعباء المسؤولية وأنتم منهم، وإن ثقتنا عالية بكم»، واختتمها بقوله «توكل على الله في عملكم لخدمة الشعب والوطن، ونحن نثق بكم، وكل قادة القوات المسلحة»، وقد نشرت هذه الرسالة بعد أعوام في وسائل الإعلام من دون الإشارة إلى الأسماء.

مفاوضات مع الأكراد الجلاليين مرة أخرى

كانت المفاوضات تجري بشكل حثيث بين القيادة العراقية والاتحاد الوطني الكردستاني للتوصل إلى اتفاق جديد بخصوص القضية الكردية، لتطوير طبيعة الحكم الذاتيّ الذي منحه العراق للأكراد في عام 1974. وكانت السفرات المكوكية بين بغداد ومقرات جلال الطالباني تجري طوال عام 1984. وفي أوائل عام 1985 جاء جلال الطالباني ومعه بعض أعضاء قيادة حزبه إلى قيادة الفيلق في طريقه إلى بغداد، وعرفت منه أن المفاوضات وصلت إلى مراحلها الأخيرة وكل شيء على ما يرام فقلت له: «أبو شلال [183] يكفينا اقتتال نحن أبناء الشعب الواحد، فالمستفيد الوحيد منه هو الأجنبي وأعداء هذا البلد الذي أنتم منه»، وبلهجة تجمع بين الجد والهزل قلت له: «أبو شلال لا تحاول أن تمرّ بقاطعي إذا لم يتم الاتفاق والتوقيع، وفي حالة عدم حصول ذلك عُد إلى مقركم بالهليكوبتر أو أي وسيلة أخرى، لكن ليس من قاطعي لأنني سأعتقلك حينها». ضحك جلال وأكد أنه والقيادة جادون في إنهائها. وكانت تلك زيارته الأخيرة، لأن الاتفاق تم بينهم وبين قيادة الدولة على جميع القضايا، وطُلبت منه

العودة لعقد اجتماع موسع لكوادر وقيادات الحزب لإقرار الاتفاق ولم يعد. واستؤنفت العمليات القتالية بين الجانبين [184] .

معركة هور الحويزة الثانية تاج المعارك، 11 آذار/مارس 1985

قاطعا الفيلق الثالث وقيادة عمليات شرق دجلة

يبدو أن إيران اختارت مستنقعات هور الحويزة مرة أخرى لهجومها الرئيس في عام 1985 لأسباب متعددة، منها أنها تأمل في تحقيق مفاجأة تكتيكية بمعاودة الهجوم في منطقة غير متوقعة مفترضة أن القيادة العسكرية العراقية لا تتوقع أن يعاود العدو هجومه من اتجاه فشل فيه في معارك العام السابق. وكانت القيادة الإيرانية على علم بأن القوات العراقية لم تكن في المستنقعات بصورة فاعلة، وأن في استطاعة قواتها التسلّل بأعدادٍ كبيرةٍ إلى الجزر الصغيرة داخل المستنقعات، مستفيدة من نباتات القصب المرتفعة التي تخفيها عن الرصد، عدا أنها اكتسبت خبرة في حرب المستنقعات واستطاعت إقامة شبكات اتصال داخلها. وجلبت عددًا من الوحدات البحرية والأطواف، والجسور العائمة ومنصات عبور تحمل على متنها مدافع 106 ملم ضد الدبابات، ومدافع الهاون، كما كدّست أعتدة ومعدات في بعض القرى الغربية من الهور (قرى عراقية) من خلال المتعاونين معها، واستفادت من عملائها في الحركات المسلحة المعادية للسلطة في العراق (قوات بدر، ومسلحي المجلس الإسلامي الأعلى للثورة في العراق من جماعة محمد باقر الحكيم [185]) لتزويدها بالمعلومات وحماية جماعات الاستطلاع التي تدفعها إلى غرب منطقة الأهوار.

بعد معركة شرق دجلة في شباط/فبراير 1984 جرت تهيئة مسرح العمليات بشكل أفضل، خصوصًا في الجزء الشمالي منه، حيث تمت تسوية وردم معظم الأنهار وبعض المناطق السبخة، وأصبحت الأرض سهلة لحركة العجلات المدرعة أكثر من الجزء الجنوبي حيث توجد بها مبازل وأنهار صغيرة (الرويف والجيف وهمايون والروطة) تعيق المناورة بالقطعات المدرعة بأعداد كبيرة.

قوات الطرفين

- العدو

تمكّن العدو من حشد القطعات التالية: ثلاث فرق مشاة من القوات النظامية، خمس فرق مشاة من حرس الخميني، وسائط عبور مختلفة

وجسور عائمة وتعزيزات كبيرة بأسلحة مقاومة الدبابات ومقاومة الطائرات، ومجموعات من المحمولين جوًا، وعدد من طائرات تشينوك السمتيّة، وعدد كبير من عجلات صغيرة لحمل المشاة والأسلحة المتوسطة.

- قواتنا

تحتل فرقة المشاة 35 التابعة لقيادة عمليات شرق دجلة موضعًا دفاعيًا على جبهة واسعة من شمال الروطة حتى قلعة صالح بمحاذاة هور الحويزة، وبجبهة لواءي مشاة ومقرها العزير.

تحتل قيادة قوات الدفاع عن البصرة التابعة لقيادة الفيلق الثالث موضعًا دفاعيًا في السويب وهمايون والروطة بقوة لواءي مشاة، وكتيبة مدرعات ومقرّها القرنة.

خطط الطرفين

- خطة العدو

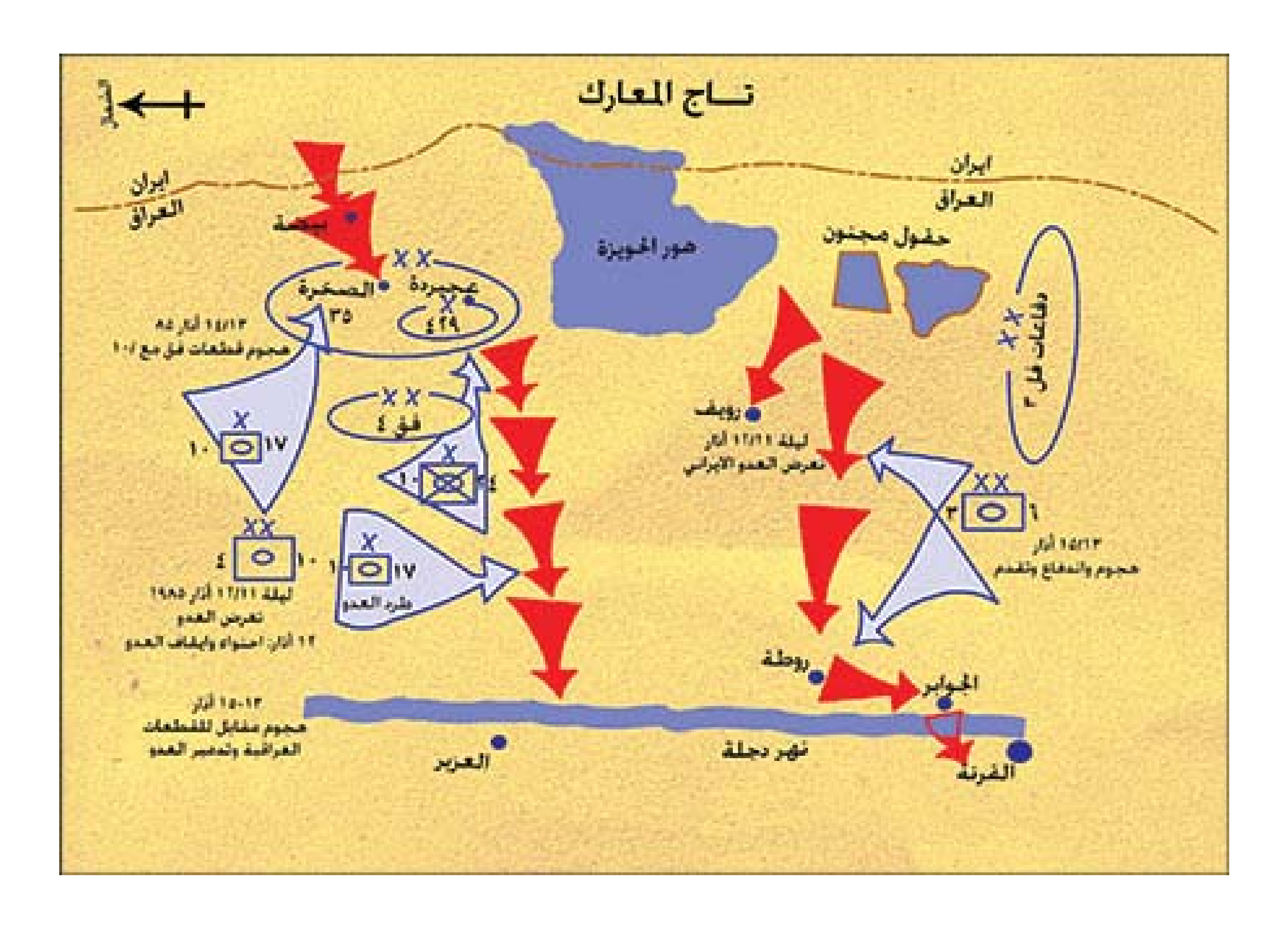
كانت خطط العدو وأهدافه لا تختلف كثيرًا عن خطته السابقة في معركة شرق دجلة في عام 1984. وكانت قواتنا تمسك حافات الأهوار بوحدات المشاة المنتشرة على جبهة واسعة، واحتفظت بقواتها الضاربة من تشكيلات مدرعة وآلية للهجمات المقابلة.

سير العمليات

شن العدو تعرّضه على قاطعي الفيلق الثالث وقيادة عمليات شرق دجلة في ليلة 11 - 12 آذار/مارس 1985 تحت اسم «عملية بدر». تسلّلت مجاميعه إلى مواضع فرقة المشاة 35 شرق العزير، وتمكَّنت من احتلال مواضع اللواء 429 في منطقتي البيضة والصخرة، ولسان عجيردة ونهر الرويف ومعظم السداد الترابية، وبدأ بدفع مجاميع المشاة باستخدام العجلات الصغيرة غربًا لعبور نهر دجلة. وفي الوقت نفسه اندفعت مجاميع أخرى من حقل مجنون الشمالي ولسان هويدي باتجاه القرنة والروطة، وتمكَّنت يوم 12 آذار/مارس من عبور نهر دجلة شمال القرنة، وقطع طريق البصرة - بغداد في عدد من المناطق.

الشكل (10 - 2)

معركة هور الحويزة الثانية - تاج المعارك، آذار/مارس 1985



في ليلة التعرض صدرت الأوامر إلى الفرق المدرعة والآلية والمشاة بالحركة باتجاه محاور التعرض المعادي في قاطعي الفيلق الثالث وعمليات شرق دجلة، وتمكّنت الفرقة المدرعة السادسة في قاطع الفيلق الثالث من احتواء هجوم العدو في مناطق المزيرعة والسويب وبدأت بالضغط على جناحه الأيسر. أما في قاطع عمليات شرق دجلة فبدأت تشكيلات الفرقة المدرعة العاشرة وفرقة المشاة الرابعة بالوصول إلى مناطق تحشُّدها شرق العزير، وتمكّنت فرقة المشاة الرابعة من قتل عددٍ من المتسللين الإيرانيين الذين تمكّنوا من الوصول إلى العزير، وطردهم باتجاه سداد هور الحويزة، كما تمكّن اللواء المدرع 17 من الفرقة المدرعة العاشرة الذي وصل في نهار 12 آذار/مارس من طرد الإيرانيين من سدة دجلة - عجيردة، وطريق التعاون باتجاه سداد الهور، وأصبحت المنطقة المحصورة بين دجلة وسداد هور الحويزة في هذا الاتجاه خالية من أي وجود للقوات الإيرانية. وفي ليلة 12 - 13 آذار تكامل حشد قطعات الهجوم المقابل في القاطعين الشمالي والجنوبي من ساحة المعركة.

كان التنسيق بين الفيلق الثالث وعمليات شرق دجلة يجري بسيطرة وإشراف نائب القائد العام وزير الدفاع الفريق الأول عدنان خير الله من خلال تنقله بالطائرة السمتيّة، والتقاء القادة والآمرين وإصدار الأوامر، الأمر

الذي أدى إلى التنفيذ وردات الفعل السريعة للقطعات.

سير العمليات في القاطع الجنوبي: الفيلق الثالث

في 13 آذار/مارس اندفعت الفرقة المدرعة السادسة من منطقة المزيرعة لتدمير العدو في مناطق همايون - الروطة، والوصول إلى نهر الرويف بإسناد ناري من المدفعية والسمتيّات ودبابات الفرقة الآلية الخامسة عبر نهر دجلة شمال القرنة. وكان العدو قد أجرى تخريبًا على نهر الروطة والأنهار والمبازل الأخرى لإعاقة حركة دبابات الفرقة المدرعة السادسة وتقدّمها في هجماتها المقابلة. وعُززت الفرقة بإحدى كتائب الحرس الجمهوري تحسبًا لمدى الاشتباك الطويل لمدافعها البالغ 2800م، ودمرت مواضع كثيرة للعدو على سداد الهور والمناطق المحيطة بالروطة، وتقدّمت الفرقة مسافة 15 كلم، وتوقفت لعدم مساعدة الأرض على التقدم نتيجة التخريب الذي أحدثه العدو، ويتطلب لاستئناف تقدمها غلق مجاري الأنهار الصغيرة ورفع الألغام والسيطرة على طريق التعاون.

سير العمليات في قاطع عمليات شرق دجلة

أجرت الفرق المدرعة العاشرة وفرقة المشاة الرابعة وبعض تشكيلات الفرقة الآلية الأولى استطلاعاتها، وإصدار أوامرها بسرعة في 12 آذار/مارس لأن العدو بدأ بإدامة زخمه في كلا القاطعين، وتمكَّن من إرسال مجموعات تعزيز بالسمتيّات إلى مناطق الروطة ورشيدة وهمايون والجوابر جنوب العزير والكسارة.

كُلّفت الفرقة العاشرة بالهجوم على العدو وتدميره في مناطق البيضة والصخرة وعقدة عجيردة، ووُضع بإمرتها لواء المشاة 29 من فرقة المشاة الرابعة، ولواء المشاة الآلي 27 من فرقة المشاة الآلية الأولى.

في السادسة من صباح 13 آذار/مارس اندفعت الفرقة لتنفيذ الواجب، كما يلي:

- يندفع اللواء المدرع 17 باتجاه عقدة الصخرة من خلال لواء المشاة 29 الذي يحتل خط مقاومة الخرق باتجاه سداد الصخرة.

- يندفع لواء المشاة الآلي 27 باتجاه عقدة عجيردة من خلال لواء المشاة الخامس الذي يحتل خط مقاومة الخرق باتجاه سداد عجيردة.

- يبقى اللواء المدرع 42 احتياطًا غرب مدينة العزير.

نظرًا إلى رخاوة الأراضي المحاذية لسداد الهور التي أثّرت في انفتاح

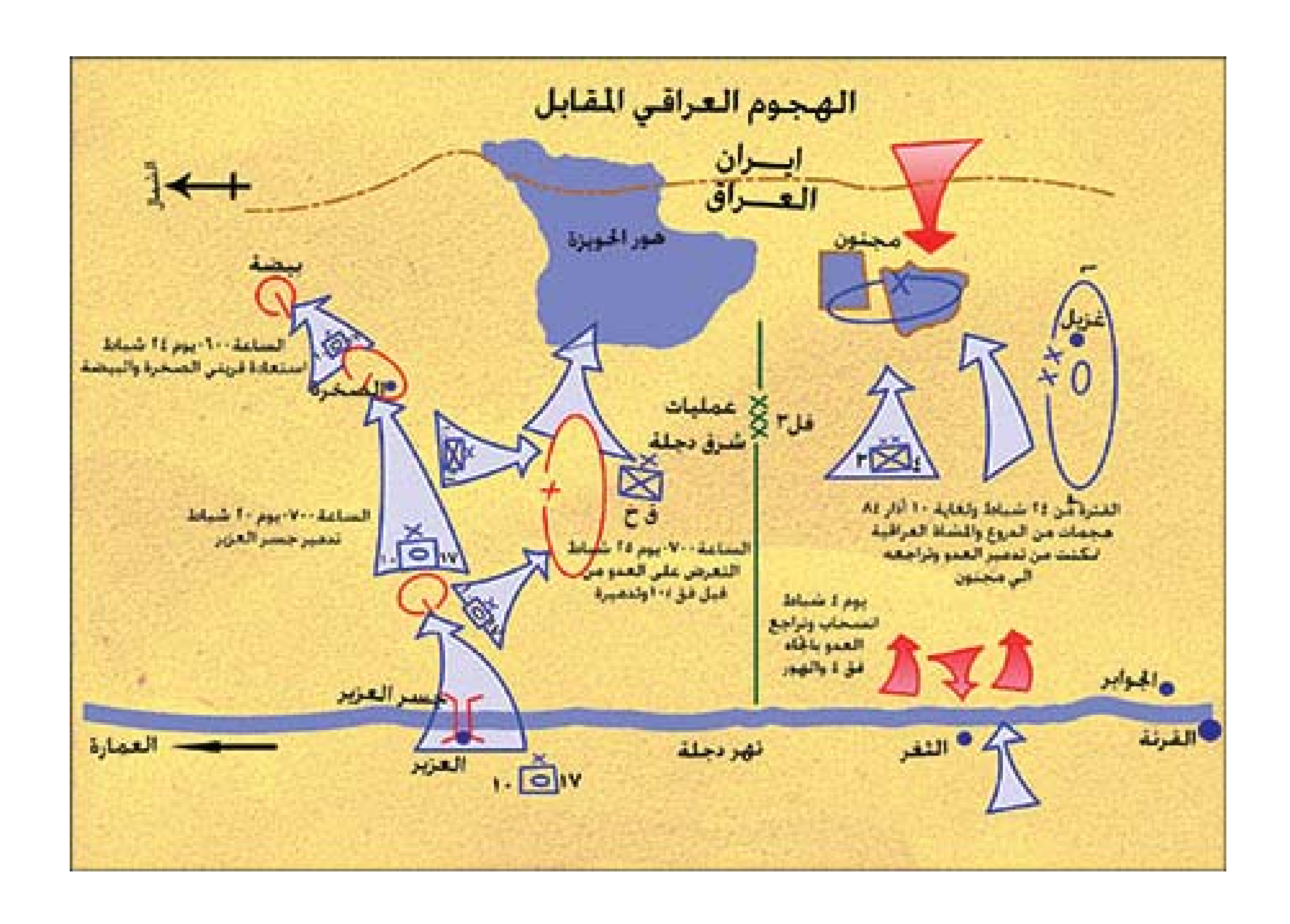
كتائب الدبابات وحركتها، صارت جبهة كل كتيبة دبابات أو فوج آلي بمعدل 1 - 2 عجلة مدرعة، وتم التركيز على الرمي المباشر من الدبابات، وتمكّن بعضها من عبور الأراضي الطينية لتقديم الإسناد. وفي التاسعة من صباح اليوم التالي (14 آذار/مارس) انهار العدو وتم احتلال عقدة الصخرة، واندفعت دبابات اللواء المدرع 17 على الفور مع المشاة المصاحبين لها، وتمكّنت من احتلال قرية البيضة في الساعة 10.00، وتمكّن لواء المشاة الآلي 24 من السيطرة على عقدة عجيردة والسداد المحيطة بها، واندفع أحد أفواج المشاة مسافة 10 كلم داخل لسان عجيردة.

كُلف اللواء المدرع 17 بعد أن أصبح بإمرة فرقة المشاة الرابعة بالتخلل من خلال اللواء الرابع حرس جمهوري الذي يحتل موضعًا بموازاة السدة المحصورة بين نهر دجلة وطريق التعاون، وبالاندفاع جنوبًا باتجاه الروطة لتخفيف الضغط على الفرقة المدرعة السادسة حتى وصول فرقة الحرس الجمهوري التي ستندفع من العزير باتجاه الروطة.

كانت خطة فرقة المشاة الرابعة للتقدم، وإزاحة المقاومات المعادية بين العزير والروطة تتركز على دفع اللواء المدرع 17 إلى تدمير العدو من سدة الهور حتى نهر الرويف، ودفع لواء المشاة الخامس إلى تدمير العدو من سدة دجلة حتى نهر الرويف. في الساعة 15.00 من يوم 14 آذار/مارس 1985 تقدّم اللواء المدرع 17 مستهدفًا مقاومات مجاميع مشاة العدو وتمكّن من إزاحتها والوصول إلى نهر الرويف. شنّ العدو ليلة 14/15 هجمات عدّة على الجناح الأيسر للواء المدرع 17 من مجاميع المشاة التي انطلقت من هور الحويزة، وتمكّن من الاندفاع إلى داخل مواضع اللواء، وفي الجنوب منه هاجم العدو لواء المشاة الخامس من اتجاه الروطة، ودارت معارك عنيفة استمرت حتى الساعة 12.00 من يوم 15 آذار/مارس 1985، وقُتل عدد كبير من جنود العدو. وفي الساعة 11.00 من يوم 15 آذار/مارس اندفعت فرقة الحرس الجمهوري باتجاه الروطة متخللة قطعات فرقة المشاة الرابعة على نهر الرويف بعد أن وضع لواء 42 المدرع بإمرتها، وفي الساعة 15.00 التقى الرتلان الشمالي (فرقة الحرس الجمهوري) والجنوبي (الفرقة المدرعة السادسة) في منطقة الروطة بعد أن تم تدمير العدو في قاطع عمليات شرق دجلة مرة ثانية.

الشكل (10 - 3)

الهجوم العراقي في معركة تاج المعارك



مؤتمر رئاسي

في نادي الفارس العربي الواقع في نهاية الطريق المؤدية إلى مطار بغداد الدولي عقد القائد العام الرئيس صدام حسين مؤتمرًا في ربيع 1985 حضره نائب القائد العام، وزير الدفاع، ورئيس أركان الجيش، وعددٌ من ضباط الأركان العامة، ومدير الاستخبارات، ومدير الأمن العام، وأمين سرّ فرع الشمال للحزب الرفيق محمد حسين الزبيدي وأعضاء الفروع ومحافظو محافظات منطقة الحكم الذاتي. عُقد المؤتمر تحت خيمة كبيرة في إحدى ساحات النادي، وتوسطت الخيمة منضدة رمل ضخمة للمنطقة الشمالية من العراق [186] . كان الغرض منه عرض الوضع في منطقة الحكم الذاتي من النواحي كلها، والتطرق إلى أداء أجهزة الحزب والدولة فيها، ومعرفة عوامل وأسباب الخلل الحالي في التعامل مع شعبنا الكردي في منطقة الحكم الذاتي.

افتتح الرئيس المؤتمر بكلمة قال فيها إنه يشعر بوجود خلل في أداء أجهزة الحزب والدولة في منطقة الحكم الذاتي «وفي تعاملها مع مواطنينا من أبناء شعبنا الكردي»، وإن القرارت والقوانين كلها التي أصدرتها الدولة لمصلحتهم لم تأخذ طريقها الصحيحة إليهم، وأنه يريد معرفة أسباب ذلك «منكم أنتم من دون مواربة أو تبرير». وبدأ الحاضرون يتكلمون تباعًا،

وكان أغلبهم يعرض الجانب الإيجابي للصورة، ولا يعرض السلبيات في عمل إدارته أو تنظيماته.

جاء دوري فتكلمت فترة تجاوزت خمسًا وأربعين دقيقة، وقلت: «إن حرب العصابات بالحجم الذي واجهناه في السابق ونواجهه الآن ونحن في حرب قاسية وطويلة مع العدو الإيراني تتطلب منا وقفة جادة للتعرف إلى أسبابها وطرائق معالجتها. كنا في العهود الماضية نعمل بأنصاف الحلول إذ لم تكن لدينا الرغبة أو الجرأة للتعمق في العوامل والأسباب التي أدّت إليها ووضع الحلول المناسبة لها. كان قانون الحكم الذاتي والإجراءات التي اتخذتها القيادة خطوة متقدمة لحلّ القضية الكردية، إلا أن أداءنا لتنفيذه عمليًّا لم يكن بالمستوى المطلوب، الأمر الذي أدى إلى استمرار التخريب على الرغم من الحقوق التي أُعطيت لأبناء شعبنا الكردي، والسبب يا سيدي، هو نحن العاملين في أجهزة وتنظيمات منطقة الحكم الذاتي. كنا نحن في أحيان كثيرة عاملًا في زيادة حركة التخريب لسوء تصرفنا وعدم تفهمنا وتنافسنا في ما بيننا في فرض السطوة والهيبة والخوف على المواطنين في المنطقة. إن معظم القوانين والإجراءات التي تصدرها القيادة لمصلحة الشعب في المنطقة تذهب ثمارها إلى الجهة المنفِّذة وكبار المستفيدين، ولا يصل إلى الناس إلا رذاذها، وأحيانًا ينقلب تنفيذها إلى عكس ما صدرت لأجله، وإن أجهزة الدولة في منطقة الحكم الذاتي، للأسف، في صراع دائم في ما بينها للهيمنة، ولذلك فإن جزءًا مهمًّا من جهدها وعملها يذهب إلى إضعاف منافسيها من الأجهزة الأخرى وتهميشهم، وغالبًا ما يُحاسب ويُهدَّد المواطنون الأكراد الذين يتعاونون أو يعملون مع هذا الجهاز أو ذاك من الأجهزة المتنافسة.

الملاحظ أن المواطن الكردي العادي والمحايد وغير المرتبط بحركة سياسية أو نشاط معادٍ، هو من يقع عليه معظم ضغط هذه الأجهزة إلى أن يصل إلى مرحلة الإحباط والغضب فيهرب لينضم إلى حركات التخريب، وآنذاك يصبح عنصرًا ثمينًا ومهمًّا فنبدأ بالجري خلفه لاسترضائه، ونكيل له مختلف الوعود، وعندما يوافق ويعود إلى الصف الوطني نكافئه بالمناصب ونعامله باحترام. لقد كان هذا المواطن وغيره إنسانًا مستقيمًا، وكان كل ما يريده العيش بأمان وسلام. نحن الذين دفعناه وآخرين مثله إلى هذه الطريق. إن الجيش والقوات المسلحة، سيدي الرئيس، هي إحدى وسائل مكافحة حركة التخريب، وليست الوسيلة الوحيدة. كما أن عمل الدولة وأجهزتها لتهيئة الأمن وفرص العيش الكريم هو ما يبعد المواطنين الأكراد

عن الانخراط في حركات التخريب أو التعاون معها، والمعروف أنها (حركات التخريب) ستضمحل وستموت إن لم تجد المحيط الذي يساعد في استمرارها. إن كل ما يحتاج إليه الشعب الكردي ويريده باعتقادي هو العدل والأمان وتهيئة وسائل العيش الكريم، واقتراحي، سيدي الرئيس، هو الاختيار الصحيح للأشخاص العاملين في منطقة الحكم الذاتي، في الحزب والإدارة والأجهزة الأمنية، وتفريغ عدد من أعضاء القيادة بصفة سلطة مخوّلة لإدارة المنطقة وفق سياسة ونهج واضحين تقرّهما القيادة السياسية، وربط الأجهزة والإدارات بها».

قال الرئيس: «أريدُ منك يا لواء نزار أن تعيد ما قلته الآن في الاجتماع المقبل بحضور الرفاق أعضاء القيادة القطرية ولجنة شؤون الشمال. اليوم هو الاثنين، وليكن يوم الأربعاء موعدًا لاجتماعنا المقبل»، ثم نهض وأنهى الاجتماع. كانت المشكلة التي واجهتني أنني لم أكن أكتب أو أُحضِّر نقاطًا محددة وهو ما درجتُ عليه في الاجتماعات، فكنت دائمًا أُبدي رأيي وأدلو بدلوي توًا في أثناء الجلسة أو الاجتماع، وفق ما يجري، وبمقدار ما أعرفه أو أعتقد به، وفي طريق عودتي حاولت أن أسجِّل بعض النقاط التي طرحتها في اجتماع ذلك اليوم.

أقبل يوم الأربعاء، واجتمعنا في المكان نفسه. حضر الرئيس وعزت الدوريّ وأعضاء القيادة القطرية ولجنة شؤون الشمال الذين حضروا الاجتماع السابق. قال الرئيس: «في يوم الاثنين الماضي كنا نعرض في اجتماع مع بعض الرفاق والمحافظين الحالة في منطقة الحكم الذاتي وتكلم اللواء نزار قائد الفيلق الأول، وأبدى ملحوظات مهمة، وسيعيدها عليكم الآن».

حاولت أن أكون دقيقًا في كلامي، وأن أُعيد ما قلته في الاجتماع السابق من دون نقصان، وهذا ما حدث. وعندما حاول الرفيق النائب مقاطعتي أكثر من مرة قال الرئيس: «دعه يكمل، وبعدها قل ما تريده»، حاول الدوري الذي كان يشغل إضافة إلى دوره في الحزب مسؤول لجنة شؤون الشمال، نفي أو تبرير بعض ما تطرقتُ إليه فأغضب الرئيس، فقال: «رفيق عزت، هل جئنا هنا لنبرر؟ وأنت بعد كل ما سمعته تتكلم وتبرر بمثل هذا؟ يجب علينا أن نضع استراتيجية واضحة للعمل مع شعبنا الكردي ليس لأن هناك حالة حركات تخريب في المنطقة، وليس لأن هناك حالة حرب، وليس للعشر سنوات أو العشرين المقبلة، وإنما لمئتي سنة من الآن. علينا أن نضع أولى خطواتنا على الطريق الصحيحة، وتلافي أخطاء الماضي». وكرّر تقريبًا النقاط التي ذكرتُها وأغفل (مقترح اللجنة التي اقترحتها من

أعضاء القيادة القطرية لإدارة منطقة الحكم الذاتي)، واختتم توجيهاته: «لا تضغطوا على المواطن الكردي بمتطلبات وشروط كثيرة، نحن نريد منه شيئين: أولهما ألّا يرفع بندقيته على الدولة ويُخرِّب منشآتها، وثانيهما ألّا يرتبط بالأجنبي ويعمل بأوامره. هذا هو المواطن الكردي الصالح».

ما قاله الرئيس كان شيئًا مميزًا ورؤية متقدمة في نظرته إلى حلّ المشكلة الكردية. وانتظرنا أن تحدث إجراءات ملحوظة لتنفيذ توجيهاته، ولم يحدث أي شيء من ذلك، وبقيت الأوضاع على ما كانت عليه. وفي هذا دليل على قدرة الأجهزة البيروقراطية أو المستفيدة على عرقلة حتى ما يصدر عن الرئيس مباشرة. برأيي لم يكن ما قاله الرئيس يحتاج إلى توجيه مكتوب لاحق، كان بالإمكان لو صُفّيت نيّة المنفّذين المباشرة التنفيذ فور انفضاض المؤتمر.

معركة سيدكان، 13 تموز/يوليو 1985

الفيلق الخامس راوندوز أربيل

لسِعة جبهة الفيلق الأول التي تمتد من جبل بمو شمال خانقين والحدود العراقية - الإيرانية في محافظتي السليمانية وأربيل حتى الحدود العراقية - التركية في الموصل، تقرّر تشكيل الفيلق الخامس في بداية عام 1985. واستلم من الفيلق الأول مسؤولية محافظات أربيل ودهوك والموصل، ووُضعت بإمرته قيادة الفرقة 23 الموجودة في قاطع راوندوز - حاجي عمران، والفرقة 33 التي تقوم في عمليات مكافحة التخريب في قاطع زاخو - كاني ماسي في محافظة نينوى (الموصل)، وقيادة القوات 45 في قاطع سبيلك - ميركه سور.

شرع العدو في شق طريق من مضيق كلي شين في منطقة المثلث [187] العراقي - الإيراني - التركي باتجاه قصبة سيدكان شمال شرق مدينة راوندوز. ولوحظ ازدياد الحشود الإيرانية ومسلحي الديمقراطي الكردستاني المعارض بقيادة مسعود البرزاني في هذه المنطقة، الأمر الذي يدل على وجود نيّات تعرضيّة للعدو بمساعدة ودلالة مسلحي الديمقراطي الكردستاني. ولم تكن في القاطع من القطعات العسكرية غير اللواء 95 المتمركز في قمم جبال سر حسن بيك وزوزك وريبانوك، حتى قصبة ميركة سور شمال راوندوز. جرى تحريك مقرّ الفرقة 33 مع آمرية مغاوير الفرقة، ووحدات مغاوير من قاطع زاخو، ولواء مغاوير، ولواءي مشاة، وجرى مسك العوارض المهمة في قاطع سيدكان وجبل كوشينة وجبل رأس العبد، التي تؤدي إلى راوندوز

وإلى خلف دفاعات الفرقة 23 في محور راوندوز - حاجي عمران.

وصف منطقة العمليات

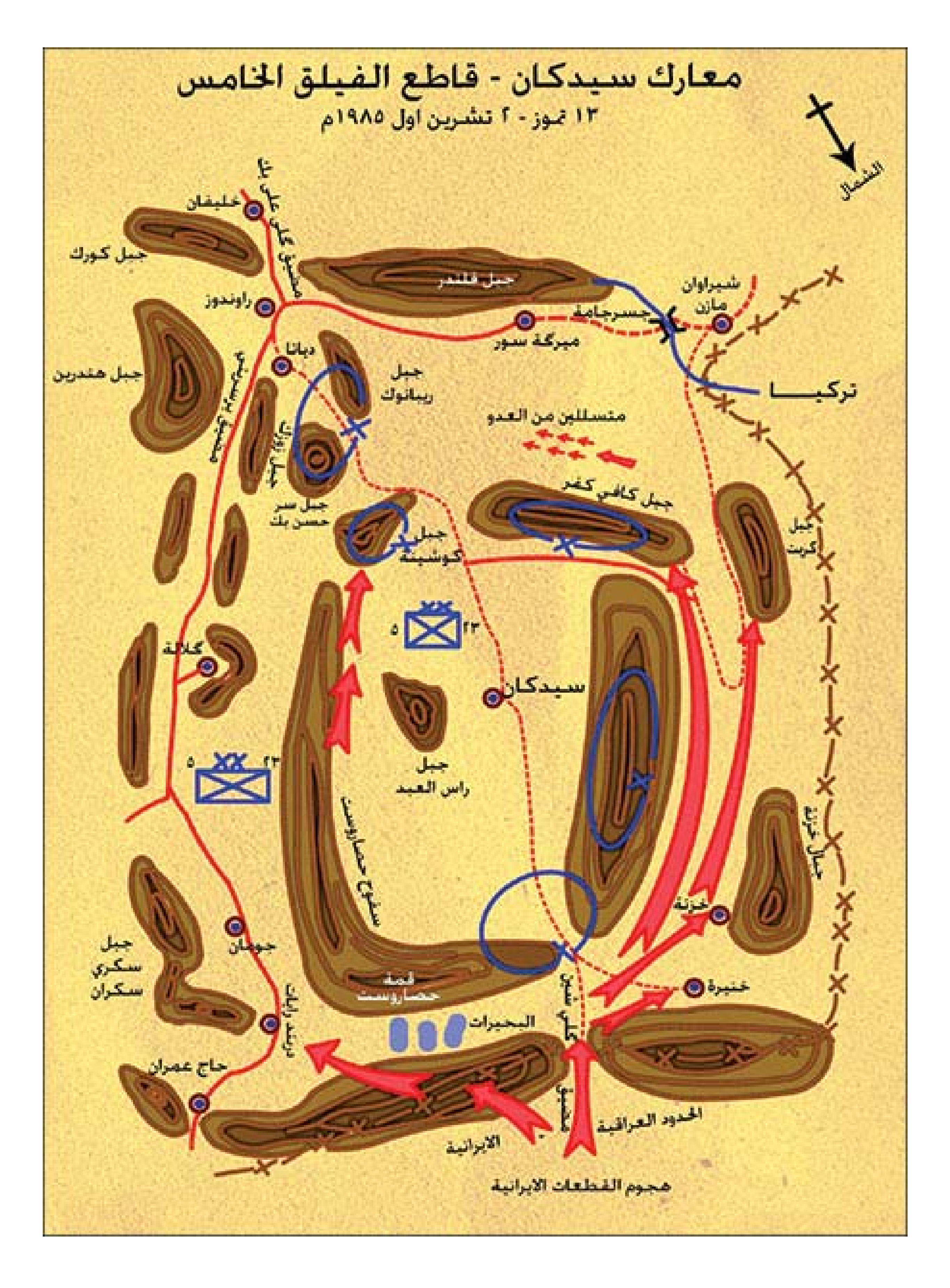
المنطقة جبلية وعرة وقليلة المسالك. أعلى القمم فيها قمة جبل حصاروست [188] البالغة 3600م فوق سطح البحر. تتساقط الثلوج في قاطع سيدكان في وقتٍ مبكرٍ، وتبدأ بالذوبان في شهر مايس [أيار/مايو]، ومعظم السلاسل الجبلية موازية للحدود وتتخللها أودية عميقة، والقطعات العسكرية هنا تكدّس أرزاقها ووقود التدفئة لانقطاع الطرق والنياسم في أثناء موسم الثلوج والأمطار، وتستخدم الحيوانات لإدامة القطعات.

قوات الطرفين

- العدو
- فرقة المشاة 64.
- وحدات من حرس الخميني بتعداد فرقة.
- بضعة آلاف من مسلحي الحزب الديمقراطي الكردستاني.
- جهد هندسي لفتح الطرق وتحسين النياسم.
- قواتنا
- فرقة المشاة 33 ولواءا مشاة ولواء مغاوير الفرقة الرابعة (أربع وحدات مغاوير).
- لواءان من الفرقة 23، ومغاوير الفرقة، ويمكن المناورة عند الحاجة.
- فوجا دفاع وطني من عشائر البرادوست، سكان المنطقة لمراقبة طرق التسلل.
- عدد من كتائب المدفعية والهندسة.

الشكل (10 - 4)

معارك سيدكان



خطط الطرفين

- الخطة الإيرانية

تتضمن خطة التعرض الإيرانية مخادعة الفيلق بمشاغلة قطعات الفرقة 23

في منطقة حاجي عمران، والهجوم باتجاه سيدكان عبر مضيق كلي شين، والاندفاع باتجاه سهل ديانا لتطويق فرقة المشاة 23 من الخلف وقطع طريق انسحابها، ومسك طريق مضيق كلي علي بيك غرب راوندوز لمحاصرة القطعات العراقية كلها شرق المضيق وأسرها. وكان يرافق القوات الإيرانية أدلاء من مخربي الديمقراطي الكردستاني الذين يعرفون الطرق والمسالك في المنطقة.

- الخطة العراقية

تتضمن خطة الفيلق الدفاع عن أهم العوارض والطرق والمسالك المؤدية إلى حوض سيدكان وحوض ديانا - راوندوز، وأهم العوارض التي جرى مسكها هي سفوح جبل حصاروست - بربزين وجبل كوشينه الذي يُعدُّ الأرض الحيوية، ورأس العبد، وجبل كاني كفر شمال سيدكان، وقمة جبل سر حسن بيك، وريبانوك [189] .

سير العمليات

أجرت التشكيلات المقرر المناورة بها من الفرقة 23 استطلاعاتها، وكذلك لواء المغاوير، ولواء مشاة احتياط الفيلق لقاطع سيدكان ومحاور تقدّم العدو المحتملة، والتحق قائد الفيلق الجديد في 11 تموز/يوليو 1985. قام العدو بمشاغلة المواضع الأمامية لدفاعات الفرقة 23 في حاجي عمران لأغراض المخادعة ثم هاجم قاطع سيدكان في ليل 13 - 14 تموز/يوليو 1985 عبر مضيق كلي شين وسلسلة حصاروست، واندفع باتجاه الأرض الحيوية للقاطع الدفاعي في جبل كوشينة، محاولًا الوصول إلى جبل سر حسن بيك، وإلى ريبانوك التي تُشكل العمق الدفاعي للفرقة 33 الذي تنفتح الأرض بعده باتجاه سهل ديانا، وإلى راوندوز الهدف الرئيس للعدو. استطاع العدو إزاحة قطعات الفرقة عن سفوح جبل حصاروست - بربزين، وهاجم عارضة رأس العبد، واستطاع إسقاطها ثم هاجم الأرض الحيوية في جبل كوشينة الذي كان يدافع عنه لواء مغاوير الفرقة الرابعة، وحدث قتال شديد واستبسل لواء المغاوير في الدفاع عن كوشينة، ولم يتمكَّن العدو إلا من السيطرة على بعض السفوح الشمالية من العارضة، فقامت الفرقة بالهجوم المقابل على العدو الموجود على سفوح جبل كوشينة، وتم طرده منها بعد تكبيده خسائر كبيرة.

بعدها هاجمت قطعات الفرقة العدو في سفوح جبل حصاروست بربزين، وتم طرده منا، وهاجمته في عارضة رأس العبد وتمت السيطرة عليها.

وتكون الفرقة بذلك قد طهرت الموضع الدفاعي من العدو ثم تابعت هجماتها على العدو والمسلحين الأكراد في جبل حصاروست ومناطق البحيرات (في حوض سيدكان)، ومضيق كلي شين. كما تمكّنت الفرقة من طرد المتسللين من حرس الخميني، والمسلحين الأكراد إلى ميركه سور شمال جبل ريبانوك بهجمات متعاقبة خلال الفترة بين 13 تموز/يوليو و2 تشرين الأول/أكتوبر 1985.

الفاو 1986

يوم 6/1/1986 وفي الذكرى الـ 65 لتأسيس الجيش العراقي شنّت قوات الحسين التابعة إلى الفيلق السادس (الذي تشكل نتيجة إعادة تنظيم قيادة قوات شرق دجلة) بقيادة اللواء الركن يالجين عمر عادل، هجومًا على جزيرة مجنون الجنوبي. وبعد قتال شديد تمكّنت من تحرير الجزء الأكبر منه، وفي الأيام التالية رصدت قواتنا تحشدات للعدو في الجبهة الجنوبية باتجاه قواطع الفيالق: الثالث في البصرة، والسادس في القرنة، والرابع في العمارة. وتوافرت لدى الاستخبارات العامة معلومات أكدتها الصور الجوية لقواتنا الجوية أن العدو يتهيّأ لعمل رئيس في هذه الاتجاه، كما حصلت أجهزة الاستخبارات العامة على معلومات متطابقة من دول صديقة تؤكد نيات العدو التعرّض على القواطع نفسها (تبيّن لاحقًا أن هذه المعلومات سربتها الاستخبارات الأميركية إلى هذه الدول الصديقة في ما يبدو لتستدعي انتباه قواتنا إلى مسلك مخادع)، فبادرت القيادة العامة إلى المناورة بعددٍ كبيرٍ من التشكيلات من قواطع الفيالق الأخرى لتقوية دفاعات الفيالق الثلاثة، وحشدت احتياطاتها المدرعة والآلية في مناطقها الخلفية لأغراض الهجوم المقابل. ناورت بقادة فيالق من الجبهات الأخرى ليكونوا رِدافًا لقادة الفيالق التي ستتعرض للهجوم الرئيس المعادي. نُسّبتُ لأكون رديفًا لقائد الفيلق الرابع في العمارة الفريق الركن ثابت سلطان، ونُسب اللواء الركن شوكت أحمد عطا قائد الفيلق السابع في منطقة الفاو رديفًا لقائد الفيلق السادس في القرنة اللواء الركن سلطان هاشم [190] .

كان عدد التشكيلات المدافعة في جبهات هذه الفيالق يتراوح بين 28 و32 لواءً لكل فيلق، وعدد الاحتياطات المدرعة والآلية يتألف من أربع فرق مدرعة وفرقتين آليتين عدا تشكيلات الحرس الجمهوري. كانت هذه التشكيلات قد حكّمت تحصيناتها وأجرت الممارسات لمواجهة التعرض المعادي، فشكلت بمجملها جدارًا صلبًا لا يمكن اختراقه. واستفدت من وجودي مع

الفيلق الرابع لاستطلاع قواطع الفيالق الأخرى، فقمت بزيارة الفيلق السادس والتقيت قائده اللواء سلطان هاشم، وكان بصحبته رديفه اللواء الركن شوكت أحمد عطا قائد الفيلق السابع في قاطع الفاو، وتم إيجاز حال قاطعه قبل ذهابي إلى الاستطلاع [191] . في الأيام التالية زرت قواطع الفيالق الأخرى، ومنها قاطع الفيلق السابع في الفاو، وكان يقوم بوكالة الفيلق رئيس أركان الفيلق العميد الركن غائب أحمد غائب الذي سبق وعمل بإمرتي في قاطع الفيلق الأول. خرجنا معًا للاستطلاع، وكانت تُدافع عن قاطع الفيلق الذي يبلغ طوله 110 كلم فرقتان ضعيفتان فقط، تتألف معظم تشكيلاتهما بالأصل من قوات الحدود، وتمسك وحداتهما خيطًا من الدفاعات البسيطة على الضفة الغربية لشط العرب داخل شريط بساتين النخيل الذي يتراوح عمقه بين 1 و3 كلم، وتفصل بين الدفاعات جداول إسقاء للبساتين من مياه شطّ العرب يتراوح عرضها بين 10 و15م، ولم يكن للدفاعات الأمامية عمقٌ أو احتياطاتٌ. وفي الجانب الإيراني حيث الضفة الشرقية للنهر كانت البساتين والجداول مشابهة لما هو موجود في الجانب العراقي.

بعد انتهاء الاستطلاع توصلت إلى استنتاج (بعد مقارنة ما هو موجود في قواطع الفيالق الثلاثة وما شاهدته في قاطع الفاو) هو أنني لو كنت محلّ القائد الإيراني لاخترتُ قاطع الفيلق السابع هدفًا لهجومي، ولن أُحطِّم رأسي بالجدار الدفاعي لقواطع الفيالق الثلاثة، وذلك للأسباب التالية:

- قام العدو من قبل بعدد من الهجمات الرئيسة في قواطع الفيالق الثلاثة حينما كانت دفاعاتها وتحضيراتها أقل بكثير، ولم يتمكّن من تحقيق أهدافه.

- دفاعات الفاو ضعيفة وخطّية (مثل الخط) وليس هناك عمق ولا احتياطات لذا تتعذّر إدارة معركة دفاعية في مواجهة هجوم رئيس للعدو.

- تسمح منطقة الفاو للعدو باستغلال تفوّقه في عناصر المشاة، ويصعب على قواتنا المسلحة استخدام عناصر تفوقنا في القوات المدرعة والآلية بفاعلية، نتيجة الأرض السبخة في الفاو التي تتحدد الحركة فيها بالطرق فحسب، حيث تصبح معظم أراضي الفاو مستنقعات عند هطول الأمطار.

- ضعف دفاعاتنا وسهولة اختراقها وبطء ردات الفعل المتوقعة، إذ بإمكان العدو العبور الخفيف بقطعات المشاة ليلًا، وفي أحوال جوية ملائمة له من دون الحاجة إلى عبور معداته الثقيلة الساندة في المراحل الأولى من العبور.

- على الرغم من وجود شطّ العرب مانعًا، إلا أن العدو قادر على العبور الصامت بالزوارق المطاطية والخفيفة في عدد من النقاط. وبعد أن يكسر القشرة الرقيقة لدفاعاتنا، ويُشكل رأس جسر بعمق بساتين النخيل في الليلة الأولى، يجلب الجسور والأطواف لنقل معداته الثقيلة لاحقًا.

- تسمح مناطق البساتين الكثيفة للعدو بإخفاء وحدات المشاة وحرس الخميني التي ستقوم بالصولات الأولية، كما أن سواقي السقي العمودية على شطّ العرب تتيح للعدو إخفاء زوارق الصولة وانطلاقها منها بسهولة ومن دون تعقيد.

- تساعد طرق العدو الموازية لشرق شريط البساتين في جانبه، التي تربط مناطق تحشُّده الحالية مقابل الفيالق الثلاثة بمدينة عبادان والمناطق المقابلة للفاو، في حركة قطعاته من مناطق تحشُّدها الحالية إلى المناطق المقابلة للفاو حال النجاح الأولي لعملية العبور، ولا يستغرق ذلك أكثر من 24 ساعة.

- يستطيع العدو إخفاء عددٍ كبيرٍ من دفاعاته الجوية في مناطق البساتين، وبالتالي يحدد فاعلية الإسناد الجوي القريب في المعركة.

- على الرغم من أن أهدافه في عملياته السابقة في القاطع الجنوبي كانت كبيرة وواسعة، وتستهدف اقتطاع جزء كبير من جنوب العراق واحتلال البصرة، وبالتالي قطعنا عن الخليج العربي ودوله العربية، إلّا أن نجاحه في هذا المسلك يحقق له نتائج مقاربة لأهدافه السابقة، لكن على نطاق أضيق.

- إن نجاح العدو في تحقيق وجود قوي في الفاو ستتمخض عنه السيطرة على المقترب الملاحي العراقي باتجاه أم قصر، وسيضع الإيرانيين أول مرة في تماس مباشر مع دول مجلس التعاون الخليجي.

- إذا ما نجح العدو في هذه العملية فسيكلّفنا ذلك غاليًا، وقد تتوقف عليها نتيجة الحرب الدائرة بيننا منذ ست سنوات.

أخبرتُ الفريق ثابت سلطان قائد الفيلق الرابع بمخاوفي هذه، وشرحت له الأسباب فأصغى إليها جيدًا، ثم قال: «لم يسبق لي استطلاع قاطع الفاو، ولا أستبعد ما ذكرته».

قبل الهجوم بيومين أو ثلاثة قمت باستطلاع قاطع الفاو مرة أخرى، وكان معي رئيس أركان الفيلق هذه المرة أيضًا، وسألته عن مشاهداته ومعلومات استخبارات الفيلق عن أي حالة غير طبيعية في الجهة المقابلة، فقال: «نعم هناك بعض التحركات الاستطلاعية التي يحاول العدو إخفاءها،

كما لاحظنا بعض عجلات تحمل معدات مغطاة». قلت له: «عميد غائب سيكون تعرّض العدو على هذا القاطع، وليس على القواطع الأخرى». فأيّد ذلك. وعندما كنا في منطقة المعامر، وهو ميناء محلي صغير لنقل بعض البضائع، قلت له: «سيكون هذا المكان إحدى المناطق الرئيسة لعبور العدو»، ففي استطلاعنا ذاك اليوم شاهدنا تحركات بعض الأشخاص في الضفة الأخرى، ومر عدد من العجلات المحمَّلة والمغطاة، فقلت للعميد غائب: «أخشى أن يكون موعد الهجوم قد اقترب، وفي بضعة أيام لا أكثر».

في طريق عودتي هبطت بالسمتيّة التي نقلتني إلى مقرّ الفيلق السادس، وكان اللواء شوكت مع اللواء سلطان في غرفة قائد الفيلق فأبديت لهما وجهة نظري، وقلت: «إن الفاو ستكون هدف الهجوم الرئيس المقبل للعدو»، وذكرت لهما أسباب ذلك، وقلت موجّهًا كلامي إلى اللواء شوكت: «عليك أن تعود إلى فيلقك وهو ليس بعيدًا، وحاول تدارك الوضع مع القيادة العامة، وإنني على استعداد لإرسال لواءين إلى ثلاثة ألوية من قاطعي على الرغم من قلة ما بقي فيه من قطعات. إحصل لي وحسب على الموافقة. وإني يا شوكت أخشى إذا ما نجح العدو في عبوره من الفاو أن تحصل هناك مذبحة (ذكرت كلمة فلاكة) [192] للجيش العراقي». وعقّب الفريق سلطان بأن هناك احتمال حدوث ما ذكرته، أما اللواء شوكت قائد الفيلق المعني فلم يبدُ عليه أنه كان مقتنعًا.

في اليوم التالي كان في منهجي زيارة قاطع الفيلق الثالث في البصرة، وكان رئيس أركان الجيش سيقوم بزيارة الفيلق الرابع، فرجوت قائد الفيلق الفريق ثابت سلطان أن يُخبر الفريق عبد الجواد ذنون رئيس أركان الجيش بما ذكرته له عن توقعي بأن هجوم العدو سيكون على الفاو فوعدني بذلك. وعندما عدت قال لي إنه أخبر رئيس الأركان بذلك. وفي ليلة 9 -10 شباط/فبراير الماطرة رنّ الهاتف في غرفة نومي، وكان الفريق ثابت على الطرف الآخر، وقال: «لقد هجموا على الفاو»، فقلت: «راحت الفاو».

في اليوم التالي لم يتخذ رئيس أركان الجيش ومدير الاستخبارات أي إجراء، واعتبرا ما حدث في الفاو مخادعة من العدو لسحب احتياطاتنا إلى قاطع الفاو، وأن اتجاه الفيالق الثلاثة شمال الفاو لا يزال هو اتجاه الهجوم الرئيس للعدو. وفي ليلة اليوم الذي تلاه، خلال اجتماع القيادة العامة، وبعد عرض الموقف في الجبهة الجنوبية، وتأكيد رئيس أركان الجيش ومدير الاستخبارات العسكرية أن الهجوم في الفاو هو للمخادعة، والهجوم الرئيس للعدو سيكون على الفيالق الثلاثة، كان القائد العام صدام حسين

منزعجًا وغاضبًا مما حدث وقال لهم بحزم: «إن الهجوم على الفاو هو الهجوم الرئيس للعدو فحركوا كل الاحتياطات إليها».

تمكَّن العدو في اليومين الأولين من تعزيز قواته من دون تدخل فاعل من جانبنا، وعندما تحركت قواتنا من مناطق تحشُّدها شمال جزيرة الفاو بعد توجيهات القائد العام من أجل القيام بهجماتها المقابلة، كانت في حالة من الفوضى وعدم التنظيم حيث زُجت معظم القوات من دون أي تحضيرات، فيما المعلومات الواردة من جبهة الفاو مشوشة ومتضاربة.

أخيرًا كلفت القيادة ثلاثة من القادة [193] بقيادة ثلاثة أرتال على الطرق الثلاث، ذلك لأن الأمطار الغزيرة التي هطلت في اليومين السابقين حوّلت شبه جزيرة الفاو إلى مستنقعات طينية. والطرق هي: الطريق الساحلية أم قصر - الفاو، والطريق الاستراتيجية التي تمتد بموازاة أنابيب النفط، وطريق البصرة - الفاو الجديدة الموازية لشريط البساتين للقيام بالهجمات المقابلة، لكن العدو كان قد تمكَّن من نصب جسوره المتحركة ونقل أسلحته الساندة وعشرات الآلاف من مقاتليه، وبعد 42 يومًا من المعارك والهجمات المقابلة التي تكبَّدنا فيها خسائر فادحة قرّرت القيادة التريث واختيار الأحوال المناسبة لتحرير الفاو.

هكذا ضاعت الفاو، وعلى الرغم من أن المخادعة هي مبدأ من مبادئ الحرب، فإن المخادعة التي تعرضت لها قواتنا في الفاو كانت من العيار الثقيل ونُفذت على مستوى دولي، ساهمت معلومات وخرائط الاستخبارات الأميركية المسربة في تحقيقه، لكن كان بالإمكان إجهاض هذه المخادعة الكبرى، لو تحرر ذهن هيئتي الاستخبارات والعمليات في الأركان العامة من القناعات المسبقة.

معركة جوارتة، شباط/فبراير 1986

قاطع الفيلق الأول السليمانية

كان يجري بعض عمليات استطلاع للعدو في قاطع الفرقة 34 التي تدافع في قاطع جوارتة (قاطع الفيلق الأول) عندما غادرتُ إلى الفيلق الرابع رديفًا للفريق ثابت سلطان قائد الفيلق في نهاية كانون الثاني/يناير. وقبل معركة سقوط الفاو، في أثناء وجودي في العمارة في قيادة الفيلق الرابع، كنت أتصل يوميًا بقيادة الفيلق الأول في كركوك لمتابعة الموقف هناك. وفيما كانت قواتنا تشنّ هجماتها المقابلة الواحدة تلو الأخرى على العدو المحتل في قاطع الفاو، كانت مؤشرات عمل معادٍ تتجمع لدى استخبارات الفيلق

الأول ومجموعات الرصد في جبهة اللواء 504 الذي يدافع عن جوارتة شرق عارضة سرسير، حيث تزايدت بشكل ملحوظ عمليات استطلاعه وتحركاته ونشاط شبكاته اللاسلكية. طلبت من وكيل قائد الفيلق إخراج دوريات قوية باتجاه مسالك التقرب المعادي لمواضع اللواء وتقوية مواضعه فيها، وفحص ترتيباته الدفاعية ومسك عارضة سرسير التي تحمي مؤخرة اللواء بفوج مشاة، كما اتصلت بقائد الفرقة وأكدت له ذلك. وفي اليومين الأخيرين كانت مؤشرات عملٍ قريبٍ معادٍ أكثر وضوحًا، وكنت فيها على اتصال مستمرٍّ بقيادة الفيلق والفرقة.

كانت ليلة 19 -20 شباط/فبراير ماطرة وصفير الرياح يُسمع في غرفتي، أحاولُ النوم عبثًا، إذ كان نشاط العدو في قاطع اللواء 504 يشير إلى احتمال قيامه بالتعرّض في تلك الليلة. كرّرت تأكيداتي السابقة في مهاتفتي قائد الفرقة 34 في الساعات الأولى من الليلة المذكورة، وطلبت منه نقل مخاوفي هذه إلى آمر اللواء شخصيًا. في الساعة 3.00 هاتفني أحد ضباط ركن القيادة العامة وأخبرني أن العدو تعرّض للواء 504، وأن الاتصال انقطع مع بعض السرايا الأمامية لأفواجه، فاتصلت بالفيلق والفرقة ولم يكن لديهما شيء جديد عما أخبرتني به القيادة العامة. طلبت أن يذهب آمر مدفعية الفيلق صباحًا اللواء عامر شيت إلى جوارتة ويكون بصحبة قائد الفرقة. وبعد نصف ساعة اتصلوا من القيادة العامة وأخبروني أن القائد العام أمر أن أذهب فورًا إلى قيادة الفيلق في كركوك، وأن الموقف غير واضح في قاطع اللواء.

كانت الأمطار تهطل بغزارة، والعجلة التي تقلني تفج المياه إلى جانبي الطريق العام، ونحو السابعة صباحًا كنا نجتاز بغداد في طريقنا إلى كركوك عندما استوقفتنا نقطة السيطرة العسكرية، وأخبرني الضابط أن القيادة العامة تريد مكالمتي على هاتف النقطة. أخبرني ضابط القيادة العامة أن أتوجه إلى مطار المثنى، مطار بغداد القديم، وأن طائرة هناك في انتظاري للإقلاع إلى كركوك، فقلت له: «إن الجوّ قد لا يسمح بالطيران، وسأصل بعجلتي إلى كركوك بعد ساعتين». فقال معتذرًا: «إنها أوامر القائد العام»، فذهبت إلى مطار المثنى وأقلعنا إلى كركوك، وكان في انتظاري في مدخل مقرّ الفيلق الرفيق طالب السعدون، أمين سرّ الفرع العسكري للحزب، الذي قال لي: «إن الموقف غير مُطمئن، وإن وكيل القائد (اللواء الركن حاتم رحومي) وهيئة ركن الفيلق في انتظارك، ولم يتخذوا إجراءً ملموسًا حتى الآن». لم أكن أُريد أن أبدو لضباط ركن الفيلق إلا وأنا في أفضل حالاتي، فقلت

للرفيق طالب: «انتظرني في غرفة القائد. سأغتسل وأحلق ونذهب معًا إلى غرفة الحركات» [194] . قدّرت أن مواضع اللواء ساقطة أو على الأقل معظمها. كنت أريد أن أعرف الموقف بصورة أدق. كان الوجوم والإرهاق يبدوان على وجوه الجميع في غرفة الحركات. سلّمت على وكيل القائد، وهيئة ركن الفيلق بشكل طبيعي للغاية، وسألتهم إن كان اللواء آمر المدفعية قد وصل جوارتة، لأنني أريد أن أكلمه هو والقائد عندما يكونان جاهزين. لم أسألهما عندما تحدثت إليهما عن موقف الفرقة واللواء، كي لا أحرجهما بعد أن عرفت من الرفيق طالب السعدون أن الموقف لم يكن واضحًا لهما بالدقة التي أريدها. طلبت من ضابط الاستخبارات أن يحاول تدقيق عدد ومستوى الشبكات اللاسلكية المعادية التي اشتركت في الهجوم، وأخبرت رئيس الأركان أن يهيّئ مقرّ الفيلق المتقدم للحركة. وشكرت وكيل القائد على جهده في إدارة الفيلق، وطلبت منه العودة إلى تولّي قيادة قوات دربندخان، فبدت علامات الراحة على محياه، وشد على يدي مودعًا وأسرع بالخروج.

طلبت من مرافقي أن يهيّئ طائرة سمتيّة في ساحة النزول بالفيلق، واتصلنا بقائد الفرقة وبآمر مدفعية الفيلق الذي كان قد سبقني بالوصول إلى جوارته. وكان الموقف سيئًا، إذ تمكّن العدو من السيطرة على مواضع اللواء، ولم يكن الاتصال بآمره ممكنًا ساعتذاك، والأسوأ من ذلك أن الفوج الذي أرسلناه لمسك عارضة سرسير قد زجه آمر اللواء بهجوم مقابل من دون علم قائد الفرقة، والعارضة الآن من دون قطعات، فأمرته أن يدفع أقرب فوج متيسر إلى العارضة من دون تأخير مع عدد من الدبابات، وأن يمسك الطريق المؤدية من مواضع اللواء إلى جوارتة بعدد آخر من الدبابات. كان موقفنا من القطعات حرجًا بعد أن ناورت القيادة العامة بعدد من تشكيلاتنا لجبهة الفاو، ولم يكن يشغل جبهة قاطع الفيلق البالغة أكثر من 250 كلم إلّا 13 لواءً، من ضمنها اللواء 504 الذي تعرّض لنكسة.

أقلعتُ بالسمتيّة إلى جوارتة والتقيتُ بقائد الفرقة وآمر المدفعية، وخرجنا معًا إلى عارضة سرسير، وكانت طلائع الفوج الذي سيمسك العارضة قد بدأت بالوصول، وشاهدنا عددًا من عناصر العدو قرب مقرّ اللواء الساقط، وعددًا آخر يتجه نحو عارضة سرسير. فاتصل آمر مدفعية الفيلق بمدفعية الفرقة، وطلب رمي العدو في مقرّ اللواء الساقط، وأولئك الذي يتجهون إلى سرسير. وعندما بدأت نيران المدفعية تتساقط عليهم استتروا في مواضع اللواء

الساقط، وانكفأ المتوجهون إلى سرسير وعادوا مهرولين بحثًا عن ستر يحميهم. أصدرت القيادة العامة أمرًا بحركة وحدة مغاوير من الفيلق الرابع إلى قاطع جوارتة، وفي هذه الليلة اندفع العدو إلى عارضة جبل كتو وتمكَّن من احتلاله، وأصبح الموقف بالغ الخطورة، حتى أن قائد الفرقة وضباط ركن الفرقة قاموا بحشو مسدساتهم وتهيئتها خشية الوقوع في الأسر، فجبل كتو يقع إلى الجنوب الغربي من عارضة سرسير وإلى الجنوب من جوارتة، وذيوله الغربية تمتد إلى بضعة كيلومترات فقط من جبل أزمر الذي يفصلنا عن مدينة السليمانية. وتوسّع أهالي السليمانية في بناء دورهم حتى أن بعضها بُني على السفوح الغربية لجبل أزمر. ولحزب الاتحاد الوطني الذي يرئسه جلال الطالباني أنصار كثر في مدينة السليمانية وبقية بلدات وقرى المحافظة. وكانوا بانتظار وصول القوات الإيرانية ومسلحي الاتحاد الوطني الذين يعملون بصفة أدلاء لهم في المعارك الراهنة. وحال وصول وحدة مغاوير البصرة من الفيلق الرابع أصدرت لهم الأوامر باستطلاع جبل كتو لمهاجمته في الليلة عينها، قبل أن يتمدد العدو باتجاه جبل أزمر. شرعت وحدة المغاوير بتسلق جبل كتو تحت ستر نيران مدفعية الفيلق، حين ناورنا بعدد من كتائب المدفعية من القواطع الأخرى، ووضعناها مع مدفعية الفرقة، بإمرة اللواء عامر شيت آمر مدفعية الفيلق. اشتبك المغاوير في قمة العارضة مع قطعات العدو الذي أذهله مقدار وشدة نيران مدفعيتنا. وعند الفجر كان المغاوير قد انتزعوا جبل كتو من قبضة العدو وأعادوه إلى سيطرتنا.

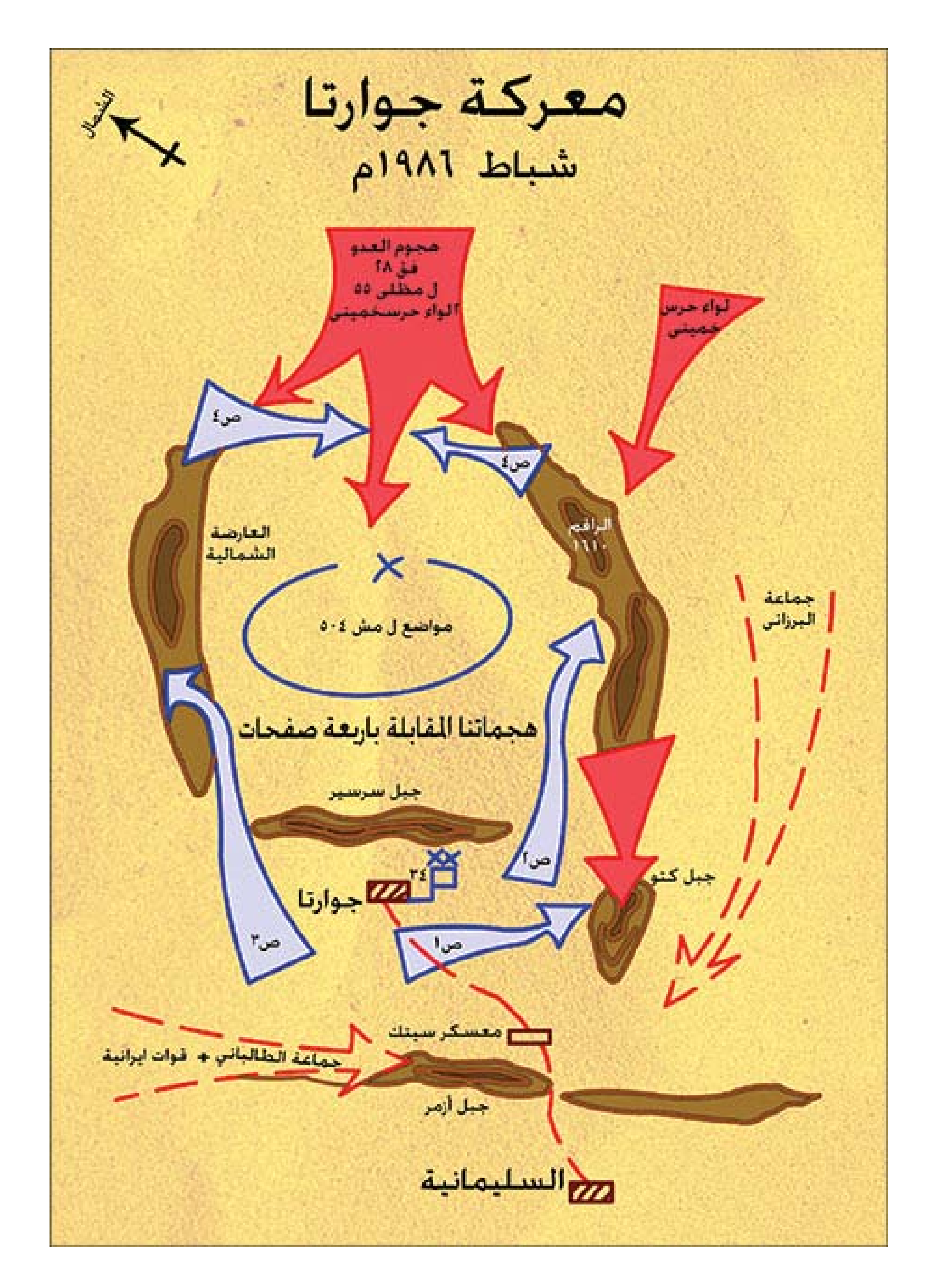
في اليوم التالي كنت قد رتبتُ قوة بعديد فوجين تقريبًا تحت إمرة العميد عطا الذي استخدمته من قيادة الجحفل الأول لأفواج الدفاع الوطني، وهو يتميز بشجاعته وانضباطه، ليستلم مسؤولية الدفاع عن جبل كتو من وحدة المغاوير الذين تكبَّدوا خسائر في معركة استرداده. أوجزت للعميد عطا أهمية جبل كتو وقلت له: «إن سقوطه مرة أخرى بيد العدو يعني أنهم والمسلحين الأكراد سيكونون على أبواب السليمانية، وأنت تعرف ماذا يعني ذلك. لذا أمامك خياران إما أن تحتفظ بالجبل، وإما أن تُدفن فيه. إن العدو سيستميت لاسترجاع العارضة منك، فادفع الجزء الأكبر من قوتك إلى السفوح الأمامية المواجهة له، واجعلها بقدمات (مواضع دفاعية متعاقبة) وبالعمق، ويكون مقرّ القوة مع قوة محدودة في القمة على أن تستتروا بالصخور الضخمة، واحفروا ما استطعتم تحتها حماية لكم من القصف المعادي الذي سيكون كثيفًا عليكم، وادفع مجموعات صغيرة لحماية

أجنحتك، وسأحمي سفوحك الشمالية القريبة من الطريق بفوجين من الدفاع الوطني». سألته إن كان ما قلته واضحًا؟ فقال: «نعم سيدي»، قلت: «إذن توكل على الله».

وصل الرفيق عزت الدوري إلى السليمانية بتكليف من القائد العام، وزرته مع الرفيق طالب السعدون، وكان بصحبته أمين سرّ فرع الشمال للحزب الرفيق محمد الزبيدي ومحافظ السليمانية ومديرو الأجهزة الأمنية، فأوجزت الموقف والمعارك التي حدثت حتى الآن، وذكرتُ أن تعاون مسلحي الاتحاد الوطني مع العدو يعني أن اتساع العمل المعادي قد لا يقتصر على مواضع اللواء 504 أو جوارتة، بل قد تكون مدينة السليمانية أحد أهدافهم، واحتلالهم جبل كتو في اليوم الذي تلا سقوط مواضع اللواء كان مؤشرًا على هذا الاتجاه، «وأعتقد أن على الحزب والقوى الأمنية في المحافظة الانتباه والاستعداد لذلك».

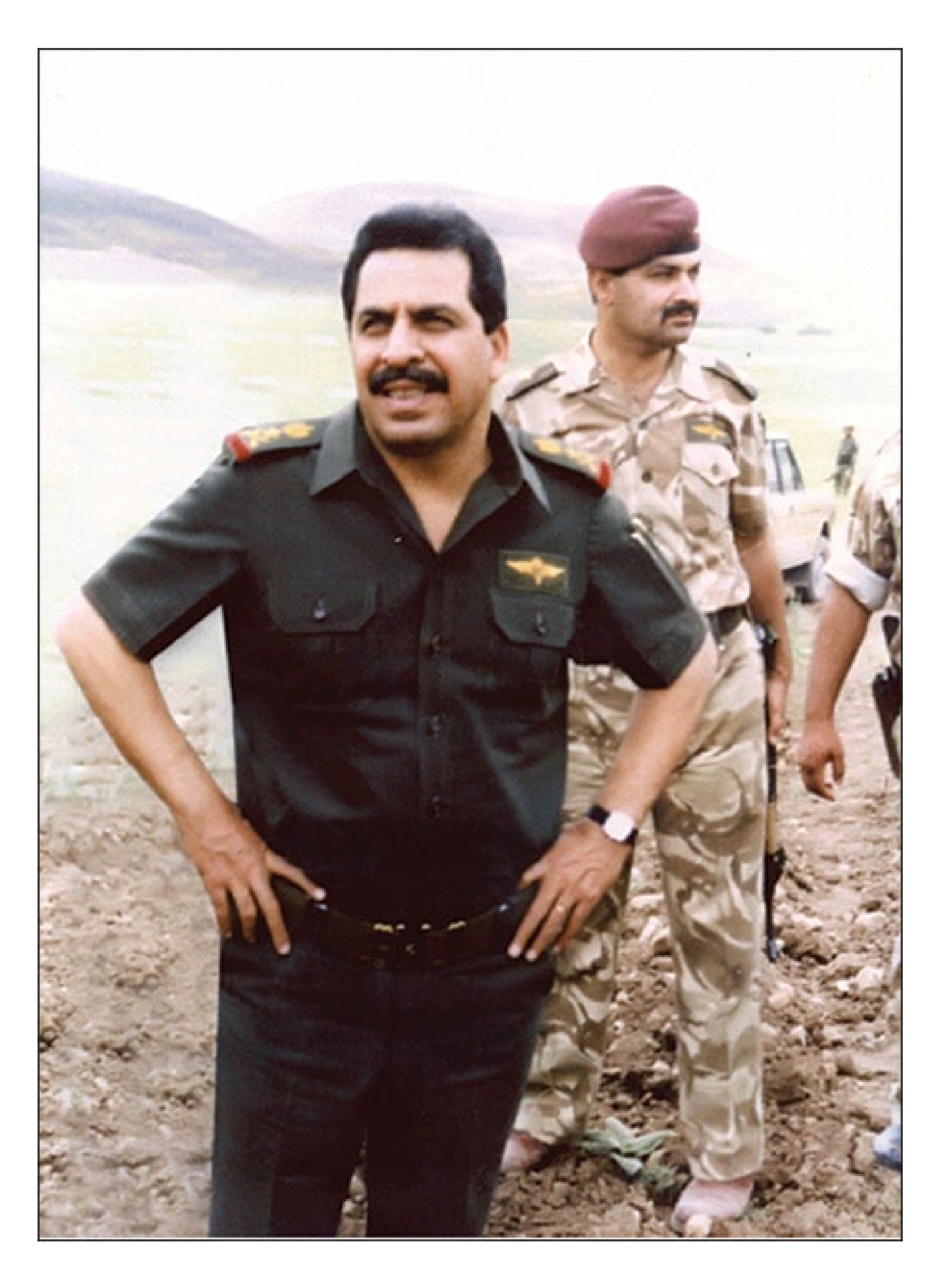
الشكل (10 - 5)

معركة جوارتة، 1986



الصورة (10 - 2)

من المعركـة



شنّ لواء من حرس الخميني هجومًا على قوة العميد عطا في عارضة كتو تحت غطاء ناري كثيف جدًا، إلى حد أن الجبل كان يلتهب بنيران

مدفعية العدو وهاوناته مع هجمات متتابعة على القوة المدافعة في السفوح الأمامية. وفي كل مرة يصل الإيرانيون إلى عشرات الأمتار من جنودنا الذين استماتوا في القتال كانوا يردونهم على أعقابهم بقذف الرمانات اليدوية، فيتراجعون ليعاودوا الهجوم مرة أخرى وأخرى. وعند الفجر توقف القتال، وكانت القوة ما زالت محتفظة بجبل كتو، وقدّر رجال مدفعيتنا أن العدو قصف قوة العميد عطا في تلك الليلة بما لا يقل عن 10.000 قنبلة مدفع وهاون.

في الصباح كان فوجا الدفاع الوطني من أكراد الهركية قد تركا مواضعهما في السفوح الشمالية من العارضة القريبة من الطريق التي كانت تحمي الجناح الشمالي لقوة العميد عطا في جبل كتو، على الرغم من أنني كنت قد التقيت بهم قبل تكليفهم بالواجب، وأخبرتهم بأهمية أن يبقوا فيه إلى أن أقرر أنا شخصيًّا، وليس أحد غيري، سحبهم، فأرسلت في طلبهم للمحاسبة، لكنهم كانوا قد اختفوا (الشيخ جوهر الهركيّ مستشار الفوج الثامن دفاع وطني ابن الشيخ محيي الهركيّ شيخ الهركيّة، كان يدرس الهندسة في إنكلترا عندما توفي والده بالسكتة القلبية، فعاد على الفور ليستلم مشيخة عشيرة الهركيّة. ويتمتع الشيخ جوهر على الرغم من حداثة سنه بخلقٍ رفيعٍ، وصدقية عالية واحترامٍ كبيرٍ في عشيرته، على العكس من عمّه أسعد الهركيّ المراوغ والمخادع، مستشار فوج هركيّة أربيل).

جاء الرفيق طالب السعدون ليخبرني أن الرفيق النائب يطلبنا في مقرّه في السليمانية فذهبنا، وكان في انتظارنا في قاعة الاجتماع. كان الرفيق عزت الدوري يجلس إلى رأس الطاولة، وعن يمينه يجلس الرفيق محمد حمزة الزبيدي ثم محافظ السليمانية وأمين سرّ شعبة الحزب في السليمانية، فجلست مع الرفيق طالب السعدون في الجانب الآخر من الطاولة. كنت أتوقع بالطبع أن يسأل عن نتيجة معركة الليلة الماضية وكيف هو موقفنا الآن؟

كان وجهه محمّرًا ومحتقنًا والغضب بادٍ عليه، بادرني بلهجة غاضبة قائلًا: «لماذا تريد محاسبة الشيخ أسعد الهركيّ؟»، فشرحت له تكليفي لهم بالواجب وكيف انسحبوا، وأني طلبتهم لمحاسبتهم لكنهم اختفوا. فقال: «كلا، هم انسحبوا بأمر منك فعلى أي أساس تريد محاسبتهم؟»، قلت: «الرفيق النائب أنا قائد الفيلق، وقلت لك ما حدث». قال: «لا، هم انسحبوا بأمرٍ وهؤلاء لا يُحاسبون، ويجوز أن أحد ضباط ركنك أصدر لهم الأمر بالانسحاب». قلت: «أي ضابط ركن لا يصدر أمرًا خطرًا مثل هذا، وأنا

بلّغتهم ألّا ينسحبوا إلا بأمر مني». قال: «لا، أنت تريد تبرير الموقف الذي تواجهه».

تصاعدت حدة الكلام بيننا، وقال: «أنا أثق بهؤلاء، وهم شيوخ معروفون ولن يكذبوا». فقلت له: «تصدق شيخًا، أو غير شيخٍ، ولا تصدّق قائد الفيلق؟». قال: «أنا لا أُكذِّبك، لكنك لا تدري ماذا تعمل جماعتك»، يقصد هيئة ركن الفيلق. وكان الذي استفزني أكثر أن الرفيق محمد الزبيدي كان يغمز لي بعينه كي أكف عن مجادلة النائب. فقلت له بحدة: «دا أكولك (أقول لك) إن هؤلاء كاذبون، ويجب أن تصدق القيادة العسكرية، وغير صحيح أبدًا أنك تكذِّبنا وتصدّق أُناسًا انهزموا في المعركة». فرد عليّ بصوت عالٍ ومتشنج: «هؤلاء لا ينهزمون». فقلت له: «إذا كنت لا تثق بي فشوف لك (اختر لك) قائد فيلق آخر».

هنا حاول الرفيق طالب السعدون التدخّل لإقناع النائب فقال: «سيدي النائب، الحقيقة كما قالها الرفيق قائد الفيلق». فأسكته صارخًا: «اسكت، اسكت. إنتو حزبيين إيش؟ (أي نوع من الحزبيين أنتم؟) يبدو أن القائد مُسيطر عليك وأنت تبرر له لأنه ما عندك شخصية»، يقصد أن شخصيته ضعيفة، فنهضت وقلت: «أنا عندي معركة وسأذهب لأديرها»، وخرجت وأنا في قمة الغضب ومتألم من موقف الرجل الثاني في الحزب والدولة الذي أُرسل لمساعدتي والاطلاع على حقيقة ما يجري ونقله إلى القائد العام. تركتهم إلى مقري المتقدّم حيث أُخبرت أن ضباط ومراتب وحدة مغاوير البصرة الذين نزلوا من جبل كتو بعد تسليمه لقوة العميد عطا «جاهزون الآن لتراهم كما أمرتَ بذلك». فالتقيتهم وألقيت فيهم كلمة امتدحت بها أداءهم في استرجاع جبل كتو، واستمعت إلى بعض ما رووه لي عن المعركة. وفي مساء اليوم نفسه جاء الرفيق طالب وقال: «إن النائب طلبنا الآن لنذهب إليه مع قائد الفرقة 34». قلت له: «اعتذر لي من النائب فالموقف يتطور بالساعات، وإذا ذهبت أنا وقائد الفرقة فمن يدير الموقف إذا ما حدث تطور ما؟ أنا لا أستطيع الذهاب».

ألحّ الرفيق طالب، وقال: «الرفيق القائد، لا نريد أن تتعقد الأمور أكثر، ونحن في هذا الموقف، فأرجوك أن توافق على الذهاب ولتكن المرة الأخيرة، ونرى ماذا يريد». ذهبت على مضض، وقلت لطالب: «هذه المرة إذا تكلم بالصيغة نفسها التي تكلم بها هذا الصباح فسأذهب معه إلى آخر الحدود».

في القاعة نفسها كان النائب والمجموعة التي كانت معه في اجتماع

الصباح، ومعهم الشيخان جوهر الهركيّ وأسعد الهركيّ اللذان كنت في طلبهما لغرض المحاسبة، ويبدو أنهما استجارا بالرفيق النائب. بدأ النائب بالكلام، وروى ما حدث في اجتماع الصباح، وما سبق أن أخبره الشيخ أسعد الهركيّ عن انسحابهم بأمر قائد الفيلق، وهو الآن يريد أن يعرف الحقيقة بحضور جميع الأطراف.

طلب الشيخ جوهر الهركيّ الكلام، وقال: «سيدي النائب، كلفنا السيد قائد الفيلق شخصيًّا بالواجب، وذكر لنا أهمية بقائنا في مواضعنا، وقال لا تنسحبوا إلا بأمر مني، وأكد علينا ذلك، لكن القصف الشديد على جبل كتو وخوفنا من أن يتحوّل القصف في اتجاهنا جعلنا ننسحب من دون أمر، واختفينا عندما علمنا أن القائد يبحث عنا ليحاسبنا لمخالفتنا أمره». فنظر النائب إلى الشيخ أسعد قائلًا: «شيخ أسعد، أنت شيخ، وأنا أحترم الشيوخ، كيف تقول لي أنكم انسحبتم بأمر قائد الفيلق؟»، فأجابه الشيخ أسعد أن القائد «قد سحبنا من موضع آخر كنا فيه قبل بضعة أيام، وهذا ما كنت أقصده عندما قلت إننا انسحبنا بأمر القائد»، فقال النائب: «أنتم شيوخ وأنا أثق بكم وأريد أن تكونوا صادقين معي». قلت: «الرفيق النائب لدي معركة، ويتطلب الموقف أن نعود فورًا». فقال: «تفضلوا».

تعرضت قوة العميد عطا في جبل كتو لهجوم آخر قام به لواء آخر من حرس الخميني في تلك الليلة، وكان القتال شديدًا للغاية، وتمكّنت قوة عطا من صد موجات هجمات حرس الخميني، وكادت الاشتباكات أن تكون بالأيدي، وكان المقاتلون الإيرانيون ينادون من هذه المسافات القريبة على مقاتلينا أن يستسلموا فيجاوبونهم بقذفهم بالرمانات اليدوية ويجبرونهم على التراجع مرة بعد أخرى. كان هذا هو الهجوم الإيراني الأخير على قوة العميد عطا في جبل كتو الذي فشل الإيرانيون في الاستيلاء عليه للاندفاع إلى عارضة أزمر المشرفة على مدينة السليمانية من هذا الاتجاه. وعلى الرغم من تكبّدهم خسائر كبيرة في اللواءين اللذين هاجما كتو إلا أنه كان ما زال لديهم أربعة ألوية في حوض اللواء الساقط، من ضمنها اللواء المظلي 55، ولواء من الفرقة 28، عدا لواءين على عارضة جبل كنه سور، جنوب مواضع اللواء الساقط مباشرة، وهما لواء بروجردي حرس الخميني، ولواء حرس آخر، ولواءان آخران من حرس الخميني على العارضة شمال مواضع اللواء الساقط، وكانت استعداداتهم لتنفيذ الصفحة الثانية من تعرّضهم قائمة وفي مراحلها الأخيرة. فقررت سحب اللواء 72 (شُكِّل من وحدات مغاوير الفرقة الرابعة، ويقوده العميد قوات خاصّة علي المحمداوي،

وهو مقاتل شجاع ومُجرَّب) من عارضة هرزلة المسيطرة على مضيق بنجوين، وأرسلت بقايا اللواء 504 لمسك العارضة.

كنت قد توصلت إلى الاستنتاج التالي: إن العدو إذا شنّ هجومه على عارضتي سرسير وأزمر فليس لدينا القوات الكافية للدفاع عنهما وسيتمكَّن من احتلالهما ودخول السليمانية بمساعدة المسلحين الأكراد، وليس من أمل أن تعززنا القيادة العامة بعد خسائر معارك الفاو بالقطعات، وإذا افترضنا أنهم سيعززوننا فلن تصل القطعات قبل هجوم العدو، وإذا ما وصلت بعد هجوم العدو فلا فائدة منها لأن استرجاع ما سيحتله العدو يتطلب أضعافها فلم يبقَ أمامي خيار سوى أن نهاجم العدو وننتزع المبادأة منه.

طرحت هذا الاستنتاج على آمر مدفعية الفيلق الذي كان قد زاملني منذ استلامي قيادة الفرقة السابعة قبل ثماني سنوات، وهو يتمتع بعقلية جيدة ومتفتحة فأيّدني فيها، فجمعت هيئة ركن الفيلق وطرحت أمامهم حجم قوة العدو ونيّاته التي أيّدتها استخبارات الفيلق، والمتيسر لنا من قطعات وإمكانات المقرّ العام على التدخّل وتعزيزنا، وطلبت منهم أن يفكروا في الخيارات المتاحة لنا، وما العمل لمواجهة الموقف الحالي، وأعطيتهم وقتًا ليتذاكروا. ثم جمعتهم ثانية، وطلبت منهم أن يعرضوا ما توصّلوا إليه، فتكلم رئيس الأركان العميد الركن محمد صالح السامرائي قائلًا: «تذاكرنا في ما طلبت منا سيدي القائد، ولم نجد غير خيار واحد، هو أن تعزز القيادة العامة الفيلق حالًا بقطعات كافية لمعالجة الموقف الذي نواجهه».

قلتُ: «أخبرتكم أن خسائر قواتنا كانت كبيرة جدًا في معارك الفاو، والمتيسر لدى القيادة العامة من قطعات حاليًا هو في جبهة الفاو، ولن تفرط القيادة به، فما هو الخيار إذًا؟». سكت رئيس الأركان ولم يفصح بشيء، فسألت: «متى تتوقعون هجوم العدو؟». أجاب ضابط استخبارات الفيلق: «خلال الـ 48 ساعة المقبلة». قلت: «وما حجم القوة التي ستهاجم؟»، قال: «أربعة ألوية من اتجاه مواضع اللواء الساقط باتجاه عارضة سرسير، وقد يطوّره باتجاه عارضة أزمر التي تشرف على مدينة السليمانية مباشرة. وقد يقوم في الوقت عينه بهجوم آخر باتجاه جبل كيمو بلواء أو أكثر». فسألت: «هل نستطيع الدفاع عن سرسير أو أزمر؟»، فأجاب رئيس الأركان: «كلا». قلت: «إذًا الموقف كما يلي، لا نتوقع تعزيزًا من القيادة العامة، وإذا ما تيسّر لها فسيصل بعد أيام، والعدو سيهجم خلال 48 ساعة، وإذا هجم فسيتمكَّن من احتلال عارضتي سرسير وأزمر، وذلك يعني أنه والمسلحين الأكراد أصبحوا على تماسٍ مع مدينة السليمانية، ولم

يُترك لنا إلّا خيار واحد هو أن نهاجم. وأصدرت أمرًا بسحب اللواء 72 فاحرصوا على تحركه على الطرق غير السالكة ليلًا، وبمجموعات صغيرة كي لا يشعر العدو والمسلحون الأكراد بذلك، وأكملوا نواقص وحدة مغاوير البصرة، واطلبوا تعزيزات من الأركان العامة لتكون احتياطًا لنا حتى وإن وصلت متأخرة. وسأتصل برئيس أركان الجيش في شأن ذلك».

زارنا الفريق الأول الركن عبد الجبار شنشل وزير الدولة للشؤون العسكرية وأوجزت له الموقف، وبيّنت له عدد القطعات المعادية، وذكرت أن اللواء 55 مظلي بأفواجه الخمسة ضمن الألوية الأربعة الموجودة حاليًا في مواضع اللواء 504 السابقة، فاعترض وقال: «لا أعتقد ذلك، فإذا كان اللواء 55 مظلي موجودًا فمعركة جوارتة هي الرئيسة بعد الفاو». فأكدت له ذلك، وذهبت به إلى مكان مشرف حيث يمكنه مشاهدة ساحة العمليات التي أنوي العمل بها. وبعد أن صعدنا إلى مكان مرتفع نستطيع منه رؤية معظم ساحة العمليات المقبلة، قلت له: «استطعنا حتى الآن احتواء هجوم العدو، والعدو يتفوق علينا كثيرًا بعدد القطعات، والمبادأة لا تزال في يده، وعلينا انتزاعها منه بعمل لا يتوقعه للإخلال بتوازنه. وذلك يتم من خلال مفاجأته بالهجوم، فلديه معلومات دقيقة عن عدد قواتنا، وأكدها له مسلحو الاتحاد الوطني. سنقوم بمهاجمة قواته في المرتفعات الجنوبية والشمالية المشرفة على مواضع اللواء 504 السابقة، وبعد احتلالها والسيطرة عليها نهاجم قطعاته الرئيسة المتحشّدة في مواضع اللواء الساقط من الأجنحة (المرتفعات الجنوبية والشمالية لمواضع اللواء 504) ومن الأمام (من عارضة سرسير)، وبعد إكمال هذه المرحلة سأنتقل إلى جبل هرزلة في بنجوين لاستعادة المواضع التي سقطت بيده في معارك عام 1983، وحالما نسيطر عليها سأكون قادرًا على أن أدفع منها رتلًا باتجاه الشمال، ومن جوارتة يصعد رتل باتجاه الشرق، ويلتقيان لتطويق حوض هلوان وتطهيره من العدو». لم يعلّق الفريق عبد الجبار شنشل على ما عرضته من نيّات للعمل بعد الإخلال بتوازن العدو. قال لي بلهجته الموصلية: «فريق نزار أشقا تقول؟ (ما الذي تقوله) أريد أن أعرف كيف ستستعيد مواضع اللواء 504».

جاء ضابط استخبارات الفيلق ليخبرني أن مراصدنا على جبل كيمو شمال غرب جوارتة المشرف على نهر جومان الحدودي رصدت معسكرًا يضم أكثر من ألف خيمة لقطعات العدو شرق نهر جومان، وتقوم عناصر منه بأعمال تجسير على نهر جومان. كان ذلك يعني أن العدو بعد إكماله التجسير

سيكون قادرًا على التقدّم من هذا الاتجاه، وإحاطة الجناح الأيسر لمواضعنا في جوارتة. فطلبنا من الأركان العامة تصويرًا جويًا للوجود المعادي شرق نهر جومان، وجاء التصوير الجوي مؤكدًا معلومات مراصدنا في جبل كيمو، فطلبنا الإسراع في إرسال ما يتيسر من تعزيزات، وقيام القوات الجوية بضربات مستمرة للعدو شرق جومان، فأخبرتنا الأركان العامة أنها سترسل ثلاث وحدات مغاوير وستوعز إلى القوات الجوية بتنفيذ ضربات على العدو عبر النهر.

أرسلت بطلب آمر مدفعية الفيلق وضابط الاستخبارات، وأمرتهما بتهيئة مجموعة استطلاع عميق مع ضابط مدفعي جديد ومساعد له، على ألّا يزيد عدد المجموعة على ستة أشخاص (في المنطقة بين مواضعنا ونهر جومان الواقع على الحدود نشاطٌ لمسلحي الاتحاد الوطني فحرصت أن تكون المجموعة صغيرة الحجم كي لا تُرصد من مسلحي الاتحاد الوطني أو العدو الإيراني)، وأن توضع نيران كتيبتي مدفعية 130 ملم (مداها 27 كلم) بإمرة الضابط المدفعي الذي سيقوم بهذا الواجب، على أن تتسلل المجموعة إلى عارضة مشرفة تقع على بعد 600م غرب النهر، وأشّرتها لهم على الخريطة، ومن هناك تشاغل بنيران كتيبتي المدفعية مواضع العدو شرق النهر، وتدمر ما تم بناؤه من الجسر. وفي تلك الليلة تسلّلت المجموعة تحت جنح الظلام باتجاه هدفها، وقبل الفجر كانت قد تمركزت على العارضة المشرفة على العدو عبر نهر جومان، وفاجأت العدو بنيران 36 مدفعًا متوسطًا تنصبّ عليه بتوجيه ومتابعة دقيقة من ضابط مدفعيتنا في مجموعة الاستطلاع العميق. وكنا نشاهد الدخان الكثيف يتصاعد من معسكرات العدو، وبعد 48 ساعة من القصف المستمر هرب من تبقى منهم إلى الشرق، كما تم تدمير أكداس معدات التجسير. ومن متابعتنا لشبكاتهم اللاسكية تأكدنا من تراجع لواءي حرس الخميني، وإلغاء مهمتهما بعد تكبدهما خسائر جسيمة للغاية، فأوعزنا إلى جماعة الاستطلاع العميق بالعودة.

كانت معلومات استخبارات الفيلق ومراصدنا ومتابعتنا شبكات العدو اللاسلكية تؤشّر إلى أن العدو سيقوم بهجومه الرئيس هذه الليلة، فإن كان الهجوم مبكرًا (بين الساعة الثامنة والحادية عشرة مساء) سيكون هدفه الرئيس جبل أزمر المشرف على مدينة السليمانية، وإن هاجم متأخرًا (بين الحادية عشرة والثانية بعد منتصف الليل) فسيكون هدفه في هذه المرحلة عارضة سرسير ومدينة جوارتة.

كانت مجموعات اللواء 72 التي تنقلت ليلًا من بنجوين على طريق فرعية غير مطروقة تصل تباعًا منذ الصباح إلى قاطع جوارتة، فأمرت بتهيئة متطلّبات اللواء الإدارية في مناطق تجمّعه، وأرسلت بطلب آمر اللواء العميد قوات خاصّة علي المحمداوي، وأخبرته بالواجب الذي سيكلَّف به اللواء وحدة مغاوير البصرة التي ستصبح بإمرته، وهو احتلال جبل كنه سور وقمّته الراقم 2010 (يُعبر الرقم عن ارتفاعه بالأمتار عن مستوى سطح البحر) الواقع على الجناح الشمالي من مواضع اللواء 504 السابقة، الذي يحتله العدو بلواءي حرس الخميني. وقلت «سنقوم بإسناد ناري كبير جدًا يعوضك عن التفوق العددي للعدو، وأريدك أن تقوم بالاستطلاع الدقيق لأنكم ستهاجمون هذه الليلة».

كان الموقف دقيقًا للغاية فسنهاجم في الليلة نفسها التي نتوقع فيها هجوم العدو فإن هاجم فسوف يحتل أهدافه، ولن يستطيع اللواء 72 إذا ما استخدمته في الدفاع عن أزمر أو جوارتة أن يمنع العدو من تحقيق أهدافه. وإذا ما هاجمنا وتمكّنا من احتلال جبل كنه سور فسنربك ترتيباته التعرضية كلها، ولذلك كان علينا القيام بعمل ما نُجبر فيه العدو على تأجيل هجومه هذه الليلة.

كان ضابط الركن الأول العميد الركن ناطق شاكر محمود رامز من الضباط الجيدين الذين أعتز بهم، وكان قد شغل منصب آمر لواء 19 الفرقة السابعة، عندما كنت قائدها في القاطع الأوسط، فأرسلت بطلبه وأخبرته بتكليفه القيام بعملية مخادعة، الغرض منها تأجيل تعرّض العدو المتوقع هذه الليلة، وأنه سيقود مجموعة شبكات لاسلكية تمثّل مقرّ لواء، وتكون بإمرته ثلاث مجموعات تمثّل كل منها فوج مشاة بشبكاته اللاسلكية، كما سنُهيّئ ثلاث مجموعات من أفواج الدفاع الوطني مع ضباط وأجهزة لاسلكية، ويقوم بلوائه والمجموعات الثلاث بالتظاهر بشن هجوم على العدو من الجبهة من اتجاه عارضة سرسير، وتقوم أفواج الدفاع الوطني بالهجوم من الجناح الشمالي للعدو. ويشرع في هجومه في وقت مبكر من هذه الليلة، وبإسناد ناري من مدفعية الفيلق، وقلت إن مجموع قوته سيكون نحو مئة مقاتل، وكذلك مجموعات أفواج الدفاع الوطني، وألحت عليه أن يحرص على كل واحد منهم، وأن عملية المخادعة تبدأ في السابعة والنصف من هذه الليلة، وتنتهي بانسحابهم في الساعة الثالثة والنصف بعد منتصف الليل. وطلبت منه إعداد رسائل المواقف وسير المعركة التي يتداولونها عند التنفيذ، وجعلها بأكثر من نسخة كي نُتابعه ونتدخّل عند الحاجة.

لم أكن واثقًا من أن اللواء 72 بجنوده وضباطه كان جاهزًا، فهم مرهقون نتيجة تنقلهم الليلة الماضية وبعض نهار اليوم، ولم يتيسر لآمر اللواء وآمري وحداته وضباط رصد المدفعية الوقت الكافي لإجراء استطلاعات مفصلة لهجوم ليلي على جبل شاهق يحتله عدو بقوات كبيرة. لذلك لم يكن من المنطق زجه في المعركة قبل تأمين عوامل نجاحه. وعلى الرغم من صعوبة الموقف الذي يمر به الفيلق استدعيت آمر اللواء وآمري أفواجه وآمر وحدة المغاوير التي ستكون بإمرته، وسألتهم عن مدى استعدادهم لتنفيذ الواجب؛ فأجاب آمر اللواء العميد علي المحمداوي قائلًا: «نحن جاهزون سيدي القائد». قلت: «عميد علي هل قام جميع الآمرين باستطلاع أهدافهم، وهل حصل جنودك على قسطٍ كافٍ من الراحة؟»، فأجاب: «استطلع آمرو الأفواج وضباط الرصد، ولم يكن الوقت كافيًا لاستطلاع بقية الآمرين، وحصل معظم الجنود على كفايته من الراحة». قلت: «علي، إن الهجوم سيؤجل إلى ليلةِ غد، وعليك أن تستغل نهار الغد لتكملوا فيه استطلاعاتكم جيدًا، وليرتَحْ جنودك هذه الليلة، وسيزورهم غدًا ضباطنا الإداريون لإكمال نواقصهم»، ثم سألته: «أتعلم لماذا أجّلتُ هجومكم هذه الليلة على الرغم من خطورة الموقف؟ ذلك لأني أُريد أن أكون واثقًا من أنكم ستحتلون كنه سور في الهجوم الذي ستنفِّذونه، وليس أمامكم خيار غير ذلك». فغمر الفرح وجهه وقال: «سيدي، سيحتل اللواء 72 غدًا جميع أهدافه، ورقبتي أمامك دون ذلك».

في السابعة والنصف ليلًا شرعت قوة العميد الركن ناطق رامز بتنفيذ خطة المخادعة تحت غطاء ناري من مدفعية الفيلق، وافترضنا أن تشكيلات العدو تتهيأ للهجوم، ومعظمها سيكون في العراء خارج المواضع الدفاعية للواء 504 التي نعرف تفاصيلها جيدًا، فبنى آمر مدفعية الفيلق خطته النارية على هذا الاحتمال، وتوقعنا أن تقع بهم خسائر ملحوظة. وكنا نأمل أن يُجبِر هجوم المخادعة من قوة العميد ناطق وأفواج الدفاع الوطني العدو على تأجيل هجومه. كنا نتابع ردات فعله ورسائله المتبادلة ساعة بساعة. في البداية كانت رسائله مرتبكة ويبدو أنه فوجئ، ولديه خسائر غير قليلة، فكثّفنا نيران مدفعية الفيلق التي كانت تجرد مواضع العدو ذهابًا وإيابًا. وكانت شبكة العميد ناطق ترسل أوامرها إلى أفواجها برسائل مفتوحة كي يتمكن العدو من كشفها، فتأمر بالتقدم واستعادة مواضع اللواء الساقطة، وتطلب من الأفواج التي تهاجم الجناح الشمالي للعدو إكمال تطويقه، وذلك وفق خطة المخادعة. مرت الساعة الحادية عشرة والعدو لم

يهجم فضَمِنّا حتى حينه عدم قيامه بالهجوم الواسع الذي يستهدف عارضة أزمر المشرفة على السليمانية.

في غرفة الحركات كان آمر المدفعية يجلس إلى جانبي، وكان ضابط استخبارات الفيلق يجلس إلى منضدة صُفّت عليها مجموعة هواتف قرب باب الغرفة، ومجموعة من عناصر استراق برقيات العدو يجلسون على مدخلها وسمّاعاتهم على آذانهم، وهم ينقلون رسائل العدو دقيقة بعد أخرى فتُترجم وتُعبَّر لي على الفور. مر منتصف الليل والموقف كما هو، وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل تأكدنا من أن العدو لن يهجم هذه الليلة وأنه تكبَّد خسائر كبيرة، وأن خطة المخادعة قد نجحت وحققت أهدافها. فاتصلنا بالعميد ناطق بالهاتف السلكي فأخبرنا أن بعض مجموعاته استطاع التقدّم إلى قرب مواضع اللواء الساقط، وكان هذا خارج خطة المخادعة، فأمرته أن يُعيدهم فورًا، وأن يسرِّع انسحابه قبل الوقت المحدد في الخطة. وتم سحبهم قبل الساعة الثالثة بقليل وكان بينهم سبعة أو ثمانية من الجرحى.

حققت عملية المخادعة ونيران مدفعيتنا المؤثرة في العدو غرضنا، ومن متابعة رسائل العدو المسترقة بعد العملية ذكروا أنهم تمكنوا من إفشال هجوم عراقي مفاجئ، وأنهم تكبَّدوا خسائر كبيرة، وذلك يعني أن احتمال قيامهم بهجومهم الرئيس سيتطلب مزيدًا من الوقت، إذ إنهم سيحتاجون إلى إعادة التنظيم.

كان النهار كله في اليوم التالي متاحًا لجماعات استطلاع قوة العميد علي المحمداوي حتى مستوى آمري وحداته الفرعية، لإجراء استطلاعٍ دقيقٍ لعارضة جبل كنه سور وتحديد واجباتهم. قامت مدفعية الفيلق بتسجيل نيران الخطة النارية بإشراف مباشر من آمر مدفعية الفيلق. كان الجو غائمًا وعند المساء بدأت تمطر بفترات متباعدة، وبدأ الضباب يغطي سفوح ووحوض كنه سور، فساعدنا في إخفاء قوة العميد علي المحمداوي في أماكن انطلاقها. في الساعة الثامنة مساءً انطلقت القوة، وبدأت مدفعية الفيلق تشاغل بفترات متقطعة أهدافًا في مواضع اللواء الساقط وفي عارضة كنه سور تباعًا لإشغال العدو وإخفاء تسلّق قوة الهجوم نحو أهدافها.

مع تقدّم القوة باتجاه أهدافها كانت المدفعية تزيد تدريجًا كثافة رميها والأمطار يزداد هطولها، وقبل منتصف الليل تحوّلت مدفعية الفيلق بثقلها على قطعات العدو في مواضعها الأمامية على عارضة كنه سور، وعند منتصف الليل كان جنودنا قد سيطروا عليها واندفعوا إلى الأمام. بدأت

الثلوج تهطل على قمم جبل كنه سور الممتدة مسافة أكثر من كيلومترين، ونيران مدفعيتنا (أكثر من 200 مدفع) تزحف تدريجًا إلى الأمام [195] ، وجنودنا يعقبونها ويطهرون موضعًا بعد الآخر ممن تبقى من جنود العدو. ومع الفجر كنا من مرصد قيادة الفيلق نشاهد راياتنا بألوانها الثلاثة ونجومها الخضراء تغطي قمم سلسلة جبل كنه سور المغطاة بالثلوج، فأوعزتُ إلى العميد علي أن يدفع قوة ملائمة إلى السفوح الشرقية للعارضة، وكانت عملية احتلال عارضة كنه سور عملية قتالية منسّقة جمعت بين قدرة وشجاعة ضباط وجنود اللواء 72، ودقة وتأثير نيران مدفعية الفيلق.

تغيّر الموقف التعبوي كليًّا بعد سيطرتنا على الجناح الجنوبي للعدو باحتلال عارضة جبل كنه سور، إذ لن يستطيع بعدها استئناف هجومه باتجاه جوارتة أو أزمر، وقواتنا تشرف عليه من قمم السلسلة الجبلية.

وصلت وحدات المغاوير الثلاث التي أرسلتها الأركان العامة، واشترط رئيس أركان الجيش الفريق عبد الجواد ذنون إعادتها بعد إكمال معركة جوارتة، فكلّفتهم على الفور باستطلاع العارضة الشمالية لمواضع اللواء الساقط. وفي اليوم التالي كانت وحدات المغاوير قد أكملت تحضيراتها، وفي الليلة نفسها شنّت هجومها على العارضة الشمالية بإسناد كلِّ مدفع وهاون متيسّر لمدفعية الفيلق. وفي الصباح كانت العارضة بحوزة مغاويرنا، وكانت خسائر العدو فادحةً، فأرسلنا فرق التصوير إلى العارضة لتصوير أكداس قتلى العدو فيها، وعرضها تلفزيون بغداد في الليلة نفسها. وأصبحت قواتنا تسيطر على أجنحة العدو، ومراصدنا فيها توجّه نيران مدافعنا وهاوناتنا على قطعات العدو في مواضع اللواء 504 السابقة.

هيّأنا قوة مؤلفة من فوج مشاة وبعض سرايا المغاوير وما يتيسر لنا من دبابات، وخطّطنا لاستعادة مواضع اللواء الساقط وتدمير العدو فيه باندفاع قوات أجنحة اللواء 72 من اليمين (الجنوب)، ووحدات المغاوير من اليسار (الشمال) لتطويق العدو والهجوم عليه من الأمام من اتجاه عارضة سرسير بالقوة المرتبة والدبابات. وفي ساعة متأخرة من الليلة التي تلت احتلال العارضة الشمالية اندفعت قواتنا من الاتجاهات الثلاثة، وعند الفجر التقت أرتال الأجنحة الشمالية والجنوبية، وتمكّنت القوة المرتبة مع الدبابات من تطهير مواضع اللواء 504 من العدو. تمكّن عددٌ من أفراد العدو من الهروب بعد سقوط العارضة الشمالية تاركين أسلحتهم الثقيلة والمتوسطة كلها وبضع دبابات، وأسرت قطعاتنا البقية. كان معظم الأسرى من أفراد اللواء المظلي 55، اللواء الذهبيّ للجيش الإيراني النظامي كما كان يدعى،

الذي صُرف على تهيئته الكثير منذ أيام الشاه.

في نهاية هذه المعركة كنا قد دمّرنا أو أخرجنا من المعركة، نتيجة خسائرها الفادحة، ستة ألوية من حرس الخميني ولواء مشاة من الفرقة 28 واللواء المظلي 55. وكانت الأسلحة المتروكة تُعد بالمئات من الهاونات الثقيلة والأسلحة المتوسطة والبنادق بالآلاف، الأمر الذي يدل على أن معظمهم هرب من دون سلاح طلبًا للنجاة بحياته. أمرت بعرض الأسلحة التي استولينا عليها في ساحة كبيرة بالقرب من مبنى محافظة السليمانية، لتأثير ذلك في أهالي المحافظة بعد الشائعات التي سرّبها المسلحون الأكراد عن أنهم سيحلّون هم والإيرانيون في رحابهم بعد بضعة أيام.

كان أسرى الإيرانيين متسخي الأبدان، تنبعث منهم روائح كريهة لبعد عهدهم على ما يبدو بالغسيل والاستحمام. أمرت أن يستحموا ويغتسلوا في سرايا الغسيل والاستحمام التابعة للفيلق، وأن يحرص المشرفون على إطعامهم وجبات مماثلة لما يتناوله جنودنا، وأمرت قسم الطبابة بفحصهم والتأكد من خلوّهم من الأمراض والقمل والحشرات، وأُخلي جرحاهم إلى مستشفياتنا فورًا.

كانت الخطوة التالية لقيادة الفيلق استغلال حالة عدم التوازن لدى العدو واستئناف العمليات بسرعة قبل أن يستفيق من تأثير اندحاره في جوارتة. كانت خطتنا تستهدف استعادة المناطق التي فقدها الفريق ماهر عبد الرشيد في معارك شتاء 1983 في منطقة بنجوين شرق السليمانية، وذلك بإعادة السيطرة على الذيول الشمالية لعارضة هرزلة في بنجوين، ومنها يندفع رتل باتجاه الشمال الغربي في عملية تطويق، واسعة لمن تبقى من العدو في حوض جبل هلوان شرق جوارتة للالتقاء برتل يندفع شرقًا من جوارتة. كنا بحاجة إلى وحدات المغاوير الثلاث التي أرسلها رئيس أركان الجيش للمشاركة في تنفيذ هذه الخطة، لكنّا اضطررنا إلى إعادتها بعد إصرار رئيس أركان الجيش [196] الذي أكد أنه أرسلها من أجل معركة جوارتة فحسب. لذلك تمكّنت بقايا قوات العدو من التملص مع معداتها ومدفعيتها الثقيلة وتفادت الوقوع في الأسر. اتصلت بأمين سرّ القيادة العامة وطلبت منه لقاء القائد العام، وفي اليوم التالي أخبرني أن طائرة تنتظرني في قاعدة كركوك الجوية لتقلني إلى لقائه.

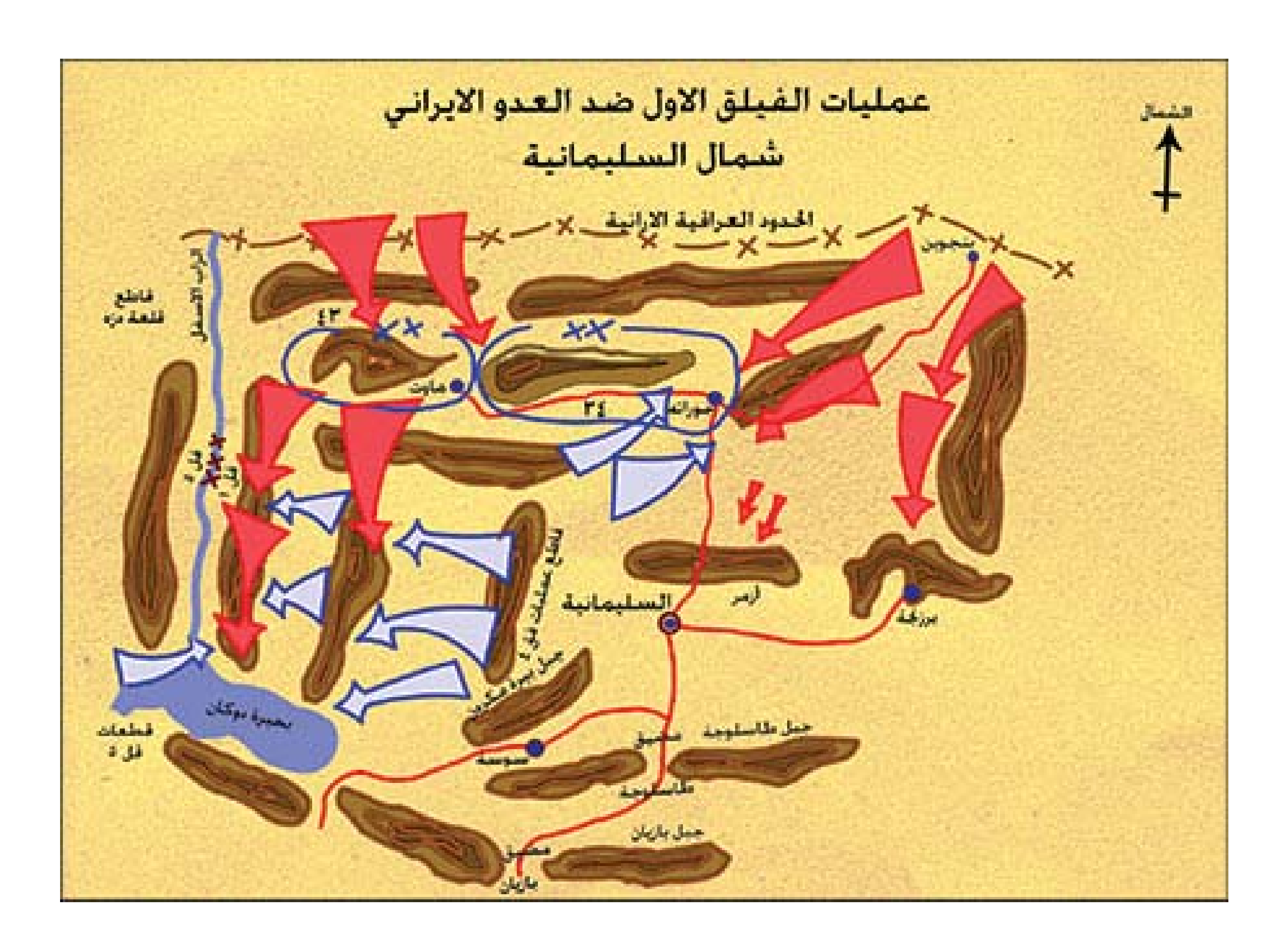
كان اللقاء مع القائد العام حارًا، حيث احتضنني مرحّبًا، وهو يناديني بعبارة «أهلًا أخوي»، وردّدها أكثر من مرة. كانت بيانات القيادة العامة عن انتصاراتنا في جوارتة تُذاع تباعًا لرفع معنويات شعبنا بعد أن هزته

كارثة سقوط الفاو. أوجزت للقائد العام مجرى العمليات والمعارك التي خاضتها قطعاتنا في جوارتة، وحجم القوات المعادية التي تم دحرها، والفرصة التي أضعناها بتطويق بقايا العدو ومعداته الثقيلة في حوض هلوان لإصرار رئيس أركان الجيش على سحب وحدات المغاوير التي عَزّزَنا بها لمعركة جوارتة، فرفع سماعة الهاتف وطلب قادة الفيالق الثاني والثالث والرابع والسادس، وكان يقول لكل واحد منهم: «أخوكم الفريق نزار جالس هنا معي، ويحتاج إلى وحدة مغاوير من فيلقكم فأرجو إرسالها فورًا». وبعد انتهائه من مكالماته [197] قال: «سأرسل لك لواء الحرس الجمهوري المكلف بحمايتي»، فشكرته كثيرًا، وسألني: «ما هي خطواتك المقبلة؟». قلت: «هناك عدد من الخيارات سيدي الرئيس؛ أولها أن نتوجّه إلى بنجوين، فعلى المرتفعات الشمالية وذيول جبل هرزلة (قمتا قاية وهرزلة اللتان تسيطران على مضيق بنجوين) ترابط الفرقة الإيرانية 28، وبعض وحدات حرس الخميني وتُشكل تهديدًا دائمًا لمضيق بنجوين. وأفكر بأن تكون عملياتنا المقبلة بهذا الاتجاه كأسبقية أولى، بعدها أمامي خياران، فإما أن نكمل في هذا الاتجاه ونسيطر على المرتفعات الحدودية الممتدة إلى الشرق من جوارتة (مرتفعات سركيو ونزارة رش) والسيطرة عليها ستجبر العدو على التخلي عن جبل ومرتفعات هلوان، ويضطر إلى الانسحاب إلى ما وراء الحدود، ولتنفيذها أحتاج إلى قطعات إضافية، وإما أن انتقل بعد بنجوين إلى دربندخان (100 كلم جنوبًا) لاستعادة العوارض المشرفة على سد دربندخان وتأمينه من أي تهديد يشكّله العدو في المستقبل».

قال الرئيس: «أنا مع بنجوين ودربندخان، أما المرتفعات الحدودية شرق جوارتة فتؤجل إلى وقت آخر». قلت: «أمركم سيدي الرئيس». وسأل: «هل هناك شيء آخر؟». قلت: «قائد الفرقة 34 ضابط جيد، لكنه من الصنف المدرع، وخبرته قليلة في قتال المناطق الجبلية، واقترح تنسيب العميد الركن ناطق شاكر رامز ضابط الركن الأول في الفيلق قائدًا للفرقة 34 فله خبرة وتجربة في هذا النوع من القتال». قال: «سأصدر الأمر بذلك، كما أُخوّلك منح أوسمة الشجاعة وقِدم سنة واحدة للضباط، ورتبتين للمراتب وضباط الصف الذين تميزوا في معارك الفيلق».

الشكل (10 - 6)

عمليات الفيلق الأول شمال السليمانية، 1987



جاء الرفيق محمد حمزة الزبيديّ [198] وأرشد الزيباري وزير الدولة وشقيق الشيخ لطيف الزيباريّ مستشار الفوج الأول دفاع وطني ورئيس عشيرة الزيباريّين القوية وآخرون لزيارتنا في مقرّنا المتقدم في جوارتة، فوجدتها فرصة جيدة ليقلِّدوا ضباطنا ومراتبنا المتميِّزين في معارك جوارتة أوسمة الشجاعة، وليشدّوا الرتب لضباط الصف والمراتب، كما قلّدوا بعض الرفاق العسكريين أوسمة الشجاعة. كانت معركة جوارتة أول معركة يرافق فيها عضو الشعبة آمر القوة، وعضو الفرقة آمر الفوج، وكان الرفاق مع آمري السرايا والفصائل والمقاتلين في صولاتهم. وكانت هذه المبادرة من الرفيق العميد طالب السعدون الذي بقي إلى جانبي في المعارك كلها. زارتنا فرق الإذاعة والتلفزيون فدعوناها إلى عشاء في النادي العسكري في السليمانية، وكان من ضمنها المذيعة المعروفة مديحة معارج [199] التي كانت ترغب في إجراء مقابلة معي فسحبتها من يدها، وذهبت بها إلى العميد علي المحمداوي آمر اللواء 72، وقلت لها: «العميد علي المحمداوي وضباط اللواء 72 هم أبطال معارك جوارتة، فأجري معهم ما تشائين من لقاءات».

انتقل مقرّ الفيلق المتقدم إلى سيد صادق [200] في سهل شهرزور جنوب

حلبجة لإدارة معركة بنجوين. وصل لواء الحرس الجمهوري الخاص بحماية الرئيس، وكانت أفواجه تضمّ أكثر من ألف مقاتل لكل منها. طلبت من آمر اللواء العميد الركن ناصر سعيد التكريتي أن يوجز لي حالة اللواء، فأخبرني أنه شارك في معارك الفاو وتكبَّد خسائر كبيرة، وأعيد إلى بغداد لإعادة التنظيم وإكمال نواقصه، وأن معظم جنود اللواء من المتطوِّعين الذين لم يكملوا تدريبهم، فسألته عن نسبة المستجدين في أفواجه، فأجاب: «ليس أقل من 75 في المئة من كل فوج»، فقلت: «ذلك يعني أن لديك ما لا يقل عن 250 مقاتلًا من المتدربين القدماء في كل فوج؟». قال: «نعم، لكن بعضهم من الجرحى». قلت: «هل تستطيع أن تُخرج لي ستين مقاتلًا من كل فوج مع ضباطهم؟». قال: «بالطبع سيدي». قلت: «أريد منك أن تهيّئ لي ثلاث مجموعات كل منها من ستين مقاتلًا، وستين آخرين مع ضباطهم لتعويض الخسائر التي قد تحدث في المعركة. وركز في اليومين المقبلين أو الثلاثة على تدريبهم تسلق الجبال، والعمل الليلي لحين استخدامهم، وتكمل بقية أفواجك تدريب جنودكم المستجدين بعدما توقف عند حركتكم إلى هنا».

كانت فرقة المشاة الإيرانية 28 تدافع على امتداد جبل هرزلة الشمالي بلواء مشاة، وعلى عارضة تقع إلى الجنوب من امتداد مرتفعات هرزلة بفوج من حرس الخميني، وكان للفرقة لواء مشاة، وفوج أو فوجان احتياط من حرس الخميني، فقرّرت تكليف اللواء 72 باحتلال امتداد جبل هرزلة الشمالي، والحرس الجمهوري باحتلال العارضة جنوبها، وتبقى أفواج مغاوير الفيالق التي تم تعزيزنا بها احتياطًا.

أكملت قوة الحرس الجمهوري استطلاعها من قمة هرزلة التي بحوزة قواتنا، أما اللواء 72 فكان على معرفة تامة بالمنطقة التي كانت ضمن مسؤوليته قبل سحبه إلى معركة جوارتة. وفي ليلة العملية تحرّكت القوات إلى نقاط انطلاقها، وفي الساعة العاشرة شرع اللواءان بالتقدّم إلى أهدافهما تحت إسناد ناري مؤثّر، كما خصّصنا جهدًا ناريًا آخر لضرب احتياطات العدو ومقرّ الفرقة 28 لشلهما عن التدخل ضد قواتنا المهاجمة.

سار تقدّم اللواء 72 بشكلٍ مرضٍ، بينما تعثّر تقدُّم المجموعات الثلاث للواء الحرس بعد التعب والإنهاك اللذين أصاباها لعدم اعتياد جنودها التسلّق الجبلي، فأرسلنا وحدة مغاوير اندفعت أمامهم لحين حصولهم على راحة كافية استأنفوا بعدها تقدمهم. وعند الفجر كانت قواتنا قد أكملت احتلال أهدافها، وتقهقر مقرّ الفرقة الإيرانية واحتياطاتهم الذين انسحبوا من

المعركة إلى العمق، تطاردهم نيران مدفعيتنا. وبعد انتهاء المعركة أعدتُ لواء الحرس الجمهوري الخاص مع كتاب أثني فيه على أدائه بعد أن علمت أن الرئيس كان قد قرّر محاسبة آمره العميد الركن ناصر التكريتي لعدم رضاه عن أداء اللواء في معارك الفاو، وكان قد أخرجه من السجن وأرسله إلى فيلقنا بعد أن حذّره من أنه، أي الرئيس، يُعطيه فرصة لإثبات جدارته، وأن مصيره يتوقف على أداء اللواء في قاطع فيلقنا. والظاهر أن الرئيس لم يكن يعلم أن معظم جنود اللواء كانوا مستجدين غير متدربين، ولم يجرؤ العميد ناصر على أن يقول له ذلك.

كانت للعدو قطعات من نحو 11 فوجًا في حوض عارضة هلوان التي تقع شرق جوارتة، وشمال غرب بنجوين، وأصبح موقف هذه القطعات حرِجًا بعد سيطرتنا على ذيل جبل هرزلة الشمالي، وأصبحت مهددة من هذا الاتجاه، ومن اتجاه جوارتة، فبدأ العدو بترقيقها، فحاولنا تثبيته في مناطق وجوده في الحوض، وكلّفنا بعض أفواج الدفاع الوطني بمشاغلته لمنعه من الانسحاب لحين تنفيذ عملية الإحاطة الواسعة التي قمنا بها من اتجاه ذيول جبل هرزلة الشمالية في قاطع بنجوين برتل تقوده الفرقة 27، ومن اتجاه جوارتة برتل تقوده الفرقة 34، والتقى الرتلان وتم غلق حوض هلوان، لكن أفواج العدو كانت قد تمكّنت من التملص والانسحاب من الحوض، بعد أن تركت معظم أسلحتها ومعداتها الثقيلة، ومنها دبابات وعجلات ومدافع وهاونات ثقيلة وأكداس من الأعتدة والتجهيزات.

كانت بلدة دربندخان [201] تعج بالمتعاونين مع المسلحين الأكراد وأنصارهم، وإلى الشمال الغربي منها يقع جبل قوبي قره داغ أحد أهم معاقل المخرِّبين في منطقة قره داغ، ويطل على بلدة دربندخان مباشرة، وإلى الشرق منها يقع سد دربندخان وجبلا زمناكو وشميران ثم نهر السيروان الذي يجري بمحاذاة الحدود في هذه المنطقة. في الطريق من بنجوين إلى دربندخان (100 كلم) تقع بلدة سيد صادق، وعلى هذا المحور أنصار للتخريب، والاتحاد الوطني الكردستاني الذي يتركز وجوده في مناطق الأكراد السورانيين (محافظة السليمانية ومناطق من محافظة أربيل). كان التنقل بين بنجوين ودربندخان عملية تتطلب من قواتنا العديد من التحضيرات كي لا يكشفها العدو والمسلحون الأكراد (أي معلومة يحصل عليها المسلحون الأكراد والمتعاونون معهم تصل إلى العدو على الفور، كما أن عناصر من العدو مع أجهزة مواصلات تسلّلت مع المسلحين الأكراد إلى مناطق وجودهم لمراقبة تحركات قطعاتنا).

كان العدو يحتل جبل شميران (5 كلم شرق السدّ والبحيرة، وارتفاعه 1500م فوق سطح البحر) بلواء «محمد رسول الله» وهو واحد من أقوى ألوية حرس الخميني وأشرسها في القتال، يتألف من خمسة أفواج، وتحول في ما بعد إلى فرقة حرس الخميني. كانت قوات هذا اللواء تتركز في الأرض الحيوية من العارضة (الراقم 1448، والكهوف الموجودة فيه وتدعى الأشكفتات باللغة الكردية)، ويربطه عدد من النياسم التي يستخدمها المهربون عبر الحدود الإيرانية.

أما قطعاتنا فتحتل مواضع دفاعية على عارضة بردة دوكن التي تمتد إلى السدّ والبحيرة، وتشرف عليهما مباشرة، وتقع غرب جبل شميران الذي يحتله العدو بمسافة كيلومتر واحد. يبلغ ارتفاع بردة دوكن أقل من ارتفاع جبل شميران ببضع مئات من الأمتار. ونسّبتُ العميد الركن قوات خاصّة كامل ساجت الجنابي قائد الفرقة 27 لقيادة القطعات التي ستُنفّذ العملية. يقع مقرّ الفرقة 27 (في بلدة سيد صادق إلى بنجوين) في سهل شهرزور [202] ، وتمتد مسؤولياتها إلى حلبجة وبنجوين [203] . كان اللواء 72 من نظام معركة الفرقة، وآمره العميد قوات خاصّة علي المحمداوي مرؤوسه وصديقه الحميم، وكان ذلك جيدًا بسبب خصوصية المنطقة ولترتيب تنقل القطعات المنفِّذة وقدماتها الإدارية الساندة للعملية المقبلة في دربندخان، من بنجوين بأقصى ما يمكن من الكتمان والسريّة.

عقدنا مؤتمرًا حضره المعنيون كافة وأوضحنا فيه أسلوب وتوقيتات تنقل القطعات والقدمات الأخرى إلى مناطق تحشدها في دربندخان، وشدّدنا على مراعاة السريّة لمباغتة العدو في عمليتنا المقبلة. شرعت القطعات والقدمات الأخرى بالتنقل وفق التوجيهات التي أُبلغوا بها، وكنا نتابع شبكات ورسائل العدو والمسلحين الأكراد، ولم نلحظ أي إشارة تدل على كشف حركة قطعاتنا. قبل يومين من تنفيذ العملية أخبروني أن قافلة من عجلات الإسعاف لطبابة الفيلق، تتألف من 20 عجلة إسعاف، تحرّكت إلى دربندخان نهارًا، ووصلت البلدة خلافًا لتوجيهات قيادة الفيلق، الأمر الذي سيؤدي إلى كشف العملية برمّتها. استدعيت مدير الإدارة والميرة الذي نفى علمه بحركة عجلات الإسعاف، فطلبت آمر الطبابة الذي قال إنه أراد كسب الوقت بهذا الإجراء، فأنّبته على مخالفته التوجيهات، وأمرت أن تتحرك عجلات الإسعاف على الفور إلى خانقين في قاطع الفيلق الثاني، وتعود يوم تنفيذ العملية، وتمكَّن الفيلق من إكمال نقل القطعات إلى مناطق تحشدها من دون أن يكشفها العدو أو المسلحون الأكراد.

كانت خطة الاستيلاء على جبل شميران تقتضي مهاجمته باللواء 72، والقيام بإحاطة قصيرة بوحدة مغاوير وعدد من الدبابات من الجناح الأيمن للعارضة، لتهديد طريق إمداد العدو المباشرة، والاندفاع بعد تخلله بوحدتي مغاوير إلى نهر السيروان على الحدود الإيرانية لقطع طريق انسحابه من هذا الاتجاه، ووضعنا وحدة مغاوير احتياط في بنجوين لتكون جاهزة للتنقل بالسمتيّات عند الحاجة.

تسلّق اللواء 72 إلى مواضع قطعاتنا في عارضة بردة دوكن مساء ليلة التنفيذ وكمن فيها، وفي الساعة 4.30 شرعت مدفعيتنا في تنفيذ خطتها النارية على مواضع العدو في جبل شميران ومنطقة الراقم 1448، وفي الساعة 5.00 هاجم اللواء مواضع العدو واشتبك معه في قتال ضارٍ. ومع الفجر كان قد تمكَّن من احتلال بعض المواضع إلا أنه لم يتمكَّن من إزاحة العدو عن منطقة الراقم 1448. اندفعت قوة الإحاطة وتمكَّنت من قطع طريق إمداد العدو، إلا أنه استمر يقاتل بضراوة في منطقة الراقم، وفي الاشكفتات، وتكبَّد اللواء 72 خسائر كبيرة، ومع ذلك كان يشنّ الهجمة تلو الأخرى، وفي كل مرة يتمكَّن العدو من إيقافه. وكانت البرقيات المسترقة تشير إلى أن العدو قد تكبَّد خسائر فادحة، مع أنه لا يزال يقاوم، وكان ضباط أحد أفواج اللواء قد سقطوا جميعًا جرحى وقتلى، وتولّى ضباط صف الفوج قيادة جنودهم. سمعت أول مرة قائد الفرقة العميد الركن كامل ساجت المعروف بصلابته، يشكو من أن موقف اللواء صعب جدًا، وأن مصير المعركة يتأرجح بيننا والعدو، لكنني من البرقيات المسترقة كنت أُقدّر أن العدو أصبح على حافة الانهيار، ويحتاج إلى ضربة قوية أخرى فأوعزت بقيام وحدة المغاوير الموجودة في بنجوين بصولة جوية بالسمتيّات على العدو فورًا، وبعد أقل من نصف ساعة أنزلت السمتيّات وحدة المغاوير قرب قطعات اللواء 72 المشتبكة مع العدو، وصالت بإسناد السمتيّات المسلحة على منطقة الراقم 1448 بكل جرأة واندفاع، واندفع معها مقاتلو اللواء 72 المثخنون بالجراح فانهار العدو، وترك مواضعه هاربًا إلى المناطق الوعرة التي تفصلنا عن الحدود الإيرانية، وطهر جنودنا بالرمانات اليدوية الاشكفتات في منطقة الراقم 1448، واندفعت وحدتا المغاوير إلى نهر السيروان، والحدود العراقية - الإيرانية لقطع الطريق على تقويات وطرق مواصلات العدو، وانتهت المعركة ببسط سيطرتنا على العوارض كافة شرق سد دربندخان حتى الحدود الإيرانية. وبذلك أكمل الفيلق عملياته في (جوارتة وبنجوين ودربندخان)، وتمكَّن بإمكاناته المحدودة بعد معارك

استمرت خمسة أسابيع متتالية، من إفشال مخططات العدو وحليفه الاتحاد الوطني الكردستاني لاحتلال مدينة السليمانية، وتمكَّن من تدمير أكثر من عشرة ألوية معادية أو أخرجها من المعركة لخسائرها الكبيرة، والألوية هي: لواءان نظاميان من الفرقة 28، واللواء المظلي 55، 7 ألوية من حرس الخميني منها لواءا النخبة بروجردي في جوارتة، و«محمد رسول الله» في دربندخان، في وقت كان يمرّ فيه شعبنا وقواتنا المسلحة بوضع نفسي صعب بعد خسارة الفاو.

الخريطة (10 - 1)

خريطة العراق، تبيِّن تنوّع تضاريسه الطبيعية



X الفريق الركن ماهر عبد الرشيد من مدينة تكريت، ابنته زوجة قصي ابن الرئيس صدام حسين. صعد إلى هرم القيادة العسكرية نتيجة قرابته من العائلة الحاكمة، أحيل على التقاعد بعد معركة تحرير الشلامجة، وهو الآن معتقل في سجون النظام الحالي في العراق.

X الرفيق سعدي مهدي صالح عضو القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي، شخصية محترمة ومحبوبة، ومن أفضل قادة الحزب خلقًا وإخلاصًا. توفي بمرض السرطان في أوائل التسعينيات، وفقد الحزب واحدًا من أفضل قادته.

X الفيلق الخامس استحدث في عام 1985، واستلم مسؤولية محافظات أربيل ودهوك والموصل من الفيلق الأول لسعة القاطع الذي كان مسؤولًا عنه.

X جلال الطالباني زعيم الاتحاد الوطني الكردستاني الذي انشق عن الحزب الديمقراطي الكردستاني بزعامة الملا مصطفى البرزانيّ في عام 1964، وخاض في صراع معه. وفي فترة 1983 - 1984 أدار مفاوضات مع الحكومة العراقية لم تحقق نتيجة فعاد إلى التمرد في فترة 1985 - 1986، وتعاون بمباركة إيرانية مع الحزب الديمقراطي الكردستاني (البرزانيّ) والقوات الإيرانية لقتال القوات المسلحة العراقية في قاطعي الفيلق الأول والخامس للسيطرة على المنطقة الكردية في شمال العراق. وهو الآن رئيس جمهورية العراق.

X لنلاحظ الهدف المخفي وراء تسمية كهذه في عملية ضد أراضٍ عراقية، فخيبر كما هو معروف كانت معقل اليهود في شمال الحجاز في فجر الإسلام.

X العزير هي مركز قضاء في محافظة ميسان (العمارة) العراقية، وهي القرية التي مرّ بها عزرا النبي وتوفي فيها وضريحه قائم حتى الآن.

X منظمة بدر، تشكيل من المتعاونين العراقيين شكلته الاستخبارات الإيرانية كذراع ضاربة للمجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق بقيادة آل الحكيم الذين توارثوا قيادته، ويقوده الآن عمار الحكيم، ويرئس منظمة بدر حاليًا هادي العامري أحد وزراء حكومة المالكي الحالية.

X من الطريف الإشارة إلى أن كتابًا روائيًا جرى تداوله منتصف السبعينيات بعنوان The Crash of 79 لمؤلفه بول إردمان (Paul E Erdman) صدر عن دار نشر (Simon & Shuster) حمَل في ما يبدو مشاهد من حرب متخيلة بين العراق وإيران تحت حكم الشاه بيَّن في

بعض صفحات هذه الحرب عبورًا إيرانيًا لهور الحويزة.

X الحقول النفطية في مجنون من أكبر الحقول النفطية في العراق، ويقدَّر إنتاجها بربع إنتاج النفط العراقي في ما لو تم استغلالها استغلالًا كاملًا.

X ستكون عملية استعادة حقول مجنون هدف إحدى عمليات التحرير الكبرى وهي «توكلنا على الله 2» التي سنوردها في ما بعد.

X جريدة الحرب (Dairy War) تسجل فيها كل الإجراءات والحوادث وحركة القطعات والمواقف التي تحدث في قاطع الفيلق يوميًا وساعة بساعة.

X هكذا كان يدعى جلال الطالباني باسم ابنه البكر «شلال» وهو اسم متعارف عليه في العراق بين العرب والأكراد، ولم أكن أعلم بأن اسم ابنه البكر أضحى «قباد» أخيرًا.

X وهو ما حصل بالضبط في عام 1991 بعد إعادة الدولة سيطرتها على شمال العراق بعد حوادث الحرب الأميركية الأولى على العراق في العام نفسه 1991، إذ اتفقت الجبهة الكردستانية هذه المرة مع السلطة المركزية وذهبت لـ «مراجعة قواعدها» ولم تعد.

X محمد باقر الحكيم (8 تموز/يوليو 1939- 29 آب/أغسطس 2003)، هو ابن المرجع الشيعي العام الأسبق محسن الحكيم (ت 1970) لجأ إلى إيران وشكلت له الجهات الإيرانية ما سمي في حينه «المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق» (وهو ما يدعى الآن المجلس الإسلامي الأعلى)، يتوارث قيادته أبناء السيد محسن الحكيم وأحفاده. قُتل بانفجار استهدفه عند خروجه من صحن مسجد الإمام علي بن أبي طالب في النجف.

X منضدة الرمل، هي إحدى وسائل عرض الموقف العسكري، أو بناء الخطط، وتمثِّل نقلًا تشبيهيًا للأرض التي يتم الإيجاز حولها بعوارضها كلها، مُعدّة من الرمل على مقياس الخريطة نفسه المختار للإيجاز، وتوضح المعالم الجبلية والطرق والجسور والمدن والمحطات والأسلحة بدمى تشابه الحقيقية، وتستخدم على نطاق واسع سواء في القتال أو في التمارين.

X هو التقاء الحدود العراقية - الإيرانية - التركية.

X أعلى قمة جبل في المنطقة الشمالية من العراق.

X تُعرّف الأرض الحيوية بأنها تلك الأرض أو العارضة التي تمثِّل قلب الموضع الدفاعي والتي بسقوطها بيد العدو سيسقط الموضع الدفاعي بالكامل، أو يكون الاستمرار بالدفاع عنه مهمة مستحيلة من دون استردادها.

X القائد الرديف صيغة أمر بها القائد العام لمساعدة القائد الذي يتعرض فيلقه لهجوم رئيس بعدما أخذت المعارك في السنوات الأخيرة من الحرب تدوم لفترات طويلة. يقوم القائد الرديف بواجبات القائد الأصلي في حالة الإجهاد أو الراحة أو تغيّبه لأي من الأسباب، وهو أسلوب كانت تعمل به هيئة الأركان السوفياتية في أثناء الحرب العالمية الثانية.

X اللواء الركن (الفريق الأول الركن في ما بعد) سلطان هاشم واحد من الضباط الشجعان الذين عملوا بإمرتي وكان حرَفيًا مهنيًا تدرّب على الحروب الجبلية ومارس قيادة القطعات فيها حتى وصل إلى منصب قائد فيلق. عمل بمعيتي في الأركان العامة معاونًا لرئيس الأركان للميرة (الإسناد اللوجستي)، ثم عمل معاونًا لرئيس الأركان للعمليات، فرئيسًا لأركان الجيش فوزيرًا للدفاع. أسرته القوات الأميركية بعد الغزو وسلمته للحكومة التي نصّبتها. حوكم مع الرئيس الراحل وحكم عليه بالإعدام. لم يصادق رئيس الجمهورية ولا المجلس الرئاسي على إعدامه، ولا يزال سجينًا لدى السلطة الحالية.

X فلاكة باللهجة العراقية تعني الفوضى غير المسيطر عليها.

X هم الفريق الركن هشام فخري والفريق الركن ماهر عبد الرشيد واللواء الركن طالع الدوري.

X غرفة الحركات هي قاعة تدار منها الأوامر والتعليمات وتعلق فيها خرائط الموقف، وتكون فيها وسائل الاتصالات بقيادات الفرق، وضباط ركن الفيلق في أثناء العمليات.

X يدعى استخدام المدفعية بالرمي الخطي الكثيف أمام القطعات المتقدمة بـ «السدّ الناري الزاحف».

X كان الفريق عبد الجواد ذنون قد أرسل وحدات المغاوير الثلاث للاشتراك في معركة استعادة مواضع اللواء 504 وإعادتهم فوافقت، لكنني كنت في أشد الحاجة إليهم في تطوير عمليات الفيلق، وأسر قطعات العدو في حوض جبل هلوان، وكانت أعدادهم كبيرة، لكنه رفض وأصرّ على إعادتها، وأضاع علينا فرصة أسر القوات الإيرانية في حوض هلوان.

X كان ذلك دلالة إلى حراجة موقف القوات العراقية، وعدم تيسر احتياطات بعد الخسائر الفادحة لقواتنا في معركة سقوط الفاو، ومحاولات استعادتها.

X محمد حمزة الزبيديّ من قادة حزب البعث العربي الاشتراكي ومن الشيعة العرب. تولّى رئاسة مجلس الوزراء، وكان من القادة الحزبيين الذين

يعتمد عليهم الرئيس كثيراً. اعتقل بعد الاحتلال وقضى في السجن ويُقال إنه اغتيل.

X عُرفت المذيعة مديحة معارج بوجودها في جبهة البصرة ببرنامجها «هنا البصرة» في أثناء معارك شرق البصرة.

X سيد صادق عقدة طرق وجسر على نهر تانجرو في سهل شهرزور، سُمّيت باسم العميد السيد صادق عبد الله الذي خاض معارك مهمة في هذا القاطع في حقبة تمرد سابقة وعسكَرَ هنا، فسمّيت المنطقة باسمه.

X مدينة دربندخان مركز قضاء دربندخان، تتبع محافظة السليمانية، ويقع سد دربندخان على نهر السيروان (ديالى) في الطرف الشرقي للمدينة.

X سهل شهروزر من أغنى السهول الزراعية في المنطقة.

X العميد قوات خاصّة الركن كامل ساجت الجنابي ضابط شجاع ونزيه ترقى إلى رتبة لواء، وتولى قيادة الفيلق الثاني في عام 1988 في الحرب العراقية - الإيرانية. وفي حرب الخليج الثانية تولى قيادة قوات العمليات المسؤولة عن الدفاع عن مدينة الكويت، وأعدم بعد انتهائها لأسباب غامضة.

الفصل الحادي عشر: معاون رئيس أركان الجيش للعمليات

حلّ تموز/يوليو 1986 فأصدر القائد العام مرسومًا جمهوريًا بتعييني في منصب معاون رئيس أركان الجيش للعمليات، ونُسب الفريق الركن ضياء الدين توفيق قائدًا للفيلق الأول، ثم استُبدل بعد بضعة أشهر بالفريق الركن شوكت أحمد عطا. لم يسبق لكليهما العمل فترات كافية في المنطقة الشمالية، ولذلك كانت تنقصهما الخبرة والمعرفة الوافية بقتال العدو في المناطق الجبلية والأراضي الوعرة، أو في مكافحة المسلحين الأكراد. عند التحاقي بمنصبي الجديد، كنت أريد أن تعيد رئاسة أركان الجيش التي كنت أرئس دائرة العمليات فيها، النظر بصيغ وأساليب إدارة الحرب في ضوء مجريات ونتائج القتال في الأعوام السابقة، إلا أن رئيس أركان الجيش الفريق الأول الركن عبد الجواد ذنون كان تلميذًا وفيًا لمدرسة الفريق الأول الركن عبد الجبار شنشل رئيس أركان الجيش السابق ووزير الدولة للشؤون العسكرية الذي عمل بإمرته مديرًا للاستخبارات ومعاونًا لرئيس أركان الجيش فترة طويلة، وظل متمسكًا بالأساليب والسياقات التي ورثها عن سلفه. وبصفتي مرؤوسًا لم يكن لي خيار إلا العمل بما يتفق وتوجيه رئيسي المباشر، ولا يمنع هذا بالطبع من بيان الرأي والاستشارة في الدراسات والإجراءات وفي العمليات الفعلية في الجبهة، ولرئيس أركان الجيش أن يأخذ بها أو ألّا يوافق عليها. ومعاون رئيس أركان الجيش للعمليات عضو في القيادة العامة للقوات المسلحة ويحضر اجتماعاتها كافة، ويرافق رئيس الأركان في زياراته وتفقده الجبهات، له أن يُبدي ملاحظاته في المناقشات مع قادة الفيالق، على ألّا تتعارض مع الخطوط العامة لتوجيهات رئيس الأركان، ولذلك لم يستهوني العمل في رئاسة الأركان على الرغم من أن معاون رئيس الأركان للعمليات هو المرشح الأول لمنصب رئيس الأركان عند شغوره لأيٍّ من الأسباب. فقدتُ الكثير من الاستقلالية التي كنت أعمل بها آمرًا وقائدًا في المراحل المتعاقبة من حياتي العسكرية.

كان القائد العام يحضر إلى القيادة العامة أيام حدوث فاعليات في الجبهة، وكان يحضر أحيانًا والجبهة هادئة، وعندئذ كان يغلب على حديثه استذكار بعض من أيام النضال السريّ للحزب، وأيام طفولته في العوجة، والسنين الأولى من تعليمه وهو في بيت خاله خير الله طلفاح في جانب

الكرخ من مدينة بغداد. وفي إحدى تلك الجلسات تحدّث صدام حسين عن رؤيته للصراع المقبل مع إسرائيل فقال: «إسرائيل واقع زرعته الحركة الصهيونية بمساعدة مباشرة من بريطانيا والدول الغربية لتكون بؤرة سرطانية داخل الوطن العربي، وقاعدة أمامية له، فتُجبر الدول العربية على تبديد ثرواتها في صراعاتها معها، وتركيز جهدها على هذا الاتجاه بعيدًا عن التنمية والتطوير. وإن إسرائيل أصبحت قوة نووية وعسكرية واقتصادية كبيرة وحليفة أساسية لأميركا والغرب، والدخول في صراع معها يعني الصراع مع أميركا، وقد يجر ذلك العالم إلى صراع عالمي. لذلك علينا أن نكون واقعيين، ونعترف بأن ليس من الحكمة التفكير بإزالتها عسكريًا، ومن يحمل هذه الفكرة فهو غير واقعي». وأكمل قائلًا: «ما أتصوّره هو أن يُبنى صراعنا على أساس تطوير العراق حضاريًا وعلميًّا واقتصاديًا وعسكريًا ليكون نموذجًا تحتذي به الدول العربية ودول المنطقة. وعلينا نحن أن نقبل الحد الأدنى للمتطلبات القومية، على الرغم من أننا حزب يؤمن بالوحدة، لكن علينا أن نعترف أيضًا أن الدول العربية التي أوجدها الأجنبي باتفاقات ما بعد الحرب العالمية الأولى أضحت لها كيانات تعتز بها، وبعد سنوات طوال من الاستقلال تولّدت لديها مفاهيم قطرية واعتزاز باستقلالها، لا يجوز لنا تجاهلها أو تمييعها. علينا أن نسعى إلى الحد الأدنى من المتطلبات القومية، وهي التضامن العربي والتكاتف في مواقف سياسية متقاربة، والتكامل الاقتصادي والعسكري، وعندما نصل إلى هذه الحالة سنكون قوة مهمة ومؤثّرة في دول الجوار وفي العالم الذي سيجد أن التعامل مع الأمة العربية سيحقق له منافع أكثر بكثير مما يجنيه من تعامله مع إسرائيل. ومن الناحية الأخرى فإن إسرائيل بلد ديمقراطي يحكمه البرلمان المنتخب من الشعب، والمرأة الفلسطينية ولّادة، ونسبة التزايد السكاني ليست في مصلحة اليهود، وسيأتي اليوم الذي سيكون للعرب نسبة كبيرة في البرلمان، ومن الممكن أن يشكلوا جزءًا مهمًا من حكومة تسعى إلى التواصل مع العرب، وتتعامل معهم بشكل آخر. إن إسرائيل وُجدت لتكون بؤرة اقتصادية يتوافد إليها اليهود ليعيشوا حياة جيدة ومرفهة، وعندما يكون العرب قوة اقتصادية وصناعية متقدمة وغنية، ويتعامل معها العالم أجمع من هذا المفهوم، ستصبح إسرائيل آنذاك بؤرة صغيرة وبقعة في بحر كبير، الأمر الذي سيؤثّر فيها اقتصاديًا، وعندئذ قد يتركها كثيرون من الإسرائيليين إلى بلدانهم الأصلية أو بلدان أخرى للحصول على حياة أفضل، وقد تكون هناك دولة بأغلبية عربية يعيش فيها العرب الفلسطينيون واليهود، ونحن لا نرفض اليهود، لكننا

نرفض الفكرة الصهيونية، والفكرة هي احتواء إسرائيل، وليس ضربها».

في خريف 1986 نشط عمل مسلحي الاتحاد الوطني الكردستاني في محور ماوت في قاطع الفيلق الأول [204] الذي تدافع فيه قطعات الفرقة 44 في مواجهة العدو الإيراني، وتمكنوا من السيطرة على عارضة بندورة (مرتفعات تسيطر على الطريق التي تؤدي إلى ماوت، وتتوسط المسافة بين ماوت ومفرق كريزة الذي يؤدي جنوبًا إلى بلدة جوارتة، وشمالًا إلى معاقل المسلحين الأكراد في قريتي بركلو وسركلو شرق جبل بيرة مكرون)، ولم يتمكَّن الفيلق الذي استخدم قوات معظمها من أفواج الدفاع الوطني من استرجاعها، على الرغم من الهجمات العديدة التي قام بها. نظرًا إلى أهمية العارضة وتأثيرها في دفاعات الفرقة على هذا المحور، أرسل القائد العام نائبه عزت الدوريّ لمعرفة أسباب إخفاق الفيلق في استرجاعها من المسلحين الأكراد. وبعد اطلاعه على الموقف ومقابلته قائد الفيلق، اقترح على القائد العام إرسالي إلى قاطع الفيلق لمعالجة الموقف الذي استعصى على قائده الحالي.

أمر القائد العام أن أذهب إلى الفيلق الأول لمساعدة قائده فذهبت، والتقيت الفريق شوكت أحمد عطا، وأخبرته بالمهمة التي كلّفني بها القائد العام، وطلبت منه أن يخبرني عن سبب عدم تمكنهم من احتلال عارضة بندورة، فقال: «إننا وفّرنا لأفواج الدفاع الوطني كل ما يحتاجونه من إسناد ناري، لكنهم لم يتمكنوا من احتلال العارضة». وشكك في قدراتهم ورغبتهم في القتال. طلبت منه أن نذهب غدًا لاستطلاع العارضة، وأن نصطحب آمر مدفعية الفيلق معنا. في اليوم التالي ذهبنا إلى عارضة بندورة، وكان معظمها تحت سيطرتنا عدا الأسنان الصخرية الشرقية التي يحتلها المسلحون الأكراد، والتي تسيطر على ظهر العارضة، وخلف الأسنان المسيطرة مباشرةً يوجد قطع حاد كان يحتمي به المسلحون الأكراد من تأثير نيران مدفعية الفيلق. طلبت منه أن نقترب معًا مع آمر المدفعية فحسب، من دون حماية، من أقرب مكان يمكننا من خلاله رؤية المنطقة التي يحتمي بها المسلحون الأكراد خلف الأسنان الصخرية، فتسلّقنا ظهر العارضة، وتقدّمنا إلى جنوب منطقة الأسنان، وعندما أصبحنا قريبين منها زحفنا باتجاه القطع الحاد، فرجاني قائد الفيلق أن أخلع البيرية الحمراء الخاصّة بالمظليين التي أرتديها، لأننا اقتربنا كثيرًا من الأسنان ويخشى أن يصيبنا أحد قناصتهم، فطمأنته بأن ذلك لن يحدث، وتابعنا الزحف إلى منطقة نشرف منها على المنطقة المخفية عنا التي يحتمي فيها المسلحون الأكراد، فقلت لآمر

المدفعية: «عليك بوضع مجموعة من الهاونات في مكان تستطيع فيه نيرانها تغطية المنطقة التي تقع خلف وأسفل الأسنان قدر الإمكان، وأعتقد (مؤشرًا له بيدي) أن تلك المنطقة مكان مناسب لمواضع الهاونات»، فأيد ذلك. أضفت: «فلتكن مجموعة الهاونات لا تقل عن 36 هاونًا». فأجاب بأنه سيعمل على ذلك، وزحفنا عائدين.

في مقرّ الفيلق المتقدم قلت للفريق شوكت: «إن المعضلة ليست في أفواج الدفاع الوطني بل في إسنادنا الناري لها بمدافع ميدان ونيرانها المنبسطة، وقنابلها تسقط على الأسنان الصخرية، وهذه تكون خالية من المسلحين الأكراد في أثناء تنفيذ الخطة النارية، أو تتجاوز الأسنان الصخرية وتسقط بعيدة عنهم. وعندما تُرفع نيران المدفعية عند اقتراب أفواج الدفاع الوطني من الأسنان لمهاجمتها يسارع المسلحون الأكراد لاحتلالها مرة أخرى بعد أن تيقنوا من رفع نار المدفعية، وهم في كامل عدتهم وعتادهم، فيجبرون أفواج الدفاع الوطني المتقدّمة لاحتلال أهدافها على التراجع. لذلك فإن قنابل الهاونات بزوايا سقوطها العمودية من المواضع التي سترمي منها، التي ثبتناها ونحن على العارضة، وكثافة نيرانها، ستفاجئ المسلحين الأكراد وستكبّدهم الخسائر، وتجبرهم على ترك عارضة بندورة. والملحوظة الثانية لا ترسل أفواجًا عدّة لواجب واحد وإلى اتجاه واحد، فتلكؤ أي منها أو انسحابه سيؤدي بالآخرين إلى التلكؤ والانسحاب. أقترح قيام فوج الدفاع الوطني الثاني سورجية، ومستشاره الشيخ صابر السورجي، بالهجوم ليلةَ غدٍ، بعد أن أقابله صباح الغد». وفي اليوم التالي استدعيت الشيخ صابر السورجي وأخبرته بالواجب، وأني اخترته وأنا واثق من أنه وفوجه سيحتلان بندورة هذه الليلة، فوعدني بذلك.

أخبرت آمر المدفعية أننا نريد مباغتة المسلحين الأكراد بنيران الهاونات، ولذلك يجب أن يكون تسجيل الأهداف صامتًا من دون الحاجة إلى رميٍ مسبقٍ لتسجيل الأهداف، وإنما يتم الاعتماد على الحسابات الخاصّة بجداول الرمي للهاونات. ويكون الرمي قبل الصولة بما لا يقل عن 15 دقيقة. وفي الساعة العاشرة بدأت الهاونات برمي أهدافها، وقبل منتصف الليل كان السورجية قد احتلوا أهدافهم من دون مقاومة، فنيران الهاونات أجبرت المسلحين الأكراد على الهروب، وأصبحت عارضة بندورة تحت سيطرة الفيلق مرة أخرى.

معركة اليوم العظيم، ومعارك الحصاد الأكبر

قاطع عمليات الفيلق الثالث

في نيسان/أبريل 1986 أعلن مرشد الثورة الإيرانية الخميني أن الحرب يجب أن تضع أوزارها في السنة الفارسية الجديدة 21 آذار/مارس 1987 بنصرٍ إيراني، وأن هجومًا شاملًا آخر سيتبع هجوم الفاو (شباط/فبراير 1986)، فبادرت السلطات الإيرانية إلى التخطيط لاستدعاء متطوِّعين لتشكيل 500 وحدة جديدة، كلٌّ منها بألف مقاتل. وجرت حملة تعبئة في أرجاء إيران كلها، ومنح الباسدران (حرس الخميني) سلطات تخوّلهم استدعاء أولئك الذين سبقت لهم الخدمة في الجبهة. وبعد إغلاق الجامعات في شهر أيلول/سبتمبر استدعي 30 ألف مدرس للخدمة الإلزامية. وفي 29 آب/أغسطس أعلن رفسنجاني أنه تم حشد 650 ألف متطوِّع للقيام بالهجوم الحاسم، وصدرت بيانات عن السلطات الإيرانية بأنها أرسلت 300 ألف مقاتل إلى الجبهة للانضمام إلى فرق حرس الخميني، وأعلنت جاهزيّة 500 كتيبة من المتطوِّعين.

في 31 آب/أغسطس شنّت القوات الإيرانية هجومًا بمساعدة مسلحي الحزب الديمقراطي الكردستاني (جماعة مسعود البرزاني) تحت اسم «عمليات كربلاء 2» على أهداف في محور حاجي عمران - راوندوز في قاطع الفيلق الخامس، وتمكّنوا من احتلال عوارض رئيسة فيه. وفي 16 أيلول/سبتمبر شنّوا هجومًا آخرَ على المرتفعات الحدودية في قاطع مهران وزرباطيّة ومندلي، في قاطع عمليات الفيلق الثاني تحت اسم «كربلاء 3»، وتمكّنوا من احتلال بعض العوارض الحدودية.

في ليلة 23 - 24 كانون الأول/ديسمبر 1986 شنّت القوات الإيرانية تعرّضًا واسعًا امتد على جبهتي الفيلقين الثالث والسابع، باتجاه محور الشلامجة - تنومة في قاطع الفيلق الثالث، وجزيرة أم الرصاص في شطّ العرب والسيبة في قاطع الفيلق السابع، تحت اسم «كربلاء 4»، وصُد الهجوم الإيراني في قاطع الفيلق الثالث. تمكَّن العدو من احتلال جزيرة أم الرصاص في قاطع الفيلق السابع، وفي اليوم التالي قام الفيلق بهجوم مقابل تمكَّن فيه من استعادة جزيرة أم الرصاص، وتكبَّد الإيرانيون في هذه العملية خسائر فادحة، وأطلق عليها «معركة اليوم العظيم»، إذ لم تستمر أكثر من 36 ساعة.

كنت مع رئيس أركان الجيش في زيارة تفقدية لقاطع عمليات الفيلق

الثالث، بعد أن تمكَّن العدو من إحراز تقدُّم محدود في اتجاه الخط الدفاعي الأول في منطقة الدعيجي الحدودية. استمر القصف الشديد المتبادل بين الطرفين مع هجمات ليلية معادية محدودة باتجاه الخط الدفاعي الأول للفيلق، وكان قائد الفيلق اللواء طالع الدوري [205] لا يكف عن طلب تشكيلات إضافية لتقوية الخط الدفاعي الأمامي، الأمر الذي أدى إلى تكدس القطعات فيه، وتكبدها خسائر كبيرة لا مبرر لها. والأدهى من ذلك أن التشكيلات التي تخصصها له رئاسة الأركان تتجمّع في مناطق انتظار وأحيانًا لفترات طويلة، قبل دخولها المواضع الأمامية، نتيجة عدم التنسيق ضمن مدى مدفعية العدو، فكان هذا يوقع فيها خسائر كبيرة، حتى قبل دخولها إلى المواضع الدفاعية. ذهبت مستصحبًا مدير الاستخبارات العسكرية إلى مقرات التشكيلات الأمامية للاطلاع على الموقف ومعرفة أسباب الخلل.

أخبرنا رئيس أركان الجيش برأينا فنبهه ليعالج هذا الخلل، وكان ردّ قائد الفيلق أنه في حاجة إلى مزيد من القطعات. كنت أشك في أن اللواء طالع قائد الفيلق يعرف حقيقة ما يجري في تشكيلاته الأمامية، واقترحنا عليه أكثر من مرة أن يخرج إلى الأمام ليرى بأم عينيه ما يدور هناك، فلم يفعل، فاقترحت تبديله بقائد آخر، وأيّدني مدير الاستخبارات العسكرية. ورشحت نفسي أو الفريق سعدي الجبوري [206] الذي سبق وقاد الفيلق في معارك شرق البصرة بعد انسحابنا داخل حدودنا، فلم يوافق رئيس الأركان، وقال: «إن قائد الفيلق قد عيَّنه القائد العام للقوات المسلحة».

كان وزير الدفاع نائب القائد العام في مقرّ متقدم خاص به خلف مقرّ الفيلق، فاقترحت على مدير الاستخبارات أن نذهب إليه فوافق. وصحبنا مدير طيران الجيش اللواء الطيار الحكم حسن علي التكريتي، وكان الوقت ليلًا، فشرحت الحال لنائب القائد العام، وزير الدفاع، وقلت له: «إذا بقي اللواء طالع يقود على هذا المنوال فإنه كفيل بإنهاء الجيش العراقي من دون أن يرف له جفن». وقلت له: «إني تكلمت مع رئيس أركان الجيش الفريق عبد الجواد، وقدّمت له الرأي ولم يوافق، وأيدني في ذلك مدير الاستخبارات، ومدير طيران الجيش». فسأل نائب القائد العام: «وماذا تقترح؟». قلت: «أن يُنقل اللواء طالع، وإني قد رشّحت نفسي أو الفريق سعدي الجبوري لتجربته السابقة في هذا القاطع لقيادة الفيلق في هذه المعركة. ويجب أن يكون ذلك اليوم قبل الغد». فقال الفريق عدنان: «سأذهب الآن وألتقي القائد العام غدًا».

في اليوم التالي اختار القائد العام أن يكون الفريق ماهر عبد الرشيد

قائد الفيلق السابع رديفًا للواء طالع ويساعده في إدارة المعركة. كان ما بينهما على الصعيد الشخصي ما صنع الحداد، فلم أتفاءل بهذا التبديل وتوقعت أن تسوء الحال. التحق الفريق ماهر عبد الرشيد مساءً، و«تكهرب» الجوّ في مقرّ الفيلق حيث كان الفريق ماهر المعروف بسلاطة لسانه يسخر من أداء طالع ولا يترك فرصة إلا ويغمز في قناته، وأصبح الموقف العسكري في جبهة الفيلق يتدهور من سيئ إلى أسوأ. فاستدعانا القائد العام إلى اجتماع في القيادة العامة لمعرفة ما يجري، وحضر الاجتماع نائب القائد العام الفريق عدنان خير الله، ورئيس أركان الجيش، ومعاونو رئيس أركان الجيش، ومدير الاستخبارات العسكرية، وقائد الفيلق الثالث اللواء طالع الدوري، والعميد عبد الواحد شنان آل رباط [207] قائد الفرقة 11 التي تدافع في جبهة الدعيجي، والتي تحملت ثقل الهجوم الإيراني كما كان الحال في معارك المحمرة في عام 1982.

بدأ الاجتماع في الساعة التاسعة مساءً، وكان الانزعاج يبدو على وجه القائد العام، والتوتر يسود جوّ الاجتماع. بدأ الرئيس قوله إنه يريد أن يعرف سبب الوضع المتردي في جبهة الفيلق الثالث، فأوجز رئيس أركان الجيش الموقف، وقال إن رئاسة الأركان أمّنت طلبات قائد الفيلق كلها، وفي عرضه الحوادث غمز بعض الشيء في قدرة اللواء طالع وإدارته لمعركة الفيلق، وقالها بطريقة حرص فيها على ألّا تؤذي مشاعره. طلب اللواء طالع الكلام، وبدأه بتبرير غير مفهوم لما يحدث في ساحة المعركة مع الإشادة بقدرته وولائه وإخلاصه وتحمُّله المسؤولية، وأشار إلى صدره الضخم، وقال: «إن كتيبة دبابات يمكن أن تسير على هذا الصدر»، وكلامًا كثيرًا مشابهًا لذلك، وبعد أكثر من ساعة من هذا الدوي الذي لا معنى له، قال: «سيدي الرئيس، إذا كنت تريد الحقيقة فهي...». عندئذٍ قاطعه القائد العام غاضبًا: «لواء طالع أنا أصغي إليك منذ أكثر من ساعتين، والآن تقول لي إن كل ما قلته كان غير حقيقي، وستقول الحقيقة الآن، ما هذا؟ كيف تُضيّع وقتنا في كلام مثل هذا؟ لقد تركتم الجبهة واجتمعنا هنا لنعرف حقيقة ما حدث».

كسا الشحوب والاصفرار وجه اللواء طالع، محاولًا الإجابة بكلام يدّعي فيه أن رئيس الأركان لم يدعمه بما يكفي. فرد رئيس أركان الجيش قائلًا: «سيدي الرئيس، إذا كان اللواء طالع يتهمني بذلك فأنا لا أستطيع العمل»، فقاطعه القائد العام غاضبًا: «ماذا؟ لا تستطيع العمل؟ أنا قادر على عمل قادة من الحجر». صار الجوّ غاية في التوتر، ولم نشاهد القائد العام غاضبًا

مثلما كان في تلك الليلة، فتدخلت وطلبت الكلام وقلت: «إذا سمحت سيدي الرئيس، لم يكن ما حدث خطأ رئيس الأركان، بل كانت أخطاء اللواء طالع قائد الفيلق الثالث الذي لم يكن يعرف ما كان يدور في ساحة القتال، وكان جل همه أن يدفع باللواء تلو الآخر إلى خط النار من دون أن يعرف دقائق الموقف والظرف الذي تُزج فيه تلك الألوية. واقترحت على رئيس أركان الجيش تغييره، ولم يوافق لأن تغييره من صلاحيتك سيدي الرئيس. لذلك ذهبت واللواء صابر واللواء الحكم مدير طيران الجيش وقابلنا نائب القائد العام وأخبرناه بما يحدث وبضرورة تغيير قائد الفيلق إما بي شخصيًّا وإما بالفريق سعدي الجبوري، وعاد إلى بغداد في الليلة نفسها بسمتيّته ليقابلك. فاخترتَ سيدي الرئيس أن يكون الفريق ماهر رديفًا، ولم يتحسن موقف الفيلق إن لم يزدد سوءًا». فبان الاستياء على وجهه، وقال: «لماذا لم تخبرني بذلك مباشرة؟»، فأجبت: «إنني لا أتجاوز سلسلة المراجع فقد تكلمت مع رئيس الأركان، وعندما لم يوافق ذهبت إلى نائب القائد العام الذي كان موجودًا بالقرب منا». فأمر الرئيس برفع الجلسة للاستراحة، فذهبت إلى غرفتي في القيادة العامة للراحة قبل أن نستدعى ثانية. وبعد نحو ساعة دخل نائب القائد العام غرفتي، وقال: «فريق نزار حدثت بعض التغيرات في قيادة القوات المسلحة فقد حل الفريق الركن سعد الدين عزيز معاون رئيس الأركان للميرة محل الفريق عبد الجواد رئيس أركان الجيش، وأنت ستعود إلى قيادة الفيلق الأول، وإن الفريق الركن ضياء الدين جمال قائد الفيلق الخامس سيحل محل اللواء الركن طالع الدوري الذي سيستلم قيادة الفيلق الخامس»، فقلت: «اختيار موفق سيدي الوزير، وإني سعيد بعودتي إلى فيلقي القديم».

معارك الحصاد الأكبر، كانون الثاني/يناير 1987

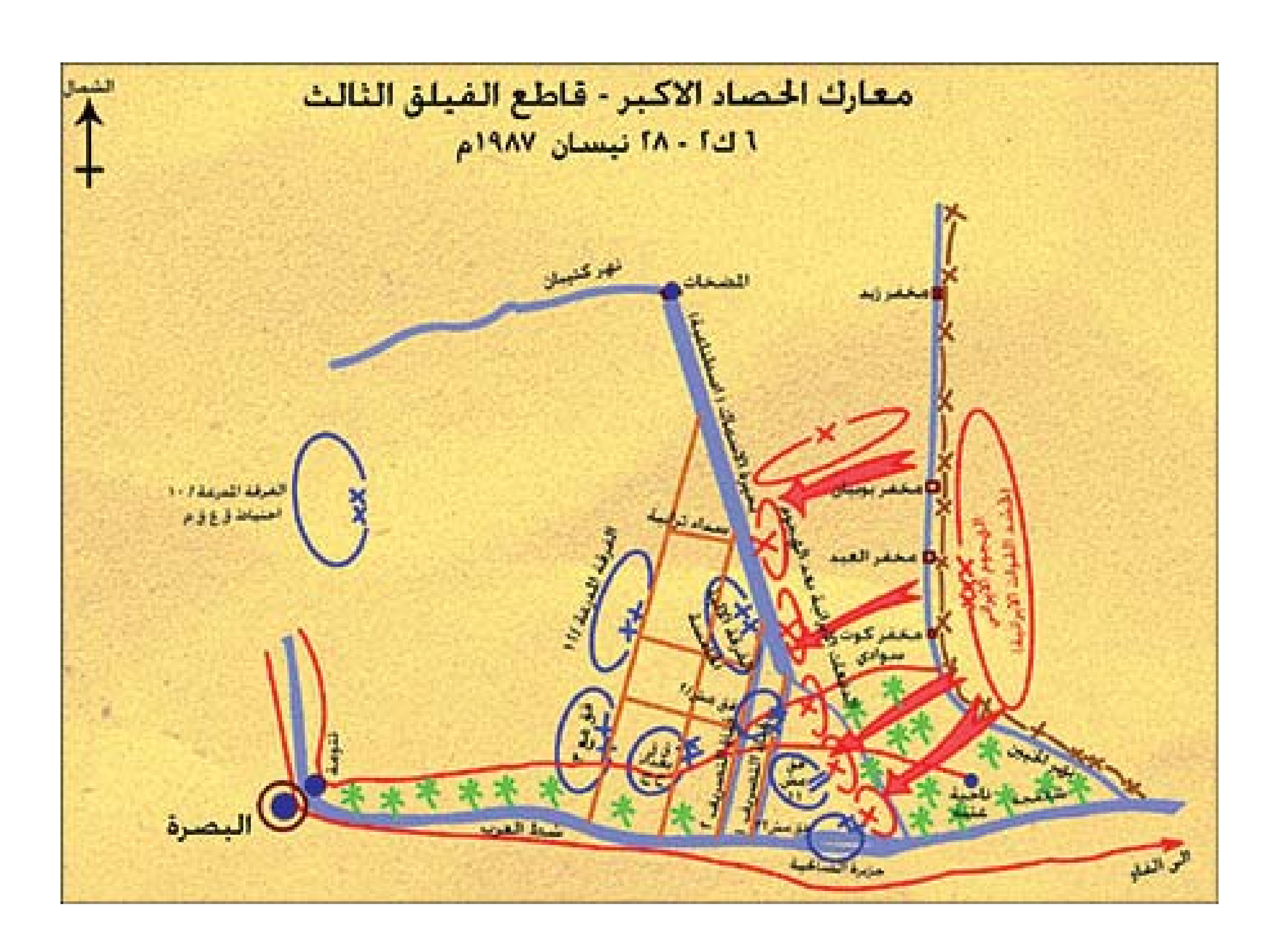
أعلنت إيران على لسان مرشدها وكبار مسؤولي الدولة والقيادات العسكرية للقوات النظامية وحرس الخميني أن عام 1987 سيكون عام الحسم للحرب مع العراق، وحشدت كل جهدها العسكري والمدني لهذا الهدف الذي التزم به زعيم الثورة ومرشدها (الخميني). وكان هناك خلاف قد نشب بين قادة القوات النظامية وعلى رأسهم العميد شيرازي، وقادة حرس الخميني وعلى رأسهم محسن رضائي، على أسلوب تنفيذ العمليات المقبلة. وكانت مدينة البصرة وجنوب العراق هدف هذه العمليات، ففيما اقترحت قيادة القوات النظامية فكرة تطويق مدينة البصرة بهجومين الأول

من اتجاه الفاو جنوبًا والثاني من هور الحويزة شمالًا، كان رأي قادة حرس الخميني الاقتحام المباشر عبر شطّ العرب، وبموجات بشرية متتابعة. وأيد الخميني وكبار الملالي في السلطة الإيرانية الرأي الثاني.

الشكل (11 - 1)

معارك الحصاد الأكبر

6 كانون الثاني/ يناير - 28 نيسان/أبريل 1987



الاستحضارات لمعارك الحصاد الأكبر

قامت القيادة العامة للقوات المسلحة ورئاسة أركان الجيش ودوائرها والجهد المركزي للدولة بالعديد من الاستحضارات استعدادًا للمعركة المقبلة، ومنها:

- الفيلق الثالث، وكان وجود أعضاء من القيادة، أو ممثّلين عنها شبه دائم من أجل دعم الفيلق وتلبية طلباته وتوجيهه بحسب متطلبات الموقف.

- توزيع عدد من ضباط رئاسة الأركان على فرق الفيلق كموجّهين

ومساعدين للقادة، وتخويلهم صلاحية تأمين المتطلبات الميدانية للجبهة، خصوصًا تأمين مواد التحكيم والأعتدة والتعويض عن الخسائر في المعركة بعد أخذ موافقة رئاسة الأركان هاتفيًّا.

- كُلّف جهد الدولة المركزي بتسوية السواتر الترابية خلف الخطوط الدفاعية لغرض تسهيل حركة ومناورة الاحتياطات المدرعة والآلية في المعركة.

- كُلِّف جهد الدولة المركزي بتجفيف المناطق المغمورة في بحيرة الأسماك والقنوات الأخرى، لتسهيل حركة ومناورة القطعات المدرعة والآلية في المعركة.

- التعويض الفوري للتشكيلات المتضرِّرة من جراء المعركة بالأشخاص والأسلحة والآليات والعتاد من جانب ممثِّلي مديريات إدارة المراتب والتسليح والتجهيز والعينة [208] الموجودين في قاطع الفيلق.

- تأمين معينٍ كاحتياط من الآمرين من جانب دائرة الإدارة في رئاسة أركان الجيش للتعويض عن الخسائر من الشهداء والجرحى من آمري الوحدات والتشكيلات في أثناء المعارك.

- بناءً على مقترح من الفريق سعد الدين عزيز، معاون رئيس أركان الجيش للميرة، وافق القائد العام على تحويل سرايا الانضباط كلها في العاصمة إلى معينٍ للخسائر، كما قلَّص العديد من الوحدات الإدارية في مختلف الصنوف والخدمات لسدّ النقص في الوحدات المقاتلة.

- تحويل عددٍ من وحدات الشرطة والمنتسبين إلى مديرية الأمن العامة إلى معينٍ لتعويض الخسائر.

وصف منطقة العمليات

تنحصر منطقة العمليات بين الحدود العراقية - الإيرانية شرقًا، وشطّ العرب والتنومة غربًا، وهي منطقة مفتوحة بشكلٍ عامٍّ عدا شريط البساتين الممتد بموازاة شطّ العرب من نهر الخيين [209] على الحدود الإيرانية إلى التنومة، وبعمق يتراوح بين 1 و3 كلم. توجد في المنطقة بحيرة الأسماك [210] ، وتمتد من نهر كتيبان إلى الشلامجة، وتُغذّى بالمضخات المنصوبة على نهر كتيبان، وتُصرَّف المياه منها بواسطة قناتي التصريف الآلي، والثانية بواسطة المضخات أيضًا، ويبلغ عرض البحيرة بين 150 و200م، وتم تجفيفها قبل العمليات.

يوجد نهر قديم يسمى «نهر جاسم» يمتد من شطّ العرب إلى النهاية الجنوبية لبحيرة الأسماك داخل الأراضي العراقية، وتوجد القناة الحدودية أيضًا التي تمتد على طول الحدود، وتنتهي في نهر الخيين الذي يشكل خطّ

الحدود العراقية - الإيرانية، وينتهي في شطّ العرب. كما توجد جزيرة الصالحيّة التي تقع في شطّ العرب، جبهتها نحو 800م، وطولها نحو 6 كلم، وأهميتها أنها تؤدي إلى خلف المواضع الدفاعية للفيلق إذا احتلها العدو. والمنطقة تساعد في عمل القطعات المدرعة والآلية بعد تسوية السواتر الترابية. وبحيرة الأسماك في المنطقة ضمن التحضيرات التي قام بها الجانب العراقي للعمليات المقبلة. يخترق المنطقة طريق البصرة - الشلامجة - المحمرة الموازية لشريط البساتين غربًا، وتوجد طريق أخرى تمتد بموازاة شطّ العرب إلى ناحية عتبة في الشلامجة.

قوات الطرفين

- القوات الإيرانية

تشغل المواضعَ الدفاعية الإيرانية التي احتُلت في منطقة الشلامجة فرقتان من حرس الخميني مسندتان بالدبابات والمدفعية، وفي عمق المواضع الدفاعية توجد خمس فرق من حرس الخميني، وفرقتا مشاة نظاميتان، وفرقة مدرعة في مواضع قطعاتنا القديمة من خطّ الحدود حتى المحمرة وعبادان، وهي جاهزة للتدخل في حالة قيام قطعاتنا بهجومٍ مقابلٍ على مواضعها الدفاعية في الشلامجة.

ويوجد في العمق العملياتي عشر فرق أخرى لحرس الخميني، وفرقتا مشاة نظاميتان وفرقة مدرعة لاستثمار أي نجاحٍ تحققه قواتهم لاحتلال التنومة ومدينة البصرة. يبلغ مجموع قوات العدو في جبهة الفيلق الثالث وفي العمق العملياتي سبع عشرة فرقة من حرس الخميني وأربع فرق مشاة نظامية وفرقتين مدرعتين.

كانت حملات التعبئة الشعبية مستمرة لتجنيد المتطوِّعين للمعركة المقبلة التي وعد المشرفون عليها بأنهم سيصلون إلى كربلاء، ومنها إلى القدس لتحريرها.

- قواتنا

- يدافع الفيلق الثالث في منطقة الشلامجة وغرب بحيرة الأسماك بالقطعات التالية:
- خمس فرق مشاة (فرقة المشاة 2 وفرقة المشاة 11 وفرقة المشاة الآلية 5 وفرقة المشاة 28 وفرقة المشاة 32).
- الفرقة المدرعة 3 والفرقة المدرعة 12 من الفيلق الرابع بالإمرة لأغراض

العمليات.

- قيادة قوات بغداد حرس جمهوري (فرقة مشاة) بالإمرة لأغراض العمليات.
- لواء قوات خاصة.
- الفرقة المدرعة 10 في منطقة النشوة في قاطع الفيلق، احتياط القيادة العامة للقوات المسلحة في القاطع.
- يسند الفيلق جناح طيران الجيش الثالث (سمتيّات).

خطط الطرفين

كان الهدف العملياتي («عملية كربلاء 5» كما سُمي التعرض الإيراني) اختراق دفاعات الفيلق الثالث، والاندفاع لعزل مدينة البصرة والفاو. والهدف الاستراتيجي الاستيلاء هو على البصرة، وتدمير قواتنا في الجنوب، تمهيدًا لإنهاء الحرب بنصرٍ إيراني قبل حلول السنة الفارسية في 21/3/1987 كما أعلن الخميني.

خطة التعرّض الإيرانية

كانت الخطة الإيرانية تقوم على التعرض على قوات الفيلق الثالث من اتجاهين:

- الاتجاه الأول: التقدم من اتجاه خط الدعيجي غربًا، وخرق المواضع الدفاعية للفيلق الثالث على محور طريق الشلامجة - خط نهر جاسم - التنومة من الحافة الغربية لبحيرة الأسماك حتى شطّ العرب.

- الاتجاه الثاني: التقدم من اتجاه كشك البصريّ، والتقدم لإحاطة جناح الفيلق الأيسر (الشمالي) في بحيرة الأسماك، والاندفاع باتجاه الجنوب الغربي للالتقاء بقوات الاتجاه الأول شرق التنومة ثم التقدم نحو البصرة. وطوال الفترة التي أعقبت هجومها في ليلة 23 - 24 /12/1986. لم تتوقف المدفعية الإيرانية عن قصف المواضع الأمامية لقواتنا بغية استنزافها وإيقاع الخسائر بها وإضعاف قدرتها الدفاعية.

الخطة الدفاعية لقواتنا

بعد النجاح الأولي الذي حققه العدو في الهجوم السابق، تضمّنت خطة الدفاع لقواتنا في قاطع الفيلق الثالث الدفاع بثلاثة خطوط دفاعية في منطقة الشلامجة وبحيرة الأسماك، كما يلي:

- الخط الدفاعي الأول: يمتد من شطّ العرب، وبامتداد خط جاسم، والحافة الغربية لبحيرة الأسماك وبالعمق، إضافة إلى جزيرة الصالحيّة في شطّ العرب، وتشغل هذا الخط الفرق التالية:

• فرقة المشاة الثانية: في منطقة الشلامجة طريق تنومة - الشلامجة - المحمرة، وإلى الحافة الجنوبية لبحيرة الأسماك.

• فرقة المشاة الحادية عشرة: في منطقة الشلامجة، وإلى الطريق الداخلية بموازاة شطّ العرب.

• فرقة المشاة الآلية الخامسة: على الضفة الغربية لبحيرة الأسماك.

• فرقة المشاة 32 في جزيرة الصالحية.

- الخط الدفاعي الثاني: يمتدُّ على قناتي التصريف الأولى والثانية، وتدافع فيه فرقة المشاة 28 خلف الفرق التي تدافع في الخط الدفاعي الأول.

- الخط الدفاعي الثالث: يمتدُّ خلف قناة التصريف الثانية، وتدافع فيه قيادة قوات بغداد حرس جمهوري. ووُضعَت هذه الفرقة بإمرة الفيلق لأغراض العمليات [211] .

- احتياط الفيلق: خلف الخطوط الدفاعية الثلاثة:

• الفرقة المدرعة 3.

• الفرقة المدرعة 12 من الفيلق الرابع، بإمرة الفيلق الثالث لأغراض العمليات.

• لواء قوات خاصّة.

- احتياط القيادة العامة للقوات المسلحة: الفرقة المدرعة 10 في منطقة النشوة.

- تسند مدفعية الفيلق السابع (غرب شطّ العرب) الخطة النارية الدفاعية للفيلق الثالث.

سير المعارك

في الساعة 1.00 من ليلة 8 - 9/1/1987 الملبَّدة بالغيوم، شنّ أكثر من 50 ألف متطوِّع (الباسيج)، وحرس الخميني (الباسدران)، هجومًا استخدموا فيه الموجات البشرية على مواضع الفيلق الثالث على محوري الشلامجة وبحيرة الأسماك، وأحرزوا بعض المكاسب في الخطوط الدفاعية الأمامية للفيلق في كلا الاتجاهين. قام الفيلق بهجوم مقابل إلّا أن الأوحال حدّت من تحرك العجلات المدرعة والآلية، ولم يتمكّن العدو من تحقيق تقدّمٍ أكبر. استمرت الاشتباكات والقصف المدفعي المتبادل في هذه الرقعة المحدودة

(نحو 6 كلم في محور الشلامجة، و7 كلم في بحيرة الأسماك)، وتحوّلت إلى معارك استنزاف أوقعت خسائر فادحة في كلا الطرفين. بلغت الخسائر في الجانب الإيراني حدًا دعا «وزارة حرس الخميني» إلى مناشدة الإيرانيين للتطوع في فرق الباسيج والباسدران تعويضًا عن خسائرهم في معارك الشلامجة.

شن العدو ليلة 18 - 19/1 /1987 هجومًا آخر على قطعات فرقة المشاة 11 في خطّ جاسم، وفي 21/1، كان خط جاسم قد سقط بيد العدو الذي استمر في ضغطه على الخط الدفاعي الثاني في قناة التصريف الأولى. وفي 29/1 شنّ هجومًا آخر، لكن في يوم 31/1 شنّت قواتنا المؤلفة من الفرقة المدرعة 12 وفرقة المشاة الآلية الخامسة هجومًا مقابلًا شمال بحيرة الأسماك، واستطاعت إزاحة العدو من هذه المنطقة. وفي الذكرى السابعة للثورة الإيرانية أدركت القيادة الإيرانية أن فرص قواتها لتحقيق اختراق كبير في الخطوط الدفاعية العراقية أصبحت ضئيلة. ولم يتمكّن جناحا الهجوم الإيراني من الاتجاهين أن يلتقيا.

ظهر الخميني على أنصاره في 12/2 معلنًا أن حربهم مع العراق هي حرب مقدسة، ويجب إحراز النصر النهائي في بداية العام الفارسي الجديد الذي يصادف في 21 آذار/مارس 1987، فشنّ الإيرانيون هجومًا آخر ليلة 22 - 23 شباط/فبراير على الخط الدفاعي الثاني في قناة التصريف الأولى، وتمكّنوا من السيطرة على أجزاء كبيرة منه، وتمكّنت قواتنا من إيقافه، ومرة أخرى انحصر القتال، والقصف المدفعي في معارك استنزاف تكبد فيها الطرفان خسائر كبيرة.

مر رأس السنة الفارسية من دون أن يتمكّن الجانب الإيراني من إحراز النصر الموعود، فخرج رفسنجاني بتصريح قال فيه إنهم يملكون أقوى خط دفاعي في العالم، وشرعت قواتنا بسلسلة من الهجمات المقابلة استرجعت فيها عددًا من الأهداف، ومنها الهجوم المقابل الذي شنّته قطعات من الحرس الجمهوري على السدة الدفاعية المسماة السدة 1000، وتمكّنت من استرجاعها، كما شنّت الفرق المدرعة 12 والمشاة الآلية الخامسة هجمات أخرى على المناطق المحيطة ببحيرة الأسماك واستعادت بعضها. وتوقف القتال الفعلي في قاطع الفيلق الثالث في 12 نيسان/أبريل 1987، وسمّى العراق هذه المعارك بالحصاد الأكبر نظرًا إلى الخسائر الفادحة التي تكبدها الإيرانيون.

إن استعادة أيام القتال الضاري المشار إليه في هذه الصفحة من الحرب،

والدماء العراقية الغالية التي سُفحت للدفاع عن حياض الوطن تجعل الإنسان يتبصر بعمق مدى الخطأ في اتباع فكر متعصب يدعو إلى قتل الآخر بدم بارد، يُشيعه قادة يجلسون في مواقعهم العالية ينظرون إلى الألوف من الحشود البشرية التي يدعونها للزج بها في أتون معارك خاسرة، مبنية على غيبيات لا معنى لها. كم من الألوف المؤلفة من الشبان العراقيين، وكم من أضعافهم من الإيرانيين سُفحت دماؤهم بسبب حرب حدودية كان يمكن وضع حد لها في أسبوعها الأول لو تخلّى أولئك الغيبيون عن غيبياتهم وأحلامهم. وهنا أقول كم كانت خسارة الثورة الإيرانية باهظة عندما سلّمت قيادها لأولئك الغيبيين، وأُبعدت القيادات الوطنية المثقفة والمتعلمة التي تتطابق وروح العصر.

X جبل ماوت عقدة جبلية وعرة تقع إلى الشمال الغربي من السليمانية وتحيط بها سلاسل جبال وعرة تفصلها عن الحدود العراقية - الإيرانية، لا يمكن سلوكها إلا من منافذ ونياسم محددة. اتخذت قيادة الاتحاد الوطني الكردستاني (جلال الطالباني) ومقاتلوها هذه المنطقة أحد مقراتهم الرئيسة.

X تسنّم اللواء الركن طالع الدوري مناصب عديدة في الحرب العراقية - الإيرانية كونه كادرًا متقدمًا في حزب البعث ويأتمنه الرئيس صدام حسين، على الرغم من إمكاناته العسكرية المحدودة.

X ضابط جيد قاد معارك شرق البصرة بكفاءة عندما كان قائدًا للفيلق الثالث في عام 1983. ثم أصبح وزيرًا للدفاع في حرب الخليج الأولى، وهو الآن معتقل في سجون النظام العراقي الحالي.

X ضابط جيد نقل بعد هذه المعارك إلى منصب قائد فرقة في الحرس الجمهوري وأصبح قائدًا للحرس الجمهوري، وتسنّم بعد ذلك منصب رئيس أركان الجيش في منتصف التسعينيات، وأحيل على دائرة المحاربين، وعيِّن بعد ذلك محافظًا لمحافظة نينوى (الموصل).

X العينة مصطلح يستخدمه الجيش العراقي للتعبير عن المديرية المسؤولة عن التجهيز والمستودعات، وتختص بتجهيز القطعات بمتطلبات الإعاشة والملبوسات والخزين الخاص بإعداد ساحة العمليات وإمدادها بمعدات الإسناد اللوجستي اللازمة عدا الطعام والتنقل والطبابة فهذه كلها من مسؤولية مديريات أخرى. ويُعبر عن الإمداد والتموين بمصطلح الميرة، لذلك يرئس الدائرة المسؤولة عن كل هذه المديريات معاون رئيس أركان الجيش للميرة.

X قناة الخيين هي جدول يخرج من شطّ العرب باتجاه الشلامجة وتشكل نقطة خروجه النقطة عينها التي تترك الحدود العراقية - الإيرانية

شطّ العرب لتتجه شمال شرق نحو الشلامجة، ثم شمالًا باتجاه كشك البصري قبل أن تنعطف غربًا لتدخل في هور الحويزة الذي يشكل حدًا فاصلًا بين العراق وإيران.

X بحيرة الأسماك هي مسطح مائي صناعي يستمد مياهه من شط العرب، يمتد بشكلٍ موازٍ للحدود العراقية - الإيرانية في منطقة التنومة، والغرض منه إنشاء مانع مائي موازٍ للحدود لمنع تسلّل أو تمدد إيراني عبر منطقة التنومة الخطرة التي تشكل امتداد البصرة الشرقي.

X الإمرة لأغراض العمليات هي إحدى درجات الإمرة، وتعني أن من حق قائد العمليات استخدام القوة لأغراض العمليات فقط من دون تدخل في هيكليتها وارتباطها التنظيمي من ناحية نظام المعركة القتالي. وهنالك درجات أخرى للإمرة لا مجال لذكرها هنا.

الفصل الثاني عشر: عودة إلى قيادة الفيلق الأول

قمتُ مع رئيس أركان الجيش الجديد الفريق الأول الركن سعد الدين عزيز بزيارة إلى قاطع الفيلق الثالث، وأوجزت له الموقف قبل التحاقي مرة أخرى بقيادة الفيلق الأول في كركوك. كانت تشكيلات عدة من الفيلق قد نُقلت للمناورة في قاطع الفيلق الثالث، وأُعيد بعضها متضرِّرًا، فأرسلنا بدلًا منها تشكيلات منتعشة إلى جبهة القتال في معارك الحصاد الأكبر. وكان جهدنا مُنصبًا على إكمال نواقص التشكيلات المتضرِّرة من الأشخاص والتجهيزات والمعدات، وإعادة تدريبها لتكون جاهزة للمناورة في الجنوب عند الطلب، إذ حصدت معارك «الحصاد الأكبر» من جنودنا وضباطنا عشرات الآلاف من الشهداء والجرحى، كما حصدت من الجانب الآخر أكثر من ذلك بكثير. وعندما أشرفت معارك الجنوب على الانتهاء كانت معظم تشكيلات الفيلق قد تكبَّدت خسائر كبيرة في الآمرين والضباط من ذوي الخبرة والتجربة، واضطررنا إلى إشغال مناصب آمري الألوية والوحدات بمن لا تتوافر فيهم الخبرة والكفاية والِقدَم (الرتبة العسكرية) سدًا للشواغر، كما أبقى الفيلق الثالث لديه عددًا آخر من تشكيلاتنا في قاطعه تحسبًا لأي طارئ.

في بداية الشهر الرابع كانت هنالك تحركات إيرانية محدودة في قاطع الفيلق تابعتها استخباراته. ولوحظ أن أفرادًا إيرانيين من حرس الخميني بدأوا يتسللون ليلًا، وفي أوقات متقطعة إلى العمق العراقي بمساعدة مسلحي الاتحاد الوطني (جلال الطالباني)، باتجاه جبال قره داغ جنوب غرب مدينة السليمانية. تأكد لنا بعد المتابعة أنهم من لواء رمضان [212] ، حرس الخميني. وتسللت عناصر أخرى إلى مدن السليمانية وسورداش وجم ريزان وأغجلر شمال غرب مدينة السليمانية. وتأكد لنا أنهم ينتسبون إلى اللواءين 605 و606 المحمولين جوًا، وتسللوا إلى مدينة السليمانية حيث تجمعات كبيرة للمتعاونين معهم وللمخرِّبين في جوارها.

علمت استخبارات الفيلق أن اتفاقًا جمع أول مرة بين التجمّعين الرئيسين للمخرِّبين، أي جماعتي مسعود البرزاني وجلال الطالباني، إضافة إلى الحركة الإسلامية في كردستان التي يقودها الملا علي عبد العزيز، والحزب الاشتراكي الكردستاني الذي يقوده محمود عثمان، للتعاون والعمل المشترك في المنطقة الكردية من الشمال، وأن لجانًا مشتركة منهم قد أجرت عددًا من اللقاءات

بالعدو الإيراني، وتم عقد اتفاق بينهم لم نتوصل إلى تفاصيله.

بدأتُ بتحليل دلالات هذه المعلومات، وإلى أي الاتجاهات تؤشّر، وكلما تعمقت في التحليل كانت تبرز استنتاجات تجمّعت في الخطوط التالية:

- اتفاق مجموعات التخريب، وبالذات مسلحي الطالباني والبرزاني، وبينهما عداء تاريخي وخلاف كبير، واتفاقهما مع العدو الإيراني يؤشر إلى عمل عسكري مشترك بين المسلحين الأكراد والإيرانيين.

- سيكون العمل بتعرض إيراني واسع بمساعدة ودلالة المسلحين الأكراد ومشاركتهم الفاعلة في أماكن وجودهم في الجبهة وفي عمق المنطقة.

- للعدو والمسلحين الأكراد معلومات جيدة عن ضعف القدرة القتالية لتشكيلات الفيلق بعد معارك الحصاد الأكبر وقلة عددها.

- فشل العدو الإيراني في تحقيق الأهداف الاستراتيجية لعملياته في الجنوب قد يجعله يحاول تحقيقها في الشمال (البطن الرخوة للعراق نتيجة التمرد الكردي، والشك بولاء قطاعات من الشعب الكردي للحكومة المركزية، ومحدودية القطعات العسكرية في قاطعي الفيلق الأول والخامس).

- إن العمل المقبل للعدو والمسلحين الأكراد لن يتحدد بالجبهة أو العمق القريب، بل سيكون بأعماق واسعة يحقق فيها الطرفان أهدافهما. سيقوم المسلحون الأكراد بالسيطرة على المنطقة الكردية في الشمال، وسيقوم مع العدو الإيراني بتحقيق نصر كبير يُضعف قدرة العراق على الصمود من الشمال، بعد أن فشل في تحقيقه في الجنوب في عملياته الأخيرة.

- أخيرًا إذا ما تحقق ذلك، فإن الحلف غير المقدس بين المسلحين الأكراد والعدو الإيراني يطمح إلى تحقيق النصر النهائي للعدو من الشمال، وليس من الجنوب.

تساءلت، إذا كان ما توصلت إليه من الاستنتاجات صحيحًا فما هو السيناريو والأهداف التي سيعمل عليها المسلحون الأكراد والعدو؟ لا شكّ في أن ذلك سيكون بمهاجمة الفيلق الأول وتدميره، والاندفاع إلى العمق، لكن كيف يمكن أن يهاجم العدو الجبهة في أكثر من اتجاه للتواصل مع مقرات مخربي جلال الطالباني وقواهم الرئيسة في مناطق سركلو وبركلو ومالومة وهالدن شرق جبل سورداش، بعد أن يقوم المسلحون الأكراد ووحداتهم الخاصة التي تسربت إلى جبال قره داغ وسورداش وجم ريزان وأغجلر جنوب غرب وشمال غرب السليمانية، بالسيطرة على مضيق بازيان (45 كلم من السليمانية)، ومضيق طاسلوجة (22 كلم من السليمانية) غرب السليمانية، وكلها تقع على الطريق الرئيسة التي تربط السليمانية بمدينة

كركوك، لقطع طريق مواصلات قطعات الفيلق في الجبهة مع مقرّ قيادة الفيلق الأول، وخدماته الإدارية في كركوك، والسيطرة على مضيق جبل أزمر شرق السليمانية الذي تخترقه الطريق المؤدية إلى قطعات الفيلق المدافعة عن الجبهة لقطعها عن مناطق إدامتها المتقدمة، ومقرّ الفيلق المتقدم في السليمانية، والإشراف على المدينة والعمل على احتلالها، ويصاحب ذلك قيام حركات تمرد في مدن وقصبات السليمانية وحلبجة وسيد صادق وخورمال ومناطق أخرى، تقودها تنظيمات التخريب الداخلية وخلاياها النائمة. وبانقطاع طرق إدامة مواصلات تشكيلات الفيلق المدافعة بالجبهة، وتمرد المدن الواقعة على طرق مواصلاتها وأجنحتها ستضعف قطعاتنا وتتداعى وتنهار أمام هجوم عزوم للعدو، وتُفتح الطريق أمامه لاحتلال السليمانية، والتقدم إلى كركوك الخالية من القطعات المقاتلة، ويصبح بإمكانهم (العدو والمسلحين الأكراد) الاندفاع شمالًا إلى أربيل واحتلالها، وقطع الطرق على قطعات الفيلق الخامس المدافعة في الجبهة. وبانهيار الفيلقين سيكون العراق قد فقد جزءًا كبيرًا من قوته العسكرية وقدرته على الصمود، فضلًا عن الوضع المعنوي والنفسي الذي سيكون عليه الشعب وقواته المسلحة، ورجحت أن هجوم العدو سيستهدف قاطعي جوارتة وماوت اللذين يؤديان كلاهما إلى تواصله مع المقرات الرئيسة للتخريب، وإلى السليمانية وكركوك في آنٍ واحد.

أرسلت في طلب آمر مدفعية الفيلق وضابطي استخبارات الفيلق الثاني والثالث، وعرضت عليهم التصور الذي بنيته في ضوء المعلومات التي تجمّعت والاستنتاجات، وسيناريو العمل المعادي الذي أتوقعه في الفترة المقبلة في قاطع الفيلق. وطلبت منهم أخذَ وقتٍ كافٍ للمذاكرة في ما بينهم، وإعطائي رأيهم فيه. عادوا وقالوا إنهم يؤيِّدون ما توصلت إليه، فجمعت هيئة ركن الفيلق وطرحتها أمامهم، وتذاكروا وأيدوا أيضًا أن الصورة التي ذكرتها يمكن أن تحدث. وفي اليوم التالي استدعيت قادة الفرق ومديري الصنوف، وأوجزت لهم المؤشرات والاستنتاجات، وعمل العدو المتوقع في المرحلة المقبلة، وأهدافه الأولية والرئيسة، ثم أخذنا استراحة للغداء، على أن نجتمع بعدها لعرض الإجراءات التي يجب القيام بها لمواجهة ذلك. وفي طريقنا إلى الاجتماع سار بمحاذاتي العميد الركن ناطق شاكر محمود رامز وقال: «سيدي القائد إذا كان الاحتمال الذي ذكرته سيحدث فنحن لن نستطع عمل شيء إزاءه». فرددت عليه: «عميد ناطق، عرفنا الآن ما سيعمل العدو، وفي وقت مبكر، وسنقوم باتخاذ الإجراءات لإفشاله ونكسب المعركة». قال: «لكن يا سيدي لا تتيسّر لنا القطعات الكافية للمواجهة».

فقلت: «علينا أن نقوم بأفضل ما يمكن بالمتيسر. وفي الجلسة الثانية من الاجتماع تبلّغون بالتوجيهات التي يجب أن يقوم بها الفيلق، منها:

- تطوير القدرة القتالية لوحداتنا بالتدريب، وفق السياقات الصحيحة، ووفق أساليب عمل العدو المتوقعة.

- تهيئتها نفسيًّا ومعنويًّا، لأن العدو والمسلحين الأكراد سيحاولون التأثير في طرائق إدامة الوحدات المقاتلة.

- إعادة توزيع قطعاتنا في اتجاهات التهديد المتوقع وتهيئة احتياطات محلية من المتيسّر.

- تحسين مواضعنا الحالية وتحصينها، خصوصًا تلك التي في الاتجاهات المتوقعة، وإنشاء مواضع إضافية للتعزيزات التي يمكن أن تُرسل إلينا لاحقًا.

- تحسين مواضع القطعات التي تدافع في المضايق وتحصينها، وتعزيزها بالأسلاك الشائكة والألغام.

- التفكير بالقيام بضربات وقائية قبيل تعرّض العدو لإرباكه وإفشال خططه.

- على القادة التهيؤ لاحتمال قيام أعمال شغب أو تمرد في بعض البلدات والمدن، والتحضير لإفشالها.

- على القادة ألّا يتوقعوا تدخل القيادة العامة بالحجم الذي يحتاجون إليه من التعزيزات في المعركة المقبلة.

- علينا تشكيل آمريات بمستوى مقرات ألوية، وتخصيص وحدة من المغاوير على الأقل في الوقت الحاضر في مضايق أزمر وطاسلوجة وبازيان، وإجراء الممارسات للدفاع عنها، وقيادة التعزيزات التي ستخصص لاحقًا.

- طلبت من هندسة الفيلق تبليط مهبط السمتيّات بالقرب من النادي العسكري (المقرّ المتقدم للفيلق في أثناء المعارك في قاطع السليمانية)، وتوسيعه ليستوعب نزول ما لا يقل عن 20 طائرة سمتيّة في آنٍ واحد، تحسبًا لانقطاع طريق المواصلات خلال المعركة.

- طلبت من استخبارات الفيلق التنسيق المستمر مع أجهزة الأمن واستخبارات المنطقة الشمالية، والاستخبارات وأجهزة الحزب في المحافظة، لمتابعة تحركات المسلحين الأكراد، وكشف تنظيماتهم الداخلية وخلاياهم النائمة والمتعاونين معهم».

أسقطنا استهداف تدمير مقرات مخربي الاتحاد الوطني وتجمعاته الرئيسة قبل العملية المتوقعة، لعدم تيسر القطعات. وتساءلوا عن موعد العمل المعادي، فأخبرتهم ليس قبل شهر أو شهر ونصف شهر من الآن. وبعد

الانتهاء من تبليغ القادة ومديري الصنوف والخدمات في الفيلق، كتبت بذلك إلى رئاسة الأركان، ونسخة إلى القيادة العامة للقوات المسلحة، مديرية الاستخبارات العسكرية العامة.

بعد بضعة أيام، وصلنا رئيس أركان الجيش الفريق سعدي عزيز ومعاونه للعمليات الفريق ثابت سلطان واللواء صابر الدوري مدير الاستخبارات، وبصحبتهم الفريق عبد الجبار شنشل رئيس أركان الجيش الأسبق ووزير الدولة للشؤون العسكرية (أرسله القائد العام) فأوجزت لهم ما نتوقعه من العدو ومن حركات التخريب في قاطع الفيلق، فوجّه رئيس أركان الجيش أسئلته إلى مدير الاستخبارات: «هل رصدتم حركة أو وصول قطعات للعدو إلى قاطع الفيلق؟»، فأجاب: «كلا، لا يوجد أي مؤشر». وطرح أسئلة أخرى يُستدل منها على عدم اقتناعهم بما جاء في تقريرنا الذي رفعناه إليهم أو التحليل الذي عرضته عليهم، وعلّق مدير الاستخبارات مبتسمًا: «عفوًا سيدي الفريق، لكن هذا أشبه بأفلام الكارتون». وعقّب رئيس الأركان أنه لا يتوقع حدوث حتى جزء من الذي أوجزه قائد الفيلق. وأخيرًا تدخل الفريق شنشل، وقال: «فريق نزار أريدك أن تهتم بعارضتي قاية وهرزلة (الواقعتان على مدخل مضيق بنجوين، والطريق المؤدية إلى السليمانية، وهما بعيدتان، ولا علاقة لهما بالتهديدات التي أوجزتها لهم). وانتهى الاجتماع، وعادوا بعده إلى بغداد.

بعد فترة زارنا الرفاق عزت الدوري، ورئيس لجنة شؤون الشمال وعلي حسن المجيد عضو القيادة القطرية، وأمين سرّ الحزب في الشمال، وكانوا في زيارة إلى المحافظة وفرع الحزب في السليمانية، والظاهر كان لديهم معلومة من الرئيس عن تقريري عن التهديدات المقبلة، وأوجزت لهم الخطوط العامة فأيدوا ذلك. فقال الرفيق عزت الدوريّ: «نعم هناك احتمال أن يقوم العدو بالتعاون وحركات التخريب في عمل من هذا النوع».

بعد شهر من زيارة الفريق سعد الدين رئيس الأركان واللواء صابر مدير الاستخبارات بدأت التقارير تتوارد من الاستخبارات العسكرية بحركة قطعات معادية كبيرة باتجاه الشمال، وتوافق ذلك مع رصد استخبارات الفيلق، كما ازدادت كثافة المتسربين من أفراد حرس الخميني إلى عمق الفيلق في جبال قره داغ وحوض جم ريزان وسورداش إلى مقرات المسلحين الأكراد شرق جبل بيرة مكرون. ناورت الأركان العامة بأفواج من الدفاع الوطني من قاطع الفيلق الخامس إلى قاطعنا. وانتقلت ومقرّ الفيلق المتقدم إلى السليمانية. قامت قوة حماية مقرّ الفيلق (سريّة مغاوير ورعيل مدرعات

ورشاشات رباعية مقاومة طائرات) بحماية النادي العسكري (مقر الفيلق المتقدم).

كانت دوريات الاستطلاع وعناصر الرصد وأجهزة التنصت والرازيت تشير إلى عملٍ معادٍ وشيكٍ خلال الـ 72 ساعة المقبلة، فقررت مباغتة المسلحين الأكراد وضرب وجودهم القريب من قواتنا المخصصة لحماية مضيقي بازيان وطاسلوجة، ودفعهم ومن معهم من أفراد حرس الخميني إلى أبعد ما يمكن من المضايق المسيطرة على طريق السليمانية - كركوك. وتوسيع منطقة سيطرتنا عليها، وتأمين طريق إدامة ومواصلات الفيلق.

مع حلول الظلام قامت قوات حماية مضيق بازيان ومضيق طاسلوجة المعززة بأفواج الدفاع الوطني التي وصلت من الفيلق الخامس بالهجوم، بإسناد ناري من مدفعية الفيلق، وباغتت المسلحين الأكراد، وتمكّنت من دفعهم عن المضايق إلى مسافات تتراوح بين 40 و50 كلم. وفي اليوم التالي قام المسلحون الأكراد وأفراد حرس الخميني بهجوم مقابل، فتراجعت أفواج الدفاع الوطني المعززة بالمغاوير بضعة كيلومترات، وتدخلت السمتيّات المقاتلة ونيران المدفعية وتمكَّنت من إيقافهم. استقر الموقف بعد أن تمكَّن المغاوير وأفواج الدفاع الوطني من توسيع مناطق سيطرتنا إلى أكثر من مسافة 30 كلم على جانبي الطريق الرئيسة التي تربطنا بكركوك، وكان هذا أكثر من كافٍ لحماية طريق مواصلاتنا مع كركوك. كان تنفيذ عمليتنا في هذا التوقيت مفاجأة للعدو والمسلحين الأكراد الذين كانت الصفحة الأولى لخطتهم التعرضية احتلالَ المضايق وقطع خطوط مواصلاتنا، قبيل هجوم العدو الرئيس على قطعاتنا في الجبهة. بعد انتهاء هذه المعركة انتقلت بمقري الجوال إلى معسكر سيتك الواقع على مسافة كيلومتر واحد شرق جبل أزمر متوقعًا أن يشنّ العدو هجومه هذه الليلة.

تعرض العدو والمسلحون الأكراد ليلًا في اتجاهات عدّة، حيث هاجموا مواضعنا الأمامية في قاطعي جوارتة وماوت، وهاجم المسلحون الأكراد جبل ومضيق أزمر على طريق جوارتة - السليمانيّة، وعارضة كاريزة المسيطرة على طريق جوارتة - ماوت (تقع قرية ومخفر كاريزة على منتصف الطريق بمسافة 15 كلم من مدينة جوارتة، ونحو 20 كلم من ماوت، ومن كاريزة أيضًا تتفرع طريق تمتد غربًا إلى مقرات المسلحين الأكراد الرئيسة في سركلو وبركلو وهالدن ومالومة الواقعة على مسافة 15 - 25 كلم منها). وفي الليلة نفسها اندلعت أعمال شغب ومحاولات تمرد في بلدتي سيد صادق وحلبجة. مع الفجر كانت الفرقة 34 في جوارتة قد تمكَّنت من صد هجوم

العدو وأجبرته على الانسحاب، وفي ماوت كان الموقف أكثر تعقيدًا إذ تمكَّن العدو بدلالة المسلحين الأكراد من التسلل من وادٍ يقع في الجناح الأيمن من عارضة ماوت التي يدافع عنها لواء من الفرقة 44، وكان فوج من أفواج الدفاع الوطني يدافع عن الوادي (لعدم تيسر القطعات) قد انسحب من مواضعه حال تقدّم العدو، فانفتحت الطريق أمامه لتطويق مواضع وحدات اللواء التي تدافع في عارضة ماوت، والتي كانت تتعرض في الوقت ذاته لهجوم جبهوي شديد.

تمكَّن المسلحون الأكراد أيضًا مع متسللين من حرس الخميني من السيطرة على العارضة التي تقع غرب تقاطع طريق كريزة [213] مباشرة، وأصبحت تصيب بنيرانها الطريق التي تربط ماوت بجوارتة والسليمانية. وفي مرتفعات أزمر هاجم مسلحو الاتحاد الوطني مع مجموعات من لواءي 605 و606 الإيرانيين قوة المضيق (قوة مرتبة بحجم فوج مشاة مع رعيل دبابات)، وتمكنوا من إجبارها على التراجع إلى موقع أبراج مرسلات التلفزيون التي تقع إلى الغرب مباشرة من الطريق، وانقطع الاتصال بآمر القوة. وكنت من المقرّ الجوال للفيلق في سيتك أتابع معركة أزمر التي تجري خلفي مباشرة، وأشاهد تبادل النيران بين الطرفين. وكان مع المقرّ الجوال للفيلق وحدة مغاوير وفوج دفاع وطني [214] . ومع الفجر كان القتال يدور في مرسلات التلفزيون بين من تبقى من جنودنا في أزمر والمسلحين الأكراد، فقمنا بشن هجوم مقابل بوحدة المغاوير وفوج الدفاع الوطني، وتمكنّا من إجبارهم على الانسحاب، فتركوا جثث قتلاهم على أرض المعركة. وعثرنا على جثة آمر القوة مقيدة ومتروكة في مقرّ قوتنا الذي تمكَّن المسلحون الأكراد من احتلاله ليلًا، ولا شك في أنهم أعدموه عند انسحابهم. ومن مرتفعات برزنجة الواقعة على مسافة 12 كلم شمال شرق عارضة أزمر تقدمت مجموعات من مسلحي الحزب الديمقراطي الكردستاني (جماعة مسعود البرزاني) لمهاجمة الجانب الشرقي من عارضة أزمر (يبدو أنهم قد تأخروا عن هجوم مسلحي الاتحاد الوطني الذي شُن على غرب العارضة)، وعند الصباح كانوا قد أصبحوا في الأرض المنبسطة المؤدية إلى جبل أزمر، فهاجمتهم سمتيّاتنا المسلحة التي كانت تُقِلّ عددًا من مغاويرنا وأوقعت فيهم الخسائر. وتمكَّن المغاوير في السمتيّات من التقاط من تخلف منهم وأسرهم. وفي مضيقي طاسلوجة وبازيان حاول المسلحون الأكراد مرة أخرى مهاجمة قطعاتنا من المغاوير وأفواج الدفاع الوطني ليلًا، فصدتهم ثم أرسلنا السمتيّات المسلحة نهارًا لمطاردتهم.

تمرد أكراد مدينة سيد صادق، وبشكل أكبر أكراد مدينة حلبجة، فاتصلت بقائد الفرقة 27 العميد الركن صباح نوري في مقرّه في معسكر سيد صادق، وأمرته بمعالجة التمرد في مدينة سيد صادق بعزم وقوة وعلى الفور والتهيؤ بعدها للتقدم إلى حلبجة وإنهاء التمرد فيها. كانت القوة الصغيرة الموجودة في حلبجة قد تحصّنت في معسكرها وفي مخفر الشرطة، وأخبرتنا بأن مسلحي الحركة الإسلامية (حلبجة مركز نفوذها)، والاتحاد الوطني يجوبون أرجاءه. حذرته من أن استمرار التمرد في هاتين البلدتين يمكن أن يؤدي إلى تمرد مماثل في مدينة السليمانية التي تراقب عن كثب تطور الموقف، ولا أستبعد تمردها إذا استمرت الحالة كما هي هذه الليلة في سيد صادق وحلبجة. اتصلت به بعد ساعة، فوجدت أنه لم يتخذ بعد الخطوات اللازمة لإخماد التمرد في سيد صادق، فاتصلت بضابط الركن الثاني استخبارات الفرقة، وكنت أعرفه جيدًا، وطلبت منه إيجاز الموقف في سيد صادق حتى هذه اللحظة، فقال إن التمرّد ينحصر في محلة واحدة، ويمكن أن ينتشر إلى بقية البلدة، وإن المسلحين الأكراد قد احتلوا وادي زلم (منطقة تتوسط طريق سيد صادق - حلبجة، وتتخللها سواقٍ وأنهر صغيرة وتكتنفها الأشجار المتشابكة، كان المسلحون الأكراد يستهدفونها لقطع الطريق إلى حلبجة في الفترات السابقة). فقلت له: «يبدو أن قائدك لم يستوعب بعد خطورة الموقف؛ بلِّغه بأني كلفتك شخصيًّا بأن تقود قوة لمحاصرة التمرد وإنهائه فورًا، وأن يهيّئ وحدة مغاوير وسريّة دبابات للتحرك إلى حلبجة، وإني قادم على الفور».

طلبت من رئيس الأركان أن ينقل فوج دفاع وطني (حددته بالاسم) من قلعة دزة [215] إلى سيد صادق على الفور (أفواج الدفاع الوطني من عشائر السليمانية لا تميل إلى مقاتلة المسلحين من أهالي وعشائر المحافظة لأن وشائج القربى والعشائرية تربطها بهم)، وأقلتني طائرة سمتيّة إلى مقرّ الفرقة 27 في سيد صادق، وعندما وصلت كان ضابط استخبارات الفرقة قد تمكَّن من إخماد التمرد والقبض على بعض المتمرِّدين، وشرع في تفتيش المحلة المعنية بحثًا عن الآخرين. التقيت قائد الفرقة فعنفته لبطء إجراءاته، وعدم استيعابه خطورة الموقف، وبعد تكامل نقل فوج الدفاع الوطني من قلعة دزة إلى سيد صادق تقدّم رجاله مع المغاوير والدبابات إلى حلبجة، واصطدموا بالمسلحين الأكراد في وادي زلم، وتمكنوا من اقتحام الوادي وتطهيره، واستأنفوا تقدمهم إلى حلبجة، ولمّا شاهد المتمرِّدون في حلبجة تقدّم قواتنا مع الدبابات هربوا إلى الحدود مع إيران، وقامت القوة

بتفتيش البلدة وإلقاء القبض على المشبوهين.

في ماوت كان الاتصال قد انقطع بمقرّ اللواء الذي يدافع عن عارضة ماوت، واستطاع الإيرانيون احتلال مواضع بعض وحداته، وكما ذكرت آنفًا، كانت الطريق التي تؤدي إلى ماوت بمتناول نيران وهاونات المسلحين الأكراد في العارضة التي تقع غرب الطريق في تقاطع كاريزة، الأمر الذي جعل التواصل مع القطعات الأمامية عملية محفوفة بالمخاطر، فحرّكنا بعض أفواج الدفاع الوطني إلى كاريزة مع وحدة مغاوير، وحرّكنا عددًا من كتائب المدفعية وبطاريات الهاونات الثقيلة لإسناد القاطع، وهيأنا بعض الوحدات من قواطع الفرق الأخرى.

كان الإيرانيون قد تسللوا ليلًا إلى مقرّ اللواء في ماوت بدلالة ومشاركة المسلحين الأكراد، وتمكنوا من اقتحامه وأسر آمر اللواء، وعندما تعرّض الذين أسروه لنيران مدفعيتنا هرعوا إلى المواضع القريبة للاحتماء، فواتت آمر اللواء الفرصة ليهرب عائدًا إلى خطوطنا. أوعزت إلى قائد الفرقة بتعزيز المواضع التي بقيت تحت سيطرتنا في عارضة ماوت ومنع العدو من إكمال احتلالها، وشرعنا في معالجة الموقف في كريزة لفتح الطريق إلى القطعات الأمامية، وقامت وحدة مغاوير وفوج دفاع وطني بالهجوم على المسلحين الأكراد في عارضة كاريزة بإسناد المدفعية والهاونات، لكنهم لم يتمكنوا من إزاحتهم، ودافعوا عنها بقوة لإدراكهم أهميتها في معركة ماوت المقبلة. كانت أفواج الدفاع الوطني، في الأيام الأربعة التي تلت، تهاجمهم بإسنادٍ من المغاوير المرة تلو الأخرى ليلًا ونهارًا، حتى تمكّن أخيرًا فوج من عشيرة الجاف يقوده نبر الجاف (نبر الجاف شاب وسيم جدًا في منتصف الثلاثينيات يتميز بالشجاعة والخلق الرفيع، والده وأعمامه شيوخ قبيلة الجاف، وهي من أكبر العشائر الكردية، وكانوا مستشاري شاه إيران الذي كان يكنّ لهم احترامًا لمنزلتهم بين الأكراد) مع المغاوير من اقتحام العارضة بعد اشتباكات بالرمانات اليدوية، وتمكّنوا من انتزاعها من أيدي المسلحين الأكراد، وفتح الطريق أمام قطعاتنا في ماوت.

فيما كنا نقاتل في ماوت وكاريزة كان الوضع يتفاقم في مدينة السليمانية والمناطق المحيطة بها بعد أن بدأت بعض أفواج الدفاع الوطني تتمرد على مستشاريها، وتترك العوارض المكلفة بحمايتها، إذ أُشيع أن العدو الإيراني والمسلحين الأكراد سيدخلونها وبقية مدن المحافظة خلال بضعة أيام. قام مستشارون كثر بشراء الذهب من أسواق المدينة، وساد جو من الذعر والخوف بينهم. وعاد عدد كبير من المقاتلين إلى قراهم، وكان فوج من

العشائر السبعة يقوده الشيخ عبد الغفور السلفاني مكلفًا بحماية طريق سورداش المؤدية إلى دوكان، فسمع مقاتلوه بالشائعات عن سقوط السليمانية قريبًا بيد الإيرانيين فتركوا ربايا‌هم التي تحمي الطريق، وعاد بعضهم إلى قراه في محافظة أربيل. أرسلت في طلب الشيخ عبد الغفور مستشار الفوج، وكان رجلًا وقورًا وكبير السن فسألته: «لماذا ترك الفوج، واجبه؟»، فأجابني أن الذعر قد تملّكهم فتمردوا عليه، وهو لا يملك أن يفعل شيئًا، «وأنا أضع نفسي أمامكم لتحاسبوني». قلت له: «أقدّر صدقك، لكني لن أعيدك. أريد منك إعادة تنظيم فوجك بمن تبقى وبمن تعرفهم من الأهل والأقارب من منتسبيه».

وصل تأثير الإشاعات حدًا دعا آمر الفوج الأول دفاع وطني الشيخ لطيف الزيباري (من ألد أعداء الملا مصطفى الذي قتل والده والعديد من إخوته وأقرب أقاربه، وقدّمت العشيرة تضحيات كبيرة في صراعها مع البرزانيين على مدى عشرات السنين) إلى طلب مقابلتي فاتصلت هاتفيًا بأخيه أرشد الزيباري، وزير الدولة، وسألته أن يحضر على الفور. كنت أعرف الشيخ لطيف الزيباري جيدًا، وأعرف مدى صلابته وصدقه، لكنه جاءني محبطًا ومتعبًا، وقال: «سيادة الفريق أنا أعتقد أن الإيرانيين والمسلحين الأكراد سيدخلون السليمانية، وسيسندهم أهاليها، ونحن لن نستطيع أن نفعل إزاء ذلك شيئًا، وأخشى أن لا يطيعني أفراد عشيرتي إذا حدث ذلك» (الزيباريون من البهدينانيين الذين يسكنون محافظة دهوك، وبعضًا من أربيل، ويعتبرون أنفسهم غرباء عن أهالي السليمانية من السورانيين). قلت له: «شيخ لطيف، نحن نعمل معًا من سنين، وقاتلنا في أصعب الأوضاع، هل تعتقد أن العدو سيدخل السليمانية، وأنا موجود؟». فنظر إلي مليًّا، ثم قال: «كلا، لن يدخلوا ما دمت موجودًا». فسحبته من يده، وقلت له: «إذًا تعال معي لنتناول الغداء معًا».

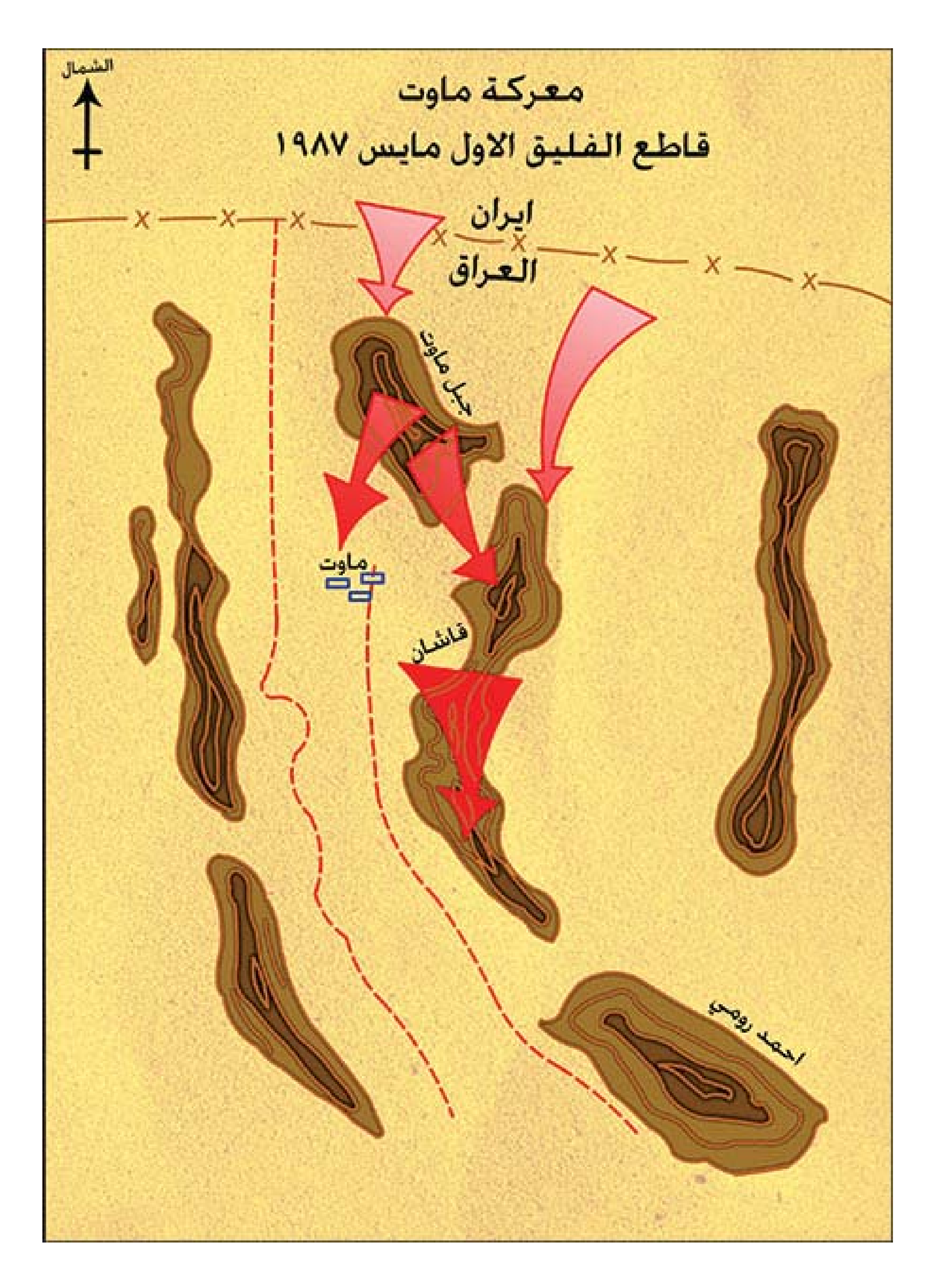
في اليوم الذي استعدنا فيه عارضة كاريزة، وصل الرفيق علي حسن المجيد عضو القيادة القطرية، وطلب مني جمع مستشاري الأفواج لنقل تحيات الرئيس إليهم وثقته بهم، فتجمّعوا في قاعة في النادي العسكري، وبدأ الرفيق علي في إلقاء كلمة نقل فيها تحيات الرئيس وأثنى على إخلاصهم للعراق والوطن. وفي أثناء حديثه، دخل القاعة نبر الجاف العائد توًا من معركة كريزة التي قاد فيها فوجه بشجاعة بالغة، وتمكّن من احتلالها، وكان وجهه الوسيم مغطى بدخان المعركة، ورفع يده مستئذنًا في الكلام، وقال وهو لا يزال في نشوة نصره بالمعركة: «الرفيق علي حسن

المجيد عضو القيادة، الإخلاص يترجم في ساحة القتال، وليس بالأقوال». فإذ بالرفيق علي يصرخ به بصوت هيستيري: «إكعد (اقعد) لا تتكلم مثل هذا الكلام السخيف، إكعد». فاجأني الرفيق علي بصراخه، فقلت: «لا يا رفيق علي. ما هذا الكلام؟ نبر عاد لتوّه من معركة قاد فيها رجاله، وانتزع هدفه من أنياب المسلحين الأكراد».

كان نبر واقفًا في أثناء صراخ الرفيق علي شاحب الوجه والعرق يتصبب منه ثم جلس صامتًا وعيناه شاخصتان إلى الأرض، ولم يرفعهما حتى نهاية الاجتماع، فاستدعيته وحاولت التخفيف عنه وتطييب خاطره، فامتدحته ومقاتليه وأشدتُ بشجاعته وإقدامه، وقلت: «أعتقد أن السكر قد ارتفع عنده (كان الرفيق علي مريض بالسكر)، ولم يفهم ما كنت تقصده بكلامك»، فقال والألم يعتصر وجهه: «سيدي القائد لقد أهانني أمام كل شيوخ العشائر، وبعضهم كان يعمل «قهوجي» عندنا، أما أنا كشخص فقد انتهيت»، فأعطيته اثني عشر وسامًا، وقلت له: «هذه لك ولفوجك. ولك أن توزعها كما تشاء»، فأخذها وناولها لمرافقه من دون أن ينظر إليها، واستأذن بالذهاب.

الشكل (12 - 1)

معركة ماوت، 1987



في الأيام التالية بدأ أفراد فوجه بالتسرب إلى إيران عبر نهر السيروان الحدودي بالقرب من حلبجة، فاستدعيته وكنت واقفًا في باب النادي العسكري عندما أقبل لمقابلتي، وكان إلى جانبي آمر المدفعية وضابط

استخبارات الفيلق، كنت أحبه حقًّا لشجاعته وعلو أخلاقه، فرحّبت به وقلت له: «نبر وردتني معلومات بأنك تنوي الهرب إلى إيران، وأقول لك، وأنا أعني ما أقوله، إذا كنت تنوي مغادرتنا فإني مستعد أن أرسل معك من يصاحبك، ويساعدك في عبور الحدود».

كان ينظر إلى الأرض وأنا أكلمه ولم ينظر إليّ ولم يردّ، فقلت: «نبر إذا عبرت إلى الجانب الآخر أرجو ألّا تقاتلنا». ورفع رأسه عن الأرض أول مرة، ونظر في وجهي وهو يقول مستنكرًا والألم في نبرات صوته: «أنا أُقاتلك؟ حاشا لله». وتركنا وذهب، وبعد يومين أو ثلاثة عبَرَ نبر الجاف الحدود إلى الجانب الآخر.

بعد بضعة أيام حضر إلى مقرّ الفيلق ولدا عمّ نبر الجاف (خسرو [216] وكسرى) للاعتذار عن هروب نبر وأفراد فوجه، وكانا محرجين ومتخوفين من ردات فعل قيادة الفيلق لما حصل، فأكدا إخلاصهما وولاءهما للعراق والرئيس، وكان ردي أن نبر كان من أكثر المستشارين شجاعة، وأفضلهم خُلقًا، وما حصل كان تصرفًا متوقعًا من شيخ ومقاتل وإنسان يحترم نفسه ويعتز بكرامته ولا يرضى بالإهانة من أيٍ كان، ولو كنت مكانه لفعلت ما فعله. وقلت لهما: «لقد عرضت عليه بعد أن علمت بنيّته الهروب أن نوصله نحن إلى الحدود، وكنت أعني ذلك وقد وعدني بأنه لن يقاتلنا، وأرجو أن يحافظ على وعده».

فوجئ ولدا العمّ بما سمعاه، إذ كان ذلك آخر ما كانا يتوقعانه، فدمعت أعينهما تأثّرًا ونهضا لمصافحتي، وكلّ منهما يشد بكلتا يديه مودعًا، وخرجا وهما يتمتمان بكلمات الشكر والامتنان.

بعد استعادة عارضة كاريزة تفرغت لإدارة معركة ماوت حيث كان يدور على الجبال قتالٌ دامٍ. كنت أعتمد كثيرًا على مصادر المعلومات التي استحدثناها في الفيلق لمتابعة تحركات العدو ومعرفة نيّاته، والتعامل معها لإيقاع الخسائر بهم قبل المعارك وفي أثنائها وبعدها. كانت مصادر المعلومات هذه عبارة عن مجموعة عمل مشترك بين أجهزة الرازيت وطوائفها ذوي الخبرة والكفاية من خريجي الكليات المجندين، وأجهزة التصنت على مكالمات العدو في الجبهة، وعناصر رصد استخبارات الفيلق، وجماعات الاستطلاع العميق، ورصد ضباط المدفعية، وأجهزة رادار السامبلن لتحديد أماكن هاونات العدو، وكان لدينا عدد منها. كانت كل مجموعة من هذه المجموعات تغطي قطاعًا من الجبهة، وترسل معلوماتها إلى المجموعة الرئيسة في استخبارات الفيلق التي تقوم برسم الصورة الكاملة مما

نقلته المجموعات في الجبهة، ثم تقوم بجمعها وتحليلها والخروج باستنتاجات على شكل معلومات على درجة عالية من الصدقية والثقة. لذلك كنا غالبًا ما نعرف نيّات العدو وتحركات تشكيلاته بدقة بالغة (من أين، وإلى أين، وما هي الطريق، والنيسم الذي يسلكه، وبطء تقرُّبه أو سرعته) كذلك مناطق مدفعيته وهاوناته، ونتعامل مع هذه المعطيات في إدارة معاركنا، وكانوا مع آمري المدفعية والمخابرة، وضابط الركن الثاني استخبارات إلى جانبي في إدارة المعارك.

على الرغم من أننا في معارك ماوت - جوارتة الحالية كنا نقاتل في الجبهة والأجنحة والخلف، وفي المدن والقصبات في آنٍ واحد (قتال على 360 درجةٍ، وقد يصح القول أحيانًا على 720 درجة على الرغم من خيالية هذا الوصف!!) إلا أننا لم نفقد توازننا، وفعلنا في الاتجاه الصحيح والأسبقيات في العمل، ويعود فضلٌ كثيرٌ في ذلك إلى دقة عمل هذه المجموعات.

تمكَّن العدو من احتلال الجزء الأكبر من جبل ماوت، وكان قائد الفرقة يقوم بهجمات مقابلة بمجموعات صغيرة، وبإسناد مدفعي كبير، وتمكَّن من الاحتفاظ بجزء منه. وكانت المعلومات المسترقة تؤكد تكبد العدو خسائر لم يتوقعها في محاولاته إكمال احتلال العارضة وتطوير هجومه. وعندما وصلنا إلى مقرّ الفرقة المتقدم في ماوت كان العدو يتهيأ لهجوم كبير لإكمال احتلال العارضة، واستقدم لواءين لهذا الغرض ليلًا. كنا نتابع حركة اللواءين وتقدُّمهما، وحددنا النياسم التي يتنقلان عبرها والأماكن التي يمران بها (من خلال عمل ورصد مجموعات المعلومات) فهيأنا مدفعية الفيلق، وشرعنا بمعاقبتهم بنيرانها المختلفة (مهداد [217] وانفلاق جوي) بحسب طبيعة الطريق أو النيسم. كانت الأرض التي يتنقلون عليها منبسطة، أو متكسرة، وسواء أكانوا في مرتفع أم في وادٍ كنا نتابعهم خطوة بعد أخرى، ونؤشّرها على الخرائط ونعالجها بالنيران المناسبة، ونتابع رسائلهم المتبادلة لمعرفة ردات فعلهم، فإذا ذكروا أن نيراننا تؤثِّر فيهم نكثفها، وإن ذكروا أنها تقع في مناطق أخرى نصحح نيراننا، واستمرت معالجتهم من دون توقف حتى ساعة متأخرة من الليل، عندما أرسل آمرا اللواءين برقياتهما ليبلغا مرجعهما بأن قواتهما تكبَّدت خسائر كبيرة، وستعود إلى الخلف لإعادة التنظيم. ولم يحدث الهجوم الكبير الذي خططوا له.

في ليلة أخرى كانت قطعاتنا تشتبك مع العدو في جبل ماوت، وكانوا قد أرسلوا لواءً للقيام بعمل على جناح الجبل الأيمن، فأرسلنا برقيات

ورسائل مفتوحة بأن مواضعنا في جبل ماوت تتعرض لقتال شديد، وعلى وشك السقوط فالتقط القائد الإيراني هذه الرسائل، وأمر اللواء المكلف بالعمل على الجناح بتغيير اتجاهه لمساعدة قطعاتهم التي توشك على إزاحة قواتنا من جبل ماوت، وتقرّب اللواء من هذا الاتجاه، وشرعت مدفعيتنا بمتابعته وقبل وصوله إلى جبل ماوت كان قد أُثخن بالخسائر، وانكفأ عائدًا من حيث أتى. هكذا كان العمل اليومي لنا مع قيامنا بهجمات محدودة بنيران كثيفة تقابلها هجمات معادية، واستمر القتال لمدة أسبوعين على العارضة، وعلى الرغم من أن هجماتنا كانت بعددٍ قليلٍ من القطعات، إلّا أننا استنفدنا ما لدينا، وأصبحنا في وضع حرجٍ على الرغم من كل ما اتخذناه من إجراءات، وقلت لهيئة ركن الفيلق: «أخشى أننا لن نستطيع الاستمرار لفترة أطول إذا استمر العدو بهذا الزخم».

فجأة توقف القتال وسكنت الجبهة، ولم أستطع حينها أن أعرف لماذا حدث ذلك، وأسباب توقف العدو عن القتال، وفرض العدو الصمت اللاسلكيّ، وأصبح أكثر حذرًا في تحركاته، وكان قد زجّ 45 فوجًا في معركته التي استمرت أسبوعين (ما يعادل 15 لواءً أو خمس فرق) وكانت حساباتنا لوحدات العدو التي شاركت دقيقة وبالأسماء، ولم يكن هناك مجال للخطأ.

عرفت في وقتٍ متأخرٍ من مديرية الاستخبارات العسكرية العامة من خلال أنصار منظمة مجاهدي خلق، ومؤيديهم من الذين يعملون في المجال الطبي في مستشفيات سردشت، والمستشفيات الميدانية على الحدود بأن مجموع جثث قتلاهم التي وصلت مستشفياتهم كانت أكثر من 5500 جثة عدا المتروكة في ساحة المعركة، ومجموع جرحاهم يزيد على 21000 جريحٍ، وتأكدت للاستخبارات العسكرية العامة هذه الأرقام من مصادرها الأخرى، وكانت خسائرنا من الشهداء والمفقودين 860 عدا الجرحى، ولم تتيسر لنا أرقام عن خسائر المسلحين الأكراد والألوية الإيرانية العاملة معهم في العمق العراقي.

زار مقرّ الفيلق المتقدم رئيس أركان الجيش الفريق سعدي عزيز ومعاونه للعمليات الفريق ثابت سلطان ومدير الاستخبارات العسكرية العامة اللواء صابر الدوري ومدير طيران الجيش اللواء الحكم حسن التكريتي الذي يصاحبهم دائمًا في أثناء معارك الفيلق لعلاقته الوثيقة باللواء صابر، فكنت أوجز لهم مجرى العمليات وأعداد العدو واتجاهات عمله، وإجراءاتنا مع تكرار حاجتنا إلى القطعات لتفوّقه الشاسع، وتحسبًا لما لا تُحمد عقباه. كان جواب سعدي عزيز دائمًا بعدم تيسرها، وأن اعتماده على الفيلق وقيادته

كبير، وأنه سيكون في كركوك إذا استجد أي موقف. وعندما كان يحدث موقف ما كنت أتصل به فيسأل عن إجراءاتنا فأخبره فيثني عليها، ويؤكد أننا اتخذنا الإجراء الملائم، وينتهي الأمر عند هذا الحد. وتكرر ذلك أكثر من مرة، فتوقفت عن الاتصال به. أما معاون رئيس الأركان للعمليات فعلمت من مدير الاستخبارات أنه كان يغادرنا إلى مدينة الموصل ليقضي بعض حاجاته، وأعتقد أن مدير الاستخبارات ومدير طيران الجيش قد أوصلا هذه المعلومات عن رئيس الأركان ومعاونه إلى القائد العام، الأمر الذي أدى إلى إقالتهما بعد انتهاء معارك ماوت.

استشهد قائد الفرقة 44 اللواء الركن جاسم محمد صالح في أثناء تعرّضه لقصف معادٍ في طريق عودته ليلًا من الخطوط الأمامية في ماوت، حينما كان في عجلته مع أحد ضباط ركن الفرقة الذي لم يفطن لموته إلا بعد وصولهم إلى مقرّ الفرقة، فقد أصيب بشظية صغيرة في رأسه وتوفي في الحال، وكان ضابط الركن الذي يجلس إلى جانبه يظن أن قائده كان نائمًا. جرح قائد الفرقة 24 في قلعة دزة العميد الركن زهير يونس الذي استخدمته لقيادة الفرقة 44 بعد استشهاد قائدها، فكلفت اللواء الركن غائب أحمد غائب رئيس أركان الفيلق بقيادتها فجرح هو أيضًا.

بعد هدوء استمر فترة أسبوعين تقريبًا شرع العدو بتعرّضه الثاني فهاجم بقوة وبقطعات متفوقة ما تبقى من عارضة جبل ماوت، واستطاع احتلالها والسيطرة عليها، واندفعت قطعات معادية أخرى إلى العارضة التي تليها (جبل قاشان)، وتمكّنت من انتزاعها من القوة الصغيرة التي كانت تدافع فيها، وامتد العدو من جبل ماوت إلى جبل قاشان، مسافةً تزيد على 5 كلم غربًا، وأصبح موقف الفيلق حرجًا جدًا، والمعلومات تتوارد عن تدفق قطعات معادية كبيرة أخرى عبر الحدود لساحة عمليات ماوت.

لم تكن احتياطات الفيلق المكونة من بضعة أفواج قادرة على عمل أي شيء، على الرغم من أننا كنا نشن الهجمة تلو الأخرى على الأسنان الغربية المواجهة لنا في جبل قاشان (كل فوج يشنّ أربع هجمات لأربعة أيام متتالية، وبمعدل سريّة لكل هجمة مسندة بنيران مدفعية وهاونات كثيفة، ويتمكّن من احتلال الأسنان الأمامية من الجبل فيقوم العدو بقصفه ويعقبه بهجوم مقابل، الأمر الذي يُجبر القوة على الانسحاب بعد أن تكون قد تكبّدت خسائر في القصف المدفعي المعادي لضيق منطقة الأسنان الأمامية للجبل، وعدم وجود أماكن كافية لانتشارها). استمر القتال على هذه الشاكلة إلى أن أوعز الرئيس القائد العام بإرسال لواءين من فرقة مشاة

بغداد حرس جمهوري، التي كان يقودها اللواء الركن قوات خاصّة كامل ساجت، ووصلت القاطع ومعها قائد الحرس الجمهوري الفريق الركن حسين رشيد [218] ، فأوجزتُ لهما الموقف، وصحبتهما إلى مراصدنا الأمامية لشرحه على الأرض، واقترحت على قائد الحرس أن تقوم قوات الحرس بعد أن أعززها ببضعة أفواج من احتياط الفيلق، بعملية واسعة لطرد العدو من قاشان وجبل ماوت، وذلك بإحاطة العارضتين من الوادي الذي يقع يسار العارضتين (جنوبهما)، وقطعهما عن باقي قوات العدو شرق ماوت والحدود الإيرانية، لكنه لم يوافق وقال: «أنا وقواتي نتقيد بتوجيه القائد العام الذي يقضي باستعادة مواضع العدو في جبل قاشان» [219] . فقلت له: «ليس هناك طريق أو نيسم لإدامة الأسنان الأمامية التي نهاجمها يوميًا بحجم سريّة تحتلها إلا بالكاد، فمجموعات الإدامة التي تحمل إليهم الماء والذخائر على ظهورها تشرب أكثر من نصف الماء الذي تحمله كي تصل إليهم، فكيف بإدامة لواءين تعتزم تكليفهما بمهاجمة الجبل واحتلاله، والشيء الآخر أن لا مجال لانفتاح قوة بحجم أكبر من سريّة، فتكديس القطعات على العارضة سيؤدي إلى ذوبان القوة بنيران هاونات العدو ومدفعيته، إضافة إلى استحالة إدامتها»، لكنه أصر على أن واجبه احتلال قاشان وفق توجيه القائد العام.

حدث ما حذّرته منه فقد تمكَّن من احتلال الأسنان الأمامية للعارضة ولم يستطع تطويره لصعوبة الإدامة، وعدم استيعاب ظهر الجبل لانفتاح قوة كبيرة. وبعد خسائر ليست قليلة أعيدت قوات الحرس بعد أن ذكروا للقيادة العامة أنهم تمكنوا من احتلال مواضع للعدو في جبل قاشان (المواضع التي كنا نتبادل السيطرة عليها نحن والعدو يوميًا). زجّ العدو في تعرّضه الأخير بـ 83 فوجًا، أو ما يعادل أكثر من 9 فرقٍ، وبلغ مجموع قواته التي شاركت في المعارك في المرحلة الأولى والثانية من معركة ماوت 128 فوجًا، أي ما يعادل أكثر من 14 فرقة، وما يعادل من 7000 إلى 8000 من مسلحي الحركة الكردية ووحدات حرس الخميني التي عملت معهم. واستمرت معارك الاستنزاف هذه أسابيع ثم هدأت تدريجًا، واستقر الموقف بعد أسابيع بعد أن أنهى العدو تعرّضه وخططه الطموحة التي استهدفت احتلال المنطقة الشمالية من العراق بمساعدة مسلحي الحركة الكردية.

X لواء قوات خاصّة لحرس الخميني.

X تقاطع طريق كاريزة يقع في منتصف المسافة بين جوارتة وماوت.

X الفوج 80 دفاع وطني مستشاره الشيخ علي شعبان وكان من أفواج الدفاع الوطني المتميِّزة وكان مقاتلوه من أكراد العماديّة.

X قلعة دزة هي مركز قضاء قلعة دزة الحدودي.

X خسرو وابن عمه كسرى كانا من مستشاري شاه إيران قبل سقوطه، وهما من العائلة التي ترئس قبائل الجاف القوية التي تعيش على جانبي الحدود بين العراق وإيران. وخسرو مهندس معماري وفنان تشكيلي معروف.

X المهداد نوع من العتاد (الذخيرة) يطلق على عتاد شديد الانفجار (HE).

X أصبح في ما بعد معاونًا لرئيس أركان الجيش للعمليات عندما أصبحت رئيسًا لأركان الجيش، وبعد إقالتي أصبح رئيسًا لأركان الجيش في حرب الخليج الثانية، وهو معتقل الآن في سجون النظام الحالي، وقد حكم عليه بالإعدام.

الفصل الثالث عشر: رئيس أركان الجيش

كنت في مقرّ الفيلق الأول المتقدم في قاطع ماوت - السليمانية، ظهر يوم 14 تموز/يوليو 1987، مع عدد من ضباط ركن الفيلق، منهم الرفيق بديوي حسن فالح السامرائي [220] أمين سر الحزب بالفيلق، في مقرنا المتقدم في قاطع ماوت، لمتابعة إعادة الترتيبات الدفاعية لقطعات ماوت، بعد استقرار الموقف إثر المعارك التي أعقبت التعرض المعادي الكبير في القاطع الذي استهدفنا فيه العدو، بمشاركة فاعلة من المتمرِّدين الأكراد للاتحاد الوطني الكردستاني (جلال طالباني) والديمقراطي الكردستاني (مسعود البرزاني)، فحاولوا توجيه ضربة قاصمة لقطعات الفيلق الأول، والسيطرة على مدينة السليمانية تمهيدًا للاندفاع إلى كركوك. رنّ جرس الهاتف الميداني وأجاب أحد ضباط الركن ثم قدمه إليّ قائلًا: «سيدي التوجيه السياسي معكم من بغداد».

- «ألو. أنا الرائد جبار حدوش من التوجيه السياسي. تهانينا سيدي».

- «شكرًا». أجبته ظانًا بأن التهنئة كانت لمناسبة ذكرى ثورة 14 تموز، فأردف قائلًا: «تهانينا سيدي. لتعيينك رئيسًا لأركان الجيش».

- «شكرًا»، رددت عليه ووضعت سماعة الهاتف. التفتُّ إلى الرفيق بديوي وسألته: «من هذا الرائد الذي اسمه جبار حدوش من التوجيه السياسي؟». أجاب: «إنه من أقارب السيد الرئيس». قلت: «إنه يخبرني أنني قد أصبحت رئيسًا لأركان الجيش، أليس هذا غريبًا؟».

نهض الرفيق بديوي واحتضنني مقبّلًا: «تهانينا سيدي. لكني أخشى على الفيلق من بعدك». وكانت عيناه مترقرقتين بالدموع. قلت: «دعنا نَعُد إلى مقرنا في السليمانية لنرى إن كان هنالك أي تفاصيل». في المساء وصل أمر تعييني في منصب رئيس أركان الجيش، وتعيين اللواء الركن سلطان هاشم الذي كان رديفي آنذاك قائدًا للفيلق الأول.

اتصل في اليوم التالي الفريق الركن علاء الجنابي أمين سرّ القيادة العامة طالبًا حضوري على الفور بأمر الرئيس القائد العام، لحضور المراسيم التي ستقام لمناسبة احتفالات ثورة 17 تموز. وفي الغد بعد الاحتفالات نُشر في الصحف وبُثّ في التلفاز خبر حضور وزير الدفاع الفريق الأول الركن عدنان خير الله طلفاح ورئيس أركان الجيش الفريق الركن نزار الخزرجي المراسم التي أقيمت عند نصبي الشهيد والجندي المجهول. وكان ذلك إعلانًا بأن

رئيسًا جديدًا لأركان الجيش قد عُيِّن.

في بداية عام 1983 حينما كنت قائدًا للفرقة السابعة التي كانت بإمرة الفيلق الثاني في القاطع الأوسط، كنا قد انسحبنا إلى الحدود الدولية بعد سلسلة الانتكاسات التي حدثت في القاطع الجنوبي، في إثر اعتماد العدو استراتيجية هجومية، بعد أن توقفت قطاعاتنا المندفعة إلى العمق الإيراني في بداية الحرب من دون أن تحقق أهدافها.

كان الموقف العام لقواتنا التي اتخذت استراتيجية دفاعية بحتة يقلقني. وكنت أخشى من أن يؤدي استمرارنا في الدفاع السلبي إلى إطالة الحرب واستنزاف مواردنا البشرية والاقتصادية، وإلى احتمال خسارتنا الحرب، على الرغم من تفوّقنا النوعي والكمي الذي لم يُستخدم بالشكل المطلوب.

كانت القيادة الدينية/السياسية للعدو مصرّة على الاستمرار في القتال، معتمدة على التفوق البشري ووفرة الموارد الصناعية والاقتصادية وإيمان أغلبية الشعب بقيادة الخميني وولائها له، واستعدادها غير المحدود للتضحية والفداء. واقتنعوا بأن نجاحهم في إجبارنا على الانسحاب إلى الحدود الدولية هو بداية كسب حرب إسقاط النظام والسيطرة على العراق، تحت شعار طريقنا إلى القدس تمر ببغداد وكربلاء.

لم أكن مقتنعًا على الإطلاق بأن استراتيجيتنا الدفاعية يمكنها أن توقف أو تضعف إرادة العدو للاستمرار في الحرب. بل إن ما يجبره على التوقف هو ضرب عوامل قوته البشرية بتدمير قواته العسكرية وسحقها، واستخدام تفوقنا الجوي والعسكري لضرب موارده الاقتصادية وتدميرها. وذكرت آنفًا (الفصل العاشر) أنني أرسلت دراسة إلى القائد العام تحت عنوان «بعض أفكار جندي في القادسية» أجريت فيها تحليلًا مكثفًا مركّزًا لمجرى الحرب حتى ذلك التاريخ، وأجريت مقارنة مركزة لعوامل القوة والضعف لكلا الطرفين، وتوصلت من خلالها إلى نتيجة هي «إن استمرار الحرب ليس في مصلحتنا وعلينا أن نغيِّر إلى استراتيجية تعرضيّة جريئة بعد تهيئة متطلباتها»، وبيّنت المتطلبات من إعادة انفتاح القطعات وتدريبها وتجهيزها وتنظيمها، ودعوت إلى تشكيل ثلاث مجموعات عمليات كلٌّ منها يتشكل من فرقة مدرعة وأخرى آلية، وفرقة مشاة، ولواء قوات خاصّة، على أن ترتبط هذه الكتل برئاسة أركان الجيش وتُستخدم للقيام بضربات عميقة وإحاطات واسعة لتدمير أكبر ما يمكن من قوات العدو وآلة حربه تباعًا في مختلف الجبهات.

ذكرت أيضًا أنني أرسلت هذه الدراسة في ربيع 1983 وتعمدتُ أن تكون

مختصرة ومركزة، كي أضمن أن يقرأها القائد العام، متوقعًا أن يُرسل في طلبي لمناقشتها وتوضيح تفاصيل ما ورد فيها. فاستلمتُ كتابًا من القيادة العامة موقَّعًا من أمين سرّ القيادة آنذاك طالع الدوري جاء فيه: «اطّلع الرئيس القائد على دراستك المعنونة «بعض أفكار جندي في القادسية»، وهو يؤيِّد معظم ما جاء فيها، لكن امتلاك العدو للمبادأة لا يسمح لنا بالعمل بما ورد فيها»، وأشار إلى أن السيد الرئيس القائد العام يطلب مني الاستمرار في المبادرة إلى إرسال مثل هذه الأفكار في المستقبل.

كان يجب أن أنتظر اليوم التالي لاحتفالات 17 تموز/يوليو 1987 حتى أتطرق إلى الموضوع. استُدعيت لمقابلة الرئيس القائد العام الذي استقبلني مُرحبًا: «أهلًا بالفريق نزار. عُيّنتَ في هذا الموقع لثقتنا الكبيرة بك، وأتوقع أن تعطي هذا الموقع أفضل ما لديك». تكلم الرئيس عن الموقف العام مستذكرًا بعض المحطات البارزة في صراعنا مع العدو الإيراني. واختتم حديثه قائلًا: «إذًا اتكل على الله مع ثقتي وثقة القيادة بك وبرفاقك». قلت: «سيدي الرئيس، في عام 1983 أرسلت إلى سيادتكم دراسة بعنوان «بعض أفكار جندي في القادسية» أدرجت فيها أفكارًا وتصوّرات عن تطور الموقف، وما الذي علينا القيام به لإنهاء الحرب بنصر عراقي». وأوضحت له أنني قد طورت كثيرًا تلك الأفكار والتصورات بعد الخبرة التي تولّدت طوال هذه السنين. ورجوته: «إن كان بالإمكان، سيدي الرئيس، أن تطّلع على هذه الدراسة. بعدها أعرض لسيادتكم النهج المقترح للعمل في المرحلة المقبلة لإنهاء الحرب بنصر عراقـي».

- «حسنًا» قال الرئيس، فنهضت مودعًا.

بعد يومين استُدعيت مرة أخرى لمقابلته. فبادرني قائلًا: «اطّلعتُ على الدراسة. والآن قل لي ما الذي تقترحه للمرحلة المقبلة؟».

- «سيدي الرئيس، أولًا، إن علينا أن نعتمد استراتيجية تعرضيّة شاملة بعد تأمين متطلباتها المتعددة وأولها أن نعيد دراسة انفتاح قطعاتنا المدافعة في عموم الجبهة، يعقبها سحب وتحرير قواتنا الضاربة كافة من فرق مدرعة وأخرى آلية وتشكيلات المغاوير وألوية القوات الخاصّة وعدد مناسب من فرق المشاة، إلى مناطق خلفية، ونشرع في تدريبها ككتل ضخمة على العمليات التعرضية مثل التقدّم والهجوم والاختراق والإحاطة والمناورة الواسعة بالتعاون مع القوات الجوية وطيران الجيش وأسلحة الإسناد الأخرى.

ثانيًا: تنظيم هذه القوات في ثلاث كتل تضمّ كلٌّ منها فرقتين مدرعتين، وفرقة آلية مع 2 - 3 فرق مشاة، وعددًا من ألوية المغاوير وألوية

القوات الخاصّة، فإذا أضفنا الحرس الجمهوري سيكون لدينا أربع كتل ضاربة.

ثالثًا: تُخرج كتل الجيش الثلاث من إمرة الفيالق وتصبح بإمرة القيادة العامة. اثنتان منها تتدربان في المناطق الخلفية للقاطع الجنوبي وكتلة واحدة في القاطع الأوسط، ونبقي فرقتين إلى ثلاث فرق لتتدرب في المناطق الخلفية للقاطع الشمالي. ويجب أن تتدرب جميعها على ساح عمليات مشابهة لما هو موجود فعلًا في جبهات القتال.

رابعًا: إعادة تدريب القطعات المدافعة الماسكة بالأرض دوريًّا لزيادة قدراتها وكفايتها القتالية، والعودة إلى السياقات النظامية في انفتاح القطعات للدفاع من ناحية أطوال الجبهات وأعماقها واحتياطاتها. والابتعاد نهائيًّا عن تعبئة السواتر والإغمار والصيغ الأخرى التي ابتكرها بعضهم، وعملنا بها خلال مجريات الحرب، والتي أدت إلى خلل كبير في إدارة المعارك الماضية.

خامسًا: لدينا أكثر من 220 لواءً مدرعًا وآليًا ومشاة ومغاوير وقوات خاصّة. نستطيع أن نسحب نصفها للغرض أعلاه، ونُبقي النصف الآخر للمسك بالدفاع، والتدريب في المكان بشكلٍ دوريٍّ.

إنني واثق سيدي الرئيس بأن ليست للعدو القدرة على مواجهة 100 -110 ألوية مدرعة وآلية ومشاة ومغاوير وقوات خاصّة، متّصفة بالعزم وعالية التدريب عندما ستجتاحه بكتل ضخمةٍ وبإسنادٍ جوي وناري مؤثرٍ في أي من جبهات القتال. هذا سيدي ملخّص النهج الذي أرتئيه بعد موافقتكم».

- «إنه لعمل جيد وخطوة متقدّمة إذا ما استطعنا تنفيذه»، قال الرئيس.

قلت: «أؤكِّد لكم سيدي الرئيس أننا قادرون على تنفيذه إذا ما أعطيتمونا الحرية، وأطلقتم يدنا في الإجراءات التي تتطلب تنفيذه. وأتعهد لكم سيدي أننا سننهي الحرب بنصرٍ عراقي خلال سنة واحدة فقط».

- «ثقتنا بك وبرفاقك عالية. توكَّلوا على الله. اشرعوا في العمل على ذلك»، قال الرئيس.

كعادتي عندما كنت قائد فرقة أو فيلق، عندما تتولّد لدي أفكار جديدة في التخطيط، أقوم قبل التنفيذ بطرحها على هيئات ركني أولًا لإيضاح رأيي، فأجيب عن تساؤلاتهم كما عن اعتراضاتهم، ثم أشرح لهم تفصيلًا الأسباب والموجبات والمتطلبات. ولا أتركهم قبل أن أتأكد من أنهم قد اقتنعوا واستوعبوا الفكرة والتوجيه. بعدها أجتمع بالقادة والآمرين المنفّذين للغرض نفسه. هكذا نكون جميعًا على أرضية واحدة لتنفيذ العمل المقبل بجدية

وحماسة وإتقان.

عقدت في الأركان العامة اجتماعات عدّة بهيئات ركن دائرة العمليات لشرح أبعاد الاستراتيجية التي سننتهجها ومتطلباتها. وطلبت منهم إجراء الدراسات اللازمة لسحب القطعات التي ستُخصص للتعرض وتحديد مناطق وجودها وتوقيتات تدريبها ونهجه، ومتابعة إنشاء ساحات تشابه ساحات الجبهة للتدريب عليها. طلبت منهم إعداد وتقديم مقترحاتهم لكيفية مسك المواضع الدفاعية في قواطع العمليات بعد سحب القطعات المخصّصة للتعرض، وتوقيتات تدريبها دوريًّا في قواطع الفيالق. وطلبت اقتراح حجم الاحتياطات المحلية التي ستكون بإمرة الفيالق لمواجهة المواقف الطارئة، وإمكانية تشكيل ألوية مدرعة من كتائب دبابات الفرق وألوية مغاوير من وحداتها، لتكون احتياطات محلية لدى قادة الفيالق، وغير ذلك من إجراءات تضمن تحقيق نهجنا المقبل من دون إحداث خلل في الجبهة طوال فترة الإعداد والتدريب.

الصورة (13 - 1)

مع نائب القائد العام، 17 تموز/يوليو 1987

أمام نصب الشهيد يوم استلام مهمتي كرئيسٍ لأركان الجيش



بعدها باشرت هيئات ركن العمليات ومديروها بزيارات مكثفة إلى قواطع العمليات وإعداد الدراسات وتقديمها لي لإقرارها.

بدأنا بعد ذلك بزيارة قواطع العمليات تباعًا، لنوجز لقادة الفيالق وهيئات ركنهم نهج الأركان العامة لتطبيق الاستراتيجية الجديدة ومتطلّبات تنفيذها، كلٌّ ضمن فيلقه. بدأنا بالقاطع الجنوبي، فجمعنا قادة الفيالق الفريق الركن ضياء الدين جمال (الفيلق الثالث)، والفريق الركن محمد عبد القادر (الفيلق الرابع)، واللواء الركن يالجين عمر عادل الذي كان قائدًا للفيلق بالوكالة (الفيلق السادس)، والفريق الركن ماهر عبد الرشيد (الفيلق السابع). التقيناهم في مقرّ الفيلق الثالث في البصرة، وكان بصحبتي معاون رئيس أركان الجيش للعمليات ومدير الاستخبارات العسكرية ومدير الحركات العسكرية ومدير التخطيط ومدير التدريب العسكري وضباط ركن من رئاسة أركان الجيش ومعاونيّة العمليات ومديرية الاستخبارات.

بدأتُ الاجتماعات بعرض موجز لمجريات الحرب في الأعوام السبعة الماضية، قلت إن تضحياتنا كبيرة في الأشخاص والمعدات، واستُنزفنا ماديًّا واقتصاديًا، والعدو على الرغم من خسائره الفادحة في الأشخاص والمعدات استمر في إصراره على الحرب حتى تحقيق أهدافه بفضل تفوّقه البشري ومحدودية تأثيرنا في موارده الاقتصادية، وبهذا لن يرضخ قادته المتعصبون لإنهاء القتال أو الحرب إلا بعد أن نُدمر قواتهم المسلحة ونضرب مواردهم وننهك اقتصادهم. ولتحقيق ذلك علينا اعتماد استراتيجية تعرضيّة شاملة لكسر ظهر العدو وكسر إرادة قواته وقادته، ثم قلت لهم: «شيء آخر أودُّ أن أقوله لكم، وهو أننا وصلنا إلى الحدود القصوى لقدراتنا المادية والبشرية ولا أعتقد بأننا قادرون على الاستمرار في الحرب سنين أخرى؛ أمامنا سنة واحدة لا أكثر لإجبار العدو على الرضوخ لإرادتنا وإنهاء الحرب وإيقاف القتال».

بعدها أجرت مجموعة الاستخبارات المرافقة لنا إيجازًا لموقف العدو وحجم وتوزيع القطعات المعادية المنفتحة في القاطع الجنوبي، ولاتجاه كل فيلق مع بيان حجم الاحتياطات المحلية للعدو واحتياطاته الرئيسة في العمق، وبيان نياته وقدرته على تنفيذها.

أعقبها مدير الحركات الذي عرض حجم قطعاتنا المنفتحة للدفاع في قاطع كل فيلق، والاحتياطات المحلية واحتياطات القيادة العامة، وتمركزها في عموم القاطع. وبيَّن بعده مدير التخطيط حجم القطعات التي ستنسحب من

القاطع لتصبح بإمرة القيادة العامة للشروع بالتدريب والتهيؤ للأعمال التعرضيّة المقبلة. وحدّد حجم القطعات المدافعة التي ستبقى في قواطع الفيالق، وحجم الاحتياطات التي ينبغي أن توفّرها الفيالق من الموارد المتبقية لديها.

أخيرًا، أوضحت مجموعة التدريب العسكري نهج تدريب الاحتياطات المحلية للفيالق والقطعات الماسكة دوريًّا، وأسلوب احتلال القطعات لمواضعها الدفاعية، وفق السياقات العسكرية الموجودة في كراساتنا، وإنهاء مسميّات مثل «تعبئة السواتر» و«الإغمار» التي عُمل بها سابقًا، وأعلنت أنها سترسل زمرًا من التدريب العسكري لمتابعة تنفيذ ذلك.

سألتُ إن كان للقادة أي استفسار أو استيضاح. وكان ردي صريحًا وواضحًا: «ليس أمامنا جميعًا إلا أن نعمل لإنجاح هذا النهج».

التقينا الرئيس القائد العام لنوجز له نتائج زيارتنا إلى القاطع الجنوبي، فأصغى باهتمام إلى تفاصيل مجريات اللقاء مع قادة الفيالق، ومدى قبولهم طروحاتنا والعمل بموجبها، وأخبرته أن الجميع تفهمها وقَبِل بها بشكل جيد. اقترحت نقل الفريق الركن ضياء الدين جمال قائد الفيلق الثالث إلى منصب معاون رئيس أركان الجيش للميرة لحاجتي إليه في هذا الموقع، ورشّحت اللواء الركن صلاح عبود ليكون بديلًا منه بعد أن تطرقت إلى بعض مؤهلاته، فوافق الرئيس وأصدر الأمر بذلك.

في القاطع الأوسط التقينا قائدي الفيلق الثاني الفريق شوكت أحمد عطا، والفيلق الأول الخاص الفريق إسماعيل تايه النعيمي المُكنّى بـ «أبو الشهيد» في مقرّ الفيلق الأول الخاص. أوجزت لهما المهمة التي قدمنا من أجلها، وأعقبتني زمر الاستخبارات والحركات والتخطيط والتدريب، وفق السياق نفسه الذي أجريناه في القاطع الجنوبي. لاحظت علامات عدم الارتياح على وجهيهما في أثناء الكلام، وعندما سألت أخيرًا عن أي استفسارات أو ملحوظات لديهما، بادر الفريق إسماعيل بالقول: «السيد رئيس الأركان (لم يخاطبني بسيدي كما يُفترض، لم أهتم بذلك كثيرًا على الرغم من أن رئيس أركان الجيش هو الأقدم في القوات المسلحة بعد القائد العام ووزير الدفاع. كان إسماعيل تايه آمرًا للواء الرابع العامل في قاطع الفرقة الثانية في عام 1966، برتبة عقيد ركن، وكنت مرافقًا لقائد الفرقة اللواء الركن إبراهيم الأنصاريّ آنذاك، وبرتبة نقيب). إن جبهاتنا واسعة وتدافع عن أهداف استراتيجية مهمة. إن سحب قطعات منها سيضعفنا أكثر، فإذا ما قام العدو بتعرض فسينجح في خرق مواضعنا وسيؤدي ذلك إلى انهيار منظوماتنا

الدفاعية، وإلى نتائج لا تحمد عقباها». كان الفريق شوكت قائد الفيلق الثاني يهز رأسه مؤيدًا ما يقوله أبو الشهيد.

أجبته: «فريق إسماعيل، أولًا: بيَّن لكما مدير الاستخبارات العسكرية بدقة حجم قطعات العدو المنفتحة في جبهاتكما واحتياطاتها، وهي أقل من قطعاتكما المنفتحة للدفاع حتى بعد سحب التشكيلات التي حددناها من قواطعكما. ثانيًا: ستكون لديكما احتياطات كبيرة، ففي قاطعك بالذات ستتوافر لك الألوية الثلاثة التي ستُسحب من فرقك المنفتحة للدفاع ومعها لواء مغاوير الفيلق، ولواء مغاوير آخر سيُشكل من وحدات مغاوير فرقك، كما سنرسل لك لواءً مدرعًا ليصبح بإمرتك، وبذلك ستكون لديك احتياطات بحجم فرقتين تقريبًا تتدرب في قاطعك، وتتطور قدرتها يومًا بعد آخر، وهذا هو احتياطك المحلي الذي تستطيع استخدامه لمعالجة أي موقف تواجهه من دون الرجوع إلينا. ثالثًا: تتدرب خلف قواطعكما كتلة ضاربة من فرق مدرعة وآلية ومشاة، صحيح أنها بإمرة القيادة العامة، لكننا سنستخدمها لمعالجة تدهور أي موقف كما تقول. وإنني بصفتي رئيسًا لأركان الجيش أقول لكما بكل وضوح إنني سأتحمل مسؤولية المواقف التي ستنتج من تنفيذ نهجنا في الجبهات كافة، ولن تُسألا عنها في حالة قيامكما بالحد الأدنى مما هو مطلوب منكما في أثناء المعركة».

مع ذلك لم يقتنع الفريق إسماعيل وقال: «أنت تعرف يا سيادة الفريق إذا اندفقت مياه نهر فائض، وأزاحت كيس رمل واحد، وكسرت سداد التقوية فإن آلاف الأكياس لن توقف تدفق المياه، وستُغرق كل ما يعترضها». ثم أردف: «سيادة الفريق، أنت وبقية الإخوان لكم الوقت كله لتصحيح أي نكسة قد تصيبكم، لكني في هذا العمر قد تكون هذه آخر معاركي. ولا أريد أن تنتهي حياتي العسكرية بعار هزيمة قد لا أستطيع أن أمحوه أبدًا».

كنت هادئًا طوال مجادلته، لكن عندها بدأ الغضب يتصاعد في داخلي. قلت بحزم: «فريق إسماعيل بُحَّ صوتي أنا ورفاقي ونحن نوضح لكما أن العراق لن يستطع أن يستمر في الحرب إلى الأبد. إننا سنهُزم وسيسقط العراق بأيديهم إن لم نعمل على تدمير العدو وتحطيم إرادته، وتأتي أنت الآن لتقول أنك لا ترغب في تنفيذ ما يُطلب منك خشية عار هزيمة يلحقك؟ ماذا عن العراق؟ هل أنت أكبر من العراق؟ اسمع فريق إسماعيل وأنت يا فريق شوكت، سأرسل لكما زمرًا من ضباط الأركان العامة ودوائرها لمتابعة تنفيذ ما أمرنا به يومًا بيوم وساعة بساعة. تنفّذان ما أُمرتما به

حرفيًا. مع السلامة». وغادرنا على الفور.

عدنا إلى لقاء القائد العام. سألنا عما حدث في القاطع الأوسط. فأخبرته بأننا حدّدنا للقادة ما نريده، وسنرسل زمرًا من الضباط لمتابعة ذلك. اقترح سيدي الرئيس تغيير موقعي قائدي الفيلقين. لقد خدما في الجبهة فترات طويلة ومن المفيد نقلهما إلى مواقع مريحة بعض الوقت. همس اللواء الركن صابر الدوري مدير الاستخبارات في أذني: «لماذا لا تقول لسيادته ما حدث بالضبط». أجبته على الفور: «لواء صابر، أنا رئيس أركان الجيش وواجبي ان أحمي ضباطي لا أن أؤذيهم».

أحيل الفريق إسماعيل على التقاعد ونُقل الفريق شوكت إلى منصب رئيس دائرة المحاربين. وأعتقد أن صابر الدوري مدير الاستخبارات قد نقل إلى الرئيس تفاصيل اللقاء مع قائدي الفيلق الأول الخاص والفيلق الثاني قبل اجتماعنا هذا.

كانت زيارتنا إلى القاطع الشمالي الأخيرة من سلسلة لقاءاتنا مع قادة فيالق الجيش. جمعنا قائدي الفيلق الأول اللواء الركن سلطان هاشم، والفيلق الخامس اللواء الركن طالع الدوري في مقرّ الفيلق الأول في كركوك، وأوجزنا لهما النهج والمهمات المطلوبة منهما. وأجرينا لقاءات مشابهة مع قائد فيلق الحرس، وقادة القوة الجوية والبحرية وآمرية طيران الجيش لنكون جميعًا على أرضية واحدة. وحضرنا أخيرًا لقاءً مع القائد العام، ونائبه وزير الدفاع أوجزنا فيه مجمل إجراءاتنا للبدء في تنفيذ متطلبات الاستراتيجية الجديدة للقوات المسلحة.

عندما سألني القائد العام: «متى سنكون جاهزين؟». أجبته: «إن التدريب سيستغرق 7 - 8 أشهر، والعمليات التعرضيّة 3 - 4 أشهر أخرى»، ثم سأل: «وإذا ما شرع العدو بتعرض رئيس في أيٍّ من قواطع العمليات في أثناء فترات التدريب قبل أن تتكامل جاهزيتنا لعملياتنا التعرضيّة؟». أجبته: «لدى قادة الفيالق احتياطات محلية كافية، كما بإمكاننا المناورة بعدد من الفرق من احتياطات القيادة العامة، إذا ما استوجب الأمر من دون أن يؤثِّر ذلك في قوات الضربة».

بارك الرئيس عملنا، وأردف قائلًا أنه ووزير الدفاع «موجودان دائمًا لتذليل أي عقبة تواجهكم لتحقيق نصرنا المقبل إن شاء الله».

حجم احتياطات القيادة العامة المخصّصة للعمليات التعرضيّة

- الحرس الجمهوري

فرقتان مدرعتان، وفرقة مشاة آلية، وفرقتا مشاة، وفرقة قوات خاصّة، و4/5 ألوية مغاوير، ولواء واجبات خاصّة ضفادع بشريّة، ووحدات إنزال بحري، وجماعات استطلاع عميق.

الدبابات: 1000 دبابة، T72، وT62.

عجلات القتال المدرعة: 950 عجلة قتال BMP-1،BMP-2K، وBTR - 60.

المدافع: 500 مدفع 122 ملم، و130 ملم، و152 ملم، و155 ملم.

قاذفات الصواريخ: 100 قاذفة صواريخ 122 ملم.

مجموع الأشخاص: 100.000 ضابط وجندي.

- الجيش: قوات الضربة

خمس فرق مدرعة: T55، وT62، وBTR 60.

ثلاث فرق مشاة آلية: BMP-1، BTR-50، وBMP- 60.

8/10 فرق مشاة، وثلاثة ألوية قوات خاصّة، وعدد من ألوية المغاوير.

الدبابات: 2000 دبابة من طراز T55، وT62.

عجلات القتال المدرعة: 2250 BMP-1، BTR-50، وBMP- 60.

المدافع: 1500 مدفع، 122 ملم، و130 ملم، و152 ملم، و155 ملم.

قاذفات الصواريخ: 200 و122 ملم.

مجموع الأشخاص: 250.000 ضابط وجندي

- الجيش: حجم القوات المنفتحة للدفاع

30 فرقة مشاة في كل فرقة 3-5 ألوية مشاة.

120 كتيبة مدفعية: 2200 مدفع، 122 ملم، و130 ملم، و152 ملم، و155 ملم.

مجموع الأشخاص: 45.000 ضابط وجندي.

- حجم الاحتياطات المحلية لقادات الفيالق

24 لواء مشاة، و16 لواء مغاوير، و8 ألوية مدرعة.

الدبابات: 850 دبابة.

عجلات القتال المدرعة: 400 عجلة.

مجموع الأشخاص: 120.000 ضابط جندي.

- القوات البحرية

لواء زوارق بحرية.

6/ 7 زوارق صواريخ سطح/سطح.

عدد من سفن الإنزال البحري.

عدد من الهوفر كرافت.

فوجا زوارق قتال خفيفة (150 زورقًا لكل فوج بأطوال 9 أمتار/18 مترًا، تُحمّل بقاذفات صواريخ 55 ملم، ومدافع عديمة الإرجاع)، رشاشات رباعيّة.

لواءا مشاة بحريين، وفوج ضفادع بشرية.

مجموع الأشخاص: 10.000 ضابط وجندي.

- آمرية قوات الصواريخ

لواء صواريخ بعيدة المدى، ولواء صواريخ ميدان.

- القوات الجوية الضاربة

15 سرب هجوم أرضي، وقاصفات استراتيجية: 240 طائرة.

أربعة أسراب متعددة المهمات (ميراج): 80 طائرة.

عشرة أسراب متصدية: 170 طائرة.

سربا استطلاع: 30 طائرة.

المجموع: 520 طائرة.

في المرحلة التي أعقبت مرحلة الإجازات دأبت الأركان العامة ودوائرها في العمليات والتدريب خاصّة على متابعة تنفيذ الفيالق وتشكيلاتها المهمات المكلفة بها. وكان الجميع يعمل في التشكيلات والفرق أو في الفيالق على السواء. وكانت زمر الأركان العامة ودوائرها تُوجّه وتشرف وتتابع وتساعد. فعمل الجميع مثل خلايا النحل من دون ملل وبحماسة واندفاع على امتداد الجبهات وأعماقها؛ كانت زمر من مديريات الدروع والهندسة والمشاة مع التشكيلات والفرق التي سُحبت لتشكيل قوات الضربة، لتوجيهها إلى التدريب وفق السياقات التي نصت عليها الكراسات، لتنفيذ الواجبات المقبلة خطوة بعد أخرى. وشاركت هندسة المقرّ العام هندسة الفيالق في بناء وإنشاء مواضع دفاعية تماثل وتطابق مواضع العدو التي ستهاجَم في المستقبل. وكي لا يرصدها العدو، حُددت أماكنها بعيدًا إلى الخلف في قواطع العمليات لممارسة التدريب وإجراء التمارين والتظاهرات عليها. كما تابعت زمر التدريب وزمر الحركات إعادة انفتاح القطعات المدافعة بعد أن سُحبت منها تشكيلات الضربة، وبيّنَت لهم الأساليب القياسية الملائمة لإعداد الموضع الدفاعي، بدءًا من الخنادق الشقيّة للجنود إلى مواضع أسلحة

الوحدة والمقرات الفرعية والرئيسة مع قياسات الحفر والأبعاد. وحدّدت لهم أيضًا الجبهة الدفاعية التي تشغل من جانب الوحدة والتشكيل وأعماقها كي تتمكَّن من إدارة معركة دفاعية ناجحة بعد أن ألغينا ما عُرف بتعبئة السواتر والإغمار. كما أشرفت على تدريب وحدات التشكيلات المدافعة التي كانت تسحب دوريًّا إلى خارج الموضع الدفاعي ثم تُعاد ليخرج غيرها ليتدرب إلى أن ضمِنا مضاعفة الكفاية القتالية للتشكيلات ووحداتها. وأشرفت الزمر على ممارسات الاحتياطات المحلية على الهجمات المقابلة، للمواضع الدفاعية التي نفترض سقوطها بأيدي العدو.

إلى الخلف من قواطع العمليات أجرت التشكيلات المخصصة للضربة العديد من الممارسات والتمارين، ومنها ما كان بالعتاد الحقيقي على المواضع الدفاعية التي أنشأناها والمماثلة للمواضع الدفاعية للعدو. حضرنا بعضها وأبدينا ملحوظاتٍ للعمل بها. وركّزنا على الهجوم والتعرض الشامل، بدءًا من هجوم المشاة بإسناد ناري كثيف ومركّز لاحتلال مواطئ قدم في دفاعات العدو، لتندفع من خلالها الفرق الآلية والمدرعة بزخم وسرعة عالية لتهاجم أجنحة العدو واحتياطاته، ولتقترن بوحدات وتشكيلات القوات الخاصّة التي تم إبرارها بالسمتيّات للسيطرة على الخوانق وضرب خطوط مواصلاته، والاستيلاء على مقرات قياداته.

تمكَّنت هندسة الفيالق بمساعدة هندسة المقرّ العام من ابتكار العديد من المعدات والوسائط المساعدة في اجتياز الجنود والآليات المناطق المغمورة التي استحَدثها العدو أو الأراضي الهشة التي تواجههم في ساحات العمليات، وبمساعدة فاعلة من هيئة التصنيع العسكري التي أمّنَت طلبات الجيش والحرس الجمهوري من معدات ووسائط يحتاجون إليها في عملياتهم المقبلة. فعلى سبيل المثال لا الحصر، صنعت الهيئة لاجتياز منطقة المملحة والأراضي الرخوة ولعبور المشاة والآليات السواقي والمناطق المغمورة لعملية الفاو:

- أكثر من 3000 دعامة جسر فليني للمشاة.
- 1000 دعامة جسر خفيف للآليات.
- آلاف الأمتار من الحصائر (الحصران) والفرش المعدنية لاجتياز الأراضي الرّخوة.
- عشرات الآلاف من الوسائد العريضة للأحذية لمنع غوص أرجل جنود الصولة عند اجتياحهم المملحة والأراضي الرّخوة.
- وعدد كبير من الجسور الخفيفة لعبور جنود المشاة إلى الأحواز (الأحواز هي القنوات المائية المنبثقة من شطّ العرب إلى الداخل لري

بساتين النخيل)، كما لعملية مجنون لغرض عبور قوات الحرس المانع المائيّ بعرض 1 -2 كلم.

- بضعة آلاف من زوارق الصولة المصنوعة من الفايبرغلاس لحمل الجنود وأسلحتهم، ومئات الأطواف المبتكرة لحمل المعدات والآليات، وبعض الأسلحة الساندة.

- للقوات البحرية صنعت الهيئة المئات من زوارق القتال بأطوال 9 - 18 مترًا لحمل الأسلحة المتوسطة، والمدافع العديمة الإرجاع، وقاذفات الصواريخ المتعددة الفوهات 55 ملم.

لم تقع حوادث مهمة في جبهات القتال في الأشهر المتبقية من عام 1987 عدا بعض العمليات الثانوية هنا وهناك. ويبدو أن العدو كان في دور إعادة تنظيم قواته بعد خسائره الفادحة في معارك «الحصاد الأكبر»، ومعاركه في القاطع الشمالي على جبهتي الفيلقين الأول والخامس.

كانت أبرز العمليات التي حدثت في هذه الفترة، الهجمات التي نفّذها جيش التحرير الوطني الإيراني (مجاهدو خلق بقيادة مسعود رجوي) في الشوش بالقاطع الجنوبي، وبدرة في القاطع الأوسط، فكبدوا فيها تشكيلات العدو خسائر كبيرة. كان مجاهدو خلق إحدى القوى الرئيسة المناهضة للشاه في الثورة الإيرانية. تحالفوا مع الخميني ووضعوا أنفسهم بإمرته. وعندما اندلعت الحرب شارك الآلاف منهم في القتال. وكان لمقاتليهم دورٌ بارزٌ في معركة المحمرة الأولى، ثم انقلب الخميني عليهم وقتل الآلاف منهم، واستطاع مسعود رجوي وعدد محدود من كوادرهم النجاة والهرب، واستقر معظمهم في فرنسا. بعد انسحاب العراق إلى الحدود الدولية أعلنوا أنه لم يعد هناك سبب لاستمرار القتال، وأنه يجب إحلال سلام عادل بين البلدين، وصدر بيان مشترك بهذا المعنى بعد لقاء طارق عزيز نائب رئيس الوزراء العراقي، ومسعود رجوي في باريس.

اشترط نظام الخميني على الأميركيين اعتبار مجاهدي خلق منظمة إرهابية مقابل إطلاق سراح الرهائن الأميركيين في لبنان، وكذلك على الفرنسيين، مقابل إطلاق سراح رهائنهم في لبنان أيضًا! وضاقت فرنسا وأوروبا بهم فاضطروا إلى الانتقال إلى العراق في حزيران/يونيو 1986. أعلنت القيادة العراقية بعد لقاء الرئيس صدام مسعود رجوي بأنها تحترم المقاومة الإيرانية واستقلاليتها وحريتها في الحركة والعمل لبلوغ أهدافها.

شرع العراق في إثر ذلك بتسليح المجاهدين (ستة إلى سبعة الآف رجل وامرأة) معظمهم من المثقفين وحملة الشهادات الذين تميزوا بكفاءتهم

وشجاعتهم وانضباطهم وولائهم المطلق لزعيمي الحركة مسعود وزوجته مريم رجوي. استلموا أسلحة وآليات ودروعًا وبعض قطع المدفعية، وتمكّنوا من استخدامها بجدارة واقتدار. وكان جيشهم يقارب لواءين من المشاة (آلي ودروع)، ومجموعات مشاة واستطلاع، وواجبات خاصّة. وتميزوا باستطلاعاتهم الدقيقة والمفصلة التي قد تستمر أسابيع طويلة قبل التنفيذ، وقدرتهم على الاتصال بالمتعاطفين معهم في القطعات التي يهاجمونها، الأمر الذي حقق لهم نجاحات باهرة من دون خسائر تُذكر في عملياتهم.

في منتصف أيلول/سبتمبر 1987 سأل الرئيس القائد العام: «فريق نزار أين أصبحتم في خطة تحرير الفاو؟». أجبته: «لدينا الإطار العام لخطة التحرير، ولا تزال هناك نهايات سائبة».

- «اعملوا على إكمالها، وبيان متطلباتها منذ الآن». أمر السيد الرئيس.

عندما عدت إلى مقرّي في الأركان العامة اجتمعت بمعاون العمليات ومديري التخطيط والحركات، ووجهتهم إلى الشروع في إكمال التخطيط لعملية التحرير، وتحديد متطلباتها من تشكيلات وإسناد وتحضيرات وتقديمها إليّ لمناقشتها.

في 27 أيلول/سبتمبر 1987 جرى اجتماع في القيادة العامة حضره القائد العام ونائبه وزير الدفاع ورئيس أركان الجيش ومعاون العمليات ومدير الاستخبارات والفريق حسين كامل رئيس هيئة التصنيع العسكري والمشرف على الحرس الجمهوري. وتم في هذا الاجتماع تحديد ما يلي:

- الحرس الجمهوري والفيلق السابع هما من سيُكلّفان بتنفيذ عملية الفاو.

- تحرير 48 لواء من الجيش والحرس الجمهوري لهذه المهمة. تتفرغ للتدريب في مناطق خلفية في القاطع الجنوبي مشابهة لأهدافهم في مرحلة التنفيذ.

- تحديد طلباتنا من الآن لهذه العملية من معدات ووسائط تساعدنا في اجتياز تعقيدات طوبوغرافيا جبهة الفاو، وتقديمها لهيئة التصنيع العسكري.

- التهيؤ لوضع خطط مخادعة طويلة الأمد على مستوى الدولة. وأكد الرئيس القائد العام أن مخادعة إيران يمكننا إنجازها بسهولة نسبية، «لكنني أريد منكم مخادعة أميركا بهذه العملية».

- أكد الرئيس ضرورة فتح جبهات جديدة لسحب احتياطات العدو كلما اقترب موعد التنفيذ.

- أكد عدم إصدار أي توجيهات مكتوبة خارج القيادة العامة.

في 28 أيلول/سبتمبر 1987 عُقد اجتماع حضره رئيس الأركان ومعاون العمليات ومدير الاستخبارات لتحديد التحضيرات ومتابعة تنفيذها، ولوضع فكرة المخادعة على مستوى الدولة والقوات المسلحة.

في 3 تشرين الأول/أكتوبر 1987 عُقد اجتماع في القيادة العامة حضره الرئيس القائد العام ونائبه وزير الدفاع، عرض فيه رئيس أركان الجيش فكرة العمليات وتحديد القيادات والقطعات ونواحي الأمن وجمع المعلومات الاستخبارية، وضرورة العمل المشترك مع قيادات القوات البحرية والجوية وطيران الجيش في مراحل لاحقة. أكد الرئيس أنه يريد خطة غير تقليدية لعملية الفاو. وأوضح رئيس أركان الجيش أن طبيعة جبهة الفاو تحدد إمكانات المناورة «على الرغم من أننا ندرس إمكانيّة القيام بعمليات إنزال بحري وسمتيّ لتسهيل عملية الخرق التي ستكون الخيار الوحيد تقريبًا لجبهة الفاو».

أكد الرئيس مرة أخرى أن لا توجيهات ولا أوامر مكتوبة خارج إطار القيادة العامة، و«ما يكتب لنا من جانبكم يكون بخط اليد».

في 13 تشرين الأول/أكتوبر 1987 اجتماع في رئاسة أركان الجيش لمناقشة ما تم إجراؤه وإقراره حتى ذلك الحين.

في 14 تشرين الأول/أكتوبر 1987 أصدر رئيس أركان الجيش توجيهاته لتنفيذ ما تم إقراره في الاجتماع السابق. تم عقد اجتماع آخر عُرضت فيه الخطة العامة ومهمات الفيلقين والاتجاهات والأهداف النهائية لكل منهما، ووضع موعد أولي لتنفيذ العملية.

رصدت الاستخبارات العسكرية تحركات معادية على جبهة الفيلق السادس في القاطع الجنوبي فأمر القائد العام في إثرها بإعادة اللواء الركن سلطان هاشم قائد الفيلق الأول إلى موقعه السابق قائدًا للفيلق السادس. نُسّب قائد الفيلق السادس اللواء الركن كامل ساجت قائدًا للفيلق الأول. لم أكن مرتاحًا إلى هذا الإجراء لسِعة وتعقّد طبيعة قاطع الفيلق الأول. فاللواء كامل ساجت معروف بشجاعته وإقدامه إلا أن خبرته وتجربته لم تكونا كافيتين لإدارة عمليات كبيرة في مثل هذا القاطع.

في نهاية عام 1987 رصدنا تحركات ناشطة معادية باتجاه محور ماوت - جوارتة شرق السليمانية في قاطع الفيلق الأول، كما حصلنا على معلومات تؤكد تطور التنسيق المشترك بين المسلحين الأكراد لحزب الاتحاد الوطني (جلال الطالباني) والعدو.

في منتصف كانون الثاني/يناير 1988 شنّ العدو هجومًا واسعًا على قاطع ماوت مستدلًا بمسلحي الطالباني وبمساعدتهم واستطاعوا جميعًا السيطرة على مواضع اللواءين 83 و603 من الفرقة 44 التي تدافع على محور ماوت، كما تمكّنوا من السيطرة على العارضة المهمة المسماة «أحمد رومي». استماتت قطعات الفرقة 44 في الدفاع عن العوارض المسيطرة على مقتربات مفارق الطرق المؤدية إلى جوارتة من جهة، وإلى المقرات الرئيسة لجلال الطالباني، ومسلحيه من جهة أخرى المتخندقين في المناطق الوعرة لقرى مالومة وسركلو وبركلو التي تحميها القمم الشاهقة لجبل «بيرة مكرون» المطل على سهل سورداش والطريق التي تربط السليمانية ببحيرة دوكان.

كانت تشكيلات العدو من حرس الخميني المُسندة بالمسلحين الأكراد من جماعة الطالباني تشنّ الهجمات تلو الهجمات من دون توقف، في أجواء بالغة السوء من انهمار الثلوج ودرجات الحرارة المنخفضة. زرت مقرّ الفرقة 44 المتقدّم على العارضة المدافَع عنها للاطلاع على الموقف عن كثب. وقررت في إثرها تكليف ضابط مشاة قدير ذي خبرة عالية في خوض المعارك الصغرى. فاستدعيت اللواء الركن قيدار محمد صالح قائد فرقة في الفيلق الأول الخاص في جنوب القاطع الأوسط، وكلفته بقيادة الفرقة 44 وإدارة معاركها، فيما يكون قائدها الأصلي رديفًا وحاضرًا لتقديم أي مساعدة يطلبها.

لم تتوقف المعارك وهجمات العدو ولا هجماتنا المقابلة إلا بعد هبوب عواصف ثلجية عاتية، انعدمت فيها الرؤية، حتى أن الجمعين كانا يختلطان. حينها كان كل جانب يحاول تبيّن طريق عودته، وحدث مرارًا أن طمر جنودنا خصومهم تحت أطنان الثلوج المنهمرة. حينئذ فقط كان القتال يتوقف ليُستأنف حال توقفها.

أدار اللواء قيدار معاركه من الحافات الأمامية للموضع الدفاعي بقدرة وجدارة عاليتين وكبّد العدو خسائر فادحة أجبرته على التوقف، وبقينا محتفظين بتلك العارضة المهمة، ومنعناه من تحقيق هدفه للوصول إلى مقرات الطالباني ومسلحيه لتطوير عملهم في عمق قاطع الفيلق.

الأنفال

بعد سقوط الفاو، حسب القادة الأكراد المسلحون (الطالباني والبرزاني) أن العراق في طريقه إلى خسارة حربه مع إيران، فحسموا أمرهم على الاشتراك بكامل جهدهم مع الجانب الإيراني للسيطرة على شمال العراق، فشاركوا في

الهجوم الإيراني على جوارتة في ربيع 1986، وفي الهجوم على ماوت في عام 1987، وكرروا التواطؤ معه في التعرض الإيراني الأخير على ماوت. كانت أهداف العمليات الإيرانية كلها في هذا القاطع الوصولَ إلى المقرات والتجمعات الرئيسة للمسلحين الأكراد للاندفاع معًا إلى أعماق قاطع الفيلق للسيطرة على مدن وأهداف حيوية مثل السليمانية وحلبجة وسداد دربندخان ودوكان. ولحرمان العدو من تحقيق غايته قررنا ضرب الطالباني ومسلحيه وطردهم من المنطقة، ووضعنا الأسبقية الأولى لمقره الرئيس في منطقة سركلو - بركلو شرق جبل بيرة مكرون، وهي مناطق منيعة للغاية، لم يسبق لقطعات الجيش الوصول إليها، وكانت الأسبقيات اللاحقة للتعرض على مناطق تواجد مسلحيه قرب أهداف حيوية يستهدفها العدو.

لمّا كان قائد الفيلق الأول اللواء الركن كامل ساجت منشغلًا في إدارة معاركه في قاطع ماوت كلّفنا اللواء الركن سلطان هاشم الذي نُسّب ليكون رديفًا لقائد الفيلق الأول بتنفيذ هذا الواجب فاستحدثنا له مقرًّا، ووضعنا بإمرته عددًا من التشكيلات ووحدات من المغاوير، وعددًا من أفواج الدفاع الوطني (مسلحون أكراد موالون للسلطة شُكِّلت منهم أفواجٌ للدفاع عن مناطقهم، ولمشاركة القطعات العسكرية في قتال المسلحين الأكراد المناهضين للسلطة) [221] .

الأنفال الأولى

كُتب الكثير عن عمليات الأنفال، وشُوّهت بنظر الرأي العام بفعل أجهزة الدعاية الإيرانية والغربية التي غذاها المسلحون الأكراد بكل ما يُقصد به شيطنة الدولة. في واقع حالها لم تكن عمليات الأنفال إلا عملية أمن داخلي نفِّذت بأقل ما يمكن من القوات المسلحة، وبأكثر ما يمكن من أفواج الدفاع الوطني الكردية التي تطوّعت لمساعدة الدولة لفرض سيطرتها على الإقليم العراقي ومنع الإيرانيين من العبث بالوضع الداخلي العراقي. كما كُتب الكثير عن القرى المهدمة وغيرها، وهذه القرى لم تكن بأغلبيتها إلا تلك القرى التي قرّرت الدولة إخلاءها من سكانها في وقت مبكر، وعوّضت هؤلاء السكان تعويضًا مجزيًا ونقلتهم إلى مجمعات سكنية تتوافر فيها الخدمات التعليمية والطبية والبلدية المختلفة. وتطرّقت إلى هذه التجربة في مجال حديثي عن تجربتي عندما كنت قائد الفرقة السابعة في السليمانية وقائد الفيلق الأول. وبودي أن أشير إلى ما سبق لي ذكره عن ذكرياتي عند زيارتي، بصفتي قائدًا للفرقة السابعة، الجانب الإيراني ضمن مجال التنسيق

المشترك قبل الحرب، ورؤيتي كيف أن المواطنين الأكراد الإيرانيين كانوا يهبون وقوفًا بمجرد مرور سيارة عسكرية إيرانية من أمامهم سواء أكانوا في الأسواق أم في الطرقات أم جالسين أمام بيوتهم. أوردت هذا للمقارنة بحال الكرد العراقيين، خصوصًا أولئك الذين لم يتورطوا في التمرد. ومع ذلك فإن للحرب أيًا كان مقياسها آثارها السلبية في نوعية الحياة، فهي أولًا وأخيرًا حالة طارئة.

في تصميمنا معركة السيطرة على المقرات الرئيسة لجلال الطالباني في مالومة وهالدن وسركلو وبركلو، وضرب تجمعات مسلحيه في المنطقة، كانت خطتنا تقوم على مهاجمة قلعتهم الحصينة في جبل بيرة مكرون من الاتجاه الغربي (سهل سورداش)، والسيطرة عليه ثم الاندفاع إلى مقراتهم، محاولين أن يتزامن ذلك مع تقدّم قوة أخرى من الاتجاه الشمالي (قلعة دزة) لحصرهم بين فكي كماشة والقضاء عليهم والسيطرة على مقراتهم. ولتنفيذ هذه الخطة أوعزنا إلى اللواء الركن سلطان هاشم بالقيام بهجمات متتابعة بأفواج الدفاع الوطني لإجبار المخرِّبين الأكراد (كما كان يدعى آنذاك مسلحو الحركة الكردية المناهضة للسلطة)، على الخروج من مخابئهم المنيعة لمقاومة هجمات أفواج الدفاع الوطني، عندها يصب ضباط رصد المدفعية الموجودين مع الأفواج نيرانًا مصوبة ومركزة لإيقاع أكبر الخسائر بهم، وطلبنا أن يحرص اللواء الركن سلطان هاشم على سحب الأفواج قبل أن تصاب بخسائر قد تؤثِّر في أدائها لاحقًا. ويُكرر ذلك المرة بعد الأخرى ويومًا بعد يوم، إلى أن تتم خلخلة الموضع وإنهاك قوة المسلحين الأكراد فيه. عندها يدفع مغاويره إلى مهاجمة قمم بيرة مكرون واحتلالها وتطهيرها لتستمر بعدها الهجمات المتلاحقة للسيطرة على مقراتهم. وفي هذه المرحلة سندفع قوة أخرى من الغرب (قلعة دزة) باتجاههم لحصر من تبقّى من المسلحين الأكراد والقضاء عليهم والاستيلاء على مقراتهم.

شرع اللواء سلطان في هجماته على العارضة، واستمر القتال يومًا بعد آخر بالأسلوب الذي تطرقنا إليه سابقًا.

في هذه المرحلة من التنفيذ هاجم العدو منطقة حلبجة، خورمال شرق السليمانية، فاقترح بعض ضباط ركن إيقاف عملية بيرة مكرون والمناورة بالقطعات في قاطع حلبجة لمعالجة الموقف فيها. لم أوافق على مقترحهم بل أوعزت إلى اللواء سلطان بالاستمرار في عملياته، إذ إن الحالة أصبحت الآن أكثر من أي وقت مضى توجب ضرب رأس التخريب وإنهاء وجوده، خصوصًا أن معلوماتنا أكدت الدور الرئيس الذي أداه مسلحو جلال الطالباني

في تعرض العدو الإيراني على حلبجة وسقوطها، فأشرت على قائد الفيلق اللواء الركن كامل ساجت بالانتقال إلى قاطع حلبجة، بعد أن هدأت الاشتباكات نسبيًّا في قاطع ماوت، لإدارة المعركة فيها مع تعزيزات أرسلناها من الاحتياطات الموجودة في قاطع الفيلق.

استمرت هجمات اللواء سلطان بأفواج الدفاع الوطني إلى أن شعر بأن مقاومة المسلحين الأكراد قد وهنت، عندها دفع مغاويره بإسناد نيران كثيفة إلى الهجوم على قمم بيرة مكرون، واستطاع احتلالها وتطهيرها ممن تبقّى من المسلحين الأكراد المتحصّنين في الكهوف المنتشرة بين قمم بيرة مكرون الشاهقة. وعثرت قواتنا على جثث مخرِّبين متروكة، وكميات كبيرة من المعدات والتجهيزات والأعتدة المختلفة، وعلى مستشفى ميداني في كهف كبير كانت الدماء والضمادات الملوّثة تغطي أرجاءه.

بعد أن ترك قوة لمسك جبل بيرة مكرون تقدّم اللواء سلطان بمغاويره وأفواج الدفاع الوطني إلى قرى مالومة - هالدن - سركلو - بركلو حيث قيادات الاتحاد الوطني (جماعة الطالباني). وفي هذا الوقت اندفع اللواء الركن إياد خليل زكي قائد الفرقة 33 التابعة للفيلق الخامس مع تشكيل مشاة ووحدات مغاوير وأفواج دفاع وطني من الشمال الغربي (مضيق سنكسر - دوكان) باتجاه مقرات الطالباني. وتقدّمت هذه القوة بعزم واندفاع، والتقت قوات اللواء سلطان في مقرّ الطالباني الذي فوجئ بتقدّم رتل اللواء الركن إياد خليل زكي من مضيق سنكسر ودوكان. وخوفًا من التطويق والوقوع بأيدي قواتنا هرب وقيادات الحزب وكوادره ومن تبقّى من مسلحيه باتجاه العمق الإيراني على عجل، تاركين متعلقاتهم كلها، وبذلك انتهت معركة بيرة مكرون - سركلو - بركلو، وأطلق اللواء الركن كامل ساجت الذي كان رجلًا متدينًا اسم الأنفال على هذه العملية، مهتديًا بسورة الأنفال من القرآن الكريم. ويتبيّن لنا من كل ذلك أن الخسارة الكبيرة التي تكبَّدها المسلحون كانت سبب حقدهم على هذه العملية وتشويه صورتها. في قضايا المعارضة عندما يركن المعارضون إلى السلاح لحسم قضيتهم مع الدولة تبذل الدولة جهدها المضني لاحتواء تطلعاتهم وتنفيذ ما لا يتعارض مع السيادة الوطنية، وكان هذا ديدن الحكومات العراقية المتعاقبة منذ العهد الملكي حتى لحظة العدوان الأميركي على العراق وغزوه. أما إذا ما فشلت خططها لاحتواء التمرد سلميًّا وركَنَ المعارضون إلى تخريب الطرق والجسور والخدمات العامة والمنشآت الاستراتيجية وترهيب المواطنين وابتزازهم للحصول على دعمهم وتأييدهم والتعاون مع القوى

الأجنبية والعدوة لتحقيق مآربهم فتكون الحكومة حينئذ مضطرة إلى مواجهة العنف بالقوة، مع الركون إلى التفاهم مع أول إشارة تصدر من المعارضين. وتاريخ التفاهم مع المعارضين الأكراد مليء بالشواهد على ذلك حتى عشية الاحتلال والغزو الأميركيين للعراق في آذار/مارس - نيسان/أبريل 2003. وهو موضوع طويل مفصل يحتاج وحده إلى جهد بحثي مركز.

عند لقائي القائد العام لاحقًا رشّحت اللواء الركن إياد خليل زكي لمنصب قائد الفيلق الخامس، بعد أن ذكرت خصاله وأداءه المميز وشجاعته في عملية بيرة مكرون، فاعترض اللواء صابر الدوري مدير الاستخبارات على مقترحي مذكّرًا الرئيس بأن اللواء إياد لم يكن حزبيًا، بل كان معروفًا بانتمائه إلى الإخوان المسلمين عندما كان طالبًا في الدراسة الثانوية، فرد الرئيس: «إن ما يهمنا هو شجاعته وأداؤه المميز في حرب القادسية. إنني أعتبره وأمثاله بعثيين وإن لم ينتموا». وأصدر على الفور مرسومًا جمهوريًا بتعيينه قائدًا للفيلق الخامس. وأبدع هذا الضابط في أدائه قائدًا أو معاونًا لرئيس الأركان العامة للميرة (الإمداد اللوجستي) على السواء، أو محافظًا لمحافظة المثنى بعد تركه القوات المسلحة.

سقوط حلبجة وأسطورة ضربها بالكيماوي

كانت قيادة القوات (43) واحدة من القيادات التي استُحدثت في المراحل المتأخرة من الحرب، وكان مستواها أقل من مقرّ فرقة، بضباط الركن ووحدات السيطرة والإسناد، فتُكلفها قيادات الفيالق غالبًا بمسك القواطع الأقل سخونة. ووُضعت هذه القيادة بإمرة الفيلق الأول الذي كلّفها بمسك قاطع حلبجة - خورمال. كانت تشكيلاتها تعاني نقصًا في الآمرين والضباط، وكان معظم المنتسبين إليها من كبار السن الذين استدعيوا إلى الخدمة للحاجة الملحة في بلدٍ استُنزف عددٌ كبيرٌ من أبنائه في حربه الطويلة مع العدو الإيراني. كما لم تكن لقائدها العميد الركن علي العلكاوي الخبرة الكافية للقتال في المناطق الجبلية المعقدة (وهذه حالة تكررت أكثر من مرة نظرًا إلى طول فترة الحرب واستنزاف كثير من كادر الضباط المدربين). ووزعت قيادة القوات تشكيلاتها الثلاثة وكتيبة الدبابات التي عُززت بها كما يلي:

- لواء لمسك جبل بالمبو الحدودي المشرف على حلبجة من الجنوب والجنوب الشرقي.
- لواء لمسك منطقة خورمال بعد أن أُفرز أحد أفواجه لمسك العارضة

المشرفة على حلبجة من الشرق.

- لواء ناقص فوجين، ومقرّ كتيبة الدبابات ناقص سريّتين مع مقرّ القيادة في المعسكر القديم المحاذي لغرب مدينة حلبجة مباشرة.

- فوج مشاة زائد سريّة دبابات لمسك خانق وادي زلم المهم على الطريق المؤدية إلى جسر سيد صادق.

- فوج مشاة زائد سريّة دبابات لمسك معبر البحيرة الذي يؤدي إلى سيد صادق أيضًا.

عند زيارتي قاطع القوات في حلبجة بعد تكليفه بهذا الواجب أكدت للعميد علي العلكاوي بحضور قائد الفيلق أهمية معبري وادي زلم والبحيرة [222] ، وقلت له: «إنهما شريانا قاطعك وقواتك اللذان يجب المحافظة عليهما بأي ثمن، وإحكام سيطرتك عليهما مهما كلفك الأمر». كما قلت له: «إن حجم قوة المسك للمعبرين ملائمة الآن، وعلى قيادة الفيلق تعزيزها عند بروز أي تهديدٍ معادٍ».

لم تكن لدى مديرية الاستخبارات العسكرية ولا استخبارات الفيلق الأول الميدانية مؤشرات إلى تعرض العدو الذي فاجأنا ليلة 15 آذار/مارس 1988، إذ استطاعت قطعات من الفرقة المعادية 84، وتشكيلات أخرى من حرس الخميني التسلّل بمساعدة أدلاء من الاتحاد الوطني الكردستاني، أي جماعة الطالباني ومهاجمة المواضع الخلفية لوحدات اللواء المدافع عن عارضة بالمبو من الخلف ومن أجنحته. كما هاجم المسلحون الأكراد في الوقت عينه مقرّ قيادة القوات 43 واحتياطاته في معسكر حلبجة، وتمكنوا من التوغل في مدينة حلبجة بمساعدة الخلايا الداخلية لتنظيمهم الحزبي، فأربكوا قائد القوات 43 الذي انقطع اتصاله باللواء الموجود في جبل بالمبو. وعندما استنجد بآمر اللواء الموجود في خورمال أخبره بأنه هو الآخر يتعرض لهجمات من اتجاهات متعددة. وحال انبثاق الصباح سارع قائد القوات 43 بدفع قوة المعبر في وادي زلم إلى الهجوم المقابل باتجاه خورمال، ودفَعَ قوة معبر البحيرة إلى الهجوم المقابل باتجاه بالمبو، فاستغل المسلحون الأكراد والإيرانيون المتسللون معهم خلو المعبرين فسيطروا عليهما، وتم بذلك عزل قيادة القوات 43 في قاطع حلبجة - خورمال عن باقي الفيلق.

شنّ الفيلق عددًا من الهجمات المقابلة على خانق ومعبر وادي زلم على الطريق العام، إلا أن العدو والمسلحين الأكراد كانوا قد تمسكوا بهما بقوة بعد أن عززوا وجودهم فيهما، وأفشلوا الهجمات المستعجلة التي قام بها الفيلق. وعندما خرج قائد القوات 43 لإدامة الاتصال بقوات الفيلق التي

تقوم بالهجوم المقابل على معبر وادي زلم تصدى له المسلحون الأكراد واستطاعوا إلقاء القبض عليه وسلّموه إلى العدو الإيراني. وحاول عدد من الوحدات الانسحاب من المعابر، فوجدوا أن قوات العدو والمسلحين الأكراد احتلوها، وظل المسلحون الأكراد يهاجمون وحداتنا طوال تنقلها، ومع ذلك استطاع عددٌ من الضباط والمراتب التسلل من أحراش وادي زلم وآخرون سباحة من البحيرة، لكن أكثرهم وقعوا أسرى أو استشهدوا.

عندما علمتُ بمصير قائد القوات 43 وقطعاته أوعزت إلى قائد الفيلق الأول بإيقاف هجماته المقابلة، واحتلال خط دفاعي موازٍ لوادي زلم والحافات الغربية للبحيرة. وطلبنا من طيران الجيش تكثيف ضرباته على العدو.

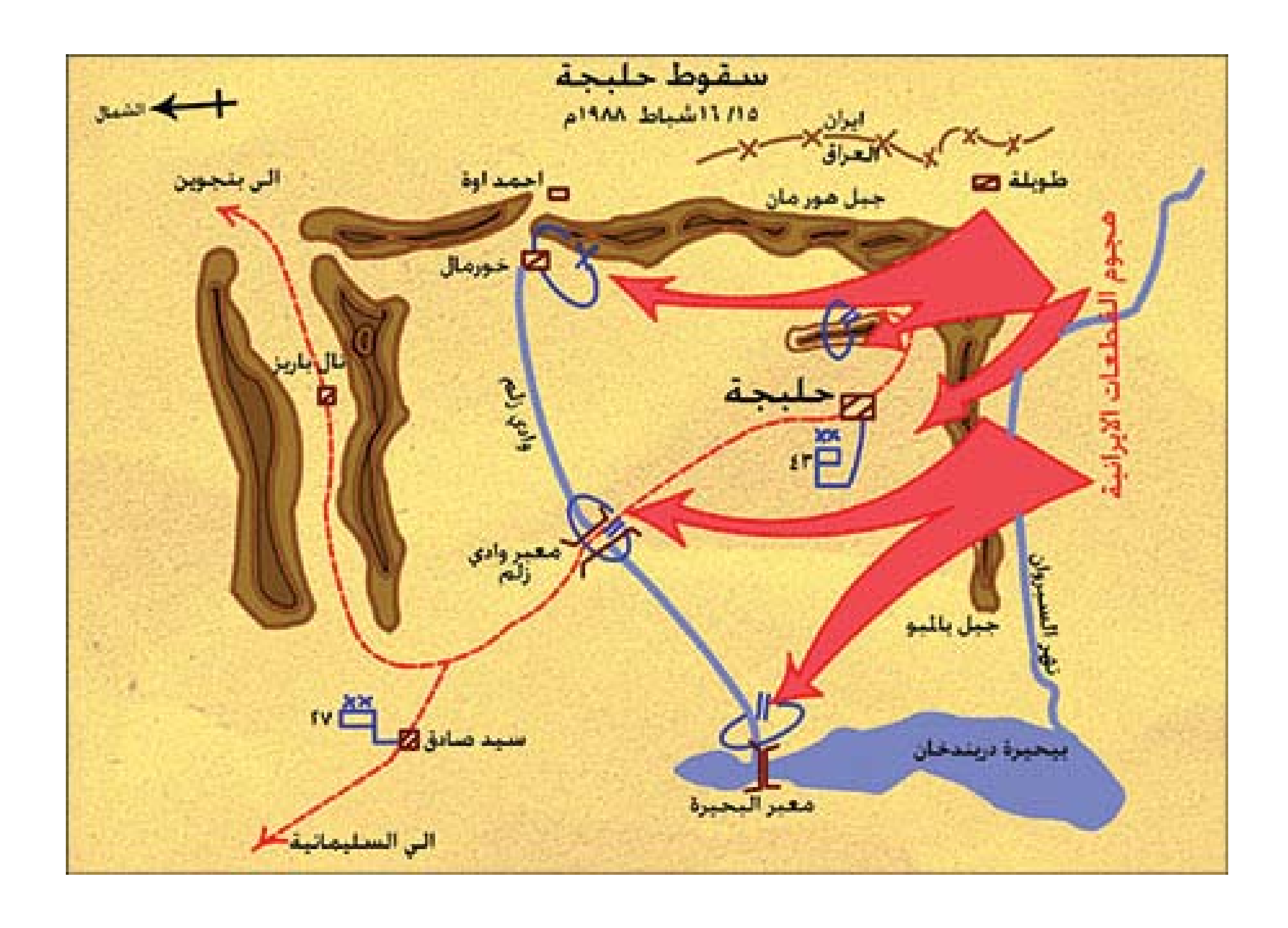
في الاجتماع المسائي بنائب القائد العام، وزير الدفاع، الفريق عدنان خير الله في مقرنا المتقدم في السليمانية بعد يومين من سقوط حلبجة، دخل ضابط الاستخبارات في الأركان العامة وأخبرنا بأن هناك نشاطًا يسترعي الانتباه على الشبكات اللاسلكية للعدو والمسلحين الأكراد عن حدثٍ ما في قاطع حلبجة، وعن ضربة حدثت نهار اليوم. اتصل الوزير بالقيادة العامة واستفسر عن الموضوع. فأخبروه أن أجهزة التنصت التابعة لهم استرقت معلومات متفرقة عن شيء ما قد حدث. ولم تتضح لهم بعدُ أبعادها. بعد بضعة أيام ادّعى الإيرانيون والمسلحون الأكراد أن الطائرات العراقية نفّذت ضربة كيماوية على حلبجة، وأن خسائر كبيرة قد حصلت.

التقيت لاحقًا عددًا من قادة القوات الجوية المسؤولين عن القواعد الجوية آنذاك، وأكدوا لي جميعًا أن أي طائرات لم تقلع من قواعدها لمثل هذا الواجب.

بعد الحرب مباشرة قامت لجان دولية متخصصة بفحص آثار الضربة وحللتها في مختبراتها، وتوصلت إلى أن العامل الكيماوي الذي استُخدم كان متيسرًا لدى الطرف الإيراني، ولم يكن العراق يمتلكه آنذاك. وتبقى الاتهامات المتبادلة بين كل الأطراف، وكلٌّ يستخدمها لأغراضه الخاصّة. وأنا متأكد أن يومًا ما سيأتي وسيُعلن صراحة أن الجانب الإيراني هو الذي ضرب حلبجة بعامل سيانيد الهيدروجين وكلوريد السيانوجين والآرسين، وهي عوامل متطايرة غير ثابتة لم يكن العراق ينتجها، كما أثبتت بعد ذلك عمليات التفتيش الدولية لنزع أسلحة الدمار الشامل العراقية [223] .

الشكل (13 - 1)

معركة سقوط حلبجة، 15-16 شباط/فبراير 1988



معركة سَد دربندخان

شُيِّد السدّ لحجز مياه نهر سيروان في حوض دربندخان الذي شكّل مع المنطقة المنخفضة غرب حلبجة بحيرة دربندخان التي تُعتبر رافدًا رئيسًا لتنظيم الثروة المائية في العراق.

قبل الحرب كانت حماية السدّ وحراسته هو ومنشآته من مسؤولية آمرية حماية دربندخان التي تحوّلت بعد الحرب إلى قيادة قوات دربندخان، ثم إلى قيادة الفرقة 36 التي تقود عددًا من التشكيلات التي كُلفت بمسك مرتفعات شميران وجبل زمناكو المشرفة على الجهة الشرقية من جانب السدّ، إضافة إلى قوة حماية مباشرة للسدّ ومنشآته على الجانبين.

في ربيع 1986 توغّلت قوات إيرانية نظامية ومجموعات من تشكيلات حرس الخميني وتمكّنت من السيطرة على المرتفعات في جبل زمناكو وشميران، فاستحدثت موقفًا بالغ الخطورة، إذ إن استيلاء العدو على السدّ والتحكم بمنشآته يمكّنانه من إغراق مناطق شاسعة من العراق، ومنها بغداد العاصمة في حال نسفه في مواسم الفيضان وذوبان الثلوج. لذلك سارعت قيادة الفيلق الأول إلى إدارة سلسلة من الهجمات وعمليات إبرار قوات

المغاوير بالسمتيّات على الأهداف مباشرة، لحسم الموقف، واستطاعت دحر العدو وتدمير معظم تشكيلاته، وطاردت ما تبقّى منها عبر الحدود الشرقية.

بعد سقوط حلبجة اجتازت، مرة ثانية، تشكيلات معادية من حرس الخميني مُسندة بقطعات إسناد من القوات النظامية حدودنا الشرقية، وهاجمت قطعاتنا المدافعة في مرتفعات شميران وجبل زمناكو، وتمكَّنت من احتلال معظم العوارض التي طُردت منها في معارك الفيلق الأول في عام 1986.

أصبح الموقف في قاطع الفيلق الأول كما يلي: استقرار الجبهة على محور ماوت شمال شرق السليمانية بعد المعارك الدامية في الأشهر السابقة، التي تكبَّدنا فيها والعدو خسائر كبيرة. وفي قاطع سورداش المحاذي لمدينة السليمانية كانت مغاوير اللواء سلطان هاشم وأفواج الدفاع الوطني تسيطر على مواقع المسلحين الأكراد المنيعة في كهوف قمم جبل بيرة مكرون الشاهقة، واندفعت إلى السيطرة على مقرات قيادة الاتحاد الوطني في مالومة - هالدن - سركلو - بركلو، لتلتقي قوات اللواء إياد خليل زكي قائد الفرقة 33 المتقدمة من اتجاه مضيق سنكسر - دوكان إلى مقرات قيادات المسلحين الأكراد. وفي قاطع حلبجة - خورمال تمكَّن العدو من احتلاله والسيطرة عليه، واحتلت قطعاتنا خطًا دفاعيًا بموازاة وادي زلم، والحافة الغربية لامتداد البحيرة لمنعه من التقدّم غربًا. أما في قاطع الفرقة 36 في دربندخان فإن قوات متفوقة للعدو هاجمت مرتفعات شميران وجبل زمناكو مرة أخرى، واستطاعت احتلال شميران مهدِّدة بذلك السدّ ومنشآته. وفي كهوف وقمم مرتفعات جبل قوبي قره داغ الشاهقة والمشرفة مباشرة على بلدة وسد دربندخان من الغرب كانت تتجمّع مجموعات من المسلحين الأكراد ومفارز من المتسلّلين من المجموعات الخاصّة من حرس الخميني، لتصبح بلدة وسد دربندخان وقطعات الفرقة 33 بين فكي كماشة.

في مقرّ الفيلق المتقدّم في دربندخان التقينا نائب القائد العام وزير الدفاع الفريق عدنان خير الله. فأخبرني بأنه والقائد العام قد اتخذا قرارًا بتفجير السدّ قبل أن يسيطر عليه العدو، وأنه ماضٍ باتخاذ الإجراءات لتنفيذ ذلك. وشرح لنا أن سيطرة العدو على السدّ وتفجيره عند امتلائه بمياه الثلوج سيؤديان إلى غرق بغداد ومدن أخرى ومناطق شاسعة من العراق، فتحلّ صدمة كبيرة بشعبنا وبقدرته على الاستمرار في الدفاع عن العراق.

قلت: «سيدي الوزير، إن السدّ لن يسقط بيد العدو، وإني أتعهّد لك

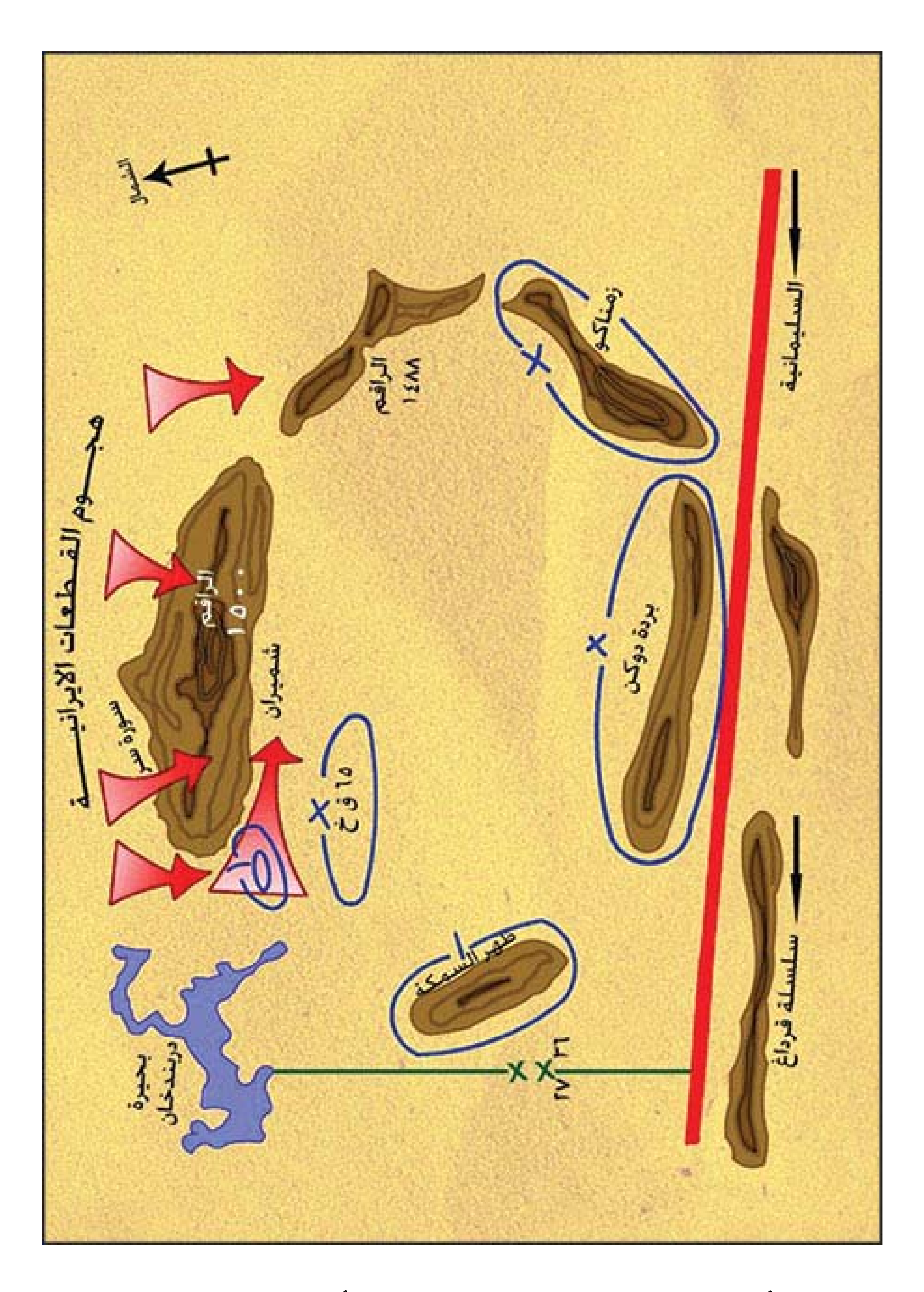
وللرئيس بذلك. موقفنا ليس جيدًا لكنه ليس رديئًا أيضًا، استوعبنا هجوم العدو وأوقفناه في المرتفعات التي استطاع احتلالها، ونوقع به خسائر كبيرة في كل يوم، وتقديرنا أنه قد استنفد قدرته على شن هجمات واسعة أخرى، وتحوّل الموقف الآن إلى معارك استنزاف. نحن متفوقون على العدو في القدرات النارية، الأمر الذي سيزيد خسائره وإنهاكه إلى الحد الذي يُسهّل لنا بعدها اقتلاعه وطرده من المنطقة. احتل العدو الراقمين 1500، و1448 من مرتفعات شميران، ولدينا لواءان يدافعان عن رواقم أقل ارتفاعًا في العارضة نفسها، وذلك يعني أن جزءًا من العارضة لا يزال تحت سيطرتنا. وسنبدّل هذين اللواءين بألويةٍ منتعشة في أقرب وقت، كما شغلنا بقطعات كافية موضعًا دفاعيًّا آخر على عارضة برده دوكن المشرفة على السد والبحيرة. لدينا احتياطات لم نستخدمها حتى الآن. سيدي الوزير، إن الوضع عند هجومهم في ربيع 1986 كان أسوأ، ولم نفكر بتفجير السدّ آنذاك، وبالإمكان لتطمئنوا أكثر أن نرفع أو نحطم إحدى بوابات السدّ لمرور المياه باستمرار والمحافظة على مستوى المياه في البحيرة تحت السيطرة» [224] .

اتصل الوزير مباشرة بالقائد العام، ونقل له الصورة كما عرضتها، واقتراح رفع أو تهديم إحدى بوابات السد، فوافق على الفور.

التفتُّ إلى ضابط استخبارات الفيلق الذي عمل معي عندما كنت قائدًا للفيلق، وكنت أعرف مدى جدارته وصحة تقديراته، وسألته سؤالًا محددًا: «هل يستطيع العدو استئناف تعرّضه بعد الخسائر التي تكبَّدها، ومتى يستطيع ذلك؟». فطلب مهلة ساعة واحدة للتدقيق، جاء بعدها وأخبرني بأن العدو لا يملك القدرة على استئناف التعرض بسبب خسائره، وهو الآن في مرحلة إعادة التنظيم، وبإمكانه أن يتعرض ثانية بعد 48 ساعة. عندها وجهت كلامي إلى قائد الفيلق اللواء الركن كامل ساجت: «عليك إجراء تبديل اللواءين الموجودين في شميران بلواءين منتعشين، ويجب تكاملهما في مواضعهما خلال 48 ساعة».

الشكل (13 - 2)

معركة سد دربندخان



استدعيتُ اللواء سلطان هاشم وطلبت منه أن يشرع في تنفيذ عملية تطهير قره داغ ومنطقة القوبيات (كما تُعرف قمم قوبي قره داغ) من

المسلحين الأكراد والوجود الإيراني في أسرع وقت، لتأمين ظهر الفرقة 36 وقطعاتنا المشتبكة بالعدو الإيراني في دربندخان. وخصصنا له جهدًا ملائمًا من السمتيّات لعمليات إنزال سمتيّ لمغاويره، لمسك القمم الشاهقة في القوبيات. وانطلقت أرتاله من قصبة قره داغ مع أفواج الدفاع الوطني بعدد من الاتجاهات لضمان تفتيش وتطهير المنطقة من الوجود المعادي، وأبرر مغاويره بالسمتيّات على قمم القوبيات لحصر المسلحين الأكراد، وخلال بضعة أيام أنجزت قوات اللواء سلطان تطهير كامل المنطقة من أي وجود تخريبي، وأُطلق على هذه العملية اسم «الأنفال2»، وضمِنّا بذلك مؤخرة قطعات الفرقة 36.

تم لاحقًا تطهير وادي جم ريزان والمناطق المؤدية إلى سد دوكان من المسلحين الأكراد بعملية مشابهة أطلقنا عليها اسم «الأنفال 3» (ولانشغالنا بعمليات التحرير كلفت القيادة العامة لجنة شؤون الشمال بهذا الواجب، وخصصت لها عددًا محدودًا من وحدات الجيش ووحدات من قوى الأمن والشرطة، والأجهزة الحزبية وأفواج الدفاع الوطني لتنفيذ عمليات مشابهة في المناطق التي ينشر فيها المسلحون الأكراد في المناطق الخلفية لقاطع الفيلق، وأبقت على اسم الأنفال في العمليات التي نفّذتها).

طلبني القائد العام فذهبت إلى مقرّ القيادة العامة، وعندما دخلت عليه وجدت اللواء الركن كامل ساجت قائد الفيلق الأول والعميد الركن فرحان محمود عبادة قائد الفرقة 36 جالسين، والوجوم والتوجس ظاهران على وجهيهما. سألني الرئيس: «فريق نزار، العميد فرحان يدّعي أن احتياطات كافية لم تتيسر له في دربندخان لإدارة معركة فرقته بنجاح، واللواء كامل يقول إنه هيّأ الاحتياطات التي طلبها العميد فرحان، وكانت هناك احتياطات إضافية أخرى. فماذا تقول؟». أجبته أن ما قاله قائد الفيلق هو الصحيح. وهنا التفت الرئيس إلى العميد فرحان وزجره مؤنبًا، وقال: «اخرج». وبعد خروجه قال الرئيس: «إنني لم أزجره لأدائه في المعركة، لكن لأنه لم يكن صادقًا». وأحيل في إثرها على التقاعد.

نهضنا للخروج فاستوقفني الرئيس قائلًا: «فريق نزار ابقَ معي». وعندما خرج اللواء كامل استدار الرئيس نحوي، وقال: «فريق نزار أين أصبحتم من خطة تحرير الفاو؟». أجبته: «الخطة جاهزة سيدي الرئيس». قال: «إذًا توكلوا على الله، واعملوا على تنفيذها».

الصورة (13 - 2)

ليلة تحرير الفاو، 16 - 17 نيسان/أبريل 1988



X لا أعتقد أن القائد العام حدد الأمر بهذا الشكل، والأغلب أنه لم يرغب في القيام بالخطة التي اقترحتها.

X الرفيق العقيد بديوي حسن فالح السامرائي من مواليد مكيشيفة قرب سامراء كان عضو المكتب العسكري، وبعد حرب الخليج الثانية طلبت القيادة العليا من المكتب العسكري كتابة ملحوظاتهم على كتاب شوارزكوف قائد الحملة فأرسلها، وطُلب تقرير مرة أخرى فعلّق في إحدى مكالماته

الهاتفية على تكرار طلب التقرير منه تعليقًا جارحًا، وكانت المكالمة مراقبة ومسجلة فقبض عليه، وصدر الحكم بالإعدام، وألقي به في السجن المركزي في أبو غريب بانتظار التنفيذ. وفي أحد الأيام تمكَّن من خطف بندقية الجندي الحارس، وأطلق على نفسه الرصاص فأصيب بأربع طلقات في بطنه فنقلوه إلى المستشفى، وبعد علاجه وشفائه نفِّذ به الإعدام.

X منذ تشكيل الدولة العراقية الحديثة في عام 1921، وحسم عائدية الموصل إلى العراق بقرار عصبة الأمم في عام 1926، كانت أغلبية الكرد العراقيين تدين بولائها للدولة، وكانت العشائر الكردية الكبرى تسارع إلى التطوع لقمع أي عصيان يندلع هنا وهناك على أسس عشائرية. وكانت المطالب القومية تكاد تكون منحسرة عن مراكز المدن وأهمها السليمانية. لم تُرفع شعارات قومية حقيقية للحركة الكردية، إلا بعد عودة قائد الحركة مصطفى البرزاني واختلافه مع عبد الكريم قاسم، فشكل نواة قاد من خلالها الحزب الديمقراطي الكردستاني الذي يكان يرفع المطالب القومية الكردية منذ تأسيسه. ومع ذلك ظلت صفة العصيان والثورة صفة فردية وليست عشائرية أو شعبية (أي كان الالتحاق إلى جانب العصيان والثورة يقوم على أساس فردي وليس على أساس جماعي). وظلت الكتلة الأعظم من الشعب الكردي موالية للسلطة والعدد الكبير من أفواج الدفاع الوطني دليل على ذلك. ساهمت أخطاء السلطة، كلما عينت غير الأكفياء مسؤولين عن منطقة الحكم الذاتي، في تعميق الجراح وتشجيع كثيرين من الكرد على الالتحاق بالثورة، لكن المشاعر الحقيقية للمواطن البسيط كانت بشكل عام مع السلطة عندما كانت قبيلته تواليها.

X البحيرة المقصودة هنا هي بحيرة دوكان التي نشأت بفعل إنشاء سد دربندخان على نهر السيروان (ديالى) فور دخوله الأراضي العراقية من إيران بهدف تنظيم مياه الري أسفل النهر لمحافظة ديالى الغنية بإنتاجها الزراعي المتنوع وللحماية من الفيضان ولتوليد الكهرباء بالوسيلة الهيدروليكية. والسد ومحطات الكهرباء الكهرومائية من المشاريع الاستراتيجية في شمال العراق كما هو سد دوكان على نهر الزاب الصغير وسد صدام على نهر دجلة وسد بخمة على نهر الزاب الكبير الذي كان قيد الإنشاء عشية العدوان الثلاثيني على العراق في عام 1991، الذي نُهبت معداته في ما بعد.

X كتب الكثير من الغث والسمين عن حلبجة وكان أغلبه لأغراض دعائية ولشيطنة العراق ونظام الحكم فيه، لكن الحقيقة كانت على الدوام واضحة في كتابات رصينة عالجت الموضوع بالاستناد إلى وثائق علمية. أصدر

مركز الدراسات الدولية والاستراتيجية (CSIS) في واشنطن كتابًا للخبير الاستراتيجي أنتوني كوردسمان بعنوان «انتشار أسلحة الدمار الشامل في محور الشر»، وأصدرت مشاة البحرية الأميركية كتابًا مفصلًا عن الدروس المستفادة من الحرب العراقية - الإيرانية بعنوان «دروس مستفادة» تبيِّن فيه بوضوح مسؤولية إيران عن الحادث، كما أن اللجنة الأميركية المتخصصة التي زارت حلبجة في عام 1988 بعد انتهاء الحرب العراقية - الإيرانية توصلت إلى النتيجة نفسها. انظر: عبد الوهاب عبد الستار القصاب، احتلال ما بعد الاستقلال: التداعيات الاستراتيجية للحرب الأمريكية على العراق (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2007)، ص 102 و103.

X كانت وجهة نظر لجنة تشكلت من الاستخبارات والفيلق وممثل رئاسة الأركان وممثل عن الري أن السدّ لو فُجِّر ستتحول الأنقاض وحافات الجبل المنهارة إلى سد ركامي يحجز مياه الثلوج والسيول خلفه، ويمكن العدو إحداث فجوات مهمة فيه لإغراق محافظة ديالى وبغداد، متى شاء عند سيطرته عليه. لذلك استحصلتُ موافقة القائد العام على فتح إحدى البوابات لتقليل منسوب مياه السد. ورفع هذا الإجراء مناسيب المياه أسفل السدّ على طول مجرى نهر ديالى في أسفل النهر.

الفصل الرابع عشر: الفاو أولى معارك التحرير «رمضان مبارك» 17/4/1988

أغفلت القيادة العامة الأهمية الاستراتيجية لشبه جزيرة الفاو، ولم تخصص قوات كافية للدفاع عنها، كما لم تفطن الاستخبارات العسكرية لاتجاه التعرض الرئيس المتوقّع للعدو في القاطع الجنوبي، إذ كانت تُصِر على أنه سيستهدف الفيلق السادس باتجاه القرنة مع هجمات ثانوية على الفيلق الثالث باتجاه البصرة جنوبًا، وستطال الفيلق الرابع باتجاه العمارة من الشمال، الأمر الذي دفع الأركان العامة إلى تعزيز هذه المواضع وحشد قوات الضربة المدرعة والآلية خلفها.

أحدث هجوم العدو على الفاو، الذي أطلق عليه اسم عمليات «والفجر 8»، مفاجأة للقيادة العامة والاستخبارات والأركان العامة، واستهدف العدو منه تحقيق الأهداف التالية:

- الاستيلاء على شبه جزيرة الفاو والاحتفاظ بها، وعزل العراق عن الخليج العربي.
- تشكيل قاعدة رئيسة له لشن هجماته شمالًا للاستيلاء على مدينة البصرة، وعلى حقول نفط المنطقة الجنوبية.
- عزل العراق وقطع مواصلاته مع الكويت، وإجبار الأخيرة على إيقاف تعاونها مع العراق بعد أن أصبحت قواته على حدودها.
- تغذية ومساعدة التحركات والعمليات المناهضة للسلطة من جانب عملائه في الجنوب والأهوار.

في ليلة ممطرة من شباط/فبراير 1986 عبرت المئات من الزوارق المحملة بقوات العدو في موجات متتابعة شطّ العرب، واكتسحت الدفاعات الهزيلة في منطقة الفاو، واحتلت بساتين النخيل غرب النهر، واندفعت صباح اليوم التالي غربًا لاحتلال شبه الجزيرة، والسيطرة على ميناء أم قصر الواقع على خور عبد الله.

في اجتماع للقيادة العامة في الليلة الثالثة من الغزو كانت الاستخبارات لا تزال تؤكد أن ما يحدث في الفاو هو هجوم ثانوي للمخادعة، وأن الهجوم الرئيس سيكون على الفيلق السادس في القرنة!!

- «إن ما يحدث في الفاو هو الهجوم الرئيس». قال الرئيس القائد العام. «ادفعوا فورًا كافة القوات لإيقافهم، وطردهم من الفاو».

لم تستطع قواتنا طردهم خارج شبه الجزيرة، لكنها أوقفتهم في المملحة وقنوات الإغمار بهجمات ومعارك استمرت أشهرًا تكبَّد فيها الطرفان عشرات الآلاف من القتلى والجرحى.

في 24/3/1988 عُقد اجتماع في القيادة العامة بحضور القائد العام ونائبه وزير الدفاع ورئيس هيئة التصنيع العسكري المشرف على الحرس الجمهوري حسين كامل ورئيس الأركان ومعاونه للعمليات ومدير الاستخبارات العسكرية العامة. عرض رئيس الأركان خطة التحرير، ومدى تكامل واستعداد القطعات التي ستنفّذها في التدريب والتجهيز، كما تطرق إلى العمليات التي خططنا لتنفيذها من عمليات للإنزال البرمائي وإبرار سمتيّ، وعمليات خاصّة أخرى عند الحاجة إليها، وإلى نيّتنا تشكيل خلية تنسيق مشتركة بإشراف الأركان العامة من القوات الجوية والبحرية وطيران الجيش والمدفعية والصواريخ، للتخطيط لعمل مشترك لكافة الأسلحة المشتركة في عملية التعرّض في الفاو. وأوضح رئيس هيئة التصنيع العسكري حجم المعدات والتجهيزات التي أُنجز تصنيعها أو تأمينها لعملية التحرير، مؤكدًا أن ما تبقّى سيجري تأمينه قبل التنفيذ.

أما مدير الاستخبارات فبيَّن العمل الدائب لخداع العدو الذي يجري تصعيده مع اقتراب موعد التنفيذ، مثل المعلومات المضللة التي تبثها أجهزته المختلفة لتُلتقط ويستلمها العدو، وحركة أرتال وقطعات بين الجبهات لإرباكه. وذكر لنا أنه اتفق مع رئيس الأركان على تنفيذ عملية أو أكثر في جبهات أخرى لمخادعة العدو قبيل تنفيذ عملية التحرير. واختتم القائد العام الاجتماع بتأكيده جملة من الأمور منها:

- عدم تبليغ أو إشعار أي جهة غير المجموعة التي تعمل على إنجاز الخطة وقائدي الحرس الجمهوري والفيلق السابع اللذين ستنفّذ قطعاتهما العملية.

- يُبلغ قادة الفرق وآمرو التشكيلات المُنفِّذة بواجباتهم في توقيتات تُحدد قبل التنفيذ، بعدها تُمنع اتصالاتهم وتُراقب.

- يؤجل العمل بخلية التنسيق المشترك بين الأركان العامة وقيادات الأسلحة الأخرى إلى الأسبوع الأخير للتنفيذ.

- تابعوا إكمال متطلباتكم من معدات وتجهيزات من النواحي كافة، وتأكدوا من جاهزيتها قبل التنفيذ بفترة ملائمة.

تتابعت اجتماعات القيادة العامة برئاسة القائد العام، وأخرى برئاسة نائب القائد العام، واجتماعات أخرى برئاسة رئيس أركان الجيش لمتابعة التحضيرات

وإنجاز تفاصيل الخطة.

في 13/4/1988 عُقد اجتماع برئاسة القائد العام، وحضور نائبه ورئيس أركان الجيش ومعاونه للعمليات ومدير الاستخبارات العسكرية والمشرف على الحرس الجمهوري حسين كامل وقائدي الفيلقين: الحرس الجمهوري الفريق إياد فتيح الراوي، والسابع الفريق ماهر عبد الرشيد، وقادة القوات الجوية والبحرية وطيران الجيش. وفي هذا الاجتماع عُرضت الخطة وشرحها رئيس أركان الجيش بالتفصيل من الاتجاهات إلى الصفحات والتوقيتات والأهداف لكل فيلق، فكان ساحل خور عبد الله حتى الطريق الاستراتيجية خارج جبهة فيلق الحرس الجمهوري، وهدفه النهائي ناحية الخليج ورأس البيشة. وتكون الفاو أسبقية أولى في حالة تأخر أو تعثر الفيلق السابع، والطريق الساحلية داخل حتى الضفة الغربية من شطّ العرب في جبهة الفيلق السابع، وتكون الفاو هدفه النهائي، وفي حالة تأخر الحرس أو تعثُّره تبقى الفاو هدفه بأسبقية أولى، وناحية الخليج ورأس البيشة بأسبقية ثانية.

أكدتُ مرة أخرى مرونة تغيير أهداف أي من الفيلقين في حالة تأخر أحدهما، وفي كل الأحوال تكون الفاو أسبقية أولى لمن يصل أولًا. وأوضحتُ أننا قد حسبنا لكل صفحة 4 ساعات، وساعتين لإعادة التنظيم، وساعتين للاحتياط، ففي اليوم الأول سنكمل الصفحتين قبل حلول الظلام، وفي اليوم التالي سنستأنف تعرّضنا لاحتلال الفاو وبقية شبه الجزيرة. وبيّنتُ أين ومتى سننفّذ عمليات الإنزال البحري والسمتيّ في حالة الحاجة إلى تسهيل تقدّمهما باتجاه أهدافهما، وما هي واجبات القوات الجوية والبحرية وطيران الجيش. وأبلغتهم بيوم الهجوم وساعة الشروع، كما حدَّدت لهم توقيتات تبليغ قادة فرقهم وآمري تشكيلاتهم بموعد الهجوم. أخيرًا سألت إن كان لأي منهم أي استفسار؟ واختتم الرئيس الاجتماع بالقول: «إذًا اتكلوا على الله».

في 15/4/1988 اجتمع رئيس أركان الجيش بآمري الصنوف المعنية، وتم تبليغهم بيوم الهجوم وساعة الشروع.

طبيعة المنطقة

تقع شبه جزيرة الفاو جنوب شرق مدينة البصرة، تبعد عنها نحو 90 كلم، وتُشكّل الامتداد البحري الذي يُطل منه العراق على الخليج العربي. يحدّها من الشرق شطّ العرب ومدينة عبدان في الجانب الإيراني، ومن الغرب خور عبد الله وجزيرتا وربة وبوبيان وميناء أم قصر العراقي.

أرض الفاو بشكلٍ عامٍّ رخوة وسبخة ذات مستوى مياهٍ جوفيةٍ عالٍ، تصبح عند تساقط الأمطار أشبه بالمستنقعات، وتغمر المياه الضحلة أجزاء كبيرة منها، عدا المناطق المحاذية لشطّ العرب حيث تمتد بساتين النخيل على شريط طويل، وبعرض يتراوح بين كيلومتر واحد وكيلومترين. تُسقى هذه البساتين من أنهار صغيرة متعامدة على شطّ العرب تستمد منه مياهها بظاهرتي المد والجزر، وتدعى محليًّا بالأحوازات.

تتوسط شبه الجزيرة منطقة المملحة التي أنشئت من سداد وسواتر ترابية متقاطعة لحجز المياه وإنتاج الملح، بعد تبخر مياهها التي تستمدها من البحر، وتُدَوّر عليها المياه بواسطة قناتين عرفتا باسم قناتي التغذية.

يخترق شبه الجزيرة عددٌ من الطرق المعبدة والصالحة للتنقل في المواسم كلها، تربطها الطرق بكلٍّ من البصرة وميناء أم قصر. أقدمها هي طريق البصرة - الفاو التي تمرّ عبر بساتين النخيل، ثم الطريق الجديدة التي تحاذي وتوازي بساتين النخيل من الغرب، ويشق وسط شبه الجزيرة الطريق الاستراتيجية التي تمتد بمحاذاة خطّ أنابيب النفط، وأخيرًا الطريق الساحلية المطلة على خور عبد الله التي تربط الفاو بميناء أم قصر ثم البصرة، وتلتقي كلها شرق مدينة الفاو في ما يدعى بعقدة الطرق.

لقيادة القوات البحرية قاعدتان لإطلاق صواريخ سطح - سطح: القاعدة الأولى الرقم 71 شرق المملحة على ساحل خور عبد الله، والقاعدة الثانية الرقم 81 تقع إلى الشرق من القاعدة الأولى.

مناخ الفاو حار جدًا، ورطوبته عالية معظم أيام السنة، وشتاؤه قصير وأمطاره قليلة. والفاو منفذ العراق الوحيد إلى البحر، ومنطقة وصله للعمل في مياه الخليج العربي، وتمتد منه أنابيب نقل النفط إلى الجزر الاصطناعية التي أقامها العراق في الخليج العربي لاستقبال حاملات نقل النفط العملاقة في خور العمية (الميناء العميق)، وفي خور عبد الله حيث أنشئ ميناء البكر العميق.

الاستحضارات

في اجتماع القيادة العامة (3/10/1987) عرض رئيس أركان الجيش فكرة العمليات، وتصميمه الأولي لمعركة تحرير الفاو، والقيادات التي ستشارك فيها، والموعد التقريبي لتنفيذها، وبعد أن أقرها القائد العام، وأصدر توجيهه باعتماد خطط مخادعة على مستوى الدولة والقوات المسلحة، عملت رئاسة الأركان ومعاونيّة العمليات ومديرية الاستخبارات العسكرية وهيئة التصنيع

العسكري على إعداد خطط الاستحضارات، وفق جداول وتوقيتات محددة شملت:

- تفرّغ قيادات فرق وتشكيلات الحرس الجمهوري، والفرقة المدرعة السادسة، وعدد من تشكيلات الفيلق السابع للتدريب، وإكمال نواقصها من الأشخاص والمعدات، وإجراء تدريبات وحداتها وتشكيلاتها لزيادة قدراتها وكفايتها القتالية، والعمل وفق السياقات الصحيحة لكل صفحات المعركة مع التركيز على صفحتي التقدم والهجوم.

- إنشاء مسارح عمليات مطابقة لتلك التي ستقاتل عليها، وإجراء التدريبات والممارسات عليها، والعمل بأحوال المعركة المتوقّعة نفسها. وأنشأ الحرس الجمهوري مسرح عمليات مشابهًا لمواضع العدو في جبهة الفاو في منطقة تقع جنوب مدينة العمارة وعلى بعد نحو 100 كلم من البصرة. وتدرّبت تشكيلات الفيلق السابع في مناطق مشابهًا لجبهته، بعيدًا إلى الشمال من مواضعه المواجهة للعدو. وتدرّبت ألوية المشاة البحرية شمال ميناء أم قصر، وألوية القوات الخاصّة للحرس الجمهوري على عمليات الإنزال السمتيّ في مناطق خلفية قرب القواعد الجوية. وسُميّت العوارض والأهداف في المسارح التي أنشأوها باسم الجبهة الشمالية، فمثلًا الفاو أصبحت حلبجة، والمملحة تسمى دربندخان، وشطّ العرب نهر السيروان، وهكذا تحسبًا لترداد الأسماء الحقيقية، ولإعطاء الانطباع للوحدات والتشكيلات المشتركة في التدريب أن العمل المقبل سيكون في الجبهة الشمالية.

- أُجريت الاستطلاعات لقادة فرق وآمري تشكيلات الحرس الجمهوري في جبهة الفاو تحت غطاء إمكانية تكليفهم بالهجمات المقابلة في حالة خرق العدو مواضعنا الدفاعية في الفاو.

- قمتُ مع قائد الفيلق السابع باستطلاع تفصيلي لقاطع فيلقه حتى حجابات الوحدات الأمامية لتكوين صورة واضحة لخطوط المواجهة الأمامية لقطعاتنا والعدو.

- أجرينا وهيئات الركن العديد من الدراسات للمناطق الصالحة لعمليات الإنزال البحري التي ننوي القيام بها، ومدى تأثير ظاهرة المد والجزر في عملية الإنزال وتوقيتاتها، وطبيعة الساحل الطيني وتحديدها حركة قوات الإنزال. هبطنا بمروحية سمتيّة في جزيرة وربة الكويتية لاستطلاع شاطئها المشابه لمناطق الإنزال المحتملة، ومنها شاهدنا بوضوح سواحلنا التي يحتلها العدو الإيراني، واحتجّت الحكومة الكويتية على هذه الحادثة فادّعينا أنها حدثت عن طريق خطأ غير متعمدٍ.

- حضرنا عددًا من التمارين التي تجريها التشكيلات والفرق المكلفة بالتنفيذ، ومعظمها بالعتاد الحقيقي وفي أحوال مشابهة للمعركة الحقيقية، وأبدينا الملحوظات على أدائها.
- أجرت مديرية المدفعية دراسات تأثير قذائف المدفعية في المستنقعات والأراضي الرخوة، وعن الأساليب الملائمة لمعالجة السواتر الترابية التي يدافع بها العدو، وعن معالجة الملاجئ الكونكريتية فيها. وكانت تعليمات المديرية لكتائب التشكيلات بأن تعتمد رمي الانفلاقات الجوية للحصول على أكبر تأثير، ومعالجة السواتر الدفاعية المعادية بالرمي الخطي لكتائبها، وبتدمير أبراج المراقبة المعادية بالانفلاقات الجوية أيضًا، والملاجئ الكونكريتية برمي الدبابات المباشر وبمدافع مقاومة الدبابات.
- قامت مديرية الهندسة العسكرية والتصنيع العسكري بدراسة تسهيل عمل المشاة والآليات في الأراضي الرخوة، فأوصت باعتماد الحصائر (الحصران) ودعامات الفوم والوسائد لأحذية الجنود، والعجلات القلابة لنقل الحصى والرمل (السبيس Base Sub) لمساعدة حركة العجلات، والجسور الخفيفة لعبور الأحوازات والمناطق المغمورة، وقامت هيئة التصنيع العسكري بتصنيعها وتأمينها.
- أجرت دائرة العمليات دراسة تخص تحشد القطعات المكلفة بالصفحات اللاحقة من الهجوم، لتصل إلى ساحة المعركة في الوقت الملائم لتنفيذ واجبها، وبحساب الوقت والمسافة. فقررتُ حشد القطعات المكلفة بالصفحة الثانية خلف قاطع الفيلق السابع بمسافة كافية، وقطعات الصفحة الثالثة في قاطع الفيلق الثالث كي لا يكشف العدو نياتنا في الهجوم.
-أُجريت دراسات في دائرة العمليات بمشاركة الهندسة العسكرية والقوة الجوية وطيران الجيش عن إمكانية تدمير جسر الأنابيب الذي يربط ضفتي شطّ العرب، الذي يستخدمه العدو لتنقل وإدامة قواته في شبه الجزيرة. أنشئ هذا الجسر من كتل تتألف من 10 - 12 أنبوبًا كونكريتيًا بعرض الجسر، وتمتد الأنابيب من قعر النهر إلى سطحه محسوبًا ارتفاع المياه عند المد، وجرى لَحم كل كتلة بالكامل، وكذلك لَحم الكتل بعضها مع بعض، ودرست أفكار عديدة لتدميره، منها أن يضع رجال الضفادع البشرية متفجرات أسفل الجسر، أو أن يفجره رجال الهندسة العسكرية بواسطة الطوربيدات، وتقرر أخيرًا أن يُدمر بالقوة الجوية بضربات متعاقبة بنوع خاص من القنابل.
- اقترحت رئاسة الأركان تشكيل خلية تنسيق الإسناد الناري من ممثلي

دائرة العمليات - القوة الجوية - طيران الجيش - المدفعية - وآمرية الصواريخ أرض - أرض، لتنسيق نوع وحجم وكثافة الإسناد الناري المطلوب، وتحقيق أقصى تأثير وفق المديات والقدرات. ووافق القائد العام على استحداثها وعُمل بها لاحقًا في المعارك كلها.

- قامت هيئة التصنيع العسكري بجهد جبار لتهيئة وتأمين وصناعة ما احتاجته القطعات في هذه المعركة والمعارك اللاحقة من عشرات الآلاف من المعدات والتجهيزات المختلفة.

المخادعة

كانت مخادعة العدو أحد أهم الأمور التي نبّه إليها القائد العام لتأمين مباغة العدو وأطراف أخرى تريد استمرار الحرب واستنزاف قدرات الطرفين إلى أقصى الحدود، وما نذكره أدناه هو بعض ما عملناه وقمنا به لتأمينها:

- قامت مديرية الاستخبارات العسكرية العامة بتسريب معلومات حرصت على أن يسترقها العدو ويحصل عليها بوسائل متعددة، أوهمته من خلالها بأن القيادة السياسية والعسكرية تخصص كل جهدها وقدراتها لمواجهة الخطر المُحدق في المنطقة الشمالية بعد سقوط حلبجة، واستمرار المعارك العنيفة في دربندخان، وبأن مخاوفها تزداد من احتمال استهداف العدو كركوك وحقول النفط فيها، في حالة استمرار هجماته. ولإعطاء الصدقية لهذه التسريبات حركت العديد من أرتال القطعات المنتعشة إلى الشمال، وأعُيدت أرتال القطعات المتضرِّرة إلى الجنوب، وكان تسريب المعلومات وحركة الأرتال يتصاعدان باقتراب موعد معركة الفاو.

- قامت استخبارات الفيلق السابع في الجنوب بتسريب برقيات ورسائل تشير إلى أن الفيلق يشاهد تحركات غير طبيعية لقوات العدو في جبهة الفاو، وأن قواته غير كافية في حالة هجوم العدو، ويطلب تعزيزات لتقوية دفاعاته كما يرغب في قطعات منتعشة لتبديل بعض قطعاته المُتعبة، وكان الغرض من ذلك تبرير إدخال قوات إضافية مخصّصة للتعرض المُقبل في حالة شاهدها العدو.

- استكمالًا لخطط المخادعة، وقبيل تنفيذ معركة التحرير ببضعة أيام، أوعزنا إلى قادة الفيلق الثاني في القاطع الأوسط بالقيام بعملية تعرضيّة في قاطعه لاستعادة عارضة سانوبا، وطلبنا منهم إعداد خطط نارية مكثفة لإسناد هجومهم، وأن يقدموا لنا حاجاتهم من الجهد الجوي والسمتيّ لإسناد عملياتهم. وشرع الفيلق بهجومه لاستعادة العارضة بإسناد ناري مؤثّر،

وضربات جوية لاحتياطات العدو ومدفعيته، وإسناد سمتيّ لقطعاته الصائلة. وتمكّنت قواته من احتلال معظم العارضة في اشتباكات غاية في العنف، إلّا أن تصلّب مقاومة العدو بعد وصول بعض تعزيزاته في الساعات الأخيرة من النهار، وتحسبًا لتكبّد خسائر لا مبرر لها، وخلافًا لرغبة قائد الفيلق الذي كان يريد الاستمرار في هجومه أمرنا بإيقاف الهجوم، وسحب القطعات الصائلة إلى قواعدها، وأبلغناه أن يتهيّأ لشنّ هجومٍ آخر في وقت سنحدِّده في ما بعد.

- كان الرئيس في لقاءاتنا في القيادة العامة التي نناقش فيها بعض الأمور الدقيقة والحساسة من مفاصل الخطة يتعمد أن يكتب استفساره أو ملاحظاته على ورقة ويطلب الإجابة كتابة أيضًا، ومن دون كلام، إذ كان يخشى أن يُسترق السمع إلينا، كما كنا نعقد (رئيس الأركان وبعض ضباط العمليات والقادة) لقاءاتنا لمناقشة الخطط والتحضيرات في بيوت آمنة خارج وزارة الدفاع ورئاسة الأركان، وكنا نحضرها بملابس مدنية لا تسترعي النظر، وبعضنا حضرها بالملابس العربية التقليدية، وكنا نقوم على خدمة أنفسنا لضمان السرية والكتمان.

- في اليوم الأخير قبل التنفيذ انتقل معظم أعضاء القيادة العامة، وفي مقدّمهم النائب العام وزير الدفاع ورئيس أركان الجيش ومعاونه للعمليات ومدير الاستخبارات العسكرية وضباط ركن آخرون إلى المقرّ المتقدّم للفيلق الأول في السليمانية، وحضّرنا إيجاز قائد الفيلق الموقف في غرفة العمليات على خريطة كبيرة عُلقت في صدر القاعة. وكان الجميع يتابع الإيجاز باهتمام بالغ، وملامح الجدية والوجوم على وجوههم. وصوّر اللقاءَ فريقُ تصوير مديرية التوجيه السياسي، وأُعيد فورًا مع الفيلم بطائرة سمتيّة إلى بغداد، وعُرض في نشرات الأخبار من تلفزيون بغداد الذي يُشاهد بوضوح في مناطق عديدة من إيران. عاد بعدها أعضاء القيادة العامة إلى كركوك بالسمتيّات، ومنها بالطائرات إلى بغداد. وفي مساء اليوم نفسه التقيتُ القائد العام أنا ومعاون العمليات ومدير الاستخبارات، على ضفاف بحيرة أحد قصور الرئاسة في الرضوانيّة حيث أكدتُ له أن كل شيء جاهز وفق ما خُطّط له، وسننطلق ليلًا إلى مقرّ القيادة العامة المتقدّم في منطقة الأثل قرب الزبير جنوب البصرة.

- في الساعة 21.00 أقلعنا على متن طائرتي فالكون 50 من مطار المثنّى في بغداد باتجاه كركوك، وحالما حلّقت الطائرة ذهبت إلى قائدها وأخبرته بتغيير الاتجاه إلى مطار الشعيبة في البصرة، وأمرته ألّا يُفصح عن هوية

الراكبين حتى وصولنا. وبعد وصولنا استدعيت آمر القاعدة، وأخبرته أننا هنا لإجراء فحص فوري ومفاجئ لقطعات وقيادة الفيلق السابع، وطلبت منه منتهى الكتمان، وأن يُنسب ضابط استخبارات القاعدة ليكون في بدالة القاعدة لنضمن عدم تسرب خبر وصولنا، وأن يُهيّئ لنا عجلات لنقلنا إلى مقرنا المتقدّم. التفت مدير الاستخبارات في أثناء ذلك ليسأل مرافقي المتدثر بثيابه الشتوية: «أين نحن الآن؟»، فأجابه متعجبًا: «يُفترض أننا في القاعدة الجوية في كركوك، لكن هذه ليست كركوك».

- في الساعة 23.00 فُتح مقرّ القيادة العامة للقوات المسلحة في مقرها المتقدّم حيث بدأت عجلة معركة تحرير الفاو بالدوران.

العدو

سبقت هجوم العدو على شبه جزيرة الفاو في عام 1986 استعدادات كثيرة، حيث اشترى وصنّع عددًا كبيرًا من الزوارق ومعدات التجسير والجسور العائمة، وأجرى تدريبات مكثفة على عمليات الإنزال البرمائي في بحر قزوين المحاذي للاتحاد السوفياتي، وشكّل وحدات كوماندوز برمائية وبدأ باستعداداته هذه منذ منتصف عام 1985.

خاطب الخميني «حرس ثورته» قائلًا: «كانت الفاو مركزًا للإساءة إلى الإسلام، فاذهبوا وخذوا الفاو، ودافعوا عنها لأن الدفاع عنها هو دفاع عن الشعب العراقي وعن الإسلام». وبعد احتلالها صرّح علي خامنئي: «إذا ما تمكّن صدام حسين من استرجاعها فإنني سأذهب إلى بغداد لتهنئته». وقال محسن رفيق دوست رئيس الحرس الثوري في 24/3/1986: «إننا لم نذهب إلى الفاو كي ننسحب منها، ذهبنا كي نبقى، وسنبقى حتى يتم تحرير العراق».

أما كمال خرازي الناطق باسم مجلس الدفاع الأعلى الإيراني فصرّح في 5/4/1986 بعد احتلال الفاو: «إن إيران تحضِّر لهجوم جديد لشق العراق قسمين، وإننا نعمل على إقامة جمهورية شيعية في جنوب العراق قبل هجومنا على بغداد». وأكد رفسنجاني رئيس مجلس الشورى في 14/4/1986: «شيّدنا مواضع حصينة في شبه جزيرة الفاو وسنصمد ونبقى فيها».

ركّز العدو بعد أن احتل الفاو على جعلها ساحة حرب بالغة التعقيد، فقام بحفر العديد من القنوات بأطوال 5 -10 كلم، وعرض 25 - 50م لإعاقة تقدّم الدروع وحركة العجلات، وغمر مناطق واسعة بالمياه الضحلة على شكل مسطحات مائية بطول 400م وعرض 200م، وأنشأ ثلاثة سواتر

دفاعية محصنة بمواضع وملاجئ كونكريتية، وشيّد مصاطب لرمي الدبابات، وزرع العديد من حقول الألغام على المقتربات وعلى سداد المملحة، كما قام بإنشاء أكثر من 70 برجًا للمراقبة والرصد، وربط ضفتي شطّ العرب بثلاثة جسور: اثنان منها متحركان، إذ يُركنان إلى ضفة الشطّ كيلا يرصدهما طيراننا، وتُربط الضفتان ليلًا، إضافة إلى جسر الأنابيب الذي ورد ذكره قبلًا.

أنشأ الإيرانيون وشيدوا شبكة واسعة من أبنية محصنة لمقر القيادة وهيئات الركن، ولضباط الصنوف والخدمات الساندة، ولمواقع الاتصالات والمخابرة، ومستشفى ميدانيًّا وغرفًا ومستودعات أخرى على شكل غرف، وقاعات تربطها ممرات، وكلها مبنيّة من ألواح كونكريتية جاهزة من الإسمنت وأنابيب الحديد، مستطيلة الشكل وأبعادها 3 أمتار ارتفاعًا، و4 أمتار طولًا، تُركّب وتربط بعضها ببعض لتصبح غرفًا وقاعاتٍ وممرات، وفق التخطيط الذي يرغبون فيه، وطُمرت هذه الشبكة الواسعة من الأبنية عميقًا تحت الأرض، وكلها مجهّزة بالكهرباء والتبريد، وكُسيَت بأمتار عدة من الحجارة والتربة، ومُوِّهت كي يتعذّر كشفها أو رصدها من جانب طائراتنا.

كان عدد قوات العدو التي تشغل المواضع الدفاعية في شبه جزيرة الفاو يُقدر بفرقتين من حرس الخميني مع عدد من تشكيلات المغاوير والوحدات النظامية، مُسندةً بوحداتٍ من الدبابات والمدفعية ووحدات الهندسة. وتوجد فرقتان أخريان من حرس الخميني في الجهة الشرقية من شطّ العرب بصفة قوات احتياط وتعزيز عند ظهور مؤشرات تهديد أو تحركات غير طبيعية. وكانت حاجاتهم الإدارية والخدمية متيسّرة في شبه الجزيرة.

خلفية تاريخية عن التخطيط لتحرير الفاو

- بعد خمسة أسابيع من هجمات مستمرة لاستعادة الفاو بعد سقوطها بيد العدو تكبَّدنا فيها خسائر فادحة، قررت القيادة العامة إيقاف الهجمات والتريث لاختيار وقت وظرف ملائمين لتحريرها.

- أجرت القيادة العامة للقوات المسلحة اجتماعات لتدارس وضع خطة التحرير، وتأمين متطلّباتها منذ 16/3/1986، وحددت الأسس التالية للعمل بها:

أ - كفاية في التخطيط والتدريب.

ب - إدارة كفيّة ومقتدرة للمعركة المقبلة.

ج - تطوير قدرات التشكيلات والوحدات التدريبية ورفع قدراتها القتالية.

د - تأمين المباغة.

وفي اجتماعها في 14/5/1986 وُضعت الملامح الأساسية لخطة التحرير ووّجه القائد العام بما يلي:

أ - استعادة الفاو الهدف الذي نضعه أمام أعيننا.

ب - ينبغي ألّا تتأخر استعادتها عن أيلول/سبتمبر أو تشرين الأول/أكتوبر 1986 في أسوأ الأحوال.

ج - توضع الخطة الآن، وتُبحث تفاصيلها لاحقًا مع قائدي الفيلق السابع والبحرية.

د - قيام التشكيلات التي ستُخصص للعملية بإجراء التدريب والممارسات على مناطق تشبه منطقة المعركة في الفاو.

في اجتماع 16/6/1986 تم تشكيل فريق عمل برئاسة الفريق الأول الركن عبد الجبار شنشل وزير الدولة للشؤون العسكرية، وجمَعَ ممثلين عن قيادة الفيلق السابع، وقيادة القوة البحرية، وقيادة القوة الجوية، ومديريات الاستخبارات والتخطيط والحركات لوضع خطة تحرير الفاو، وأطلق عليها اسم «المشروع 22». وفي اجتماع 21/6/1986 نوقشت خطة «المشروع 22» وتمت الموافقة عليها، لكن تعرّض العدو على منطقة مهران في القاطع الأوسط في تموز/يوليو 1986 واستخدام بعض التشكيلات المخصّصة لـ «المشروع 22» أثّرا بشكل مباشر في إمكانية تنفيذه، لذلك ارتُئي إيقاف العمل بالمشروع كما خُطط له. وانطلقنا في تخطيط جديد بعد تسنّمنا رئاسة الأركان العامة على وفق الأسس التي أوردناها سابقًا وبإشراف مباشر من القائد العام ونائبه، مع عدم إغفال أي عناصر إيجابية قد تكون تحققت في تخطيط «المشروع 22».

تخصيص القوات لمعركة التحرير

في خطتنا لمعركة الفاو في 17/4/1988 خصصنا القيادات والتشكيلات التالية: الحرس الجمهوري وفرقتان مدرعتان وفرقتا مشاة وفرقة قوات خاصّة.

أ - إجمالي ألوية الحرس الجمهوري المُنفِّذة

- 20 لواء درع - مشاة آلي - مشاة - قوات خاصّة - مغاوير.

- 36 كتيبة مدفعية وصواريخ.

خمس كتائب هندسة عسكرية.

ب - الفيلق السابع

فرقة مدرعة وفرقة آلية وفرقتا مشاة.

إجمالي الألوية المنفِّذة:

- 16 لواء درع - مشاة آلية - مشاة - مغاوير.
- 24 كتيبة مدفعية وصواريخ.
أربع كتائب هندسة عسكرية.
ج. القوات البحرية
لواء زوارق صواريخ وزوارق خفيفة.
لواء المشاة البحري 440.
سمتيّات الطيران البحري سوبر فريلون الخاصّة بالبحرية.
د. مديرية الاستخبارات العسكرية العامة
وحدتا واجبات خاصّة للعمل خلف خطوط العدو.
ه. القوات الجوية
- سبعة أسراب طائرات هجوم أرضي.
- سربا طائرات ميراج متعددا الأغراض.
- سرب طائرات دفاع جوي.
- رفا طائرات استطلاع.
- رف طائرات ميراج حرب إلكترونية.
و. طيران الجيش
150 سمتيّة للإسناد والإنزال والاستطلاع والقيادة والسيطرة.

الخطة

كان توجيه القائد العام لرئيس أركان الجيش في اجتماع القيادة العامة «حاولوا أن تتوصلوا إلى خطط غير تقليدية لمعركتكم المقبلة في الفاو».

التزمنا توجيه السيد الرئيس القائد العام في التخطيط للمعركة الحاسمة المقبلة. فرضت طوبغرافيا المنطقة وطبيعة ساحة المعركة خيارًا وحيدًا هو خرق جبهة العدو والاندفاع للسيطرة على الفاو وتحرير شبه الجزيرة.

بعد استطلاعات ودراسات قدرات العدو وإمكاناته، وحساب ردات أفعاله المتوقّعة وأساليب إدارته المعركة، جرى بناء خطة تحقق الهدف على الرغم من أن خرق دفاعاته هو الخيار، إلا أن تصميمها اعتمد على مباغتته في وقت وبأسلوب لا يتوقعهما، ليعجز عن القيام بردة فعل، ويبقى تحت ضغط مستمر يربكه ويُضعف إرادته ويعجّل في انهياره وهزيمته. وذلك من خلال:

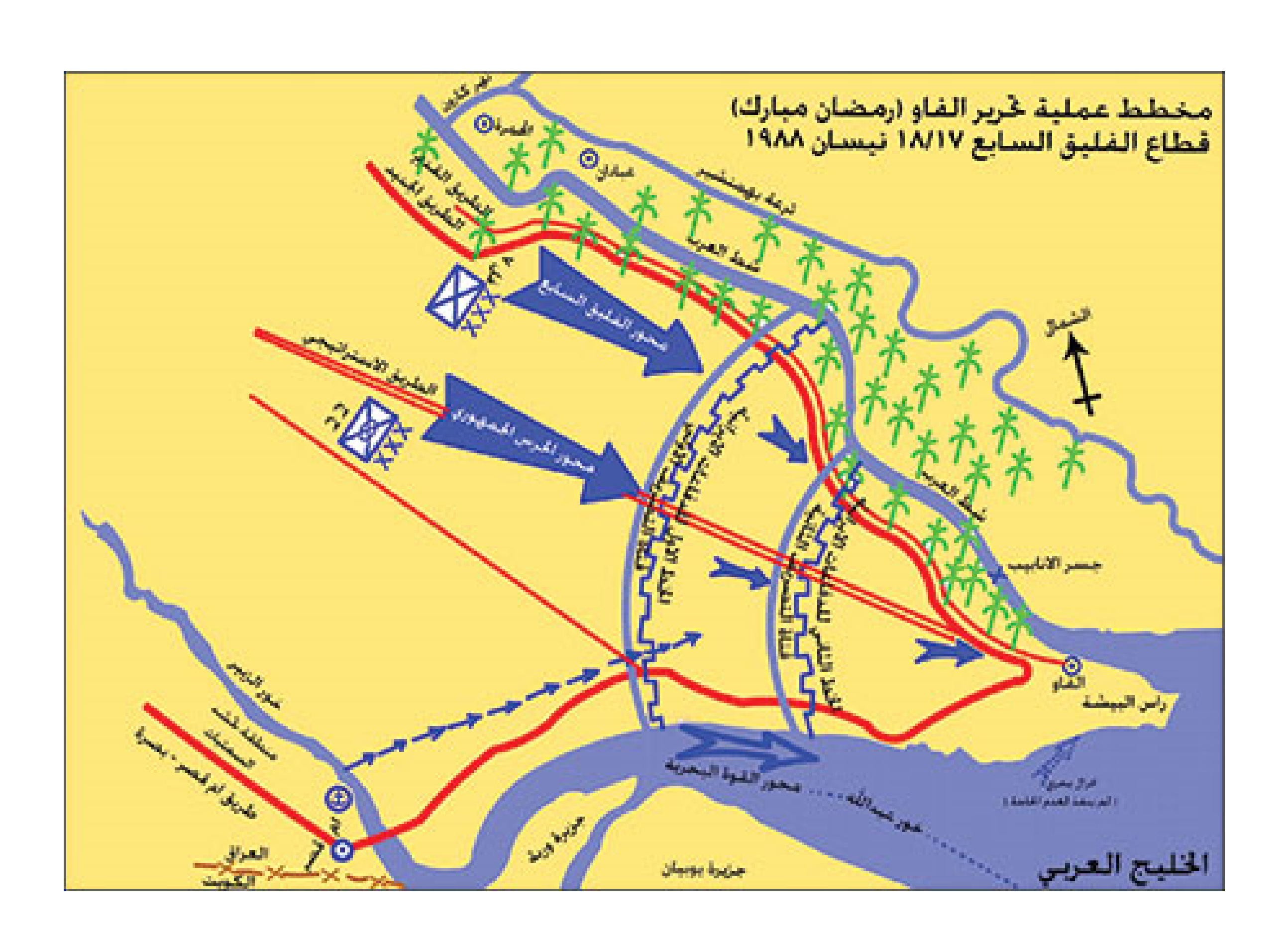
- مباغتته بيوم ووقت الهجوم بخطط مخادعة بتوقيتات محسوبة تشارك فيها الدولة وقواتها المسلحة، وهدف الخطط ليس مخادعته وحده وإنما

القوى الكبرى معه خصوصًا أميركا بتوجيه القائد العام.

- تنفيذ خطط نارية موحدة للقوات البرية، والجوية والبحرية وطيران الجيش بحجم وثقل وكثافة لم يسبق للعدو مواجهتها، وضرب مفاصله كلها منذ بداية المعركة حتى نهايتها.
- تهيئة القوات القادرة على تحقيق صدمة ضخمة في هجومها وسرعة في تقدّمها، الأمر الذي يُعجز العدو عن المقاومة والقتال.
- إرباك العدو وتشويشه بعمليات إنزال سمتيّة وبحرية خلف خطوطه الأمامية، وقطع الاتصال بينه وبين احتياطاته وطرق مواصلاته.
- تسلّل المجموعات الخاصّة لمديرية الاستخبارات العسكرية عبر شطّ العرب لنقل المعلومات، وتوجيه ضربات الصواريخ والقوات الجوية إلى مناطق الجسور واحتياطات العمق المعادية.
- المرونة في اتجاهات وأهداف القيادات المُنفِّذة وفق نجاحات أي منها أو إخفاقاته.
- التدخّل المباشر للقيادة العامة ورئاسة أركان الجيش في سير المعركة للتعديل أو التطوير أو الطلب بتداخل صفحاتها كلما تطلّب الأمر ذلك.

الشكل (14 - 1)

مخطط عملية تحرير الفاو



المخادعة

لأشهرٍ عديدةٍ سبقت معركة التحرير حتى ليلة الهجوم، عملت أجهزة الدولة المتخصصة ومنها وزارتا الخارجية والإعلام وجهاز الاستخبارات العامة على نشر معلومات وتسريبها إلى الجهات التي تتعامل معها من دون أن تدري هذه أنها موجّهة أو تعرف أنها جزء من عمليات وخطط المخادعة للتغطية على نياتنا في جبهة الفاو.

قبل بضعة أيام من موعد معركة الفاو طلب الملحق العسكري الأميركي مقابلة مدير الاستخبارات العسكرية العامة، وعلى الرغم من أنه يُكلّف عادةً أحد ضباط ركنه بهذا اللقاء إلّا أنه وافق على مقابلته شخصيًّا هذه المرة. تعرّض الملحق العسكري الأميركي في أثناء حديثه إلى أنه وزملاءه ملحقي الدول الأخرى لاحظوا تنقلات كثيرة لأرتال عسكرية من بغداد والجبهة الشمالية وإليهما.

- «هذا صحيح»، أجابه المدير، «هناك معارك عنيفة وحاسمة تدور الآن في قاطع السليمانية من الجبهة الشمالية. تعلمون أن العدو قد احتلّ حلبجة، ويكثِّف حاليًا هجماته على دربندخان. هناك خسائر ونقوم بإرسال قوات منتعشة من الجنوب والمركز، ونسحب القطعات المتضرِّرة للتعويض وإعادة التنظيم، ولدينا شكوك في أن العدو قد يستهدف الوصول إلى كركوك وحقول النفط فيها». وأردف قائلًا وهو يودِّعه: «يبدو أن لا شيء يخفى عنكم أنتم مجموعة الملحقين؟».

الخطة النارية

تعلمت من تجاربي السابقة في قيادة فرقة وفيلق خلال المعارك أن نجاحها هو في تنسيق وتكامل حركة ومناورة القطعات مع النيران التي تسندها لتحقيق أكبر تأثير في العدو، هذا من ناحية، أما من ناحية أخرى فمن المهم تأمين حماية وأمن قطعاتنا في الدفاع والهجوم، وفي صفحات المعركة كلها. لذلك حرصتُ دائمًا على أن يكون الآمر المدفعي على اطلاع كامل ومعرفة تامة بتفاصيل خطة العمليات، كي يستطيع بناء خطته النارية لخدمتها وتحقيق أهدافها. وقد نجري تغييرات وتبديلات في الخطة عندما لا تمكّنه موارده من تلبية متطلباتها مثل إجراء تغييرات في حركة القطعات ومناوراتها وتوقيتاتها، كي تتوافق مع نوعية وحجم النيران التي يمكن تأمينها، والخروج بخطة موحدة نضمن بها نجاح المعركة.

تلك كانت الغاية من إيجاد خلية تنسيق الإسناد الناري في معركة تحرير الفاو، ثم عملنا بها في عمليات التحرير اللاحقة كلها. وتشكلت هذه الخلية من ممثلي معاونيّة العمليات في رئاسة الأركان والقوات الجوية والبحرية وطيران الجيش ومديرية المدفعية وآمرية الصواريخ أرض - أرض. وكان يحدد فيها في ضوء خطة العمليات دور كلٍّ من هذه القوات والأسلحة بعد مناقشة القدرات والمديات وثقل النيران المطلوبة لمعالجة مختلف الأهداف. وصُممت الخطة النارية لتولّد صدمة هائلة للعدو لا يفيق منها، ولمتابعته من دون إعطائه فرصة ردة فعل حتى انتهاء المعركة، وحشدنا أكثر من 60 كتيبة مدفعية وصواريخ لهذا الغرض.

قبل 45 دقيقة من شروع قطعاتنا بالهجوم انفتحت نيران أكثر من 1000 مدفع وقاذفة صواريخ على مواضع العدو الأمامية وأبراج مراقبته السبعين، حيث خُصص مدفع لكل برج بانفلاقات جوية [225] لقتل العدو، أو إجباره على الاختفاء في ملاجئه. وفي الـ 15 دقيقة الأخيرة من الخطة النارية تقدمت أكثر من 150 دبابة لتعتلي مصاطب الرمي التي سبق إعدادها في مواضعنا الأمامية، ولتدمر بنيرانها المباشرة مَنَعات العدو وملاجئه المحصنة التي اختبأ فيها.

في هذا الوقت كانت المدفعية الثقيلة البعيدة المدى وصواريخ اللونا، وأس أس 40، وسمتيّاتنا تضرب مواضع المدفعية المعادية واحتياطات العدو ومراكز قياداته والمعابر والجسور في شبه الجزيرة وشرق شطّ العرب. تأخرت القوة الجوية حتى الساعة 8.00 لسوء الحالة الجوية، وشاركت بعدها بفاعلية في تدمير الجسور والمعابر والمقرات والاحتياطات في العمق.

بعد إنجاز خطة النيران التمهيدية وشروع قواتنا بالصولة، تحركت معها كتل النيران لإسنادها في تقدمها وتدمير مقاومات العدو أينما ظهرت، ومن دون توقف حتى إتمام المهمة.

تهيئة القوات

في معركة كبيرة العيار مثل معركة تحرير الفاو التي لم نستطع إنجازها طوال السنتين الماضيتين من الصراع، كانت عملية تهيئة القوات القادرة من أولويات مهماتنا. كانت مواردنا القتالية للمعركة تتألف من الحرس الجمهوري باعتباره قوة مناورة، والفيلق السابع المكلّف بالدفاع في جبهة الفاو.

- الحرس الجمهوري

أو قوة المهمات الخاصّة كما كان يُطلق عليها. قوة ضاربة من خمس

فرق ضخمة بتشكيلاتها وأسلحتها وعدد ملاكاتها من الأفراد، وهي أكبر من فرق الجيش. اختير لها أفضل القادة والآمرين والضباط الموجودين في فرق الجيش ومؤسساته. جنودها من المتطوعين من عشائر المنطقة الغربية والشمالية الغربية من العراق، المعروفين بغيرتهم وتمسّكهم بقيمهم العربية وإخلاصهم وبسالتهم في القتال. كان تسليحهم وتجهيزهم أقوى وأحدث من تسليح وتجهيز فرق الجيش، أما ما كان ينقصهم فالمعدات والوسائط التي تساعدهم في اجتياز الموانع والمعرقلات التي أحدثها العدو في جبهة الفاو، من إغمار ومسطحات مائية لأراضٍ هي رخوة وسبخة أصلًا، وقامت هيئة التصنيع العسكري والهندسة العسكرية بتأمين كل ما احتاجوا إليه. وبعد أن كُلفت بالواجب أجرت فرق الحرس تدريبات شاقة وممارسات عديدة على مسرح عمليات مشابه لجبهة الفاو في منطقة تقع جنوب مدينة العمارة في قاطع الفيلق الرابع.

- الفيلق السابع

المكلف بالدفاع عن جبهة الفاو، شاركت فرقه وتشكيلاته في معارك الفاو السابقة دفاعًا وهجومًا طوال سنتين تكبَّد فيها خسائر كبيرة، وبعد أن كُلف بالواجب عُزز بتشكيلات منتعشة ومُدربة، وسُحبت القديمة لإعادة التدريب وإكمال نواقصها في الأفراد والتجهيزات قبل إشراكها في المعركة المقبلة، لما لها من خبرة واطلاع على العدو وعاداته وأساليبه.

من الطرافة أن نذكر أن قائد الفيلق الفريق ماهر عبد الرشيد أبدى استعداده وقطعاته وجاهزيته للقتال على الفور عندما استدعاه القائد العام. وعندما زرناه قدّم لنا قائمة طويلة من طلبات بعضها كان مبالغًا فيه من التشكيلات إلى التجهيزات ووحدات الإسناد، وفوجئ كثيرًا عندما وافقنا عليها، وأضفنا إليها المزيد.

أُرسلت تشكيلاته المكلفة بالواجب للتدريب في مناطق مشابهة لواجبه في الجبهة إلى الشمال، خارج رصد العدو. وجُهِّز الفيلق وتشكيلاته بالمعدات التي تساعده في القتال في بساتين النخيل، واستلم عشرات الجسور الخفيفة التي صنّعتها هيئة التصنيع العسكري لعبور الأنهر الصغيرة والأحوازات.

- البحرية

كُلفت البحرية بحماية الجناح الأيمن للقطعات المتقدّمة من أي تدخل معادٍ من جهة البحر، وتقديم الإسناد الناري لها، ومشاغلة مؤخرة القطعات المعادية، كما يجب أن تكون جاهزة لتنفيذ إنزال باللواء البحري 440 خلف العدو عند الحاجة إلى إرباكه وتهديده وقطع خطوط مواصلاته.

- العمليات الخاصّة

كما وضعنا لواء قوات خاصّة ليُجري تمارين إنزال عدّة قرب قاعدة الشعيبة جنوب البصرة، بالإنذار لتنفيذ عملية إنزال بالسمتيّات خلف العدو عند أي موقف يتطلبه سير المعركة في الجبهة. كما وُضعت مجموعتا عمليات خاصّة إحداهما لتنفيذ واجباتٍ خلف العدو، والأخرى من الضفادع البشرية لمسك ومراقبة أماكن محددة في الضفة البعيدة من شطّ العرب.

المرونة في الاتجاهات والأهداف وتدخّل المستوى القيادي الأعلى

الفاو هي الأرض الحيوية في شبه الجزيرة، والاستيلاء عليها يُنهي المعركة عمليًا، وما تبقى يكون تحصيل حاصل، وكانت تقع في اتجاه تقدّم الفيلق السابع، وبالتالي كان من الطبيعي أن تكون هدفه النهائي.

في العرض الذي قدمتُه لتفاصيل الخطة بحضور القائد العام ونائبه وزير الدفاع وقائدي فيلقي الحرس الجمهوري والفيلق السابع في الاجتماع الأخير للقيادة العامة قبل عملية تحرير الفاو في 13/4/1988 أوضحت من دون أي التباس وكررتها لهما أكثر من مرة، أن الفاو ستكون دائمًا الأسبقية الأولى وتكون الهدف الأول للحرس الجمهوري في حالة تأخر الفيلق السابع أو تعثره.

كما بيّنا للقائدين أننا سنكون معهما في المعركة خطوة بخطوة، لا من أجل أن نُراقِب فحسب بل لنتدخل ونعدِّل ونُغيّر، كلما تطلب الأمر ذلك لضمان نجاح المعركة.

سير المعركة

مقر القيادة العامة المتقدّم في منطقة الأثل (البرجسية) قرب مدينة الزبير الساعة 23.00 (الحادية عشرة ليلًا) في 16/4/1988.

بعد وصولنا مباشرة أرسلنا ضابطي ارتباط من مقرنا إلى قائدي فيلق الحرس الجمهوري والفيلق السابع يحملان رسائل مغلقة ومختومة لتُسلّم لهما باليد. لم نجرِ أي اتصال تلفوني أو لاسلكي لضمان الكتمان، وجاء في تلك الرسائل ما يلي:

- فتح مقرنا بالمقر المتقدّم للقيادة العامة في الساعة 23.00 في 16/4/1988.

- تنفَّذ عملية تحرير الفاو فجر يوم غد 17/4/1988، وفق التوقيتات التالية:

- تنفَّذ الخطة النارية في الساعة 5.45 في 17/4/1988.
- تشرع قواتكم بالهجوم في الساعة 6.30 في 17/4/1988.

التوقيع
رئيس أركان الجيش
المقرّ المتقدّم للقيادة العامة

كان القائدان قد تبلغا بيوم التنفيذ وساعة الشروع قبل ثلاثة أيام، في 13/4/1988 في اجتماع القيادة العامة بحضور القائد العام ونائبه، ولم يكن في أمرنا هذا أي تغيير.

أرسلنا ضابط ارتباط آخر برسالة مغلقة ومختومة إلى قائد القوات البحرية بالمضمون نفسه. عاد ضباط الارتباط وأكدوا بأنهم سلّموا الرسائل المختومة إلى القادة. وبعد أقل من نصف ساعة، وصل ضابط الركن الأول للفيلق السابع طالبًا مقابلتي لأمر مهم، فقال: «إن قائد الفيلق الفريق ماهر عبد الرشيد يُخبرنا بأن فيلقه لم يكمل قياسات أعتدة المدفعية لمعركة الغد، ويطلب تأجيل العملية 24 ساعة». قلت: «تم تبليغ قائدك قبل ثلاثة أيام بموعد وتوقيتات عملية التحرير. ألم يكن ذلك كافيًا لإكمال قياسات أعتدة المدفعية؟». قال: «أنقل لك ما بلغني به قائد الفيلق سيدي». سألته: «ما هي قياسات الأعتدة التي لم يجرِ إكمالها حتى الآن؟». أجاب: «قياسات الصفحة الثانية، والثالثة سيدي». سألته: «هل يعني هذا أن قياسات أعتدة الخطة النارية التمهيدية، والصفحة الأولى موجودة؟». أجاب: «نعم سيدي».

قلت: «اذهب وبلِّغ قائدك أن ينفِّذ حرفيًا ما أمرنا به. وسنقوم بإكمال قياسات أعتدة الصفحة الثانية، والثالثة قبل شروعكم بها إن لم تستطيعوا ذلك».

كان هذا نهج وأسلوب الفريق ماهر عبد الرشيد في تعامله مع آمريه (المافوق)

كونه من أقارب الرئيس ووالد زوجة قصي ابن الرئيس الأصغر. لم تكن تعنيني كثيرًا قرابته ونسابته إلى القائد العام، فعليه تنفيذ الأوامر حرفيًا، فمعركة تحرير الفاو لم تكن لعبة يلهو بها.

المعركة
سكون يسود جبهة الفاو فجر يوم 17/4/1988.

اهتز سكون الجبهة بدوي هائلٍ لانفجار مئات آلاف القنابل التي أطلقتها فوهات أكثر من 1000 مدفع، والمئات من قاذفات الصواريخ، بقصف لم يسبق له مثيل في تمام الساعة 5.45 على سواتر العدو الدفاعية المواجهة لقواتنا في جبهة الفاو. واستمر القصف لمدة خمس وأربعين دقيقة من دون توقف. وفي الخمس عشرة دقيقة الأخيرة منه اندفعت مئات الدبابات لتعتلي مصاطبَ الرمي التي أُعِدَت لها في مواضعنا الأمامية لتدمر بتصويب مباشر المئات من منَعات وملاجئ العدو الكونكريتية التي احتمى بها من لم يُقتل بانفجارات آلاف قنابل الانفلاقات الجوية (فوق الرؤوس) بالقصف المدفعي.

في الساعة 6.30 اندفع عشرات الألوف من الجنود والضباط، وهم يحملون الحصائر (الحصران) المعدنية ليجتازوا مستنقعات المملحة للاشتباك بالعدو في جبهة الحرس الجمهوري، ومعهم الجسور الخفيفة المحمولة على الأكتاف لعبور الأنهر والأحوازات إلى مواضع العدو في بساتين النخيل في جبهة الفيلق السابع.

مع القصف المدفعي أقلعت من ميناء أم قصر المئات من الزوارق المسلحة وزوارق الصواريخ بحماية سمتيّات السوبرفريلون البحرية المسلحة بصواريخ إكزوسيت (AM-39) جو - سطح لضرب السفن إلى خور عبد الله، لحماية الجناح الأيمن لتقدُّم قوات الحرس الجمهوري ولضرب مؤخرات العدو. وفي الساعة 8.00 هاجمت الموجة الأولى من طائرات القوات الجوية قواعد العدو في الضفة الشرقية لشط العرب، والجسور التي تربط ضفتي الشط، بعد تحسُّن الحالة الجوية وانقشاع الغبار عن المنطقة. وغطّت سماء الجبهة سمتيّات طيران الجيش لتتابع تقدّم وطلبات القطعات منها، ولتنقل تقاريرها إلى خليّة الإسناد الناري في مقرنا.

كانت الأخبار الطيبة عن تقدّم قطعاتنا الحثيث في جبهة فيلق الحرس الجمهوري تتوالى، وضباط ركن مقرنا منشغلون بتأشير مواقف الحركات بدبابيسهم الزرق على خريطة الموقف الكبيرة المعلقة في صدر القاعة، أما في قاطع الفيلق السابع فتباطأ تقدّمهم للمقاومة الشديدة التي واجهتها جماعات نصب الجسور على أنهر وأحوازات بساتين نخيل شطّ العرب.

انتقلتُ مع معاون العمليات ومدير الاستخبارات وعدد من ضباط الركن إلى مقرّ قيادة قوات الحرس الجمهوري المتقدم. استقبلنا قائده الفريق الركن إياد فتيح الراوي والحبور يغطي وجهه، وقال: «الموقف أكثر من جيد سيدي، ورجالنا يتقدمون تعقبهم دبابات فلق الألغام، ودبابات التجسير مع رجال الهندسة، ومئات العجلات القلابة لرصف الطرق بالحصى والسبيس في

المملحة والمسطحات المائية، وأتوقع أن أتمكَّن من دفع ألوية الدبابات خلال ساعة أو ساعتين».

قلت: «هذا جيد بل جيد جدًا، وأتوقع أن تنجزوا الصفحة الأولى قبل الوقت المحدد لها». قال: «نعم، بإذن الله». وسألته: «وماذا عن تضحياتنا؟». قال: «محدودة حتى الآن». قلت: «توقع احتمال تقديم وقت الصفحة الثانية. سنذهب الآن إلى مقرّ الفيلق السابع. هل تطلب مني شيئًا؟». قال: «كلا، شكرًا سيدي».

في المقرّ المتقدم للفيلق السابع استقبلنا الفريق ماهر عبد الرشيد متجهم الوجه، فقطعاته كانت تواجه مقاومة شديدة في عبور الأنهر والأحوازات، ويتعرض جناحها الشرقي لرمي مؤثر من الضفة الشرقية لشط العرب، وكان متذمرًا من قيادة الفرقة السابعة التي تقود تشكيلات الجناح الأيسر من جبهته. وقال: «أريد مقرّ الفرقة الثانية التي كانت مسؤولة عن هذا القاطع قبل أن نسحبها للتدريب وإعادة التنظيم». كنت قد استبقتُ الأمر ووضعتُ مقرّ الفرقة الثانية بالإنذار، فقلت له: «حسنًا، سأرسل لك مقرّ الفرقة الثانية، وسأنقلها بالسمتيّات. لدينا المجموعات الخاصّة في الجانب الشرقي من النهر، اتصلوا بخلية الإسناد الناري، واحصلوا على المعلومات لمواقع العدو التي تؤثّر فيكم من شرق النهر، وعالجوها بجهد مدفعي مناسب، وسأذهب الآن إلى المقرّ المتقدم للفرقة المدرعة السادسة».

تحركنا في عجلتي واز (عجلة ميدانية روسية تشبه عجلة الجيب واليوتلتي الأميركيتين اللتين يستخدمهما آمرو الوحدات) كي لا نسترعي الأنظار، وتوجهنا إلى المقرّ المتقدم للفرقة السادسة الكائن خلف محور ألويته الهاجمة. أوقف دليلنا العجلتين في منطقة قريبة، وأمر سائقيها أن يتفرقا كي لا يُرصدا، ونزلنا راجلين إلى ملجأ مموّه. استقبلنا العميد الركن نوفل إسماعيل الناصري قائد الفرقة. قلت: «الله يساعدك عميد نوفل. أخبرني عن الموقف؟». أجاب: «إن اللواءين المهاجمين قد توقفا لعنف المقاومة، وتكبَّدا خسائر». قلت: «اتصل بهما الآن لنعرف إن كان هناك أي تطور؟».

أمر ضابط ركنه الجالس على منضدة عليها أجهزة الهاتف الميدانية في الجانب الآخر من الملجأ، لذلك كنت أسمع صوت ضابط ركنه وهو يتكلم مع الجانب المقابل له على الجهاز، كان يقول: «ماذا؟ أتقول أن اللواء قد أبيد؟ وماذا عن اللواء الآخر؟ هل أُبيد أيضًا؟». ثم التفت إلينا، وقال مخاطبًا قائده: «إن اللواءين قد أُبيدا سيدي». امتقع وجه العميد نوفل وكساه الشحوب. ناديت ضابط الركن «تعال هنا». جاء مسرعًا، وأدى التحية.

قلت له: «ما اسمك؟»، فأجاب: «العقيد الركن محمد علي ضابط الركن الأول سيدي». فزجرته قائلًا: «هل هكذا علموك نقل المواقف؟». قال: «سيدي، أردتُ نقل الموقف بسرعة إلى القائد». قلت له: «قف هناك»، والتفتُّ إلى الفريق معاون العمليات وقلت له: «اتصل بآمري اللواءين وافهم تفاصيل موقفيهما».

بدأ الفريق حسين رشيد يتكلم معهما بهدوء قائلًا: «إني الفريق حسين رشيد، وأريد أن أسألكم عن العدو؟ أين هو؟ وما عدده؟ وكيف يؤثِّر فيكم؟». وبعد أن استمع إليهما قال: «أين هي وحداتكما الأمامية الآن، ما هو موقفها؟ ما حجم الخسائر التي تكبَّدتها؟». واستمع مرة أخرى ثم قال: «ما هي إجراءاتكما؟ وما المطلوب منا لمساعدتكما على استئناف تقدمكما؟»، وبعد أن انتهى أخبرنا بأن الأفواج متوقفة حاليًا، وأن العدو خلف أحد الأحوازات الكبيرة، ومتخفٍ في الأدغال وأشجار النخيل. لديهم خسائر وسيستأنفون التقدم تحت غطاء نيران هاوناتهم وكتائب المدفعية المخصصة لإسنادهم المباشر، نيران مدفعية الفرقة التي طلبوا إسنادها. وتم لهم ذلك على الفور، وأضفنا كتائب أخرى من مدفعية الفيلق، وأرسلنا لهم السمتيّات.

انتحيت بالعميد نوفل جانبًا وقلت له: «في مثل هذا الموقف عليك شخصيًّا الاتصال بمرؤوسيك لمعرفة الموقف بدقة ووضع الحلول، ويجب أن تتبعوا السياقات في إصدار واستلام المواقف، فالسرعة لا تعني إغفالها، وأخيرًا من هذا العقيد محمد علي، وماذا تعرف عنه؟». أشرتُ إلى مدير الاستخبارات فجاء فقلت له بحضور قائد الفرقة: «العقيد محمد علي أعتقد أن وراءه شيئًا ما، سنأخذه معنا لتحقق عناصركم معه [226] . وأنت يا نوفل أحضر بديلًا منه من مقرك الرئيس حالًا».

اتصلتُ بمقرنا لمعرفة الموقف في جبهة الحرس، فأخبروني بأنهم مستمرون في تقدمهم، وعلى وشك إكمال الصفحة الأولى. واندفعت ألويتهم المدرعة على الطرق التي مهّدتها هندستهم. أخبرت العميد نوفل بذلك وأمرته أن يستغل نجاح وتقدّم الحرس ودروعه على جناحه الأيمن، وأن يشرع الآن في دفع دباباته ومُشاته الآلية إلى الأمام، وهذا ما سيعجل في انهيار العدو أمام ألوية مشاته المتوقفة، ثم تركناه وهو يصدر أوامره لألويته المدرعة ومشاته الآلية بالتقدم.

عدنا إلى مقرّ الفيلق السابع المتقدم، والتقينا ثانية الفريق ماهر الذي قال: «ألوية الفرقة السابعة لا تزال متوقفة عن التقدم، وأصدرتُ الأوامر بدفع الفرقة الاحتياط لشن الهجوم من خلال ألويتها». قلت: «هل تحركتْ؟

أوقف ذلك على الفور». قال: «لا لم نتحرك بعد، لكن لماذا؟». قلت: «يا فريق ماهر الفرقة السادسة قد تحسن موقفها، وشرعت ألويتها المدرعة بالتقدم مستفيدة من النجاح الذي أحرزه الحرس على جناحها الأيمن. أنت تعرف بذلك أليس كذلك؟». قال: «نعم». قلت: «فلماذا إذًا لا تعزز نجاح الفرقة السادسة، وتطوّره؟ ادفع تشكيلات الاحتياط خلفها، وأصدِر الأوامر بذلك فورًا». نادى أحد ضباط ركنه وأملى عليه أوامره، وأرسله على عجل لتبليغ فرقة الاحتياط.

عدنا إلى المقرّ المتقدم لقيادة الحرس الجمهوري، وكانت الساعة نحو الحادية عشرة صباحًا، وكان الحرس قد أنجز الصفحة الأولى، واجتازت قواته منطقة المملحة، وسيطرت على منطقة المشروع 71، عدا أحد ألويته الذي تأخر في احتلال هدفه حيث كان المانع المائي الذي يجتازه عميقًا وواسعًا، وكانت تواجهه بعض المقاومة. فأوعز قائد الفرقة المعني للواء المجاور الذي كان قد أكمل هدفه بالالتفاف حول المقاومة المعادية، فتم ذلك، ودُمِّرت المقاومة المعادية بالكامل، وشرعت قوات الحرس الجمهوري في إعادة التنظيم على الهدف تمهيدًا للشروع في الصفحة الثانية.

أصدر القائد العام بيان القيادة العامة الذي يُخبر فيه الشعب العراقي أن قواتنا شرعت بتعرّضها في جبهة الفاو، وكانت مفاجأة لشعبنا وللأمة التي طال انتظارها انتزاع الفاو من أيدي المحتلين. وكان أول المتفاجئين نائب الرئيس عزت الدوري والقيادة العليا للحزب، بل قادة الجيش الذين لم يشاركوا في المعركة.

في الساعة 13.00 شرعت قطعات الصفحة الثانية للحرس الجمهوري في الهجوم لاحتلال أهدافها، تحت غطاء نيران خطة نارية مكثّفة. وكانت قواتنا الجوية تضرب في العمق الإيراني لساحة العمليات، عبر شطّ العرب والجسور والمعابر، من دون توقف منذ صباح اليوم لمنع العدو من تعزيز قواته في شبه جزيرة الفاو.

في الساعة 14.00 تمكّنت قطعات الفيلق السابع من إنجاز أهداف الصفحة الأولى، حيث عبرت قناة الإغمار الأولى، وشرعت في إعادة تنظيم صفوفها لاستئناف التقدم واحتلال أهداف الصفحة الثانية. انتقلنا مرة أخرى إلى مقرّ الفيلق السابع المتقدم، واستقبلنا الفريق ماهر هذه المرة بوجهٍ يشع بالفرح والبهجة، وصافح بحرارة جميع من كانوا معي. قلت: «عمل جيد فريق ماهر (كنت أريد رفع معنوياته لينفِّذ بقية أهدافه باندفاع) لم أتفاجأ بتأخركم بسبب بساتين النخيل والأحوازات. هل وصلك مقرّ الفرقة

الثانية؟ (كنت أعلم بوصولها)». قال: «نعم». قلت: «جيد إذًا، أمورك جيدة الآن. توكل على الله، وأريد أن أسمع أخبارًا طيبة منك».

عدنا إلى مقرّ الحرس الجمهوري المتقدم في الساعة 16.00، وكان القائد العام ونائبه موجودَين في المقرّ. أدّينا التحية، ودعانا إلى الجلوس فأوجزت له زيارتنا إلى مقرّ الفيلق السابع، وكان تقدّم قوات الحرس للصفحة الثانية يجري بقوة واندفاع، تجاه مقاومة معادية ضعيفة نسبيًّا، وكان من المتوقع أن تُنجز معظم أهدافها خلال الساعة أو الساعتين المقبلتين. قال الرئيس: «لننتقل إلى الغرفة الثانية لنقرر إجراءاتنا للمرحلة التالية».

قال القائد العام: «حقّقت قطعاتنا، والحرس بالذات، أكثر مما هو مخطط لها حتى الآن، ومقاومة العدو بدأت تخف وتضعف، وأرى من المناسب أن نستغل هذا الموقف، ونندفع لاحتلال الفاو هذه الليلة قبل أن يُعزِّز العدو بقطعات إضافية من الضفّة الأخرى. ويرى الفريق عدنان أن نقوم بإنزال لواء قوات خاصّة بين الفاو وجسر الأنابيب لحجز العدو وتدميره، وعدم السماح له بالانسحاب».

«سيدي الرئيس، قلت، أتوقع أن تسيطر قوات الحرس على عقدة الطرق المؤدية إلى الفاو قبل غروب هذا اليوم، وأن يُكمل الفيلق السابع صفحته الثانية باحتلال قناة الإغمار الثانية هذه الليلة، وهذا يعني أن الفاو قد أصبحت تحت سيطرتنا من الناحية العملية، وأن لا مجال للعدو باستمرار المقاومة والدفاع عنها. لن يدفع تعزيزات أخرى كي تُباد في معركة هو يعرف أن لا جدوى منها. إن قطعات الحرس، سيدي الرئيس، لم تدرَّب على قتال المدن ليلًا، وقد يؤدي ذلك إلى إرباك وخسائر لا مبرر لها. كما أرى أنه لا داعي لإنزال لواء القوات الخاصّة بين الفاو وجسر الأنابيب الآن؛ هو موجود وجاهز مع السمتيّات في أم قصر، لكن كما ترى الرياح لا تزال نشطة، وإنزاله قد يسبب خسائر في السمتيّات بسبب إثارة الغبار وانعدام الرؤية وتأثير العدو من الجانب الآخر من شطّ العرب. أخيرًا، أعتقد أنه من الأفضل ترك العدو يتسلل عائدًا إلى الضفة الأخرى عبر الجسور المُهشمة أو سباحة من أن نحاصره ونجبره على القتال».

قال: «أمامنا الآن وجهتا نظر، ولكل منها مبرراتها، وأرى أننا يجب أن نتوصل إلى حلّ للقرار على المسلك الذي نتبعه».

قلت: «إذا سمحت لي سيدي الرئيس؛ بعد أن نسيطر على عقدة الطرق المؤدية إلى الفاو، ويُكمل الفيلق السابع صفحته الثانية، ندفع مجموعات استطلاع قتالية من الحرس للتسلل إلى مدينة الفاو لمسك الأطراف والبيوت

الخارجية منها، وتتقدّم بتروٍ وحذر شديدين، فإن كانت هناك مقاومة فاعلة تتوقف وتشاغلها، كي لا تترك وقتًا للقوة المعادية للراحة وإعادة التنظيم. ثم نهاجمها غدًا بعد قصف مدفعي بمدفعية قوات الحرس الجمهوري، وإن لم تكن هناك مقاومة أو كانت ضعيفة تستمر المجموعات في تقدمها، وتكمل احتلال المدينة».

التفت القائد العام إلى الوزير، وقال: «ما رأيك فريق عدنان بما اقترحه رئيس الأركان؟». ابتسم الوزير وقال: «الرأي رأيك سيدي الرئيس، وما اقترحه رئيس الأركان أراه مناسبًا». قال الرئيس: «إذًا فلنتكل على الله، وأصدروا الأوامر بذلك».

في الساعة 19.00 تمكّن الحرس الجمهوري من احتلال عقدة الطرق المؤدية إلى مدينة الفاو، وفي الساعة 21.30 بدأت مجموعات استطلاع قتالية صغيرة بالتقرب بحذر شديد إلى أطراف مدينة الفاو.

في الساعة 22.30 تمكّنت الفرقة السادسة في قاطع الفيلق السابع من عبور قناة الإغمار الثانية، وشرعت في ترصين مواضعها في الضفة الشرقية من القناة، وبذلك يكون الفيلق السابع قد أنجز الصفحة الثانية. فأصدرتُ أمرًا إلى الفيلق السابع بالتوقف وترصين مواضعه، وأن تُغير ناصية بعض قواته لتطهير بعض المقاومات المتبقية باتجاه الضفة الغربية لشط العرب، وأن على قوات الحرس الجمهوري التواجد في عقدة الطرق المؤدية إلى الفاو، وبعضها في أطراف المدينة، وأن الفاو ستكون هدف الحرس الذي سيهاجمها غدًا، إن لم تتمكّن طلائعه من احتلالها هذه الليلة.

في الساعة 2.00 اتصل بي قائد فيلق الحرس الفريق إياد فتيح الراوي، وقال: «سيدي اتصل قبل قليل الفريق ماهر عبد الرشيد وأخبرني أنه سيقوم بقصف مدينة الفاو لأنها هدفه النهائي في خطة معركة الفاو، فأخبرته أن القيادة أصدرت أمرًا بقيام قوات الحرس باحتلال الفاو، وأن قطعاتنا في عقدة الطرق، وجنودنا في أطراف المدينة وفي بعض البيوت في مخارجها، وطلب مني أن أسحبهم، لأنه سينفّذ قصفه المدينة تمهيدًا لاقتحامها». قلت: «طيب، لا تغيير في الواجب الذي كُلِّفتَ به، وسأجري ما يلزم».

كان معي معاون العمليات، يستمع إلى المكالمة مع قائد الحرس، فقلت له: «الظاهر أن الفريق ماهر لا يريد أن تمر الأمور بسلام». اتصلتُ بمقر الفيلق السابع، وطلبت قائده فرد عليَّ رئيس أركانه قلت: «أين الفريق ماهر؟». أجابني «إنه مع القطعات الأمامية سيدي» (كنت متأكدًا أنه موجود في المقرّ). قلت: «ما هذا الأمر الذي يريد به قصف مدينة الفاو

واقتحامها خلافًا لأمرنا الذي أصدرناه إليكم؟». قال: «هذا ما أمر به قائد الفيلق». قلت: «أوقفوا كل ما أصدره إليكم، وسيأتيكم أمرٌ بذلك».

أصدرت أمرًا على الفور، وكان مضمونه (يُنحّى الفريق الركن ماهر عبد الرشيد عن قيادة الفيلق السابع، ويتولّى قيادة الفيلق رديفه اللواء الركن صلاح عبود. ويُقدم إلى المحكمة العسكرية في حال عدم تنفيذه الأمر الصادر إليه). بعد قليل اتصل رئيس أركان الفيلق وقال: «تم تبليغ أمركم إلى قائد الفيلق، وسيُنفذ ما أمرته به حرفيًا».

اتصل حسين كامل المشرف على الحرس الجمهوري، وقال: «إن الفريق ماهر يريد أن يبيد جنودنا الموجودين في أطراف الفاو، فأخبرته بأن لا شيء من ذلك سيحدث، وأن الفريق ماهر سيتقيد بما أُمِر به».

في الساعة 9.00 من صباح اليوم التالي أجرت القوات البحرية إنزالًا باللواء البحري 440 في المشروع 81 من اتجاه مرسى أمير المؤمنين جنوب مدينة الفاو. وفي الساعة 12.00 تم تحرير الفاو والسيطرة عليها بشكل كامل باللواء 19 حرس جمهوري، معززًا بكتيبة دبابات، وسيطر لواء «قوات خاصّة حرس جمهوري» وآخر من مغاويره على الضفة الغربية لشط العرب وعلى جسر الأنابيب ومنطقة المعابر. واندفعت قوات أخرى من الحرس الجمهوري وسيطرت على ناحية الخليج العربي وعلى رأس البيشة، آخر نقطة في شبه الجزيرة، ورفعت عليها العلم العراقي. وبهذا تم تطهير قطاع مهم من أرض العراق الطاهرة انتهكه العدو في غفلة من الزمن، وضحى العراقيون بدماءٍ عزيزة لتحريره وإعادته إلى وطنه العزيز العراق العظيم.

في الساعة 14.00 اتصل الرئيس القائد العام وطلب مني أن أتأكد بشكل قاطع من أنه لم تبقَ أيُ قدم إيرانية تُدنس أرض الفاو، وأن شبه الجزيرة بأكملها قد أصبحت تحت سيطرة قواتنا. وعلى الرغم من أنني كنت متأكدًا من ذلك، إلا أني تنفيذًا لأمر الرئيس القائد العام أرسلتُ عددًا من ضباط ركن مقرنا في سمتيّات إلى كافة المواقع التي سيطرت عليها قواتنا في شبه الجزيرة، وتأكدوا على الأرض، ومع آمري قطعات الحرس في المواقع كافة، من أن كل شيءٍ على ما يُرام وأن قواتنا قد بسطت سيطرتها الكاملة على شبه جزيرة الفاو.

في الساعة 16.00 أخبرت القائد العام أن شبه الجزيرة بأكملها تحت سيطرتنا، ولا وجود لأي إيراني عليها. فقال: «جيد، سنُصدر الآن البيان عن انتصارنا في الفاو».

في الساعة 18.00 زرنا المقرّ المتقدم للفيلق السابع وشاهدنا تجمّعًا كبيرًا

من الجنود الذين يهتفون. وكان القائد العام ونائبه بينهم، وهما يلوِّحان لهم، ولمّا غادرا جاءني الفريق ماهر واعتذر عما بدر منه ليلة البارحة، فقلت له: «فريق ماهر، هذا النصر يمحو كثيرًا من الأخطاء».

في الساعة 19.00 أذيع بيان القيادة العامة للقوات المسلحة الرقم 3147 الذي أعلنت فيه بشرى النصر الكبير بتحرير الفاو.

عدنا إلى المقرّ المتقدم للحرس الجمهوري الذي سبقنا إليه القائد العام ونائبه، وتقدّمتُ مع أعضاء القيادة الذين كانوا معي لتحيّته وتحية الوزير، وعندما صافحته قال وهو يشد بقوة على يدي: «دخلت التاريخ يا فريق نزار من أوسع أبوابه في هذه المعركة، لأنك رئيس أركان هذا الجيش العظيم»، فأجبته: «أشكرك سيدي الرئيس».

قبل أن نغادر طرح الرئيس فكرة أن تعبر قوة إلى الجانب الإيراني من ضفة شطّ العرب، وتبقى هناك بعض الوقت لإشعار الإيرانيين بأننا لم نكتفِ بتحرير الفاو بل عبرنا إلى أرضكم. قلت له: «سيدي الرئيس إن القوة التي ستعبر ستُواجه بكل ما يملكه الإيرانيون من نيران، وسنضطر إلى سحبها، وهذا ما سيُعيد إلى الإيرانيين بعض معنوياتهم التي انهارت في هذه المعركة». قال الرئيس: «غضوا النظر عن ذلك، إنها كانت مجرد فكرة. في هذه الحالة لا داعي لإبقاء جسر الأنابيب، فاعملوا على تدمير ما تبقى منه، واعملوا على استلام الفيلق السابع مسؤولية شبه الجزيرة وحرروا الحرس». فأجبته: «سنعمل على ذلك سيدي». واستأذنته في غلق مقرّنا المتقدم والعودة، فأذن لنا، وكان ذلك في الساعة 23.00 (18/4/1988).

بعد ثلاثة أيام من انتهاء معركة الفاو (21/4/1988) عُقد اجتماع للقيادة العامة للقوات المسلحة برئاسة الرئيس القائد العام ونائبه ورئيس أركان الجيش ومعاون العمليات ومدير الاستخبارات، حضره أيضًا حسين كامل المُشرف على الحرس الجمهوري ورئيس هيئة التصنيع العسكري. كان الغرض منه مناقشة أسبقيات العمل بعد الفاو والقرار عليها. عرض رئيس الأركان [227] أسبقيات العمليات التي سنعمل عليها في المرحلة المقبلة، وكانت كما يلي:

- تحرير الشلامجة شرق البصرة في قاطع الفيلق الثالث.
- تحرير حقول مجنون النفطية في هور الحويزة في قاطع الفيلق السادس.
- تحرير قاطع الزبيدات في الطيب شرق العمارة في قاطع الفيلق الرابع.

قال القائد العام: «ولماذا هذا التسلسل؟». قلت: «سيدي الرئيس اخترت

هذه التوقيتات وفق أهمية وتأثير كلٍّ منها. فالعدو في الشلامجة بمحاذاة البصرة، ويقصفها يوميًا كما تعلم سيادتكم، وقد يُفكر في مباغتتنا بعمل ما في هذا الاتجاه بعد خسارته الفاو، ثم إن قوات الحرس الجمهوري موجودة في القاطع، وبهذا لن تكون هناك تحركات واسعة لحشدها تسترعي انتباه العدو. أما حقول مجنون التي ستكون آخر المعارك الصعبة، فالحرس قريب، وكذلك الفيلق الثالث الذي قد نُشركه مع الفيلق السادس، ونضمن تفوقًا لن يستطيع العدو مواجهته. وفي هذه المعارك كما في معركة تحرير الفاو سيكون هدفنا الأول طرد العدو، وتحرير الأرض المحتلة لأهميتها أكثر من أسره أو تدميره. تبقى معركة الزبيدات في قاطع الفيلق الرابع وما يتبعها من معارك، وفيها سنُركز على تدمير قواته وما تبقى من آلته العسكرية، وأسر أكثر ما يمكن من قواته».

ابتسم القائد العام، وقال: «فريق نزار هذ جيد، لكنه مثل قص البقلاوة أين المباغتة في ذلك؟ سيكشف العدو على الفور أسبقياتك هذه، ويتهيأ لنا في كلٍّ منها؟». قلت: «سنحوّل انتباهه قبل أي معركة في اتجاه آخر، وأعتقد أن المباغتة ستتحقق بهذا التسلسل الذي لا يتوقعه العدو». بعد لحظات تأمل قصيرة ابتسم القائد العام وقال: «إنها إذًا مباغتة المباغتة سنباغته من حيث لا يتوقع أن نباغته». والتفت إلى وزير الدفاع وقال: «أليس كذلك فريق عدنان؟». «بالتأكيد سيدي الرئيس»، أجاب الوزير الذي كان يتابع بتركيز وانتباه المناقشة الجارية.

- «إذًا اعملوا على خطة تحرير الشلامجة وسنناقشها في اجتماعنا المقبل إن شاء الله». وهنا انبرى حسين كامل قائلًا: «ألم تسمع سيدي بما حدث مع الفريق ماهر ليلة تحرير الفاو؟».

- «ماذا حدث؟». أجاب حسين كامل: «الفريق رئيس الأركان يمكن أن يخبرك بالتفاصيل بشكل أفضل». فالتفت إليّ الرئيس مستفسرًا؟

أخبرته بما حدث، وكيف تهرّب الفريق ماهر من مكالمتي تلفونيًا بحجة أنه موجود مع القطعات الأمامية، فاضطررت إلى إصدار أمر بتنحيته عن قيادة الفيلق، وتكليف رديفه اللواء صلاح عبود بها، وتقديمه إلى محكمة عسكرية في حالة عدم تنفيذه الأمر بالتوقف، بعد إكمال الصفحة الثانية في العاشرة ليلًا، وتكليف الحرس الجمهوري الذي احتلّت قواته عقدة الطرق المحاذية للمدينة بتحرير الفاو.

قال الرئيس والانزعاج بادٍ على وجهه: «كيف تُنحِّي قائد فيلق مشارك بالمعركة، وأنا موجود معكم في الجبهة؟». أجبت: «سيدي الرئيس، الحادثة

كانت في الساعة الثانية ليلًا، وقدَّرت أن سيادتكم كنتم مرتاحين (نائمًا)، ولم أرغب في أن أزعجكم بعد أن امتثل الفريق ماهر للأمر، وسارت الأمور كما خُطط لها، ولا أعتقد أنني تجاوزت صلاحيتي في إدارتي للمعركة». تأمل الرئيس إضبارة الأوراق التي أمامه صامتًا ثم رفع رأسه، وقال: «الفريق عدنان وزير الدفاع، والفريق نزار رئيس أركان الجيش لهما صلاحية القائد العام في ساحة العمليات».

انتهى الاجتماع لتبدأ أعمال التخطيط والتحضيرات لمعركة الشلامجة بعد أن أقرّها القائد العام.

حضرنا مراسم تكريم الفريق إياد فتيح الراوي قائد فيلق الحرس الجمهوري وقادة فرقه، بأوسمة الشجاعة لأدائهم المتميِّز في معركة الفاو، وحضرها جميع أعضاء القيادة القطرية للحزب ووزير الدفاع والفريق الأول الركن عبد الجبار شنشل وزير الدولة للشؤون العسكرية وأعضاء القيادة العامة في القصر الجمهوري، ودخل منتسبو (موظفو) التشريفات قاعة المراسيم وهم يحملون صواني كبيرة عليها العشرات من أوسمة الشجاعة.

في أواخر عام 1986 حضرتُ مراسيم تكريم قائد الفيلق الرابع وعدد من قادته، وكنت آنذاك معاون رئيس أركان الجيش للعمليات، ودخل أحد منتسبي المراسيم يحمل صينية عليها نحو 12 إلى 15 وسامًا، وقبل أن يبدأ الرئيس بتقليد الأوسمة قال: «حكت لي أم عدي (السيدة قرينته) أن بعض صديقاتها زرنها قبل أيام، وتحدثن عن الفاو، وسألنها: «يا أم عدي إلى متى ستبقى الفاو بيد العدو؟». سكت الرئيس ثم قال: «وتقول أم عدي إنني أخجل بعد الآن من أن أنظر في عيونهن»».

سكت الرئيس وترقرقت عيناه بالدموع، فهرع أحد المرافقين بعلبة مناديل ورقية فتناول الرئيس بعضها لمسح عينيه. وبعد دقائق قال: «القائد الذي تُحرّر قطعاتُه الفاو له كل هذه الأوسمة».

لقد قال وأوفى.

بعد بضعة أيام حضرنا مراسيم أخرى، وهذه المرة لقائد الفيلق السابع الفريق ماهر عبد الرشيد، وبعض قادة فيلقه الذين شاركوا في معركة تحرير الفاو، وحضر معظم الذين ذكرتهم في تكريم قادة الحرس الجمهوري، وكُرم الفريق ماهر وقادته بوسامي شجاعة لكلٍّ منهم.

كان التأثر وعدم الارتياح باديين على وجه الفريق ماهر الذي طلب الكلام، فأذِن له الرئيس، فتكلم مدّعيًا أنه كان من الممكن أن يكون هو الأول، وتكون الفاو من حصته لولا دخول الحرس وأخذ المبادرة منه. ثم

تكلم عن رفع علم فوق الفاو، وكلامٍ آخر لم أفهم تمامًا ماذا كان يعني به.

كان الغضبُ واضحًا على وجه الرئيس، فأشار إلى فريق التلفزيون الذي كان يصور المراسيم بالخروج ثم التفت نحوي، وقال: «فريق نزار، إحكِ لنا والرفاق أعضاء القيادة عن أداء الحرس والفيلق السابع في معركة الفاو».

حكيت بعض ما حدث، وعن مستوى أداء كلٍّ منهما وأسبابه. فسألني الرئيس: «هل كان بإمكان الفيلق السابع، لو لم يُحقق الحرس ما حققه، أن يُنجز أهدافه؟»، فأجبته: «كلا سيدي». فأضاف الرئيس: «كان لا يمكنه تحقيق حتى الصفحة الأولى»، ثم التفت إلى الفريق ماهر، وقال: «جيد أنه لم يكن هناك حساب لأني لا أريد أن يكون هنالك كلام عن جيش وعن حرس». وترك القاعة غاضبًا.

الصورة (14 - 1)

مؤتمر تحليل معركة الفاو بعد التحرير



ويشاهد في الصورة الفريق الأول الركن عبد الجبار شنشل وزير الدولة

للشؤون العسكرية، والفريق الأول الركن نزار الخزرجيّ رئيس أركان الجيش، واللواء الركن علاء الدين حسين مكي خماس رئيس جامعة البكر للدراسات العسكرية العليا وبعض معاوني رئيس الأركان وقادة الفيالق.

X يعني الانفلاق الجوي ترتيب توقيت صمام التفجير لقنبلة المدفعية بحيث ينفجر في الجو فوق الرؤوس ليصيب أكبر عدد من أفراد العدو أو منشآته.

X ظهر بعد التحقيق معه في الاستخبارات العسكرية أن ماضيه مريب فأحُيل على التقاعد. هرب بعد الحرب إلى جانب المعارضة في الخارج، وعمل بخدمة إياد علاوي في حركة الوفاق.

X كاتب هذه المذكرات.

الفصل الخامس عشر: تحرير الشلامجة «توكلنا على الله الأولى» 25 مايس (أيار/ مايو) 1988

سُمّيت المنطقة باسم قرية ومخفر الشلامجة الحدودي الواقع على طريق البصرة - المحمرة، وتنحصر بالحدود العراقية - الإيرانية التي تلتقي بشطّ العرب عند قرية ومخفر الخرنوبية شرقًا، وبشطّ العرب والتنومة غربًا. المنطقة مفتوحة بشكلٍ عام، عدا شريط من بساتين النخيل يمتد من نهر الخيين على الحدود الإيرانية جنوبًا حتى التنومة شمالًا، يتراوح عرضها بين 2 و3 كلم، توازيها من الغرب طريق التنومة - الشلامجة - المحمرة، وإلى الشرق منها تقع بحيرة الأسماك التي أُنشئت لأغراض دفاعية عسكرية قبل نشوب الحرب، ويبلغ طولها نحو 8 كلم، وعرضها نحو 200م، تمتد من نهر كتيبان الذي تُغذّى منه بالمياه بواسطة المضخات، وتصرّف المياه منها بواسطة قناتي تصريف المياه وبالمضخات أيضًا، حتى نهر جاسم الذي يقع على بُعد كيلومترين غرب نهر الدعيج الموازي للحدود الدولية. وتوجد طريق أخرى تمتد بموازة شطّ العرب من التنومة إلى ناحية عتبة الحدودية، وتقع الجزر النهرية: الصالحية والفياض والطويلة بين الضفة الغربية لشطّ العرب وشطّ العرب الصغير.

بين أواخر عام 1986 والشهر الأول من عام 1987 هاجم الإيرانيون قاطع الفيلق الثالث على محور الشلامجة - تنومة شرق البصرة، حيث دارت رحى معارك طاحنة في رقعة أرض ضيقة من الحدود الدولية حتى نهر جاسم جنوب نهر الدعيج الموازي لها، وبحيرة الأسماك غربًا، سقط فيها عشرات الآلاف من القتلى من كلا الجانبين، وأضعافهم من الجرحى في المعارك التي أُطلقَ عليها اسم «الحصاد الأكبر»، والتي أوردت تفاصيلها قبلًا في الفصل الحادي عشر.

نظرًا إلى عدد الخسائر التي تكبَّدها الجانبان، والإيرانيون بشكلٍ خاصٍ، استقرت الجبهة على نهر جاسم، والحافات الشرقية من بحيرة الأسماك، كما سيطر العدو على الجزر النهرية بين الضفة الشرقية لشطّ العرب وشطّ العرب الصغير، وعكف على تقوية مواضعه فيها وتطويرها.

الاستحضارات

- تمت الاستحضارات كلها التي أُجريت في التخطيط والإعداد في تهيئة

ساحة العمليات وحشد القوات بسريّةٍ وكتمانٍ شديدين، واتُّخذت الإجراءات نفسها التي عُمل بها في معركة تحرير الفاو.

- جرى تدريب القوات المكلفة بالتنفيذ من الحرس الجمهوري والفيلق الثالث على مسارح عمليات مماثلة لتلك التي ستعمل عليها في ساحة المعركة.

- تم وبشكل تدريجي تجفيف بحيرة الأسماك بإيقاف الضخ في البحيرة من نهر كتيبان، وسحب المياه بواسطة قناتي التصريف.

- تمت تسوية السواتر التي تعيق حركة الآليات لتسهيل مناورة التشكيلات المدرعة والآلية.

- تبديل القطعات المتضرِّرة، وإدخال قطعات الموجة الأولى، الخاصة بالمواضع الأمامية من الهجوم، قبل فترة مناسبة للتعرُّف عن كثب إلى الأهداف التي ستهاجمها.

- حفرُ دكات رمي الدبابات على الضفة البعيدة لشط العرب في قاطع الفيلق السابع، لإسناد الجناح الأيمن للقوات المهاجمة كما تم حفرُ مواضعَ لمدفعية الفيلق السابع التي ستشارك في الإسناد. وأُرسل ضباط ارتباط من مدفعية الفيلق السابع لهذا الغرض.

- عززت الأركان العامة الفيلقين بلواءي مدفعية متوسطة وثقيلة (6 كتائب).

- أُعطيت للحرس الجمهوري فترة كافية لتنقّل تشكيلاتهِ وحشدها، وفي أوقاتٍ متباعدةٍ، وفي مناطق بعيدة نسبيًّا، كي لا تُرصد من العدو، وكذلك لتشكيلات الفيلق الثالث الآلية والمدرعة.

- تم تسريب رسائل بأن الفيلق يقوم بتبديل قطعاته الأمامية للراحة وإعادة التنظيم.

العدو

يدافع العدو بفرقتي مشاة في مواضعه الدفاعية في خطّ نهر جاسم والحافات الشرقية لبحيرة الأسماك، وبفرقة مشاة في الخط الدفاعي الثاني على نهر الدعيج وشلهة الأغوات وبلواءين آخرين على السدة الحدودية مدعّمة بلواءٍ مدرع من الفرقة المدرعة 92، ولهُ ما يعادلُ لواءي مشاةٍ موزّعين في الجزر النهرية الصالحيّة والفياض والطويلة. وللعدو احتياطٌ مؤلفٌ من الفرقة المدرعة 92، وفرقة المشاة 77، وثلاث إلى خمس فرقٍ من حرس الخميني متحشدة بين المحمرة والأحواز.

قواتنا

- الحرس الجمهوري

فرقتان مدرعتان، وفرقتا مشاة، وفرقة قوات خاصّة، ولواءا مغاوير.

28 كتيبة مدفعية بالإسناد المباشر [228] ، وثلاث كتائب مدفعية من الفيلق السابع تسند من مواضعها، وخمس كتائب هندسة.

- الفيلق الثالث

ثلاث فرق مشاة: الثامنة والحادية عشرة والتاسعة عشرة، والفرقة المدرعة الثالثة، والفرقة الآلية الخامسة، ولواءا مغاوير.

عشرون كتيبة مدفعية، وخمس كتائب هندسة.

- المقر العام

كتيبة صواريخ لونا الثقيلة بمدى 70 كلم، ولواءا مدفعية ثقيلة ومتوسطة.

- القوات الجوية

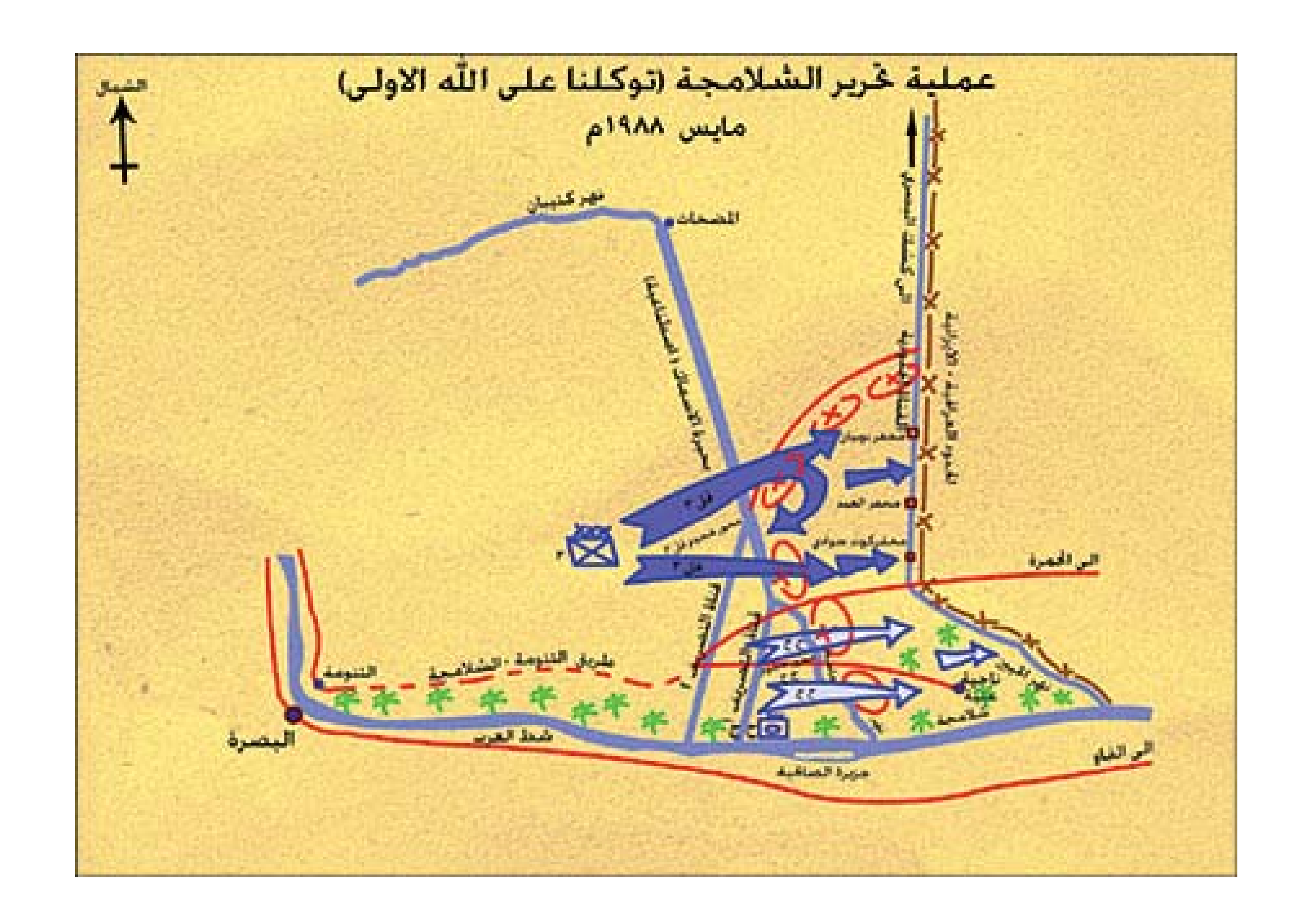
خمسة أسراب هجوم أرضي، وسرب ميراج، وسرب دفاع جوي، ومفارز من طائرات التشويش والتصوير، وسربا هجوم أرضي، وسربا ميراج متعددا الأغراض احتياط.

- طيران الجيش

ثمانية أسراب للإسناد والقيادة والاستطلاع والنقل.

الشكل (15 -1)

عملية «توكلنا على الله» الأولى - تحرير الشلامجة، أيار/مايو 1988



الخطة

يحتل العدو أرضنا الوطنية في قاطع الشلامجة شرق البصرة في المنطقة الضيقة التي تقع بين الحدود الدولية إلى نهر الدعيج الموازي للحدود الدولية، وترتكز دفاعاته الرئيسة على نهر جاسم، وتستند إلى شطّ العرب ونهر شطّ العرب الصغير، والجزر الثلاث التي تمكّن من احتلالها شرقًا، وتمتدُّ إلى الحافات الشرقية لبحيرة الأسماك حتى مخفر بوبيان الحدودي غربًا، وجبهة العدو لا تتجاوز 10 - 12 كلم عرضًا، و5 - 6 كلم عمقًا حتى الحدود الدولية. ولذلك صُمِّمت الخطة على خرق المواضع المعادية جبهويًّا، والقيام بإحاطتين قصيرتين من الأجنحة لخلخلة دفاعاته وإجباره على التراجع إلى ما وراء الحدود الدولية.

- **الحرس الجمهوري** : يهاجم مواضع العدو في الجيب المحتل في منطقة الشلامجة، والمنطقة المحصورة بين شطّ العرب وبحيرة الأسماك، ويُدمر العدو فيها ويطارده حتى الحدود الدولية.

- **الفيلق الثالث** : يهاجم مواضع العدو على الضفة الشرقية لبحيرة الأسماك، حتى شمال مخفر بوبيان الحدودي، ويدمره فيها ويطارده حتى الحدود الدولية.

- **القوات الجوية** : تقوم بعمليات تجريد واسعة لحشود العدو في ساحة

العمليات وبالعمق حتى الأحواز، وتمنع وصول احتياطات العدو من العمق الإيراني إلى ساحة المعركة.

- **طيران الجيش** : يقوم بتقديم الإسناد القريب للقطعات، ومنع احتياطات العدو في ساحة المعركة من التدخّل في المعركة.

كان يوم وساعة الشروع في الخطة التي وضعتها الأركان العامة لمعركة الشلامجة في الساعة 6.30 من يوم 26/5/1988، التي أقرها القائد العام في اجتماعات القيادة العامة للقوات المسلحة.

نحو الساعة الرابعة من مساء يوم 24 مايس [أيار/مايو] 1988، وبينما كنت في مكتبي برئاسة أركان الجيش أراجع بعض تفاصيل تحضيراتنا لمعركة الشلامجة التي سننفّذها بعد أقل من 48 ساعة، رنّ جرس الهاتف، كان اللواء صابر مدير الاستخبارات العسكرية، وبادرني قائلًا: «سيدي الفريق هل بالإمكان أن أراك الآن، لأمرٍ مهم؟». قلت له: «نعم، وسأكون في القيادة العامة بعد نصف ساعة ومعي معاون العمليات». كنتُ موقنًا أن اتصاله يخص أمرًا في الجبهة.

في القيادة العامة وجدته بانتظارنا، فسألته: «ما الذي حدث؟». قال: «استرقت أجهزة التنصت البعيد في مديريتنا مكالمات بين القيادات العسكرية العليا للعدو والقيادة الميدانية المسؤولة عن جبهة الشلامجة، جاء فيها «إن أصدقاءنا أخبرونا أن العراقيين سيهاجمون الشلامجة خلال 48 - 72 ساعة»».

قلت: «ومن هم أولئك الأصدقاء في تقديرك؟». قال: «أعتقد أنهم الأميركيون، ومن الصور التي تلتقطها أقمارهم لتحشُّداتنا في الجبهة، ومن خلال طرف ثالث يثق به الإيرانيون». سألت: «ولماذا الأميركيون وليس الروس أو الفرنسيون مثلًا، والطرفان لديهما أقمارهما الصناعية التي تلتقط صورًا أيضًا، أو أي جهةٍ أخرى؟». أجاب: «الأميركيون هم الذين بُوغتوا بمفاجأة معركة الفاو ونتائجها، وهم أكثر من غيرهم لا يريدون للحرب أن تُحسم، وهذه تقديراتٌ وليست لدي حاليًا معلومات أكثر».

قلت: «وماذا تقترح؟». قال: «أرى يا سيدي أن نؤجل العملية في الشلامجة، وأن نقوم بعمل في قاطع آخر ثم نعود وننفّذها في الشلامجة بعد فترة مناسبة». قلت: «ماذا يستطيع العدو أن يقوم به خلال الساعات الثماني والأربعين المقبلة؟». قال: «يستطيع أن يعزز مواضعه بفرقة مشاة، ويقدّم فرقتين أخريين من احتياطاته إلى الجبهة». قلت: «وفي 24 ساعة؟». قال: «يستطيع أن يعزز موضعه الدفاعي بلواء مشاة، وأن يُحرك باقي الفرقة إلى قرب الجبهة».

قلت: «لواء صابر، إن قطعات العدو المدافعة في الجبهة مستقرة في مواضعها الحالية منذ بعض الوقت، وتعرف واجباتها المنوطة بها، وإذا ما أدخل العدو لواءً آخرَ هذه الليلة، فستقوم الوحدات المدافعة بتغيير وتعديل مواضعها لتُدخل وحدات اللواء الجديد، وسيؤدي هذا إلى إرباك وخلخلة موضعها الدفاعي، وهذا في مصلحتنا؛ أليس كذلك؟». قال بعد أن فكر قليلًا: «أعتقد ذلك».

التفتُّ إلى معاون العمليات وسألته: «وأنت ماذا ترى؟» قال: «أنا مع الرأي نفسه سيدي». قلت: «إذًا سنهجم غدًا بدلًا من بعد غد»، وأَضفتُ: «لواء صابر أنتم الاستخبارات تعرفون بدقة عادات العدو اليومية في مواضعه الدفاعية أكثر من غيركم، فأرجو أن نعرضَ معًا توقيتات أعمال الجنود اليومية». قال: «هم يكونون في أقصى حالات الإنذار والاستعداد فجرًا وفي الساعات الأولى من الصباح الباكر، ومن الساعة السابعة حتى الثامنة والنصف يتناولون فطورهم الصباحي، ويقضون بعض حاجاتهم، ويهجع معظمهم إلى النوم والراحة، لساعتين أو ثلاث».

قاطعته قائلًا: «نكتفي بهذا الحد. فهم في الفترة بين الثامنة والنصف والعاشرة والنصف في حالة نوم أو راحة. سنهاجمهم في الساعة التاسعة والنصف، ونحقق مفاجأة لا يتوقعونها». قال اللواء صابر: «أؤيد ذلك سيدي، إذا ما كان قائدا الفيلقين وقطعاتهما جاهزين لتنفيذ ذلك غدًا». قلت: «أنا أعرف القائدين جيدًا، وأنا متأكدٌ من أنهما جاهزان للتنفيذ بنسبة لا تقل عن 90 في المئة. أليس كذلك فريق حسين؟». أجاب: «أعتقد ذلك».

اتصلنا بالرئيس القائد العام، وطلبنا مقابلته لأمرٍ مهم. وكان الظلام قد حل عندما دخلنا القصور الرئاسية في الرضوانية، وكان أحد مرافقي الرئيس ينتظرنا في مدخلها حيث اصطحبنا إلى أحد القصور، وبعد قليل دخل علينا الرئيس وهو يرتدي الملابس العربية، ثوب أبيض طويل يكاد يلامس الأرض وغُترة بيضاء وعقال أسود. كان يبدو وسيمًا جدًا بتلك الملابس. شعرت بتفائلٍ غريبٍ وباطمئنانٍ إلى نتيجة المعركة المقبلة وأنا أنظر إليه وهو يقترب ليسلّم علينا، وابتسامة عريضة تغطي محياه. قال الرئيس: «ما هو الأمر المهم؟». قلت: «أفُضلُ أن يوجز لك اللواء صابر أولًا، سيدي الرئيس».

أخبره اللواء صابر بالمكالمات التي استرقت إليها أجهزتنا، والجهة التي يعتقد بأنها سربت لهم المعلومات وبرأيه تأجيل العملية، ثم قال: «لكنّ السيد رئيس أركان الجيش له رأي آخر، وأنا أؤيده فيه». قال الرئيس: «إنهم الأميركيون»، والتفت إليّ قائلًا: «ما هو الرأي الذي اقترحته يا فريق

نزار؟». أخبرته بالتفصيل بما توصلت إليه وأسبابه.

كان الرئيس يصغي باهتمام وتركيز إلى ما أقوله وملامح الارتياح والإعجاب تكسو ملامحه، وعندما انتهيت، قال: «فريق حسين، هل تعتقد أن قائدي الفيلقين جاهزان لذلك؟»، فأجابه: «أعتقد ذلك سيدي». ثم وجّه كلامه إليّ، وقال: «لماذا لا نجعل وقت الهجوم في الساعة الثانية عشرة ظهرًا ونحقق مفاجأة أكبر؟». قلت: «سيدي، إن المعركة تُنجز في ثماني ساعات وفق تخطيطنا، وتأخير شروعنا إلى الظهر قد لا يُنهيها قبل حلول الظلام». قال الرئيس: «إذًا اعملوا وفق توقيتاتكم ليوم الغد، وأرسلوا الفريق حسين فورًا إلى مقركم المتقدم ليلتقي قائدي الحرس والفيلق الثالث لتبليغهما بالتنفيذ إن كانا جاهزين؛ فإن لم يتصل بكم بعد لقائه بهما فذلك يعني أنهما كذلك، وأن التنفيذ سيكون غدًا. لا اتصالات تلفونية على الإطلاق». فنهض الفريق حسين وغادر فورًا ليركب الطائرة إلى مقرنا المتقدم في الزبير.

قال الرئيس: «فريق نزار، سأرسل معك مرافقي النقيب عبد حمود، فإن كان كل شيء على ما يُرام اكتب إليّ مذكرة قصيرةً بذلك، وأعطها للنقيب حمود الذي سيعود بالطائرة نفسها، وسأكون هناك صباح الغد».

المقر المتقدم للقيادة العامة في الأثل قرب مدينة الزبير

الساعة 1.00 في 25/5/1988

وصلنا إلى المقرّ المتقدم، وكان في انتظارنا الفريق حسين معاون العمليات، وسألته عن لقائه قائدي الفيلقين فأخبرني أنهما تحمّسا للتوقيت الجديد، ويعتقدان أنهما سيحققان مفاجأة تامة، وأن قطعاتهما جاهزة للتنفيذ، كما أخبر خلية الإسناد الناري بذلك لتنسيق خططها وفق التغيرات، وأن كل الإجراءات الأخرى قد اتّخذت. فكتبت رسالة إلى الرئيس القائد العام أُخبره فيها أن التنفيذ سيكون غدًا، وأننا سنتوكل على الله [229] .

سير المعركة

في الساعة 8.45 من ضحى يوم 25 أيار/مايو 1988 انفتحت نيران أكثر من ألف مدفع وقاذفة صواريخ على مواضع العدو في جبهة الشلامجة، كما انهال سيل من صواريخ لونا ومدفعية المقرّ العام الثقيلة على احتياطاته القريبة من مدينة المحمرة، وقامت أسراب قوتنا الجوية بضرب مقرات العدو الرئيسة، وأهمها مقرّ الفرقة المدرعة 92 شمال المحمرة، وفرقه الأخرى

المتحشدة بين مدينة الأحواز والمحمرة، ومواقع مدفعيته غرب الحسينية، وفي المنطقة المقابلة لمخفر كوت سوادي الحدودي، وعقد مواصلاته وأهمها الجسران اللذان يستخدمهما العدو لتنقّل احتياطاته على نهر الكارون، كما شاغلت سمتيّاتنا مدفعية العدو في ساحة المعركة بضربات مباشرة، واستمر القصف المدفعي التمهيدي مدة 45 دقيقة.

في الساعة 9.30 اندفعت قطعات الفيلقين نحو أهدافها بإسناد نيران مدفعية الإسناد المباشر والنيران المباشرة لمئات الدبابات إلى المواضع الأمامية لقطعاتنا.

الحرس الجمهوري: هاجم العدو من أربعة محاور:

- المحور الشرقي: من بحيرة الأسماك/خارج، إلى طريق الشلامجة - تنومة/داخل.

- المحور الوسطي: من طريق الشلامجة - تنومة/خارج، حتى شطّ العرب الصغير/خارج.

- المحور الثالث: منطقة الجزر: الصالحيّة والفياض والطويلة، التي تنحصر بين شطّ العرب وشطّ العرب الصغير.

- المحور الرابع: عبور شطّ العرب من الضفة الشرقية إلى الضفة الغربية شرق نهر الدعيج الموازي للحدود الدولية، وعرض النهر بين 400 و500م.

أ - المحوران الأول والثاني

في الساعة 10.45 احتلّت معظم التشكيلات أهدافها في خطّ جاسم، وفي الساعة 12.30 تم احتلال خط جاسم، واندفعت القطعات باتجاه نهر الدعيج الذي أكملت احتلاله في الساعة 13.30، وتمكّنت من السيطرة على السدة الحدودية في الساعة 14.45.

ب - المحور الثالث

في الساعة 12.00 اندفع اللواء 16 قوات خاصّة لاحتلال وتطهير جزيرة الطويلة من العدو الإيراني، وبعد تحريرها اندفع لواءا 12 و22 مغاوير حرس جمهوري لتحرير الجزر الباقية تباعًا، ففي الساعة 15.40 حُررت جزيرة الفياض، وفي الساعة 18.00 شلهة الأغوات، وبذلك تم تحرير الجزر كلها من أي وجود معادٍ.

ج - المحور الرابع

بإسناد مباشر من مدفعية الفيلق السابع من مواضعه في قاطع الفيلق، ومن دبابات اللواء المدرع 17 من الضفة الغربية لشط العرب، في الساعة 10.15، تمكّنت وحدة الضفادع البشريّة من مسك الضفة الشرقية لشط

العرب لعبور وحدات لواء القوات الخاصّة 26 بالزوارق وتدمير قوة العدو فيها. وفي الساعة 12.00 تمكَّن اللواء المدرع 17 من العبور على جسر أطواف بطول 500م، نصبته كتيبة تجسير الحرس الجمهوري، وضرَب الجناح الأيسر للعدو على السداد الحدودية، الأمر الذي سرّع انهياره وتقدّم قطعاتنا وإكمال احتلالها أهدافها في وقت قياسي.

الفيلق الثالث: هاجم العدو من ثلاثة محاور:

- المحور الأول: من الضفة الغربية لبحيرة الأسماك إلى الضفة الشرقية للبحيرة حتى السدة الحدودية.

- المحور الثاني: من غرب بحيرة الأسماك، وإلى الجناح الغربي لدفاعات العدو حتى السدة الحدودية.

- المحور الثالث: من شرق بحيرة الأسماك إلى الجناح الشرقي لدفاعات العدو حتى السدة الحدودية.

أ - المحور الأول

في الساعة 9.30 اندفعت تشكيلات المشاة العاملة بإمرة الفرقة 19 تحت قصف ناري كثيف، ورمي مباشر من الدبابات التي اندفعت إلى مواضع أمامية، وبعد قتال شديد تمكَّنت من إسقاط المواضع موضعًا بعد آخر. وفي الساعة 12.30 تمكَّنت من احتلالها، ومن خلالها اندفعت التشكيلات المعقبة إلى أهدافها النهائية.

ب - المحور الثاني

في الساعة 9.30 هاجمت فرقة المشاة الآلية الخامسة تحت إسنادٍ ناري مباشرٍ ورمي دبابات لوائها المدرع الجناح الغربي لمواضع العدو في شمال بحيرة الأسماك، وبعد قتال شديد تمكَّنت من السيطرة على مواضعه والاندفاع إلى السدة الحدودية.

ج - المحور الثالث

اندفعت الفرقة المدرعة الثالثة من الجناح الشرقي لبحيرة الأسماك بعد خرق مشاة الفرقة التاسعة عشرة مواضع العدو، وضربت الجناح الشرقي لمواضعه في عمقها الدفاعي ودمرتها واندفعت إلى تحرير المخافر الحدودية واحتلال السدة الحدودية.

تمكَّنت قطعات الفيلق الثالث من إكمال أهدافها كلها في الساعة 15.30. وبذلك استطاعت قوات الفيلقين تدمير قوات العدو وأسر العديد من جنودها، وتحرير الأرض العراقية في قاطع الشلامجة شرق البصرة في ثماني ساعات.

كان أداء قوات الحرس الجمهوري متميِّزًا، إذ قاتلت قطعاته في بساتين النخيل شرق طريق تنومة - المحمرة، وطهّرت مغاويره وألويته الخاصّة الجُزر النهرية بأدغالها الكثيفة، على الرغم من مقاومة العدو المستميتة عنها، وفي عملية عبور رائعة، بدأت بعملية غوص للضفادع البشريّة لمسك موطئ قدم لوحدات لواء القوات الخاصّة التي عبرت بالزواق، تجاه مقاومة عنيفة للقوة المعادية المدافعة في الضفة الغربية لشط العرب، أسّست رأس جسر لعبور اللواء المدرع على جسر القوارب الذي نصبته كتيبة التجسير للحرس الجمهوري في وقت قياسي.

كذلك كان أداء قطعات الفيلق الثالث في اندفاعها وقتالها، حيث اخترقت فرق مشاة الفيلق دفاعات العدو في بحيرة الأسماك وأحاطت فرق الفيلق المدرعة والآلية بدفاعات العدو في بحيرة الأسماك من الأجنحة، واندفعت عميقًا إلى السداد الحدودية في قتال شرس واشتباكات مستمرة بالغة العنف منذ بداية هجومها حتى احتلال أهدافها النهائية.

في الساعة 20.00 من اليوم نفسه أُغلق المقرّ المتقدم للقيادة العامة للقوات المسلحة وعدنا إلى بغداد.

اجتمعت القيادة العامة بعد يومين أو ثلاثة من عودتنا لمناقشة المتطلبات الأولية لعملية تحرير مجنون التي كان القائد العام قد وافق على أن تكون الأسبقية الثالثة في سلسلة عمليات التحرير. وكان الرئيس قد وجّه رئيس هيئة التصنيع العسكري، حال إقرار الأسبقيات، إلى التهيؤ لإعداد وتصنيع ما قد تتطلبه عمليات الأهوار من زوارق وأطواف وجسور ومعدات برمائية وهندسية. وفي هذا الاجتماع طلب الرئيس من الأركان العامة تقديم الحاجات كلها التي تتطلّبها العملية المقبلة إلى رئيس هيئة التصنيع، لتأمين ما لم يتيسر منها حتى الآن. أجبته أننا سنفعل في أقرب وقت. وأخبرته أن فكرة العمليات الأولية لتحرير مجنون تتطلب إشراك ثلاثة فيالق: الثالث والسادس والحرس الجمهوري، وقلت أيضًا إنني سأعرض الخطة الأولية لعملية التحرير في الاجتماع المقبل للقيادة العامة.

كان الاجتماع يدور في أجواء مريحةٍ ومتفائلةٍ. وهنا بادر اللواء صابر الذي اعتاد أن يُضحِك الرئيس فقال: «لم أجد فرصة، سيدي، كي أخبرك عن اللقاء بالملحق العسكري الأميركي بعد معركة تحرير الفاو. بعد عودتنا من الفاو اتصل الملحق بالمديرية مرة بعد أخرى يطلب لقائي. وكان ضابط الركن المعني يُخبره بحسب توجيهي بأن المدير غير موجود، إلى أن تأكدت أن ضغطه قد ارتفع، وأن أعصابه قد اهتزت بما يكفي، فقلت «حان

الوقت لأن أراه». وجاء وجلس في غرفة المرافق ينتظر، وضباط الركن ومديرو الأقسام يدخلون بكتبهم ومعاملاتهم ويخرجون وهو ينتظر إلى أن رحمته».

تابعَ اللواء صابر: «وسمحتُ له أخيرًا بالدخول، وعندما رفعت رأسي عن الأوراق التي كانت على مكتبي كان واقفًا أمامي وهو يرتجف غضبًا، ووجهه يكاد ينفجر احمرارًا، وعيناه تشعان بالحقد الدفين. أشرت إليه بالجلوس لكنه رفض وبقي واقفًا، وقال «سيادة اللواء، لقد ضللتني عندما قلت إنكم مهتمون بالجبهة الشمالية فأكدت لمراجعي ذلك فتفاجأوا بالفاو»».

قال اللواء صابر: «فأجبته بخشونة: «وهل تريد منا أن نخبرك بأننا ذاهبون إليها؟»، فأجاب: «سيدي اللواء، إنك أنهيت مسيرتي المسلكية»»... وخرج.

كان الرئيس يتابعه مبتسمًا ووجهه يطفح بالسرور، وقال: «لواء صابر إذًا أنت الذي جعلهم يُخبرون العدو عن الشلامجة»، وقهقه عاليًا وضحك الآخرون.

لم أقم بزيارة قاطع الفيلق الأول منذ معركة تحرير الفاو، وكنت أريد الاطلاع على الموقف شخصيًّا هناك والمذاكرة مع اللواء سلطان هاشم قائد الفيلق عن الخيارات التي أتيحت لنا، في ضوء نتائج معارك الجنوب والمعلومات التي تواترت لدى الاستخبارات العسكرية العامة عن ترقيق وسحب قطعات العدو في الجبهة الشمالية، وكيف، وأين؟

التقيت قائد الفيلق في مقرّه الرئيس في كركوك وأيّد معلومات الاستخبارات العسكرية، حيث تابعت استخبارات الفيلق وقطعاته الأمامية مؤشرات إلى ترقيق العدو بعض مواقعه المتقدمة في العوارض التي احتلها في معارك الشتاء الماضي في قاطع ماوت.

انتقلنا إلى غرفة الحركات التي تتصدرها خريطة موقف الحركات لقاطع الفيلق، وسألته: «لواء سلطان ما الذي تنوي عمله في حلبجة؟ وهل في بالك خطة ما لاسترجاعها؟ وما هي المتطلبات؟»، فأجاب: «سيدي أنت تعرف المنطقة أكثر من غيرك، والعدو بعد أن احتلها عمل على تطويرها، بزرع الألغام على المقتربات وتكثيفها، وبحفر الخنادق الكبيرة على طرق ومحاور تقدُّم الدروع والآليات، وبإغمار مناطق بالمياه. ويحتلها بما لا يقل عن فرقتان في الجبهة على امتداد البحيرة ووادي زلم وحلبجة وخورمال. وله فرقتان احتياطًا في الخلف إضافة إلى وجود المسلحين الأكراد من جماعة

الطالباني. ولأجل تحريرها فإني سأتقدم على محورين: الأول من معبر امتداد بحيرة دربندخان باتجاه حلبجة، للسيطرة على جبل بالمبو شرق حلبجة قبل احتلالها؛ والثاني الطريق العامة، وادي زلم، وباتجاه خورمال، لمسك المرتفعات المسيطرة قبل احتلالها، وأحتاج لتنفيذ هذه العملية إلى فرقتي مشاة ولواء مدرع ولواء مغاوير للمحور الأول، وفرقة مشاة ولواء آلية ولواء مغاوير للمحور الثاني، وفرقة مشاة ولواء مدرّع احتياط للعملية».

سألته: «وكم ستستغرق العملية؟»، فأجاب: «يومين على الأقل إذا ما جرت الأمور على ما يرام»، فقلت: «وما الذي لا يجعلها على ما يرام برأيك؟». قال: «القصف المدفعي الموجه من مراصدهم في سلسلة جبل هورمان المشرفة على ساحة المعركة، وتدخُّل المسلحين الأكراد لضرب أجنحة ومؤخرات قواتنا المهاجمة». وسألته أخيرًا: «وما حجم الخسائر المتوقعة؟». أجاب: «قد يكون كبيرًا».

قلت له: «لواء سلطان عندما كنت قائدًا للفيلق الأول، وكانت حلبجة وخورمال آنذاك بأيدينا، وكان العدو مشرفًا علينا من جبال هورمان، والمرتفعات المحيطة بحلبجة وخورمال داخل حدوده، تولدت لدي خطوط أولية لخطة لم أنفذها لعدم تيسر القطعات عندئذٍ، لطرد العدو من هورمان وإبعاد التهديد عن حوض حلبجة - خورمال، وذلك بالقيام بعمل غير مباشر لا يكلّفنا كثيرًا من القطعات، ويحقق مباغتة تامة للعدو، وذلك بالاندفاع المفاجئ والسريع بتشكيلٍ من المشاة الآلية في حوض توتمان جنوب بنجوين حتى نهايته وغلقه باتجاه أي قوة معادية تحاول التدخّل في المعركة، مع إنزال قوات خاصّة بإبرار سمتيّ لمسك المرتفعات شرق الحوض لغلقه من هذا الاتجاه أيضًا، ثم يعقبه دفع ألوية مغاوير وأفواج دفاع وطني من داخل الحوض، لتتسلق سفوح المرتفعات المشرفة على الجانب العراقي، وللسيطرة عليها (السفوح من هذا الجانب منبسطة نسبيًّا، وتساعد في التسلق، وفيها نياسم يسلكها العدو لإدامة قطعاته في المرتفعات عكس القطوع الحادة المواجهة للجانب الإيراني)، ثم التقدّم لإسقاط المواضع المعادية بعد أن يتم عزلها وقطع خطوط إمدادها تباعًا».

بعد فترة من الصمت قال اللواء سلطان: «أنا آسف سيدي، إنني غير قادر على تنفيذها».

كان اللواء الركن سلطان هاشم أحمد من الضباط الجيدين بل الجيدين جدًا. له خبرة ومعرفة بالعمل والقتال في المناطق الجبلية، ويمتاز بالصدق والاستقامة ودماثة الخلق. كان محبوبًا من مرؤوسيه وأقرانه، لكنه كان متأثرًا

بالأساليب التي ورثها عن آمرين وقادة عمل بإمرتهم ومعظمهم من المحافظين في النهج والفكر العسكري.

لم أنزعج من عدم قبوله الفكرة التي طرحتها، إذ كنت أعرف مدى إخلاصه وصدقه قلت: «لواء سلطان إنسَ ما قلته لك عن توثمان. الآن دعنا نتحدث عن العدو في قاطع ماوت، فأنت أيّدت تقارير الاستخبارات العامة عن ترقيق العدو وسحبه قطعات من العوارض المحتلة في ماوت». أجاب: «نعم». قلت: «جيد، أريد منك ومن قائد الفرقة في قاطع ماوت العميد الركن غانم البصو (وهو من الضباط الجيدين أيضًا) أن تتأكدا باستطلاعاتكما الشخصية من حجم القطعات المعادية المتبقية في المواضع المواجهة لكما، فإذا ما شعرتما بأنها مشغولة بعدد قليل، عندئذٍ أريد منكما سرقتها»، فابتسم اللواء سلطان.

قلت: «أنت تفهمني أليس كذلك؟». قال: «نعم بالتأكيد». قلت: «إذًا، هيّئا لواءين واشرعا في تدريب وحداتهما على قضم مواضع العدو لقمة بعد أخرى. هل هذا يريحك لواء سلطان؟ (قلتها مداعبًا) وأخبرني متى تكونان جاهزَين؟». قال: «أشكرك سيدي وسأخبرك بذلك في أقربِ وقتٍ إن شاء الله».

عُرضت الخطة الأوّلية لتحرير مجنون في اجتماع القيادة العامة في الأسبوع الأول من حزيران/يونيو 1988 الذي حضره القائد العام ونائبه ورئيس أركان الجيش ومعاونه للعمليات ومدير الاستخبارات وحسين كامل رئيس هيئة التصنيع العسكري والمشرف على الحرس الجمهوري. أقر القائد العام الخطة الأوّلية التي ستشارك فيها ثلاثة فيالق، وحُدد الأسبوع الأخير من الشهر الجاري موعدًا أوّليًا لتنفيذها. كما طرح رئيس هيئة التصنيع ما تمت صناعته وتأمينه من المعدات التي طلبت لعملية تحرير مجنون.

وجّه الرئيس القائد العام كلامه إليّ فقال: «فريق نزار، ابدأوا منذ الآن في التخطيط لتحرير حلبجة لتنفَّذ بعد تحرير مجنون». أجبته: «سيدي الرئيس نحن نعمل وفق الأسبقيات التي أقرها سيادتكم، وبعد مجنون يأتي دور الطيب والزبيدات ثم القاطع الأوسط مندلي - خانقين، فحلبجة وُضعت باعتبارها أسبقية متأخرة لعدد من الأسباب أهمها:

أولًا: خطورة التهديد المعادي تجاه أهدافنا الحيوية في كلٍّ منها.

ثانيًا: حشدنا الرئيس في الجنوب ومعه الحرس الجمهوري، ولا نحتاج إلى تنقلات وتحركات واسعة لتنفيذ أسبقياتنا الحالية.

ثالثًا: نتوقع انتصارات سريعة وحاسمة بخسائر محدودة، ستكون نتائجها

رفع معنويات قواتنا المسلحة وثقتها بنفسها.

رابعًا: إن حلبجة حاليًا لا تشكِّل تهديدًا لأهداف حيوية، ويتطلب تنفيذها حركة وحشد قطعات كبيرة من الجنوب والمركز، وطبيعة ساحة المعركة التي طوّرها العدو قد تجعلها تمتد أيامًا، وتُكبِّدنا خسائر كبيرة لإشراف العدو ومراصد مدفعيته علينا من المرتفعات الحدودية. أقترحُ سيدي الرئيس، تفعيل جبهة الفيلق الأول بعمليات محدودة ضمن إمكاناته لقضم المواضع والمرتفعات التي احتلها العدو في قاطع ماوت تدريجًا. وبعد ماوت يستدير جنوبًا ليسيطر على مرتفعات سركيو ونزارة رش الحدودية، وصولًا إلى بنجوين، الأمر الذي سيُجبر العدو على الانسحاب من مرتفعات هلوان شرق جوارتة إلى داخل حدوده، فنحرر ثمانية ألوية تمسك هذا القاطع حاليًا تمكِّن قائد الفيلق من استخدامها في تحرير حلبجة من دون الحاجة إلى قطعات إضافية، هذا إن لم ينسحب العدو طوعًا بعد هذا الموقف».

قال الرئيس: «فريق نزار، حلبجة عنوان كبير مثل الفاو، وتحريرها سيكون له دوي في الداخل والخارج وعند العدو، وعند من يعرف مرتفعات سركيو ونزارة رش». قلت: «خططنا لإنهاء الحرب بنصر عراقي، ومعارك التحرير التي أُنجزت والتي ستُنجز هي لتحقيقه. إن تنفيذ معركة حلبجة حاليًا عملية غير مضمونة، وقد نتكبَّد فيها خسائر فادحة تؤثِّر في معنويات قطعاتنا وترفع همة العدو ومعنوياته، ومن الناحية الأخرى حتى لو نجحنا في تحريرها فإن طبيعة المنطقة ووجود العدو في المرتفعات الحدودية لن يسمحا لنا بالمناورة لتدميرها، فهو سيناور بفرقه الخمس الموجودة في حلبجة لقتالنا في الجبهات التي سنهاجمها لاحقًا».

هنا دخل أحد مرافقي الرئيس بعد استئذانه، وهمس في إذني أن قائد الفيلق الثالث يطلبني على الهاتف لأمرٍ مهم، فاستأذنت الرئيس وخرجت. ولما عدتُ لأكمل قلت: «فلهذه الأسباب سيدي الرئيس أؤكد العمل باتجاه سركيو - نزارة رش بدلًا من حلبجة».

ضحك الوزير وقال: «في أثناء خروجك فريق نزار أمر الرئيس أن تكون حلبجة الهدف التالي، وهذا قرار سياسي». قلت: «سننفذ ذلك سيدي، لكني ما زلت عند رأيي في الخيار الثاني». وهنا تدخّل الفريق صابر الدوري لتلطيف الجو المتوتر، فقال: «سيدي الرئيس، أعتقد أن الفريق رئيس الأركان مصرٌ على نزارة رش لأنها على اسمه».

في اليوم التالي اتصل أمين سرّ القيادة العامة الفريق علاء الجنابي ليخبرني أن القائد العام يطلبني لمناقشة موضوع لا أتذكره، وأن أجلب معي

الإضبارة الخاصّة به.

ذهبت إلى مقابلته في القصر الجمهوري فسألني عن الموضوع الذي طلبه فأوجزته له، وعندما انتهيت هممت بالخروج فاستوقفني وقال: «فريق نزار، كنت أمس في اجتماع القيادة مصرًا على ما قلته». فأجبته: «سيدي الرئيس، إن في القاطع الأوسط الجزء المهم من قوات العدو ومعداته، ولا نريد إنهاء الحرب قبل أن ندمرها ونجرّده منها، وفي ذهني خطة لمعركة واسعة قد تكون بحجم المعارك الضخمة في الحرب العالمية الثانية». فنظر إليّ باهتمام، وقال: «كيف؟». قلت: «نضرب بذراعين طويلتين، الأولى من اتجاه جلولاء - عارضة بمو الحدودية - قصر شيرين ثم سربيل زهاب، ومنها يتفرع إلى رتلين أحدهما يستمر إلى المنطقة الجبلية ويحتل مضيق باي طاق المؤدي إلى كرمنشاه، الذي يبعد عن نقاط انطلاقنا نحو 85 -90 كلم، والآخر يستدير إلى الجنوب باتجاه إمام حسن وكيلان غرب ليلتقي بالذراع الثانية التي ستنطلق من مندلي - وادي حران إلى سومار أكثر من 100 كلم جنوب انطلاق الأولى، وتتفرع إلى رتلين: الأول يتجه جنوبًا باتجاه كيلان غرب، والثاني يستدير شمالًا باتجاه جبل درمان ليلتقي بالرتل المتقدّم من الجنوب، ليحجز ويدمر القطعات الإيرانية كافة الموجودة في القاطع، التي ستُطوَّق بينهما، وحالما تظهر بوادر نجاح هذه العملية تنطلق ذراع ثالثة من بدرة - زرباطيّة إلى مهران أكثر من 100 كلم جنوب مندلي - وادي حران، وتتقدم مسرعة إلى المرتفعات المشرفة على عيلام. وبذلك ستكون جبهة هجومنا أكثر من 250 كلم، وعمق أكثر من 100 كلم، ونكون قد دمرنا آخر ما يملكه العدو من وسائل وقدرة للقتال».

التمعت عينا الرئيس القائد العام جذلًا، ونهض من خلف منضدته وسحبني من يدي، وبدأنا نمشي في غرفته مجيئًا وذهابًا، وقال لي: «أعد لي ما قلته مرة أخرى». فأعدته. وقف ونظر إليّ مليًا، وقال: «حسنًا. إعمل عليها»، ثم عاد ليجلس خلف منضدته، وقال وكأنه يتذكر شيئًا غير ذي أهمية فاته: «لكن لا تنسَ حلبجة أيضًا»، فخرجت وأنا واثق من أن موضوع حلبجة مؤجل في هذه المرحلة على الأقل.

في بداية الأسبوع الثاني من حزيران/يونيو تم عرض خطة تحرير مجنون في اجتماع للقيادة العامة فأقرها القائد العام، وبُلِّغَ بها القادة المعنيون ليباشروا بتهيئة متطلباتها وتأمينها.

اتصل بي اللواء سلطان هاشم قائد الفيلق الأول ليخُبرني أنه سيشرع في عملياته في قاطع ماوتْ في الليلة عينها، أي 11 - 12 حزيران/يونيو.

في ليلة 12-13 حزيران فاجأ العدو قيادةَ الفيلق الثالث وقطعاتِه في قاطع الشلامجة والاستخبارات العسكرية العامة بهجوم مباغت واسع، وتمكَّن من إعادة احتلال معظم المواقع التي خسرها في معركة «توكلنا على الله».

انتقلنا في صباح اليوم التالي إلى قاطع الفيلق، والتقيتُ قائدَ الفيلق اللواء الركن صلاح عبود، فأخبرني أن العدو قد تمكَّن من احتلال موضعي لواءين من ألوية الفرقة 19 المسؤولة عن القاطع، والعدو الآن على الحافات الشرقية لبحيرة الأسماك، وليس بعيدًا من مواضعه السابقة في نهر جاسم. وهو متوقف حاليًا في الأماكن التي تمكَّن من احتلالها ليلًا، ونقوم بمشاغلته بنيران المدفعية.

وضعنا على الفور خطة سريعة لهجوم مقابل ينفِّذه الفيلق بفرقتين إحداهما مدرعة والأخرى آلية. تقوم فرقة المشاة الآلية الأولى بضرب جناح العدو الغربي، وتتم إحاطة مؤخرته بالفرقة المدرعة الثالثة. ونضع بإمرة الفيلق عددًا من تشكيلات الحرس الجمهوري للهجوم بها على جبهة العدو، على أن يشرع بذلك قبل ظهر اليوم، بعد تنفيذ قصف العدو بكل مدفع متيسر لديه. وتقوم القوات الجوية بضرب احتياطات العدو، وتمنعها من الوصول إلى ساحة المعركة. وسنضع الجهد السمتيّ الذي يحتاج إليه بإمرته لأغراض المعركة.

شرعت قواتنا في هجومها المقابل قبل الظهر، تحت غطاء قصف مدفعي كثيف وضربات جوية مستمرة، وقبل مساء اليوم كانت قواتنا قد أبادت معظم القطعات المعادية، وطاردت فلولها داخل أراضي العدو وكان هذا آخرَ هجومٍ يشنه العدو علينا حتى نهاية الحرب.

اتصل بي اللواء سلطان ليلًا بعد أن عرف بهجوم العدو في الشلامجة ليسألني إن كنت أريد أن يوقف عمليته في قاطع ماوت، خشية تطور الموقف واحتياجنا إلى المناورة بقطعات من فيلقه، فأخبرته أن يستمر لأننا لسنا بحاجة لأي قطعات منه أو من غيره.

في اليوم التالي اجتمعنا بالرئيس في أحد قصور الرئاسة في الرضوانيّة حيث أوجزنا له معركة الأمس، وبعد الانتهاء خرجنا بصحبته إلى حديقة القصر التي تجاورها بحيرة اصطناعية واسعة. فجأة قال: «هل لا يزال الفريق ماهر في الخدمة؟ أحيلوه على التقاعد فورًا». وأردف غاضبًا: «لا ضبطٌ ولا ربطٌ. كان يستقبلني في أثناء معركة الفاو متبخترًا يتكئ على عصاه، وكأنه ليس عسكريًا».

انطلق الفريق علاء الجنابي أمين سرّ القيادة العامة عائدًا إلى غرفة

الاجتماع، وبعد دقائق رجع بكتابِ إحالة الفريق ماهر عبد الرشيد على التقاعد، فوقّعه الرئيس القائد العام على الفور.

لم يتوانَ اللواء صابر عن تعليق ساخر وقال: «الفريق أمين سرّ القيادة أكملَ كتاب إحالة ماهر بثوانٍ، هل لأنه كان يوَدُ الفريقَ كثيرًا؟».

X الإسناد المباشر هو إحدى درجات الأسبقية في تخصيص الجهد المدفعي لقطعات متجحفلة لأغراض المعركة، وليست من نظام المعركة الأصلي الذي يكون الجهد المدفعي فيه بالإمرة اعتياديًّا. الإسناد المباشر يعني أن على المدفعية المخصّصة به أن تلبي طلبات الإسناد فور تلقيها، ما لم تكن تنفذ الرمي لأسبقية أعلى كالإمرة مثلًا.

X بهذه العبارة البليغة التي أخبرت بها السيد الرئيس أخذت سلسلة معارك التحرير التي ختمت الحرب العراقية - الإيرانية بالنصر اسمها فكانت عملية تحرير الشلامجة عملية «توكلنا على الله -1» ... وهكذا بقية المعارك.

الفصل السادس عشر: تحرير مجنون والزبيدات «توكلنا على الله» الثانية والثالثة 26 حزيران/يونيو 1988

اعتبر العراق مستنقعات هور الحويزة عائقًا رئيسًا إزاء أي تحركات إيرانية، وهي كذلك بالفعل إذا ما اتّبعنا المقياس النظامي لاستخدام القوات المسلحة في التقدّم والهجوم. ولذلك لم يخطر في بال القيادة العامة، ولا استخباراتها إمكانية تنفيذ عملٍ رئيسٍ معادٍ من هذا الاتجاه، عدا أن المعلومات الاستخبارية عن هذا القاطع كانت محدودةً، وكذلك العمليات الاستطلاعية فيه.

كانت إيران قد بدأت استعداداتها في وقتٍ مبكرٍ، ومنذ بداية عام 1984 لتحقيق مباغتة استراتيجية بالاندفاع عبر مستنقعات هور الحويزة في هجومٍ رئيسٍ يستهدف قطع طريق بغداد - البصرة، والاندفاع للتواصل مع هور الحمار حيث ينشط فيه بعض أذنابها من المخربين الموالين لها. وأطلقوا على هذه العمليات اسم «عمليات خيبر».

نشرت القيادة الإيرانية قواتها الضاربة في مناطق قريبة شرق المستنقعات، وشنّت في ليل 21 - 22 شباط/ فبراير 1984 هجومها الرئيس، كما أسلفنا في فصلٍ سابقٍ، بثلاث هجمات برمائية باستخدام الزوارق المطاطية لقطعات الصولة، وبزوارق بأحجام مختلفة لنقل القدمات المعقبة وأسلحة الإسناد، واستهدفت بهجومها هذا منطقة البيضا وجزر مجنون ومنطقة غزيل.

كان النجاح الوحيد الذي حققته عملية خيبر هو الاستيلاء على جزر (حقلي) مجنون الشمالي والجنوبي. وفي بداية آذار/مارس من العام نفسه شنّت قواتنا هجومًا مضادًا تمكّنت فيه من استعادة مجنون الجنوبي، عدا السدة الشمالية منه التي بقيت تحت سيطرة العدو.

صرَّح علي أكبر هاشمي رفسنجاني، رئيس مجلس الشورى الإيراني بعد انتهاء معارك مجنون، وسيطرتهم على حقول نفط مجنون الشمالي: «... أصبح لدينا أكثر من الكفاية من احتياطي النفط لتعويضنا عن الخسائر الفادحة التي لحقت بنا على أيدي العدو».

طبيعة المنطقة

هور الحويزة عبارة عن مستنقع واسع يبلغ طوله نحو 75 كلم، وعرضه نحو 20 كلم، تمرّ الحدود الدولية العراقية - الإيرانية من الجزء الشرقي

منه. يحدّه نهر دجلة من الغرب، وقضاء العزير التابع لمحافظة العمارة شمالًا، وقضاء القرنة التابع لمحافظة البصرة جنوبًا. عمق المياه فيه يتراوح بين 1.5 و3.5م. تكثر في المناطق الضحلة منه النباتات المائية وأدغال القصب والبردي التي تغطي أجزاء واسعةً منه تساعد في الاختفاء. يتحدَّد التنقّل عبره بممرات مائيةٍ تُسمى السبل، يعرفها ويتنقل عبرها أهالي الهور. ويعتبر هور الحويزة، وهور الحمار الواقع بين دجلة والفرات، مأوى للمجرمين الهاربين من العدالة، والفارين من الخدمة العسكرية، وبعض المتعاونين مع العدو.

تقع جزيرتا مجنون الشمالية والجنوبية في القسم الجنوبي الشرقي من الهور، وهما عبارة عن سداد ترابية متقاطعة مقامة حول الآبار النفطية لحقل مجنون والبالغة نحو 50 بئرًا، وتحوي 20 في المئة من احتياطي النفط في العراق، أُوقف الإنتاج منها بعد نشوب الحرب.

تخترق الهور سدة حدودية، وتمتد منها سداد ترابية في العمق، وعمل العدو على ربط بعضها إلى داخل أراضيه، واستخدمها طرقًا لمواصلاته، وأهمها طريق البرّ الإيراني - سدة التجفيف الجنوبية - حقل مجنون الشمالي - حقل مجنون الجنوبي. وهناك طريق أخرى هي البرّ الإيراني - سدة الدسم - سدة الوصل - حقل مجنون الشمالي. المنطقة المحصورة بين الحافة الأمامية لقطعاتنا والسدة الشمالية لمجنون الجنوبي مغمورة بالمياه، وبعمق يتراوح بين مترين و3م، وترتبط هذه الجزر بالبرّ العراقي بسداد وعقد ترابية أهمها لسان عجيردة بطول 20 كلم. يوجد جنوب الهور نهر السويب لتصريف مياه الفيضانات إلى شطّ العرب، وكذلك القناة الحدودية، وقناة الإغمار الرقم 4. أما في جنوب شرق الهور فالأرض مفتوحة شرق كشك البصريّ، وتصلح لحركة الآليات، أما شمالها فإنها تتأثر بمناسيب هور الحويزة. كما أن هناك طرقًا عديدة أنشئت من جانبنا عندما كانت قواتنا داخل الأراضي الإيرانية.

الاستحضارات

صُمِّمت المعركة على أساس القيام بعبور برمائي لاقتحام مجنون ولسان عجيردة، مع إحاطة مدرعة من الجنوب الشرقي لهور الحويزة لضرب الاحتياطات المدرعة للعدو، ومنع احتياطاته الرئيسة من التدخل، وتنفيذ إنزالٍ سمتيٍّ في الوقت نفسه على الطريق التي تربط مجنون الشمالي بالبرّ الإيراني، لحجز العدو في الجزر ومنعه من التملّص والانسحاب. تقوم القوات

الجوية بضرب مقرات العدو، ومنع احتياطاته من التنقّل إلى ساحة المعركة، وإسكات مصادر نيرانه.

لتنفيذ تصميم المعركة هذا توجَّب القيام بالكثير من الاستحضارات الكبيرة من الجهات التي ستهيئ ساحة العمليات لهذه العملية المعقدة في مراحلها كلها، مثل تأمين معدات ووسائل لنقل القوات والتشكيلات لعملية برمائية بهذا الحجم، فضلًا عن تدريب مقاتلي الوحدات والتشكيلات على العمليات البرمائية، والقتال في المستنقعات والأدغال وعلى السداد في آنٍ واحدٍ. ولعل أهم الجهات التي قامت بدورٍ بارزٍ في استحضارات هذه العملية المعقدة هي التالية:

أ - جهد الدولة المركزي (الجهد الحربي المدني)

في هذه المعركة، وفي معارك سابقة أنجز جهد الدولة المركزي أعمالًا جبارة، وبأمر من الرئيس القائد العام نصّ على: «تقدّم الوزارات كلها، ومن مصادرها، كل التجهيزات والمعدات والأشخاص التي تحتاجها القوات المسلحة من جهد لساحة العمليات وبتنسيق بين هذه الجهات والأركان العامة ودوائرها المعنية».

وضع هذا الجهد الضخم بإمرة قيادة مدنية جديرة، ارتبطت مباشرة بديوان رئاسة الجمهورية لتسهيل أعمالها وتسريعها. قام الجهد المدني العامل للمجهود الحربي بفتح وتسوية وتبليط آلاف الكيلومترات من الطرق في السهول والجبال، وأنشأ المئات من السداد في الأهوار وعلى ضفاف الأنهار، وحفر الآلاف من المقرات والملاجئ والخنادق والسواتر، وأعدّ وهيّأ ساحات العمليات في مختلف الجبهات تحت قصف نيران العدو ليلًا ونهارًا، فعزّز بعمله إمكانية الصمود والصراع. كان كادر المجهود الحربي من المدنيين من مهندسين وفنيين وسائقين وعمال. وفي الجانب الطبي شارك أطباء ومخدِّرون وممرضون وذوو مهن عديدة أخرى، واستُشهد وجُرح العديد منهم.

قام الجهد المركزي، وفي وقت قياسي، بإنشاء ساحة عمليات مماثلة لجزر مجنون وسدادها، وغمرها بالمياه بواسطة مضخات عملاقة نصبها لهذا الغرض، لتتدرَّب عليها القوات المكلَّفة بعمليات العبور والاقتحام. وفي الوقت ذاته، وبكتمان شديد، أنشأ العديد من البحيرات المغلقة في المواضع الأمامية لقواتنا، لتكديس الزوارق التي ستنطلق منها قطعات الصولة والقدمات المُعقبة، كما قام بتأمين المقتربات والطرق، وتجفيف مناطق بطلب من القيادات الميدانية. وكان العمل يجري بتعاون وثيق مع الهندسة العسكرية، وبإشراف دائرة العمليات في رئاسة أركان الجيش. وكان جهد الدولة المركزي

موجودًا في المكان في أثناء المعارك، جاهزًا لتلبية أي طلب أو موقف يستجد في خضّمها أو بعدها.

ب - هيئة التصنيع العسكري

قام التصنيع العسكري بتهيئة ما تحتاج إليه القوات في هذه العملية البرمائية الكبيرة، لعبور مانعٍ مائي تغطي معظمه أحراش وأدغال، بعرض كيلومتر ونصف كيلومتر إلى كيلومترين، ولعشرات الآلاف من المقاتلين بأسلحتهم وتجهيزاتهم ومعداتهم من البندقية حتى المدفع والدبابة، وأهمها:

- 140 طوفًا بحريًا.
- 300 زورق مطاطي.
- 2000 زورق بأحجام مختلفة.
- 2700 دعامة جسر فليني للمشاة.
- 830 دعامة جسر خفيف للعجلات.
- عشرات الآلاف من ستر النجاة.

ج - الهندسة العسكرية

قامت الهندسة العسكرية بجهدٍ كبير في تهيئة وإعداد ساحة العمليات بالتعاون مع جهد الدولة المركزي، إضافةً إلى تدريب قوات العبور على استخدام القوارب والتجديف وقيادة الأطواف البرمائية ونصب الجسور، وشاركت أيضًا بمعدات هندسية منها:

- جسر بونتونات (Ponton) بطول 500م.
- 12 دبابة تجسير.
- 48 طوفًا وبرمائية هندسية.
- التدريب والتنسيق.

جرى تدريبٌ شاقٌ للقطعات المشاركة في مسارح عمليات مماثلة لساحات المعركة في الاتجاهات كلها، وجرى التركيز على تعليم القطعات التجديف لمسافات طويلة.

وبحكم توقّعنا توقُّف محركات الزوارق، لاحتمال التفاف الأدغال والنباتات المنتشرة والممتدة على سطح المستنقعات حول مراوحها، جرى تدريب كتائب مدفعية الفيالق على إجادة رمي نيران التمركزات الخطية لمعالجة الوجود المعادي على السداد والسواتر الترابية. وجرى بناء خطة نارية محكمة ومنسّقة من خلال خلية الإسناد الناري، وممثّلي دائرة العمليات والقوات الجوية وطيران الجيش، ومديرية المدفعية وآمرية الصواريخ، حُدِّدت فيها الأهداف والواجبات، وتم التنسيق بين جميع الأسلحة. كان المسؤولون في

القيادة العامة ورئاسة أركان الجيش ودوائرها يتابعون باستمرار التحضيرات وتأمين المتطلبات مباشرة.

العدو

كان حجم قوات العدو في جزر مجنون ولسان عجيردة، وفي المنطقة المقابلة لكشك البصريّ، أربع فرق من حرس الخميني ومعهم لواء، والفرقة المدرعة 92، وثماني كتائب مدفعية موزّعة كما يلي:

- مجنون الجنوبي

خمسة أفواج من حرس الخميني وسريّة دبابات في السدة الشمالية.

- مجنون الشمالي

15/20 فوجًا من حرس الخميني، وأربع كتائب مدفعية.

خمسة أفواج من حرس الخميني في سداد شرق عقدة الروطة.

فوج من الفرقة 92 في سدة التجفيف الجنوبية.

في المنطقة مقابل مخفر كشك البصريّ - مخفر الأسيود - مخفر الشهابي تنفتح ألوية الفرقة المدرعة 92، وفرقة حرس الخميني.

لواءان من حرس الخميني في لسان عجيردة.

بإمكان العدو دفع احتياطات، وبحجم ثلاث فرق من حرس الخميني خلال 6 إلى 12 ساعة.

قواتنا

- الحرس الجمهوري

خمسة فرق: منها 2 مدرعات و2 مشاة، وفرقة قوات خاصّة، وبإسنادها 28 كتيبة مدفعية.

- الفيلق الثالث

أربع فرق: منها فرقة مدرّعة، وأخرى مشاة آلية وفرقة مشاة ولواءا مغاوير وفرقة مدرّعة (احتياط).وبإسناد القطعات 18 كتيبة مدفعية.

- الفيلق السادس

فرقة مشاة ولواءا مغاوير وبإسناده ست كتائب مدفعية.

- القوات الجوية

خمسة أسراب هجوم أرضي، وسرب ميراج متعدّد الأغراض، وسرب دفاع جوي، ومفارز من طائرات التشويش الإلكتروني وطائرات التصوير.

في الاحتياط سربا هجوم أرضي، وسربا ميراج متعددا الأغراض.

- طيران الجيش

100 سمتيّة نقل قطعات.

40 سمتيّة إسناد وقيادة واستطلاع.

الخطة

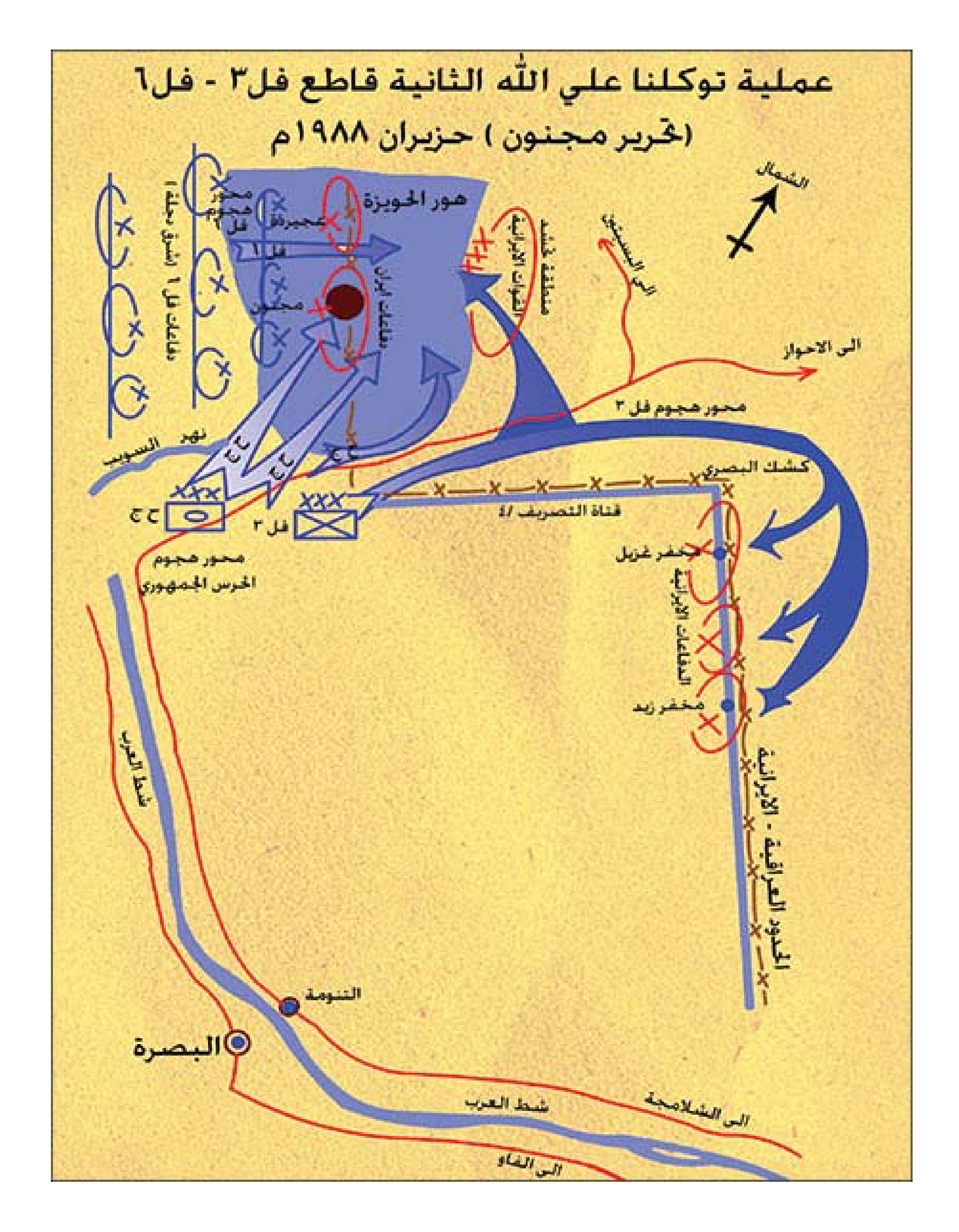
اعتمدت خطة تحرير جزر مجنون على قيام قواتنا بالتعرض على العدو في جزر مجنون في الساعة 4.15 في 25 حزيران/يونيو 1988 باقتحامها برمائيًّا، مع إحاطة مدرّعة من جنوب شرق الجزر باتجاه الشمال والشمال الغربي لضرب احتياطاته، ومنع انسحابه وتدميره، وعلى قيام قوتنا الجوية بضرب مقراته واحتياطاته البعيدة، ومنعها من التدخل في المعركة.

قيادة قوات الحرس الجمهوري: تقوم بالهجوم على مواضع العدو في الجزء المتبقي من حقل مجنون الجنوبي وحقل مجنون الشمالي، وباستعادة الأراضي الوطنية والسيطرة على سداد التجفيف التي تربط مجنون الشمالي بالبرّ الإيراني بمسافة كيلومترين.

الفيلق الثالث: يقوم بالاندفاع من منطقة كشك البصريّ باتجاه الشمال الغربي، وباحتلال مفرق الشهيد باسم وعقدة سدة الربط بين البرّ الإيراني ومجنون الشمالي، وبالسيطرة على مناطق المدفعية وقطع طرق إمدادت العدو.

الشكل (16 - 1)

عملية «توكلنا على الله» الثانية



الفيلق السادس: يقوم باحتلال لسان عجيردة وعقدة الربط بين لسان عجيردة والأرض الكائنة شمالها لقطع إمدادات العدو باتجاه مجنون.

القوة الجوية: تضرب وتدمر مقرات العدو ومناطق مدفعيته، وتمنع احتياطاته من التدخّل في المعركة.

طيران الجيش: يقوم بالإسناد المسلح والإنزال السمتيّ والقيادة والاستطلاع.

فُتح المقرّ المتقدم للقيادة العامة في منطقة الدير شمال البصرة في الساعة 20.00 في 24 حزيران/يونيو 1988.

تكامل وصول أعضاء القيادة العامة وضباط ركنهم وضباط خلية الإسناد الناري، وتم إرسال ضباط الارتباط برسائل إلى قادة الفيالق المشاركة لإخبارهم بفتح مقرّ القيادة العامة لإدارة معركة يوم الغد.

سير المعركة

في الساعة 3.45 شرعت المدفعية في تنفيذ الخطة النارية بقصف مواضع العدو بأكثر من 850 مدفعًا وقاذفة صواريخ لمدة 30 دقيقة، مع ضرب مدفعية العدو ومقراته بصواريخ اللونا والمدفعية الثقيلة، وفي الساعة 4.15 شرعت التشكيلات بالصولة بإسناد الرمي المباشر للدبابات التي اندفعت إلى المواضع الدفاعية الأمامية لقطعاتنا، وبإسناد السمتيّات المسلحة وطائرات الهجوم الأرضي.

- قيادة قوات الحرس الجمهوري

أ - الصفحة الأولى

احتلال السدة الشمالية لمجنون الجنوبي

انطلقت في الساعة 4.15 الموجة الأولى من قدمة الصولة المؤلفة من لواءي مغاوير حرس جمهوري، ولواءي مشاة حرس جمهوري، واللواء البحري 26 قوات خاصّة حرس جمهوري، بزوارق الصولة لاحتلال أهدافها على السدة الشمالية التي تبعد عن خطّ شروع قطعاتنا نحو كيلومترين. أعقبتها الموجة الثانية المؤلفة من لواءي مشاة آلية باستخدام عجلات القتال البرمائية BMP1. ثم الموجة الثالثة بلواء مدرع محمول على أطواف الهندسة العسكرية، ولواء مدرع آخر على جسر نصبته كتيبة التجسير. وفي الساعة 7.00 أكملت القوات احتلال أهدافها بعد تدمير العدو في السدة الشمالية، وفي العمق حتى السدة الجنوبية لمجنون الشمالي.

ب - الصفحة الثانية

احتلال مجنون الشمالي، وسدة الربط الشمالية مع البرّ الإيراني

في الساعة 7.30 شرعت قوات الصفحة الثانية بالهجوم، وكانت مؤلفة من لواءي مشاة حرس جمهوري، ولواءي مشاة آلية حرس جمهوري، ولواءي قوات خاصّة حرس جمهوري، ولواء مدرع بإسناد نيران مدفعية الحرس، ونيران دبابات الألوية المدرعة، والسمتيّات المسلحة. وفي الساعة 10.00 أكملت القوات احتلال أهدافها، وشرعت في التفتيش لجمع معدات العدو،

وأسر من تبقى من جنوده. وفي الساعة 13.30 تم إنزال فوج قوات خاصّة حرس جمهوري بالسمتيّات على سدة الربط الشمالية، ودفعت قيادة الحرس الجمهوري لواء المشاة 20 حرس جمهوري لإدامة التماس معه.

الفيلق الثالث

في الساعة 4.15 من فجر 26 حزيران/يونيو شرعت فرقة المشاة 41، ولواءا مغاوير الفيلق بالهجوم على مواضع العدو في السواتر المواجهة لدفاعات الفرقة الأمامية، بإسناد ناري وسمتيّ ورمي مباشر من دبابات ألوية الفيلق المدرعة، وفي الساعة 5.30 تمكّنت ألوية الفرقة والمغاوير من احتلالها. وفي الساعة 6.00 اندفعت فرقة المشاة الآلية الأولى باتجاه الشمال الغربي، لضرب احتياطات العدو القريبة والسيطرة على مدفعيته، وعلى سداد الربط لقطع طرق انسحاب العدو من مجنون الشمالي، وأعقبتها الفرقة المدرعة السادسة باتجاه الشمال الشرقي لضرب احتياطات العدو البعيدة، ومنعها من الاشتراك في معركة مجنون. وفي الساعة 8.30 طلب قائد الفرقة الآلية الأولى إرسال عجلات نقل ووحدات مغاوير لنقل أسرى العدو. وفي الساعة 10.00 تم احتلال مفرق الشهيد باسم، والسيطرة على قناة السليمانية. وفي الساعة 11.30 تمت السيطرة على سداد الربط، واندفعت بعض تشكيلات الفرقة المدرعة السادسة بعيدًا إلى الشرق فهاجمت ودمرت محطة قطار بستكاه، على خطّ سكة حديد المحمرة - الأحواز، ودمرت معظم القوات الإيرانية الموجودة على البرّ الإيراني شرق مجنون.

الفيلق السادس

في الساعة 4.15 شرعت أرتال الفيلق في الصولة على مواضع العدو بإسناد ناري وسمتيّ في لسان عجيردة، وبثلاثة أرتال، الرتل الأول هاجم العدو راجلًا على سدة عجيردة، والرتل الثاني اندفع شمالها، والرتل الثالث جنوبها في عمليات إحاطة بقوات محمولة بالزوارق من الجناحين، ومن ثم الإنزال خلف مواضع العدو التي تواجه وتقاتل الرتل الراجل. وفي الساعة 6.40 تمكّن لواء المغاوير المحمول بالزوارق من تخطي دفاعات العدو على السدة الرئيسة بمسافة 5 - 7 كلم، وهاجم مواضعه في اللسان الجنوبي المتفرع من سدة عجيردة، واحتلها بعد قتال شديد. وفي الساعة 7.30 وصلت أرتاله العقدة الوسطية في لسان عجيردة، وبذلك تم إكمال الصفحة الأولى من المعركة. في الساعة 8.30 شرعت الأرتال في تنفيذ الصفحة الثانية

من الخطة، وفي الساعة 14.30 وصلت ألوية مغاوير الفيلق إلى التقاء سدة عجيردة بسدة الوصل، وفي الساعة 15.00 تم تنفيذ توجيهات رئيس أركان الجيش بالإنزال السمتيّ في مثلث عجيردة، وفي الساعة 15.30 وصلت أرتال مغاوير الفيلق إلى سدة الدسم، واتجهت جنوبًا إلى مجنون الشمالي، وأدامت التماس مع قوات الحرس الجمهوري، وبذلك يكون الفيلق قد أكمل أهدافه كلها.

في اليوم التالي تم سحب تشكيلات الفيلق الثالث المدرعة والآلية من الأعماق التي وصلتها في العمق الإيراني إلى داخل الحدود العراقية، وبذلك انتهت معركة تحرير جزر مجنون التي سُميت «توكلنا على الله الثانية».

أُغلق مقرنا في الدير شمال البصرة في منتصف نهار 26 حزيران/يونيو 1988.

في اجتماع القيادة العامة بعد انتهاء معركة «توكلنا على الله الثانية» مباشرة، الذي حضره نائب القائد العام (وزير الدفاع) ورئيس الأركان ومعاونه للعمليات ومدير الاستخبارات العسكرية وحسين كامل المشرف على الحرس الجمهوري، عُرضت الخطوط الأولية لخطة تحرير المناطق المحتلة في الطيب والزبيدات شرق مدينة العمارة في قاطع الفيلق الرابع. وكانت ملامحها الرئيسة تتمحور على تعرّض الفيلقين لاستعادة العوارض المحتلة من العدو، والاندفاع في العمق إلى تدمير آلته الحربية، وقتل وأسر أكبر عدد من قواته، على أن تُنفَّذ في موعد لا يتعدى نهاية الأسبوع الثاني من شهر تموز/يوليو. وأقر القائد العام ذلك، وأمر بإعداد الخطة لمناقشتها في الاجتماع المقبل. وفي استرجاع بعض حوادث المعركة الأخيرة أشدتُ بأداء قيادة وقوات الفيلق الثالث والحرس الجمهوري، فبادر حسين كامل المشرف على الحرس بالادعاء أن أداء الفيلق السادس لم يكن بالمستوى المطلوب، وحاول الغمز من قناة قائده اللواء يالجين عمر عادل. فنظر الرئيس القائد العام نحوي فقلت: «سيدي الرئيس، المشرف على الحرس الجمهوري لم يكن هناك، أنا كنت هناك وقد زرتُ قائد الفيلق، واطلعتُ على الصعوبات التي تواجهها قواته في سداد عجيردة، فكان هادئًا وحازمًا وإجراءاته جيدة وملائمة، بذلت قطعاته جهدًا كبيرًا للتغلب عليها، لثقتها به وبجدارته». فعلق القائد العام قائلًا: «إن أداء الفيالق في التوكلات لا يقل عن أداء الحرس، وهذا ما يُسعدنا».

في الفيلق الأول

كانت قوات اللواء الركن سلطان هاشم (قائد الفيلق الأول) في قاطع ماوت من جبهة الفيلق الأول تنتزع العوارض، واحدةً بعد الأخرى، ولم تترك للعدو فرصة لاسترجاع أنفاسه وإعادة توازنه، حيث سيطرت على سلسلة الجبال المؤدية إلى ماوت، وتتهيأ لتتجاوز ماوت، والتقدّم جنوبًا على السلسلة الحدودية المشرفة والمسيطرة على جانبي الحدود. وفي مكالمة هاتفية معه أخبرته أن عليه أن يتوقع اشتداد مقاومة العدو وقتاله على السلسلة الحدودية في الأيام المقبلة. وهذا ما حدث، إذ خاضت القطعات المتقدمة على عارضة نزارة رش وسركيو قتالًا ضاريًا مع قوات الجندرمة الحدودية، ولم يهدأ قتالها إلا بعد مقتل قائد هذه القوات، الأمر الذي سرّع في تقدّم قطعاتنا، فتحررت المخافر الحدودية كركاشة وسيرين ومروي وسياكوز تباعًا، وانسحبت قطعات العدو من مواضعها في منطقة هلوان شرق جوارتة إلى ما وراء الحدود بسرعة بالغة، وتركت معظم تجهيزاتها ومعداتها ومدافعها وأسلحتها الثقيلة قبل أن نقطع طرق مواصلاتها مع الداخل الإيراني.

في 12 تموز/يوليو وردتنا معلومات من استخبارات الفيلق الأول أن أصوات انفجاراتٍ تُسمع من قاطع حلبجة فأمرتُ ضابط استخبارات الفيلق بالذهاب إلى المواضع الأمامية للتدقيق في الموقف وإخباري، فاتصل بي من المواقع الأمامية وأخبرني بأنه يسمع أصوات انفجارات كبيرة، ويعتقد أن العدو يُدمر ذخائره ومعداته قبل انسحابه، فأمرته أن يدفع السرايا الأمامية من التشكيلات المدافعة باتجاه حلبجة وخورمال تباعًا، فإن لم تواجه مقاومة أو كانت المقاومة ضعيفة فلتستمر في التقدّم وإخبار قائد الفيلق بذلك. وفي مساء ذلك اليوم دخل لواء المغاوير الأول للفيلق حلبجة واللواء 105 خورمال، من دون مقاومة، بعد انسحاب قوات العدو إلى ما وراء حدودها. وفي اليوم التالي كان اللواء سلطان في حلبجة، واتصل بنا منها. وبذلك انتهت عمليات الفيلق الأول لتحرير حلبجة وخورمال، التي سُميت «عمليات محمد رسول الله».

عودة إلى عمليات التوكلات في الجنوب

في اجتماع القيادة العامة التالي، أقر القائد العام خطة تحرير الطيب والزبيدات في قاطع الفيلق الرابع، وحدد يوم 12 تموز/يوليو 1988 موعدًا لها، فبُلِّغ القادة المعنيون، وشرعوا على الفور في إعداد خططهم وتهيئة متطلباتها.

كان الفريق الركن محمد عبد القادر الداغستاني قائد الفيلق الرابع من

الضباط المتميِّزين، شغل منصب مدير التخطيط في معاونيّة العمليات برئاسة أركان الجيش لفترة طويلة. وعندما زرته للاطلاع على خطته لتنفيذ الواجب وفق ما جاء في خطة القيادة العامة، وسألته عن مدى معرفته بطبيعة ساحة العمليات التي ستندفع إليها تشكيلاته الآلية والمدرعة في العمق الإيراني، وهل زارها قبلًا عندما كانت قواتنا في العمق الإيراني في بداية الحرب، أجاب أن الفرصة لم تسنح له آنذاك. ولمّا كنت أعلم أن اللواء الركن إياد خليل زكي كان رئيسًا لأركان الفرقة العاشرة المدرعة التي كانت في هذا القاطع قبل انسحابنا إلى الحدود الدولية في عام 1982، أرسلت في طلبه فقال إنه يعرف تفاصيل العمق الإيراني في هذا الاتجاه معرفة كاملة، فنُقل من منصبه قائدًا للفيلق الخامس، وأُلحق على الفور قائدًا للفيلق الرابع، بدلًا من الفريق الداغستاني الذي قبِل الأمر بتفهم وانضباط عالٍ وعيِّن معاونًا لرئيس أركان الجيش للتدريب، وهو منصب أبدع فيه كعادته.

تحرير الطيب والزبيدات «توكلنا على الله الثالثة»

12 تموز/يوليو 1988

في بداية تشرين الثاني/نوفمبر 1982 كان العدو قد شنّ هجومًا واسعًا تحت اسم «محرم الحرام» على قواتنا داخل الأراضي الإيرانية، شرق منطقة الطيب والزبيدات الواقعة شمال شرق مدينة العمارة، وتمكَّن بعد معارك عنيفة من دفع قواتنا إلى داخل حدودنا الوطنية، وتعقّبها بعد عبورها نهر دويريج، واحتل العوارض والمرتفعات الحدودية ومناطق أخرى، بعمق 5 إلى 10 كلم داخل حدودنا. وسيطرت قواته نتيجة ذلك على مرتفعات الزبيدات والشرهاني وحقول نفط أبو غرب ومرتفعات الطيب. بعد قتال شديد تمكَّنت قواتنا من إيقاف تقدّمه، واستقر الموقف على حاله منذ ذلك الحين.

طبيعة المنطقة

تشكِّل مرتفعات الطيب والزبيدات النهايات الجنوبية لسلسلة جبل حمرين، والمنطقة عمومًا متموجة تكثر فيها الأودية والقطوع، وتأخذ في الارتفاع تدريجًا كلما تقدّمنا شرقًا حتى الحدود الدولية، ثم تبدأ بالانخفاض التدريجي حتى تصبح أرضًا مستوية صالحة لمسير الآليات كلها. يُعتبر نهر دويريج (عرض 70 إلى80م، وينحدر إلى الأراضي العراقية من مرتفعات حمرين في قطاعها الإيراني ويسير بموازاة الحدود الدولية) المانع الرئيس أمام تقدّم الدروع والآليات، حيث يتحدَّد العبور بالجسور أو من خلال بعض

المخاضات المحدودة. وأهم الطرق والمقتربات من الجانب الإيراني للحدود:

أولًا: طريق إمام زادة عباس - جم صريم - الشرهاني - أبو غرب - الزبيدات. وهي طريق معبَّدة وصالحة لتنقّل الآليات بأنواعها كله.

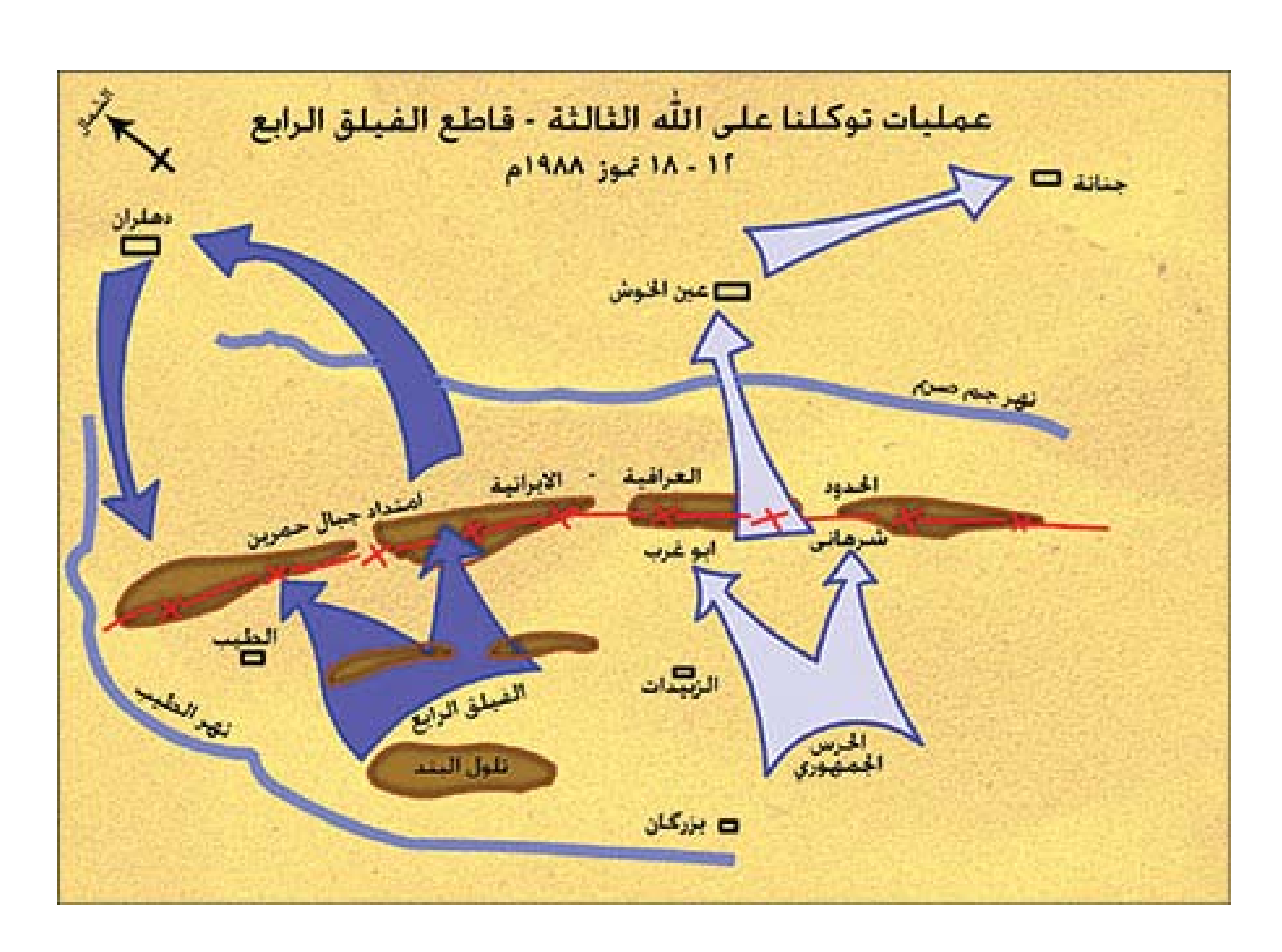
ثانيًا: طريق عين خوش - الشرهاني - الزبيدات.

ثالثًا: طريق عنكيزة - جم هندي - جم صريم - موسى الحاوي. وهناك طرق فرعية ومقتربات أخرى غيرها.

تشكل العوارض والمرتفعات التي يحتلها العدو العوارض المسيطرة في ساحة المعركة.

الشكل (16 - 2)

معركة «توكلنا على الله» الثالثة، 12-18 تموز/يوليو 1988



الاستحضارات

- التدريب في أحوال مناخية قاسية، إذ تصل درجات الحرارة في هذا الشهر إلى أكثر من 50 درجة مئوية، وفي منطقة تكثر فيها المرتفعات والأودية والقطوع، ويسكنُ الهواء حتى يشقّ على الفرد التقاط أنفاسه بعد مجهود بسيط. أصبحت اللياقة البدنية والقدرة على التحمل والمطاولة من

أهم ما جرى التركيز عليه من القادة والآمرين في تدريب وحداتهم وجنودهم قبل إشراكهم في المعركة. فركّزوا على تطوير قدراتهم البدنية في الفترة المحدودة المتيسّرة لهم قبل المعركة، وكثّفوا تدريبهم على الرياضة البدنية، ومسيرات التحمّل، حيث أجرت الوحدات ثلاث مسيرات تحمّل واجتياز موانع وسواتر ترابية، كما تم إنشاء ثلاثة ميادين تدريب تعبوي لكل لواء مشارك، مشابهة للأهداف التي سيهاجمونها.

- المؤتمرات: بعد أن بُلِّغت الفرق شفويًّا بتوجيهات القيادة باستعادة الأرض الوطنية، طُلب منها إجراء تحضيراتها بأقصى درجات الكتمان، وجرت لكل فيلق سلسلة من المؤتمرات:

- مؤتمر في مقرات الفيالق للتحضيرات للمعركة
- مؤتمر مناقشة الخطط
- مؤتمر التعديل والتنسيق
- مؤتمر تنسيق الخطط النارية

أجرى قائد الفيلق الرابع مؤتمرًا لشحذ الهمم للآمرين كافة.

قوات الطرفين

- العدو

فرقة المشاة 21 وتتألف من أربعة ألوية، أحدها مدرع.

فرقة المشاة الآلية 77 وتتألف من أربعة ألوية، ثلاثةٌ منها آلية والرابع مدرع.

لواءا مغاوير.

اللواء الأربعون من حرس الخميني (سراب كون).

خمسة أفواج جندرمة.

16 كتيبة مدفعية مختلفة العيارات.

تنفتح تشكيلات مشاة العدو، ومشاة حرس الخميني على المرتفعات المسيطرة من أرضنا المحتلة في مرصد القائد والزبيدات وأبو غرب والشرهاني ومناطقَ أخرى.

يحتفظ بقواته المدرعة والآلية إلى الخلف في مناطق جم صريم وعين خوش احتياطًا، ولأغراض الهجوم المقابل.

- قواتنا

الحرس الجمهوري

فرقة مدرعة: «المدينة المنورة».

فرقتا مشاة: «بغداد» و«نبوخذنصر».
فرقة القوات الخاصّة حرس جمهوري.
20 كتيبة مدفعية، وكتيبتا صواريخ.
أربع كتائب هندسة، وكتيبة تجسير.
الفيلق الرابع
أربع فرق مشاة: الثانية والفرقة العشرون، والفرقة التاسعة والعشرون.
فرقتا مشاة آليتان: الأولى والخامسة.
لواءان مدرعان.
لواءا مغاوير.
34 كتيبة مدفعية: (19 متوسطة و15 ميدان).
كتيبتا صواريخ أرض-أرض.
سبع كتائب هندسة ميدان.
القوات الجوية
ستة أسراب هجوم أرضي، وسرب دفاع جوي.
مفارز من طائرات التشويش الإلكتروني والتصوير.
طيران الجيش
40 سمتيّة مسلحة للإسناد والقيادة والسيطرة.
100 سمتيّة نقل للإنزال وللإخلاء الطبي.

الخطة

في عمليات تحرير الفاو والشلامجة ومجنون، كان تصميمنا للمعركة يستهدف طرد العدو من الأرض الوطنية المحتلة بأسبقية عالية، وإيقاع أكبر ما يمكن من الخسائر به وبآلته العسكرية كأسبقية ثانية، وأسر من تبقى بأسبقية متأخرة، وذلك لأهميتها وتهديدها أهدافنا الحيوية أو لقيمتها الاقتصادية. أما في هذه العملية وما يليها فوضعنا تدمير آلته الحربية، وأسر أكبر عدد من أفراده كأسبقية متقدمة، مع بقاء الأسبقيات الأخرى من أهداف العمليات. وبناء عليه صُممت الخطة على اندفاع قواتنا بعد تطهير المواضع الدفاعية للعدو إلى أعماق مناسبة لتدمير احتياطاته ومعداته القتالية الثقيلة وأسر أكبر عدد ممكن من أفراده.

الحرس الجمهوري: يقوم في الساعة 7.15 يوم 12 تموز/يوليو 1988 بالهجوم على العدو في منطقة الشرهاني لتدميره، وتحرير الأرض المحتلة، والاندفاع إلى عين خوش لتدمير مدفعيته، وأسر أكبر عدد من قواته.

الفيلق الرابع: يقوم في الساعة 7.15 يوم 12 تموز/يوليو 1988 بالهجوم على العدو في منطقة الطيب - زبيدات لتدميره وتحرير الأرض المحتلة والاندفاع إلى دهلران لتدمير مدفعيته وأسر أكبر عدد من قواته.
القوة الجوية: تقوم بضرب وتدمير مقرات العدو ومناطق مدفعيته واحتياطاته والجسور في موسيان وعين خوش والنادري.
طيران الجيش: يقوم بالإسناد المسلح والإنزال السمتيّ والقيادة والاستطلاع.
فُتح المقرّ المتقدم للقيادة العامة في العمارة في الساعة الثامنة مساء 11 تموز/يوليو 1988.

المعركة

الحرس الجمهوري: شرعت مدفعيته بالقصف المدفعي في الساعة 6.45 يوم 12 تموز/يوليو 1988.

أ - الصفحة الأولى

في الساعة 7.15 عبرت قطعات الصولة الأمامية خطّ الشروع تحت ستار كثيف من نيران المدفعية، ونيران الدبابات المباشرة، بعد أن تخللت من المواضع الدفاعية لقطعات الفيلق الرابع.

في الساعة 8.00 أكملت الألوية الأمامية احتلال الساتر الدفاعي الأول للعدو الإيراني. وفي الساعة 10.00 تم احتلال الساتر الدفاعي الثاني للعدو الإيراني بعد انهيار قطعاته وهروبها، وقُبض على عددٍ من الأسرى. وفي الساعة 11.00 تمكَّن اللواء 16 قوات خاصّة حرس جمهوري ومغاوير الحرس الجمهوري من عبور نهر دويريج بالزوارق المطاطية، وتأسيس رأس جسر واسع على الضفة الشرقية لهذا النهر.

ب - الصفحة الثانية

نُصبت جسور عدّة على نهر دويريج، واندفعت التشكيلات المدرعة والآلية عبرها إلى العمق الإيراني، واستولت على مدفعية العدو، وكتيبة صواريخ هوك للدفاع الجوي في عين خوش واندفعت إلى جنانة، ودمرت القطعات الإيرانية كلها فيها، ثم بدأت بجمع الأسرى والمعدات والتجهيزات التي تركها العدو عند هروبه. وقامت وحدات القوات الخاصّة بالإنزال السمتيّ على مقر الفرقة 21، ومقرّ عمليات الغرب التي تقود العدو في هذا الاتجاه، وأسرت عددًا من هيئات الركن فيها.

الفيلق الرابع: شرعت مدفعية الفيلق الرابع بالقصف المدفعي في الساعة 6.45.

أ - الصفحة الأولى

في الساعة 7.15 شرعت قطعات الصولة بالهجوم من خلال المواضع الدفاعية الأمامية للفيلق، تحت ستار نيران المدفعية والرمي المباشر للدبابات، وفي الساعة 8.00 تمكّنت التشكيلات الأمامية للفرقتين 20 و29 من احتلال الساتر الدفاعي الأول للعدو، وفي الساعة 8.30 أصدر قائد الفيلق أوامره للفرقتين الآليتين الأولى والخامسة، وفرقة المشاة 2 بتداخل الصفحات والاندفاع فورًا إلى تنفيذ الصفحة الثانية. وفي الساعة 9.20 أكملت الفرقتان 20 و29 أهداف الصفحة الأولى باحتلالهما الساتر الدفاعي الثاني للعدو.

ب - الصفحة الثانية

في الساعة 9.40 أصدر قائد الفيلق أوامره بقيام السمتيّات بمراقبة ودلّ رؤوس أرتال الفرقتين الآليتين المندفعتين إلى العمق ومساعدتهما في إيجاد الطرق والدلالة وتقديم الإسناد. وفي الساعة 10.30 تم التقدم باتجاه موسيان ونهر عنبر لحصر قطعات العدو.

في الساعة 11.30 استلمت الفرقة الآلية الأولى مسؤولية القاطع، وتحررت الفرقة الآلية الخامسة للاندفاع إلى مدينة دهلران. وفي الساعة 17.00 أكملت تطويق المدينة. وفي 13 تموز/يوليو 1988 احتُلت المدينة وجرى تفتيشها وجمع الأسرى والمعدات والتجهيزات. طلبت الفرقة من الفيلق إرسال عجلات وساحبات لنقل الغنائم. وفي الساعة 11.00 من اليوم التالي أمر رئيس أركان الجيش بدفع لواءٍ آلي من الفرقة جنوبًا غرب نهر الطيب لحصر العدو هناك، وجرى في أثناء التنفيذ الاستيلاء على عدد من مقراته المعادية.

القوة الجوية: قامت طوال أيام المعركة بضرب المقرات والاحتياطات البعيدة والجسور الرئيسة على أنهار الكارون والكرخة والدز. ووجهت ضربات عدّة إلى قاعدة الوحدة الجوية للعدو، عندما شعرت بمحاولتها التدخل في المعركة. وتم تدمير معدات العدو أو الاستيلاء عليها، وأُسر أكثر من 7500 من ضباط العدو وجنوده، وهو عدد أكبر ممن أُسروا في معارك التحرير الثلاث السابقة.

في هذه المعركة كان أداء الفيلق الرابع والتشكيلات التي عملت بإمرته متميزًا، ولم يكن أقل من أداء الحرس الجمهوري، إن لم يكن بمستواه، وتميز قائده اللواء الركن إياد خليل زكي بالمهارة الحرَفية وبالجرأة والمبادرة، وأثبت المقولة المعروفة أن الوحدة بآمرها. وفي معارك «التوكلات» أثبتت فيالق الجيش أنها تنافس قوات الحرس الجمهوري في الأداء والقتال.

في مساء اليوم الأول من المعركة، وفي مقرّ القيادة العامة المتقدّم، كان الرئيس وأعضاء القيادة وقائدا الفيلقين في لقاء ساده جو ودّي. كان الرئيس غاية في الأريحية ينكّت ويقص ويحكي عن ذكريات بعيدة من جو القتال والمعارك. وفجأة قال إنه أصدر في هذا اليوم أمرًا بتعيين حسين كامل المشرف على الحرس ورئيس هيئة التصنيع العسكري وزيرًا للصناعة، إضافة إلى مواقعه التي يشغلها، وأضاف: «أعتقد أن حسين كامل فحسب من يستطيع أن يجمع كل هذه المناصب»، وسكت ليسمع تعليقًا أو حماسة لإجرائه هذا. ولم ينبس أيٌّ منا بأي تعليق.

قلت في نفسي: ولمَ لا، فالرجل لم يترك لوزير الصناعةِ أيًّا من مصانعه أو صلاحياته.

أُغلق المقرّ المتقدم للقيادة العامة في العمارة في الساعة الثامنة من مساء 14 تموز/يوليو 1988.

الفصل السابع عشر: «توكلنا على الله» الرابعة في القاطع الأوسط خاتمة معارك التحرير 22 تموز/يوليو 1988

حدثت أمور طريفة في تلك الأيام، منها أنني كنت قد رشّحت مدير التخطيط في دائرة العمليات لقيادة الفيلق الخامس [230] وهو من الضباط الجيدين، واكب الحرب منذ اندلاعها في مختلف المناصب، وأصبحت لديه خبرة ممتازة تؤهله لقيادة الفيلق الخامس الذي سبق وأن عمل في قاطعه فترة مناسبة قائدًا لإحدى القوات. أرسلت الترشيح إلى القائد العام لإصدار الأمر بذلك بعد موافقته. استدعيت مدير التخطيط وطلبت منه إعادة دراسة تقدير موقف عن قاطع الفيلق الخامس، وحجم القوات الموجودة في الفيلق في ضوء التهديد المعادي في هذه المرحلة، وإعطاء توصياته إما بإبقاء حجم القطعات على ما هي عليه وإما بتعزيزها بقطعات إضافية أو سحب بعضها؟

في اليوم التالي أنجز دراسته التي يوصي فيها بسحب عدد من التشكيلات من قاطع الفيلق، لعدم وجود تهديد معادٍ في هذه المرحلة، وكي تكون احتياطًا للقيادة العامة لتتفرغ للتدريب وإعادة التنظيم. وبعد يومين صدر الأمر بتولّيه قيادة الفيلق الخامس، فجاء يسألني إلغاء أمر سحب التشكيلات الذي أوصى به في دراسته. فقلت: «كانت دراستك دقيقة من النواحي كلها، أليس كذلك؟»، ولم يستطع إلا أن يقول «نعم». قلت: «فكيف تريدني أن ألغي توصياتها؟»، فذهب وهو يعلم أنه من عمل المقلب الذي هو فيه.

شرعنا فور عودتنا من قاطع الفيلق الرابع في إعداد خطة المعركة الأخيرة، لعرضها على القائد العام لإقرارها. سبق وأقر القائد العام فكرة العملية والاتجاهات الرئيسة فيها عندما عرضتها عليه في فترة سابقة لكسب الوقت وتأمين متطلباتها من تنقّل وحركة قطعات، وحددنا الأسبوع الأخير من الشهر الجاري موعدًا أوّليًا لتنفيذها.

في اجتماع القيادة العامة في 16 تموز/يوليو 1988 الذي حضره القائد العام ونائبه ورئيس الأركان ومعاونه للعمليات ومدير الاستخبارات وحسين كامل المشرف على الحرس الجمهوري ورئيس التصنيع العسكري، عُرضت الخطة فأقرّها القائد العام، وحدد يوم 25 تموز/يوليو موعدًا لتنفيذها.

بعد الاجتماع صاحبتُ القائد العام إلى مكتبه لمناقشة بعض القضايا التي

تخص رئاسة الأركان. وبعد الانتهاء منه قلت له: «سيدي الرئيس لدي فكرة عمليات لاحتلال عربستان وتحريرها، وتدمير القاعدة المادية للقوات المسلحة الإيرانية التي شيّدها الشاه هناك، لمواجهة العراق. ويُترك لكم قرار البقاء أو الانسحاب أو ما تنسبونه».

دفع الرئيس رأسه إلى الخلف ونظر نحوي وقد ضاقت عيناه، وسأل: «ماذا؟ وكيف؟»، فأجبته: «سيدي الرئيس، بعد الانتهاء من المعركة المقبلة، فإن ما نحتاج إليه أسبوعان أو ثلاثة لإعادة تحريك وحشد قوات الحرس الجمهوري في اتجاه العمل الجديد. أما بقية القوات فتتحرك من أماكنها الحالية. وتتلخص فكرة العمليات بالعمل بأربعة فيالق، وكما يلي: الفيلق الرابع يتحرك إلى ديزفول، ويغلق عربستان عن إيران في مضيق سد الدز شمال ديزفول. أما الفيلق الثالث فيندفع نحو مدينة الأحواز ويطوّقها، وتعبر إحدى فرقه الآلية أو المدرعة، ليلتقي الفيلق السابع الذي سيعبر شطّ العرب من جنوب عبادان، ويطوق عبادان وتسيطر قواته على المناطق شرق نهر الكارون. ويندفع الحرس الجمهوري إلى المنطقة بين الأحواز وديزفول، ليكون احتياطًا ضاربًا في ساحة عمليات عربستان».

كان الرئيس يصغي إلى ما أقوله من دون مقاطعة أو استفسار أو تعليق. وبقي كذلك بضع دقائق ثم قال: «هل يعرف غيرك ذلك؟». أجبته: «كلا سيدي». قال: «اسمعني جيدًا أنا وأنت فحسب نعرف ذلك ولا أريد لأحد أن يعرف بها»، ثم كرّر «أي أحدٍ مهما كان شأنه». وقال أخيرًا: «فريق نزار لا أُريدكَ حتى أن تحلم بها!».

في اجتماع الخميني بالقيادات العسكرية للجيش الإيراني وقيادات حرس الخميني، عرض القادة الحالة التي وصلوا إليها في الحرب، وعدم قدرة بقية قواتهم على الاستمرار في خوضها، فاضطر إلى الموافقة على قرار مجلس الأمن رقم 598 الصادر في تموز/يوليو 1987 وإيقاف الحرب. وقال كلمته المشهورة: «كنت أفضل أن أتجرع السم على أن أوافق على هذا القرار». وفي ضوء ذلك، وافقت إيران على القرار 598 وأعلنت ذلك في 18 تموز/يوليو 1988.

كان وقع هذا الإعلان علينا شديدًا ومفاجئًا، حيث كان أمامنا أسبوع واحد فقط لمهاجمة وتدمير ما تبقى من قدرات ومعدات العدو المتركزة في ساحة عمليات القاطع الأوسط.

في اجتماع عاجل للقيادة العامة تقرر تقديم يوم تنفيذ عملية القاطع الأوسط إلى 22 تموز/يوليو بدلًا من 25، مع اتّخاذ كل ما يتطلبه ذلك من

إجراءات تضمن تنفيذه في الموعد المحدد. كانت المعضلة الرئيسة التي تواجه رئاسة الأركان ودوائرها هي في تنقّل قوات فيلق الحرس الجمهوري والفرقة الخامسة الآلية من العمارة إلى خانقين ومندلي في القاطع الأوسط، لمسافة 400 كلم، والفرقة المدرعة العاشرة من حلبجة وسيد صادق في قاطع الفيلق الأول إلى مندلي، لمسافة 150 كلم في ثلاثة أيام فقط.

لذلك تقرر إرسال ناقلات الدبابات المتوافرة كلها في القوات المسلحة، وناقلات الساحبات الزراعية وأنابيب نقل النفط في وزارتي الزراعة والنفط إلى مدينة العمارة (قاطع الفيلق الرابع) لنقل عجلات القتال المدرعة والدبابات والمدافع الذاتية الحركة، لفيلق الحرس الجمهوري والفرقة الخامسة الآلية، على أن تتكامل قبل يوم 21/7 في قاطع الفيلق الثاني، وخلال ثلاثة أيام فقط، وعلى أن يكون القادة والآمرون يوم 20 في القاطع للقيام بالاستطلاع، وعلى أن يُشرف وكلاؤهم على قيادة تنقّل القوات. أما بالنسبة إلى الفرقة العاشرة المدرعة التي كانت منفتحة في حلبجة وسيد صادق في قاطع الفيلق الأول، فتقرر تنقّلها على الطرق سياقة، وعلى سرف الدبابات لعدم تيسر الناقلات.

تابع ضباط ركن رئاسة الأركان ودوائرها حركة وتنقّل أرتال التشكيلات من مناطق انطلاقها حتى وصولها لتذليل العقبات التي تظهر هنا وهناك ومعالجتها. وفي 20/7 وصل القادة والآمرون إلى قاطع الفيلق الثاني، وقاموا باستطلاعاتهم لقواطع واجباتهم. وفي 21/7 تكامل ليلًا وصول التشكيلات كافة: الحرس الجمهوري والفرقة الخامسة الآلية والقسم الأكبر من الفرقة العاشرة التي تنقلت على سرف الدبابات من قاطع حلبجة.

المعركة الأخيرة

نصّت اتفاقية الجزائر في عام 1975 على إعادة أراضٍ عراقية تجاوز عليها الجانب الإيراني في فترات سابقة، ومنها زين القوس وسيف سعد، ومناطق أخرى في المناطق الحدودية لمحافظتي واسط (الكوت) وديالى. لم تُعَد هذه الأراضي في زمن الشاه بحجة الوضع الداخلي المضطرب، وبقي الحال على ما هو عليه بعد الثورة الإيرانية على الرغم من مطالبات العراق المتكررة. وعندما تصاعد التوتر بعد المناوشات الحدودية في عام 1980 قصف الجانب الإيراني منشآت نفطية ومدنًا حدودية من المناطق التي كان يجب إعادتها إلى العراق، ومن زين القوس على سبيل المثال قُصِفت مدينة خانقين الحدودية ومنشآت النفط العراقية في النفط خانة.

بعد سلسلة من الاشتباكات المحدودة ابتداءً من 4/9/1980 تمكَّن العراق من استعادة معظم المخافر الحدودية والأراضي التي كان يطالب بها. وفي 22/9 اجتاحت قوات الفيلق الثاني (3 فرق مشاة 4 و8 و12، والفرقة المدرعة السادسة) الأراضي الإيرانية من مهران جنوبًا حتى قصر شيرين شمالًا، وبأعماق تصل إلى صالح أباد غرب عيلام جنوبًا، وإلى كيلان غرب وسربيل زهاب غرب مضيق باي طاق - كرمنشاه شمالًا. وفي عام 1981 تمكَّنت إيران من استعادة بعض المواقع التي خسرتها في بداية الحرب، وبعد عودة قواتنا إلى الحدود الدولية تمكَّنت إيران من احتلال بعض العوارض، والمرتفعات الحدودية ضمن الأراضي العراقية، كسانوبا وكسكا ومخفر صلاح الدين شرق مندلي ومرتفعات جلات والشهابي ومخافر الصدور والدراجي شرق بدرة. وجرت معارك عديدة على هذه العوارض.

طبيعة المنطقة

تقع منطقة ساحة العمليات على امتداد حدود محافظتي ديالى وواسط (الكوت)، من شمال عارضة بمو الحدودية شرق ناحية قوراتو من قضاء خانقين إلى جنوب قضاء بدرة، التابع لمحافظة واسط جنوبًا بجبهة أكثر من 200 كلم، ومن قصر شيرين (مدينة حدودية إيرانية تقابل مدينة خانقين الحدودية العراقية) إلى مضيق باي طاق [231] في العمق الإيراني (90 إلى100 كلم شمالًا)، ومن مهران إلى غرب مدينة عيلام في العمق الإيراني (70 إلى 80 كلم جنوبًا)، وطبيعة الأرض في الداخل الإيراني جبلية، وتبدأ بالارتفاع كلما توغلنا في عمقه. وهناك بعض المناطق السهلية في سربيل زهاب وإمام حسن وسومار التي تتخللها أودية وأنهار صغيرة، ويوجد عدد من المدن الصغيرة مثل قصر شيرين وسربيل زهاب وسومار وكيلان غرب ومهران وصالح أباد.

أما في الجانب العراقي من الحدود فهناك سلسلة المرتفعات والروابي الحدودية، أهمها جبل بمو وآق داغ ومرتفعات زين القوس وسانوبا وكسكا والصدور، نزولًا إلى مرتفعات جلات في أقصى الجنوب. وأهم المدن الحدودية من الجانب العراقي من الشمال نزولًا: قوراتو وخانقين ومندلي وزرباطيّة وبدرة.

أهم الطرق التي تربط البلدين في هذا القاطع: طريق خانقين - قصر شيرين - سربيل زهاب - مضيق داوود - مضيق باي طاق - إسلام أباد - كرمنشاه - همدان - طهران. وهي الطريق الدولية الأولى التي تربط بغداد

بطهران. وطريق خانقين - كوهينة - إمام حسن، التي تتفرع شمالًا إلى سربيل زهاب حيث ترتبط بالطريق الأولى وتتفرع جنوبًا إلى كيلان غرب. وطريق مندلي - سومار وإلى كيلان غرب. وطريق بدرة - مهران - صالح أباد - عيلام. وهنالك طرق عرضية وطرق تعاون متعددة في المنطقة.

الاستحضارات

كانت أهم الاستحضارات إطلاقًا السباق الماراثوني بيننا وبين الوقت المتاح، إذ لم يتبقَّ لنا إلا أقل من 72 ساعة لإكمال تنقّل قوات الحرس الجمهوري لمسافة أكثر من 400 كلم، من مناطق وجودها في قاطع العمارة إلى القاطع الأوسط (فرقتان مدرعتان، وفرقتا مشاة، وفرقة قوات خاصّة، ومجموع ألويتها خمسة ألوية مدرعة، وثلاثة ألوية مشاة آلية، وعشرة ألوية مشاة، وثلاثة ألوية قوات خاصّة، وثلاثة ألوية مغاوير، مجموعها 24 لواء و24 كتيبة مدفعية، وكتيبتا صواريخ، وست كتائب هندسة). وكان عدد أفراد قوات الحرس التي تمت المناورة بها مع معداتها يعادل أكثر من ثماني فرق من الجيش.

كما تمت المناورة بفرقة المشاة الآلية الخامسة بدباباتها وناقلات الأشخاص المدرعة، وأربع كتائب مدفعية، وكتيبة هندسة من القاطع نفسه. وتنقَّلت الفرقة المدرعة العاشرة من القاطع الشمالي (سيد صادق - حلبجة) على الطريق سيرًا على سرف الدبابات، ولمسافة أكثر من 150 كلم في طريق واحدة تمرّ بمناطق جبلية واستدارات حادة، مع ما نتوقعه من أعطالٍ ميكانيكيةٍ وإجهادٍ لطواقمها، علاوة على حتمية زجّهم في المعركة فور وصولهم. كان هذا تحديًا عظيمًا نجحنا في مواجهته والنجاح فيه بإصرار القادة والمقاتلين، ولا نستثني الجندي البسيط المؤمن بقدسية القضية التي يقاتل من أجلها، وهي أمن وسلامة العراق والأمة من ورائه.

العدو

مقرّ عمليات الغرب، وبإمرته في القاطع المواجه لخانقين ومندلي:

- فرقة المشاة 58 وفرقة المشاة 84 وفرقة المشاة 88 وفرقتان من حرس الخميني.
- اللواء المدرع 37 وكتيبة دبابات في مدرسة الدروع في قلعة شاهين.
- اللواء المظلي 55 من خمسة أفواج.
- 12 كتيبة مدفعية وثماني بطاريات هاون ثقيل.

في القاطع المواجه لبدرة:
- فرقة مشاة وفرقة من حرس الخميني ولواءان من حرس الخميني ولواء مغاوير.
- كتيبة دبابات وأربع كتائب مدفعية.

قواتنا
- فيلق الحرس الجمهوري
فرقة بغداد: ثلاثة ألوية مشاة ولواء مغاوير ولواء مدرع ولواء مشاة آلي.
فرقة حمورابي: لواءان مدرعان ولواء مشاة آلي ولواء مغاوير ولواء مشاة.
فرقة المدينة المنورة: لواءان مدرعان ولواء مشاة آلي ولواءا مشاة ولواء مغاوير.
فرقة نبوخذنصر: أربعة ألوية مشاة.
فرقة القوات الخاصّة: ثلاثة ألوية قوات خاصّة.
24 كتيبة مدفعية وكتيبتا صواريخ أرض - أرض لونا و18 بطارية هاون ثقيل.
ست كتائب هندسة.
- الفيلق الثاني
الفرقة المدرعة العاشرة وفرقة المشاة الآلية الخامسة ولواء مدرع من الفرقة المدرعة 17 ولواءان مدرعان وأربعة فرق مشاة ولواءا مغاوير.
20 كتيبة مدفعية و12 بطارية هاون ثقيل ولواء صواريخ أرض - أرض لونا.
خمس كتائب هندسة
- الفيلق الأول الخاص
ثلاث فرق مشاة ولواءان مدرعان و1 لواء مشاة آلي ولواءا مغاوير.
12 كتيبة مدفعية وثلاث بطاريات هاون ثقيل.
ثلاث كتائب هندسة.
- القوة الجوية
خمسة أسراب هجوم أرضي.
سربا ميراج متعددا المهمات.
سرب دفاع جوي ومفارز من طائرات تشويش إلكتروني وطائرات تصوير.
طيران الجيش
180 سمتيّة مسلحة وإنزال سمتيّ وإخلاء طبي وقيادة وسيطرة.

الخطة

كانت خطة العمليات تستهدف التعرض في قاطعي الفيلق الثاني، والفيلق الأول الخاص، وتدمير العدو فيهما، والاستيلاء على معداته، وأسر من يتبقى من عسكره.

فيلق الحرس الجمهوري: في الساعة 7.15 من يوم 22/7/1988 على العدو من هوات شمالًا حتى جاي حمام داخل جنوبًا ويدمره، ويندفع في العمق إلى سربيل زهاب وكيلان غرب لتطويق وأسر أكبر عدد من قوات العدو.

الفيلق الثاني: يقوم بالهجوم في الساعة 7.15 من يوم 22/7/1988 على العدو من جاي حمام خارج شمالًا، حتى جبل ميمك جنوبًا ويدمره، ويندفع في العمق إلى جبل داروان وكيلان غرب لتطويق وأسر أكبر عدد من قوات العدو.

الفيلق الأول الخاص: يقوم بالهجوم في اليوم التالي للتعرض في قاطع الفيلق الثاني، ويدمر العدو الموجود في مخافرنا الحدودية المحتلة، ويندفع في العمق إلى مهران وصالح أباد حتى المرتفعات غرب عيلام لتطويق وأسر أكبر عدد من قوات العدو.

المعركة

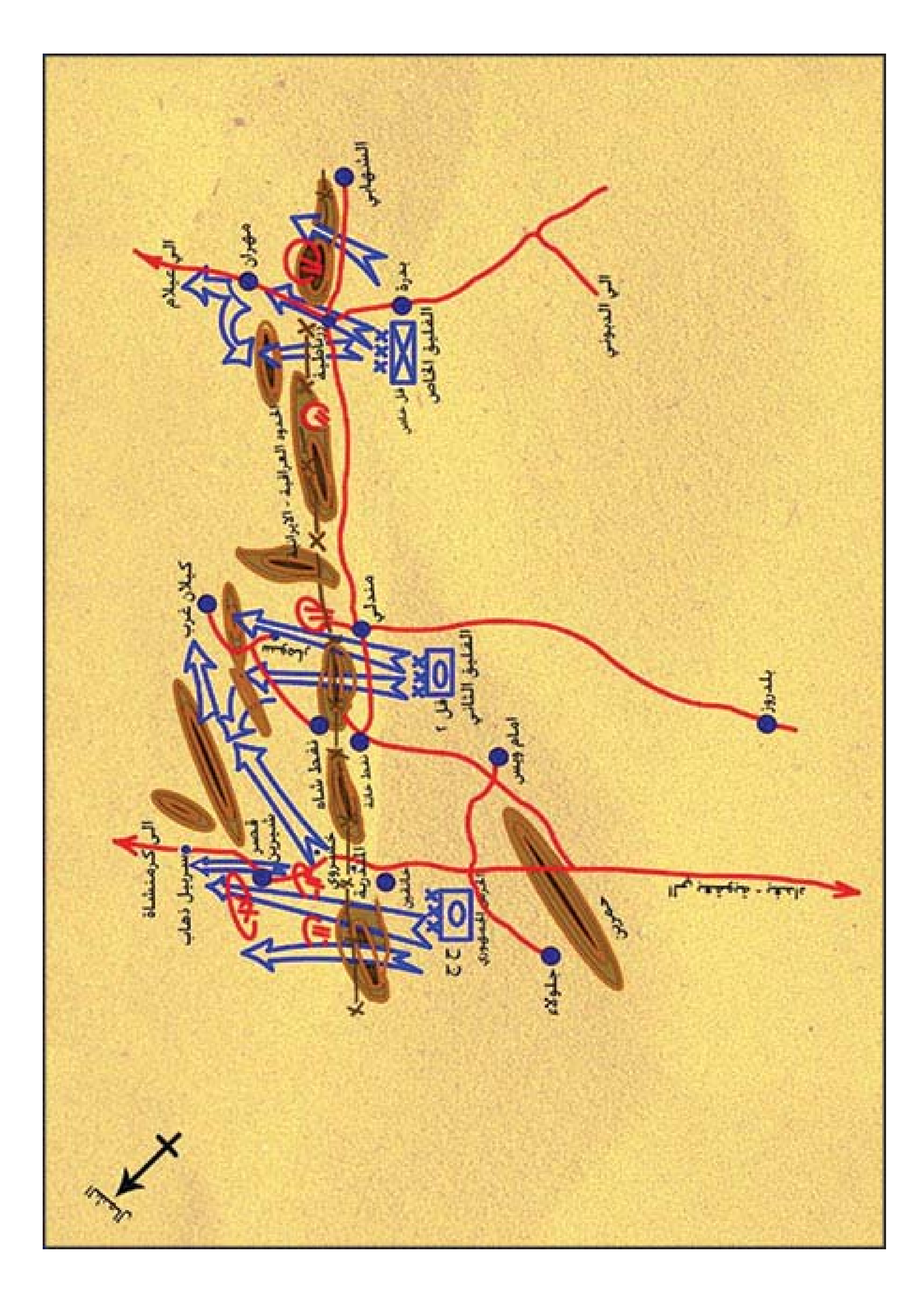
في الساعة 6.45 فتحت مدفعيات الفيلقين نيرانهما لمدة 30 دقيقة، وفي الساعة 7.15 اندفعت قوات الصولة لمهاجمة المواضع الدفاعية الأمامية للعدو، وفي الساعة 11.00 تم تدمير مواضع العدو والاستيلاء عليها في جبهة الفيلقين.

في الساعة 13.00 اندفعت القطعات الآلية والمدرعة والمغاوير لمهاجمة المدن والمرتفعات الوسطى من ساحة العمليات، وتمكَّنت قوات الحرس الجمهوري من احتلال قصر شيرين وجاي حمام ومرتفعات كوهينة وكمكو ومرتفعات جبل كولينا، وتمكَّنت قوات الفيلق الثاني من احتلال سومار وجبل داروان حيث التقت قوات الحرس الجمهوري، وتم تطويق القطعات الإيرانية كلها الموجودة في هذا الجيب، وشرعت في جمع الأسرى.

الشكل (17 - 1)

عملية «توكلنا على الله» الرابعة - قاطع الفليق الثاني

22 تموز 1988



في اليوم التالي شرعت قوات الفيلق الأول الخاص في شن هجومها تحت غطاء نيران المدفعية، وتمكَّنت من احتلال أهدافها الأولية كلها، وحررت

المخافر الحدودية المحتلة كافة، واندفعت إلى مدينة مهران فاحتلتها بعد أن هرب العدو منها، فطاردته إلى صالح أباد ثم إلى المرتفعات الغربية المطلة على مدينة عيلام. فأصدرنا لها الأوامر بالتوقف، وأفردنا بعضًا من وحداتها للتفتيش عن المعدات التي تركها العدو وإلقاء القبض على أفراده.

أما في قاطع الفيلق الثاني، فقد اندفعت قوات الحرس الجمهوري إلى قلعة شاهين، وبعد وقت قصير من القتال تمكَّنت من تدمير العدو والاستيلاء على دباباته السالمة، كما تم إنزال سمتيّ بوحدة من الحرس الجمهوري على مقرّ عمليات غرب، وأُسر عدد من ضباط ركن القيادة الذين ادعوا أن قائد عمليات غرب خرج قبل قليل بحجة الاستطلاع فنجا من الأسر. كما اندفعت قوات من الحرس الجمهوري شرقًا إلى مرتفعات مضيق داود، واحتلته، ثم إلى مضيق باي طاق الاستراتيجي المؤدي إلى كرمنشاه وطهران فاحتلته، وأحكمت السيطرة عليه، كما تم في الساعة 18.00 إنزال وحدة أخرى من الحرس الجمهوري على المرتفعات المحيطة بكيلان غرب، وتم تطويقها في صباح يوم التالي، ثم تفتيشها من ألوية مشاة الحرس الجمهوري، وقطعات الفيلق الثاني.

صدر توجيه إلى الفيالق الأخرى لمهاجمة القطعات المعادية أينما هي؛ ففي الجنوب وفي قاطع الفيلق الثالث دفع قائد الفيلق فرقة مدرعة إلى معسكر حميد الإيراني، جنوب مدينة الأحواز، فهاجمته واشتبكت بقتال عنيف، وتمكَّنت من تدمير وأسر عددٍ كبيرٍ من جنود العدو قبل أن يعود إلى قواعده.

وفي الأيام التالية شُغلت القطعات كافة في جمع المعدات والمدافع والدبابات، وأمر الرئيس الوزارات كافة بإرسال ما لديها من عجلات وناقلات لجمع الغنائم والأعتدة والتجهيزات المتروكة ونقلها، وبلغ عدد الأسرى في قاطع الفيلق الثاني 17.500 من الجنود والضباط، وفي قاطعي الفيلق الأول الخاص والفيلق الثالث أكثر من 3500 من الجنود والضباط.

تم في معارك التحرير «رمضان مبارك» و«التوكلات» الأربعة و«محمد رسول الله» تحرير الأراضي المحتلة كلها من العدو، وطاردناه في أعماق أرضه، ودمرنا ما يقارب من 85 إلى 90 في المئة من معداته وتجهيزاته العسكرية، وقضينا على عشرات الآلاف من قواته، وأسرنا ما يقارب الـ 33 ألفًا من أفراده. والأهم من ذلك كله أننا كسبنا إرادة الصراع والصمود، وهزمنا العدو وأجبرناه وقياداته العسكرية والسياسية على تجرع سم الهزيمة (كما قال قائدهم ومرشد ثورتهم)، والقبول بها.

بدأت الحرب في هذا القاطع في أيلول/سبتمبر 1980، وفيه انتهت في تموز/يوليو 1988.

بعد بضعة أيام، كانت قطعاتنا ما زالت في قاطع الفيلق الثاني مشغولة هي والدولة في جمع الغنائم وتحميلها ونقلها إلى داخل الحدود العراقية، استدعانا القائد العام في المجلس الوطني، وكان معه مسعود رجوي رئيس مجلس المقاومة الإيرانية «مجاهدي خلق» وقال: «لمسعود رجوي خطة عمل سيعرضها عليكم وأريدكم أن تسمعوه وتقدِّموا له التسهيلات التي يطلبها».

بدأ رجوي يتكلم بالفارسية مع محاولة إدخال بعض الكلمات العربية، وكان المترجم الذي يصاحبه، وهو من المجاهدين أيضًا، يجيد العربية. كانت الخطة التي طرحها تتلخص في أنه سيندفع بقواته (نحو 6 إلى 7 آلاف مقاتل) في تشكيلين أحدهما دروع، والآخر مشاة آلي، ومجموعات خاصّة ومدفعية وهندسة وأسلحة مقاومة الطائرات المحمولة على الكتف (وكان مقاتلو مجاهدي خلق يتحلون بالولاء المطلق لمسعود رجوي ومريم رجوي، وبالكفاءة والانضباط والشجاعة) إلى كرمنشاه من مضيق باي طاق الذي تسيطر عليه قوات الحرس الجمهوري، ويستمر من دون توقف حتى طهران ليسقط النظام، ويستلم السلطة فيها. وكان يتوقع أن الناس والجماهير وما تبقى من قطعات سينضمون إليه حال وصول قواته إليهم، وأن ما يطلبه أن تبقى قواتنا ماسكة مضيق باي طاق حتى إنجاز مهمته، وبعض المعدات التي ستقدّم إلينا من ضباط ركنه، وأن تكون طائراتنا موجودة عند الحاجة إليها.

قلت: «إذا سمحت لي سيدي الرئيس، الطريق إلى كرمنشاه تبعد أكثر من 100 كلم من مضيق باي طاق منطقة شروعهم، ويمر في مناطق بالغة الوعورة، مضايق عديدة في كرند وإسلام أباد ومناطق أخرى، الأمر الذي يوجب مسكها بقوة من جانبه (أو من جانبنا) في حالة يريد الاحتفاظ بقواته كلها للعمل الرئيس، وبخلافه فإن العدو بإمكانه مسكها بسهولة وقطع طريق مواصلاته ومحاصرته، وسيكون وقواته في موقف لا يحمدان عليه، وأقترح إذا لم يكن لديك مانع سيدي الرئيس أن يجعل السيد مسعود المرحلة الأولى من عمليته هي الاستيلاء على كرمنشاه بعد أن يُمسك أو نمسك نحن له مناطق المضايق، كما أننا الآن على مشارف مدينة عيلام في قاطع الفيلق الأول الخاص، ونستطيع إسناد أي قوة يرسلها للاستيلاء عليها، وهكذا سيكون لديه مدينتان كبيرتان، له فيهما أنصار كثيرون، كما يقول السيد مسعود رجوي، ومنهما ينطلق إلى هدفه النهائي،

بعد أن يعزز قواته، حيث ستكون طرق مواصلاته مفتوحة وأمينة في هذه الحالة».

كنت أتكلم ومترجمه ينقل له ما أقوله وعلى وجهه تبدو علامات عدم الرضا وعدم الاقتناع. وقال: «السيد رئيس الأركان، الوقت والمفاجأة هما العاملان اللذان أعتمدهما في نجاحنا، ولا أريد أن أفقد أيًا منهما». قال الرئيس: «السيد مسعود سينفّذ العملية بالطريقة التي يراها، وأنتم عليكم تأمين طلباته، وستبقى القطعات في قاطع الفيلق الثاني حتى إكمال مهمته».

طلبت من مسعود رجوي أن يرسل كافة طلباته فوعد بذلك. ولما ترك مسعود رجوي الاجتماع قلت للرئيس: «أعتقد أن مسعود سيودي بقواته إلى التهلكة بخطته هذه، فهي خيالية وغير قابلة للتطبيق». قال الرئيس: «إنني أنظر بعينيه، وأرى فيهما علامات النصر. إنه في الموقف نفسه الذي كنا فيه عندما نفّذنا ثورتنا في 17 تموز فقد كنا قلة، لكن مؤمنة بأنها قادرة على تنفيذها، ولو حسبنا حساباتكم لما نفّذناها أبدًا».

كنت في ما طرحته أريد لما تبقّى من قوات للعدو أن ينشغل بمواجهة تهديد المجاهدين في هذا الاتجاه، الأمر الذي يساعدنا في تنفيذ خطة احتلال عربستان. لكن وجود بعض أعضاء القيادة العامة معنا منعني من طرح ذلك على الرئيس.

شرعت قوات المجاهدين في الاندفاع إلى كرمنشاه في طريقها إلى طهران، لكن المفاجأة لم تتحقق. وأعتقد بأن الخطة تسربت إلى القيادة الإيرانية من وعملائهم العاملين مع المجاهدين، فأرسلوا على عجل الحمايات الشخصية للقيادات السياسية، ومجموعات من التوابين، وهم العراقيون من الموالين والعملاء للنظام الإيراني الطائفي الذين أُطلق عليهم اسم «قوات بدر» في ما بعد، فاحتلوا المضايق، ولم تتمكَّن قوات المجاهدين من الاستمرار في تقدّمها، فحوصرت وقطعت طرق عودتها فتكبَّدت خسائر فادحة، وقُتل أو أُسر معظم قادتها وكوادرها، وانسحبت بقاياها مثخنة بالجراح.

اشتد وتزايد الضغط الدولي والعربي على القيادة العراقية لتنفيذ قرار مجلس الأمن رقم 598 الصادر في عام 1987 الذي سبق للعراق أن وافق عليه، ولم توافق عليه إيران إلا أخيرًا في 18 تموز/يوليو 1988، والقاضي بإيقاف إطلاق النار وسحب قوات الطرفين إلى ما وراء الحدود الدولية لكلا البلدين، والبدء بالمفاوضات بين الجانبين بإشراف الأمم المتحدة، الأمر الذي اضُطر الرئيس (كما أعتقد) إلى إصدار أوامره بسحب قواتنا من العمق الإيراني إلى بُعد بين كيلومتر واحد وكيلومترين شرق الحدود الدولية في

الجبهات كلها، إذ سبق ورُفعت أو دُمرت معظم الدعامات الحدودية، فجعلنا هذا الشأن نتحسب لانسحابنا خلفها بطريق الخطأ.

أنجزت القوات كافة انسحابها إلى الحدود الدولية فأخبرتُ القائد العام بذلك بعد ظهر يوم 8/8/1988، فأصدرت القيادة العامة للقوات المسلحة «بيان البيانات» الذي أعلنت فيه نصر العراق المؤزر على العدو الإيراني، ودعت الشعب برجاله ونسائه وشيبه وأطفاله إلى الاحتفال بهذه المناسبة العظيمة [232] ، فخرجت الجماهير ترقص وتغني في شوارع بغداد والمدن العراقية الأخرى كلها. كنت في البيت ذلك المساء مع العائلة فدعوتهم إلى الخروج والاحتفال مع أبناء شعبنا، وارتديتُ ملابس مدنية بسيطة وقدتُ سيارتي الخاصّة وتجولت في شوارع بغداد. كانت الجماهير تنشد وتغني وتهلل وترقص، لا فرق بين صغير وكبير أو غنيّ وفقير، الجميع منتشٍ بالنصر، يتقاذفون بالمياه ضاحكين ويرشّونها على المارة والسيارات التي تخترق حشودهم.

كنت وأنا أقود سيارتي بحذر شديد بين جموع الجماهير أستذكر موقفًا من هنا، وآخر من هناك مما مرّ بنا خلال الأعوام الثمانية من الحرب. وفي كل مرة يبرق في ذهني قول الرئيس القائد العام للقوات المسلحة في أحد تلك الأيام الصعبة من عام 1987: «نحن العراقيين لنا القدرة والإرادة والشجاعة أن ننهض ونقف على أقدامنا بعد كل ضربة نتلقاها أو نكسة تواجهنا، لكن أقول لكم إن العدو بكل ما ترونه عليه من مظاهر القوة والغطرسة والاعتداد فإنه مثل الرجل الطويل العريض الخاوي فإذا ضربته صفعة قوية فسيتهاوى إلى الأرض، ويتدحرج من دون توقف حتى الهاوية». ونحن قد ضربناه صفعة قوية في «رمضان مبارك» في الفاو، ودحرجناه إلى قعر الهاوية بـ «التوكلات الأربعة» و«محمد رسول الله».

الصورة (17 - 1)

مؤتمر تحليل معركة الفاو في قاعة قصر المؤتمرات مع الفريق الأول الركن عدنان خير الله ونائب القائد العام ووزير الدفاع، عند تحليل معارك التحرير الكبرى 1988/1989



بعد بضعة أيام من إيقاف إطلاق النار هاتفني قائد الفيلق الرابع، وأخبرني بأن قوة إيرانية بحجم لواء تحركت إلى ما بعد خطّ إيقاف النار في قاطع فرقة المشاة الآلية الأولى، فقلت له: «سأتصل بقائد الفرقة لأعرف منه الموقف مباشرة، وسأعلمك بالإجراءات». اتصلت بقائد الفرقة المعنية وقلت له: «ما الذي حدث؟»، فقال إن لواءً إيرانيًا تقدّم إلى مواضعه القديمة بعد خطّ إيقاف النار، وأنه استدعاه وطلب منه العودة من حيث أتى، لكنه ادعى بأنه ينفّذ أوامر قائده ولا يمكنه مخالفتها. أخبرته أن يستدعيه مرة أخرى وينذره بأنه سيأسرهم جميعًا إن لم ينسحبوا خلال ساعة واحدة من الآن.

بعد ساعة اتصل بي، وقال إن آمر اللواء الإيراني أخذ يبكي ويستجديه عندما بلّغه ذلك، وادّعى أن قائده سيعدمه إن انسحب من موضعه الحالي. فزجرته قائلًا: «إلى متى تبقون هكذا؟ إن الذي يستجديك الآن ويبكي سيذبحك بسكين مثلوم عندما يستقوي عليك. سأسحبك، وأكلف أحد مرؤوسيك بذلك إن لم تنفذ ما أمرتك به حرفيًا». فحرك على الفور أحد ألويته الآلية وطوقهم وأسرهم جميعًا، وعندما أخبرني قائد الفيلق بذلك أمرته أن يرسلهم فورًا بقافلةٍ مع حراسة كافية إلى بغداد لإيداعهم معسكرات اعتقال الأسرى.

بعدها بأيام حضرت دعوة أقيمت في نادي الصيد ببغداد، فجاءني أحد السادة من كبار الموظفين في وزارة الخارجية ومعه شخص أجنبي عرفني إليه بصفته من موظفي الأمم المتحدة المكلف بمتابعة تطبيق إيقاف إطلاق النار بين العراق وإيران وفق القرار الأممي 598 فرحبت به، اسمه يان إلياسون، وكان يساعد أولف بالمه الذي كُلِّف بموجب قرار مجلس الأمن بالتوسط بين العراق وإيران، ومن مواطني إحدى الدول الاسكندنافية.

قال: «أنتم أسرتم لواءً إيرانيًا قبل أيام في قاطع الفيلق الرابع، وهذا مخالف لقرار إيقاف إطلاق النار»، وطلب إعادتهم ومعالجة الأمور بطريقةٍ أخرى إن كان هناك خطأ من الجانب الآخر. فأجبته: «هل تريد أن تشتعل الحرب مرة أخرى؟»، فجفل وقال: «بالطبع لا، فنحن هنا للمحافظة على استمرار إيقاف إطلاق النار». قلت له: «إنك لا تعرف الإيرانيين كما نعرفهم نحن، فلو لم نتخذ هذا الإجراء لزحف الجيش الإيراني بأكمله في اليوم التالي إلى ما وراء خطّ إيقاف النار الذي أُرسلتَ أنت وفريقك للمحافظة عليه، وعلى أي حال إن رجال هذا اللواء في معسكرات الأسرى الآن وهم خارج صلاحيتي، ويمكنك مفاتحة الجهات المسؤولة في الدولة بهذا الشأن».

الصورة (17 - 2)

اللقطة الأخيرة بعد انتهاء الحرب العراقية - الإيرانية بالنصر المؤزر، وتجمع القائد العام وقادة الفيالق وأعضاء القيادة العامة، آب/أغسطس 1988

الصورة (17 - 3)

مع الرئيس بمناسبة ذكرى يوم الجيش في 6 كانون الثاني/يناير 1989



X الفريق الركن يونس محمد الذرب وهو فعلًا من الضباط الجيدين والمتابعين، حصل على شهادة الدكتوراه في التاريخ العسكري ورئس جامعة البكر للدراسات العسكرية العليا قبل إحالته على دائرة المحاربين. يتميز بكتاباته وبحوثه العسكرية والتاريخية.

X مضيق باي طاق هو المضيق الاستراتيجي الخطر الذي يفتح سلسة جبال كرند المنيعة باتجاه الداخل الإيراني، ويفتح المتقدّم من الداخل الإيراني باتجاه العراق حيث تقع مدينة سربيل زهاب في نهايته الغربية باتجاه العراق، وكان الجغرافيون العرب يعتبرونه باب العراق وهو كذلك فعلًا، إذ تنفتح وتنبسط الأرض بعده باتجاه بغداد.

X بيان البيانات هو الذي أعلنت فيه القيادة العامة للقوات المسلحة الانتصار وانتهاء الحرب الضروس. يمكن الاستماع إليه عبر الرابط التالي:www.youtube.com/watch?v=pUNYjZfPlXM -

الفصل الثامن عشر: إنهاء التمرد الكردي

في 11 آذار/مارس 1970 أصدرت الحكومة العراقية، بالاتفاق مع قيادة الحزب الديمقراطي الكردستاني بقيادة الملا مصطفى البرزاني، «بيان آذار» الذي كان برنامجًا واضحًا لتطبيق الحكم الذاتي في منطقة كردستان (المحافظات الكردية الثلاث: السليمانية وأربيل ودهوك، والأقسام الشمالية من محافظة كركوك ذات الأكثرية الكردية)، وتشكيل مجلس تشريعي وآخر تنفيذي وتعيين شخصية كردية نائبًا لرئيس الجمهورية، وتخصيص خمس وزارات للأكراد، وتعليم اللغة الكردية في مدارس الحكم الذاتي، ودمج المسلحين الأكراد البشمركة في قوات الحدود، وإجازة الحزب الديمقراطي الكردستاني. وفي 11 آذار/مارس 1974 صدر قانون الحكم الذاتي.

من هم الكرد العراقيون

بودي الإشارة أولًا إلى أن الكرد العراقيين هم جزء أصيل من الشعب العراقي، عاشوا معًا مع إخوانهم العرب في هذا الجزء من العالم ما لا يقل عن ثلاثة آلاف عام. وهنالك منحوتة أشورية قرب دهوك تشير إلى أن الملك الأشوري قد استقبل وفود المهنئين، بعد انتصاره في إحدى غزواته، وكان من جملتهم رؤساء الكاردوكي وملك العريبي الذي كان يحكم من الحضر (هاترا). وهذه وثيقة دامغة على أن أيًّا من المكونين لم يكن طارئًا على العراق.

يعود الكرد بأصولهم إلى العرق الهندي الأوروبي (ما يطلق عليه بالجنس الآري)، لكن كثيرين من علماء الأنثربولوجيا يعتقدون أن الكرد الحاليين هم نتاج خليط كبير من الإثنيات التي عاشت في المنطقة، كالكاردوخي والميتاني والميديين الآريين والحوريين وغيرهم. بل إن كثيرين من كرد العراق تجري في دمائهم دماء أشورية وآرامية وعربية من القبائل التي اختلطت بهم وساكنتهم وذابت فيهم.

على الرغم من أن الكرد قد استقبلوا تشكيل العراق الحديث بتحفظ، ذلك أن الطموحات القومية المتنامية بعد انهيار الدولة العثمانية، التي تبناها بعض الضباط الكرد الذين خدموا في هذه الدولة، ووجوه الأكراد من شيوخ القبائل الإقطاعيين والقيادة الدينية الإقطاعية، قد دفعت كثيرًا باتجاه محاولة تشكيل دولة كردية تحت الانتداب البريطاني، برئاسة الشيخ محمود

الحفيد وهو أبرز الوجوه الدينية في السليمانية. من هنا انطلقت حركاته التمردية الثلاث (بين 21 أيار/مايو 1919 و13 أيار/مايو 1931)، وتدخّل البريطانيون أولًا ثم شاركتهم الحكومة العراقية بعد ذلك لوضع حد لهذه الانتفاضات. وأُسر الشيخ محمود الحفيد ونفي أخيرًا إلى جنوب العراق ثم سمح له بالإقامة في بغداد.

تزامنت حركات الشيخ محمود الحفيد مع حركات زعيم صوفيّ قبليّ آخر هو الشيخ أحمد البرزاني، وهو الأخ الأكبر للشيخ مصطفى البرزاني، حين اتصل بالفرنسيين وبعصبة الأمم مطالبًا بالحكم الذاتي للأكراد ضمن العراق، ثم واصل المسيرة أخوه الملا مصطفى البرزاني كما كان يدعى دلالة على منزلته الصوفية، فقاد جملة من محاولات التمرد القبلية المغلّفة بالطموحات الكردية. وكانت قوات الشرطة العراقية وكذلك قوات الجيش مدعومة بالمتطوِّعين الأكراد من القبائل المناهضة للملا مصطفى البرزاني تنجح في كل مرة في قمع العصيان.

التجأ الملا مصطفى البرزاني بعد قمع تمرده الأخير في عام 1945 إلى إيران، والتحق بحكومة القاضي محمد في جمهورية مهاباد الكردية التي نشأت تحت كنف الجيش الأحمر السوفياتي الذي احتل القسم الشمالي من إيران إبان الحرب العالمية الثانية. شغل الملا مصطفى منصب وزير الدفاع في هذه الحكومة حتى انهيارها في عام 1946. بعد ذلك التجأ ومقاتلوه إلى الاتحاد السوفياتي بعد مسيرة قاسية عبر جبال القفقاس الوعرة.

شهد شمال العراق فترة من الهدوء والتنمية استمرت حتى عام 1961. وشاركت النخب الكردية في حكم العراق بصفة رؤساء وزارات ووزراء ومحافظين وضباط جيش كبار، وكان مشهودًا لهم بإخلاصهم ووطنيتهم. وفي الوقت نفسه تشكل الحزب الديمقراطي الكردستاني العراقي من مثقفي الأكراد الماركسيين، وانضم إلى المعارضة الوطنية للحكم الملكي مؤتلفًا مع الحزب الشيوعي العراقي والحزب الوطني الديمقراطي وحزب الاستقلال وحزب البعث العربي الاشتراكي، مشكلين ما سمي بجبهة الاتحاد الوطني.

شهدت عودة الملا مصطفى البرزاني من منفاه في الاتحاد السوفياتي في عام 1958 عودة طموحاته السياسية القديمة، فاستغل تشريع قانون الإصلاح الزراعي وتطبيقاته في كردستان الذي كان سيسلب الزعماء الإقطاعيين إقطاعياتهم، واستغل كذلك خلافاته التاريخية مع القبائل الكردية المعارضة له كالزيبار والسورجية والهركيّة والصوفية وغيرهم، فأعلن العصيان وهجم على مراكز الشرطة، متهمًا الحكومة بالوقوف إلى جانب خصومه. وكان هذا في

أيلول/سبتمبر 1961 الذي يؤشر إلى انطلاق الثورة الكردية المعاصرة التي توِّج جهدها بتشكيل الإقليم الكردي الفدرالي في شمال العراق (المحافظات الكردية الثلاث دهوك وأربيل والسليمانية).

مراحل الحركة الكردية الحديثة

يمكننا وضع الثورة الكردية الحديثة التي انطلقت بعد انهيار الدولة العثمانية واحتلال البريطانيين العراق حتى تأطير الوضع الدستوري لإقليم كردستان العراق في عام 2005 في ست مراحل نوردها كما يلي:

- المرحلة الأولى: تمرد وعصيان الشيخ محمود الحفيد (1919 -1931).
- المرحلة الثانية: تمرد وعصيان البرزانيين أول مرة (1933 - 1945).
- المرحلة الثالثة: الثورة الكردية المعاصرة (1961 - 11 آذار/مارس 1970).
- المرحلة الرابعة: فشل الحكم الذاتي (1974 - 1975).
- المرحلة الخامسة: إعلان إقليم كردستان العراق الفدرالي من جانب واحد (1992 - 2003).
- المرحلة السادسة: الاعتراف، بموجب دستور العراق الحالي، بالوضع الدستوري لإقليم كردستان (منذ عام 2005).

حاول الحزب الديمقراطي الكردستاني أن يجد صيغة يُعبّر بها عن أهدافه ويبرر الثورة الكردية بعد عام 1961، فصاغ شعاره: «الديمقراطية للعراق والحكم الذاتي لكردستان»، وتحت هذا الشعار قاتل الحكومة العراقية وصالَحها، أما الحكومة العراقية فلم تكن تركن إلى القتال إلا وهدفها أن تصل مع الثائرين إلى تسوية، ومن هنا كان تعدّد المصالحات التي لم تكن إلا محطات للاستراحة. لكن تجربتين انعقدتا على الجدية هما بيان 29 حزيران/يونيو 1966 إبان حقبة حكم الرئيس عبد الرحمن عارف، ورئيس وزرائه عبد الرحمن البزاز أحد أبرز قادة العمل القومي في العراق. وعالج البيان المذكور أساس المشكلة، وهي مشكلة تميُّز قومي تترتب عليه حقوق دستورية وسياسية وثقافية.

أما المحاولة الثانية فكانت مفاجأة البعث للأكراد والعالم بعرضه الحكم الذاتي على الأكراد. صدر قانون الحكم الذاتي وعُدِّل الدستور بإشارته إلى الأكراد بصفتهم شعبًا، واعترف بحقوقهم ومنحهم الحكم الذاتي ضمن السيادة العراقية. كان هذا الإنجاز الذي تحقق في 11 آذار/مارس 1970 منتهى أمل الكرد العراقيين، إلا أن هذا الإنجاز كبا لسوء الحظ نتيجة اختلاف وجهات النظر بين قيادة الحركة الكردية والقيادة السياسية العراقية، وهو أمر قاد

إلى استئناف الأعمال القتالية على نطاق واسع في عام 1974 بعد تدخّل شاه إيران للضغط على حكومة بغداد لتعديل الحدود المائية في شطّ العرب، وما إن حصل عليه حتى قلب للأكراد ظهر المجن، وتسبب ذلك بانهيار الثورة الكردية. كما لا ننفي تدخّل جهات دولية وإقليمية أخرى حثت القيادة الكردية على القتال للتأثير سلبًا في حركة العراق المؤثرة في الإقليم، خصوصًا بعد أن اشترك من دون سابق إنذار في حرب تشرين 1973 على الجبهتين، ومناهضته المعلنة لخط التسوية الذي كان عرّابه هنري كيسنجر.

على الرغم من اندلاع الحرب العراقية - الإيرانية فإن الثورة الكردية لم تحقّق أي خرق في الوضع في شمال العراق، واستمرت الحكومة العراقية في السيطرة على أرجاء الشمال العراقي كلها، عدا تلك القواطع التي نجح الإيرانيون في اختراقها بدلالة ومساعدة المسلحين الأكراد من منتسبي الاتحاد الوطني الكردستاني، وبدرجة أقل من مسلحي الحزب الديمقراطي الكردستاني، وأهمها قاطع حلبجة الذي تعرّض لقصف كيمياوي ينكر العراق أنه صدر من جانب قواته، وقاطع ماوت وجوارتة وقاطع بنجوين، وعدا تسلّل الحرس الثوري الإيراني إلى قاطع قره داغ بدلالة مسلحي الاتحاد الوطني الكردستاني، كما سيلي ذكره.

كان نائب أمين سرّ حزب البعث العربي الاشتراكي ونائب رئيس الجمهورية (في حينه) صدام حسين عراب تلك الإنجازات للشعب الكردي، وكانت له رؤية معمّقة وواضحة وإيجابية لحل القضية الكردية على أساس المصالح المشروعة للشعب الكردي ضمن الإطار الوطني العراقي. إلا أن العلاقات بين القيادة الكردية في العراق والأطراف الخارجية، وفي مقدّمها إيران أيام الشاه، لم تنقطع بل أصبحت أقوى مما كانت عليه قبل بيان 11 آذار، وامتدت لتتعاون مع الولايات المتحدة وإيران لإفشال تأميم النفط مقابل حقوق وامتيازات إضافية في كردستان وكركوك.

اندلع القتال في صيف 1974، وتدخّلت إيران الشاه مع حركة التمرد، فأرسلت ضباطًا وخبراء وأسلحة ومعدات، وكانت كتائب مدفعيتها الثقيلة في حوض راوندوز تقصف القوات العراقية، فاضُطر العراق إلى عقد اتفاقية الجزائر مع الشاه، وتنازل بموجبها عن سيادته عن نصف شطّ العرب، بعد أن أصبح خطّ التالوك هو الحدود الجديدة مع إيران الشاه، مقابل رفع دعمه لحركة التمرد الكردية، فأعقبها انهيار التمرد واستسلام الآلاف من المتمرِّدين وهروب قادتهم، ولجأ البرزاني إلى الولايات المتحدة الأميركية حيث

توفي هناك.

في عام 1976 بدأت قيادة الاتحاد الوطني الكردستاني (جلال الطالباني) حرب عصابات تركّزت في مناطق نفوذها في محافظة السليمانية، وبعض مناطق أربيل ذات الأكثرية السورانية (ينقسم أكراد العراق بين سوران في السليمانية وبعض أجزاء أربيل وبهدينان في بقية أربيل ودهوك). وقُبيل اندلاع الحرب العراقية - الإيرانية في عام 1980 كانت الحركة على وشك الانهيار للخسائر التي تكبّدتها جراء ضربات القوات المسلحة العراقية، وفي منطقة بهدينان كانت مجموعات صغيرة من مسلحي الديمقراطي الكردستاني (مسعود البرزاني) تقوم بعمليات محدودة هنا وهناك.

في بداية الحرب حتى عام 1984 جرت جولات عدّة من المباحثات في أوقات متفاوتة بين الحكومة وقيادة الاتحاد الوطني الكردستاني (جلال الطالباني)، وكلما توصلوا إلى حلول واتفاقات تصل إلى حد التوقيع تتدخل القوى الأجنبية وتضغط على قيادات التمرد لإفشالها. وفي عام 1985 حدد الطالباني موقفه وقرر التعاون مع النظام الإيراني والقتال معه، وسبقه إلى ذلك البرزاني الذي قاتل مع العدو في معارك كردمند وسيدكان في قاطع راوندوز في عامي 1983 و1984. وفي أواخر عام 1985 وبدايات 1986 عمل مقاتلو الطالباني على تسريب عددٍ كبيرٍ من حرس الخميني إلى جبل قره داغ شرق السليمانية وجنوب سد دربندخان، وإلى حوض جم ريزان جنوب سد دوكان، وتمركزوا في المناطق الخلفية لقوات الفيلق الأول المدافعة عن المناطق الحدودية.

في معارك جوارتة في عام 1986، وفي معارك ماوت وسقوط حلبجة في عام 1987 قاتل الأكراد بأعدادٍ كبيرةٍ مع العدو، وساعدوه في تسلّله خلف دفاعات قطعاتنا، وقاموا بضرب وقطع طرق إمدادها وسرّبوا عناصر استطلاعهم وضباط رصد مدفعيتهم إلى خلفها، ونقلوا المعلومات عن عددها وأماكنها وأماكن وجود قياداتها.

في بداية النصف الثاني من آب/أغسطس 1988 التقيت الرئيس في مقرّه في المجلس الوطني لعرض خطة رئاسة الأركان لتسريح المواليد من الجنود وضباط الاحتياط ممن شاركوا في حرب الأعوام الثمانية، وإلغاء بعض الفرق والقيادات وفق جداول وتوقيتات محددة لإقرارها، فذكّرتُ القائد العام بأن علينا أن ننهي موضوع التمرّد الكردي المسلح قبل تسريح الجنود وإلغاء الفرق. ووافقني على ذلك، وسأل: «ومتى سنقوم بها؟». فأجبت: «إن ذلك يتطلب التنسيق مع الجانب التركي لغلق منافذ انسحابهم وهروبهم من

الحدود التركية، إن لم يمانع سيادتكم. أما الحدود الإيرانية فقواتنا تمسكها، ولا مجال لهروبهم من هذا الاتجاه». قال الرئيس: «متى ستشرعون في ذلك، وما حجم القطعات؟». أجبته: «في الأسبوع الأول أو الثاني من الشهر المقبل، وحجم القطعات سيكون كبيرًا بشكل لم يسبق له مثيل. ففكرة العمليات تبنى على اكتساحٍ شامل لكل مناطق وجود المسلحين الأكراد وقواعدهم، في شمال الوطن بآنٍ واحدٍ، ولن تتوقف قواتنا إلا بعد تنظيفها تمامًا من فلولهم». قال الرئيس: «حسنًا توكلوا على الله، وسأوعز إلى الخارجية لترتيب زيارة الوفد العسكري، وقدِّم لي خطتكم حال إكمالها».

أرسلنا وفدًا عسكريًا برئاسة معاون العمليات الفريق حسين رشيد ومجموعة من ضباط العمليات والاستخبارات للاتفاق مع القيادة العسكرية التركية على غلق الحدود أمام الهاربين من المسلحين الأكراد حال تنفيذ عملياتنا، وسنُخبرهم بموعدها قبل فترة، لتهيئة القوات التركية التي ستغلق المنافذ الحدودية.

كانت الخطة تشمل حشد 75 لواء مشاة ومشاة آلية ومغاوير وقوات خاصّة، و200 فوج دفاع وطني من الأكراد الموالين تحت قيادة 17 مقرَّ فرقة وثلاث قيادات فيالق، وبإسنادهم بكل سمتيّات طيران الجيش وأسلحة الإسناد الأخرى. تتوزع القوات في 95 رتلًا، وتقود كل فرقة بين 4 و6 أرتال، كلٌّ منها يتألف من لواء في الجيش، ومن 2 إلى 3 من أفواج الدفاع الوطني. وخصصنا لكل فرقة اتجاهًا رئيسًا تتقدم من خلاله بأرتالها، وحددنا لكل رتل اتجاهًا وهدفًا محددين، فإذا اصطدمت وحدة بالمسلحين الأكراد تقوم وحدة أخرى وفوج دفاع وطني بتطويقه، وتُنزل السمتيّات قوة خلفه من القوات الخاصّة أو المغاوير للقضاء عليه من دون أن تتوقف الأرتال الأخرى عن التقدم.

ستتقدم القوات على الطرق والنياسم كلها الموجودة في منطقة العمليات باتجاه الحدود الشرقية والشمالية من دون توقف حتى إكمال أهدافها، وحددنا التاسع من آب/أغسطس لتنفيذها، وقدّرنا أنها ستُنجَز خلال أسبوع واحد.

عاد الوفد العسكري من تركيا وأخبرنا بأنه تم الاتفاق مع الأتراك، وأن هناك ثلاثة منافذ حدودية سيجري مسكها من جانب قواتهم، وهناك مسالك ثانوية ونياسم سيقومون بمراقبتها، ويطلبون إشعارهم بموعد التنفيذ قبل ثلاثة أيام على الأقل لاستكمال إجراءاتهم.

عُرضت الخطة على الرئيس وأخبرناه بنتائج زيارة الوفد العسكري، وفي

يوم التنفيذ شرعت القوات في تنفيذ واجباتها.

اتصل بي مدير الاستخبارات وأعلمني بوصول وفد عسكري تركي يطلب لقائي. التقينا [233] فادّعوا أنهم لن يتمكنوا من مسك المنافذ الحدودية الثلاثة في آن واحد، وأن قيادتهم تقترح تجزئة العمليات التي ننوي القيام بها لفترات زمنية باتجاه منفذ واحد في كل مرة، كي يُمسَك بقوة كافية من جانبهم. كان من الواضح أنهم قد أخبروا حليفهم الأميركي الذي لا يريد إنهاء حالة عدم الاستقرار في شمال الوطن، ويخشى العراق القوي والموحد. قلت لهم: «إننا قد شرعنا، ونتمنى أن تلتزموا ما اتفقت عليه قيادتكم مع وفدنا العسكري»، ونقلت للرئيس ما حدث فقال: «لا أستغرب ذلك فحلفاؤهم الأميركان لم يوافقوا».

خلال أربعة أيام انتهى كل شيء، فاستسلم منهم من استسلم، وعبر الآخرون الحدود التركية مع أسلحتهم، والغريب أن الجهات التركية كانت توجّه بمكبرات الصوت نداءاتها إلى المسلحين الأكراد، وتقوم بدلالتهم إلى المنافذ كي يتملّصوا من قبضة قواتنا التي تطاردهم.

هكذا تسلّمت القيادة السياسية في منتصف أيلول/سبتمبر 1988 عراقًا منتصرًا قويًا وموحدًا أول مرة منذ استقلاله وقيام الحكم الوطني ... وعليها المحافظة عليه. ونكون بهذا قد أنجزنا وعدنا بإنهاء الحرب منتصرين في غضون عام واحد، وهو ما تم بالفعل.

عقابيل إنهاء التمرد وضياع الحلم باستقرار البلد

نتيجة تداعيات قصف حلبجة الذي حاولت دوائر معيّنة لأسباب غير عادلة إلصاقه بالعراق، برر دخول العراق الكويت هذا المسعى غير النزيه. وبعد إخراجه منها، واندلاع التمرد الذي أعقبه في شمال العراق وجنوبه، فُرض على الحكومة المركزية أن تسحب قواتها من شمال العراق فسحبتها، وسحبت معها الإدارة المدنية، الأمر الذي أنتج فراغًا إداريًّا وأمنيًا ملأه على الفور الحزبان الكرديان، الاتحاد الوطني الكردستاني في السليمانية، والحزب الديمقراطي الكردستاني في أربيل ودهوك. وسخنت في الوقت نفسه خطوط التماس الكردية، وبدا واضحًا أن الاقتتال الكردي - الكردي قد بدأ، وأن هناك شأوًا بعيدًا بين الكرد والوصول إلى إجماع.

في المؤتمر الأخير للحزب الديمقراطي الكردستاني أعلن رئيس الإقليم تصميم الحزب على حق تقرير المصير للشعب الكردي. وعلى الرغم من أن تفسيرات وتبريرات عديدة صدرت عن الجانب الكردي للرد على الضجة التي

أثيرت بعد هذا الإعلان، وأهمها ما صدر عن نائب رئيس الحزب نجيرفان البرزاني ورئيس حكومة الإقليم برهم صالح أن المقصود بحقّ تقرير المصير هو البقاء ضمن العراق، كان السؤال: «هل سيلجأ الكرد إلى الاستقلال؟». وكان الجواب يكمن في معرفة ما هي الدوافع وما هي الكوابح.

الدوافع

- بداية يرى الكرد، ويرى معهم كثيرون، أنهم أمة حُرمت من حقها في أن تشكل دولتها القومية بعد الحرب العالميّة الأولى. حالهم كحال الأمم الأخرى التي انسلخت عن الدولة العثمانية. وهذه حقيقة لا مراء فيها.
- حققت النخب الكردية في العراق مستوى معرفيًا نتيجة سياسة المساواة في الفرص التي عاشها الكرد العراقيون، وهذا زاد ثقتهم في إمكانهم تولّي أمورهم بأنفسهم لو أتيح لهم تشكيل دولتهم.
- أدت أعمال القتال التي شهدها العراق بين قوى التمرّد والثورة الكردية من جهة والقوات الحكومية وحلفائها من الأكراد العراقيين إلى تنامي مشاعر لدى النخب الكردية بصعوبة العيش المشترك.
- زادت النعرة القومية المنتشرة بين النخب الكردية في أوروبا تصاعد وتيرة الدفع نحو الاستقلال واعتبار إقليم كردستان العراق قاعدة تشكيل الدولة الكردية القومية.
- لن يجد الدافعون نحو الانفصال أضعف من العراق بوضعه الحالي لدفعهم إلى تشكيل دولتهم.

الكوابح

إلا أن هذا الحلم يصطدم بجدار من الكوابح نختصرها بما يلي:
- عدم القبول الإقليمي، وبالأخص من دول الجوار العراقي التي توجد فيها امتدادات كردية، ويُعد هذا الرفض الكابح الأكبر الذي تواجهه عملية تحول الإقليم العراقي إلى دولة كردية كاملة الاستقلال.
- عدم توافر الإرادة الدولية حاليًا في إنشاء دولة كردية خشية انهيار الاستقرار الإقليمي في هذه المنطقة التي تعاني بالفعل الكثير من الاختلالات، وليس من الحكمة إضافة اختلال جديد.
- ذكريات انهيار تجربة القاضي محمد في إيران، وما تمخض عنها من انكفاء ما زالت الحركة الكردية الإيرانية تعانيه حتى الآن. وفي هذا السياق أيضًا، فإنه لولا احتلال العراق لما قيِّض لهذه الأحلام أن تجد طريقها إلى

الواقع.

- يعترف الأكراد العراقيون أنهم الأفضل حالًا بين جميع الأقليات الكردية في الدول الأخرى طوال عمر العراق الحديث. فهم ساهموا في قيادة فاعليات الدولة في أكثر قطاعاتها حساسيّة مثل الجيش والمؤسسة الأمنية ومنصب المحافظين، وظلت هذه السمة حتى الاحتلال.

- الخلافات الداخلية المستحكمة بين قيادتي الحركة الكردية، ليس على المستوى الشخصي وإنما على المستوى المناطقي، فالشرخ بين السليمانية (شهرزور) وأربيل/دهوك (بهدينان) عميق إلى حد أوصل إلى الاقتتال الشرس بين الطرفين في عام 1996، ويخشى كثيرون من احتمال اندلاعه لو خرج إقليم كردستان من خيمة العراق.

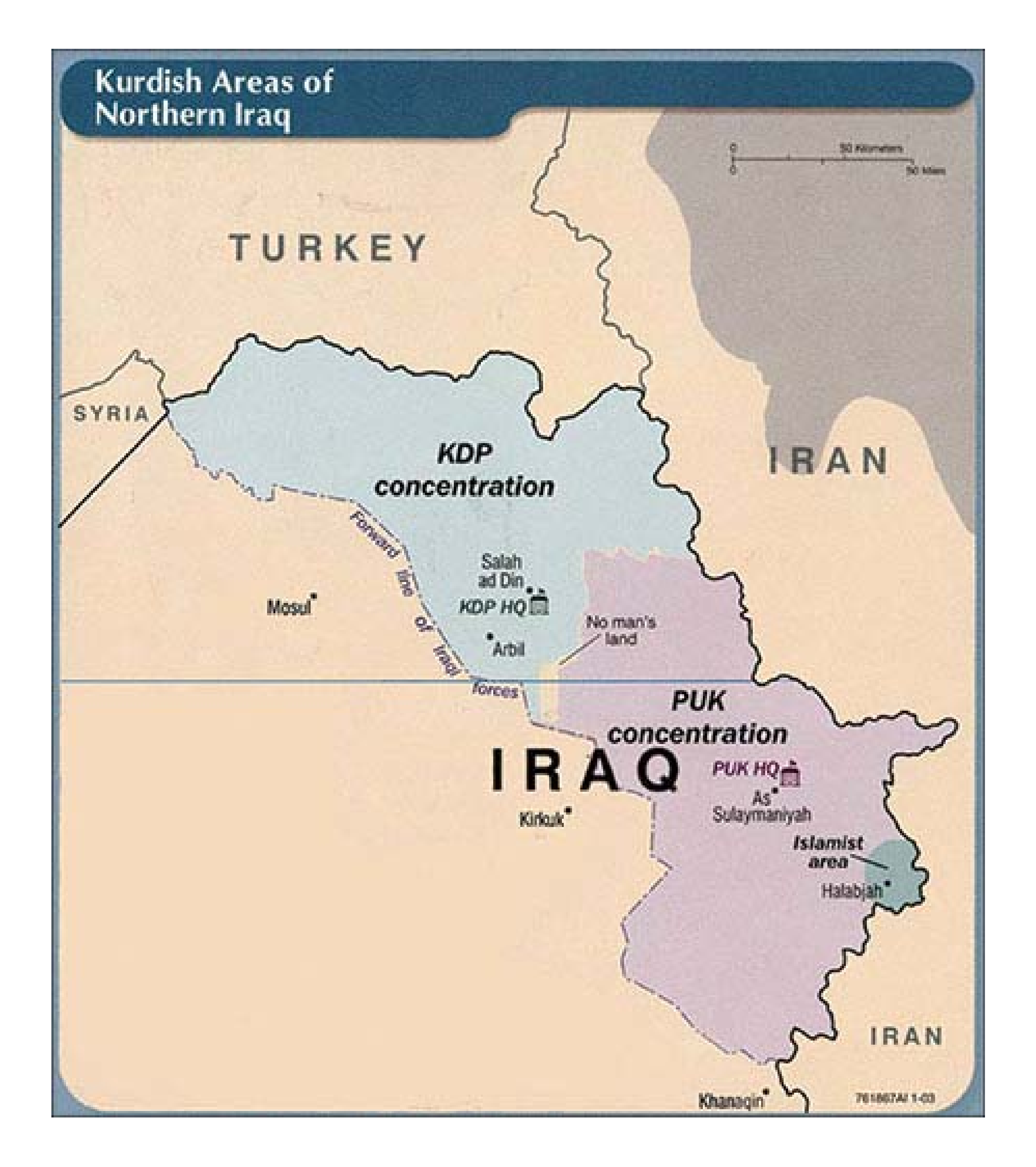
- إقليم كردستان إقليم مغلق جغرافيًّا، لا تتوافر له إمكانية الاتصال والتواصل بخارجه لو كان مستقلًا مع عدائية لجواره الجغرافي.

- يتمتع الإقليم حاليًا بوضع شبه مستقل ويتمتع بما يعادل 17 في المئة من الموازنة العراقية، وهذا ما يتيح له الانصراف إلى التنمية حتى لو كان ذلك بانتظار لحظة تاريخية قد تساعد في نوال الاستقلال. وبالمعنى نفسه يساهم الكرد حاليًا في قيادة العراق بشكل فاعل، فرئيس الجمهورية كردي لدورتين حاليًا.

- محدودية الإقليم مساحةً ومواردَ، فأرض الإقليم جبلية صعبة التضاريس تجعل من التمدد وبناء مرتكزات الحياة أمرًا صعبًا، ومن هنا انطلقت دعاوى «الأراضي المتنازع عليها» التي تعني التمدد نحو الجنوب والغرب إلى أراضٍ ليست كرديةً خالصةً، ولم تكن كذلك في يوم من الأيام. عندما يناقَش الإخوة الكرد في هذا الموضوع، وفي أن هذه المناطق ليست كردية خالصة، بل لا يشكّل الكرد فيها حتى الأغلبية، يجيبون أن هذه المناطق كانت تعود إلى ولاية الموصل العثمانية القديمة التي هي كردستان العراق حاليًا، ويجادلون في أن سلسلة جبال حمرين هي الحد الفاصل بين كردستان العراق والعراق العربي. وعلى الرغم من أن الكرد رنوا إلى آلية الإحصاء السكاني والاستفتاء لحلّ هذا الإشكال، إلا أننا نرى أن هذه القضية ستجعل من هذا الموضوع أداة نزاعٍ آخرٍ، يرى كثيرون من الكرد أنه لا يصبُّ في مصلحة الشعب الكردي، ولا الشعب العراقي بعربه وكرده.

الخريطة (18 - 1)

خريطة شمال العراق



الشكل الذي استقر عليه الوضع عشية انسحاب الإدارة المركزية من منطقة الحكم الذاتي في عام 1992، ويرينا منطقة سيطرة كلٍّ من الحزبين الرئيسين ومنطقة سيطرة الحركة الإسلامية الكردية.

الآفاق

كان الحلم الكردي بتشكيل دولة كردية (ولا يزال) يداعب مخيلة الشعب الكردي وهو حق مشروع، لكن وفي الوقت نفسه، هنالك حقائق على

الأرض جعلت انتماءً وطنيًا يجد لنفسه مكانًا في مدركات كثيرين من الكرد. فالكردي العراقي يبقى عراقيًا وتظهر هذه الهوية واضحة بشكل سافر عند التحدي، كما هو الحال عند تعرض الإقليم لتدخلٍ أو عدوانٍ خارجي، كما حصل عندما قصف الإيرانيون منطقة الحدود العراقية - الإيرانية في جبال هورمان وقنديل، وأوقعوا خسائر وأضرارًا في كثير من القرى الكردية الحدودية، الأمر الذي دعا دوائر كردية عديدة إلى الطلب من بغداد التدخل دبلوماسيًّا، أو حتى تحمّل مسؤولية الدفاع، وكذا الحال بالنسبة إلى التدخل العسكري التركي في شمال العراق، أو في مثلث الحدود العراقية - الإيرانية - التركية عند استهدافه مسلحي حزب العمال الكردستاني. الانتماء والمواطنة يحتاجان إلى رعاية وحضانة كي يشبّا عن الطوق ويصبحا قناعة أصيلة. وفي رأيي أن المواطنة العراقية تحتاج إلى هذه الرعاية لعموم العراق والعراقيين.

في وقت سيظل فيه الحلم قائمًا، يرى الواقعيون من الكرد العراقيين إتاحة الفرصة للفدرالية كي تأخذ مداها، إذ سيدرك الشعب الكردي في العراق أنه استخلص حقوقه القومية وحصل عليها ضمن العراق، فهو الآن يُعبر عن ذاته ككردي عراقي، ويتمتع بشكل منصف بثروات العراق، وترسم له إدارته مخطّط حياته اليومية من الناحية الثقافية والتعليمية وبالرعاية الصحية وغيرها من الخدمات. أتاحت له الفدرالية أن يستظل بعلمين، علمه الكردي وعلم وطنه العراق، وفي هذا من الإنجاز الكثير.

سيبقى الخياران مفتوحين، البقاء ضمن العراق إقليمًا كرديًا متمتعًا بأقصى ما يقدمه الحكم الذاتي الفدرالي، أو الاستقلال وتحمّل تبعاته، وهنا سيكون للإقليم رأيه ومصالحه. لننتظرْ ... وَنَرَ.

X قلت للوفد العسكري التركي: «إنني أخشى أن تعانوا أنتم مثلما عانينا من حركات تمرد المسلحين الأكراد إذا لم تتحسبوا جديًّا منذ الآن، وأخبروا قيادتكم العسكرية بما قلته».

الملاحـــق

الملحق (أ)

القوات المسلحة العراقية التأليف والوضع العام في بداية الحرب

---

1 - بعد تشكيل أول حكومة وطنية بعد ثورة العشرين في العراق تقرر في 6 كانون الثاني/يناير 1921 تأسيس جيش عراقي وطني من 5000 مقاتل، وكان الفريق الركن جعفر العسكري، أول وزير للدفاع، وكان أول مقرّ للوزارة في قصر السيد عبد القادر الخضيري، وبعد شهر انتقلت إلى القشلة في بناية السرايا في باب المعظم على نهر دجلة.

2 - في 19 تموز/يوليو من العام نفسه شُكل الفوج الأول، وأُؤجّر خان الكربولي في الكاظميّة ليكون مقرًّا له، وسمّي بفوج موسى الكاظم، وكان جميع المنتسبين إليه من الضباط العراقيين الذين خدموا سابقًا في الجيش العثماني ومن الجنود المتطوّعين.

3 - في بداية تشرين الأول/أكتوبر من العام نفسه تشكل صنف المدفعية، وشُكلت أول بطارية مدفعية، وفي عام 1922 كان الجيش قد أصبح بحجم كتيبة خيالة، وبطاريتي مدفعية، وثلاثة أفواج مشاة. وفي عام 1923 أصبح عدد المنتسبين إلى الجيش 4500 رجل موزّعين على ثلاث كتائب خيالة، وستة أفواج مشاة.

4 - في الأول من نيسان/أبريل 1924 تقرر فتح المدرسة (الكلية في ما بعد) العسكرية الملكية، وفي 10 مايس [أيار/مايو] التحقت الدورة الأولى المؤلفة من 75 تلميذًا، وتقرر أن تكون الدراسة لمدة ثلاث سنوات، يتخرج المنتسب بعدها ضابطًا برتبة ملازم ثانٍ، وفي عام 1945 أصبحت تسميتها الكلية العسكرية الملكية، وفي عام 1928 تم تأسيس كلية الأركان العراقية.

5 - في عام 1928 تشكل صنف الهندسة العسكرية، وفي عام 1930 تَشكَّل الصنف المدرع، وفي عام 1927 أُرسل إلى إنكلترا عدد من الضباط البريين لدخول كليات الطيران في إنكلترا، وفي 22 نيسان/أبريل 1930 ولدت القوة الجوية العراقية بعد وصول خمس طائرات بقيادة طيارين عراقيين إلى بغداد من إنكلترا، وفي عام 1950 أُسّست كلية القوة الجوية.

6 - في آب/أغسطس 1937 شُكلت القوة النهرية (القوة البحرية في ما بعد)، وكانت تتألف من أربع سفن نهرية. في عام 1935 أُقر العمل بنظام الفرق حتى عام 1938 وكانت هناك فرقتان: الفرقة الأولى مقرها في مدينة

الديوانيّة جنوب العراق، والفرقة الثانية مقرها في مدينة كركوك شمال العراق. وفي عام 1941 كان الجيش العراقي مكونًا من أربع فرق تضم 45 فوجًا و34 بطارية مدفعية وقوة جوية صغيرة.

7 - بعد فشل ثورة 1941 جرى تقليص الجيش إلى فرقتي مشاة، ثم أعيد تشكيل الفرقتين الثالثة والرابعة، وكان الجيش العراقي في عام 1958 يتألف من أربع فرق مشاة، وكان مقرّ الفرقة الثالثة في مدينة بعقوبة شرق بغداد، والرابعة في مدينة الموصل شمال العراق، وتجهّزت القوة الجوية بطائرات فيوري في عام 1947، وفي منتصف الخمسينيات جُهزت بالطائرات النفاثة من الجيل الأول فينَم وفامباير، وكلها بريطانية الصنع.

8 - بعد ثورة 14 تموز/يوليو 1958 شُكلت الفرقة الخامسة مقرّها في البصرة جنوب العراق، وجُهّزت القوات المسلحة (البرية والجوية والبحرية) بالأسلحة والطائرات والقطع البحرية الشرقية الروسية المنشأ.

9 - بعد ثورة 17 تموز/يوليو 1968 جرى توسيع القوات المسلحة، وكان الجيش يتألف عشية الحرب العراقية - الإيرانية في عام 1980 من ثلاثة فيالق تضمّ عشر فرق، منها أربع مدرّعة (3 و6 و9 و10)، وفرقتا مشاة آلية (1 و5)، وأربع فرق مشاة (2 و4 و7 و8)، وكانت له قيادتا قوات: قيادة قوات ذي قار، وقيادة قوات زاخو، وقُلبتا إلى الفرقتين (11 و12)، وعدد من الألوية المستقلّة التي ارتبطت بفرق المشاة لأغراض العمليات في الشمال، وثلاثة ألوية قوات خاصّة، وثلاثة ألوية مغاوير للفيالق الثلاثة.

في بداية الحرب عام 1980 كان تعداد الجيش نحو 220 ألف رجل، ونحو 2000 دبابة من طُرز T54 وT55 وT62، وكان اللواء العاشر المدرع مجهز بدبابات T72 الحديثة، ونحو 1500 ناقلة مشاة مسرفة (مجنزرة) ومدولبة، و1000 مدفع مختلف العيار.

10. شاركت القوات المسلحة العراقية منذ بداية الثلاثينيات في حركات الأمن الداخلي وفي قمع العصيان الكردي في شمال العراق وتمرّد القبائل في جنوبه، وفي حركة مايس [أيار/مايو] 1941 (الحرب ضد بريطانيا)، وفي حرب فلسطين في عام 1948، وفي حربي 1967 و1973.

11 - القوة الجوية والدفاع الجوي: كانت تتألف من 26 سرب هجوم أرضي ودفاع جوي ونقل، وُزِّعت على 9 قواعد جوية وتوجد 15 شقة نزول (غير مجهزة للعمل القتالي).

أ - الطائرات المقاتلة

يبلغ عدد الطائرات المقاتلة 325 طائرة، كما يلي:

- 33 طائرة سوخوي 7- قاصفة خفيفة.
- 30 طائرة سوخوي 20- قاصفة خفيفة.
- 52 طائرة سوخوي 22- قاصفة خفيفة.
- 25 طائرة هنتر/ماك 6.
- 86 طائرة ميغ 21- طائرة متصدية.
- . 16 طائرة ميغ 21- طائرة استطلاع.
- 43 طائرة ميغ 23- قاصفة خفيفة.
- 25 طائرة ميغ 23- طائرة متصدية.
- 5 طائرات توبيلوف 16- طائرة قاصفة متوسطة.
- 10 طائرات توبيلوف 22- طائرة قاصفة متوسطة.

ب - طيران النقل

امتلك العراق نحو 50 طائرة نقل من الأنواع (أن 2، وأن 12، وأن 24، وأن 26، وإليوشن 76، ودوف، وهرن، وفالكون 20).

ج - الدفاع الجوي

ارتبط الدفاع الجوي بالقوة الجوية، وكان معاونًا لقائد القوة الجوية ويتألف من أربعة قواطع دفاع جوي، كما يلي:

(1) قاطع الدفاع الجوي الأول، مقره في معسكر التاجي 25 كلم شمال بغداد ومسؤوليته وسط وشرق العراق، وباتجاه العمق الإيراني.

(2) قاطع الدفاع الجوي الثاني، مقره في قاعدة الوليد غرب العراق ومسؤوليته العمق السوري والأردني وجزء من العمق السعودي.

(3) قاطع الدفاع الجوي الثالث، مقره في قاعدة علي قرب مدينة الناصريّة جنوب العراق ومسؤوليته العمق السعودي والكويتي وإيران.

(4) قاطع الدفاع الجوي الرابع، مقره في قاعدة الحرية في كركوك شمال العراق ومسؤوليته المنطقة الشمالية من العراق.

(5) بلغ إجمالي أسلحة الدفاع الجوي كما يلي:

(أ) 35 كتيبة مدفعية مقاومة الطائرات موجّهة.

(ب) 43 كتيبة مدفعية مقاومة الطائرات غير موجّهة.

(ج) 15 بطارية صواريخ أرض - جو محمولة على الكتف (ستريلّا).

(د) 12 بطارية رشاشات رباعية شيلكا.

(هـ) خمس كتائب صواريخ كفارات منقولة.

(و) 6 ألوية صواريخ (مؤلفة من 22 بطارية بيتشورا و10 بطاريات فولكا و250 رشاشة رباعية وثنائية وأحادية).

(ز) خُصصت للدفاع الجوي 7 أسراب من الطائرات المتصدية ميغ 21، وميغ 23.

د - طيران الجيش

قبل الحرب كان يرتبط بالقوة الجوية وكان الأسطول الجوي مؤلفًا من 250 طائرة سمتيّة (هليكوبتر) من الأنواع (مي 8، ومي 6، ومي 25، ومي 4، وكلها روسية، وطائرة ويسكس الإنكليزية، وألويت 3، وغازيل الفرنسية)، وفي بداية الحرب انفصل عن القوة الجوية، وأصبحت مديرية طيران الجيش ترتبط مباشرة بوزارة الدفاع.

12 - القوة البحرية: مقرّ قيادة القوة البحرية في مدينة البصرة، وتتألف من لواء زوارق صواريخ، ولواء صواريخ سطح - سطح، واللواء 440 مشاة بحرية، وكان عدد زوارق الصواريخ 8 من نوع أوسا الروسية المجهزة بصواريخ بي - 15، وأربعة زوارق من نوع لوبو، وثلاث سفن إنزال، وعدد من سفن الإدامة والإمداد وعدد من الهوفركرافت وزوارق دورية، ويبلغ عديدها نحو 7500 رجل.

الملحق (ب)
القوات المسلحة الإيرانية تأليفها ووضعها في بداية الحرب

1- في عام 1921 قاد قائد الجيش رضا شاه انقلابًا على الأسرة القاجارية الحاكمة في إيران، وتولّى منصب وزير الحرب، وفي عام 1923 تولّى منصب رئاسة الوزراء، وتولّى السلطة في عام 1926، وفي عهده تم تطوير القوات المسلحة الإيرانية بأفرعها الثلاثة الجيش والقوة الجوية والقوة البحرية، وعندما أجبره الحلفاء على التنازل عن الحكم في عام 1941 كان عدد القوات المسلحة الإيرانية 125 ألف رجل و400 ألف رجل في الاحتياط.

2 - عندما تولّى الشاه محمد رضا مقاليد الحكم خلفًا لوالده كان الجيش في أضعف حالاته بعد هزيمته أمام الحلفاء، ومع ذلك تمكَّن من إخماد الحركات الانفصالية في آذربيجان وكردستان في عام 1946. وفي عام 1952 اضُطر الشاه إلى قبول هيمنة رئيس الوزراء محمد مصدق الذي تولّى أيضًا وزارة الحرب. وفي عام 1953 قام الجنرال زاهدي بانقلابه على مصدق، واستعاد الشاه سيطرته على القوات المسلحة، فبدأ في عام 1955 بإعادة بناء القوات المسلحة وتنظيمها على أسس حديثة، وبمعدات متطورة، وفي عام 1972 كانت المشتريات الإيرانية من الأسلحة والمعدات العسكرية الحديثة، ومعظمها من الولايات المتحدة والدول الغربية، قد جعلت من إيران القوة المهيمنة في المنطقة، وفي الخليج العربي.

3 - بحلول عام 1977 كان عدد القوات المسلحة الإيرانية 415 ألف رجل، منها 285 ألف رجل للجيش نُظّموا في 10 فرق: أربع مدرعة، واثنتان حرس إمبراطوري، وأربع فرق مشاة ومشاة آلية، وأربعة ألوية مستقلة: اثنان مشاة، وواحد محمول جوًا، وآخر قوات خاصّة، واللواء المدرع المستقل 37. وطيران جيش يتألف من 500 طائرة سمتية مختلفة (هليكوبتر)، و60 طائرة ثابتة الجناح. أما القوة الجوية فكانت بتعداد 100 ألف رجل و24 سربًا مقاتلًا. وفي سلاح البحرية 30 ألف رجلٍ، يتألف من مدمرات وفرقاطات وسفن قتال وإنزال وكاسحات ألغام وزوارق دورية، إضافة إلى قوات الجندرمة بتعداد 75 ألف رجل.

4 - شاركت القوات الإيرانية في عدد من العمليات العسكرية خارج بلادها: في سلطنة عُمان عند مقاتلة معارضي السلطان قابوس من الثوار الذين كانت تقودهم الجبهة الشعبية في جبال ظفار في عام 1969 -

1971، وأرسل الشاه قواته إلى باكستان في عام 1973 لمقاومة الحركات الانفصالية لبلوش باكستان المجاورين لبلوش إيران.

5 - كان للجيش الإيراني 1850 دبابة من الأنواع M47 وM48، وM60 الأميركية، ودبابات تشيفتن البريطانية، ونحو 500 دبابة خفيفة من نوع سكوربيون، وأكثر من 1000 مدفع مختلف العيار.

6 - عدد الطائرات المقاتلة في القوة الجوية الإيرانية 475 طائرة: 186 F5 و209 F4، و80 F14، وكان لديها أيضًا ست طائرات أوريون للدوريات البحرية، و64 طائرة نقل C130، و15 طائرة نقل أشخاص ونقل وقود للتزويد بالوقود جوًا من نوع بوينغ 707، وست طائرات من نوع 747، و22 طائرة نقل جنود من نوع فوكر 600، وفوكر 400، وثلاث طائرات روكول متعددة الأغراض، وطائرات نقل أخرى خفيفة، و200 طائرة سمتيّة مختلفة الأنواع تابعة للقوة الجوية.

7 - كانت قواتهم الجوية وطيران الجيش موزعيْن على عشر قواعد جوية:

- قاعدة شيراز: ثلاثة أسراب مقاتلة، وسربا نقل، وسرب بحث وإنقاذ، وسرب إسناد.

- قاعدة خاتمي في أصفهان: سربان مقاتلان، وسرب بحث وإنقاذ، وسرب إسناد.

- قاعدة بندر عباس الجوية: سرب مقاتل، وسرب دوريات بحرية أوريون، وسرب بحث وإنقاذ، وسرب إسناد.

- قاعدة جبهار الجوية: ثلاثة أسراب مقاتلة، وسرب بحث وإنقاذ، وسرب إسناد.

- قاعدة بوشهر الجوية: ثلاثة أسراب مقاتلة، وسرب بحث وإنقاذ، وسرب إسناد.

- قاعدة أغاجاري: ثلاثة أسراب مقاتلة، وسرب بحث وإنقاذ، وسرب إسناد.

- قاعدة شاهروخي في همدان: أربعة أسراب مقاتلة، وسرب بحث وإنقاذ، وسرب إسناد.

- قاعدة تبريز الجوية: ثلاثة أسراب مقاتلة، وسرب بحث وإنقاذ، وسرب إسناد.

- قاعدة طهران: ثلاثة أسراب مقاتلة، وسرب استطلاع، ثلاثة أسراب نقل، وسربا تزويد بالوقود جوًا، وسرب بحث وإنقاذ، وسرب إسناد.

8 - القوة البحرية، وتتوزع على 7 قواعد بحرية:
- بندر عباس، مقرّ القيادة والأسطول الأول للخليج «الفارسي».
- بوشهر، الأسطول الثاني للخليج «الفارسي» قاعدة وحدتي في ديزفول: ثلاثة أسراب مقاتلة، وسرب بحث وإنقاذ، وسرب إسناد.
- بندر بهلوي، الأسطول الشمالي والقاعدة التدريبية.
- شاه بهار، قاعدة الخدمات.
- جزيرة هيجام، وبندر شاه نور.

وعدد السفن: ثلاث مدمرات وسفينة قتال بريطانية الصنع مع صواريخ سي كات مقاومة للطائرات، وأربع فرقاطات مع صواريخ سي كات مقاومة للطائرات، وسي كيلر سطح - سطح، وأربع فرقاطات أميركية الصنع من نوع كورفيتس، وسبع سفن دورية كبيرة، وخمس سفن دورية مجهزة بصواريخ موجّهة، وخمس كاسحات ألغام، وسفينتا إنزال معدات، وسفينتا إنزال متعددتا الأغراض، وسفينتا إسناد إداري، وثمانية هوفر كراف من نوع اس ار ان، وستة هوفر كرافت من نوع ويلنكتن، وعدد رجال البحرية 30000.

9 - بعد سقوط الشاه أُعدم وسجن المئات من القادة وكبار الضباط، وغادر إيران الخبراء الغربيون الذين كانوا يعملون في القوات المسلحة، كما خفّضت حكومة النظام الجديد فترة التجنيد الإجباري إلى النصف، الأمر الذي أتاح لنحو 40 - 60 في المئة من أفراد الجيش الموالي للشاه ترك الخدمة، وأوقفت الولايات المتحدة شحنات قطع الغيار كلها بعد احتلال الطلبة السفارة الأميركية في طهران، وتوقفت التمارين المشتركة لمعظم أسلحة الجيش، وأصبح ما يُقدّر بـ 30 في المئة من معدات الجيش، و50 في المئة من طائراته، و60 في المئة من طائراته السمتيّة غير صالح للعمل ميدانيًّا عندما اندلعت الحرب. وأدت حملات التطهير التي قام بها النظام إلى فقدان 25 - 40 في المئة من ضباط الجيش والقوة الجوية.

10- في عام 1980 كان عدد أفراد القوات المسلحة بعد تقليصها في إثر سقوط الشاه قد بلغ 240 ألف رجل، منهم 150 ألفًا في القوات البرية، و70 ألفًا في القوات الجوية، و20 ألفًا في القوات البحرية إضافة إلى قوات الجندرمة، وفي الوقت ذاته شكّل النظام قوات حرس الخميني (الباسدران)، وكان عددهم عند اندلاع الحرب نحو 30 ألف رجلٍ، أعدّوا خططًا لإعداد مئات الألوف من الباسدران (حرس الخميني) والمتطوِّعين (الباسيج).

الملحق (ج)

القوات المسلحة العراقية في العام الأخير من الحرب (1988)

بلغ عدد القوات البرية في العام الأخير من الحرب أكثر من مليون رجل، وفي ثمانية فيالق (من ضمنها الفيلق الأول الخاصّ من الضباط المتقاعدين، وكان مؤلفًا من ثلاث فرق مشاة، ولواءي مغاوير، ولواء مدرع)، وما يعادل 57 فرقة مدرعة وآلية ومشاة، إضافة إلى الحرس الجمهوري الذي كان تعداده نحو 150 ألف رجل في ست فرق مدرعة وآلية ومشاة وقوات خاصّة، وأربعة ألوية مغاوير، وكان هناك أكثر من 4500 دبابة، وأكثر من 2500 ناقلة أشخاص مدرعة، وأكثر من 2500 مدفع مختلف العيار. وبلغ ما تملكه القوة الجوية أكثر من 625 طائرة مقاتلة، في 15 سرب طائرات هجوم أرضي، و12 سرب طائرات متصدية (دفاع جوي)، و4 أسراب ميراج 1 الفرنسية متعددة الأغراض، وسربا طائرات استطلاع، وبلغ عدد الطائرات السمتيّة لطيران الجيش أكثر من 500 سمتيّة. كما تم تطوير وتحديث أسلحة ومعدات القوة الجوية لتحقيق التفوق النوعي على العدو، وتم تطوير سلاح الصواريخ أرض - أرض وتصنيعها.

الملحق (د)

القوات المسلحة الإيرانية في العام الأخير من الحرب (1988)

بلغ عدد أفراد القوات البرية في العام الأخير من الحرب 350 ألف رجل في القوات النظامية، و600 ألف رجل من (الباسدران) حرس الخميني، و600 ألف رجل من المتطوِّعين (الباسيج). وانخفض عدد أفراد قواتهم المدرعة إلى أقل من 1000 دبابة، و950 ناقلة أشخاص مدرعة، و1000 مدفع متنوع العيار، وأصبحت قوتهم الجوية أقل من 100 طائرة مقاتلة في الخدمة.